جغرافية أوروبا

دراسة موضوعية

تأليف

دكتور حسن عبد العزيز أحمد

أستاذ مشارك - كلية الآداب - جامعة الرياض



الرياض - ص.ب ١٠٧٢٠

المحتويات

الفصل الأول

نشأة فكرة "أوروبا القارة"

نشأة فكرة أوروبا القارة :

عرفت أوروبا بأنها قارة . وليس هناك دليل بيّن بذاته وراء هذه التسمية أو ما يؤيد هذا القول لأن أوروبا – من حيث جغرافيتها الطبيعية – ما هى الا امتداد غربى لقارة آسيا التى تكبرها أربع مرات فى المساحة . ولم يفهم المؤرخ اليونانى هيرودوت لماذا يطلق معاصروه اسم « قارة » على أوروبا أو لماذا يميزون ثلاث قارات – أوروبا وآسيا وليبيا (أفريقيا) – على أرض كان يعتبرها مساحة متصلة من اليابس . أما الاسكندر همبولدت فقد اعتبر أوروبا جزءا من كتلة يابس أسماها « أوراسيا » فى حين أن هاسينجر الألمانى وهالفورد ماكيندر البريطانى قد أيدا فكرة الكتلة الواحدة التى أطلق عليها الأخير اسم جزيرة العالم أو الجزيرة العالمية التى تتكون من أوروبا وآسيا وأفريقيا .

ولذلك لابد أن نعرف كيف نشأت هذه الفكرة ... وكيف اكتسب هذا الجزء الصغير من قارة آسيا صفة القارية . فهذه المعرفة مهمة إذا أردنا أن نتجنب الارتباك الذى يحدث عندما نتكلم عن أوروبا ، لأن هناك عدة أوروبا فى قواميس ومعاجم الجغرافيين والسياسيين والصحفيين وغيرهم يمكن حصرها فى الآتى :

١ – أوروبا التى تمتد غرب جبال الأورال .

٢ – أوروبا التى تقع غرب ما يسمى بالستار الحديدى .

٣ – أوروبا التى تضم ١٨ دولة المنضمة إلى المنظمة الأوربية للتعاون الاقتصادى .

٤ – أوروبا الصغرى التى تتكون من أعضاء مجموعة الحديد والصلب الأوربية والسوق الأوروبية المشتركة .

نشأت فكرة أوروبا كقارة حوالى القرن الخامس قبل الميلاد عند الإغريق القدماء

الذين كانوا يعتبرون العالم المعروف لديهم ثلاثيا أى يتكون من ثلاثة أجزاء ، أوروبا وآسيا وليبيا . ورغم أن البيثغوريين بعدهم بقرن كامل تصوروا عالما دائريا فان الفكرة التى تقول بأن الأرض قرص محاط بالبحر المحيط ومقسمة الى ثلاث قارات تشبثت بأدهان الكثيرين واستمرت حتى إلى العصور الوسطى متمثلة فى تلك الخرائط المسماة ب Tin O التى ظهر فيها كل من أوروبا وليبيا (أفريقيا) فى شكل مقطع رباعى يحجزهما البحر الأبيض المتوسط من النصف الآخر أو آسيا (الشكل١) .

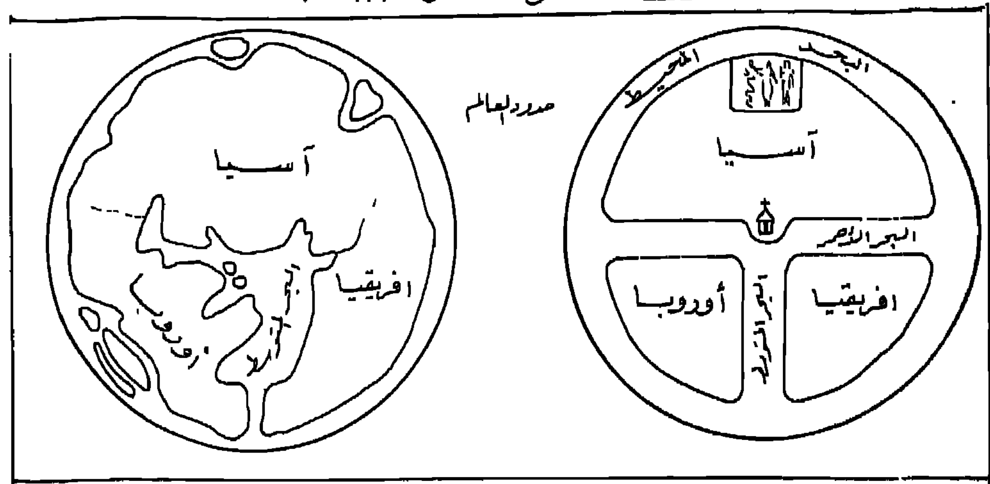
أما عن الكلمة « أوروبا » فقد كان مفهوما منذ زمن بأنها مشتقة من الكلمة السامية « ارب Erib » وتعنى « أرض الغروب » أو الأرض الواقعة فى الغرب لتمييزها عن « آسيا Asu » التى كانت تقع ما وراء بحرى ايجه والأبيض المتوسط وتعنى « أرض الشرق » أو « أرض الشروق » . وحديثا ظهر اشتقاق أغريقى لمعنى كلمة « أوروبا » يقول بأنها تعنى « ذات الوجه العريض Broad - Faced أو الأرض الواسعة » وقد يكون الأغريق قد أطلقوا هذا التعبير للمناطق الشاسعة التى كانت تقع إلى الشمال من موطنهم الضيق والمحصور فى وحول بحر ايجه المكون من جزر وأشباه الجزر .

أما الاغريق فقد كانت معلوماتهم الجغرافية عن أوروبا وخاصة الأقاليم الشمالية والغربية منها ناقصة وسطحية ، وحتى الرحالة المشهور هيرودوت لم تتعد معلوماته تلك المناطق القريبة مثل البحر الأسود وبحر أزوف فى حين أن الحواجز الجبلية والغابات وبرودة الشتاء فرضت عزلة بين داخل أوروبا وبين منطقة البحر الأبيض . أما غرب وشمال أوروبا فقد كان معزولا تماما قبل رحلة بايثيس المارسيلى عام ٣٠٠ ق .م .

ووقع على عاتق الرومان اكتشاف هذه المناطق النائية من القارة فأثناء غزواتهم البرية استطاع الرومان أن يخضعوا تحت سيطرتهم ليست بريطانيا فحسب بل اكتشفوا وفتحوا أجزاء كبيرة من أوروبا الداخلية وامتد نفوذهم الى ما وراء الراين والدانوب وظهرت شبه الجزيرة الاسكندناوية فى خريطة بطليموس المشهورة كجزيرة .

وهكذا وبهذا المفهوم الغامض ظلت « أوروبا » فكرة تراود أذهان قليل من

نسختان لخرائط T in O



الحدود الشرقية لأوروبا

البحر الأبيض
ارشانجل
نهر أوب
نهر ارتيش
لينينجراد
موسكو
نهر الدون
نهر اورال
بحر آرال
منخفض مانيتش
القوقاز
البحر الأسود
باتوم

الحدود في العصور القديمة
الحدود في القرن السابع عشر (كلوفر)
،، ،، ،، ١٨ (استراهلنبرج بالاتباع)
حدود فيليبسون
٥٠٠ ميل

شكل (١)

العلماء والفلاسفة والكتاب وصانعى الخرائط ثم تبنى اليهود فكرة العالم الثلاثى من الاغريق القدماء وادعوا أن أوربا استعمرت بواسطة سلالة يافث بن نوح . أما بالنسبة للرومان فان اسم أوروبا لم يكن يعنى الكثير لهم ، فقد كان لهم عالمان : العالم الرومانى المتحضر والعالم البربرى المتأخر والواقع خارج نطاق الامبراطورية .

أما فى العصور الوسطى وخاصة بعد أن وجدت الشعوب المسيحية نفسها محاطة بأقطار مسلمة ، فقد برزت فكرة أوروبا كوحدة اقليمية وخاصة بعد الحرب الصليبية التى أعطت القارة مفهوما واضحا كمعقل للمسيحية . ولكن حتى هذه الوحدة كانت مؤقتة فقد كانت هناك اختلافات الجنس واللغة والدين وطرق المعيشة والتاريخ تشجع الانقسام وخاصة بعد ظهور حركة الإصلاح الدينى وبروز القومية وظهور الفاشية والشيوعية والتى أدت إلى تبعثر فكرة أوروبا المبنية على الايدولوجية والسياسة المشتركة . وفى خلال الثلاثمائة سنة الأخيرة شهدت أوروبا انهيار امبراطورياتها وتلاشت الفكرة الأساسية لوحدتها .. وهكذا وتدريجيا أصبحت أوروبا تعبيرا جغرافيا أكثر من كونها تعبيرا سياسيا أو دينيا .

ويمكن أن نقيم أوروبا تقييما صحيحا من ناحية تأثيرها على العالم الخارجى ، فالمعروف أن أوروبا لعبت دورا قياديا فى الشئون العالمية وفى ابتكار ونشر ما يسمى بالحضارة الغربية ، وذلك عن طريق : الاكتشافات الجغرافية واستعمار مناطق ما وراء البحار واستغلالها اقتصاديا ، والمنجزات الهامة فى ميدان العلوم والفنون والتكنولوجيا .

٢ - أوروبا ككيان بشرى :

على الرغم من أن أوروبا ليست بقارة بالمعنى الجغرافى المفهوم ولا تملك الشخصية المبنية على أسس جغرافية طبيعية ، فان فكرة الوجود الأوروبى ككيان منفصل أصبحت حقيقة واقعة . فخطط الدراسة فى كل جامعات العالم تعج بمقررات تتناول جغرافية وتاريخ أوروبا . وتفسير هذه الظاهرة يتطلب تعليلا أعمق من كونها مجرد اعتقاد خاطىء للاغريق دام حتى الآن . فأوروبا كينونة بشرية أكثر من وجود قوامه الجغرافية الطبيعية ويمكن أن نبحث عن مميزاتها فى صفات سكانها

بدلا من بيئتها الطبيعية لأن أوروبا هى فى الأصل « حضارة » تحتل « منطقة حضارية » . والحضارة Culture يمكن تعريفها باختصار بأنها مجموعة البشر التى تملك العديد من المميزات أو الصور الاعتقادية والسلوكية وطريقة حياة تتضمن أيدلوجية وتكنولوجيا ومؤسسات اجتماعية وممتلكات مادية . أما تعبير « منطقة حضارية » Culture Area فيعنى أى منطقة كبيرة متصلة عادة ويسكنها بشر ذوو حضارة خاصة أو أرض تجسدت عليها البصمات الظاهرية لهذه الحضارة .

وخلال تلك الفترة الطويلة التى كانت فيها أوروبا تنظر كقارة منفصلة كانت القارة تتطور وتتوسع أيضا كمنطقة حضارية . وقد كان هذا الانتقال من « الكينونة الطبيعية » الى « الكينونة البشرية » تدريجيا . فمع تلاشى فكرة « أوروبا البرزخ » فى القرن السادس عشر ، كانت فكرة « أوروبا البشرية » قد قطعت مرحلة طويلة فى تطورها . ولعل تطور هذه المنطقة الحضارية التدريجى يفسر لنا أولا تلك المحاولات من قبل العلماء لايجاد حدود مقبولة لأوروبا من ناحية الشرق ، ثم لماذا بقيت فكرة « قارة أوروبا » حية فى الأذهان رغم وجود أدلة دامغة مناقضة لها . أما رسامو الخرائط الذين كانوا يعرفون الاختلاف بين قارتى آسيا وأوروبا فقد حاولوا تأكيد هذه الفكرة وتجسيدها فى خرائطهم .

وعموما يمكن تحديد « منطقة الحضارة الأوروبية » بأنها المنطقة التى تطابق تلك الأجزاء من العالم القديم حيث نجد الناس :

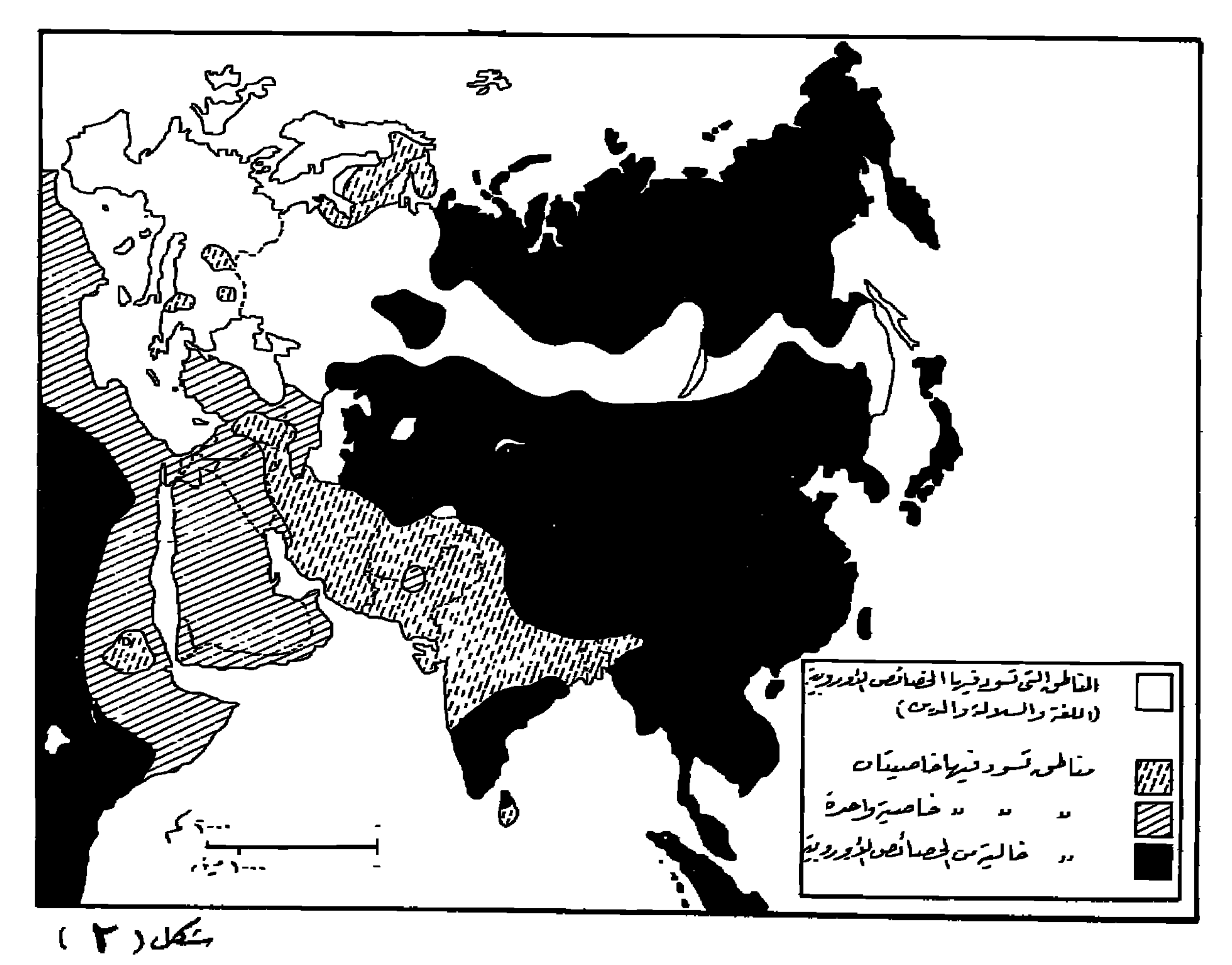
١ – يؤمنون بالمسيحية .

٢ – ويتكلمون إحدى اللغات المتصلة باللغات الهندية الأوروبية .

٣ – وينتمون إلى السلالة القوقازية . (الشكل ٢) .

وأينما وجدت هذه الصفات الثلاثة مجتمعة فى نصف الكرة الشرقى فالنتيجة هى « أوروبا » . وخلف الصحراء الكبرى تسود السلالة الزنجية والأديان القبلية (الأرواحية) أو الإسلام واللغات التى تنتمى إلى المجموعة البانتوية . وحتى دول شمال أفريقيا التى تطل على السواحل الجنوبية للبحر الأبيض لا يمكن أن نطلق عليها صفة « الأوربية » رغم أن سكانها قوقازيون مثل سكان أوروبا وذلك لأن معظم السكان

حدود أوروبا وفق خصائص اللغة والسلالة والدين



شكل (٣)

يدينون بالاسلام ويتكلمون لغات سامية وحامية . أما فى جنوب وشرق أوراسيا فنجد مناطق حضارية أخرى ينتمى معظم سكانها إلى السلالة المغولية ويدينون بالبوذية والكنفوشية ويتكلمون لغات صينية وتبتية ، فى حين أن شمال الهند وإيران وباكستان وأفغانستان يمكن أن نقول إنها تملك بعض السمات الأوربية ولو أنها تفتقر إلى ذلك العنصر الهام ألا وهو التراث المسيحى .

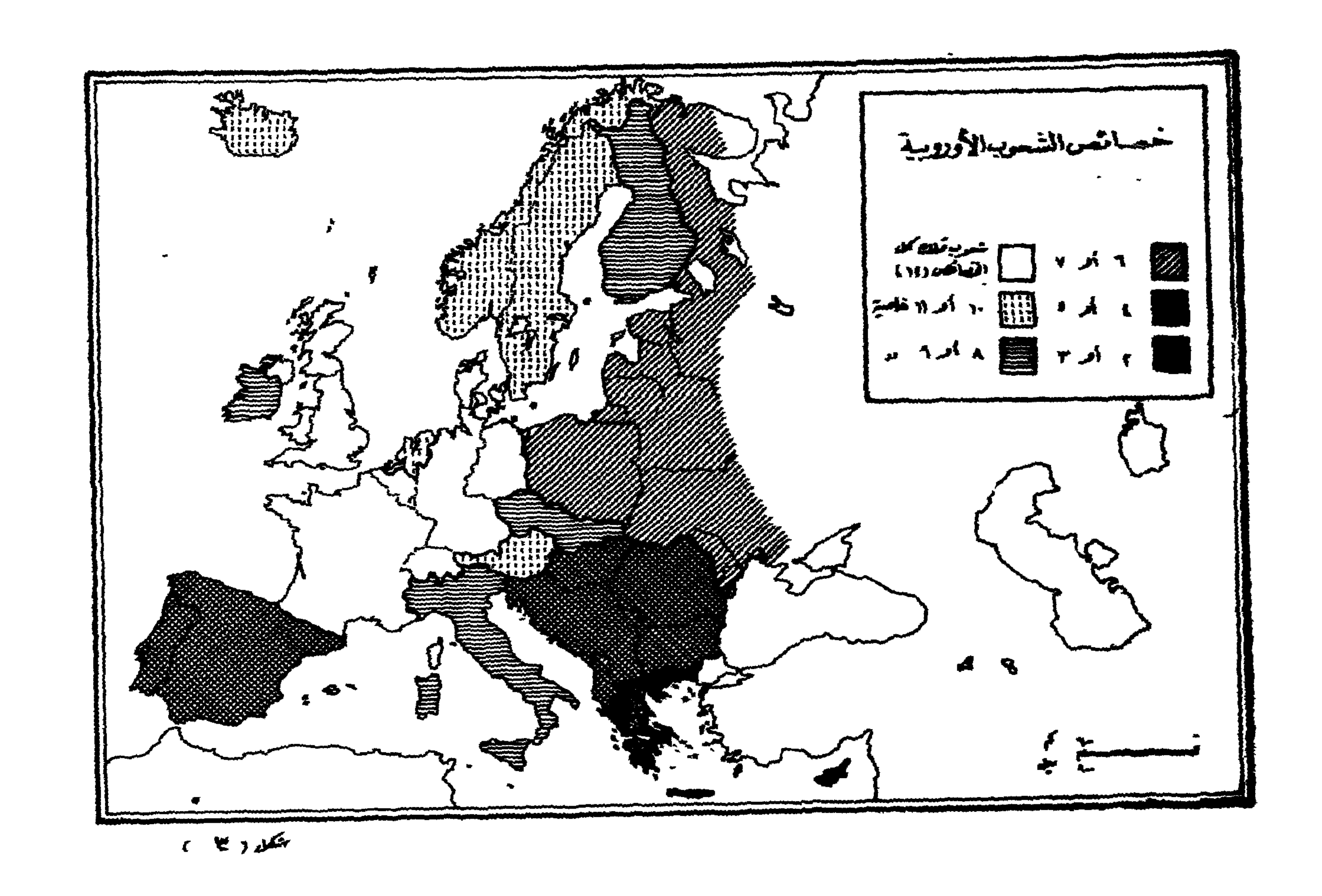
ولأن أوربا تستمد كيانها من شعوبها وحضارتها فقد تعرضت إلى كثير من التغييرات المستمرة وإذا أردنا أن نضع تعريفا مفصلا لأوروبا الحالية فقد يستدعى ذلك إدراج سمات إضافية كانت فى الحقيقة ليست موجودة أو غريبة عن أوروبا قبل ثلاثمائةسنة فقط . ولكن من المؤكد أن السمات الثلاث الرئيسية بقيت حتى اليوم وهى الخصائص الأساسية للسلالة واللغة والدين وإن كانت المسيحية قد تقلصت من مناطق عديدة من أوروبا اليوم ولكن يمكن أن نميز أوروبا الحديثة بالصفات الآتية : (الشكل ٣) :

١ - النسبة العالية للمتعلمين :

تتميز أوربا بالنسبة العالية للمتعلمين من سكانها ، فلا غرابة فى ذلك لأن الحضارة الأوروبية تضع أهمية قصوى للكتابة . وكانت النتيجة أن أكثرمن ٩٠٪ من الأوروبيين فى معظم أقطار القارة متعلمون حتى أن بعض الأقطار يجعل من عدم التعليم جرما غير شرعى . وفى ألمانيا الغربية على سبيل المثال يستطيع ٩٩٪ من سكانها القراءة والكتابة فى حين أن دولة مثل مراكش لا تتعدى نسبة المتعلمين من سكانها أكثر من ٤٠٪ وأن شخصا واحدا فقط من خمسة أشخاص فى الهند يستطيع القراءة .

٢ - المستوى الصحى العالى :

يتوقع معظم الأوربيين عند الولادة أن يعيشوا لما بين ٦٠و٧٥ سنة كما فى هولندا مثلا حيث يعيش الرجل فى المتوسط إلى عمر الواحد والسبعين فى حين أنه فى الجزائر يعيش الرجل إلى نصف حياة الهولندى . ومقياس آخر للحالة الصحية عند الشعوب



شكل (٣)

يتمثل فى نسبة الوفاة بين الرضع .. أى عدد الأطفال فى كل ١٠٠٠ طفل الذين لا يعيشون إلى السنة الأولى من عمرهم . ففى السويد تصل هذه النسبة إلى ١٣ فى الألف فى حين أنها تصل إلى ٧٤ فى الألف فى تونس ، ١١٣ فى الالف فى غانا وإلى ١٤٦ فى الهند .

٣ - المستوى العالى للتغذية :

إذا أخذنا فى اعتبارنا متوسط ما يأخذه الأوروبى من السعر الحرارى فى اليوم فنجد أنه أعلا بكثير من المتوسط للعالم ولا توجد أمة أوروبية يقل فيها هذا السعر اليومى عن الحد الادنى الموصى به للنمو الصحى للانسان ... وذلك على عكس دول أفريقيا وآسيا حيث يمثل سوء التغذية المشكلة الأساسية التى تواجه عالمنا اليوم .

٤ - النسبة المنخفضة للمواليد والوفيات :

تمارس شعوب أوروبا المتعلمة عملية تحديد النسل فى حين أن التسهيلات الطبية المدهشة قد ساعدت كثيرا فى الحد من نسبة الوفيات .. حتى أن بعض الشعوب قد استقرت فى أو ثبتت عند نمو سكانى محدد فى حين أن عدد السكان قد تقلص فى بعضها . ومثلا نجد أن نسبة الزيادة السكانية فى الدنمارك واليونان لا تتعدى ٧ر.٪ أى أقل من نسبة الزيادة فى بعض دول آسيا بالنصف وثلث الزيادة فى الباكستان وزائيرى وأندونيسيا .

٥ - متوسط الدخل القومى السنوى للفرد أعلا من المتوسط للعالم :

يكسب الأوروبى ما يكفيه من دخل لا لسد ضروريات الحياة فقط بل لشراء كثير من الكماليات ولذلك فهو يتمتع بمستوى معيشى عال حسب تقاليد ومفهوم الحضارة الغربية . ويبلغ الدخل القومى للفرد فى سويسرا أكثر من ٢٤٠٠ دولار ، وفى بلجيكا أكثر من ١٨٠٠ دولار وفى أسبانيا ٧٤٠ دولار ، أما فى مراكش فيصل ١٨٦ دولار للفرد وفى الصين الوطنية ٢٧٠ دولار ، وفى السودان ١٩٧ دولارا فقط .

٦ – نسبة التحضر العالية :

يسكن معظم الأوربيين فى المدن : فثلاثة أرباع سكان ألمانيا الغربية يقطنون المدن و٨٢٪ من سكان بريطانيا وأكثر من ٦٠٪ من سكان فرنسا . وعلى سبيل المقارنة نجد أن ١٣٪ فقط من سكان الصين يقطنون المدن و١٤٪ من سكان الهند و ١/٤ سكان كل من تركيا والجزائر.

٧ – اقتصاد صناعى :

وصلت الصناعة الأوروبية مرحلة عالية من التطور وتسود الصناعة على باقى القطاعات الأخرى فى حين أن الزراعة هى القطاع السائد فى دول أفريقيا وآسيا ويمثل المزارعون ١/٤ سكان أوروبا الغربية فى حين أن نسبة السكان الذين يمارسون الزراعة فى الصين والهند تبلغ ٧٠٪ من سكانها (انظر الجزء الخاص بالزراعة) .

٨ – إنتاج زراعى موجه للتسويق :

ينتج معظم المزارعين الأوربيين لغرض تسويق محصولاتهم فى المراكز الحضرية والصناعية المنتشرة فى ربوع القارة .

٩ – وسائل نقل متطورة :

تخترق أوربا شبكة من السكك الحديدية والطرق البرية والقنوات والأنهار والأنابيب والطرق الجوية إلى درجة يمكن القول بأن المناطق النائية والمنعزلة قليلة جدا بالمقارنة مع باقى القارات . وتملك المملكة المتحدة وفرنسا ما بين ٣٧٠و٤٣٠ كيلو مترا من الطرق الرئيسية و١٦ الى ٣٢ كيلو مترا من السكك الحديدية لكل ٢٦٠ كيلو متر مربع من مساحتها . وللمقارنة فالصين الشعبية تملك ٦ كيلو مترا من الطرق الرئيسية وحوالى ١ كيلو متر من السكك الحديدية لكل ٢٦٠ كيلو متر مربع من مساحتها .

١٠ – أمم عريقة :

معظم دول أوروبا ذات تاريخ عريق يرجع إلى قرون عديدة . ينظر كثير من

الأوربيين إلى حضارتهم نظرة فخر واعجاب ويعتبرونها أكثر الحضارات تفوقا حسب تقييمهم للحضارة والرق .. وهم فى نظرتهم هذه لا يشذون من نظرة أية أمة لحضارتها .

وليس لزاما علينا أن نقبل فكرة التفوق الأوروبى ولكن من الأهمية بمكان أن نعرف بأن أوروبا منطقة حضارية متميزة تختلف عن باقى أجزاء العالم القديم . وفوق كل شيء فإن أوروبا هى موطن الحضارة الغربية التى كانت وما زالت مركزا للتغيير والابتكار . وأية فكرة « عظيمة » هى التى – بصرف النظر عن ميزاتها ومساوئها – تحدث تغييرات أساسية فى العالم وقد كانت أوروبا مصدرا لمثل هذه الأفكار التى بدلت أو غيرت فى أسلوب حياة البشرية فى الألف سنة الأخيرة .

ويمكن أن نلخص هذه الإنجازات والابتكارات العظيمة فى الآتى :–

فكرة الديمقراطية التى ترعرعت فى اليونان القديمة وانتشرت منها إلى أجزاء أوروبا الأخرى . كما أن أوروبا شهدت أيضا أنواعا من الحكم الاستبدادى مثل النازية والفاشية وأخيرا الشيوعية التى انتشر نفوذها إلى خارج القارة . ثم كان عصر الاكتشاف العظيم حين انتشر الأوروبيون يكشفون العالم الجديد وزرعوا فيه حضارتهم ، وفى أوروبا تم اختراع المطبعة وطورت فكرة كروية الأرض ، وفيها انبثقت الثورة الصناعية بإنجازاتها الرائعة وآثارها الواسعة . أما الجانب السلبى لهذه الحضارة فقد ظهر فى استعمار شعوب العالم وممارسة نظام « ابادة الشعوب والطوائف » وسياسة « التهجير الجبرى » للشعوب وأخيرا استخدام قوانين الحركة والجاذبية « لنيوتن » و « نظرية النسبية » وحقائقها العلمية فى مجالات مدمرة مثل الأسلحة الفتاكة وأساليب الدمار الأخرى التى تظهر حاليا فى الحروب . وأخيرا مشكلة التلوث البيئى التى تعانى منها الدول الصناعية .

وبصرف النظر عن الأضرار والفوائد الناجمة عن هذه الأفكار والمخترعات الاوروبية فالحقيقة تشير الى أن سكان أوروبا تركوا آثارا كبيرة على العالم أكثر من أية مجموعة بشرية أخرى . وهذه الحضارة هى التى تضفى على أوروبا تلك الصفات المميزة التى جعلت منها قارة عظيمة رغم صغر مساحتها .

٣ – حدود أوروبا الجغرافية (الشكل ١) :

قد يبدو غريبا أن حدود أوروبا ظلت مبهمة وغير مؤكدة لفترة طويلة رغم قدم الاستيطان فيها . وقد ناقش البعض بحق أن تضم أوروبا من ناحية جغرافية الأماكن الهامشية من شمال أفريقيا وشرق حوض البحر الأبيض المتوسط التى تتمتع بخصائص بنيوية مشتركة متمثلة فى البيئة الطبيعية وخاصة المناخ فضلا عن تلك العلاقات السياسية والاقتصادية التى ربطت هذه المناطق بأوروبا منذ أقدم العصور .

أما تحديد الحدود الغربية لأوروبا فقد اكتنفه بعض المشاكل ، لأن أوروبا كما كتب وزير الخارجية البريطانية جورج كاننج « تمتد إلى سواحل المحيط الأطلسى حيث تقع إنجلترا » . وهذا الرأى يذكرنا بأن إنجلترا لها ارتباطات دولية كعضوة رئيسية فى اتحاد الكمونولث رغم أنها جغرافيا جزء من قارة أوروبا . وكذلك نجد أن أيسلندا رغم موقعها الجغرافى البعيد تعتبر جزءا من أوروبا وذلك نظرا لارتباطاتها الحضارية مع دول اسكندناوة فى حين أن جرينلندة التى لها علاقات ثقافية وتاريخية مع الدنمارك وجزء منها تعتبر جزءا من أمريكا الشمالية لقرب موقعها من تلك القارة .

أما الحدود الشرقية لأوروبا فهى أقل تحديدا إلا فى المنطقة التى تفصل فيها مضايق البوسفور والدردنيل إقليم جنوب شرق أوروبا من آسيا الصغرى . أما إلى الشمال من البحر الأسود فهناك عدة حدود اقترحت فى فترات متفرقة لتقسيم أوراسيا إلى أوروبا وآسيا .

فهيرودوت مثلا اختار المجرى الأدنى لنهر فاسيس Phasis (نهر ريون Rion حاليا) والذى ينبع من جبال القوقاز ويصب فى البحر الأسود كحد شرقى لأوروبا . ولكن الاغريق استبدلوا هذا النهر بنهر الدون Don وبحر أزوف كحدود شرقية لأوروبا . وقد ظلت هذه الحدود مستخدمة لمدة طويلة ، فنهر الدون الذى يجرى عبر سهوب الاستبس يقسم السهل الروسى العظيم إلى قسمين : قسم يقع داخل أوروبا وجزء خارجها وهكذا وجدت الدولة الروسية نفسها مقسمة الى قسمين بهذه الحدود : قسم أوروبى وقسم خارج أوروبا .. وقد استمر هذا الوضع لروسيا مما حدا

بدستوفسكى إلى القول بأن على روسيا « أن تكون وحدة ليس داخل أوروبا بل فى وجه أوروبا » .

والخريطة المرفقة توضح بعض الحدود المقترحة لأوروبا من ناحية الشرق فى وقتنا الحاضر فقد كان هناك ميل الى زحزحة هذه الحدود الى شرق نهر الدون ولكن دون أن تتعدى بحرازوف . ولقد لعبت المعالم الجغرافية دورا فى اختيار هذه الحدود الشرقية لأوروبا مثل منخفض مانيش Manych Depression والمجرى الأوسط لنهر فولجا ونهرى كاما وأورال وأخيرا المنحدرات الشرقية لجبال الأورال . وهناك حدود أخرى تقع إلى الغرب من هذه الحدود الأخيرة وتتخذ مستنقعات بريبت Pripet Marshes والتى تقع فى بلروسيا السوفيتية كحد لها – وقد دافع الجغرافى الفرنسى جاك آنسل الذى اختار هذه الحدود بأنه إلى الشرق من هذه المستنقعات تسود آسيا بضخامتها ومناخها ومظاهرها الأرضية . أما هالفورد ماكيندر فقد كتب فى عام ١٩١٨ يقول بأن أوربا «الحقيقية» أو «الآهلة بالسكان» كانت تمتد وعلى الأقل قبل هذا القرن شرقا حتى ذلك الخط المستقيم الذى يربط بين بتروجراد (لينن‌غراد حاليا) وكازان ، ثم ينحنى بين كازان والبحر الأسود حيث يجرى على طول نهرى فولجا والدون ، فالى الشرق من هذه الحدود تبدأ مجاهل آسيا الوسطى على حد قول ماكيندر .

وبالاختصار فقد قبل الجغرافيون حدودا شرقية لأوروبا كتلك التى اقترحها الجغرافى الألمانى ماخاتشك Machatschek وهذه الحدود لا تعطى أى اعتبار للحدود الداخلية والخارجية للاتحاد السوفيتى . ورغم تشعب مسألة تحديد حدود أوروبا عبر الأجيال فقد أصبحت أوروبا حقيقة واقعة . فأوروبا جزء دائم من العالم الآهل بالسكان وقد برهنت على أنها من أحسن المناطق سكنا تماما كالشرق الأقصى وجنوب آسيا وشمال شرق أمريكا الشمالية ، مما جعلها منطقة حضارية لها وزنها فى عالم اليوم .

٤ – الامتداد الإقليمى لأوروبا كمنطقة حضارية (الشكل ٢) :

كما استعرضنا من قبل فكرة قارية أوروبا ونشأتها وحدود أوروبا الحالية من ناحية

الجغرافية الطبيعية .. وقلنا إن هذه الحدود الجغرافية لم تنل رضاء الجميع .. فهل يمكن أن نحدد القارة الإقليمية من الناحية الحضارية ؟

إذا سلمنا بالرأى القائل بأن أوروبا تدين بوجودها لكونها منطقة حضارية أكثر من كونها وحدة جغرافية ، فإن علينا أن نحدد النقطة الأساسية من هذه الوجهة ألا وهى أن أوروبا ليست لها حدود واضحة ومن العبث أن نرسم خطوطا على الخرائط لتحديد مناطق حضارية أخرى فى الشرق والشمال والجنوب عبر نطاقات انتقالية عريضة . وهذا ينطبق إذا أخذنا عناصر التحديد الثلاثة : السلالة واللغة والدين . أما إذا أخذنا السمات التقليدية فى تحديدنا لحدود القارة فإننا نجد منطقة مركزية فى شمال غربى وشمال وأواسط أوروبا تتضمن انجلترا والأراضى المنخفضة وشمال فرنسا والمانيا – وشمالى إيطاليا وجنوبى اسكندناوه . وفى هذه المنطقة المركزية أو قلب أوروبا نلمس كل السمات التى ذكرناها . ولكن فى أى اتجاه من هذا المركز تقل تلك الصفات من الناحية العددية فاسحة المجال للثقافات الآسيوية من ناحية الشرق وثقافات أفريقيا والشرق الأوسط فى الجنوب ، وايطاليا فى واقع الحال نموذج رائع لهذا الانتقال من الثقافة الأوروبية إلى الثقافات الأخرى .... فالأجزاء الشمالية تقع ضمن المنطقة المركزية الأوروبية فى حين أنه كلما إتجهنا نحو الجنوب تتفشى الأمية وتعلو نسبة المواليد ، كما نشهد انخفاضا فى دخل الفرد ونسبة التحضر والتصنيع . أما من ناحية الشرق فالمنطقة الانتقالية بين أوروبا وآسيا تقع داخل الاتحاد السوفيتى .

وهذه الصفات أو السمات التى تحدد أوروبا وكذلك الامتداد الإقليمى لهذه المنطقة الحضارية قد أصابها التغيير عبر القرون فحدود أوروبا الاقليمية فى وقتنا الحالى تختلف تماما عن حدودها قبل ألف أو ألفى سنة مضت ... وذلك لأن الظاهرة البشرية لم تكن ثابتة أبدا فقد كانت عرضة للتغيير والتلاؤم عبر الأجيال كما أن ماضى أوروبا قد تميز على الدوام بالتوسع والانكماش وقبل ألف سنة من ميلاد المسيح ظهرت حول السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط نواة أوروبا تحمل فى أحشائها جنين الحضارة الغربية . وعند بداية العصر المسيحى كانت أوروبا تتمثل فى الامتداد الإقليمى للامبراطورية الرومانية التى توسعت من النواة الأولى وشملت مناطق أخرى

شاسعة من القارة ولكن منطقة التنقل بقيت فى نطاق حدود حوض البحر الأبيض المتوسط .

وحوالى ألف سنة بعد الميلاد شهدت أوروبا تغيرات إقليمية واسعة .. فقد احتل العرب المسلمون – بدافع من الحمية الدينية – شمال أفريقيا وأجزاء من شبة جزيرة أيبريا والجزر الكبيرة الواقعة فى البحر الأبيض المتوسط وقد توغل العرب داخل فرنسا ولكنهم هزموا فى موقعة بواتيه عام ٧٣٢ ولولا هذه الهزيمة لكان للعرب والمسلمين شأن آخر ، وتعرضت أوروبا أيضا لغزو القبائل الآسيوية من الشرق خاصة الهون والماغيار . وتوغلت الأخيرة حتى داخل ألمانيا الجنوبية حيث دارت معركة ضخمة عام ٩٥٥م .... وقد توالت غزوات شعوب الماغيار على أواسط أوروبا لسنين عديدة دون إحراز أى تقدم وأخيرا استقرت فى سهوب المجر حيث نجد اليوم سليلهم .

ورغم هذا التراجع الإقليمى فى حوض البحر الأبيض وشرق القارة فقد حدث توسع تجاه مناطق الوثنيين من الشعوب الألمانية والصقالبة التى سرعان ما دخلت فى أحضان المجموعة الأوربية بواسطة المجهودات التى بذلتها الإرساليات المسيحية ثم استطاع الأسبان والبرتغاليون طرد العرب والبربر من بلادهم بعد سلسلة من الحروبات انتهت عام ١٤٩٢ ، ولكن بداية القرن الثالث عشر شهدت أيضا غزوات مجددة بواسطة قبائل التتر التى شنت هجوما على جنوبى روسيا وعبرت إلى أوروبا تنشر الحرب والدمار ، ولكن الأوربيين نجحوا فى صد هذه الغزوات وإرسال التتر على أعقابهم . ولكن لم يلبث أن ظهر غزاة آخرون هم الأتراك المسلمون الذين قهروا نفوذ اليونان السياسى وثقافتهم المسيحية فى أسيا الصغرى ثم واصلوا تحركهم عبر الدردنيل ليحتلوا اسطنبول مركز المسيحية الشرقية آنذاك . ومن هناك أخذوا ينتشرون نحو الشمال وأخضعوا البلقان تحت سيطرتهم وقد تجمع الأوربيون فى محاولات ثلاث لصد هجمات الأتراك على فيينا والحفاظ على التراث الأوروبى . ورغم أن النفوذ السياسى التركى قد تقهقر تدريجيا من شبه جزيرة البلقان فإننا ما زلنا نجد آثار هذا الاحتلال ممثلة فى الأقليات المسلمة الموجودة فى يوغسلافيا والبانيا وكذلك رأس الجسر الصغير

على الساحل الشمالى من الدردنيل والبوسفور حول اسطنبول الذى احتفظ به الأتراك حتى اليوم رغم محاولات الأوربيين - خاصة الأغريق والروس - لاستعادته .

أما التوسع الأوروبى الحقيقى فقد تم انجازه خلال ٤٠٠ - ٥٠٠ سنة الأخيرة بواسطة الشعوب الجرمانية والسلافية (الصقالبة) واللاتينية (الايبريين) . وقد استطاعت الشعوب الناطقة باللغة الجرمانية ، خاصة الانجليز ، فى انشاء مناطق أوروبية فيما وراء البحار فى أمريكا الشمالية واستراليا ونيوزيلنده وجنوب افريقيا فى حين أن الاسبان والبرتغاليين نقلوا وازدرعوا كثيرا من جوانب الحضارة الأوروبية فى أجزاء كبيرة من أمريكا اللاتينية . وقد تطابق هذا النشاط الخارجى فيما وراء البحار مع نشاط برى آخر بواسطة الشعوب السلافية خاصة الروس الأوربيين الذين دفعوا بالتوسع الأوروبى الى قلب أوراسيا وعبرها إلى ساحل المحيط الهادى .

وبالاضافة إلى هذه المناطق المعتدلة التى احتلها الأوربيون واستوطنوا فيها إما بإزالة السكان الأصليين أو بإخضاعهم تحت سيطرتهم السياسية والاقتصادية فهناك مستعمرات ضخمة أنشأها الأسبان البرتغاليون والانجليز والفرنسيون والهولنديون والبلجيكيون والألمان فى المناطق المدارية ، ورغم أن كثيرا من هذه المستعمرات لم يستوطن فيها الأوروبى فقد ظهرت بصمات وآثار هذا الاستعمار واضحة حتى اليوم متمثلة فى اللغة والديانة المسيحية والمخترعات والمؤسسات الأوروبية التى نلاحظها فى هذه المناطق .

والآن فإن المستعمرات الأوروبية فى المناطق المدارية قد استقلت وعادت أوروبا إلى عقر دارها ... وتقلص نفوذها السياسى لينحصر داخل القارة .. ولكن نفوذها الحضارى ما زال ينتشر فى العالم ويؤثر فى الثقافات الأخرى بصورة متفاوتة . فاليابان مثلا قد قبلت الثورة الصناعية وتقبلت أيضا وعلى مضض آثار هذه الثورة المدمرة على ثقافاتها التقليدية كما أن تركيا قد تخلت عن الحروف الأبجدية العربية وتبنت الحروف اللاتينية فى الكتابة .

وهكذا ورغم صغر مساحتها (٩٫٩٧٠٫٠٠٠ كم ٢) التى لا تتجاوز $\frac{1}{15}$ من

مساحة اليابس ، فإن أوروبا لعبت دورا هاما فى تقدم الحضارة البشرية كما شرحنا من قبل ، وهذه المكانة التى ظهرت بها أوروبا كانت نتيجة لتوفر ظروف ملائمة :

١ – فقارة أوروبا تمتاز بأراضي واسعة شاسعة صالحة للزراعة خالية من المساحات الصحراوية والهضاب الموحشة كالتى نراها فى آسيا مثلا .

٢ – فهى كذلك غنية بالمعادن خصوصا مواد الصناعة الأولية ، كالفحم والحديد وخاصة فى منطقتها الغربية .

٣ – تنوع مواردها الاقتصادية من زراعة وصناعة بأنواعها مما أدى إلى سيطرتها على معظم المشروعات العمرانية والاقتصادية فى العالم بفضل ما لديها من رؤوس أموال .

٤ – معظم أوروبا يقع فى خطوط العرض المعتدلة : فمناخها معتدل والأمطار موزعة طول العام فى كثير من أجزائها وكان لتوغل البحار فى القارة تأثير هام فى سهولة اتصالها بالعالم الخارجى من ناحية وبعض أجزائها بالبعض الآخر من ناحية أخرى .

الموقع الجغرافى :

يمكن فهم الموقع الجغرافى لأوروبا بطريقتين : الموقع المطلق أو الثابت والموقع النسبى لباقى أنحاء العالم . فالموقع المطلق كما تحدده خطوط الطول ودوائر العرض يوضح لنا الموقع المركزى لأوروبا فى نصف الكرة الشمالى وخلوها من الصحارى الحارة والباردة.ونظرا لأن نصف الكرة الشمالى به أكبر جزء من اليابسة ويضم كذلك تلك الأجزاء المتحضرة من الكرة الأرضية فإن موقع القارة الأوروبية فى هذا الجزء يؤهلها للاتصال بسهولة مع باقى أنحاء العالم بحرا وجوا .

أما الموقع النسبى لأوروبا فقد طرأ عليه التغيير كثيرا عبر التاريخ وإن كان هذا التغير نحو الأحسن دائما . فنى عصر التاريخ كانت أوروبا تحتل ركنا نائيا من العالم بعيدا عن مهد الحضارات لكن ليست فى معزل تام عن تيار الحضارة الذى كان يصل بين الحين والآخر عن طريق البحر . فقد كان بعض أجزاء أوروبا الواقعة فى حوض البحر المتوسط على اتصال بالمناطق المتحضرة من آسيا الموسمية عن طريق البحر المتوسط والبحر الأحمر منذ العصر اليونانى – الرومانى . ولكن المحيط

الأطلسى – أو بحر الظلمات كما أسماه العرب – لم يكن مطروقا وكان غرب وشمال أوروبا يمثلان موقعا جانبيا بالنسبة للعالم المعروف . وتغير هذا الوضع فى القرن الخامس عشر عندما اكتشفت الطرق البحرية عبر الأطلسى إلى أمريكا وآسيا الجنوبية وتحسن كثيرا بعد اكتشاف الأمريكتين وكذلك أستراليا . وهكذا أصبحت أوروبا وخاصة تلك الأجزاء التى تتمتع بموقع بحرى تكتسب أهمية وبالذات بعد البدء فى استعمار واستغلال موارد تلك الأماكن التى وقعت تحت سيطرتها مما أتاح لها دورا قياديا فى تجارة العالم ، وهيأت لها الظروف لتنمية تلك البلاد اقتصاديا .. خاصة بعد الثورة الصناعية التى أتاحت لأوروبا نفسها استغلال مواردها المعدنية استغلالا فعالا مما أكسبها موقعا ومركزا قياديا فى عالم اليوم .

الفصل الثانى

البنية والتضاريس

تعد أوروبا(باستثناء روسيا السوفيتية) أصغر القارات مساحة كما أنها فى الحقيقة شبه جزيرة غير منتظمة الشكل وتمثل الامتداد الغربى لكتلة اليابس الآسيوى العظمى . وباستثناء المحيط المتجمد الشمالى فإن المحيطات والبحار التى تحيط بها دافئة ويمتد فيها عدد من أشباه الجزر الصغيرة تضم بينها أذرعا طويلة للبحار يتوغل بعضها توغلا عميقا فى القارة كالبحر الادرياتى والبحر الأبيض والبلطيق والأسود .

وتتميز القارة بطول وتعقد سواحلها وبكثرة أشباه الجزر بها وبمئات الجزر التى تتاخمها وتطوقها مثل الجزر البريطانية وفعلا نجد أكثر من ثلث أوروبا يتكون من الجزر وأشباه الجزر كما يظهر فى الجدول التالى : فأوروبا فى الحقيقة هى قارة أشباه الجزر ، كل شبه جزيرة تنقسم بدورها إلى أشباه جزر أخرى متيحة لألسنة من المياه الضحلة لتتوغل إلى داخل اليابسة .

جدول : ١

تركيب القارات *

القارة	المساحة الكلية (ملايين كم)	أشباه الجزر (ملايين كم)	الجزر (ملايين كم)	نسبة أشباه الجزر والجزر للمساحة الكلية	علاقة طول الساحل للمساحة الكلية
أوروبا	٩ر٩٧	٢ر٧٠	٠ر٧٥	٣٤ر٦	١ : ٣ر٥
آسيا	٤٤ر١٨	٣ر٩٤	٢ر٧٠	٢٤ر٠	١ : ٣ر٢
أمريكا الشمالية	٢٤ر١٠	٢ر٠٤	٤ر١١	٢٥ر٦	١ : ٤ر٩
أمريكا الجنوبية	١٧ر٨٧	ر٠٥	٠ر١٥	٠ر١٥	١ر٤ ٢ر٠
أفريقيا	٢٩ر٨٢	—	٠ر٦٢	٢ر١	١ : ١ر٦
أستراليا	٨ر٩٠	٠ر٤٢	١ر٣٠	١٩ر٣	١ : ٢ر٠

وتمثل شبه جزيرة اسكندناوه أكثر هذه الجزر إثارة إذ تجعل سلسلة جبالها الغربية من النرويج دولة أطلسية رطبة ومن السويد منطقة داخلية قارية . وفى الجنوب وبين أحواض المحيط الأطلسى العميقة والبحر الأبيض المتوسط توجد شبه جزيرة أيبريا بأجزائها الغربية الأطلسية الرطبة والجزء الجاف الذى يطل على البحر المتوسط بينما إلى الشرق منها توجد شبه جزيرة إيطاليا (الجزء الايطالى) التى تفصل بين حوضين عميقين من أحواض البحر المتوسط ، والتى تعكس براكينها الحية عدم استقرارها البنيوى وحداثة عمرها . وإلى الشرق من إيطاليا توجد شبه جزيرة البلقان ذات الشكل المثلثى التى تتوغل فى البحر المتوسط وتنتهى فى شبه جزيرة اليونان وجزرها العديدة ويمكن اعتبار القارة الأوروبية نفسها شبه جزيرة كبيرة تتفرع منها أشباه الجزر الاخرى . ولولا الهبوط الذى أدى إلى تكوين مضيق دوفر وبحر الشمال الجنوبى لأمكن ضم الجزر البريطانية إلى مجموعة أشباه الجزر الأوروبية .

وبجانب أشباه الجزر هذه توجد البحار ، وهنا يظهر التناقض واضحا بين الرفرف القارى الضحل الشاسع فى الشمال الغربى من القارة وبين الأحواض البحرية العميقة التى يتميز بها المحيط الأطلسى والبحر المتوسط فى الجنوب . ويعتبر الرفرف القارى من الناحية البنيوية جزءا من هذه القارة التى كانت مغمورة خلال معظم فترة العشرة آلاف سنة الماضية والتى تبرهن الأدلة بأنها ما زالت تهبط ، فبحر البلطيق خلال العصر الرابع كان بحيرة عذبة . هذه البحار القارية تعتبر خزانا للحرارة ومبعثا للدفء رغم أن بحر البلطيق ضحل وعذب نسبيا إلى درجة أن أجزاء منه تتجمد فى الشتاء مثل خليج فنلنده وبوثنيا . كما أن الاختلاف الجزرى الكبير فى الشمال وتعرضه للعواصف الفجائية تعمل على تهوية مياهه فى حين أن الأنهار الكثيرة التى تصب فيه تحمل معه مواد غذائية كثيرة مما جعله مرتعا خصبا لكثير من الأسماك .

وعبر الجزء الجنوبى من أوروبا يمتد حزام تكتونى من الغرب إلى الشرق أدى إلى وجود ظاهرة تكتونية تتكون من التواءات ومنحدرات مما أدى إلى وجود علاقة بين الجبال والبحار ، ويصل جزء من الغور المحيطى للأطلسى بالقرب من الساحل البرينى عند خليج بسكاى بينما تتواجد ثلاثة أحواض عميقة فى البحر المتوسط تفصل

بينها أشباه جزر وجزر . فالجزر البليارية امتداد لجبال أسبانيا الجنوبية (العصر الثالث) بينما تكون جزيرتا كورسيكا وساردينيا بقايا تكوينات قديمة غارقة ، وتتكون قبرص من ارسابات قاع محيطية . وهناك غور محيطى آخر (اوكساين Euxine) فى قاع البحر الأسود بينما يشكل حوضان عميقان آخران غناصر التكوين الأساسية لبحر قزوين . وقد أدى انكسار فى جبال الريف وسيرانيفادا إلى ظهور سد طبقى مغمور تمر عبره مياه المحيط الأطلسى إلى البحر المتوسط ليعوض ما يفقده الآخر من التبخر الشديد كما يتيح مرور السفن بين البحرين . ورغم ذلك فإن مياه البحر المتوسط عالية الملوحة مما يزيد من قدرتها على الاحتفاظ بالدفء والحرارة . كما أن مضيق الدردنيل يتيح مرور مياه البحر المتوسط والبحر الأسود الذى تتميز مياهه السفلى بالركود وعدم التهوية . وقد كان البحر الأسود متصلا ببحر قزوين عبر مستنقعات مانيش الحالية وقد انقطع هذا الاتصال أثناء العصر الثالث ولولا وجود منخفض كارا – بوغاز – جول Kara-Bogaz-Gol الضحل الذى يساعد فى تثبيت نسبة الملوحة فى بحر قزوين لأصبحت الملوحة عالية جدا .

ويساعد توغل ألسنة البحار وأذرع المحيطات إلى داخل القارة فى حمل المؤثرات البحرية إلى داخل القارة وتشكل مع الأنهار التى تخترق القارة وسائل انتقال من منطقة لأخرى كما تمنح طرقا قصيرة عبر أشباه الجزر العديدة . وإلى الغرب من الخط الذى يربط بين ميناء أوديسا Odessa على البحر الأسود وبين كالينقراد Kalingrad لا نجد جزءا من القارة يبعد من الساحل بأكثر من ٥٠٠ كم بينما تبعد المسافة الى الشرق من هذا الخط الى أكثر من ١٠٠٠ كم .

وعامة تتميز تضاريس أوروبا بالاعتدال : وبالمقارنة مع القارات الأخرى فهى تتميز بأدنى متوسط لإرتفاع (٣٠٠ متر) (آسيا ٩٤٠ مترا وأمريكا الشمالية ٧٠٠ متر وأفريقيا ٦٥٠ متر) بينما ترتفع أعلا قمة فى جبال الألب إلى أقل من ٥٠٠٠ متر وهذا ارتفاع تتفوق عليه على الأقل احدى وعشرون قمة فى آسيا ، كما أن أوروبا تخلو من مثل تلك الأحواض الجافة التى تحيط بها الجبال التى نجدها فى آسيا . وهناك قسم كبير من أرض القارة الأوروبية يصل إلى الثلثين يقل ارتفاعه عن ٢٠٠ متر فوق سطح

البحر ولا تكاد تزيد أراضيها التى تقع فوق منسوب ٥٠٠ متر عن ١٥ ٪ من مساحتها .

تكتسب التضاريس فى المناطق الجبلية والمرتفعات أهمية من ناحية الارتفاع والوجهة ودرجة الانحدار . فالارتفاع يؤثر فى الاستيطان البشرى ، وحتى عندما يلجأ الإنسان إلى الأماكن المرتفعة طلبا للمراعى الجبلية العالية وخاصة فى المناطق الشرقية والجنوبية من القارة – فإنه يفعل ذلك فى فصل الصيف فقط . وما زال الاستيطان البشرى الدائم موجودا فى بعض المرتفعات الهيرسينية ذات التربات الفقيرة الضحلة ، ولو أن النزوح إلى المنحدرات السفلى قد بدأ فعلا كما حدث من على المرتفعات الكاليدونية . وهكذا نجد أن الكثافةالسكانية تقل مع الارتفاع فى كل مكان إلا فى بعض جبال شبه جزيرة البلقان نتيجة ظروف تاريخية فى عصر الأتراك عندما اضطرت مجموعات من السكان إلى اللجوء إلى حماية الجبال . والجدول التالى يوضح الحد الأعلى لوجود الزراعة على مرتفعات اوروبا :

جدول ٢ :

المناطق الجبلية	الارتفاع بالأمتار
أوستردال	٥٠٠
غوديرانزوال وفالدرز	٦٥٠
هارتز (المانيا)	٦٠٠
اززبيرج (المانيا)	١٠٣٠
الغابة السوداء	١١٢٠
بيلرتال	١١٦٠
أورنر – الب – زيالب	١٥٤٠
بيرنر – الب – كاندرتال	١٥٦٠
أوتزالر – الب – (الشمالية)	٢+١٤
أوتزالر – الب – (الجنوبية)	٢٠٨٣
فندلين (بالقرب من زيرمات)	٢١٠٠

وتكتسب « الوجهة aspect » أهمية كبرى فى الزراعة فى المناطق الجبلية مثل

جبال الألب والكربات والمرتفعات الهيرسينية إذ يظهر التناقض واضحا فى استخدام الأرض بين المنحدرات الجنوبية التى تطل عليها أشعة الشمس والمنحدرات الظليلة الرطبة الشمالية : ومثلا فى هضبة الراين نجد أشجار الكروم تحتل المنحدرات الجنوبية المشمسة بينما تغطى الغابات المنحدرات الشمالية . كما أن للوجهة أثرها فى كمية الأمطار التى تسقط على المنحدرات ، فالمنحدرات الغربية دائما أكثر مطرا من المنحدرات الشرقية كما يظهر فى الهضبة الوسطى الفرنسية وهضبة الراين . وخلف المرتفعات الوسطى نجد أحواضا جافة مثل « جولدن أوى Goldene Aue » وحوض بولابى Polabi فى بوهيميا . ويظهر التناقض فى التساقط بين الجزء الغربى الممطر من هضبة الميزيتا الأسبانية وبين الأجزاء الوسطى والسواحل الشرقية . وحتى المنحدرات المعتدلة الانحدار تخلو من الزراعة وقد يتطلب ذلك عمل المصاطب . وفى منطقة الكويستات والأودية فى حوض باريس وجنوب ألمانيا تكتسب درجة الانحدار أهمية خاصة تظهر فى توزيع النطاقات الزراعية ، فالمزارع والبساتين تحتل بطون الأودية بينما تغطى مزارع الكروم المصاطب المقامة على المنحدرات التى تلى الكويستات التى تكسوها الغابات .

البنية :

أوروبا قارة تتباين فيها الظاهرات الجغرافية الطبيعية ويمتد عبرها من الغرب إلى الشرق سلسلة من الجبال المرتفعة تضم جبال البرانس والالب والكربات وإمتداداتها فى شبه جزيرة البلقان . وعلى الرغم من وجود عدد من الثغرات التى تفتح ممرات عبر هذه الجبال إلا أنها قد أوجدت نوعا من التقسيم والاختلاف بين المناطق التى تقع شمال وجنوب هذه السلاسل وهذه الجبال الالتوائية ترجع إلى الحركة الكالدونية والحركة الهرسينية إلى الشمال من السلاسل الألبية ، ثم كانت الحركة الألبية التى أنتجت أعلا سلسلة جبلية فى القارة .

وتنقسم أوروبا إلى قسمين كبيرين : القسم الشرقى وهو عبارة عن سهول فسيحة ، والقسم الغربى والجنوبى ويمتاز بتضاريسه المتنوعة .

هذه الاختلافات فى التضاريس بين شمال وجنوب أوروبا لا تعنى أن شمال

أوروبا كانت خالية من الحركات التكتونية التى كان من نتائجها تلك الجبال الشاهقة التى تتميز بها أوروبا الجنوبية فقد حدثت حركات فى المناطق الشمالية أحدثت جبالا لا تقل فى ضخامتها وعلوها عن جبال الألب . ولكن نسبة لحدوث هذه الحركات فى عصور جيولوجية قديمة فقد اندثر معظم هذه الجبال نتيجة تعرضها لعوامل التعرية خلال هذه الفترة الطويلة . وقد مرت أوروبا بأربع حركات أوروجينية يمكن أن نطلق عليها جيولوجيا (الشكل ٤) :

١ – حركة ما قبل الكامبرى Pre-Cambrian (الاسم مشتق من جبال كامبريا فى ويلز) .

٢ – الحركة الكاليدونية Caledonian (الاسم مشتق من الاسم اللاتينى كاليدونيا – لاسكتلنده) .

٣ – الحركة الهرسينية Hercynian (الاسم مشتق من الاسم اللاتينى لجبال الهارتز Hartz فى ألمانيا الوسطى) .

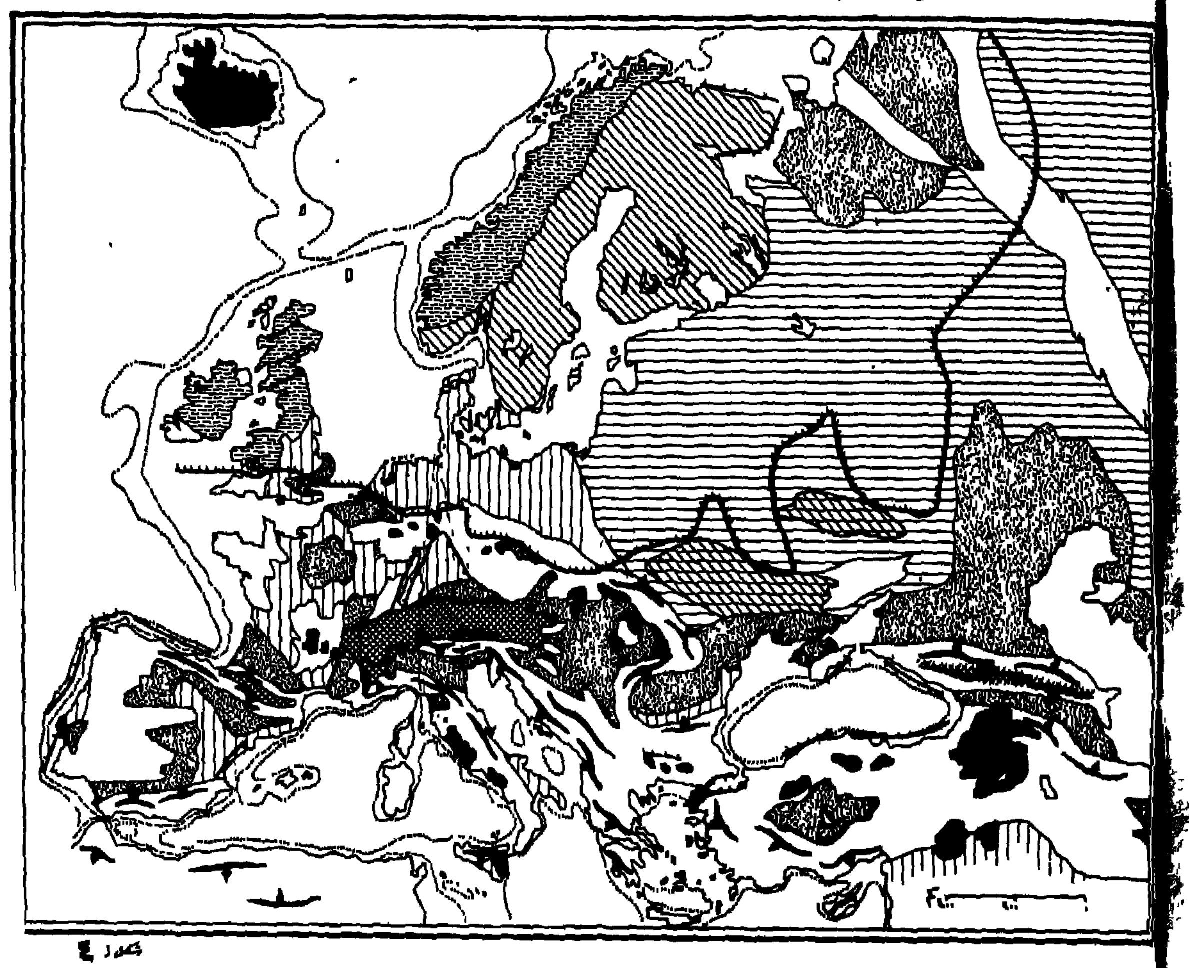
٤ – الحركة الألبية Alpine (الاسم مشتق من جبال الألب) .

١ – تقع المناطق التى تأثرت بحركات ما قبل الكامبرى حول بحر البلطيق حيث نجد كتلا ضخمة من الجرانيت والصخور المتحولة تكون مسطحا أرضيا تتصف بتضاريس منخفضة وتعرف جيولوجيا باسم الدرع البلطى Baltic Shield أو Fenno-Scandian ويستمر هذا الدرع تحت السهل الروسى العظيم ولكن ليس على السطح بل مدفونا تحت إرسابات حديثة ومع الدروع الأخرى مثل إنجارا فى سيبريا ولورنشيا فى كندا وأجزاء كبيرة من جرينلنده فإن الدرع البلطى ربما يمثل بقايا قارة شمالية قديمة كانت تعرف باسم لوراسيا Laurasia ، وفعلا كان الدرع مركزا لكتلة اليابس الأوروبية الصلدة التى ضغطت نحوها مجموعة الجبال الأوروبية التى تلت .

٢ – الحركة الكاليدونية :

بدأت هذه الحركة فى العصر السيلورى تؤثر على أجزاء كبيرة من شمال غرب

الوحدات البنيوية للقارة الأوروبية (التركيب الجيولوجي)



شكل ٤

ما قبل الكامبري	النظام الكاليدوني
فينوسكانديا (الدرع البلطي)	اتجاه الجبال الكاليدونية
	النظام الهرسيني
كتل قارية قريبة أو عند السطح	اتجاه الجبال الهرسينية
	النظام الألبي
السهل الروسي	اتجاه الجبال الألبية
أحواض هرسينية	خط عمق ٢٠٠٠ قدم
أراضي مستقرة (تيبلاترم) هرسينية	،، ،، ٦٠٠ ،،
كتل بركانية	اتجاه الالتواء والرفع
خطوط انكسارية رئيسية (فوالق)	الأخدود الجبلي الشاطئي

الاهتزاز التكتوني الجبلي الألبي

أوروبا ، وتمتد هذه المنطقة من أيرلنده عبر اسكتلنده إلى المرتفعات الاسكندناوية حيث نجد تشابها واضحا بين هذه المناطق من حيث البنية والاتجاه وأنواع الصخور ويمكن تتبع هذه المجموعة شمالا فى أيسلنده وشمالى جرينلنده . وقد تعرضت هذه الجبال فيما بعد لعوامل التعرية وكذلك تعرضت أجزاء منها للارتفاع والتقوس والميلان وذلك أثر الحركات الأوروجينية التالية .

* **الحركة الهرسينية :**

فى الفترة التى تلت الحركة الكاليدونية غزت المياه وغطت أجزاء كثيرة من أوروبا . وفى بداية العصر الكربونى غطت المياه أماكن شاسعة ويبدو أن قاع هذا البحر أثرت فيه الالتواءات الأولية للحركة الهرسينية كما يبدو من الطبقات الفحمية التى كانت قد بدأت تتكون فى الالتواءات المحدبة الأولية التى أخذت تظهر على السطح مع منخفضات ساحلية ومستنقعات . أما المحور الرئيسى للجبال الهرسينية فقد كان إلى الجنوب فى حين أن الإرسابات الفحمية احتجزت فى منخفضات بنيوية واسعة أو فى أحواض صغيرة حول الطرف الشمالى وداخل الجبال الهرسينية (كما فى ويلز ونامور والرور وسايليزيا العليا وحوض الدونتز) .

وما زالت بقايا المجموعة الهرسينية تفرض وجودها فى تضاريس أوروبا الغربية والوسطى شمال جبال الالب . وما زال اتجاه الجبال ظاهرا فى كثير من أجزاء أوروبا كما يوضح بعض هذه الجبال الالتوائية فى بعض المناطق . وتتمثل هذه الجبال فى كتلة أرموريكا Armorican Massif فى شمالى غربى فرنسا ، والهضبة الوسطى Central-Massif وفى كورنول Cornwall فى جنوب غرب انجلترا وفى جبال كرى Kerry فى جنوب أيرلنده وجبال أورال Ural فى روسيا . وتتمثل أيضا فى بعض الكتل مثل جبال الفوزج Vosges والغابة السوداء وهضبة بوهيميا وهضبة أيبريا . وهذا التناثر فى توزيع الجبال الهرسينية كما تظهر اليوم يمكن أن نعزوها إلى ثلاثة أحداث : أولا : تعرضت هذه الجبال لفترات طويلة لعوامل التعرية . ثانيا : تعرضت قارة أوروبا لغزو بحرى متكرر وذلك أثناء العصر الميزوزوى ، والإرسابات البحرية الناجمة من هذا الغزو والتى تستلقى من غير تناسق على السطح

الهرسيني لمتآكل دليل على أن هناك عملية تسوية واسعة قد حدثت قبل الغزو البحرى .

وثالثا : أثناء الحركة الألبية تعرضت المناطق الهرسينية إلى هزات عنيفة كانت ذات آثار واضحة على التضاريس الهرسينية وخاصة فى الجنوب .

- الحركة الألبية :

يظهر أثر الحركة الألبية واضحا فى جنوب أوروبا حيث نجد جبال الألب الشاهقة تتقوس نحو الشمال بين أكبر الكتل الهرسينية الصلبة الهضبة الوسطى فى فرنسا من ناحية الغرب والكتلة (الهضبة) البوهيمية من ناحية الشرق . أما فى أوروبا الشرقية فتبرز جبال الكربات بشكلها الهلالى نحو الشمال الشرقى بين الكتلة البوهيمية والدرع الروسى فى رومانيا ، فى حين أن انحناءة جبال جوار منتهية فى طرفيها عند الهضبة الوسطى وجبال الفوزج Vosges كما أن السلاسل الألبية حول البحر المتوسط نجدها مضغوطة بين كتل أيبيريا وتيرهينيا Tyrrhenian ورودوب Rhodope وهذه الضغوط الجانبية والرأسية التى تعرضت لها الصخور الرسوبية إبان الحركة الألبية قد خلقت التواءات عظيمة فى غاية التعقيد مما يدل على أن هذه الصخور كانت على درجة عالية من المرونة وأن صلابتها الحالية حديثة . أما من ناحية تكوين هذه الجبال فما حدث هو أنه أثناء العصر الميزوزوى غطى بحر تيثيس (سمى بعد زوجة أوشانوس Oceanos فى الأسطورة الاغريقية) الجزء الجنوبى من أوروبا وأرسب كميات ضخمة من الرسوبات معظمها جيرية . وحسب نظرية زحزحة القارات أخذت قارة أفريقيا (جند وانالاند Gondwana Land) تتحرك نحو الشمال دافعة الرسوبات الضخمة ضد الكتل الهرسينية الصلبة والدرع البلطى ونتيجة لهذا الضغط الجانبى الهائل التوت الصخور الرسوبية مكونة تلك الجبال الشاهقة . وقد استمرت هذه الحركة من منتصف العصر الميزوزوى إلى منتصف العصر الثالث Mid-Tertiary

وفى عصر البلايستوسين شهدت أوروبا ما يسمى بعصر الجليد حين زحفت كميات ضخمة من الجليد وغطت أجزاء كبيرة من أوروبا ، وقد تعرضت القارة إلى

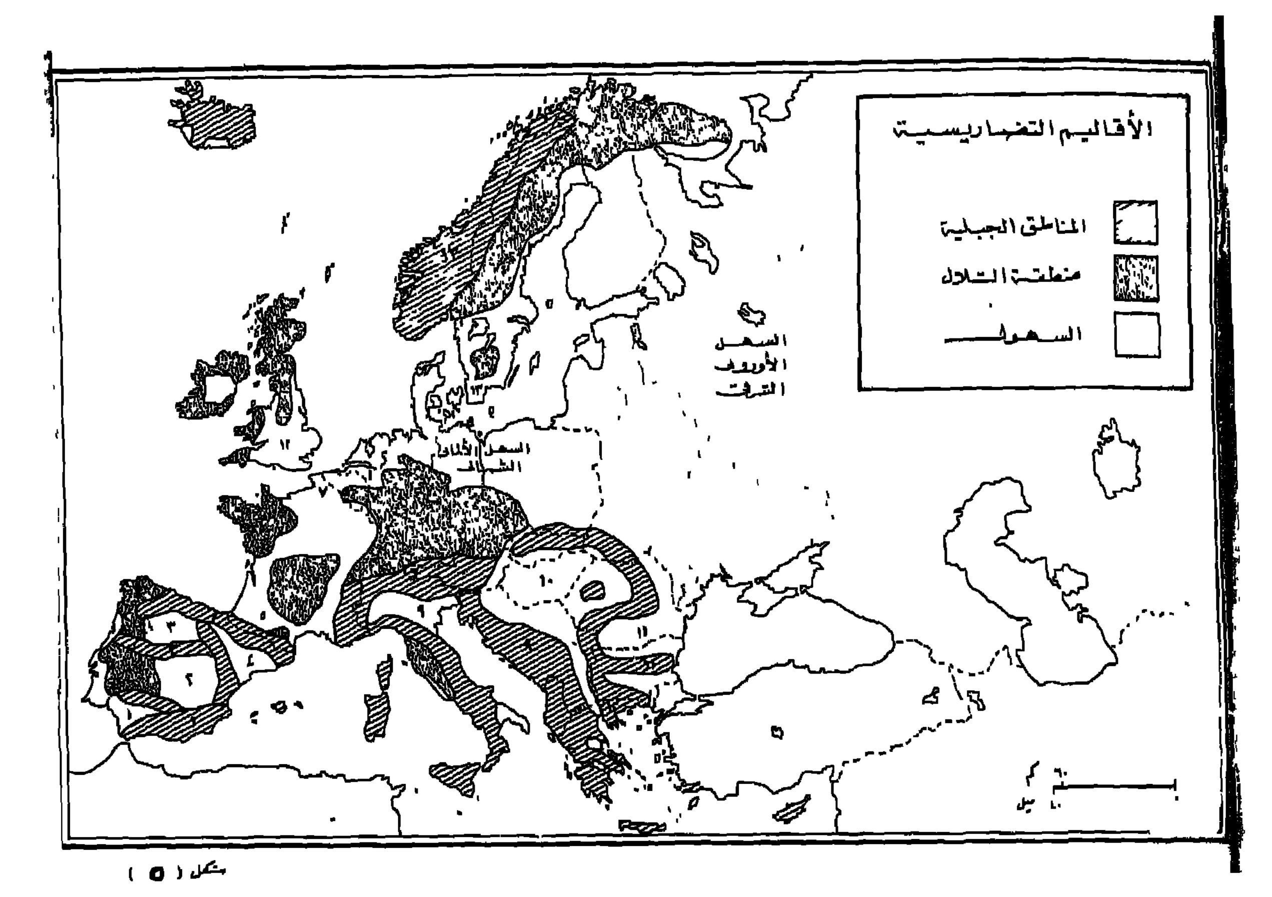
التعرية الجليدية أربع مرات ، وكانت لهذه العملية آثار عظيمة على سطح أوروبا تتمثل فى استدارة التضاريس وتوسيع أودية الأنهار ، وحمل الجليد فتات الصخور المنحوتة وأرسبها فى أماكن عديدة فى شمال أوروبا وهذه الإرسابات الجليدية تغطى أيضا أجزاء من السهل الأوروبى العظيم ومن هذه الإرسابات تربة اللويس Loess (وتعنى التربة الناعمة المفككة) التى حملتها الرياح بعد عصر الجليد وأرسبتها فى نطاق يمتد من ألمانيا إلى الصين . وبعد نهاية العصر الجليدى وذوبان الجليد أخذ سطح الأرض يرتفع تدريجيا بعد إزالة ذلك الضغط الهائل الناتج من تراكم الجليد فوقه ، والدليل على هذا هو وجود قواقع بحرية وشطوط بحرية فى ارتفاع مئات الأقدام فوق مستوى بحر البلطيق . وقد أدى ذوبان الجليد إلى ارتفاع فى مستوى البحر بما يساوى ٤٠٠ قدم وكان من نتيجته أن غمرت المياه مناطق كبيرة كانت يابسة واختفت المعابر الأرضية .

الأقاليم التضاريسية (الشكل ٥) :

سبقت الإشارة إلى أن قارة أوروبا عبارة عن شبه جزيرة كبيرة تتكون من عدة أشباه جزر تحتل الأطراف الغربية من قارة أوراسيا ، وقد لعبت البيئة الطبيعية فى أوروبا دورا فى تشكيل حياة الناس وأنشطتها الاقتصادية ، كما أن الأوروبيين أحدثوا تغييرات كبيرة فى هذه البيئة إلى درجة أن ما يطلق عليه البيئة « الطبيعية » لم يعد لها وجود فى أجزاء كثيرة من القارة خاصة تلك الأجزاء التى تتميز بقدم الاستيطان فيها . وفى هذه الدراسة سنركز على هذا التفاعل بين الإنسان والبيئة . ونسبة لتنوع سطح القارة وتباين تضاريسها سندرس هنا ثلاثة أنواع من هذه التضاريس : الجبال والسهول والمرتفعات (الشكل ٥) .

(أ) المناطق الجبلية :

تنحصر المناطق ذات التضرس الجبلى الشديد فى النصف الجنوبى من أوروبا كما يوجد جزء صغير من هذه التضاريس فى الشمال فى شبه جزيرة اسكندناوه ، وتتميز الجبال الأوروبية بامتدادها فى اتجاه شرق - غربى على عكس سلسلة جبال الروكى فى أمريكا الشمالية وجبال الأنديز فى أمريكا الجنوبية ، وكما سيتضح لنا عند دراستنا



الشكل (٥) : الاقاليم التضاريسيه فى أوروبا .

(١) الجبال :

(١) جبال بتيكو . (٢) سييرا مورينا (٣) سييرا الوسطى (٤) جبال ايبريا (٥) جبال البرانس (٦) كولديرا كنتاريا (٧) جبال الالب . (٨) جبال الابناين (٩) الالب الديناريه (١٠) جبال الكربات . (١١) جبال البلقان (١٢) رووب (١٣) جبال كيولن .

(ب) المرتفعات (التلال) :

(١) هضبة الميزيتا . (٢) الهضبة الوسطى . (٣) بريتانى (هضبة آرموريكا) . (٤) كورنول . (٥) البناين . (٦) مرتفعات اسكتلنده . (٧) الهضبة السويسريه . (٨) (٩) هضبة الراين . (١٠) الغابة السوداء . (١١) هضبة بوهيميا .

(جـ) السهول :

(١) سهل الاندلس . (٢) قشتاله الجديده (٣) قشتاله القديمة . (٤) وادى ابرو . (٥) حوض اكوتين . (٦) حوض بلريس . (٧) الفلاندرز . (٨) الاراضى المنخفضة . (٩) وادى البو (لمبارديا) . (١٠) حوض المجر (١١) سهل ولاشيا . (١٢) السهل الانجليزى . (١٣) سهل اسكانيا .

للمناخ فإن لهذا الاتجاه أثر مناخى كبير. وتتكون هذه السلاسل الجبلية من الغرب إلى الشرق من الجبال الآتية : -

(١) جبال بتيكو Betico التى تمتد فى محازاة الساحل الجنوبى الشرقى من أسبانيا وهى عبارة عن مجموعة من الحافات الفقرية التى تتخللها وديان طولية وتمتد من جبل طارق فى الجنوب الغربى إلى فالنسيا فى الشمال الشرقى حيث تغطس الجبال تحت الماء وتظهر مرة أخرى فى جزر البليارى . وكانت هذه الجبال هى آخر معقل للعرب فى أوروبا بعد أن أجلوا من باقى أجزاء أسبانيا حيث تركوا آثارهم واضحة فى مبانى مدينة غرناطة الواقعة فى أحد الأودية الطولية عند حضيض مرتفعات سيرانفادا -Sierra Nevada وفى أقصى الجنوب تطل هذه الحافة على البحر موجدة ساحلا صخريا جميلا وفى بعض الأجزاء تبتعد الجبال عن الساحل حيث نجد جيوبا من السهول الساحلية التى تعرف باسم الهويرتاس Huertas (وتعنى البستان) ، وتشتهر هذه الجيوب بتربتها الخصبة وزراعتها المروية المكثفة كما فى بستان « فالنسيا » الذى يشتهر بحدائق البرتقال . أما جبال أيبريا .Iberian Mts فهى أقل ارتفاعا من جبال بتيكو وهى فى الحقيقة امتداد للأخيرة نحو الداخل فى اتجاه شمالى وشمالى غربى من منطقة فالنسيا ، ونسبة لارتفاعها المعتدل (٢٣٠٠ متر) فهى لا تشكل أية عقبة فى وجه المواصلات . اما جبال «سيراالوسطى» والتى تعرف باسماء محلية عديده فتمتد فى اتجاه شرق - غرب عبر المناطق الداخلية من شبه جزيرة أيبيريا .

(٢) **جبال البرانس** Pyrennes :

تمتد هذه الجبال العالية على طول الحدود بين فرنسا وأسبانيا فى اتجاه شرقى - غربى وتكون حاجزا جبليا فى معظم أجزائها إلا عند أطرافها حيث توجد ممرات ساحلية عبرت من خلالها جيوش العرب فى عام ٧٠٠ ميلادية وجيوش أخرى فى كلا الاتجاهين. ولم تقطع الأنهار التى تنحدر من كلا جانبى الحافة الرئيسية من الجبال ممرات عبرها مما جعل هذا الجزء من البرانس صعب الاجتياز لوعورتها . وبقاء شعب أندورا Andorra ، الذى كان يعتمد على التهريب عبر الحدود بين الدولتين كأساس لمعيشته ، يرجع أساسا إلى الانعزالية التى فرضتها وعورة الجبال . وتمثل

كورديلليرا كانتابريا Cordillera Cantabria التى يبلغ ارتفاعها ما بين ٢٦٠٠ إلى ٢٧٥٠ مترا امتدادا غربيا لجبال البرانس فى محازاة الساحل الشمالى لأسبانيا .

(٣) جبال الألب The Alps

هى أعلى جبال أوروبا وأكثرها شهرة وتمتد شرقا فى شكل قوس من الريفيرا الفرنسية عبر سويسره إلى غابات فيينا التى تقع على شاطئ نهر الدانوب . ويعرف كل جزء من هذه الجبال بأسماء محلية لا حصر لها مثل الألب البحرية Alpes Maritime و Berner Alpen و Alpi Dolomitiche و Juligske-Alpe ولتسهيل الوصف يمكن أن نقسم سلسلة الجبال الألبية إلى قسمين : غربى وشرقى ويفصلها خط يربط بين بحيرتى كونستانس فى سويسره وكومو Come فى شمال إيطاليا . ويتميز الجزء الغربى بعلوه وضيقه بالمقارنة مع الجزء الشرقى كما تتخلله أودية عميقة وبقايا ثلاجات جبلية ضخمة . وهنا يقع الجبل الأبيض Mon Blanc أعلى قمم أوروبا إذ يصل ارتفاعه إلى ٤٫٨١٣ متر ، وتوجد أودية ذات جوانب شديدة الانحدار وبطون واسعة نحتها ثلاجات العصر الجليدى وتصل إلى عمق ٢٧٥٠ متر من القمم المجاورة .

ويضيق هذا الجزء بالقرب من ساحل البحر الأبيض المتوسط عند الألب البحرية حيث تتكون السلسلة من حافة يصل عرضها الى حوالى ٥٠ كم . أما فى سويسره فتوجد حافتان يفصلها واد طويل يجرى من الشرق إلى الغرب توجد فيه منابع نهرى الراين والدانوب .

أما الجزء الشرقى من جبال الألب فيتسم باتساعه من الشمال إلى الجنوب إذ يصل عرضه إلى ٢٤٠ كم عند خط يصل بين فيرونا Verona وميونيخ Munchen وبدلا من واد طويل كما فى الغرب نجد أكثر من واد يصل عدده أحيانا إلى أربعة توجه مجارى أنهار كثيرة مثل أن Inn أديج Adige ومور Mur ودراو Drau . وقلما ترتفع قمم الجبال هنا إلى أكثر من ٣٠٠٠ متر .

ورغم عظمة جبال الألب ووعورتها وارتفاعها فإنها لم تكن عقبة أو حاجزا أمام الإنسان وتحركاته نظرا لوجود ممرات منخفضة عديدة يمكن أن تسلكها الجيوش

بسهولة ويسر مما حدا بالإيطاليين إلى أن يطلقوا عليها اسم« الخائن العظيم Magnificent Traitor » لأنها توحى بحماية وأمن زائفين . فعبر هذه الحواجز الطبيعية غزا هانيبعل القرطاجى شمال إيطاليا وأتت القبائل الجرمانية وتسببت فى سقوط الأمبراطورية الرومانية . وفى الجزء الغربى من الألب تخترق أنهار الرون Rhone والراين Rhine وريوس Reus الحافة الشمالية فى سويسره فى طريقها إلى السهول ، وتتيح هذه الفجوات النهرية الاتصال بالوادى الطولى فى الداخل من ناحية الشمال كما تسببت فروع هذه الأنهار التى تنحدر من الجنوب فى اختراق الحافة الجنوبية فى مواجهة الفروع التى تنحدر الى نهر البو Po مسببة مجموعة من الممرات المنخفضة مثل ممر سان برنارد St. Barnard ، (٢٤٧٠ متر) وممر سمبلون Simplon (٢٠١٠ متر) اللذين يقعان على طريق قديم بين إيطاليا وفرنسا ، وممر سان جوتار St. Gotthard . وممر سيلوقن Syplugen (٢١٠٠ متر) اللذين يربطان بين إيطاليا والمناطق الناطقة باللغة الألمانية . أما فى الجزء الشرقى من الألب يمثل ممر برنر Brenner (١٣٧٥ متر) الذى نحتته فروع نهرى « أن » و « أديج » عبر الحافة الوسطى أهم الممرات الموجودة فى هذا الجزء ، كما توجد فجوات نهرية شقتها الأنهار المذكورة فى الحافتين الجنوبية والشمالية .

(٤) جبال الأبناين Appennini :

تحتل جبال الأبناين وسط شبه جزيرة إيطاليا وتمتد من الشمال إلى الجنوب وتتفرع من جبال الألب البحرية فى منطقة الريفيرا وتمتد فى محاذاة ساحل خليج جنوه ثم تتقوس فى اتجاه الجنوب الشرقى إلى ساحل الأدرياتى ثم تتجه جنوبا وغربا إلى أن تصل إلى ساحل إيطاليا الغربى عند أقصى طرف لها . وهنا تختفى تحت مضيق مسينا ليظهر مرة أخرى فى صقلية . وتتميز جبال الأبناين الجنوبية وجبال صقلية بكثرة براكينها النشطة مثل بركان فيزوف بالقرب من نابلى الذى ثار فى عام ٧٩ ميلادية ودمر مدينة بومباى ، وبركان أتنا Etna الذى ثار خمسمائة مرة خلال الألفى وأربعمائة سنة الأخيرة وأهلك ما يقرب من مليون شخص . أما بركان سترومبولى Stromboli الثائر دائما فيحتل جزيرة صغيرة تقع إلى شمال صقلية .

(٥) جبال الألب الدينارية Dinaric Alps :

تبدأ هذه السلسلة عند جبال الألب بالقرب من نقطة التقاء إيطاليا ويوغسلافيا والنمسا ومنها تمتد نحو الجنوب الشرقى على طول الساحل الأدرياتى عبر يوغسلافيا والبانيا واليونان إلى أطراف بيلوبونيزيا . وتتميز هذه الجبال بتضرسها الشديد ووعورتها خاصة فى منطقة الكارست Karst حيث توجد البالوعات والمنخفضات التى تعرف باسم dolines وبوليجى Polje ذات التربات الخصبة الصالحة للزراعة . وتتكون هذه الظاهرات الجيومرفولوجية فى المناطق الجيريه ذات النفاذية نتيجة تسرب الماء من خلالها . ونسبة لوعورة سطحها وصعوبة اجتيازها اتخذت المقاومة اليوغسلافية قاعدتها فى جبال الألب الدينارية خلال الحرب الأخيرة . أما أسهل ممر جبلى عبر هذه السلسلة فيقع إلى أقصى شمالها حيث يلتقى مع جبال الألب ويعرف باسم ممر شجرة الأجاص Pear Tree Pass بالقرب من مدينة بوستوينا Postonjna فى يوغسلافيا كما توجد ممرات قليلة تربط بين سهل المجر وسهول إيطاليا . وقد تسللت قبائل الهون Huns والقوط Goths عبر ممر شجرة الاجاص إلى داخل الامبراطورية الرومانية فى فترة تدهورها السياسى .

وتتميز جبال الألب الدينارية بكثرة زلازلها التى أودت بحياة الكثيرين من سكان هذه المنطقة . فنى الستينات تعرضت يوغسلافيا لهزات أرضية مروعة دمرت مدينتى أسكوبجى وبانيا لوكا وفى السبعينات شهد الساحل الأدرياتى هزات أرضية كبيرة . وتكثر الوفيات فى مثل هذه الهزات نتيجة انهيار المنازل المبنية من الحجر على من فيها ، كما كانت جزر بحر إيجه اليونانية مشهدا لثورات بركانية مدمرة مثلما حدث لجزيرة تيرا Thira (سانتوريني) البركانية التى ثارت وانهارت بقوة هائلة فى حوالى ١٤٠٠ ق . م مسببة أمواجا جزرية هائلة (حوالى ٣٠ متر فى علوها) ضربت الشاطىء الشمالى لجزيرة كريت واختفت بعدها جزيرة تيرا جزئيا من على خريطة المنطقة .

(٦) جبال الكربات Carpathians

إلى الشرق من مدينة فينا وعبر نهر الدانوب فى تشكوسلوفاكيا تقع جبال

الكربات التى تعتبر امتدادا لجبال الألب وتتخذ شكلا مقوسا يمتد خلال سلوفينيا وجنوب بولنده وتحتل ركنا من أكرانيا ورومانيا وتنتهى كما بدأت عند شاطىء نهر الدانوب عند البوابة الحديدية . ويطلق الجزء الجنوبى من جبال الكربات الواقع داخل رومانيا اسم الألب الترانسيلفانيه Transylvanian Alps ويعرف محليا بجبال كربات الوسطى . وتتميز هذه الجبال باعتدال ارتفاعها الذى لا يتعدى ٢٥٠٠ مترا فى بعض قممها وكذلك ضيقها وكثرة الممرات التى تخترقها . وفى جنوب البوابة الحديدية تواصل الكربات امتدادها فى بلغاريا وشرق يوغسلافيا باسم سلسلة البلقان (استارا بلانينا Stara Planina) وجبال رودوب Rhodope أو Rodopı

(٧) سلسلة جبال كيولن Kjoln :

تمتد هذه السلسلة فى وسط شبه جزيرة اسكندناوه وقد تعرضت لعوامل التعرية أثناء العصر الجليدى وما زالت بعض الثلاجات باقية إلى اليوم . ونتيجة لهذه التعرية تفتقر هذه السلسلة إلى غطاء ترابى كما تكثر الفيوردات على سواحلها ، ومن أشهر هذه الفيوردات وأكبرها فيورد هاردينجر Hardangerfjord ، وتتميز هذه السلسلة بقلة سكانها لبرودتها وقسوة بيئتها إلا من بعض قبائل اللاب التى احتمت فيها واتخذتها ملجأ وتقوم برعى قطعان الرنه بها .

(ب) السهول .

تمثل السهول الأوروبية والمناطق المنخفضة فيها بؤرة النشاطات البشرية المختلفة ومن ثم كانت أهميتها بالنسبة للحضارة الأوروبية ويوجد معظم هذه السهول فى الأجزاء الشمالية والشرقية من القارة فى حين أن المناطق الجنوبية تسودها الجبال . ويمتد أكبر المناطق السهلية المتصلة من سفوح جبال البرانس فى جنوب فرنسا فى شكل قوس فى اتجاه الشمال على طول الساحل الأطلنطى وشواطىء بحر الشمال إلى الأراضى الألمانية حيث يبدأ السهل فى الاتساع عبر بولنده وشرقا إلى داخل روسيا حيث يصل أكبر اتساع له إذ يغطى عرض القارة . ويعرف هذا السهل باسمين : السهل الأوروبى الشمالى وسهل أوروبا الشرقية . ويتكون هذا السهل من أجزاء

متعددة لكل جزء منه أهميته البالغة لشعوب القارة . ومن ثم يمكن تقسيمه من الغرب إلى الشرق إلى الأجزاء التالية : —

١ – سهل أكوتين Aquitaine :

يقع هذا الحوض فى جنوب فرنسا ويقوم بتصريفه نهر جارون الذى يمر بمدينتى بوردو وطولوز . ويتكون الحوض عموما من تربات جيرية خصبة إلا فى ذلك الجزء الذى يطل على الساحل الأطلنطى الذى يتكون من تربة رملية فقيرة التصريف وقليلة السكان ويعرف بأقليم اللاند Landes ، ويتصل هذا الجزء بحوض أكوتين عبر ممرات ضيقة فى الشرق والشمال . ويفتح ممر كاركسون Carcassone سرقا على ساحل البحر المتوسط بينما تقع بوابة بواتيه Gate of Poitou إلى الشمال وهى ممر سهلى عرضه حوالى ٦٥ كم ويؤدى إلى داخل فرنسا فى اتجاه باريس وقد دخلت القوات الاسلامية الحوض عبر بوابة كاركاسون واتجهوا شمالا نحو بوابة بواتيه حيث هزموا على يد القوات الفرنكية . وفى وقت لاحق أصبح الحوض موضعا لنواة طبيعية لنمو وتطور دولتى الكويتين وغاسكونيا Gascogne الإقطاعيتين وكان اتجاه الحوض نحو المحيط الأطلسى سببا فى وقوعه تحت سيطرة ملوك انجلتره فيما بعد .

٢ – حوض باريس Paris Basin :

يحتل هذا الحوض جزءا كبيرا من شمال فرنسا ، ويتكون من مجموعة من الأحواض المتوازية التى تتسع فى اتجاه الخارج من جزيرة فرنسا Ile de France التى تكون أصغر الأحواض حجما وتقع فى الوسط وتوجد بها العاصمة باريس . وترتفع الأرض فى كل اتجاه من المدينة حتى تصل إلى الكويستا الخارجية ومن سطح هذه الكويستا تبدأ المنطقة الريفية فى ارتفاعها حتى تصل إلى كويستا أخرى وهكذا نجد عددا من الكويستات كما فى الشرق حيث توجد سبع كويستات متقطعة الشكل . ونسبة للوجهة الخارجية لهذه الكويستات فقد كانت لها قيمة دفاعية كبيرة فى حروب فرنسا مع ألمانيا وكان الوصول إلى باريس يتطلب من الغزاة اقتحام هذه الحيطان الطبيعية وتحصينات الفرنسيين خاصة فى الشرق والشمال ، وكانت مدينة فيردون Verdun التى تقع فى سفح إحدى الكويستات الشرقية مسرحا لحرب

ضروس لمدة ستة أشهر فى الحرب العالمية الأولى راح ضحيتها ٦٠٠ر٠٠٠ شخص من الألمان والفرنسيين فى سبيل السيطرة على هذا المنحدر الاستراتيجى .

٣ – السهل الانجليزى :

يحتل هذا السهل الجزء الجنوبى الشرقى من الجزيرة البريطانية ويكون من نواح عديدة امتدادا لحوض باريس إذ توجد به مجموعة من الكويستات التى تتجه نحو الغرب ، أما مرتفعات شيلترن Chilterns وكوتسوولد Cotswold فتقع على طول الكويستات وتغطى الغابات أجزاء كبيرة منها . وتوجد أودية طولية ذات اتجاه جنوب غربى – شمال شرقى عند السفح الشرقى لهذه المنحدرات مثل وادى أكسفورد Vole of Oxford وسهل الفن Fens الذى كان تغطيه المستنقعات . وكما حدث فى حوض باريس كان السهل الانجليزى نواة للدولة الانجليزية التى أنشأتها القبائل الجرمانية الوافدة من القارة .

٤ – سهل الفلاندرز Flanders :

يبدأ السهل الأوروبى فى الضيق فى اتجاه شمالى من حوض باريس مكونا بوابة واسعة تتمركز فى غربه بلجيكا ، ولموقع هذا السهل قيمة استراتيجية إذ هزم نابليون فى مدينة واترلو Waterloo الواقعة هنا ، ويمكن أن نعزو وجود بلجيكا كدولة مستقلة جزئيا إلى عدم رغبة كل من فرنسا وألمانيا فى السماح للأخرى باحتلال هذه المنطقة الاستراتيجية .

٥ – الأراضى المنخفضة :

تقع هذه الأراضى التى تتكون من سهل شديد الانبساط إلى الشمال من سهل الفلاندرز وهى عبارة عن دلتا كونتها أنهار الراين والماس والشلد والامز وأنهار أخرى صغيرة . ويقع معظم هذه الأراضى فى هولنده (نيثرلاند Netherlands أو ندرلاند Nederland التى تعنى « الأرض المنخفضة أو السفلية) إذ يقع جزء كبير من هذه الأراضى تحت مستوى البحر ويشكل الانخفاض المستمر لها مستقبلا قاتما على المدى البعيد . وتتميز هذه الأراضى التى استصلحها الهولنديون ويكافحون

للمحافظة عليها بالخصوبة ولكن هناك أجزاء منها تتكون من تربات رملية ومناطق مستنقعية وسبخيه تشمل إقليم كيمبنلاند Kempenland على الحدود البلجيكية الهولندية .

٦ – السهل الألمانى الشمالى North German Plain

تندمج الأراضى المنخفضة تدريجيا مع السهل الألمانى الشمالى الذى يشمل حسب التعريف التقليدى شمال ألمانيا وكل الدنمارك وأجزاء كبيرة من بولنده . ويبدأ السهل فى الاتساع فى اتجاه الشرق من ١٦٠ كم عند التقائه بالأراضى المنخفضة إلى ٤٨٠ كم فى بولنده . ويختلف هذا السهل من الأراضى المنخفضة فى أن سطحه كثير التعاريج ويتميز بعدم الانتظام نتيجة تعرضه للتعرية الجليدية من الثلاجات التى انتشرت جنوبا من منطقة اسكندناوه ويتناثر على السطح سلاسل متوازية من الركامات والارسابات الجليدية التى تمتد فى اتجاه شرق – غرب عبر السهل الألمانى من شبه جزيرة جيلاند الدنماركيه Jylland إلى بولنده الشمالية فى محازاة الشاطىء البلطى ، وتوجد بين هذه السلاسل نطاقات واسعة تغطيها طبقة من الركامات السفلية أو العزق Till الذى يتميز سطحه بعدم الانتظام إذ توجد بها منخفضات يحتوى بعضها على بحيرات وتنحصر فى المناطق الساحلية من السهل الألمانى حول بحر البلطيق . ولم تخلُ المناطق الواقعة خارج الثلاجات الجليدية من تأثيرها إذ كانت الأنهار الصغيرة تحمل ذرات الرمل الناعمة والحصى وترسبها مكونة ما يسمى بسهول الدرش outwash التى تكون حتى اليوم مناطق غير خصبة تنمو فيها نباتات الخلنج Heath (وتسمى القيست Geest) مثل خلنج لونيبرجر فى جنوب مدينة هامبورج . ولكن العصر الجليدى كان أيضا سببا فى وجود مناطق خصبة جدا فى ألمانيا فقد حملت الرياح ذرات دقيقة من الارسابات الجليدية جنوبا وأرسبتها عند سفح التلال مكونة ما يسمى بتربة اللويس Loess المعروفة بخصوبتها الشديدة وسهولة تفتتها . وقد تجمعت أكثر تربات اللويس عمقا فى تجاويف السهل الشمالى التى تعرف بالبورد Borde والتى تمتد فى بعض المناطق إلى داخل التلال الوسطى وقد جذبت هذه المنطقة كثافة سكانية عالية منذ بداية الزراعة فى ألمانيا بينما كانت

المناطق ذات التربات الرملية الفقيرة (Geest) أقلها من حيث الكثافة السكانية ومسرحا لرعى الضأن . وفى منطقة اللويس نشأت دولة بروسيا التى توحدت ألمانيا تحت سلطتها . ويكن أن نفسر النزعة العسكرية عند البروسيين بحاجتهم للدفاع عن أنفسهم فى هذه المنطقة المكشوفة التى تخلو من الموانع الطبيعية .

٧ – سهول اسكندناوه :

يمكن أن نعتبر معظم المنطقة الجنوبية من السويد وجزءا من فنلنده سهولا وإن كان من الصعب إطلاق اسم موحد عليها . وقد تعرضت هذه السهول أيضا للتعرية الجليدية وتبدو آثارها فى حافتين فقريتين كبيرتين تعرف باسم « سالبوسيلكا » Salpausselka وتجرى موازية للساحل الجنوبى لفنلنده وخلفها توجد مجموعة كبيرة من البحيرات . كما تكثر بحيرات الأسكر Eskers فى أواسط فنلنده حيث تستخدم كوسيلة نقل بين أجزاء الدولة المختلفة .

٨ – سهول أوروبا الشرقية :

يبدأ السهل فى الاتساع إلى الشرق من بولنده وفنلنده ليشمل امتداد عرض روسيا من الجنوب إلى الشمال ، ويمكن أن نطلق على هذه المنطقة اسم سهول أوروبا الشرقية رغم أن أجزاء منها تحمل أسماء محلية مثل حوض المن Ilmen Basin ومنخفض دنيبر Dneper Basin . وتوجد بعض التلال المنخفضة المتناثرة التى تغير من المنظر الرتيب لهذه السهول التى تمتد على مدى البصر . كما توجد ثلاث حافات ذات وجهة جنوبية فى النصف الجنوبى من هذه السهول وتجرى أنهار الدنيبر والدون والفولجا عند السفح الشرقى لإحدى هذه الحافات بينما تقطعت هضبة الكويستات بواسطة التعرية لتكون سهولا متموجة وتلالا منخفضة ، كما يظهر القطاع الشمالى من السهول سطوحا غير منتظمة نتيجة التعرية الجليدية التى ساعدت فى تشكيل كثير من الظاهرات التى تتميز بها .

وتمثل هذه السهول موطن الشعوب السلافية التى استطاعت الصمود ضد عديد من الغزاة وإلحاق الهزيمة بهم ، وتكوين أمة قوية هى الاتحاد السوفيتى . وفى هذه

السهول الشاسعة ذات المناخ القارى هزمت جيوش نابليون وهتلر كما أن فيها كسرت شوكة كثير من القبائل المغيرة مثل التتر والأتراك

٩ . سهل ولاشيا (Valachia, Walachia) :

يكون هذا السهل امتدادا ضيقا من السهل الأوروبى الشرق من ناحية الغرب حول مجرى نهر الدانوب الأدنى فى جنوب رومانيا ، وشهد هذا السهل مرور العديد من القبائل من المهاجرين والغزاة عبره نذكر منهم الهون Huns والصقالبه Slavs والماغيار Magyars والمغول Mengols . ويكون سهل ولاشيا قلب رومانيا التى استطاعت أن تحافظ على اللغة الرومانسية وسط هذه المنطقة السلافية .

١٠ . حوض المجر :

هذا الحوض من ضمن المناطق السهلية المنبسطة التى توجد متناثرة فى الجنوب وسط السلاسل الجبلية . والتى لها أهمية كبرى من الناحية الاقتصادية رغم صغر أحجامها بالمقارنة مع السهول المذكورة آنفا . ويمثل حوض المجر أكبر هذه المناطق السهلية ويوجد على جانبى القطاع الأوسط من نهر الدانوب ويمتد من المجر إلى حدود يوغسلافيا والنمسا ورومانيا وتشكوسلوفاكيا والاتحاد السوفيتى وتحيط به من الشمال الشرق جبال الكربات ومن الجنوب جبال الألب الدينارية وجبال الألب النمساوية من الغرب ، ولكن الحوض سهل الاتصال عبر ممرات عديدة . فإيطاليا يمكن الاتصال بها عن طريق ممر شجرة الأجاص Pear Tree Pass بينما يقع سهل ولاشيا جنوب روسيا خلف البوابة الحديدية على الدانوب حيث يفصل النهر جبال الكربات من سلسلة جبال البلقان ، وعند الركن الشمالى الغربى من الحوض تتيح بوابة مورافيا الاتصال بسهول بولنده بينما يؤدى وادى الدانوب الأعلى إلى ما بعد فيينا وجنوب ألمانيا . أما اليونان ومنطقة بحر إيجه فيمكن الوصول إليها من خلال منخفض مورافيا - الفاردار Morava - Vardar وهو وادى إنكسارى يقع بين سلسلتى جبال البلقان والألب الدينارية ، كما توجد ممرات كثيرة منخفضة فى جبال الكربات تقود الى روسيا . وعبر هذه الممرات العديدة وجدت مجموعات لغوية عديدة طريقها إلى الحوض إما كغزاة أو كمهاجرين لاجئين ، ولذلك كان لهذا الحوض تاريخ

مضطرب . فقد كان منطقة صراع بين الرومان والقبائل البربرية وبين الأتراك المسلمين والمسيحيين وبين قبائل الهون والألمان وبين الماغيار والصقالبة . كما كانت هذه الممرات تكون منافذ تجارية تنقل عبرها – خاصة بوابة مورافيا – البضائع منذ آلاف السنين .

١١– وادى نهر البو Po (سهل لمبارديا) :

يمثل وادى البو أكبر المناطق السهلية فى إيطاليا وهو فى الواقع استمرار للمنخفض البنيوى الذى يحتل البحر الأدرياتى جزءا منه وملئت بالمواد التى جلبتها الأنهار من الجبال المحيطة . وقد أرسبت الثلاجات المنحدرة من جبال الألب إلى أطراف الوادى ركامات تسببت فى حجز مصبات فروع الأودية الألبية مكونة مجموعة الطبيعية من البحيرات الطبيعية مثل «كومو Come » و« ماغيورى Maggiore » و «لوغانو Lugano » وأسيو Iseo » و « جاردا Garda » . وإلى الجنوب من الحواجز الركامية توجد سهول درشيه Outwash وخلفها يقع الجزء الأكبر من وادى البو ذات التربات الغرينية الخصبة . وعند التقاء سهول الدرش والتربات الغرينية يصل منسوب المياه الجوفية إلى السطح مما أدى إلى وجود خط من الينابيع يمتد من الشرق إلى الغرب يعرف باسم « فونتانيلى Fontanili »تتجمع حولها المساكن منذ وقت طويل ويضم الوادى مجموعة من المدن مثل تورينو وميلانو كما توجد مجموعة أخرى من المدن على طول الطرف الجنوبى من الوادى عند سفح جبال الابناين مثل « بارما Parma وموديناModena وبولونيا Bologna » أما الجزء الغربى من الوادى فيكون قلب إيطاليا الصناعى كما يحتوى على نواة الدولة الحديثة (بيمونت) Piemont .

١٢– سهل لانقويدوك Languedoc :

يمثل هذا السهل بوابة فرنسا إلى حوض البحر المتوسط. وهو عبارة عن سهل ساحلى ضيق يمتد من جبال البرانس إلى منطقة الريفيرا كما يتصل بباقى أجزاء فرنسا عن طريق ممرين : بوابة كاركسون إلى حوض أكويتين من الغرب وممر الرون ساوون Rhone-Saone شمالا إلى حوض باريس .

١٣- سهول شبه جزيرة أيبريا :

تقسم السلاسل الجبلية شبه جزيرة أيبيريا إلى مجموعة من السهول المنفصلة يمثل كل حوض منها موطنا لمجموعات حضارية متميزة وينحصر سهل الأندلس بين جبال بيتكو Betico وسييرا موريا Sierra Morena فى جنوب أسبانيا ويتميز ببساتين أشجار الزيتون والأسماء العربية ويشقه نهر الوادى الكبير Rio Guadalquivir

أما السهل البرتغالى فيطل على المحيط الأطلنطى ويعد أكثف مناطقها سكانا وزراعة . وبينما يمثل وادى نهر الابرو Ebro والسهل الساحلى المجاور فى شمال شرق أسبانيا موطن قطلونيا الذين يتكلمون لغة رومانسية فريدة . أما سهول أسبانيا الداخلية التى يسكنها القسطليون ففيها تتركز السلطة السياسية . وتحتل هضبة الميزيتا وسط شبه الجزيرة وتنقسم إلى منطقتين بواسطة جبال سييرا الوسطى : منطقة حوض قسطله القديمة فى الشمال وحوض قسطله الجديدة فى الجنوب الذى يشمل سهول لامانشا La Mancha وبها العاصمة مدريد .

وتوجد سهول صغيرة متناثرة فى أجزاء كثيرة من جنوب أوروبا لها أهميتها المحلية زراعيا .

(ج) المرتفعات .

تحتل المرتفعات الأجزاء الوسطى من القارة الأوروبية ، ويمتد نطاق ممزق من التلال والجبال المنخفضة من نورماندى وبريتانى فى الغرب وعبر فرنسا وألمانيا الوسطى إلى تشكوسلوفاكيا الغربية فى الشرق وتتكون هذه المنطقة كلها من مرتفعات ذات أسماء محلية متميزة وتتخللها وديان وأحواض صغيرة وممرات منخفضة . ومن أشهر هذه المرتفعات الهضبة الفرنسية الوسطى Central Massif والأردن Ardennes فى بلجيكا ولوكمسبورج والفوزج Vosges والغابة السوداء Black Forest فى الحدود الفرنسية والألمانية ، والجورا Jura التى تمتد من سويسرا وفرنسا إلى داخل جنوب ألمانيا ، والهارتز Hartz وارزبيرج Erzbbirge وغابة ثورينجر Thuringer Forest فى ألمانيا الشرقية والسوديتز Sudetes

وغابة بوهيميا Bohemian Forest على حدود تشكوسلوفاكيا . ومن المنخفضات المتناثرة وسط هذه التلال ممر الرون – ساوون إلى الشرق من الهضبة الفرنسية الذى يؤدى فرع منه إلى سهل الراين الأعلى عبر بوابة بلفورت أو بورغنديا Belfort or Burgundia الواقعة بين جبال الفوزج وجورا . ويوجد سهل مرتفع بين جبال جورا والألب فى الهضبة السويسرية والبفارية ، بينما يوجد حوض بوهيميا فى غرب تشكوسلوفاكيا . وقد لعبت هذه السهول دورا مهما كطريق للغزاة ومسلك للتجار بينما منحت التلال الحماية وأصبحت ملاجىء لكثير من القبائل المستضعفة .

وتوجد مجموعة من المرتفعات فى الجزر البريطانية مثل كورنوول Cornwall وجبال كامبريا Cambria والبناين ومنطقة البحيرات ومرتفعات أسكتلنده ، ثم جبال نوكميلداون Knockmealdown ومورن Mourne وكونيمارا Connemara وكيرى فى أيرلنده . وتمثل هذه المرتفعات ملاجىء الشعوب الناطقة باللغة السلتية والغالية والتى احتمت بها تحت ضغط الشعوب الجرمانية التى نزحت إلى الجزر البريطانية .

الفصل الثالث

مناخ أوروبا

(١) العوامل التى تتحكم فى مناخ القارة :

لكى نفهم مناخ أى جزء من أجزاء العالم يجب أن نضع فى اعتبارنا عاملين مؤثرين :

أولا : العامل الأرضى وخاصة الموقع المطلق على الكرة الأرضية والوضع بالنسبة للكتل المائية والأرضية وتضاريس الأرض .

ثانيا : عامل المؤثرات الجوية التى يمكن فهمها بدراسة عناصر المناخ .

وفيما يختص بأوروبا يمكن تلخيص المؤثرات الأرضية فيما يأتى :

١ - أوروبا هى القارة الوحيدة التى تقع كلية بين العروض المعتدلة (٣١°و٧١° شمالا) فساحلها الجنوبى يقع إلى الشمال من مدار السرطان (٢٣½ درجة شمالا) فى حين أن جزءا صغيرا منها يمتد خلف الدائرة القطبية الشمالية (٦٦½ درجة شمالا) . ويمكن أن نطلق على تلك الأجزاء المتطرفة من أوروبا تعبير شبه مدارى Subtropical وشبه قطبى Subarctic على التوالى ولكن مناخ هذه المناطق مرتبط ارتباطا وثيقا بالدورة الجوية للأقاليم المعتدلة أكثر من اتباطها بالدورات الجوية المدارية أو القطبية .

٢ تحتل أوروبا الجزء الغربى من أكبر كتلة أرضية وهى قارة آسيا كما تقع حول الأطراف الشرقية لمسطح مائى كبير وهو المحيط الأطلسى .

٣ تخلو أوروبا من جبال اعتراضية كالتى نراها فى أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية تمنع الرياح البحرية المحملة بالرطوبة من التوغل إلى داخل القارة مما يجعلها مفتوحة أيضا لتأثير الرياح الآتية من داخل القارة .

٤ – تمتد سلسلة من الجبال المتصلة من شمال غرب أيبريا عبر جنوب وسط فرنسا إلى جنوب شرق أوروبا مما يمنع تبادل الكتل الهوائية المدارية والقطبية بين جنوبي وشمالي هذه السلسلة الجبلية . ولذلك فإن المجموعة الجبلية الألبية . وخاصة أجزاءها الوسطى والغربية ، تمثل تقسيما حادا فى المناخ والطقس بين جزئى أوروبا .

٥ – تحيط بأوروبا مسطحات مائية من ثلاث جهات وتتوغل أجزاء من هذه الأجسام المائية داخل القارة . ومن تأثير هذا الموقع الهام أن حرارة الماء حول الشواطىء القريبة لأوروبا أثناء الشتاء تكون أدفأ بكثير من حرارة الأرض المجاورة ولذلك نجد أن الجزء الشمالى الشرقى من المحيط الأطلسى تزود بكميات مستديمة من المياه السطحية الدافئة وذلك عن طريق تيار الخليج الدافىء والتى تدفعها الرياح الجنوبية الغربية نحو الشواطىء الأوروبية . وأهمية تيار الخليج الدافىء كعامل مناخى مبالغ فيه إلى حدما ... فصحيح أن موانىء غربى أوروبا وشمالى اسكندناوة حتى ميرمانسك تظل خالية من الجليد ومفتوحة طوال العام وذلك من تأثير هذا التيار ولكن أثره على درجة حرارة القارة غير مباشر اذ يتم ذلك بواسطة مياه المحيط الدافئة وخاصة فى فصل الشتاء عندما تتعرض الطبقات السفلى للكتل الهوائية الباردة الآتية من الشمال للتدفئة أثناء مرورها فوق البحر لتصل أوروبا وهى دافئة نسبيا : ولكن السبب الأساسى لاعتدال مناخ غربى أوروبا يرجع إلى الدورة الجوية .

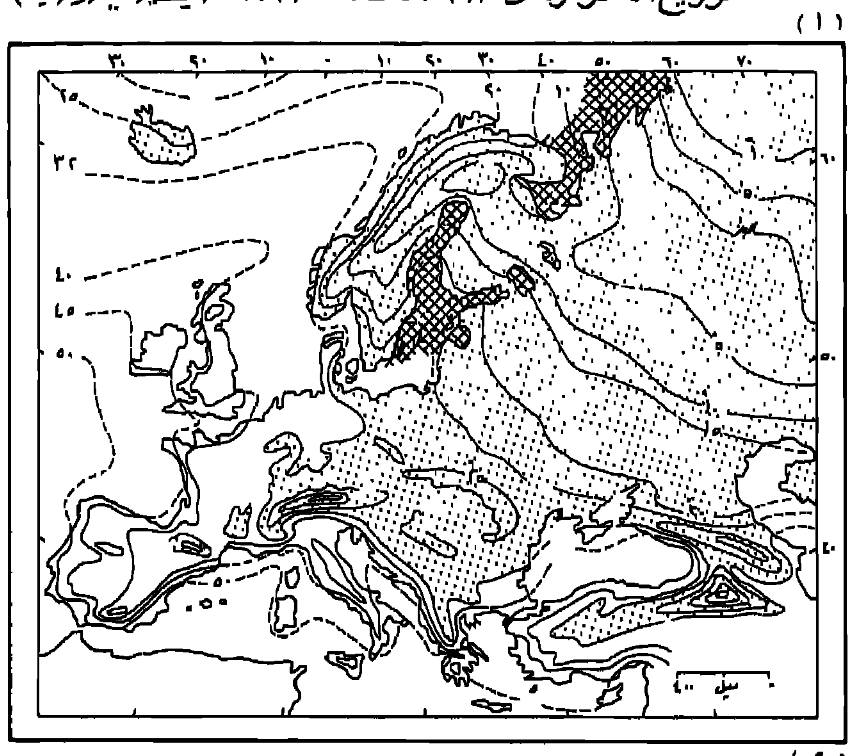
تتحكم خمسة نظم ضغط جوى على الطقس فى أوروبا كلها تتركز خارج أوروبا معظم الوقت ويطلق عليها « مراكز الحركة » لمسؤوليتها فى قيادة وتوجيه كتل هوائية ذات خصائص مختلفة فوق القارة وكذلك فى تحديد اتجاه وسرعة الرياح . وهذه النظم هى : – (الشكل ٦)

١ – منطقة الضغط المنخفض الدائم الكائنة فى شمال الأطلسى بين اسكندناوه وجرينلنده وتعرف عامة بالمنخفض الأيسلندى Icelandiclow

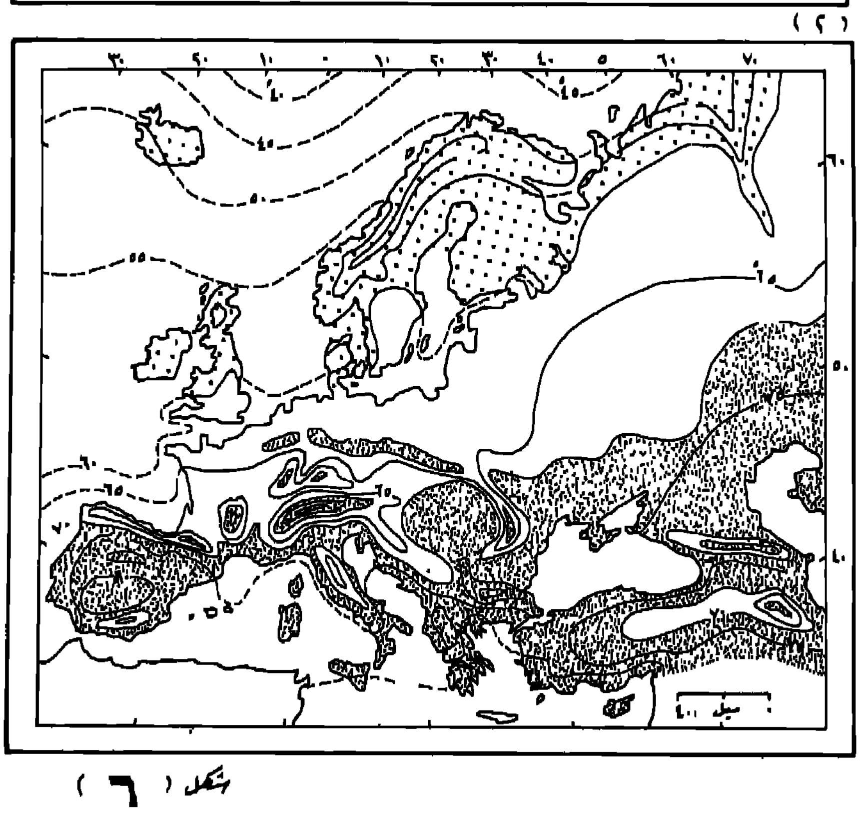
٢ – منطقة الضغط العالى المتمركز باستمرار على المحيط جنوب غرب شبه جزيرة أيبريا وتسمى ضغط الآزور العالى : Azores High

توزيع الحرارة فى (١) الشتاء (٢) الصيف (بالفهرنهايت)

(١)



(٢)



شكل (٦)

٣ – منطقة الضغط المنخفض فى البحر الأبيض المتوسط فى الشتاء ويعرف ب Mediterranean Low

٤ – مركز الضغط العالى الواقع حول بحيرة بيكال فى شمال شرق آسيا فى الشتاء ويسمى الضغط العالى السيبيرى Siberian High .

٥ – منطقة الضغط المنخفض فى جنوب غربى آسيا ويعرف بالمنخفض الموسمى .

فبينما يتحكم توزيع الضغط على الدورة الجوية . فان الكتل الهوائية Air masses والجبهات Fronts تمثل فى الواقع الأسباب المباشرة وراء أحوال الطقس فى أوروبا . ولأن هناك خمس كتل هوائية رئيسية تؤثر فى طقس القارة فصليا أو بصفة دائمة فهناك عدة أنواع من الطقس خلال السنة . أما الجبهات الفاصلة بين الكتل الهوائية المختلفة فهى تكون فى قمة نموها وتطورها فى فصل الشتاء عندما يكون التباين الحرارى فوق مناطق مختلفة من القارة والمناطق المجاورة كبيرا . اما الكتل الهوائية الخمسة فهى : (الشكل ٧) .

جدول ٣ :

الكتل الهوائية : مصادرها وخصائصها

الكتلة	المصدر	الخصائص	فصل الحدوث
١ – القطبية p	البحر القطبى	بارد جدا وجاف	الشتاء
٢ – القطبية البحرية pm	شمال الأطلسى	بارد ورطب	طول الشتاء
٣ – القطبية القارية c	أوروبا الشرقية وآسيا	بارد وجاف	الشتاء . الصيف
		دافىء وجاف	
٤ – مدارية بحرية Tm	الأطلسى الأوسط	دافىء ورطب	طول السنة
٥ مدارية قارية I	جنوب غربى آسيا	حار وجاف	الصيف

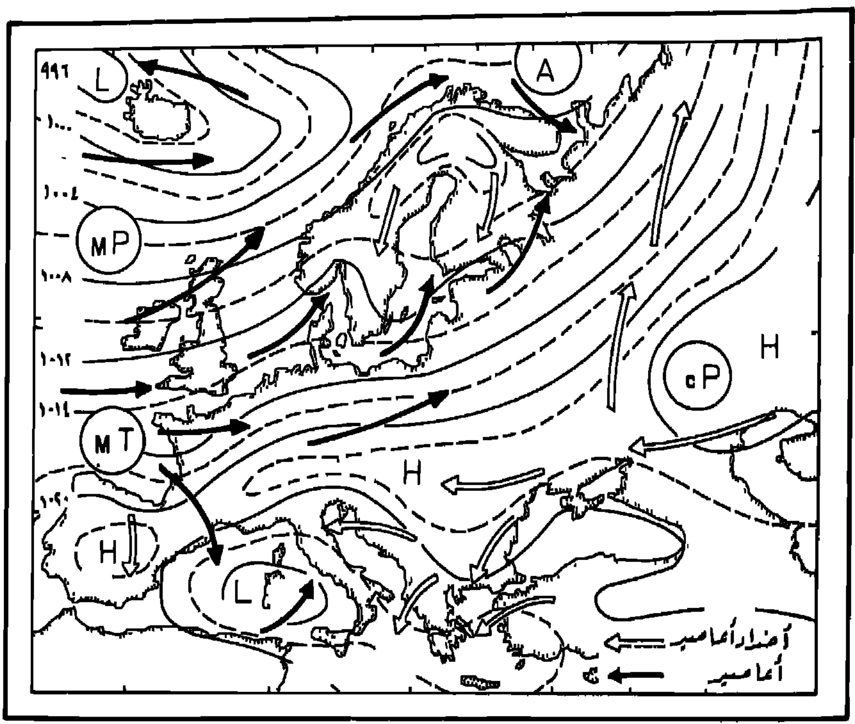
الأقاليم المناخية (الشكل ٨) :

(١) مناخ الساحل الغربى البحرى : Maritime West Coast :

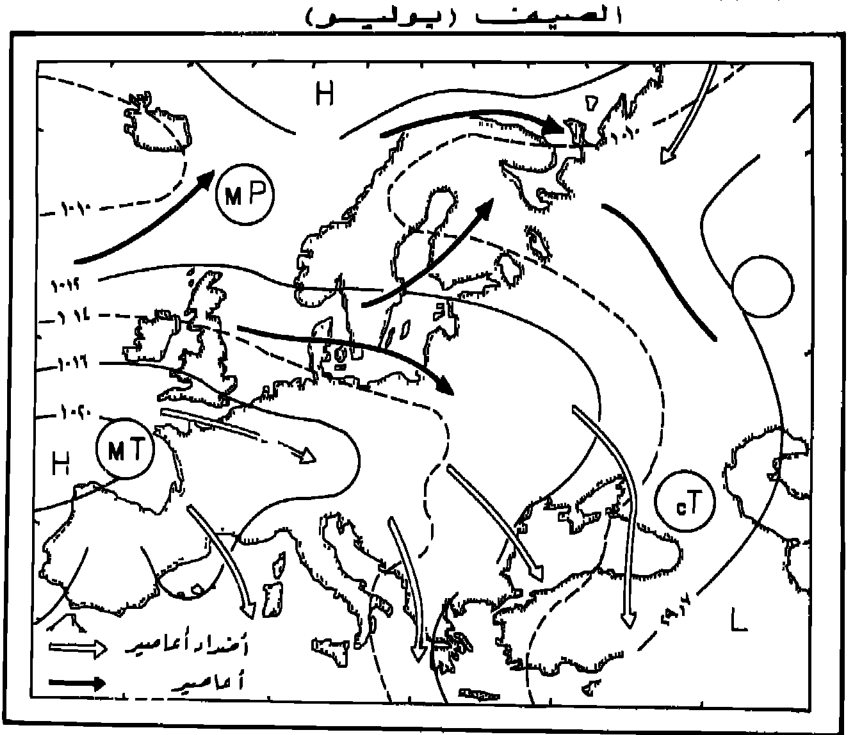
يدل الاسم على موقع الإقليم الذى يتمتع بهذا النوع من المناخ وأيضا على الكتل الهوائية السائدة فيه . يسود هذا المناخ فى الجزر البريطانية وشمال شبه جزيرة أيبريا ومعظم

توزيع الضغط والدورة الجوية والكتل الهوائية

الشتاء (يناير)



الصيف (يوليو)



شكل (٧)

الأقاليم المناخية
٦٠٠ كم
إقليم الساحل الغربي البحري
إقليم البحر الأبيض المتوسط
إقليم القاري الرطب (الصيف البارد)
إقليم القاري الرطب (الصيف الدافئ)
إقليم شبه القطبي
إقليم التندرا
إقليم شبه المداري الرطب
إقليم الجبلي
إقليم الاستبس
الأطلنطي
برجن
باريس
لندن
خليج بسكاي
روما
البحر الأسود
البحر الأبيض
المتوسط

شكل (٨)

أجزاء فرنسا الشمالية والغربية وغربى ألمانيا الغربية والأراضى المنخفضة وجزء من منطقة الفيوردات النرويجية . تتميز الحرارة هنا بالاعتدال طوال السنة : فالشتاء أدفأ نسبيا بينما الصيف معتدل اميل إلى البرودة كما يـندر التجمد عند مستوى البحر ، وحتى فى أبرد شهور السنة يبقى متوسط درجة الحرارة فوق الصفر ولكنها تنخفض عامه دون ٧° مئوية . أما المدى الحرارى السنوى فإنه صغير ويصل فى المتوسط إلى ١٠ درجات مئوية كما فى دبلن وإلى ٧ درجات مئوية فى تورشافن فى جزر فاروى . ومما يدل على اعتدال شهور الشتاء فى هذا الإقليم أن معظم ليالى لندن الشتوية تكون خالية من الصقيع رغم أن هذا لا يمنع حدوث موجات برد قارصة وإن كان كثير من فصول الشتاء تمر دون مثل هذه الموجات . فنى لندن مثلا انخفضت درجة الحرارة فى فبراير عام ١٩٢٩ إلى ١٦° مئوية دون الصفر ، وظلت الحرارة فى حالها من الانخفاض لمدة ٢٢٦ ساعة ولكن وجود بعض أشجار النخيل فى الشواطىء الجنوبية الغربية من أيرلنده يشير دون شك إلى اعتدال الشتاء . أما الصيف فتميز باعتداله المائل للبرودة ، وكما فى بعض شهور الشتاء قد تحدث أحيانا أن تجتاح بعض مناطق هذا الإقليم موجات حر تصل أثناءها الحرارة إلى أكثر من ٣٢° مئوية (أعلى درجة قياسية فى باريس وصلت إلى ٣٨° مئوية) .

ونسبة لأن الكتل الهوائية البحرية تحتوى على كميات كبيرة من الرطوبة فإن هذه السواحل الغربية تتميز برطوبتها العالية وبأمطارها التى تسقط طوال العام ، وعادة ما تتراوح الكمية التى تسقط من الأمطار سنويا ما بين ٥٠و١٠٠ سم (٢٠ إلى ٤٠ بوصة) ولكن هناك بعض الأماكن التى تصيبها أمطار أغزر حسب الموقع ، فالأماكن السهلية تتسم بأمطار أقل بالمقارنة مع المناطق المرتفعة الساحلية (ومثلا باريس ٥٨ سم (٢٣ بوصة) ولندن ٦٢ سم (٢٥ بوصة) سنويا . ونسبة لقلة التبخر نظرا لانخفاض الحرارة والسحب التى تغطى السماء عادة فإن هذه الكمية من الأمطار رغم قلتها تبعث إلى جو رطب . أما المناطق الواقعة فى أو عند الجهات الغربية من التلال والجبال فإن أمطارها أغزر عادة كما فى فرايبيرج – أم – برايسقاو Freiburg-im-Breisgau فى ألمانيا الغربية والواقعة عند سفح جبال الغابة

السوداء التى يبلغ متوسط أمطارها السنوية ٨٦ سم (٣٤ بوصة) بينما يبلغ متوسط الأمطار السنوية الساقطة على المنحدرات التى تطل على مدينة بيرجن Bergen النرويجية الواقعة على الأطراف الغربية من سلسلة جبال كيولين Kjolen ٢١٣ سم (٨٤ بوصة) . ويرجع السبب فى هذه الزيادة إلى عامل التضاريس التى تتسبب فى الارتفاع الإجبارى للكتل الهوائية المحملة بالرطوبة وتكثفها واسقاط ما تحمله من بخار على المنحدرات الغربية .

ورغم هطول الأمطار على مدار السنة فإن كمية التساقط قليل فى الحقيقة وينزل معظمه فى شكل رزاز وأمطار هادئة . ومثلا يتم سقوط الكمية السنوية من الأمطار التى تهطل فى باريس (٥٨ سم أو ٢٣ بوصة) خلال ١٨٨ يوما أى حوالى ٠ر٣٠ سم لكل يوم ممطر وهذا يشمل أكثر من نصف أيام السنة . وقد حدث أن شهدت لندن ٧٢ يوما ممطرا على التوالى . أما السماء فتكون ملبدة معظم الوقت بالغيوم وتقل الأيام المشمسة عادة فى كثير من المناطق ففى الجزر البريطانية يقل عدد الساعات التى تظهر فيها الشمس من ١٥٠٠ ساعة فى السنة كما يكثر الضباب والشبورة فى كثير من المناطق خاصة الساحلية منها والأماكن المنخفضة الداخلية . وتشهد مدينة دنماركيه فى المتوسط ٥٤ يوما ضبابيا فى السنة وهذا الجو الكئيب هو الذى يدفع الكثيرين من سكان هذه المناطق إلى زيارة المناطق الجنوبية المشمسة وقضاء أجازاتهم فيها .

وهناك رياح محلية تلطف الطقس فى أماكن محدودة من هذا الاقليم مثل رياح الفوهن Fohn التى تهب على المناطق الجنوبية من ألمانيا . وهى رياح دافئة وجافة تأتى من الجنوب عبر جبال الألب إثر مرور أحد مراكز الضغط المنخفض على الجزء الجنوبى من ألمانيا وعندما تنحدر الرياح عبر منحدرات الألب الشمالية تصبح جافة ودافئة وتسبب فى تلطيف الحرارة وتخفيض الرطوبة . وتصبح السماء أكثر صحوا . كما تقل الرياح الهوج مثل الأعاصير (التورنادو Tornadoes والـ Hurricanes) التى تتسبب فى خسائر فادحة فى المناطق التى تهب عليها مثل الولايات المتحدة . وكذلك العواصف الثلجية كالتى تجتاح السهول العظمى فى أمريكا .

(٢) مناخ البحر الأبيض المتوسط :

يسود هذا النوع من المناخ فى تلك المناطق من القارة التى تطل على حوض البحر الأبيض المتوسط خاصة أشباه الجزر الثلاثة أيبريا وإيطاليا واليونان وكذلك ساحل فرنسا الجنوبى والساحل الأدرياتى اليوغسلافى ومجموعة الجزر الأوروبية المتناثرة على هذا البحر . ومن أهم مميزات هذا المناخ :

١ – تركز التساقط فى فصل الشتاء وجفاف أشهر الصيف . وعموما يصل ما يتساقط من أمطار فى ربع السنة المكون من شهور الصيف يونيو ويوليو وأغسطس إلى أقل من عشر التساقط السنوى . ويتميز شهر يوليو بجفافه الشديد إذ يصل متوسط ما يسقط فيه من أمطار إلى ٥٠ر٠ سم فى لشبونه (البرتغال) و ٨ر١ سم فى روما (إيطاليا) و ٨ر٠ سم فى أثينا (اليونان) . وتعكس فصلية التساقط هذه الموقع الانتقالى لحوض البحر المتوسط بين مناخ السواحل الغربية الرطب فى الشمال ومنطقة الصحراء الكبرى الجافة فى الجنوب . فنى الشتاء يقع الحوض فى نطاق الرياح الغربية ومسار الكتل الهوائية والأعاصير المسببة للأمطار بينما يصبح فى الصيف تحت تأثير منطقة الضغط الآزورى العالى المتمركز فى جنوب الأطلسى مما يؤدى إلى سيادة طقس جاف وحار . وتتلقى السهول تساقطها فى شكل أمطار بينما يهطل الجليد فى المناطق الجبلية المرتفعة . . ولهذا الجليد الذى يتراكم فى قمم الجبال أهمية كبرى عند مزارعى المنطقة إذ يعتمدون على المياه الذائبة منه فى رى حقولهم فى فصل الصيف الحار الجاف .

٢ - الحرارة فى هذه المنطقة أدفأ بالمقارنة مع المناطق الساحلية البحرية نسبة لموقعها الجنوبى ولقلة الغطاء السحابى . وتتميز شهور الصيف بالحرارةالعالية إلا فى الأماكن المطلة على ساحل المحيط الأطلسى إذ يصل متوسط درجة الحرارة فى يوليو ما بين ٢١ و ٢٩ درجة مئوية وأعلى درجة وصلت فى أثينا كانت ٥ر٤٠ درجة مئوية . ولكن الرطوبة النسبية تكون منخفضة فى الصيف ولذلك تصبح الليالى أكثر برودة من ساعات النهار .

أما فصل الشتاء فيتميز باعتداله ودفئه وتخلو المنطقة من فترات الصقيع الطويلة

إلا فى الجبال ولذلك تزدهر بساتين الحمضيات فى المناطق السهلية مما يشير إلى عدم حدوث فترات باردة . أما السحب فهى قليلة خاصة فى فصل الصيف وتصل الساعات التى تسطع فيها الشمس إلى أكثر من ٢٥٠٠ ساعة فى السنة فى بعض أجزاء إيطاليا .

أما الرياح المحلية التى تؤثر فى طقس هذه المنطقة فإنها أيضا تعكس موقعها بين إقليمين مناخيين مختلفين : فالعواصف الشتوية تجذب رياحا رطبة باردة من الشمال مثل المسترال Mistral والبورا Bora وتهب المسترال بقوه عبر ممر الرون – ساوون جنوبا فى اتجاه ساحل البحر المتوسط ويصل تأثيرها إلى جزيرتى سردينيا وكورسيكا بينما تهب البورا عبر البحر الأدرياتى إلى الساحل الشرقى لايطاليا . أما من ناحية الجنوب تندفع رياح الشيروكو Sirocco الحارة الجافة وتهب استجابة لمراكز ضغط منخفض تنتجها أعاصير صيفية نادرة . وتسبب رياح الشيروكو خسائر كبيرة فى المزارع لما تسببه من جفاف شديد .

وفى كنف هذا المناخ ترعرعت وازدهرت حضارات متنوعة منها المينوية والمايسينية واليونانية والأترسكية والرومانية والبيزنطية . وقد لعبت التغييرات المناخية وخاصة فترات الجفاف الطويلة دورا فى انهيار بعض هذه الحضارات أو أسهمت فى ذلك . ويمكن أن نرجع أسباب إخلاء مدينتى مايسينا وتايرينز Tiryns فى جزيرة بيلوبونيزيا اليونانية إلى فشل المحصولات المتكرر نتيجة الجفاف وقد اقترح ريس كار بنتر R. Carpenter نظرية الجفاف هذه كما عزا آثار الحريق التى وجدت فى خرائب مدينة مايسينيا Mycenae إلى الزراعيين الذين عندما قرصهم الجوع لجأوا إلى العنف للوصول إلى مخازن الحبوب . ويحتمل أن الدافع وراء الهجرة الجماعية من مدينة مايسينيا مبعثه الجفاف المتواصل الذى حل بهذه المنطقة . ويقول كاربنتر بأن دورة جفاف أخرى فى القرن السابع الميلادى هى التى أدت إلى الكساد الثقافى الذى تميزت بها هذه الفترة آنذاك .

(٣) المناخ القارى الرطب البارد :

يسود هذا المناخ فى الأجزاء الوسطى والشرقية من القارة فى ألمانيا الوسطى

وبولنده وتشكوسلوفاكيا والمجر وروسيا كما يشمل الجزء الجنوبى من شبه جزيرة اسكندناوه . ويختلف هذا المناخ عن المناخ البحرى فى أن الكتل الهوائية التى تؤثر فى الطقس فى الأول تأتى من داخل القارة الأسيوية ويظهر أثر هده الكتل الهوائية القارية فى الاختلاف الكبير بين درجات الحرارة فى فصلى الشتاء والصيف . فالشتاء هنا أكثر برودة وخاصة كلما اتجهنا شرقا ويتراوح متوسط درجة الحرارة فى يناير بين ١٢ درجة مئوية تحت الصفر إلى الصفر كما يحدث كثيرا أن تنخفض الحرارة إلى دون ١٨ درجة مئوية تحت الصفر . وقد تنخفض درجة الحرارة فى الشتاء إلى درجة تتيح بتكوين غطاء جليدى يكسو الأرض لفترة شهر على الأقل أو أكثر فى الأجزاء الشرقية من القارة مما يؤدى إلى تجمد الأنهار والبحيرات وأدرع المحيطات الصحله ومن ضمنها بحر البلطيق . أما فصل الصيف فإن درجة الحرارة فيه أقرب إلى تلك التى تسود فى فصول الصيف فى المناخ البحرى ويصل متوسط درجة الحرارة فى يوليو فى موسكو ووارسو كما فى مدينة باريس . ويصل متوسط أدفأ الشهور إلى درحة تتراوح ما بين ١٦ و٢١ درجة مئوية .

وتهطل الأمطار بكميات كافية طوال السنة مع زيادة فى فصل الصيف كلما اتجهنا شرقا ، ويرجع السبب فى فعالية هذه الأمطار إلى قلة التبخر الناتح من الحو البارد السائد هنا . وتصل الكمية الى مابين ٥٠ و ٦٣ سم .

وفى الجزء الأدنى من مجرى الدانوب وفى المجارى العليا من وادى نهر البو يسود نوع آخر من المناخ القارى يتميز بدفء صيفه بالمقارنة مع المناخ القارى البارد ذى الصيف البارد . ومن ناحية درجة الحرارة فإن هذه المناطق أقرب إلى مناخ البحر الأبيض المتوسط ولكن يتميز عنه بعدم وجود حفاف . ويشمل هذا المناخ كل المناطق التى يصل متوسط درجة حرارة أدفأ شهر فيه إلى ٢٢ درجة مئوية .

هذه هى أنواع المناخ الرئيسية السائدة فى أوروبا ، ولكن هناك أنواع أخرى أقل انتشارا من ناحية المساحة . منها :

(١) المناخ شبه القطبى Subarctic : الذى يسود فى معظم أجزاء السويد وفنلنده ويتميز هذا المناخ بقسوته بالمقارنة مع المناخ القارى الرطب إذ يبلغ متوسط

درجة الحرارة ١٠ درجات مئوية فى فترة تتراوح بين شهر وثلاثة أشهر ، ونظرا لقرب هذه المنطقة من القطب وموقعها القارى فإن فصول الشتاء تتميز بقسوة بردها . كما أن الصيف قصير وبارد . أما أمطارها فقليلة بالمقارنة مع الأماكن ذات الموقع الجنوبى ولكن نسبة لقلة التبخر لبرودة الجو فإن ما يهطل من أمطار يعتبر كافيا . تتميز هذه المنطقة بقلة سكانها نظرا لقسوة البيئة ، ولكن هناك مناطق فى وسط وشمال فنلنده استقطبت أعدادا أكبر من البشر لقلة الأراضى الصالحة للزراعة فى المناطق الجنوبية منها أو من أجل استغلال الموارد السمكية أو المعدنية كما فى السويد

(٢) مناخ التندرا

تتميز هذه الأقاليم بخلوها من الأشجار وتقع إلى الشمال من المناخ شبه القطبى ويمكن القول بأن الصيف لا وجود له هنا تقريبا ويبلغ متوسط درجة حرارة أدفأ شهر هنا أقل من ١٠ درجة مئوية . ولكن هناك ما يبعث إلى الدهشة فى هذه المناطق الباردة وهو خلو بحر بارنتس Barents Sea والساحل النرويجى كله وميناء ميرمانسك من التجمد فى فصل الشتاء ويرجع السبب إلى أثر تيار الخليج الدافىء الملطف الذى يصل تأثيره إلى هذه المناطق .

(٣) المناخ شبه المدارى الرطب Hurnid Subtropical

يسود هذا المناخ فى جبال الألب الدينارية والجزء الساحلى من وادى نهر البو وهو أشبه بمناخ البحر الأبيض المتوسط من ناحية الحرارة ولكن يفتقر إلى ذلك الصيف الجاف الذى يتميز به الأخير . ففصول الصيف هنا تتميز بالحرارة والرطوبة العالية .

(٤) مناخ الأستبس Steppes

على عكس المناطق الأوروبية التى تتميز بكثافة أمطارها فإن هناك أماكن صغيرة ومتناثرة شبه صحراوية يسود فيها مناخ الاستبس حيث تكون نسبة التبخر من سطح الأرض والنتح من النبات أعلا من كمية الأمطار التى تهطل فيها ، مما يؤدى إلى شح فى المياه . ففى شبه جزيرة أيبريا توجد أماكن متناثرة يسود فيها هذا المناخ حيث تحجز

السلاسل الجبلية الرياح المحملة بالرطوبة الآتية من المحيط . ومن ضمن هده الأماكن منطقة الميريا Almeria شبه الجافة الواقعة فى إحدى الأودية المنخفضة Hucrtas يمين جبال بتكو Betico والبحر الأبيض المتوسط وكذلك أجزاء من وادى نهر الابرو Ebio المحاطة بجبال أيبريا من الغرب . أما الجزء الواقع إلى الشمال مباشرة من البحر الأسود فيرجع سبب جفافه إلى موقعه الداخلى بعيدا من المؤثرات البحرية الآتية من المحيط الأطلسى .

(٥) المناخ الجبلى (الالبى) :

يسود هذا المناخ فى جبال الألب حيث يظهر أثر الارتفاع المتزايد على درجات الحرارة ، ويختلف المناخ حسب الاختلاف فى ارتفاع الجبال وتعرضه للشمس ، ولكن عامة يمكن أن نميز خصائص لهذا المناخ منها انخفاض الحرارة وكثرة التساقط بالمقارنة مع السهول المجاورة كما فى مدينة سانتيس Santis حيث تنخفض درجة الحرارة إلى تلك التى نجدها فى منطقة التندرا الشمالية ويزداد التساقط السنوى إلى ٢٥٠ سم (١٠٠ بوصة) .

جدول ٤ . معلومات مناخية لبعض المحطات التى تمثل الأقاليم المناخية المختلفة فى أوروبا

المحطـة	متوسط الحرارة (يوليو) (م)	متوسط الحرارة (يناير) (م)	المدى الحرارى السنوى (م)	متوسط المطر السنوى (مم)
(١) مناخ الساحل الغربى :				
فالنشيا (أيرلنده)	١٥ (٥٩ف)	٧ (٤٤ف)	٨ (١٥ف)	١٤٢ (٥٦ بوصة)
فرايبرج .ام .برايسقاو (ألمانيا)	١٩ (٦٧ف)	١ (٣٣ف)	١٨ (٣٤)	٨٦ (٣٤)
باريس (فرنسا)	١٩ (٦٧ف)	٣ (٣٧ف)	١٦ (٢٩)	٥٨ (٢٣)
تورسهافن (جزر فاروى)	١١ (٥١ف)	٣ (٣٨ف)	٨ (١٣)	١٤٥ (٥٧)
بيرجن (النرويج)	١٤ (٥٨ف)	١ (٣٤ف)	١٣ (٢٤)	٢١٣ (٨٤)

المحطة	متوسط الحرارة (يوليو) (م)	متوسط الحرارة (يناير) (م)	المدى الحرارى السنوى (م)	متوسط المطر السنوى (مم)
(٢) مناخ البحر الأبيض المتوسط :				
لشبونه (البرتغال)	٢١ (٧٠)	١١ (٥١)	١٠ (١٩)	٧٤ (٢٩)
روما (إيطاليا)	٢٤ (٧٦)	٧ (٤٥)	١٧ (٣١)	٨٤ (٣٣)
أثينا (اليونان)	٢٧ (٨٠)	٩ (٤٨)	١٨ (٣٢)	٤١ (١٦)
(٣) المناخ القارى الرطب (الصيف البارد) :				
موسكو (روسيا)	١٩ (٦٦ف)	-١١ (١٢)	٣٠ (٥٤)	٥٣ (٢١)
ابسالا (السويد)	١٧ (٦٢ف)	-٤ (٢٤)	٢١ (٣٨)	٥٣ (٢١)
وارسو (بولنده)	١٩ (٦٦ف)	-٣ (٢٦)	٢٢ (٤٠)	٥٦ (٢٢)
فينا (النمسا)	٢٠ (٦٨ف)	-٢ (٢٩)	٢٢ (٣٩)	٦٤ (٢٥)
(٤) المناخ القارى الرطب (الصيف الدافئ) :				
بلغراد (يوغسلافيا)	٢٢ (٧٢)	-٢ (٢٩)	٢٤ (٤٣)	٦١ (٢٤)
ميلانو (إيطاليا)	٢٤ (٧٥)	-١ (٣١)	٢٥ (٤٤)	١٠٢ (٤٠)
(٥) المناخ شبه القارى :				
أرشانجل (روسيا)	١٦ (٦٠)	-١٣ (٨)	٢٩ (٥٢)	٤٣ (١٧)
هياراندا (السويد)	١٦ (٦٠)	١٠ (١٤)	٢٦ (٤٦)	٥٣ (٢١)
(٦) مناخ التندرا :				
فاردو (النرويج)	٩ (٤٨)	-٦ (٢٢)	١٤ (٢٦)	٦٦ (٢٦)
(٧) المناخ الجبلى :				
سانتس (سويسره)	٥ (٤١)	-١١ (١٦)	١٤ (٢٥)	٢٤٤ (٩٦)
(٨) مناخ الأستبس :				
أوديسا (روسيا)	٢٣ (٧٣)	-٤ (٢٥)	٢٧ (٤٨)	٤١ (١٦)

الفصل الرابع

النبات الطبيعي والتربات

تعرض الغطاء النباتى الأصلى فى القارة الأوروبية إلى تغيير جذرى على يد الإنسان إلى درجة أنه من الصعوبة حتى لأمهر وأقدر العلماء تحديد مدى هذه الآثار البشرية بالتأكيد ، لأن عملية التغيير بدأت مع قدوم الإنسان إلى القارة منذ عصور ما قبل التاريخ واستقراره فيها واستمرت عبر السنين بتفاوت كبير ، ولكن يمكن القول بأن التغيير الفعلى فى نباتات القارة قد حدث خلال الألف سنة الأخيرة . والخريطة المرفقة توضح توزيع النباتات قبل هذه الفترة (الشكل ٩) .

يتأثر التوزيع الحالى لنبات وحيوان القارة بثلاثة عوامل : العامل الطبوغرافى أو التضاريس والعامل المناخى والعامل البشرى .

١ - العامل الطبيعى (التضاريس) :

من الناحية الطبوغرافية فأوروبا جزء من آسيا من ناحية جغرافيتها الحيوية كما هى جزء منها من ناحية البيئة . والحاجز الوحيد الذى يفصل مناطق نباتية وحيوانية متباينة يتبع سلسلة الجبال الألبية وامتداداتها نحو الشرق والغرب . فالمنطقة الواقعة إلى الشمال من هذا الحاجز تمثل جزءا من نبتات منطقة الشمال وحيواناتها boreal والتى تشمل أيضا مناطق آسيا وأمريكا الشمالية الواقعة فى العروض العليا . أما إلى جنوب السلسلة الألبية فنجد نباتات وحيوانات منطقة البحر الأبيض المتوسط ذات العلاقة الوثيقة بنباتات وحيوانات جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا .

٢ - العامل المناخى :

أما العامل الأكثر أهمية فى التوزيع الحالى للنباتات والحيوانات وكذلك التربات فهو التغيرات المناخية التى أثرت على القارة أثناء وبعد العصر الجليدى . ونتيجة لانتشار الجليد نحو الجنوب زحفت النباتات والحيوانات إلى تلك المناطق التى لم تتأثر

النباتات الطبيعية

غابات البحر المتوسط المفتوحة

النباتات النفضية عريضة الأوراق

النباتات ذات الأوراق الإبرية

غابات صنوبرية ونفضية مختلطة

غابات مختلطة، أوراقه عريضة دائمة الخضرة ونفضية

منطقة حشائش

مناطق الجو البارد ونباتات الجبال - التندرا

٦٠٠ كم

شكل (٩)

بالجليد فى وسط وجنوب القارة . وتحولت النطاقات المناخية نحو الجنوب وتبعتها النباتات والحيوانات وقد ظلت بلاد اسكندناوه تحت الجليد حتى حوالى ١٠٫٠٠٠ سنة مضت ، وبعد ذوبان الجليد أخذت نباتات وحيوانات وحتى تضاريس هذه المنطقة تتلاءم تدريجيا للأحوال المناخية الحالية وهذا يعنى أن المجموعات الحيوية لهذه المنطقة حديثة من الناحية الجيولوجية . أما أوروبا الوسطى فقد أصبحت منطقة نزوح للنباتات والحيوانات من جميع الاتجاهات وخاصة من الشرق .

٣ - العامل البشرى :

أما المؤثر الثالث فهو الإنسان نفسه ، فإن ما نطلق عليه « النباتات الطبيعية » فى أوروبا ليست طبيعية بمعنى أنها تمثل النباتات الأصلية التى لم تمسها يد الإنسان . وقد دلت الأحداث بأن أكثر من ٨٠ ٪ من مساحة اليابس الأوروبى كانت مغطية بالغابات أما الآن فإن ما تغطيه الغابات من أوروبا لا تتعدى ثلث مساحتها ومعظم هذه الأشجار غابات ثانوية مزروعة ، خاصة فى منطقة البحر الأبيض المتوسط أو غابات منمطة من الشجيرات ، فالاحتلال الطويل للأرض وكثافة السكان العالية قد دفعت الغابات إلى التراجع لمناطق غير صالحة للزراعة . وقد عانت مناطق الأستبس فى جنوب روسيا وأكرانيا من نفس التدخل البشرى حيث لا نرى إلا أجزاء صغيرة من مناطق الحشائش الأصلية التى بقيت كما هى بدون أى تأثير بشر

ولذا من الطبيعى ألا يبقى الغطاء النباتى على حاله فى قارة كأوروبا استقر بها الإنسان وزرع أراضيها منذ حوالى ٤٠٠٠ سنة وقد كانت قارة أوروبا فى الأصل منطقة تكسوها الغابات واختلفت أنواع النباتات تبعا للأقاليم المناخية المختلفة . (الشكل ٩) .

(١) غابات جبال الألب :

تسقط الأمطار فى كل فصول السنة على سلاسل الجبال الألبية وإلى الشمال منها . وكان الغطاء النباتى السائد فيها هو الغابات التى تختلط أشجارها حسب نوعية التربة .

فمثلا نجد أشجار الزان Beech والدردار Ash فى التربات الجيرية .
والفريماخ Elm والبلوط Oak والبندق Hazel فى التربات الصلصالية .
وأشجار الصفصاف والحور Alder على طول امتداد مجارى الأنهار .

(٢) غابات البحر المتوسط المفتوحة :

كانت المناطق الساحليه من اقليم البحر المتوسط تغطيها فى الماضى غابات مفتوحة تتكون من أشجار دائمة الخضرة ذات الأوراق العريضة وتتخللها شجيرات خشبية وحشائش ، وكانت هذه النباتات من الأنواع المقاومة للجفاف الذى يسود فى فصل الصيف الحار ، وكانت جذورها تمتد إلى أعماق التربة سعيا وراء الماء ، وتتميز بخصائص مثل الأوراق السميكة والشمعية واللحاء الغليظ السميك والجذور الطويلة ، وذلك من أجل الإقلال من التبخر . وتظهر هذه الخصائص فى لحاء شجر البلوط السميك المتشقق وأوراق أشجار الزيتون الملساء كما أن كثيرا من الأشجار أوراقها صغيرة ولامعة لمقاومة التبخر أيضا . أما الأشجار فتنمو متباعدة ومتفرقة ويتراوح ارتفاعها بين المنخفض والمتوسط كما تتميز عادة بجذوع غليظة وفروع كثيرة العقد . أما الأنواع السائدة من الأشجار فهى الغار Laurel والسرو Cypress والكستناء Chestnut والخزامى (خيرى البر) Lavender والآس Myrtle والزيتون والبلوط . وفى المناطق المرتفعة نجد الحور Poplar والدردار Ash والتبتولا Birch والصنوبر Pine .

ترجع بداية تدمير هذه الغابات على يد الإنسان إلى عصور ماقبل التاريخ وفى إلياذة هومر نجد أقدم إشارة إلى الغطاء النباتى السائد فى إقليم البحر المتوسط آنذاك والتى تدل على غطاء كامل من الغابات فى كثير من المناطق التى تخلو تماما من الأشجار فى وقتنا الحالى مثل جزيرتى ساموتراكى Samothraki وإثاكى Ithaki وهما جزيرتان يونانيتان وقد تم تدمير نبات إقليم البحر المتوسط بوسائل عدة ولأغراض متنوعة عبر آلاف السنين . وقد استخدمت النار لإزالة الغابات من أجل توسيع رقعة المراعى للأعداد الضخمة من الضأن والماعز التى كانت تربى هنا ، وكذلك لإفساح المجال لزراعة الحبوب والكروم واقامة البساتين وكانت النيران توقد عمدا فى فصل

الجفاف عندما تجف الحشائش وكانت الحرائق من المناظر المألوفة فى فصل الصيف التى أشار اليها هومر فى كتاباته . وسبب آخر أدى الى تدمير الغابات هو قطع الاخشاب لصناعة السفن ومن ضمنها الالف سفينة التى بنيت من أجل هيلينا الطروادية . ومع شيوع استخدام الحديد كان الفحم النباتى يستخدم فى صهر هذا المعدن كما كانت الاخشاب تستخدم أيضا فى بناء المعابد والقصور الى أن اجبرت ندرة الأخشاب مع تقلص المساحات الغابية إلى تبنى الحجر كمادة بناء أساسية فى كثير من أجزاء الأقليم . وبحلول عام ٤٠٠ ق . م كانت اتيكا Attica خالية من الأشجار تماما .

وقد اتخذ هذا التدمير الجائر للنباتات من قبيل الإنسان بعدا أكبر فى هذا الإقليم نسبة لعجز الغابات عن النمو مرة ثانية بعد إزالتها ، وأصبحت هذه الإزالة تتخذ صفة دائمة وذلك لسببين أساسيين :

١ - كانت هذه الغابات المفتوحة تحتل منحدرات الجبال ، وقد أدى إزالة الأشجار من على هذه المنحدرات إلى انجراف التربة تحت تأثير الأمطار الشتوية ونقلها إلى بطون الاودية والسهول الساحلية تاركة هذه المنحدرات عارية من التربات الصالحة لنمو الأشجار مرة ثانية .

٢ - كثرة الماعز فى هذا الإقليم وعادة هذا الحيوان فى الرعى . فالماعز تستطيع التحرك بسهولة على المنحدرات المتضرسة وتأكل النباتات التى تنمو لتوها من " ولا تترك لهذه النباتات فرصة للنمو حتى تكبر . وقد تكون الماعز سببا لاستمرارية التعرية النباتية فى كثير من أجزاء منطقة البحر المتوسط .

وفى العصر الكلاسيكى وبعده تعرض ما تبقى من الغابات للإزالة لأغراض مماثلة لتلك التى أدت إلى إزالة الغابات من قبل . فقد كان بناء السفن التجارية فى البندقية وجنوه والأساطيل البحرية التابعة للبيزنطيين والأسبان والبرتغال تتطلب الأخشاب التى كانت تقطع من غابات المنطقة ، وكان حرفيو فلورنسة وطليطلة واسطنبول يستخدمون الفحم النباتى فى صهر المعادن التى كانوا يستخدمونها فى صنع المعدات كما أن الرعاة والمزارعين كانوا يسعون دائما لإزالة الغابات لإفساح المجال للزراعة والرعى . ومن نتائج هذا التدخل البشرى فى نباتات المنطقة تلك الرقاع الشاسعة من الأراضى الصخرية الخالية من النباتات ، أو تلك الأقاليم التى تغطيها شجيرات قصيرة

وتعرف «بالماكى Maquis » فى فرنسا و« ماشيا أو ماكى Macchia, Maki » فى إيطاليا و « ماتورال Mattoral فى أسبانيا . وقد اتخذ رجال المقاومة الفرنسية هذه الادغال ملجأ اثناء الحرب العالمية الثانية ولذلك عرفت الحركة «بالماكى» كما توجد مناطق تنمو فيها نباتات الجاريج Garigue وهى عبارة عن عطاء رفيق من شجيرات متناثرة دائمة الخضرة تنمو فى تربات ضحلة أو بين شقوق الصخور العارية .

وهكذا نجد أن الإنسان قد تسبب فى تدمير البيئة فى منطقة البحر المتوسط وقد يرجع تخلف كثير من أقاليم هذه المنطقة إلى هذا التدهور البيئى الناتج من التدمير الجائر للنبت وما ترتب على ذلك من تعرية وانجراف للتربة .

٣ - الغابات النفضية Deciduous Broadleaf :

كانت هذه الغابات تغطى أجزاء شاسعة من أوربا فيما مضى ويتطابق توزيعها إلى حد ما مع إقليم المناخ الساحلى الغربى البحرى الذى يشمل الجزر البريطانية ومعظم أجزاء فرنسا والأجزاء الغربية من ألمانيا وجنوبى شبه الجزيرة الاسكندناوية ، وفى الحقيقة يلاحظ الدارس علاقة سببية بين توزيع هذه النباتات والمناخ ، ولكن يجب علينا اتخاذ الحيطة والحذر فى تبنى هذه النظرة الحتمية فى تفسير هذه العلاقة لأن مساحات كبيرة من هذه الغابات النفضية أيضا تغطى أجزاء من أوربا الشرقية حيث يسود المناخ القارى الرطب . ويتكون معظم أشجار هذه الغابات من أنواع عديدة من البلوط وهو النوع السائد وكذلك انواع اخرى تشمل الدردار Ash والزان Beech والفريماخ (الدردار) Elm والزيزفون Linden . ويمكن أن نطلق اسم « الغابة النفضية ذات الأوراق العريضة » على غابة تتكون ثلاثة أرباع أشجارها من هذه الأنواع المذكورة .

وتتميز التربات التى تنمو عليها هذه الأشجار بخصوبتها وصلاحيتها للزراعة ويمكن أن نعزو هذه الميزة جزئيا إلى انبساط التضاريس ووفرة الدبال الناتج من تحلل أوراق الأشجار المتساقطة عبر السنين . ولذلك ليس من الغريب أن تزال مساحات كبيرة من هذه الغابات النفضية لغرض الزراعة . وقد حدثت فترة الإزالة الرئيسية حوالى عام ٥٠٠ ميلادية ولكن بداية إزالة الأشجار وخاصة من منطقة تربة اللويس

فى السهل الألمانى الشمالى ترجع إلى العصر الحجرى الحديث عندما بدأ الإنسان فى هذه العملية على نطاق ضيق مستعينا بالنار والفأس . وفى فرنسا بقيت الغابات النفضية بدون مساس حتى وقت الغزو الرومانى والبها لجأت القبائل الغالية طالبة الحماية من الجيش الرومانى المتقدم . وفى هذه الفترة أصبحت كلمة «الغابة» مرادفة للحدود فى كثير من أجزاء الإمبراطورية المترامية الأطراف وخاصة فى منطقة الغابات النفضية[1] . وقد استمرت الغابات تؤدى نفس الوظيفة كمناطق عازلة بين الشعوب الأوربية المعادية بعد زوال الإمبراطورية بوقت طويل وخاصة فى العصور الوسطى كما كان الوضع بين الألمان والصقالبة . وجاءت الكلمة الألمانية «مارك Mark» «ومارش March الانجليزية» لتعنى «منطقة الحدود» رغم أن المعنى الأصلى للكلمة هو «الغابة» . وهكذا اكتسبت الغابات عند الرومان والألمان صفة الحدود السياسية التى تفصل بين المناطق المفتوحة التى تحتلها شعوب مجاورة معادية .

وقد أدى احتلال الرومان لمناطق الغابات النفضية إلى الإسراع فى إزالتها ولكن بقيت أجزاء كبيرة من هذه الأراضى مغطية بالغابات حتى بعد مرور قرون منذ احتلالها . ثم تلت سقوط الإمبراطورية زيادة سكانية وهجرة القبائل الألمانية نحو الغرب وغزو الفرنك لفرنسا وتغلغل الأنجلو- ساكسون فى الجزر البريطانية . وفى العصور الوسطى بدأت الشعوب الألمانية فى إزالة الغابات من مناطق فى شمال فرنسا وغربى المانيا والمملكة المتحدة والأراضى المنخفضة ، وتم إنشاء مستعمرات زراعية جديدة على يد مجموعات صغيرة من المستوطنين كانت تعمل تحت ارشاد وقيادة الحكام وملاك الأراضى والكنائس . ونجد الدليل لهذا التنظيف المبدئى للغابات فى أسماء القرى والمدن الحالية التى تحمل الكلمات مثل Rod و Rot– Roth و Rode و Reuth وغيرها «كما فى» فيرنيقرود Wernigerode وهايليقنروث Heiligenroth وبيروث Bayreuth وغيرها من المدن والقرى الألمانية التى تنتسب إلى الكلمة الألمانية الحديثة «Roden» والتى تعنى «يجتث او يقطع أو يزيل» . وفى أجزاء من بلجيكا وهولنده نجد الأشكال الفلمنكية والهولندية من هذه

---

(١) الالهة سيلفانوس Sylvanus كانت حامية الغابات والحدود عند الرومان

الكلمات اللاحقة مثل rode — ، rath – Rardt- ، Rode — وفى النرويج نجد rod – rud – و – ، أما الكلمات الانجليزية والألمانية البادئة مثل brand ، brent ، brind ، bronn ، brunn وغيرها كما فى Brandroda و oberbrand و Brindley فانها تشير الى أن التنظيف المبدئى للاشجار قد تم بواسطة النار (من To brand أو der brand) . أما الكلمات اللاحقة التى تظهر كثيرا فى أسماء الأماكن الانجليزية مثل ley – ، leigh ، lea كما فى Woodley أو Mariansleigh فهى مشتقة من كلمة ألمانية قديمة بمعنى « مكان منظف » أو « مكان مفتوح فى غابة كما فى كلمة Loo الفلمنكية مثل waterloo و Baverloo . أما فى مناطق اللغة الفرنسية فنجد كلمة Sart وتعنى « ينبش أو يستأصل أو يزيل » كما فى Cul-de-sart فى بلجيكا و Les Essart فى فرنسا .

بدأت عملية إزالة الغابات فى الأراضى الألمانية فى أماكن صغيرة ذات شكل دائرى . ثم بدأت العملية تتسع مع الزيادة السكانية وأخذت كل مجموعة تقوم بإزالة الأشجار من الأماكن المجاورة للقرية حتى تتلاقى الأراضى المنظمة للقرى المجاورة . أما تنظيف الأودية فى المناطق التلالية فى وسط وشرق ألمانيا فقد كان يتم أولا بقطع الأشجار من على طول الوادى لاستخدامه كطريق ثم يمنح كل مستوطن قطعة أرض ضيقة وطويلة تمتد خلف الطريق العام ، وتبنى المنازل فى مقدمة المزرعة ويقع عبء تنظيف كل قطعة على صاحبها . ولعدم وجود ارتباط اجتماعى أو مشاعى بين المستوطنين ينظم تقسيم الأرض فقد كانت مساحات المزرعة تتفاوت حسب طموح المزارع وعدد أفراد عائلته .

وهكذا استمرت ازالة الغابات النفضية على يد الألمان بدون توقف خلال العصور الوسطى حتى حوالى عام ١٣٥٠ ميلادية عندما أخذت الأوبئة والأمراض والحروب تفتك بالناس وحدث تقلص كبير فى عدد السكان فى بعض المناطق مما أدى إلى توقف مؤقت فى إزالة الغابات . وفى بعض المناطق التى تأثرت بالطاعون والحروب أخذت الغابات تنمو من جديد كما فى حوض اكويتين فى فرنسا التى نمت فيها الغابات من جديد أثناء حرب المائة سنة .

وكان المزارعون هم المسؤولون عن إزالة الغابات فى الفترة التى انتهت بمنتصف القرن الرابع عشر الميلادى وذلك لفرض الزراعة . كما كان هناك الحرفيون الذين كانوا يعتمدون على الفحم النباتى لصهر المعادن وكانوا سببا فى إزالة الغابات . واليوم تقف كاربوناريا Silva Carbonnaria فى برابانت Brabant البلجيكية(وتعنى غابة صانعى الفحم)سهلا خاليا من الأشجار.

ثم أخذت الشعوب الألمانية تعاود نشاطها فى إزالة الغابات فى الفترة مابين القرنين السادس والسابع عشر بغرض التوسع الزراعى ولسد حاجة صناعة السفن والحرفيين من الأخشاب. وقد كانت السرعة فى إزالة الأشجار إلى درجة أن انجلترا فى منتصف القرن السادس عشر أخذت تعانى من نقص شديد فى الأخشاب وتلتها فرنسا بعد قرن ، وشهدت أيرلنده فى القرن السابع عشر آخر مراحل إزالة الغابات على يد ملاك الأرض الذين كانوا يصدرون الأخشاب إلى الخارج ، وعند بداية القرن الثامن عشر اختفت الأشجار من ايرلنده كما يوضح اختفاء البلوط من السجل اللقاحى بعد هذه الفترة . وكانت حدة الإزالة للغابات تقل كلما اتجهنا شرقا فى القارة ، واليوم تحتل الغابات النفضية ٦٪ فقط من مساحة المملكة المتحدة و٧٪ من مساحة هولنده و ٢٠٪ من مساحة فرنسا و ٢٧٪ من مساحة المانيا (معظمها فى الوسط والجنوب) .

وكان لابد أن تثير هذه الإزالة الجائرة للأشجار اهتمام بعض الحادبين على مصير هذه الغابات لفرض حمايتها ، وفعلا قامت حركة لصيانة الغابات والحفاظ عليها ونجحت بعد جهد فى الابقاء على ماتبقى من الغابات النفضية . وقد قاد النبلاء هذه الحركة لانقاذ الغابات تدفعهم الرغبة فى البقاء على مناطق الصيد المحرمة لغرض الترفيه . وقد نالت غابة « شيروود Sherwood » فى انجلتره الحماية الملكية لهذا الغرض وكذلك غابة « تيرقارتن Tiergarten » « مدينة الحيوان» فى وسط مدينة « برلين » حتى عام ١٩٤٥ – ١٩٤٦م عندما انهال السكان على الأشجار يقطعونها كوقود حتى قضوا عليها ، ثم بدىء فى إعادة تشجيرها مؤخرا وبقيت بعض الغابات فى المناطق المتضرسة ذات الانحدارات الشديدة خاصة فى أوروبا الوسطى وجنوب

ألمانيا إلى درجة أن كلمة « فالد Wald وتعنى « غابة » تطلق عادة على الأماكن المتضرسة مثل Schwaizwald » الغابة السوداء أو « ثورينجز فالد Thuringerwald في المانيا و Cotswold في انجلتره . وكلها اماكن متضرسة. أما التشجير العلمى الحديث فقد بدأ منذ حوالى ثلاثة قرون استجابة للحاجة فى الإبقاء والحفاظ على ماتبقى من غابات وهنا أيضا قاد الألمان الطريق ، وتلقى هذه الغابات المتناثرة عناية شديدة من قبل السلطات ويتم القطع فيها وفق نظام دقيق يعاقب من يخالفه . وقد ساعد فى الإبقاء على الغابات فى الآونة الحديثة ارتفاع مستوى المعيشة وتبنى البترول والغاز فى التدفئة والطبخ . وينظر الأوروبى إلى هذه الغابات كمناطق ترفيهية يؤمها للفسحة وقضاء فترات الإجازة معسكرا فيها .

٤ – الغابات الصنوبرية الدائمة الخضرة Needleleaf Evergreen

تنتشر هذه الغابات فى الأجزاء الشمالية من القارة كما نجدها أيضا فى الجنوب فى أماكن جبلية متناثرة ومنخفضات تسود فيها التربات الرملية . وتتكون من أشجار ذات أوراق إبرية دائمة الخضرة خشبها لين مثل التنوب Firs والصنوبر Pines والبيسه Spruce (منها الأنواع الاوروبية مثل تبسبه النرويجى والصنوبر الاسكتلندى) . وتكون الصنوبريات ثلاثة ارباع الأنواع السائدة فى هذه الغابات . وقد كانت هذه الغابات أكثر حظا من مثيلاتها فى جنوبى وغربى القارة لما لقيته من عناية أكثر من قبل الإنسان . ويرجع هذه المعاملة إلى شيئين رئيسيين :

(١) وقوع معظم هذه الغابات الصنوبرية فى اسكندناوه فى منطقة تتميز بقسوة المناخ وقلة التربة الصالحة للزراعة ، ولهذا لم تجذب هذه الأصقاع الباردة الإنسان لعدم صلاحيتها للزراعة المكثفة من ناحية المناخ والتربة كما أن غابات جبال الألب تركت بدون تدخل لشدة انحدار الأماكن التى تنمو فيها وقسوة المناخ وفقر التربات فيها . ولهذه الأسباب تغطى هذه الغابات ٦٤٪ من مساحة فنلنده و ٥٣٪ من مساحة السويد و ٣٧٪ من مساحة النمسا .

(٢) تمثل الغابات الصنوبرية المصدر الرئيسى للأخشاب للقارة ولذلك تخضع الغابات لعمليات وانظمة صارمة من ناحية الإدارة وتنظيم القطع وزرع الأشجار محل

تلك التى تقطع لضمان مورد دائم من هذه الأشجار . وتصدر السويد وفنلنده أكثر من نصف الخشب المنشور الذى تنتجه القارة وتساهم النمسا بعشرين فى المائة (٢٠٪) . كما أن الدول الاسكندناوية تقود العالم فى إنتاج لب الخشب وصناعة الورق .

وكانت عملية إعادة تشجير المناطق بالغابات من صالح الغابات الصنوبرية ، فالمناطق الفقيرة ذات التربات الرملية مثل إقليم اللاند Landes فى جنوب غرب فرنسا أصبحت بعد تشجيرها بأشجار الصنوبر من المصادر الرئيسية للأخشاب فى فرنسا ، وكما أن هناك مناطق عديدة فى أوربا تتميز بحموضة ترباتها والتى تم زراعتها بأشجار الصنوبر كما فى ألمانيا والجزر البريطانية مثل الأراضى الخلنجية Heathlands والأماكن المستنقعية .

٥ - الغابات المختلطة Mixed Forests :

تمثل هذه الغابات التى كانت تغطى أجزاء كبيرة من أوربا مرحلة انتقالية بين الغابات النفضية والصنوبرية تحتوى على خليط من أشجار هاتين الغابتين دون سيادة أيهما على الآخر . وكانت هذه الغابات تغطى الأجزاء الشرقية من الأراضى الألمانية وجنوب السويد ومعظم الأراضى السلافية فى شرق أوربا وبعض المناطق الجبلية فى منطقة البحر المتوسط . ويمكن القول عموما بأن نسبة الأشجار النفضية تزيد بينما تقل نسبة الأشجار الصنوبرية كلما اتجهنا جنوبا وغربا فى نطاق الغابات المختلطة . وقد تم القضاء على هذه الغابات فى العصور الوسطى على يد الألمان الذين انتشروا شرقا على طول السهل الألمانى الشمالى ووادى نهر الدانوب وأسسوا مستعمرات زراعية فى هذه المناطق . وقد شجع هذا التوغل الألمانى نحو الشرق الشعوب السلافية فى إزالة هذه الغابات وانشاء المزارع فى السهل الأوربى الشرقى . وتدل اسماء الاماكن مثل trebynja و kopanice و lazy و paseky التى تعنى « التنظيف أو الإزالة » على المناطق التى تعرضت لإزالة أشجارها على يد السلافيين . كما فى مدينة Trobnja السلوفينية . ولكن هذه الغابات لم تتعرض للدمار كما حدث فى غربى أوربا ومازالت هذه الغابات تحتل ثلث مساحة دول مثل تشيكوسلوفكيا وبلغاريا

ويوغسلافيا وروسيا . وهناك منطقة اختلاط أخرى من الأشجار ذات الأوراق العريضة الدائمة الخضرة والأشجار النفضية فى شمال شبه جزيرة أيبريا ، ولم يبق من هذه الغابات إلا القليل .

٦ - إقليم الحشائش والسبخات والخلنج والتندرا: تفتقر أوربا عامة إلى مناطق الاستبس أو الحشائش إلا فى الأجزاء الشرقية منها إذ توجد منطقة استبس حول ساحل البحر الأسود وتمتد غربا إلى داخل أوربا حتى سهل ولاشيا فى جنوب رومانيا ومنطقة ألفولد Alfold فى حوض المجر . وقد سلكت الهجرات والغارات الآسيوية هذا الممر الطبيعى الخالى من الغابات فى طريقها إلى قلب القارة ، وقد استطاع الماغيار ، أجداد المجريين الحاليين ، تأسيس موضع قدم دائم فى الأجزاء الحشائشية من حوض المجر وهى منطقة شبيهة بموطنهم الأصلى فى حين أنهم تعرضوا للهزيمة والطرد من المناطق الغابية إلى الغرب . ويوجد أكبر إقليم تغطيه الحشائش فى أوربا فى المناطق الجافة من أسبانيا مثل هضبة الميزيتا التى تشمل أجزاء من وادى نهر ابرو وحوض قسطلة الجديدة ومازالت الرياح تستخدم فى دفع طواحين الهواء فى إقليم لامنشا La Mancha الخالية من الأشجار . وكانت الحشائش الطويلة تغطى أجزاء شاسعة من أوروبا فى عصور ماضية قبل أن يزيلها الإنسان فى سعيه لإيجاد أراضى زراعية . فقد كانت تربات البرارى خصبة لايمكن تجاهلها كما أن عملية الرعى أتت على البقية الباقية من الحشائش . والسؤال : كيف نشأت مناطق الاستبس هذه ؟ لم يجد للآن إجابة شافية . فالبعض يرجع السبب إلى تدخل الانسان وازالته للاشجار مستخدما النار ورعى حيواناته مما لم يساعد فى نمو الاشجار مرة ثانية خاصة فى المناطق التى يسودها مناخ قارى كالذى نجده فى شرق أوربا . وغياب بقايا غابات فى منطقة الحشائش هذه يوحى بأن الغابات كانت غير معروفة هنا . وربما كان لنشاط الإنسان فى هذه المناطق دور فى هذا المضمار وقد تكون مناطق الحشائش المفتوحة مثل إقليم « الفولد » المجرى قد ظهرت إلى الوجود نتيجة إزالة الغطاء الغابى على يد رجال ماقبل التاريخ .

أما المناطق الخلنجية Heathlands والمستنقعية Moors فهى تحتل أجزاء صغيرة من

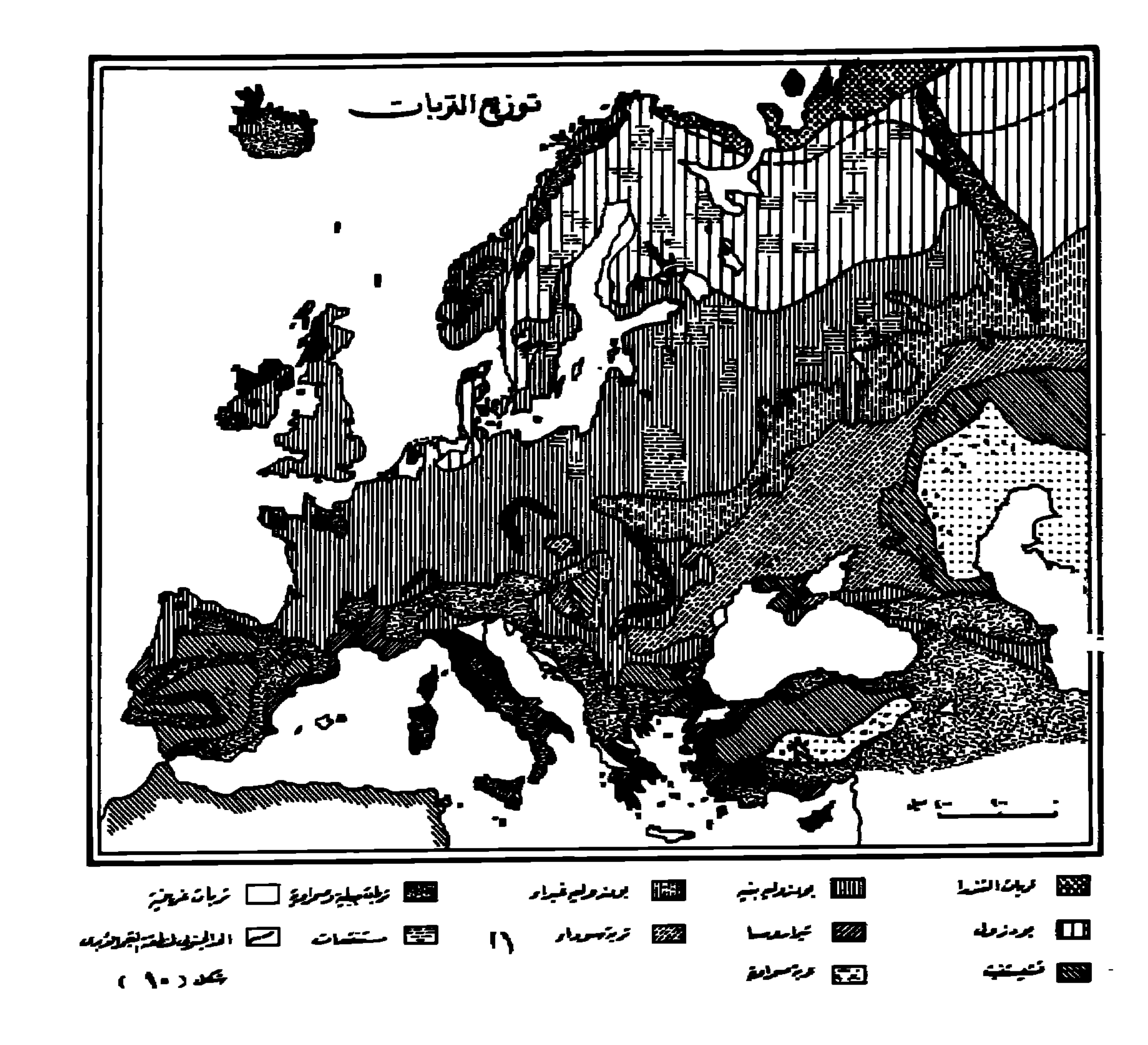
الجزر البريطانية والأراضى المنخفضة والسهل الألمانى الشمالى وتنمو فيها أنواع من النباتات المنخفضة مثل الحشائش والوزال furze ، Gorseوالعرعر Juniper والخلنج heather والعليق brambles كما أن سطحها كثيرا مايكون رمليا أو مغطيا بالخث peat ولذلك تعتبر هذه المناطق غير صالحة زراعيا ومن ثم تتميز بقلة السكان فيها . وقد تم مؤخرا تشجير أجزاء من هذه المناطق بغابات صنوبرية .

أما إقليم التندرا والنباتات الألبية فتوجد فى الشمال فيما بعد خط الشجر فى شبه جزيرة اسكندناوه وتتكون نباتاتها من الأشن Lichen والطحالب mosses والحشائش الصغيرة والسعادى Sedges وأنواع من الشجيرات الصغيرة والأشجار القزمية ، وتكفى هذه النباتات لإعالة قطعان الحيوان التى ترعى هنا . ويقضى رعاة الرنة فصل الصيف فى إقليم التندرا الأسكندناوية كما تؤخذ ماشية الألبان فى نفس الفصل لترعى فى حشائش almen و Seter فى جبال الألب وكيولن kjolen ، إذ تزدهر هذه المناطق المرتفعة بعديد من النباتات فى فصل الصيف القصير التى تكون مرعى خصبا لهذه الحيوانات .

التربات : (الشكل ١٠) :

بينما تختلف الظروف الطبيعية داخل أوروبا اختلافا كبيرا فإن التربات الصالحة للزراعة المكثفة توجد فى مناطق كبيرة من القارة :

١ – ففى الأماكن التى كانت تكسوها الغابات النفضية ذات الأوراق العريضة نجد التربات البنية الخصبة التى تحتوى على كميات وافرة من الدبال humus وقد جذبت هذه التربة أعداد المزراعين الأوائل الذين أزالوا الغابات لزراعة هذه التربة وما زالت هذه التربة تعول أعدادا ضخمة من المزارعين اليوم . ومنذ أن أزال الإنسان الأشجار فقد حرمت هذه التربة من الأوراق التى كانت تسقط كل خريف كما أن الحرث والتسميد المتكرر وزراعة الحشائش لأغراض الرعى قد جعلت هذه التربات أقرب إلى صنع الإنسان منه إلى التربات الطبيعية . ومن المدهش أنه لم


توزيع التربات
تربات التندرا
بودزول
تيراروسا
تربة سوداء
تربة صحراوية
مستنقعات
شكل (١٠)

تحدث أى إزالة للتربة بواسطة عمليات التعرية وهذا يمكن عزوها جزئيا إلى جعل أجزاء كبيرة من الأرض مزروعة بالحشائش التى تساعد فى تماسك التربة .

٢ – أما فى المناطق التى تغطيها الغابات الصنوبرية والمختلطة فنجد فيها التربات الحمضية الفقيرة والتى تسمى بالبدزول Podsols (الكلمة روسية وتعنى التربة ذات اللون الرمادى) ولجعل هذه التربة صالحة للإنتاج الزراعى فلابد للمزارع أن يعمل شيئين :

أ – إضافة كميات كبيرة من السماد لسد النقص فى الدبال .

ب – إضافة الجير Lime وهى مادة قلوية ليحايد حموضة التربة البدزولية .

ورغم هذه النقائض فإن تربات البدزول تستغل للزراعة فى أماكن واسعة فى نطاق الغابات المختلطة الأصلية .

٣ – يتميز معظم نباتات ومناخ إقليم البحر الأبيض المتوسط بتربات قرنفلى أو أحمر اللون ذات عمق وخصوبة مختلفين ويطلق عليها الاسم الايطالى Terra rossa أى « الأرض الحمراء » . وهذه التربات مستخلصة من الحجر الجيرى وضحلة ونادرا ما تمتد إلى عمق كبير . وبالمقارنة مع تربات أوروبا الأخرى فإن التربة الحمراء هى أكثر هذه التربات التى أسيء استعمالها بواسطة الإنسان . ففى مديريات أسبانيا الوسطى والجنوبية نجد أكثر من نصف الأرض قد تعرض لعوامل التعرية وانجراف التربة ، وكل الأراضى المزروعة التى تزيد نسبة الانحدار فيها عن ٣ ٪ أصابتها أضرار جسيمة بفعل التعرية . ولهذا نجد هجرة الأرض التى لم تعد صالحة للزراعة متفشية كما أن هناك بعض البساتين وحقول العنب والحبوب قد فقدت أكثر من ثلاثة أقدام من التربة السطحية وما تحتها Subsoil ، مما أدى إلى تطمير مستودعات الخزانات التى أقيمت للرى وإلى انسداد مجارى النهيرات والتصريف بمفتتات الصخور والتربات المنجرفة . ومن العوائق التى تقف دون تطبيق إجراءات صيانة التربة (مثل : الحرث الكنتورى contour ploughing وعمل المصاطب Terracing و strip-cropping) تجزئة أو تقسيم الأرض الزراعية

إلى أجزاء صغيرة تبعا لقوانين الوراثة . وتعمل الحكومة الأسبانية جاهدة لحل هذه المعضلة ولكن إصلاح عملية التخريب التى استمرت منذ آلاف السنين لابد وأن تكون صعبة للغاية .

٤ – أما أخصب تربات أوروبا فهى تربة التشيرنوزم Chernozems (وهى كلمة روسية تعنى الأرض السوداء black earth) التى تطورت فى المناطق الحشائشية فى حوض المجر وسهل ولاشيا وأكرانيا . واللون الأسود دليل على الكميات الكبيرة من الدبال الذى تكون من تحلل الحشائش . وتجود زراعة القمح فى هذه التربات ولذا يعد هذا المحصول مرتبطا بتوزيع هذه التربة فى أوروبا . كذلك تربة اللويس Loess وهى ذات اتباط وثيق بتربة التشيرنوزم ، وتوجد فى مناطق شاسعة غير متصلة تمتد عبر القارة من روسيا إلى فرنسا . وهذه التربة هشة وسهلة زراعتها كما أنها خصبة ذات مسام رملى غنى فى الجير Lime ولكن يجب الحرص الشديد فى زراعة هذه التربة لأنها سريعة التعرض لعمليات التعرية والجرف .

٥ – أما التربات الغرينية alluvial فنجدها مبعثرة فى أحزمة حول معظم الأنهار . وهناك الكثير من المنخفضات الغرينية التى نجدها حول البحر المتوسط ومن ضمنها منطقة البساتين huertas فى ساحل بتيكو betico فى أسبانيا (والكلمة تعنى « بستان بالأسبانية وهى جيوب من الساحل ذات تربات غرينية خصبة وتمارس عليها زراعة مكثفة) ، وعلى هذه التربات نجد أكثر الزراعات كثافة فى إقليم البحر الأبيض المتوسط . وتوجد منطقة تربة غرينية كبيرة فى الأراضى المنخفضة فى هولنده وبلجيكا حيث تكاتفت أنهار عدة فى بناء دلتا كبيرة . وقد ساعد الإنسان فى سرعة العملية الارسابية فى إقليم البحر المتوسط وذلك عن طريق إزالة الغابات مما ساعد فى عملية انجراف التربة خاصة من أطراف الجبال وكان أحد نتائج هذه العملية أن تراكمت الإرسابات فى الموانىء وجعلها غير صالحة لاستقبال السفن . وهناك بعض المدن التى كانت موانىء فى العصر الكلاسيكى وتقع الآن بعيدا عن البحر مثل مدينة Revena فى وادى نهر البو Po والتى تقع الآن على بعد ١٠ كيلومترات إلى الداخل . وكذلك جبل سيسرو فى الساحل الغربى لإيطاليا والذى كان جزيرة فيما مضى ولكنه الآن متصل بالساحل الأيطالى بحزام واسع من الطين .

٦ – أما فى منطقة التندرا Tundura (وهى كلمة مشتقة من الكلمة الفنلندية Tundturi وهو جبل فى فنلنده يبرز إلى ما فوق حد الغابات) والمناطق الجبلية العالية نجد فيها إما الصخور العارية التى تسمى فيل Fjell والتى غالبا ما تكون مغطية بحشائش فقيرة ، أو تربات ذات تطور فقير – أى تربة مستنقعية ذات حموضة عالية ، وهنا تعوق درجة الحرارة المنخفضة العملية الكيميائية والحيوية وهذه العمليات أساسية فى تكوين التربة ولذلك نجد أن الزراعة معدومة فى هذه المناطق . وأحسن ترباتها تعول أعدادا ضئيلة من الرعاة نظرا لفقر الحشائش التى تنمو عليها .

أثر الإنسان فى البيئة الأوروبية :

١ – التضاريس :

ليس الإنسان نتاجا سلبيا للبيئة التى يعيش فيها ، خاصة إذا كان هذا الإنسان قد وصل إلى مستوى فنى رفيع . ولا يزال كثير من القرارات التى تتخذ فى إطار التراث الحضارى تتأثر بالظروف الطبيعية المحيطة ، فالإنسان يعطى اعتبارا خاصا للتضاريس عندما يختار موطنه وسبل معيشته وقد ورد آنفا الذكر عن أثر الممرات الموجودة فى المناطق المنخفضة والممرات الجبلية على طرق الإغارة والتجارة ، كما لا يخفى دور المناطق المتضرسة الوعرة فى إيواء الأقليات القومّية والحفاظ على بقائها وعاداتها من تأثير الثقافات الأخرى . ويمكن أن نضيف فى هذا المجال كيفية تأثير التضاريس فى توزيع السكان خاصة وأن معظم سكان أوروبا يقطنون الأماكن السهلية المنخفضة وقد يكون اختيار السهول للاستيطان نتيجة اختيار آخر ألا وهو القرار بأن يكون الاستقرار الزراعى هو نمط الحياة الأفضل بالنسبة للإنسان الأوروبى بدلا من حياة التجوال والجمع والالتقاط ، وقد يجد الصياد المناطق الجبلية مرتعالنشاطاته فى حين أن المزارع لم يختر المناطق السهلية اعتباطا . فإن أبرز ما يميز معظم سهول أوروبا هو الكثافة السكانية العالية فى حين أن المناطق الجبلية تتميز بتخلخل سكانها . ففى وادى نهر البو (سهل لمبارديا) فى شمال إيطاليا تصل الكثافة السكانية إلى ١٠٠ شخص للكيلو متر المربع (٢٥٠ شخص للميل المربع) فى حين

أن أجزاء كبيرة من جبال الألب والأبناين المجاورة تقل كثافة السكان فيها إلى أقل من عشر الكثافة الموجودة فى وادى البو . والاتجاه الآن فى أوروبا هو الهجرة المتواصلة من هذه الاماكن الجبلية إلى المدن الموجودة فى الأماكن المنخفضة طلبا للعمل مثلما يحدث فى مدن تورينو وميلانو الصناعية التى تستقطب أعدادا ضخمة من سكان الجبال إلى مصانعها ، خاصة الشبان اليافعين الذين يهاجرون من مواطنهم تاركين خلفهم الأطفال والعجائز . وإزالة الغابات من الأماكن المنخفضة تفسر إلى حد كبير جاذبية هذه المواضع من الناحية الزراعية .

وإذا كان الإنسان يتأثر بالتضاريس من نواحى ووسائل عديدة فهو بطبيعة الحال لم يقف موقف المتفرج إزاء هذه المؤثرات بل تجاوب معها وأثر فيها وترك آثاره واضحة على سطح القارة . ومن هذه الظاهرات البشرية التى نراها اليوم :

(١) عمل المصاطب :

عمل المصاطب فن قديم ربما جلب أساسا من الأطراف الجبلية من منطقة الهلال الخصيب ، وقد استطاع الإنسان بواسطتها أن يسوى منحدرات الجبال لأغراضه الزراعية . وهذه الظاهرات وإن كانت محدودة الانتشار فإنها تعتبر دعامة الزراعة فى مناطق من القارة مثل وادى نهر الراين حيث يلاحظ المسافر بين مدينتى بون ومينز مصاطب محكمة الصنع ترتفع من شاطئ النهر حتى سفوح الهضبة وهى تزدان بأشجار العنب أو الكروم . وكذلك فى منطقة البحر الأبيض المتوسط حيث تقل الأراضى المستوية وتلعب المصاطب دورا هاما فى زراعة المنحدرات الجبلية .

(٢) التلال البشرية :

ومن الظاهرات البشرية التى نجدها متناثرة فى أجزاء عديدة من القارة الأوروبية تلك الجبال الصناعية التى تكونت من مخلفات صهر المعادن كما فى أودية ويلز ومجموعة التلال التى أقامها النورمان فى العصور الوسطى لصد هجمات المغيرين فى شرق أيرلنده وفى سهول مقدونيا أيام الإسكندر الأكبر .

ولكن أهم ظاهرة بشرية تركها الإنسان على سطح القارة هى الساحل الهولندى والذى يوضح إلى أى مدى يمكن للإنسان أن يؤثر فى بيئته الطبيعية ويذللها ويخضعها لأغراضه المختلفة .

(٣) التغيرات التى تعرض لها ساحل هولندا : (شكل ١١) :

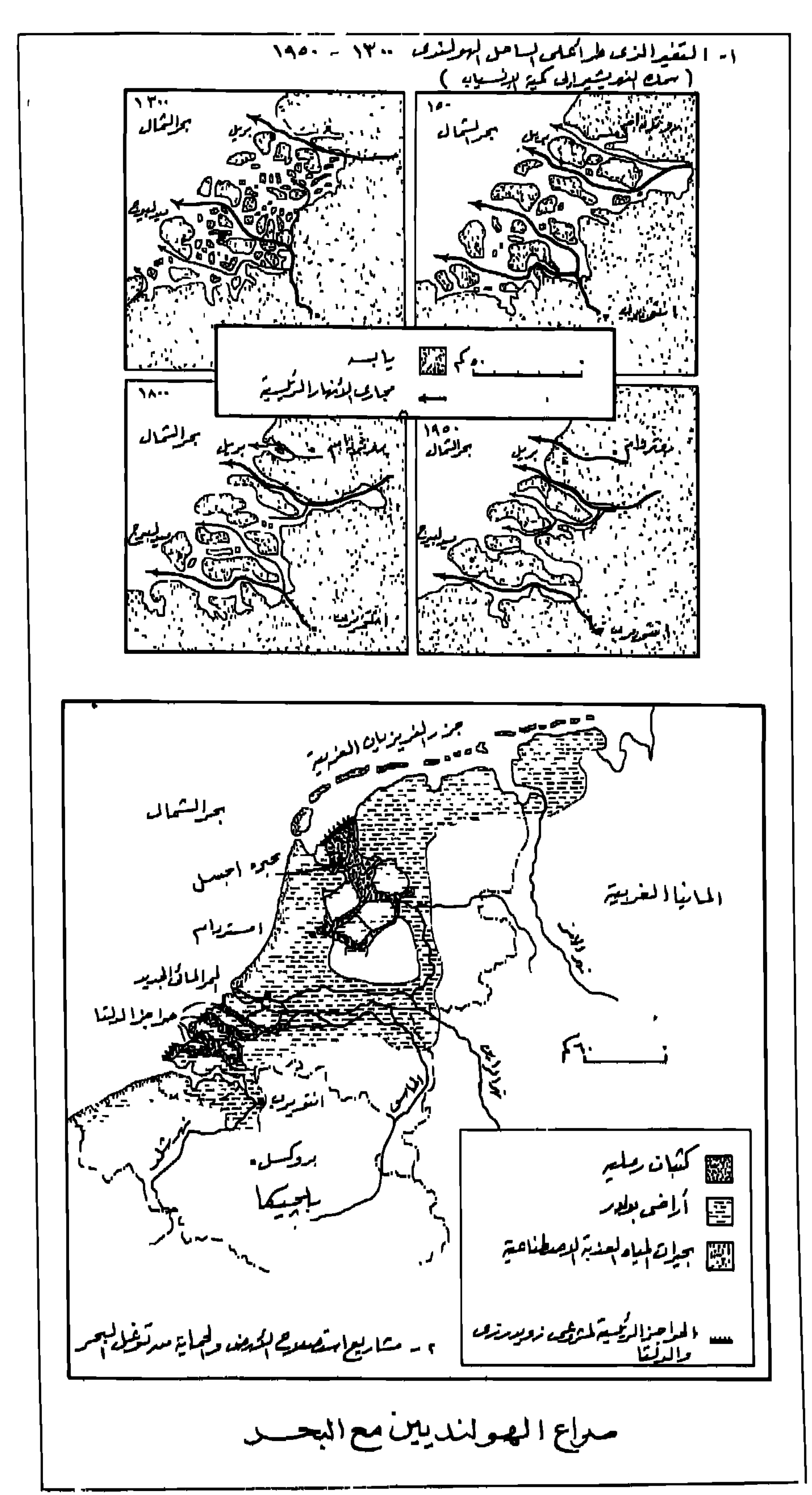
قطن الهولنديون منطقة ساحلية منخفضة تتعرض لهبوط تدريجى يقدر بنحو عشرين سنتيمترا فى القرن أو بمقدار سنتيمتر واحد كل خمس سنوات . وهذا الانخفاض الذى يتعرض له الساحل الهولندى يقابله ارتفاع فى الساحل السويدى المطل على بحر البلطيق . وقد بدأت هذه الظاهرة (هبوط الساحل الهولندى وارتفاع الساحل السويدى) منذ نهاية عصر البلايستوسين وأدت إلى هبوط سواحل هولندا الهامشية بمقدار عشرين مترا (٦٥ قدما تقريبا) . وعلى الرغم مما تسهم به أنهار الراين ، وماس ، وشيلد من إرسابات طمية ضخمة تخفف من نتائج عملية هبوط هذا الساحل إلا أن الشعب الهولندى قد استبسل أمام غزو البحر . ولولا جهود هذا الشعب ومقاومته لطغيان مياه البحر لأضحت أجزاء كثيرة من سواحل هولندا تقبع تحت مياه عميقة الآن .

كيف بدأت قصة طغيان مياه البحر؟

قبل أن تبدأ مياه البحر توغلها واتجاهها صوب الساحل الهولندى كان هذا الساحل قليل التعاريج تحميه حواجز من الكثبان الرملية تتخللها أنهار الراين وماس وشيلد وهى فى طريقها إلى بحر الشمال .

وحينما تعرضت بعض الأماكن الواقعة إلى الداخل من الكثبان الرملية للهبوط دون مستوى البحر ، غمرتها المياه التى اندفعت بفعل الرياح ، وأخذت هذه المياه تخترق الحاجز الرملى من الجهة الشمالية بصفة خاصة ، ولم يبق من هذا الحاجز سوى بعض الجزر التى تمتد فى محور عام من الشرق إلى الغرب (جزر الفريزيان) . أما المنطقة التى يشغلها بحر فادن (فادن زى الضحل والتى تمتد ما بين جزر الفريزيان والشاطئ الحالى waddenzee ، فقد كانت أرضا يابسة منذ بضعة آلاف من السنين .

وحينما حكم الرومان الأراضى المنخفضة (هولندا وبلجيكا) كانت هناك بحيرة كبيرة جنوبى بحر فادن ويتصل بها أحد فروع نهر الراين ، إلا أن هذه البحيرة العذبة لم



صراع الهولنديين مع البحر

شكل (١١)

تلبث أن تحولت إلى خليج من المياه المالحة التابعة لبحر الشمال . وفى الفترة من سنة ٦٩٣ م إلى سنة ١٢٣٧ م اندفعت المياه بتأثير العواصف الشديدة لتغمر شريط الأرض اليابسة التى كانت تفصل بين البحيرة العذبة التى عرفت بالبحيرة الرومانية أو Flevolacus وبحيرة فادن وتكونت بحيرة ضحلة عرفت باسم زيدورزى Zuiderzee أو البحر الجنوبى .

لقد شاهد ساحل هولندا ظاهرات عديدة تتمثل فى زحف حواجز الكثبان الرملية جهة الشرق بتأثير الرياح الغربية ، وقد قدرت سرعة هذا الزحف بنحو ثلاثة كيلو مترات خلال ١٥٠٠ سنة ، وفى نفس الوقت كان البحر يطغى ويغطى بعض المناطق وتلتحم مياهه المالحة بمياه بعض البحيرات العذبة وينتهى الأمر بأن تصبح هذه البحيرات العذبة أجزاء من مياه البحر .

موقف الهولنديين من طغيان مياه البحر :

تنوعت أساليب الهولنديين فى مواجهة أخطار طغيان مياه البحر وذلك على مدى ألفى سنه . بدأت جهود الهولنديين الأولى تتجسد فى اقامة استحكامات وتلال ترابيه mounds يبنون عليها منازلهم حتى تكون بمنأى عن المناطق التى تغمرها المياه ، ومازالت بعض هذه الروابى باقية وآهلة بالسكان حتى الآن . وكانت هذه التلال الترابية تبدو كجزر حينما تتعرض المنطقة لفيضان مياه البحر . وتراوح ارتفاع هذه الروابى ما بين ثلاثة الى اثنى عشر مترا وتفاوتت مساحاتها ما بين هكتار وستة عشر هكتارا . وقد اقيمت معظم هذه الروابى التربيه Terben ما بين القرنين الثالث والعاشر الميلاديين . ومازال حوالى ١٥٠٠ رابيه باقية حتى الآن .

ومنذ القرن العاشر الميلادى بدأ الهولنديون يقيمون الحواجز والعوائق أمام الساحل حتى تتجمع الارسابات الرملية والطمى الذى تأتى به مياه الأنهار مما أدى بمرور الوقت إلى نمو حجم الجزر الركامية الموجودة فى دالات الأنهار .

وفى بداية القرن الحادى عشر الميلادى بدأت بناية السدود والمستنقعات الساحلية فى الجنوب فى مقاطعات فلاندرز وزيلاند والأجزاء المجاورة لبلجيكا وكان

الغرض من إقامتها هو حماية الأراضى التى ترتفع عن مستوى البحر عند الجزر والتى كانت تتعرض من وقت لآخر لفيضانات . وكانت الأراضى تحمى بالسدود ذات الفتحات التى تفتح عند الجزر لتصريف المياه التى تتجمع بواسطة الرشح والتسرب .

واستمرت عملية بناء السدود منذ القرن الحادى عشر وبلغت ذروتها فى القرن الرابع عشر لحماية الأراضى المزروعة ، وهكذا كان موقف الهولنديين فى بادىء الأمر إزاء أخطار طغيان مياه البحر موقفا دفاعيا فى الغالب على أن استصلاح الأراضى الشديدة الانخفاض عن طريق استخدام طاحونة الهواء بدأ منذ القرن الثانى عشر الميلادى على أقل تقدير ، واستفاد الهولنديون من الرياح الغربية فى إدارة طواحينهم ، تلك الرياح التى تدفع مياه البحر نحو الساحل . لقد عرف الهولنديون كيف يستخدمون هذه الرياح لاسترداد أراضيهم التى غمرتها المياه واستصلاحها . وقد تمكن الهولنديون من استخدام تسع وأربعين طاحونة فى تجفيف بحيرة عذبة كانت تغطى مساحة ٧٣٠٠ هتكار وذلك خلال ثلاث سنوات فقط (١٦٠٩ – ١٦١٢ م) ثم تتابعت عمليات التجفيف .

وفى خلال القرنين التاسع عشر والعشرين استفاد الهولنديون من المضخات البخارية والكهربائية . وفيما بين عامى ١٨٤٠ و ١٨٤٦ تم بناء سد حول بحر هاريتمر Haartemmer وتم تجفيفه خلال خمس سنوات (١٨٤٧ – ١٨٥٢ م) باستخدام ثلاث مضخات بخارية . وكانت مياه هذا البحر تغطى مساحة تصل إلى ١٧٨٠٠ هكتار غربى امستردام .

مشروع زويدرزى (البحر الجنوبى Zuider Zee)

كان بحر زويدر منذ أن تكون مصدر قلق للهولنديين ، إذ أنه ما تهب رياح شمالية قوية حتى تندفع مياهه لتغرق الأراضى المستصلحة . وكان فيضان سنة ١٩١٦ المدمر ذا أثر كبير فى حث الحكومة على اتخاذ إجراء فعال لوقف خطر طغيان هذا البحر . وتمثل هذا الإجراء فى إقامة سد بحرى ضخم فى الفتحة التى يتصل بها هذا البحر بمياه المحيط وبدأ العمل فى هذا السد سنة ١٩٢٥ وانتهى فى عام ١٩٣٢ م . وقد أسهمت الأنهار التى كانت تصب فى زويدرزى فى غسل الأراضى التى كانت تغطيها مياه

البحر وكونت بحيرة مياه عذبة عرفت باسم اجيسل Ijssel . وهكذا اختفت مياه زويدرزى الملحة ولم يتحسر على زوال هذا البحر إلا صيادو الأسماك .

أما المرحلة الثانية لهذا المشروع فهى التجفيف التام وتحويله إلى أراض زراعية منتجة بعد تجارب طويلة وقد تم استيطان بعض أجزاء من هذه المنطقة استيطانا كاملا فى فترة الاحتلال الالمانى ١٩٤١ م . وتم تجفيف أجزاء أخرى فى الشمال الشرقى ما بين ١٩٣٦ و ١٩٦٠ ، والاجزاء الجنوبية ١٩٦٨ ، ويبدو أن التجفيف الكامل لجميع أجزاء زويد زى سيكتمل سنة ١٩٨٥ م وبذلك تكون المساحة التى تم اكتسابها حوالى ٢٣٠٠ كم٢ ، وقد رؤى بقاء مساحة كبيرة من بحيرة اجيسل Ijssel كمصدر للمياه العذبة وكنطقة ترفيهيه .

مشروع الدلتا :

على الرغم من أن مشروع زويد رزى قد خفف من اخطار طغيان مياه البحر على الساحل الهولندى إلا أن هناك منطقة أخرى فى مقاطعة زيلاند فى الجنوب الغربى حيث تمر مياه أنهار الراين وماس وشيلد خلال فتحات كبيرة تخترق الحاجز الرملى القديم . وقد كانت كارثة يناير سنة ١٩٥٣ م ناقوس الخطر الذى نبه الحكومة الهولندية ضرورة إتخاذ الإجراءات الكفيلة لحماية المنطقة من أخطار الفيضانات ومعروف أن رياحا بلغت سرعها ١٠٠ ميل فى الساعة دفعت المياه داخل مصب نهر الراين فى الفترة من ٣١ يناير حتى ٢ فبراير سنة ١٩٥٣م فأدت إلى انهيار السدود وإغراق المزارع والمدن القائمة على الجزر المنتشرة فى المصب . وقد اندفعت المياه خلال ثمانين ثغرة فى السدود فأغرقت حوالى ١٥٠ ألف هتكار من الأراضى الزراعية ولقى ١٨٠٠ شخص حتفهم وقدرت الخسائر بنحو نصف مليون دولار .

وأمام هذه الكارثة وافقت الحكمة الهولندية على بناء أربعة سدود أمام مصبات أنهار الراين وماس وشيلد مع إنشاء بحيرة عذبة من ناحية البحر وقد بدأ التنفيذ فى هذا المشروع ومازال العمل جاريا . وقد ترك مصب نهر شيلد الغربى مفتوحا لانه يخدم ميناء انتوبرب البلجيكى . وسوف يؤدى مشروع الدلتا إلى استصلاح مساحة تصل إلى ١٦٢٠٠ هتكار وهى مساحة صغيرة إذا ماقورنت بالتكاليف ، لكن

الهدف الأساسى لهذا المشروع هو الوقاية ، من أخطار الفيضانات وليس التوسع فى استصلاح الأراضى .

وعلى ضوء هذه الجهود التى قام بها الهولنديون يمكننا أن نفهم المثل الهولندى الذى يقول : لقد خلق الله العالم وصنع الهولنديون بلدهم .

أثر الإنسان على المناخ والطقس :

يبدو أن أثر الإنسان الصناعى المعاصر فى إحداث تغييرات فى مناخ منطقة ما قد أصبح جليا ومن الظواهر المسلمة بها فى عالم اليوم . ويظهر أثر هذا التغيير واضحا فى منطقة لندن التى تشكل أكبر تجمع حضرى فى قارة أوربا . ويبدو أن رداءة مناخ لندن كانت مثار اهتمام الكتاب منذ قرون مضت . فنى عام ١٦٦١م كتب جون ايفلن J. Evelyn مشيرا إلى لندن بأن « المسافر المنهوك سرعان مايشم رائحة لندن من مسافة بعيدة قبل أن يرى معالم المدينة التى يقصدها . وعندما ترى ملايين المداخن تدفع بدخان الفحم الحجرى إلى السماء يخيل إليك أن لندن أقرب إلى بركان جبل اتناأو استرومبولى أو ضواحى جهنم أكثر من كونها تجمعا سكنيا يسكنه اناس عاقلون » .

وحاليا يكثر الحديث من بعض الجغرافيين الذين يدرسون المناخ عن ما أسموه« جزيرة الحرارة » فى منطقة لندن . ويشيرون بذلك إلى ظاهرة الحرارة المرتفعة وبصفة دائمة فوق المنطقة المبنية من المدينة أكثر منه فى الحزام الاخضر فى المناطق الريفية المجاورة أو المحيطة بالمدينة . وترتفع درجة الحرارة الأدنى بالليل فى بعض الأحيان بحوالى ٧ درجات من حرارة المناطق الخضراء المحيطة بها فى حين أن درجة الحرارة اليومية القصوى تكون أكثر ارتفاعا . وتعزى هذه الظاهرة المناخية الى أسباب عديدة منها :

١ – عدم قدرة الإشعاع الحرارى الصادر من سطح الأرض على اختراق الصباب المتلوث الذى يتدلى من فوق المدينة .

٢ – احتفاظ الحرارة بواسطة الطرق المسفلتة والمبانى .

٣ - الحرارة الناتجة محليا من احتراق الوقود بواسطة المركبات والمصانع والمنازل .

وقد كان للنشاط البشرى أيضا أثره على خصائص المطر والرطوبة فى منطقة لندن . وقد لوحظ أن قلب المدينة يتمتع بعواصف رعدية أكثر وأمطار عاصفية وبدرجة رطوبة مطلقة أكثر مما نجدها فى المنطقة المجاورة . وفى خلال المشاهدة لوحظ أن العواصف الرعدية تنشأ وتتكثف أسرع فوق شمال لندن ويبدو أن السبب يرجع إلى الكمية الكبيرة من التصاعد الحرارى الناتج من التسخين السطحى الأكثر وإلى الكثرة الشديدة للجزئيات الدقيقة من المواد المرتبطة بالتلوث الهوائى . والتى تتكثف حولها ذرات الرطوبة لتكوف مطرا . وقد تسبب التقليل من حرق الفحم فى تخفيض درجة التلوث الهوائى فى لندن . ولكن أثر الإنسان الواضح على مناخ لندن مازال ملموسا ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة فى المناطق ذات - الكثافات السكانية العالية فى باقى أجزاء القارة . ومن خلال تطبيق إجراءات رسمية انخفضت نسبة التلوث الهوائى فى منطقة لندن مما خفف من أثر الإنسان على المطر والحرارة المحليين . ولكن مشكلة التلوث الهوائى حتى فى مدن بعيدة من المناطق الصناعية مثل بلغراد وأثينا ، مازالت ماثلة فى أجزاء كثيرة من أوربا .

الفصل الخامس

السكان في أوروبا: توزيعه وخصائصه

يبدو أن الإنسان دخل أوروبا مهاجرا من موطن أو أكثر من مواطن البشرية الأولى ويرجع أكثر الاحتمالات بأنه قدم من الجنوب الشرقى مع أن بعض العلماء يقترحون مدخلا آخر من الجنوب الغربى من القارة . ولانستطيع تحديد الوقت الذى حدثت فيه هذه الهجرة الأولى ولو أن بعض الدلائل تشير إلى زمن ممعن فى القدم إذ اكتشف أن أجداد الإنسان الأوروبى كانوا قد استقروا فى أجزاء من القارة منذ أواسط عصر البلايستوسين ، ومن المرجح أن ذلك حدث فى الفترة مابين ٣٠٫٠٠٠ و ٤٠٫٠٠٠ سنة أو إبان العصر الحجرى القديم . وقد كان عدد السكان ضئيلا آنذاك ولم يتعد بضعة عشرة آلاف فى أوروبا الوسطى وبضعة مئات فى بريطانيا . ولا يمكن تمييز هذه المجموعات البشرية الأولى إلا بواسطة آثارهم أو مخلفاتهم الحضارية رغم أن التغيير الحضارى قد تأثر إلى حد كبير بالتغييرات المناخية التى أعقبت نهاية عصر الجليد التى أتاحت انتشار الإنسان شمالا . وبحلول العصر الحجرى الحديث أخذ الإنسان يترك بصماته على البيئة وذلك عن طريق ممارسته لنوع الزراعة البدائية التى دخلت أوروبا من الجنوب الشرقى عن طريق الدانواب والبلقان .

كان الانتشار الحضارى نتاجا للهجرات أحيانا ، وبواسطة هذه العملية حدد الاختلاط والتمازج والانصهار والاندثار ، تركيب الأنواع الطبيعية التى أنتجت تدريجيا النمط الانثروبولوجى للقارة ، رغم أن بعض التغييرات فى الإنسان نحو شكل أكثر ملاءمة من الناحية الاقتصادية قد حدث بواسطة الانتقاء الطبيعى (مثل الحدوث المتزايد للرأس العريض) . وقد انتشرت اللغة الهندية الأوربية بواسطة هذه العملية أيضا .

أما كلمة « الجنس أو السلالة » فهى مفهوم انثروبولوجى طبيعى ويستخدم فى

تحديده بعض الصفات مثل اللون وشكل الرأس والقامة وخصائص الوجه (الرأس والوجه والأنف والشفاه) وفصيلة الدم . ولكن المعلومات عن سكان القارة القدماء ضيئلة مما يجعل التعرف عليهم وفق هذه الصفات الانثروبولوجية عسيرا ، والجماجم التى عثر عليها لاتعطى فكرة عن شكل ولون الشعر والجلد كما أن عملية حرق الجثث قد قضت على الجماجم وأصاب التعقيد مسألة الجنس برمتها نتيجة اخضاعهاالتصميمات عاطفية وذاتية والاختلاط بين الانثروبولوجيا الطبيعية والاثنولوجيا (الانثروبلوجيا الاجتماعية) . وقد اهتمت الدراسات عن الجنس الطبيعى بالأفراد أكثر من اهتمامها بالسكان الذى أصبح فى الآونة الأخيرة مركزا لاهتمام العلماء . فسكان منطقة ما مزيج من أنواع عديدة من الأجناس .

وأكثر التصنيفات شيوعا فى أوربا هى تقسيم سكانها الذين يتكونون أساسا من السلالة القوقازية الى ثلاثة أنواع :

١ – النورديون

٢ – الألب – الديناريون

٣ – سكان البحر المتوسط

ولكن هناك من يقترح أن هذه الأنواع عبارة عن تنوع فى مجموعة سلالية واحدة وحدث نتيجة التكيف والملاءمة للبيئات المختلفة التى انتشرت فيها هذه المجموعة وكذلك لتطوير أفضل الأشكال التى تلائم هذه البيئة . كما أن هناك فروعا ثانوية تعرف عليها الانثروبولوجيون تشتمل على بقايا العناصر البشرية القديمة وأنواع ثانوية مثل البلطيين الشرقيين East Baltic الذين ظهروا نتيجة التزاوج بين النوردس والألب الديناريين . وعلى العموم يتميز النورديون بالصفات الآتية : اللون الفاتح الذى يزداد بياضا كلما اتجهنا شمالا ويقال بأن هذا اللون الفاتح قد اكتسب خلال المراحل الأولى من الاستيطان البشرى للمناطق الشمالية التى تتميز بالبرودة . ويقدر العلماء بأن هذا المستوى الحالى للون أخذ مابين ٥٠٠٠و٠٠٠ر١٠ جيل ليصل إلى ذلك .

يتميز سكان شبه جزيرة إسكندناوه وهامش البلطيق الجنوبى بلونهم الفاتح وشعرهم الأشقر وعيونهم الزرقاء وطول القامة والرؤوس الطويلة . وهم أساسا ينتمون إلى الجنس النوردى . أما سكان هامش البلطيق الجنوبى فيتميزون بقامات أقصر ورؤوس أكثر عرضا ووجوه مسطحة وعظام وجنة عالية . وقد انتشرت هذه الصفات فى الجنوب أثر هجرات القبائل الجرمانية فى العصر الرومانى بينما أدت الهجرات الاسكندناوية فى العصور الوسطى إلى انتشار هذه الصفات النوردية حول منطقة الساحل الأطلسى .

(٢) المجموعة الألبية – الدينارية : تشكل هذه المجموعة أكثر المجموعات انتشارا إذ تتواجد فى أواسط وشرق وأجزاء كبيرة من غرب القارة ، ويتميزون بقامتهم المتوسطة واللون الأسمر الفاتح والعيون البنية أو الفاتحة اللون وحجم رأس يتراوح بين المتوسط والعريض .

(٣) مجموعة البحر المتوسط : يتميز سكان جنوب أوروبا بنسبة عالية من الرأس العريض وقامات تتراوح بين المتوسط والقصير ولون الشعر والجلد والعين الأسمر أو الداكن . ويصعب كثيرا التمييز بين هذه المجموعات والمجموعة الأخرى التى تسكن حول أجزاء البحر المتوسط غير الأوروبية . ويتميز بعض سكان الساحل الأطلسى وحتى جنوب اسكندناوه ببعض هذه الصفات ويرجح أنها اكتسبت نتيجة هجرات حدثت فى عصور ما قبل التاريخ . وتوجد صفات آسيوية (مغولية) فى بعض الشعوب التى دخلت القارة عن طريق جنوب روسيا وحوض نهر الفولجا ، كما أن الصفات الطبيعية للسكان القدماء أمكن التعرف عليها من دراسة الأقليات التى تقطن فى الأماكن الجبلية المنعزلة فى غرب ووسط وجنوب شرق القارة .

وتتمثل فى الأوروبيين تركيبات متعددة من الشكل واللون المستمدة من الخصائص الرئيسية الثلاثة المتوارثة من الماضى ، وليس الأوربيون خليطا من عناصر جنسية ثلاثة بغية تهجينها من فترة طويلة . ومثلا نجد استمرار اللون الفاتح الذى يظهر بوضوح فى الأجزاء الشمالية من القارة وخاصة وسط العناصر الأقدم ذوى الأجسام الضخمة والرؤوس العريضة المشتقة من شعوب العصر الحجرى الأوسط والحديث

بينما تغلب استدارة الرأس خاصة فى النطاق الأوسط وفى اتجاه الشرق نحو آسيا نتيجة التغيير الوراثى والهجرات . ومن الخطأ أن نعتبر هذه الأنماط والأشكال الموجودة غير قابلة للتغيير ، فالتغيير الجنسى مستمر خاصة فى الوقت الحالى – نتيجة دخول عناصر غير أوروبية إلى أماكن متعددة من القارة .

أما دراسة أصناف الدم فقد أظهرت أن الاستيطان الأولى للقارة قد حدث فى شكل موجات متتالية أتت من جهة الشرق والجنوب الشرقى . وفى هذا المجال يثير الباسك الذين يسكنون شمال أسبانيا كثيرا من الجدل حول أصلهم . فهم يتكلمون بلغة لا تنتمى إلى الهندية – الأوروبية وممعنة فى قدمها ويظهرون فى دمهم تكرارا منخفضا فى فصيلتى A و B وتكرارا أعلا فى الفصيلة O وهذا النمط ملاحظ أيضا فى بعض المناطق المنعزلة من الهامش الأطلنطى . وعلى العموم يمكن القول بأن الفصيلة A أكثر شيوعا فى غربى أوروبا إذ نجدها فى ٣٠ ٪ أو أكثر من سكان أجزاء من أيبريا الغربية وشرقى فرنسا وأسكندناوه وتركزه فى المناطق الهامشية والجبلية من القارة قد يعنى بأنها قديمة فى القارة . أما الفصيلة B فهى أكثر تواجدا فى شرق أوروبا ولا تتعدى نسبة الذين يحملون هذه الفصيلة من سكان القارة أكثر من ١٨٪ . أما أكثر هذه الفصائل شيوعا فهى فصيلة O التى يتكرر حدوثها بكثرة فى الأطراف الساحلية من غرب وجنوب أوروبا وفى أيسلنده وأيرلنده وكورسيكا وساردينيا ومنطقة الباسك إذ تصل نسبة السكان من ذوى الفصيلة O إلى ٧٠٪ . وإذا أخذنا انتشار الفصيلة على نطاق القارة فإن حوالى نصف سكانها من ذوى الفصيلة O (الشكل ١٢) .

وقد أظهرت الدراسات وجود اختلافات محلية فى فصائل الدم نتيجة الهجرات كما يظهر فى الاختلاف بين سكان المناطق الساحلية والداخلية فى شمال أوروبا .

١ – توزيع السكان : (الأشكال ١٣و١٤و١٥) :

تحتوى القارة الأوروبية (باستثناء الاتحاد السوفيتى) حاليا (السبعينات) على حوالى ١٥٪ من سكان العالم ، وهذه النسبة أقل من نصيب القارة خلال القرن التاسع عشر عندما شهدت أوروبا زيادة ضخمة فى سكانها ويتوقع الديمغرافيون أن

توزيع فصائل الدم
O . B . A
فصيلة O في أكثر من ٧٠٪ من السكان
فصيلة B " " ٣٠٪ "
فصيلة A " " ١٥٪ "
ميل

شكل (١٢)

الكثافة السكانية فى أوروبا

حوالى القرن الأول الميلادى

شخص/كم²	شخص/الميل المربع
صفر – ٤	صفر – ١٠
٤ – ١٢	١٠ – ٣٠
١٢ – ٢٧	٣٠ – ٧٠
٢٧ – ٥٨	٧٠ – ١٥٠
٥٨ – ١٢٠	١٥٠ – ٣١٠

٦٠٠ كم

٤٠٠ ميل

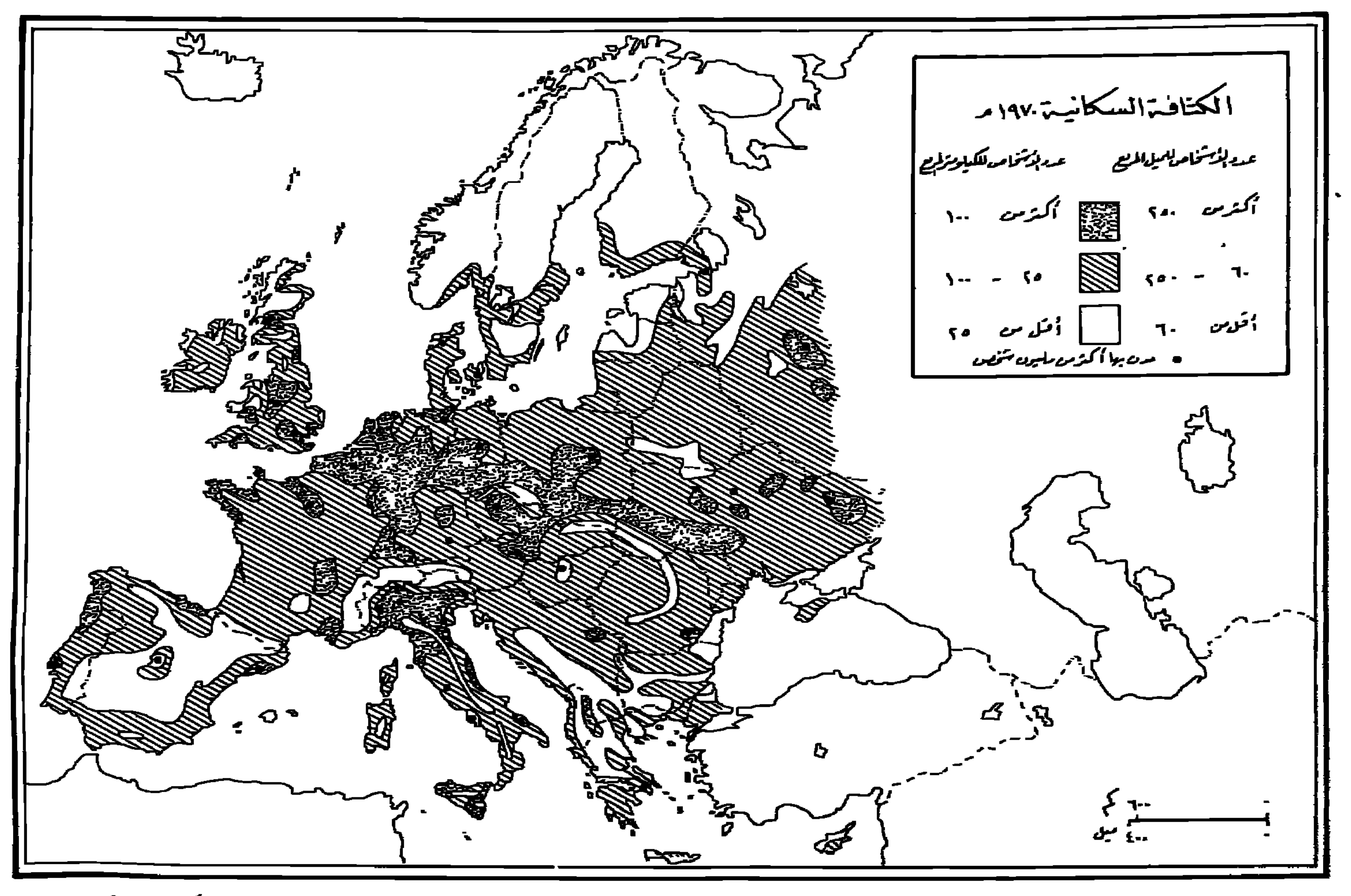
شكل (١٣)

الكثافة السكانية حوالى ١٧٠٠م

شخص/كم٢			شخص/الميل المربع	
صفر	٤		صفر	١٠
٤	١٢		١٠	٣٠
١٢	٢٧		٣٠	٧٠
٢٧	٥٨		٧٠	١٥٠
٥٨	١٢٠		١٥٠	٣١٠
معلومات غير متوفرة			معلومات غير متوفرة	

٤٠٠ كم

شكل (١٤)


الكثافة السكانية ١٩٧٠م
عدد الأشخاص للميل المربع
عدد الأشخاص للكيلومتر المربع
أكثر من ٢٥٠
أكثر من ١٠٠
٦٠ - ٢٥٠
٢٥ - ١٠٠
أقل من ٦٠
أقل من ٢٥
مدن بها أكثر من مليون شخص
٦٠٠ كم
٤٠٠ ميل

شكل (١٥)

هذه النسبة ستنخفض بحلول عام ٢٠٠٠ إلى أقل من ١٠٪ نتيجة الانخفاض فى الزيادة الطبيعية بين السكان فى حين أن العالم الثالث سيشهد عكس ذلك . ويجب أن لا ننسى إسهام أوروبا فى تعمير أجزاء كبيرة من العالم والمتمثل فى هجرة أعداد ضخمة من الأوروبيين إلى أجزاء عديدة من العالم الجديد مما يزيد من نصيب أوروبا إلى ٢٥٪ من سكان العالم : فالشعوب التى تنحدر من أصل أوروبى تتواجد فى أجزاء كبيرة من الاتحاد السوفيتى (حيث تصل نسبة الأوروبيين إلى ٨٠٪) وأمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى والجنوبية وأستراليشيا وأجزاء من أفريقيا الجنوبية . وقد طورت هذه المجموعات مجتمعات وحضارات مميزة لهم إلى درجة أننا لا نستطيع أن نعتبرهم مجرد أوروبيين أجانب .

ويتضح من الجدول المرفق (رقم ٦) مدى الاختلاف الواسع فى الكثافة السكانية بين الأقاليم المختلفة : ويتضح أيضا أهمية غرب ووسط أوروبا فى هذه الناحية ، بينما يقل نصيب شبه جزيرة أيبيريا والدول الأسكندناوية كما يتوقع ارتفاع كبير فى جنوب شرق القارة نظرا لنسبة النمو العالية هناك . وإذا أخذنا التوزيع السكانى حسب الدول نجد أن ألمانيا الغربية والمملكة المتحدة وفرنسا تتصدر كل المجموعات الأخرى ، وإذا قارنا بين المجموعتين الاقتصاديتين : مجموعة السوق الأوروبية التسعة (ويصل سكانها ٢ر٢٥٧ مليون نسمة) ومجموعة الكوميكو(١) Comecon الاشتراكية ما عدا الاتحاد السوفيتى (وسكانها ٧ر١٠٥ مليون شخص) يظهر التباين واضحا إذ يصل نصيب المجموعة الأولى إلى ٧ر٥٤٪ ونصيب الثانية إلى ٥ر٢٢٪ من مجموع سكان القارة . ومن ناحية القوى العاملة فإن المدى أو الفرق بين سكان أكبر الدول (ألمانيا الغربية ٦٢ مليون) وبين أصغرها حجما (مثلا موناكو ٠٠٠ر٢٤ والفاتيكان ١٠٠٠ شخص) يبدو كبيرا . ولكن هذه الأرقام لا تعطينا فكرة كاملة عن التوزيع الحقيقى للسكان إذ تختلف الكثافة من منطقة لأخرى حسب عوامل معينة . فإذا درسنا خريطة لتوزيع السكان فى القارة (شكل رقم ١٥) سنلاحظ وجود نطاقين ذى كثافة سكانية عالية (تصل إلى أكثر من ١٠٠ – ١٥٠ شخص للكيلو متر المربع) :

١ – نطاق يمتد من الغرب إلى الشرق على طول الطرف الشمالى من المرتفعات الوسطى .

٢ – ونطاق يمتد من الشمال إلى الجنوب على طول مجرى نهر الراين إلى شبه جزيرة ايطاليا عبر جبال الألب المتخلخلة السكان .

وخلف هذين النطاقين توجد تجمعات سكانية فى مناطق مناسبة وحول بعض المدن الكبيرة ، ويظهر أثر الجبال فى توزيع السكان واضحا من الخريطة إذ تصل الكثافة فى مثل هذه المناطق إلى ما بين ١٠ – ٢٥ شخصا لكم٢ .

يبدأ النطاق الشرقى – الغربى من شمال غربى انجلترا ويمتد عبر الميدلاندز إلى جنوب شرق انجلترا حيث تصل الكثافة إلى مايربو ١٥٠ – ٢٠٠ شخص للكيلو متر المربع فى بعض الأجزاء التى تشمل المدن الكبيرة مثل ما نشستر وليفربول وبرمنجهام ومنطقة لندن . ويمتد نطاق الكثافة العالية عبر القنال الانجليزى ليشمل جزءا كبيرا من الأراضى المنخفضة وبلجيكا ، حيث الكثافة أعلا من انجلترا ، وشرقا ليضم منطقة الراين – وستفاليا الصناعية حيث تصل الكثافة إلى ٢٠٠ شخص لكم٢ ، وهنا تمتزج المدينة مع الريف ، مع مشاكل التخطيط الناجمة من مثل هذا الوضع . وتستمر الكثافة الريفية العالية فى منطقة البورد Borde ذات التربات الخصبة (تربة اللويس) والتى تضم مدنا وأقاليم صناعية مما أدى إلى وجود تجمعات سكانية كبيرة كما حول بيفيلد Bielefeld وهانوفر Hanover وبرنزويك Brunswiok وفى حوض نهرى الألب وسال Saale حيث توجد تربات اللويس تصل الكثافة إلى أكثر من ١٠٠ شخص لكم٢ وتزيد خاصة حول المدن الصناعية مثل لا يبزيج وهال Halle بينما تصل الكثافة فى إقليم ساكسونى الصناعية حول مدينتى كارل ماركس شتادت Karl-Max-Stadt ودرسدن Dresden إلى أكثر من ٢٠٠ شخص للكيلو متر المربع ، ولكن الأحداث السياسية التى وقعت فى هذه المنطقة منذ عام ١٩٤٥ أحدثت تغييرات فى الكثافة السكانية فى منطقة اللويس الخصبة فى سايليزيا إذ أدى طرد الألمان القهرى من المنطقة واستيطانها بالبولنديين إلى انخفاض سكانى بالمقارنة مع مستواه قبل عام

١٩٣٩ . أما إقليم سايليزيا العليا الصناعى فقد استطاع المحافظة على كثافة سكانية ، خاصة فى المدن ، أعلى من عام ١٩٣٩ م . ويستمر نطاق الكثافة العالية ليشمل جنوب بولنده الذى يتميز منذ قبل الحرب بكثافة سكانية ريفية عالية جدا إلا فى بعض المناطق الفقيرة زراعيا فى حوض سانsan Basinوإلى الشرق من برزميسل przemysl يتسع النطاق إلى داخل اوكرانيا (حيث تقل الكثافة خاصة فى أجزائها الجافة) وينتهى فى حقول فحم حوض الدونتس Donets Basin الروسى . ويقل النشاط الزراعى خارج هذا النطاق السكانى فى شمال المانيا وبولنده نسبة لفقر تربات المنطقة كما تقل الكثافة تبعا لذلك إلى ما يقرب من ٥٠ شخصا للكيلو متر المربع . ويتركز السكان فى المدن الكبيرة وحولها مثل هامبورج والمجرى الأدنى لنهر الب وفى بريمن Bremen وكيل Kiel وبرلين فى المانيا ووارسو ولودز Lodz فى بولنده . ولكن الكثافة الريفية ترتفع فى أواسط بولنده إلى حوالى ١٠٠ شخصا للكم٢ رغم فقر التربة وهذا الارتفاع السكانى يشمل أيضا الإقليم الصناعى الذى يمتد جنوب وارسو فى اتجاه مدينتى رادوم Radom وكيلسى Kielce أما الأقاليم الريفية التى تقع إلى الشرق من نهر الاودر التى ضمتها بولنده بعد الحرب فإن الكثافة السكانية مازالت منخفضة رغم استيطانها بالبولنديين بعد طرد الالمان . وفى أجزاء كبيرة من هذه المنطقة الريفية تقل الكثافة من ٢٥ شخصا للكم٢ بينما تتميز المدن الصناعية بكثافات عالية

أما النطاق الشمالى — الجنوبى فيبدأ فى التباعد من النطاق الشرقى الغربى عند مجرى الراين الأدنى بالقرب من دويسبيرج Duisburg ويمتد جنوبا على طول النهر حيث تتواجد أماكن محلية ذات كثافات عالية خاصة فى الأخاديد حيث تعول مزارع الكروم عددا كبيرا من السكان الزراعيين .

ورغم وجود عدد من المدن الكبيرة ذات الأهمية فإن الكثافات العالية تتواجد فى المرتفعات التى تقع إلى الشرق من النهر نظرا لوجود العديد من المدن الصناعية ومناطق سكنية حديثة . وتتميز منطقة الراين — مين Rhine-Main بصناعاتها التى تستخدم العمال بكثرة وبزراعة الكروم التى تعول كثافات عالية تصل إلى ما فوق ٢٠٠

شخص لكم٢ . أما باقى أجزاء الأخدود الزراعية والواقعة خلف السهل الفيْض فتتميز أيضا بازدحام سكانى وخاصة الطرف الشرقى منه نتيجة وجود مدن صناعية كبيرة . أما المرتفعات على جانبى الأخدود فهى مغطاة بالغابات وذات كثافات منخفضة نسبيا . ويدخل ضمن هذا النطاق حوض نهر نيكر Neckar الصناعى والذى يشمل المجمعات الصناعية حول مدينة ستوتجارت Stuttgart ومدن الحافة الصناعية ووادى نهر المين المتعرج . وإلى الغرب توجد حقول فحم السار Saar بقراها ومدنها الصناعية التى أدت إلى كثافة تزيد عن ٢٠٠ شخص للكم٢ على طول نهر السار نفسه .

أما ألمانيا الجنوبية فتتسم بكثافات سكانية متفاوتة فى ريفها : ففى الأودية الزراعية نجد كثافات عالية تصل إلى أكثر من ١٠٠ شخص لكم٢ بينما تنخفض الكثافة إلى النصف فى المنحدرات الجافة حيث الزراعة المتأخرة إلى حد ما وتكثر الغابات الفسيحة . أما فى منطقة الألب الأمامية ذات المصاطب الحصبائية فتصل الكثافة إلى ٥٠ شخصا لكم٢ كما توجد تجمعات سكانية حول المدن الصناعية بينما تتميز الأراضى المستنقعية والخليجية بكثافات متخلخلة .

وإلى الجنوب نجد المنطقة الوسطى السويسرية Mittleland والتى تمتد من بحيرة جنيف إلى بحيرة كونستانس والتى تتميز بريف يعج بالسكان ومدن صناعية صغيرة .،وإلى الجنوب من جبال الألب تأتى منطقة ذات كثافة سكانية عالية تتمثل فى سهل لومبارديا أو وادى نهر البو فى شمال إيطاليا حيث تتركز الصناعات الحديثة والزراعة التجارية الكثيفة . وهنا تقع مدينتا ميلانو وتورين الصناعيتين ، وإلى الشمال من نهر البو تصل الكثافة السكانية فى الأراضى الزراعية ذات الخصوبة العالية إلى أكثر من ٢٠٠ شخص لكم٢ بينما تنخفض هذه الكثافة جنوب النهر إلى حوالى ١٥٠ شخصا لكم٢ ، ويشمل هذا النطاق الأطراف الشمالية من جبال الأبناين وخاصة المنطقة الساحلية بين رافينا Ravenna وبسكارا Pescara بينما تتميز المناطق الجيرية والفقيرة فى الجنوب بكثافات منخفضة تتراوح بين ٢٥و٥٠ شخصا للكم٢ .

ويتركز السكان فى جبال الأبناين فى الأحواض المتناثرة . وفى شبه جزيرة إيطاليا تجتذب السواحل السكان ، ورغم أن الساحل الشرقى يمثل امتدادا للمحور الشمالى الجنوبى فإن الساحل الغربى يتميز بتجمعات سكانية عديدة ناتجة من مزيج من التطور الصناعى ووجود أراضى زراعية ، فهناك تركز سكانى حول جنوه وبيزا Pisa، وفلورنسه (إذ تصل الكثافة فى أجزاء منها إلى ٢٠٠ شخص لكم٢) وروما وضواحيها ، كما أن هناك كثافات زراعية عالية تصل إلى ٥٠٠ شخص لكم٢ فى المناطق الزراعية ذات التربات البركانية الخصبة حول مدينة نابلى وفيزوف . وتوجد تجمعات سكانية حول سواحل صقلية .

أما خارج هذين النطاقين الرئيسيين فإن الظروف الاقتصادية والاجتماعية وسهولة الاتصال تلعب دورا فى تشكيل نمط التوزيع السكانى ، فهناك مناطق شاسعة فى الأجزاء الداخلية من النرويج والسويد وفنلنده تتميز بقلة سكانها ويتركز ما يتواجد فيها من سكان حول مناجم المعادن أو معسكرات قطع الأخشاب . وفى سواحل النرويج يتجمع الناس فى مناطق صغيرة صالحة للزراعة عند رؤوس الفيوردات أو فى الجزر المتناثرة لصيد الأسماك وقلما تزيد الكثافة عن ٢٥ شخصا لكم٢ إلا فى الجنوب حيث توجد أراضى صالحة للزراعة خاصة حول مدينة أوسلو Oslo حيث تصل الكثافة إلى أكثر من ٥٠ شخصا لكم٢ .

أما المناطق الزراعية فى إقليم البحيرات فى السويد والجنوب بمدنها الصناعية والتجارية فالكثافة فيها تتراوح ما بين ١٠و٢٥ شخصا لكم٢ فى حين أن إقليم اسكانيا الزراعى والصناعى تتمتع بكثافة تصل إلى ٥٠ شخصا لكم٢ كما توجد تجمعات سكانية أخرى حول المدن الرئيسية مثل أستوكهولم وجوتنبيرج وأبسالا Uppsala.

أما فى فنلندة فإن معظم سكانها القليلين يتجمعون حول الساحل وخاصة فى الجنوب حيث توجد التربات الغنية المشتقة من الارسابات البحرية والبحيرية وكذلك فى الأجزاء المناسبة من منطقة البحيرات كما يوجد تركز آخر فى ضواحى مدينتى تورکو Turku وهلسنكى Helsinki . أما الدنمارك فهى أكثر دول

اسكندناوه ازدحاما بالسكان إذ تصل الكثافة إلى أكثر من ٥٠ شخصا لكم٢ فى المناطق الزراعية الشرقية والجزر ويسكن نصف سكان الدنمارك فى ريلند Sjaland وبالأخص فى كوبنهاجن وضواحيها .

أما فرنسا فتتميز من بين دول أوروبا الغربية بكثافتها المنخفضة ويعكس توزيع السكان فيها طبيعية القطر كأرض تسود فيها أحواض كبيرة صالحة للزراعة تصرفها أنهار تجرى من الهضبة الوسطى ، ويتركز السكان فى المنطقة الصناعية فى الشمال وفى شمال شرق فرنسا وحوض باريس كما أن هناك أماكن أخرى ذات كثافات سكانية عالية مثل المناطق الصناعية الحديثة حول مارسيليا وساحل البحر المتوسط وحوض نهر الرون . أما أكثر المناطق الزراعية ازدحاما بالسكان فتوجد فى الساحل الأطلنطى الرطب (حيث تصل الكثافة إلى أكثر من ٥٠ شخصا لكم٢) فى بريتانى بينما تصل الكثافة الريفية فى أفضل أجزاء حوض باريس زراعيا إلى حوالى ٢٥ شخصا لكم٢ كما توجد كثافات أعلى فى المجارى الأدنى للأنهار الرئيسية . أما الهضبة الوسطى بغاباتها ومراعيها وحقولها وكذلك المناطق الزراعية الجافة إلى الشرق فتتميز بكثافة منخفضة تصل إلى ٢٥ شخصا لكم٢ إلا فى بعض المواضع المناسبة .

ويعكس تخلخل السكان فى هضبة الميز تا الأسبانية عدم صلاحيتها لجذب السكان الذين يتكدسون فى المناطق الساحليه وخاصة حول الساحل الشمالى ذى الأمطار العالية وساحل الأطلسى حيث تصل الكثافة فى المنخفضات التى تقود إلى الداخل إلى أكثر من ١٠٠ شخص لكم٢ فى بعض أجزائها إلا الجزء الجنوبى فهو أقلها سكانا . وتتميز هذه الأودية بزراعة الكروم . أما فى ضواحى لشبونة وأقليم بورتو Porto بصناعاتها النامية فالكثافة ترتفع إلى ما فوق ٢٠٠ شخص لكم٢ . أما فى ساحل البحر المتوسط حيث توجد المياه بكميات متوفرة للزراعة فإن الكثافة قد تصل إلى ٥٠ شخصا لكم٢ كما فى المناطق الصناعية والزراعية حول برشلونة وبين فالنسيه ومورسيا Valencia & Murcia ومعظم أجزاء الأندلس . وتجذب المناطق الساحلية والجزر أعدادا كبيرة من السواح مما يؤدى إلى كثافات فصلية عالية فى السكان .

فى منطقة بوهيميا – مورافيا Bohemia-Moravia تسود الزراعة فى كثير من أجزائها رغم فقر التربة وتضرسها وارتفاع الإقليم كما تغطى الغابات أجزاء كثيرة منها . وهنا تتراوح الكثافة ما بين ٥٠و١٠٠ شخص لكم٢ رغم أن كثيرا من المزارعين يعملون جزئيا فى الصناعة . وتوجد أجزاء ذات كثافات عالية حول المدن الصناعية الرئيسية وفى مجارى نهر الألب العليا حيث توجد التربات الغنية للزراعة (١٠٠ شخص لكم٢) وتزدحم بالسكان أيضا مدن وقرى مرتفعات بوهيميا الشمالية وحقول فحم ومناطق الصناعة الثقيلة فى سايليزيا التشيكية . وتغطى منطقة ريفية ذات كثافة عالية نسبيا حوض الدانوب الأوسط وتمتد إلى النمسا السفلى رغم أن التجمعات السكانية العالية ترتبط بالمدن الكبرى مثل فيينا وبراتيسلافا Bratislava وبودابست . كما أن أقاليم المجر الصناعية وخاصة تلك التى تقع بين دبراسين Debreeen وميسكولك Miskolk فيها تجمعات سكانية كبيرة وتنخفض الكثافة فى المنطقة الزراعية حول بحيرة بلاتون Balaton (أقل من ٥٠ شخصا للكم٢) والأراضى الرملية الواقعة ما بين نهرى الدانوب وتيزا Tisza . وعند ملتقى هذين النهرين توجد أراضى زراعية غنية (وخاصة اقليم بانات وباشكا Banat & Backa) ذات كثافات عالية – رغم تأخر الزراعة فيها – وتصل إلى مايربو ١٠٠ شخص للكم٢ . ويمتد هذا الإقليم من مدينة سيزقد Szeged الصناعية إلى جنوب بلغراد ويستمر جنوبا ، لكن بكثافات أقل فى اتجاه نيس Nis وإسكوبى Skopje فى ممر مورافا – فاردار .

وتفصل جبال ذات كثافة سكانية معتدلة سهول وسط الدانوب المكتظة من المنطقة الزراعية حول مجاريه الأدنى والتى تمتد عبر ولاشيا إلى مولدافيا فى الشاطىء الشمالى وتشمل أيضا على منطقة خصبة واسعة تقع على الشاطىء البلغارى . وهنا تصل الكثافة إلى ٥٠ شخصا لكم٢ إلا فى الأماكن الجافة مثل استبس البراجان Baragan وأجزاء من دوبرويا Dobruja وتتميز المنطقة الريفية الواقعة بين مدينتى بوخارست وبوليشتى ploisti بصناعات مختلفة مما يزيد من الكثافة السكانية كما توجد كثافة زراعية عالية على طول المنحدرات السفحية لجبال الكربات .

أما جبال الكربات نفسها فتغطيها الغابات والمراعى الجبلية مما أدى إلى تخلخل سكانى واضح بالمقارنة مع المناطق المجاورة ومنحدراتها والأودية التى تتخللها . وفى رومانيا يظهر التناقض واضحا بين هضبة بايهوف Bihof Massif ذات الكثافة المنخفضة رغم وجود تعدين بها وبين المنطقة الزراعية حول الهضبة فى ترانسيلفانيا وعلى طول أطراف سهل بانونيا Pannonian plain . ويمكن أن نعزو الكثافة العالية نسبيا فى هضبة بايهوف إلى النشاطات الزراعية والتعدينية التى تمارس فيها رغم ارتفاعها . أما جبال الألب الدينارية فهى تفصل أحواض سافا Sava ودرافا Dvava وفيفودنيا Voivodina الزراعية المزدحمة بالسكان من التجمعات السكنية التى تتواجد فى مواضع مناسبة على الساحل الادرياتى . ولأن هذه السلاسل الجبلية تتميز بجفافها وارتفاعها فإن السكان يتجمعون فى المنخفضات polja والأودية التى تتخللها مما يجعلها تبدو أكثر كثافة مما نتوقع رغم أن الكثافة السكانية لا تتعدى ١٠ أشخاص لكم٢ وخاصة فى أجزائها الجنوبية المرتفعة . ويرجع السبب فى هذه الظاهرة إلى تقهقر المسيحيين من الأودية إلى الجبال هربا من تقدم الأتراك المسلمين . ويوجد وضع مماثل فى جبال البلقان وهضبات ريلا Rila وبرين pirin حيث جذبت الأحواض الجبلية المنعزلة أعدادا من الناس الهاربين من الأتراك بينما يمثل منخفض ماريتسا Maritsa الخصب فى تراقيا منطقة ازدحام سكانى حيث تمارس زراعة الخضروات وسواكه للتسويق فى المدن الكبرى وللتصدير . وتتميز جبال اليونان بنمط توزيع سكانى مماثل رغم أن فصل الصيف الجاف يجعل من وجود الماء عاملا مهما فى اجتذاب التجمعات السكانية .

أما جبال الألب فهى أيضا تعكس الكثير من ملامح التوزيع السكانى التى تتميز بها المناطق الجبلية فى باقى أجزاء القارة . وعامة تقل الكثافة مع الارتفاع وترتفع على المنحدرات المواجهة للجنوب وفى الأودية والمنحدرات المعتدلة لتصل إلى حوالى ٥٠ شخصا لكم٢ وإلى ١٠٠ شخص فى بعض الأودية الخصبة . وتجذب المنحدرات الوسطى ذات الأمطار العالية السكان فى جبال الألب والبرانس بينما تخلو ممرات الهيارات الثلجية والمناطق الجافة من السكان تقريبا .

تركيب السكان من حيث النوع والعمر :

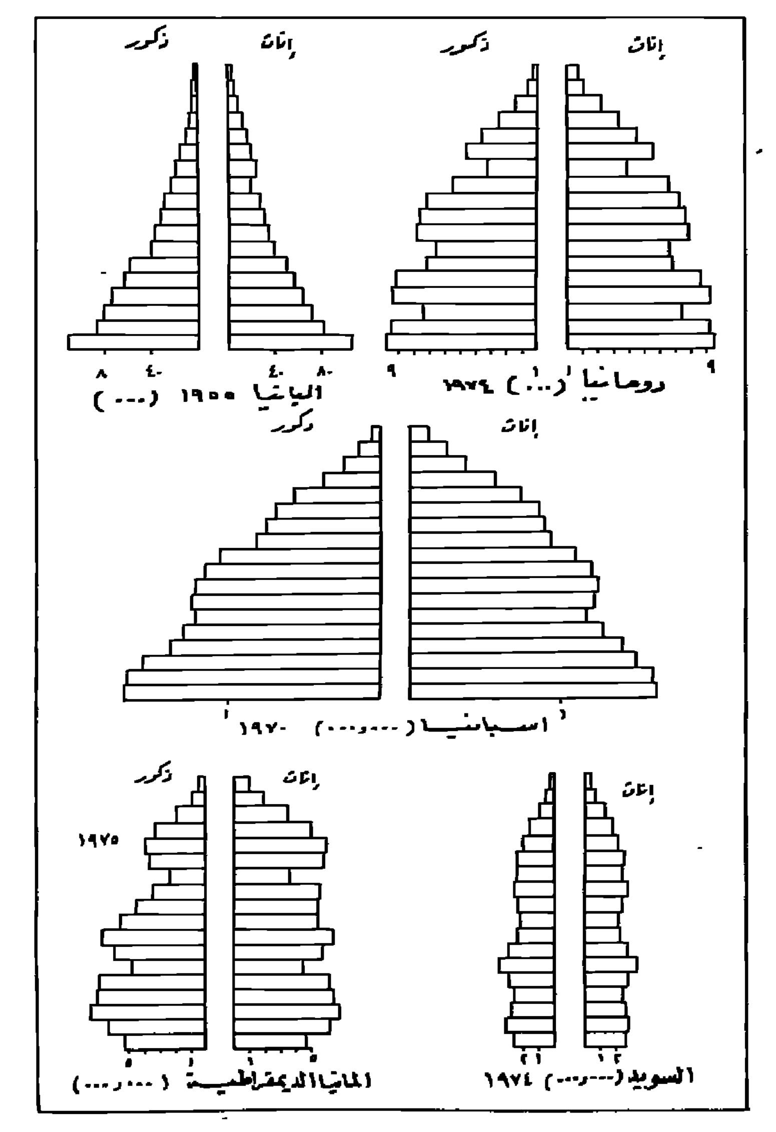
بعد دراسة توزيع السكان يجب علينا أن نحيط بالتركيب النوعى والعمرى لسكان القارة وما يتعلق به من مسائل مثل نسبة الوفيات والمواليد ومتوسط العمر لما لهذه العوامل من أثر على التنمية الاقتصادية والاجتماعية الإقليمية والتخطيط .

بالمقارنة مع أجزاء العالم الأخرى تتميز ديمغرافية أوروبا بتقدم عمر السكان ونموه البطىء نتيجة للتقارب بين نسبة الوفيات ونسبة المواليد . ولكنها أيضا تتميز بأنها من المناطق القليلة التى تتمتع بتوقع حياة أطول . ويمكن تفسير هذه العوامل بتقلص نسبة السكان الأوروبيين فى عالم اليوم الذى يتميز بنمو سكانى هائل .

وقد شهدت أوروبا عبر تاريخها فترات نمو عالية قبل أن تستقر فى وضعها الحالى ويوضح الشكل (الشكل ١٦) هذا الانتقال الديمغرافى المبنى على التجربة الأوروبية .

فمرحلة النمو السريع قد أتى مؤخرا إلى شرق وجنوب القارة لارتباط هذا النمو ببداية التصنيع . كما يختلف النمط من دولة لأخرى خاصة فيما يتعلق بالفرق بين نسبتى الوفيات والمواليد فى المرحلتين الثانية والثالثة مما أثر على نسبة النمو (كما يلاحظ مثلا فى تباين النمو والتطور بين فرنسا وانجلترا وويلز) . ويتكون النموذج من أربع مراحل : تتميز المرحلة الأولى (التى انتهت فى المملكة المتحدة فى بداية القرن التاسع عشر وفى وقت متأخر فى ألمانيا) بنسبة وفيات عالية (خاصة بين الأطفال) ونسبة مواليد عالية مما أدى إلى نمو بطىء فى السكان . أما المرحلة الثانية فإنها تميزت بتحسن متواضع فى الصحة العامة وفى نوعية الطعام فى مراحل التصنيع الأولى مما أدى إلى انخفاض فى نسبة الوفيات (عند الأطفال خاصة مع تحسن فى متوسط العمر) وظلت نسبة المواليد عالية . أما المرحلة الثالثة فتتميز بانخفاض متواصل فى نسبة الوفيات وانخفاض فى نسبة المواليد : فمع توظيف أعداد كبيرة من الناس فى الصناعة فقد الطفل أهميته فى الاقتصاد العائلى مما أدى إلى تقليص حجم العائلة . أما المرحلة الرابعة ففيها تتساوى نسبتا المواليد والوفيات ولكن بنسبة بطيئة ، مما نجم عنه نمو سكانى بطىء . وتعكس العائلة الصغيرة والزواج المتأخر حياة الوفرة التى ينعم بها الأوروبى وكذلك

اهرامات العمر والجنس لبعض الدول الاوروبية



متوسط عمر أطول له . وفى ستينات هذا القرن أثار انتشار حبوب منع الحمل والزواج المتأخر وتأخير الإنجاب فى أجزاء كثيرة من القارة مسألة مقلقة وهى : هل نتوقع ارتفاعا فى نسبة الوفيات على نسبة المواليد ؟ وفى هذه المرحلة الخامسة المحتملة سيبدأ حتما النقصان الطبيعى فى السكان مما يجبر بعض الدول على اعادة النظر فى سياستها السكانية الحالية وتبنى وسائل لتثبيت السكان عند مستوى معين .

أما الزيادة الطبيعية فى السكان فإنها تختلف من اقليم لآخر . وعموما فإن المناطق الريفية تظهر عادة ارتفاعا أكثر من المدن . والاعتبارات الاجتماعية والاقتصادية تلعب هناك دورا مهما فى هذه التباينات الإقليمية . فقبل الحرب الأخيرة كانت الزيادة الطبيعية بطيئة فى دول اسكندناوه وفى المملكة المتحدة وسويسره والنمسا وتشكوسلوفاكيا بينما سجلت فرنسا انخفاضا بسيطا (خاصة بين الفرنسيين أنفسهم) . وتركت فترة عدم الاستقرار والحرب الأهلية فى الثلاثينات آثارهافى النمط الطبيعى فى سكان أسبانيا حيث كانت الزيادة بطيئة فى حين أن نسبة الوفيات العالية أثرت فى نسبة المواليد المرتفعة . وتحت بواعث وضغوط اجتماعية حدثت زيادة فى نسبة المواليد فى هولنده مقابل نسبة وفيات منخفضة مما أدى إلى زيادة طبيعية كبيرة فى سكانها فى حين أن سياسة هتلر فى ألمانيا لزيادة السكان أدت إلى نسبة مواليد أعلا من نسبة الوفيات (أدنى نسبة فى غرب أوروبا) وكانت النتيجة زيادة فى النمو الطبيعى أعلا مما حدث فى المملكة المتحدة .

أما دول شرق وجنوب أوروبا فقد أظهرت خلال هذه الفترة زيادة فى النمو الطبيعى أعلا من غرب ووسط القارة .

وبعد الحرب الثانية تبنت الحكومات سياسات الغرض منها تشجيع الزيادة السكانية مما أدى إلى ارتفاع ملحوظ فى الزيادة الطبيعية فى غرب أوروبا فى الستينات بالمقارنة مع الفترة قبل ١٩٣٩م . ولكن إدخال نظام حبوب منع الحمل فى أواخر الستينات وشيوع استخدامها أدى إلى انخفاض ملحوظ فى نسبة المواليد فى الدول التى قبلت استخدام هذه الموانع وفى فرنسا أدى تشجيع الحكومة للإنجاب إلى ارتفاع النمو الطبيعى فى السكان كما حدث فى أيبيريا وكذلك فى بولنده ويوغسلافيا . وحدثت

زيادات طفيفة فى النمسا والمجر وألمانيا الديمقراطية (نسبة لهجرة الشبان عبر حائط برلين إلى برلين أو ألمانيا الغربية) . أما البانيا فهى أكثر دول القارة ارتفاعا فى النمو السكانى .

وشهدت أواخر الستينات هبوطا فى نسبة المواليد وارتفاعا فى نسبة الوفيات . وليس للفقر أو قلة العناية الصحية دخل فى هذا بل يرجع السبب إلى تقدم سن السكان . أما فى شرق أوروبا فإن عملية التحضر التى تشهدها المنطقة أدت إلى هبوط فى نسبة المواليد لأن الأطفال لم تعد لهم أهمية فى الاقتصاد العائلى كما كان من قبل . كما أن الحكومات قد فقدت حماسها فى تشجيع الزيادة السكانية كما فعلت قبل الحرب مباشرة ، ففى ألمانيا الغربية مثلا هبطت نسبة المواليد بين الألمان أنفسهم دون نسبة الوفيات بينما يظهر الأجانب (٥ر٢ مليون) فيها وضعا معاكسا .

فإذا أخضعنا هذه الأهرام السكانية لبعض دول أوروبا للدراسة نخرج بالحقائق الآتية :

١ – فى حالة المملكة المتحدة يظهر الهرمان السكانيان لعامى ١٨٩٢و١٩٧٥م أن الدولة فقدت تلك القاعدة العريضة التى تميز فترة النمو السكانى وتركيبه وطغت عليها القاعدة الضيقة والانحدار الشديد وهما من خصائص السكان عندما يتقدمون فى السن .

٢ – أما فى حالة دول شرق أوروبا فإن الأشكال تظهر عنصر التوسع وصغر سن السكان النسبى ، ولكن البانيا تظهر تركيبا سكانيا أكثر حداثة فى السن .

٣ – أما سكان الدولتين الألمانيتين فيوضح أثر الحروب والأحداث المدمرة ، فالانكماش الذى يظهر على جانبى الشكل نتيجة الانخفاض فى السكان أثناء الحرب يظهر واضحا فى جانب الذكور كما يتضح أيضا فقدان المواليد خلال سنين الكساد الاقتصادى العصيبة بين الحربين العالميتين . أما مانلاحظه من توسع فى رأس الهرم فى حالة ألمانيا الديمقراطية فقد يكون ناتجا من هجرة الشباب منها إلى ألمانيا الغربية مما أدى إلى انتفاخ فى الجزء الأسفل من هرمها الذى يمثل المجموعات الصغيرة السن .

(٤) يظهر معظم دول أوروبا الغربية والشمالية أشكالا أقرب إلى رأس السكر الذى يتميز به السكان المتقدمين فى السن .

(٥) فى شرق أوروبا تعكس القاعدة الضيقة فى الهرم اتجاها نحو المرحلة الديمغرافية الرابعة أى تساوى نسبتى المواليد والوفيات

(٦) أما نتائج هذه الأهرامات على المدى البعيد فيمكن تلخيصها فى الآتى :

١ -- تقلص فى مجموعة الشباب إلا فى حالة تبنى سياسات لتشجيع النمو السكانى وهذا التشجيع للزيادة سيؤدى إلى بطء أكثر فى النمو .

٢ - ويوحى شكل الأهرامات بمشاكل أساسية فى الخدمات الاجتماعية الموجودة حاليا (ازدحام المدارس وقلة الأساتذة والتسهيلات الطبية) .

٣ - انخفاض سنوى فى عدد العمال فى سوق العمال ، أى تقلص فى عدد العمال من سنة لأخرى .

٤ - أن سيادة القطاع من السكان المتقدمين فى السن ستؤدى فى حالة تخفيض عمر التقاعد إلى وجود كمية كبيرة من الأعضاء غير العاملين مما يؤدى أيضا إلى ارتفاع فى تكاليف الخدمات الاجتماعية .

٢ - العوامل المؤثرة فى توزيع السكان : -

من هذا العرض لتوزيع السكان يظهر أن ارتفاع الكثافة السكانية يتفق إلى حد ما مع إقليم التربات والزراعة المتقدمة ولكن يمكننا أن نرجعه أيضا بصورة مباشرة إلى وجود أقاليم الصناعة التى يعمل بها معظم السكان وإلى الخدمات المتصلة بها ، كما أن هناك علاقة وثيقة بين نطاق الكثافة السكانية المرتفعة هذا وبين موقع الرواسب الفحمية ، كما يظهر فى مناطق ارسابات الفحم الممتد من بريطانيا عبر منطقة سامبر ميوز ومنطقة الرور وسايلزيا العليا وحوض الدون حيث نجد تركزا سكانيا واضحا ، وهناك عدد من العوامل الأخرى الهامة التى تؤثر فى ارتفاع الكثافة السكانية كالعوامل التاريخية والحضارية وموقع المواد الخام والموارد الأخرى .

وتتباين الكثافة السكانية فى المناطق الأخرى بصفة عامة تبعا لاختلاف خصوبة

الأرض ومدى سهولة المواصلات ، فهى ترتفع نوعا ما فى شمال وغرب فرنسا وفى جزء كبير من السهل الأوروبى الشمالى وعلى امتداد نهر الدانوب (العلونة) أما إلى الشمال من خط عرض ٦٠° شمالا . فإن قسوة المناخ تحد من الزراعة ونكاد تجعل النشاط الصناعى (فيما عدا التعدين) متندرا . وتقل كثافة السكان جدا فى معظم جهات اسكندناوه ويحد تعقد مظاهر السطح وطول فترة الجفاف فى فصل الصيف ممارسة الزراعة إلى درجة كبيرة فى حوض البحر المتوسط كما أن عدد السكان الذين يشتغلون بالصناعة (باستثناء إيطاليا) صغير وتقل كثافة السكان فى القرى والأقاليم الزراعية .

ومن العوامل الطبيعية الأخرى التى أثرت فى توزيع السكان خاصة فى الماضى نجد الثورات البركانية لها الضلع الأكبر فى تخفيض السكان فى مناطق معينة مثل ثورة بركان أتنا فى صقلية وبركان فيزوف الذى دمر مدينة بومباى وبركان لاكى فى أيسلنده والزلزال الذى راح ضحيته ٦٠٫٠٠٠ نسمة من سكان صقلية فى بداية هذا القرن .

أما انتشار الأمراض الفتاكة فكان له أيضا أثر كبير فى توزيع السكان .. والطاعون البوبونى الذى انتشر من الشرق مع طرق القوافل راح ضحيته ما يقرب من ٢٥ مليون نسمة فى القرن الرابع عشر . أما الملاريا فقد كان أثرها محليا تقريبا وتأثرت بها منطقة كمبانيا Compagna قرب مدينة روما التى هجرها سكانها لانتشار المرض فيها حتى بداية هذا القرن عندما بدأت الحكومة استصلاح الأرض وإقامة مشاريع تصريف المياه حتى أصبحت خالية من الملاريا وجذبت السكان بأعداد ضخمة .

أما العوامل البشرية التى تؤثر على توزيع السكان فى أوروبا فكثيرة منها قوانين الوراثة خاصة القانون الرومانى الذى يبيح تجزئة الأرض بين الورثة بعد وفاة المالك مما يؤدى إلى كثافة سكانية عالية فى المناطق الريفية ، وعلى عكس هذا القانون نجد القانون الألمانى والانجليزى الذى يبيح للمالك بأن يورث أرضه كاملة لأحد أولاده فقط أما الباقون فيعوضون بطرق أخرى إن كان هناك ما يستدعى ذلك ، وفى كثير من الحالات يبقى هؤلاء كمستأجرين أو ينزحون إلى المدن طلبا للعمل وهذا يؤدى إلى

كثافات سكانية أقل . ثم هناك الهجرات الاختيارية كما حدث فى أيرلنده وخاصة بعد مجاعة ١٨٤٠ التى راح ضحيتها مئات الآلاف من السكان ، وما تبع ذلك من هجرة متواصلة إلى انجلترا ومناطق أخرى . إذ حدث خلال خمس سنوات (١٨٤٦ - ١٨٥١) أن هلك أكثر من ٨٠٠ر٠٠٠ شخص وهاجر حوالى مليون فرد إلى الخارج . ومن الهجرات الاختيارية تلك التى خرجت من دول اسكندناوه حيث ساهمت النرويج والسويد والدنمارك وأيسلنده فى خلال ٣٥ سنة بمليون وربع مليون شخص من سكانها لتعمير الولايات المتحدة أى حوالى ١٦٪ من مجموع سكانها فى عام ١٨٦٥ (٨ر٨ مليون) وهذا باستثناء أولئك الذين هاجروا إلى كندا . وحين كان الدافع لهجرة الاسكندناويين والايرلنديين اقتصاديا فإن هناك دافع سياسى دفع الألمان الشرقيين للهروب من ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية مما أدى إلى نمو سكانى مضطرد فى الدولة الأخيرة مما أجبر الحكومة الشيوعية إلى ايقافها بالقوة فى عام ١٩٦١ . ولأن معظم المهاجرين كانوا شبابا فقد كان أثر ذلك سيئا على اقتصاديات ألمانيا الديمقراطية . وهناك دوافع أخرى أدت إلى الهجرات الاختيارية مثل الاختلاف فى درجة التصنيع بين منطقة وأخرى كما حدث فى ايطاليا حيث جذبت مصانع وادى البو أعدادا ضخمة من الجنوب ومنطقة جبال الألب ، كما حدثت أيضا فى أسكتلنده عندما أدى إنشاء المصانع فى المناطق المنخفضة إلى نزوح المزارعين من المرتفعات المجاورة وكذلك فى ألمانيا حين جذبت مصانع الحديد والصلب ومناجم فحم الرور العمال من مناطق نائية مثل شرق أوروبا وبلجيكا وأدى كذلك إلى هجرة الملايين من سكان جنوب أوروبا مثل اليونانيين والأسبانيين واليوغسلافيين إلى المناطق الصناعية فى أوروبا الغربية سعيا وراء العمل .

وهناك أيضا الاختلاف فى نسبة المواليد بين الأمم المختلفة التى تسكن أوروبا . وقد أظهر الفرنسيون خاصة نسبة مواليد أقل بالمقارنة مع الأمم الأخرى مثل الألمان والبريطانيين والايطاليين ، وعلى الرغم من أن الفرنسيين كانوا أكثر عددا من جيرانهم حتى عام ١٨٦٠ فقد كان ترتيب فرنسا هو الرابع من ناحية عدد السكان بعد ألمانيا - بريطانيا - إيطاليا . بمعنى أن واحدا فقط فى كل ١٢ شخص أوروبى فرنسى الجنسية . ومما يثير الدهشة أن كثيرا من سكان هذه الاقطار هاجروا إلى الأراضى

الجديدة وأن ألمانيا فقدت عددا أكثر من جراء الحروب ودمارها ومع ذلك فقد ظل الفرنسيون أقل عددا منهم ، ومن الفترة ما بين ١٨٠٠ - ١٩٧٠ لم تستطع الحكومة رغم الجهود الجبارة أن تضاعف من عدد سكانها فى حين أن سكان كل من ألمانيا وبريطانيا وإيطاليا تضاعف خمس مرات فى نفس الفترة . وهذه الظاهرة موجودة أيضا فى المجموعات الفرنسية الموجودة فى بلجيكا وسويسرا .

أما الحروب فقد كانت لها أثرها الواضح فى أنماط التوزيع السكانى ، وكان أكثر هذه الحروب دمارا هى حرب الثلاثين سنة التى أدت إلى تخفيض السكان فى بعض مناطق ألمانيا بأكثر من ثلثيه كما عانت منها تشيكوسلوفاكيا وبعض دول أوروبا الوسطى . أما فى الحرب العالمية الثانية فقد خسرت روسيا ٢٠ مليون من سكانها ويمثل ١٠٪ من مجموع سكانها ، وألمانيا ٦ مليون أو أكثر من ٨٪ من مجموع سكانها فى حين أن يوغوسلافيا فقدت ١١٪ من مجموع سكانها .

ثم هناك الهجرات الإجبارية التى تتمثل فى نقل الأقليات والهجرات لتجنب الاضطهاد الدينى أو السياسى والطرد للعمل الإجبارى والهروب لتفادى مناطق الحرب . وكان من جراء ذلك أن حدثت تغيرات جذرية فى الكثافات السكانية وكذلك فى توزيع اللغات والأديان فى أوروبا . ومن أمثلة هذه الهجرات الإجبارية : التبادل بين اليونان والأغريق ونقل السكان من منطقة لأخرى أيام النازيين ، وإجلاء وطرد عشرة مليون من الألمان الشرقيين من بولنده وتشيكوسلوفاكيا فى الفترة ما بين ١٩٤٢ - ١٩٥١م . (جدول ٥) .

جدول ٥ : بعض الشعوب الأوروبية التى شملتها الهجرات الإجبارية في الفترة ما بين ١٩٢٠ - ١٩٥٥م[١]

المجموعات العرقية	عدد الأشخاص الذين تم اجلاؤهم عنـوة	النسبة المئوية التقريبية لمجموع السكان وقت التهجير
ألمانيون	١٥ر٨٠٠ر٠٠٠	٢٠
بولنديون	٦ر٣٠٠ر٠٠٠	٢٤
يهود	٦ر٠٠٠ر٠٠٠	٦٧
تشيكيون وسلوفاكيون	٢ر٠٠٠ر٠٠٠	١٦
يونانيون	١ر٢٥٠ر٠٠٠	١٨
أتراك	٨٠٠ر٠٠٠	
بلوروسيون وأكرانيون	٥٥٣ر٠٠٠	١٣
فنلنديون	٤٨٠ر٠٠٠	١٤
صربيون وكرواتيون	٤١٠ر٠٠٠	٤
بلغاريون	٣٦١ر٠٠٠	١
مجريون	٣٥٥ر٠٠٠	٤
لاتفيون	٣١٠ر٠٠٠	٣٠
ليتوانيون	٢٤٤ر٠٠٠	١٢
أستونيون	٢٣٥ر٠٠٠	٢٥
إيطاليون	١٤٠ر٠٠٠	١
رومانيون	١٠٠ر٠٠٠	١
سويديون	٦ر٠٠٠	١

(٣) خصائص السكان الأوروبيين :

رغم ما للتوزيع السكانى وعدد السكان من أهمية كبيرة ، فإن معرفة نوعية هؤلاء الناس لا تقل أهمية من تلك . فالأوربيون يتمتعون بمستوى معيشى أكثر ارتفاعا من شعوب أفريقيا وآسيا ، وأن يولد الشخص أوربيا يعنى أن يتوقع حياة طويلة ويكون له دخل مرتفع والتمتع بصحة جيدة وغذاء جيد وتعليم متقن . وبالرغم

(١) تشمل هذه الأرقام الأشخاص الذين طردوا أو تم تبادلهم أو إجلاؤهم أو سجنهم والذين لم يستطيعوا الرجوع إلى مواطنهم أبدا كما تشمل أيضا أولئك الذين هلكوا .

من أن الأوروبيين كمجموعة بشرية تتمتع بمستوى معيشى مرتفع بالمقارنة مع غالبيه سكان آسيا وأفريقيا فإن هذا المستوى المرتفع لانجده فى أنحاء القارة كلها بل هناك اختلافات إقليمية فى هذا المضمار .

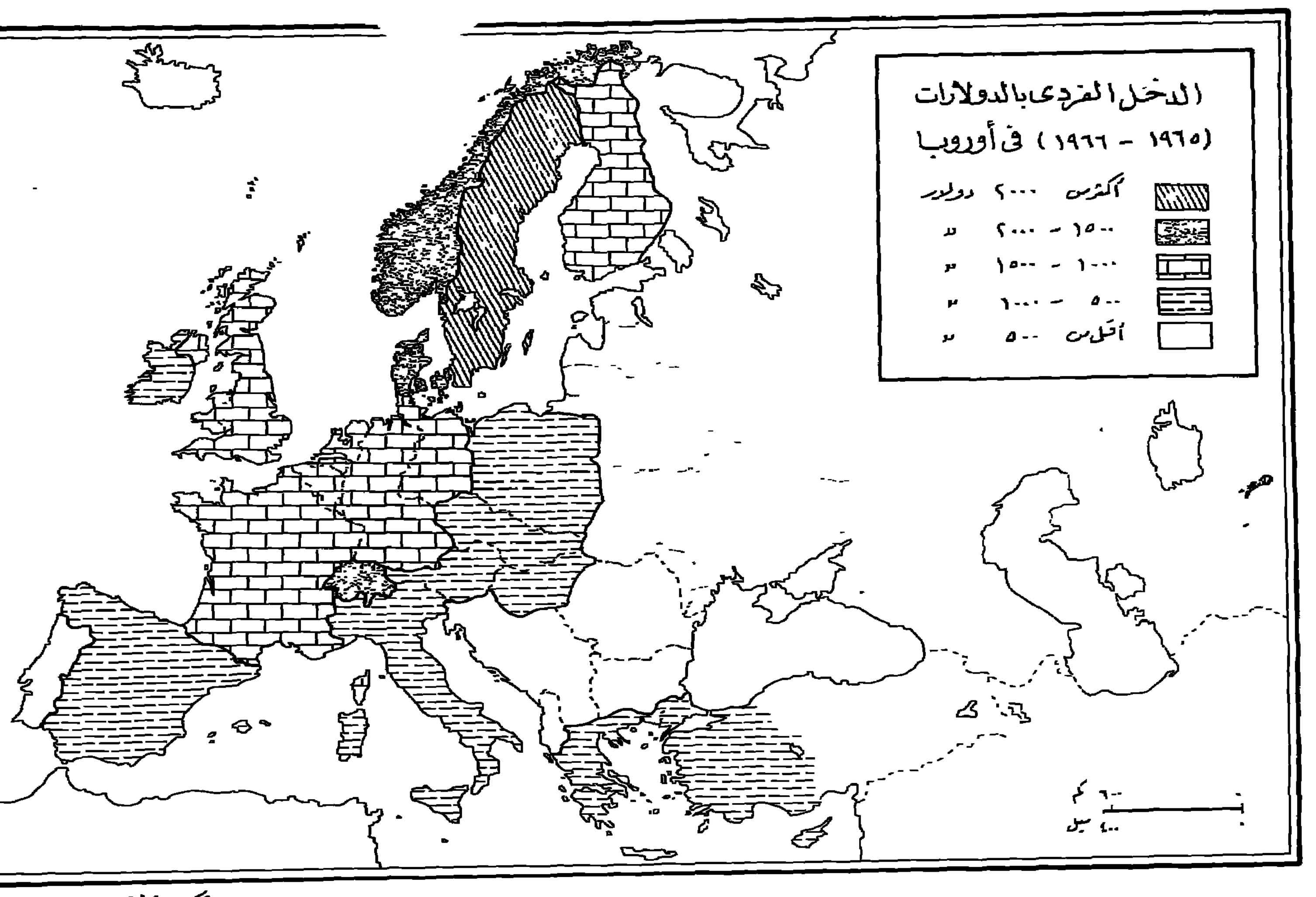
(١) الدخل الفردى : (الشكل ١٧) .

يعتبر الدخل القومى الفردى من معايير الرفاهية الاقتصادية وفى هذه الناحية نجد التناقض واضحا بين شمال وجنوب القارة حيث نجد أعلى دخل فردى فى دول اسكندناوه وأدنى دخل للفرد فى شبه جزيرة أيبريا والبلقان . ويصل الدخل الفردى فى الدنمارك إلى ٢١٨٣ دولار حسب إحصائيات أواخر الستينات كما نتمتع أيسلندة والسويد والنرويج بدخول فردية عالية . وتأتى سويسره أيضا من الدول ذات الدخول الفردية العالية أى ما يزيد عن ٢٤٥٤ دولار . ومن المفارقات العجيبة أن نجد مواطنى المناطق الباردة فى الشمال والأقاليم الألبية المتضرسة يتمتعون بهذه الدخول العالية . فى الطرف الآخر نجد شعوب أوروبا الجنوبية حيث يصل دخل الفرد فى البرتغال إلى ٤٦٠ دولار بينما هناك دول مثل البانيا وفى البلقان دخولها أدنى من ذلك بكثير . ولا يعنى هذا أن شعوب هذه المناطق فقيرة ومحرومة كما تشير هذه الأرقام لأن اقتصادها أكثر معيشية وريفية فى ملامحها كما أنه أقل اعتمادا على التبادل النقدى وتنتج معظم العوائل الزراعية كل ما تحتاج إليهامن غذاء وملابس وهى بذلك مكتفية ذاتيا ولذلك تقل حاجتهم إلى النقد .

(٢) التعليم : (الشكل ١٨) .

ظلت أوروبا مركزا للعلم والتقدم الأكاديمى ومنبعا للابتكارات خلال الخمسة قرون الماضية واليوم يحظى سكان أوروبا بنسبة عالية من المتعلمين بالمقارنة مع سكان شعوب العالم القديم الأخرى . ويرجع أصل النظام التعليمى إلى عصر النهضة الحضرية التى حدثت فى العصور الوسطى . فقد كانت المدن دائما مركز الإشعاع العلمى فى كل حضارات العالم .

واليوم فإن سكان شمال وشرق أوروبا جميعهم متعلمون ، وفى بعض الدول يعتبر عدم القراءة والكتابة غير قانونى . وتصل نسبة المتعلمين من الألمان البالغين إلى ٩٩٪


الدخل الفردي بالدولارات
(١٩٦٥ - ١٩٦٦) في أوروبا
أكثر من ٢٠٠٠ دولار
١٥٠٠ - ٢٠٠٠ "
١٠٠٠ - ١٥٠٠ "
٥٠٠ - ١٠٠٠ "
أقل من ٥٠٠ "
٦٠٠ كم
٤٠٠ ميل

شكل (١٧)

نسبة المتعلمين
السكان الذين هم في سن الخامسة عشر وما فوقه
أكثر من ٩٥٪ متعلمين
٧٥ – ٩٥٪ "
٥٠ – ٧٥٪ "
أقل من ٥٠٪ "
٦٠٠ كم
٤٠٠ ميل

شكل (١٨)

وهى تقريبا نفس النسبة التى نجدها فى شمال غربى أوروبا والاتحاد السوفيتى . وتأتى فى المرتبة الثانية بولنده والمجر حيث تصل نسبة المتعلمين فيهما إلى ٩٦٪ و ٩٧٪ على التوالى . أما فى جنوب أوروبا فما زالت الأمية منتشرة بين الناس وإن كانت نسبة المتعلمين فيهم فى تزايد مستمر . وتأتى فى مؤخرة الدول البرتغال حيث تصل نسبة المتعلمين من سكانها إلى ثلاثة أشخاص فى كل خمسة . فى عمر الخامسة عشر . وتتبعها البانيا بنسبة ٧٢٪ من المتعلمين . وفى يوغسلافيا واليونان نجد أربعة أشخاص من كل خمسة متعلما . وبالمقارنة مع الدول المجاورة فى أوروبا وآسيا فإن نسبة المتعلمين تصل إلى ٤٠٪ فى تركيا و١٥٪ فى المغرب و١٧٪ فى تونس .

ولأن مجرد معرفة القراءة والكتابة تعتبر معيارا بسيطا للمستوى التعليمى فهناك مؤشرات أفضل لهذا المستوى فى حقل النشر والمنشورات . ونجد أعلى توزيع للجرائد اليومية فى دول اسكندناوه وفنلنده وبريطانيا وأيسلنده وألمانيا وسويسره حيث توزع ٣٠٠ نسخة لكل ١٠٠٠ شخص وتتصدر السويد المجموعة حيث يصل التوزيع إلى ٥٠٥ نسخة لكل ١٠٠٠ شخص أو جريدة لكل مواطنين وتتبعها المملكة المتحدة ب٤٧٩ ثم يتناقص العدد كلما اتجهنا جنوبا إلى ٦٨ فى البرتغال و٤٧ فى البانيا (الشكل ١٩) .

(٣) الصحة :

لايقل متوسط العمر المتوقع بين الشعوب الأوروبية عن ستين سنة وهذا يعزى إلى برامج العناية الصحية الواسعة التى تم انشاؤها . وكما لاحظنا وجود اختلاف فى نسبة المتعلمين بين شمال وجنوب القارة . نجد أيضا أن سكان شمال القارة يعيشون أطول من زملائهم فى الجنوب مع أن هذا الاختلاف آيل للزوال . ويصل متوسط العمر المتوقع أعلاه فى السويد والنرويج وهولنده وهو ٧١ سنة . فى حين أنه يصل فى البرتغال إلى ٦٠ سنة ويوغسلافيا ٦٢ سنة . وحتى هذا العمر المنخفض يعتبر عاليا إذا قارناه بدول أخرى مثل مصر (٥١ سنة) والجزائر (٦٥ سنة) . وقد رفعت بلغاريا متوسط العمر المتوقع من ٤٥ سنة فى عام ١٩٢٨ إلى ٧٦ سنة واليونان من ٤٩ سنة فى ١٩٣٠م إلى ٦٧ سنة فى عام ١٩٦٥م . (الشكل ٢٠) .

توزيع الجرائد اليومية

عدد النسخ لكل ١٠٠٠ شخص من السكان

٥٠٠ فأكثر

٣٠٠ – ٥٠٠

٢٠٠ – ٣٠٠

١٠٠ – ٢٠٠

٥٠ – ١٠٠

صفر – ٥٠

٦٠٠ كم

٤٠٠ ميل

شكل (١٩)

توقع الحياة عند الولادة
(للذكور بالسنين)

أكثر من ٧٠ سنة
٦٠ - ٦٥ سنة
٦٨ - ٧٠ «
أقل من ٦٠ «
٦٥ - ٦٨ «

٦٠٠ كم
٤٠٠ ميل

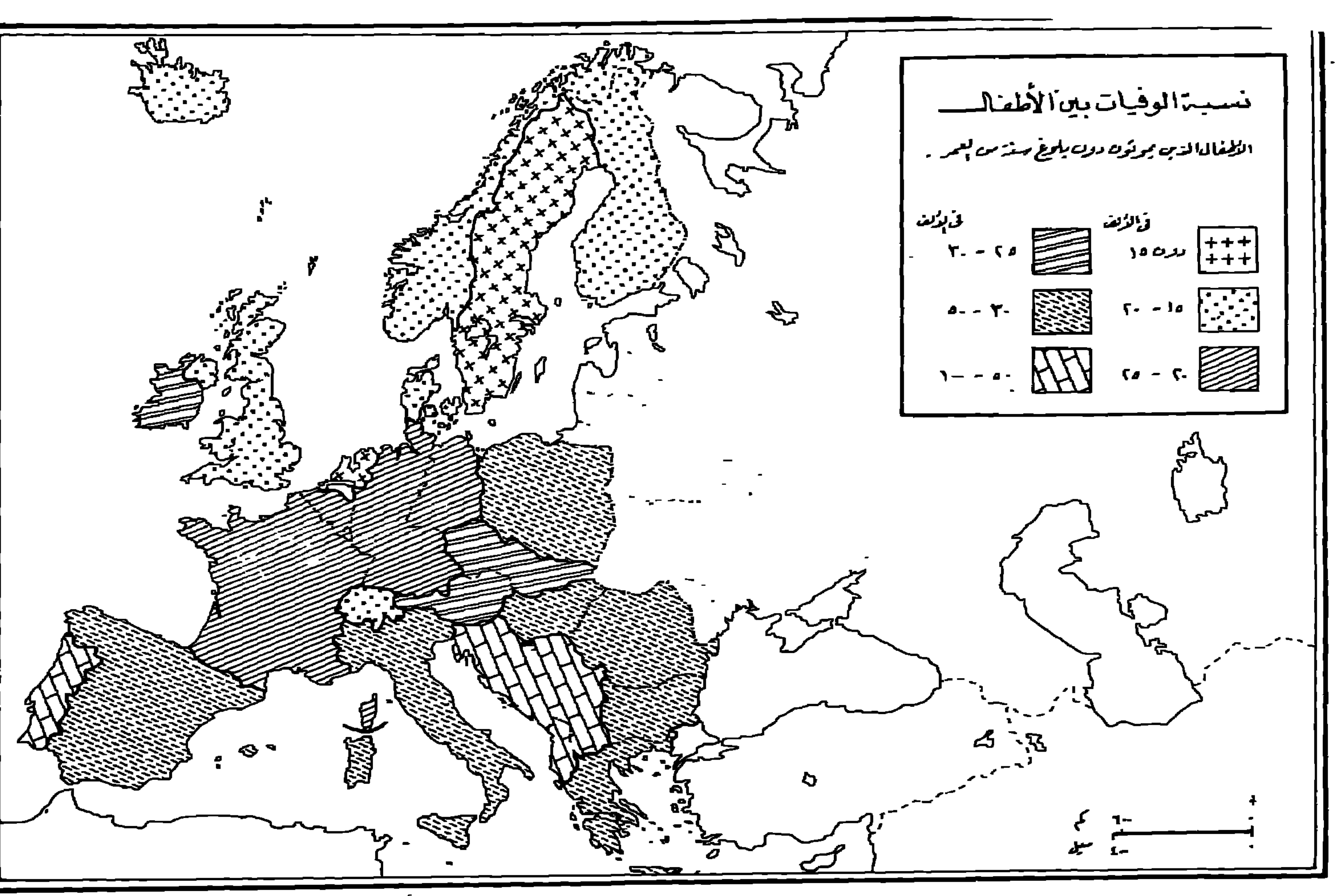
شكل (٣٠)

وهناك مؤشر آخر للأحوال الصحية هو نسبة الوفيات بين المواليد . ويعنى عدد الأطفال فى كل ألف من المواليد الحية الذين يموتون دون بلوغ السنة الأولى من العمر . وفى تطبيق هذا المؤشر يبرز الاختلاف الشديد بين أجزاء أوروبا المختلفة . وتأتى السويد فى المرتبة الأولى بنسبة ١٣ فى الألف وتليها هولنده ثم أيسلنده فالنرويج . وتأتى ألبانيا فى نهاية السلم بأعلى نسبة وفيات بين المواليد (٦٨ فى الألف) ثم يوغسلافيا (٧١ فى الألف) والبرتغال (٦٤ فى الألف) . ويعكس هذا مستوى معيشيا منخفضا بالمقارنة مع دول الشمال (الشكل ٢١) .

وإذا أخذنا مؤشر سهولة الاتصال بالدكتور فإنها مكفولة لجميع الأوروبيين بصرف النظر عن محل إقامتهم . وألبانيا هى الدولة الوحيدة التى تصل نسبة عدد الدكاترة إلى السكان أعلاها فى أوروبا : دكتور واحد لأكثر من ١٥٠٠ شخص . أما أدنى نسبة دكتور – مريض فتوجد فى الاتحاد السوفيتى (١ : ٤٩٠) وتتبعها تشكوسلوفاكيا والنمسا والمجر (١ : ٥٦٠ لكل دولة) . وأعلى نسبة تتميز بها البانيا (١ : ٢٫٣١٠) وقبرص (١ : ١٣٨٠) والبرتغال (١ : ١٢٠٠٠) . وقد نلاحظ الفارق الشاسع بين هذه الدول وبين مثلا تونس (١ : ١٠٫٠٠٠) تركيا (١ : ٣٫٢٢٠) والمغرب (١ : ٩٫٧٠٠) .

أما الأمراض الوبائية والمستوطنة مثل الجدرى والكوليرا والملاريا والطاعون البوبونى والديفتريا فقد تم استئصالها . وشهد عام ١٩٢٣ آخر وباء كوليرا فى أوروبا كما تم القضاء على الملاريا فى مستنقعات إيطاليا فى أوائل هذا القرن . وما زال مرض السل منتشرا فى بعض أجزاء القارة . فى عام ١٩٥٥ م وصلت نسبة المصابين بهذا المرض فى البانيا إلى ١٥٪ من السكان لأن عادة سكان حوض البحر المتوسط فى استهلاك لبن الماعز الطازج ونسبة المرض العالى بين أبقار اللبن قد ساعد فى انتشار ليس مرض السل فحسب بل الحمى المتموجة Brucellosis . وكثيرا ما يلجأ المزارعون فى الأرياف إلى بيع الحيوانات المريضة إلى الجزارين مما يزيد فى نشر هذه الأمراض على نطاق أوسع .

ويحدث معظم الاضطرابات أو الاعتلالات التنفسية والسل الرئوى وبتكرار عال فى المدن الملوثة وأقاليم أوروبا الصناعية مثل الرور وميدلاندز البريطانية وويلز .


نسبة الوفيات بين الأطفال
الأطفال الذين يموتون دون بلوغ سنة من العمر .
في الألف
دون ١٥
١٥ - ٢٠
٢٠ - ٢٥
في الألف
٢٥ - ٣٠
٣٠ - ٥٠
٥٠ - ١٠٠

شكل (٣١)

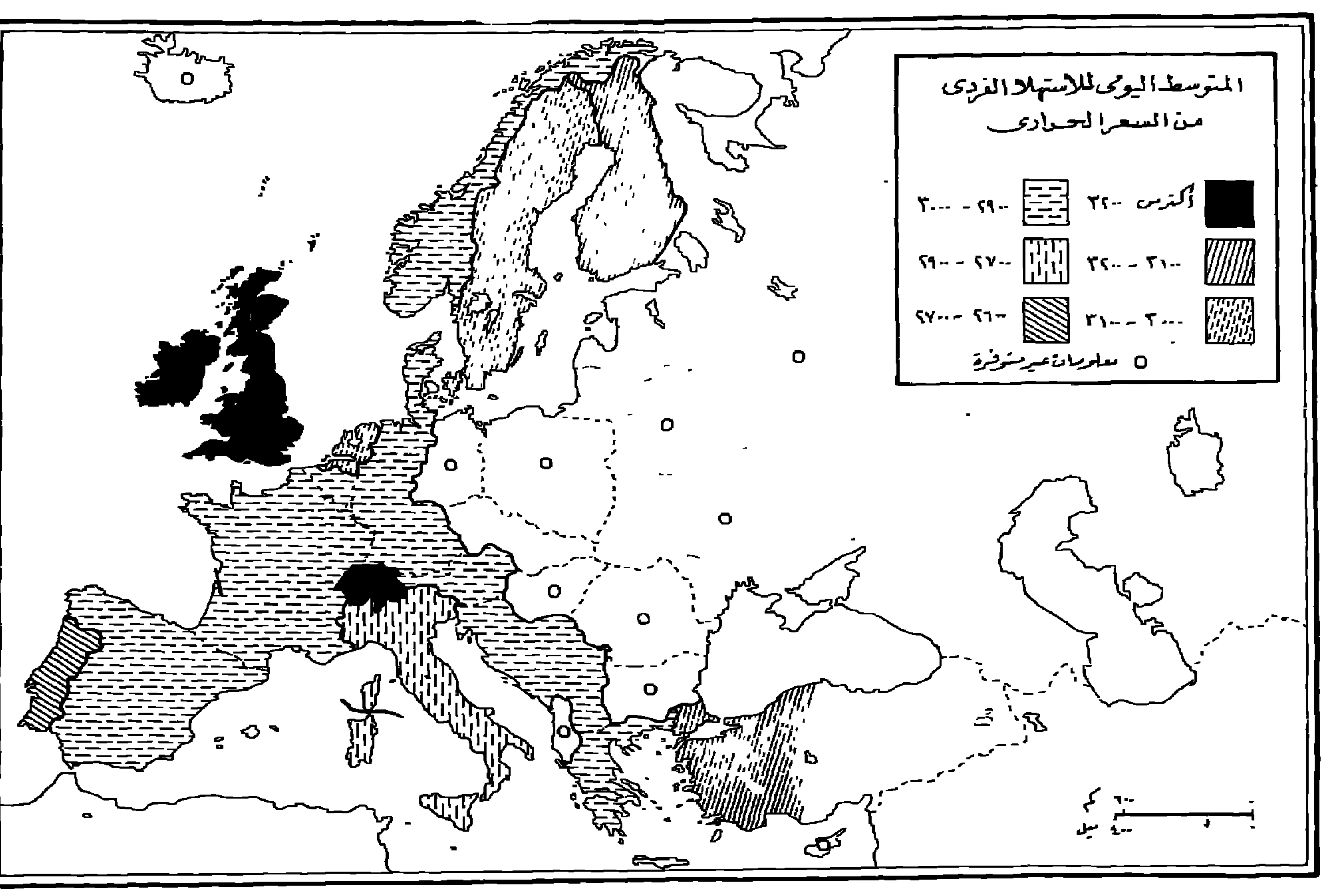
وتصل أعلى نسبة وفيات فى أوروبا من الالتهابات الشعبية وسرطان الجهاز التنفسى فى مدن ليفربول وبيرمنجهام ومانشستر ومقاطعات استافورد شير ولانكشير. أما الوفاة من سرطان المعدة فى بريطانيا فتتركز فى أرياف ويلز وربما يرجع السبب إلى مياه الشرب ذات التركيز المعدنى العالى والتى تلوثت من المياه المتسربة من بقايا المناجم أو يمكن عزوها إلى تفضيلهم للأغذية المحمرة واستخدام دهون القلى لأكثر من مرة.

(٤) الغذاء : (الشكل ٢٢)

للصحة علاقة وثيقة بنوع الطعام الذى يأكله الفرد لأن الأكل الموزون الذى يحتوى على كميات كافية من النشويات والبروتينات والدهون والعناصر الحيوية مثل المعادن - والفيتامينات مهمة فى الحفاظ على صحة الإنسان. ونجد أن معظم الأوروبيين يتمتعون بمثل هذا الغذاء، فإن أدنى متوسط ما يحتاجه الفرد من السعر يوميا والموصى به من قبل خبراء التغذية لخلق إنسان صحى يتراوح ما بين ١٨٠٠ إلى ٢٠٠٠ وحدة حرارية. ومعظم سكان أوروبا (غير الشيوعية) ويوغسلافيا يستهلكون أقل من ٢٦٠٠ سعرا فى اليوم فى حين أن الأيرلنديين يستهلكون فى المتوسط ٣٫٤٣٠ وحدة حرارية فى اليوم وهذا هو أعلى رقم فى القارة ويليهم الدنماركيون والسويسريون والانجليز. أما البرتغاليون فيأتون فى المرتبة الأخيرة بحوالى ٢٦١٠ وحدة فى اليوم. ورغم عدم وجود إحصاءات حديثة عن الاستهلاك اليومى للدول الشيوعية فليس من المستبعد أن يكون الرقم عاليا أو يضاهى أرقام الدول الغربية.

ومن المهم أن نعرف نوع الطعام الذى يؤكل. فقد يكون الغذاء ذا وحدة حرارية عالية ولكن لا يحتوى على كميات كافية من البروتينات والمواد الحيوية الأخرى. وكانت بعض دول أوروبا تعانى من نقص البروتينات حتى وقت قريب. ويصل استهلاك الفرد من البروتينات يوميا إلى ثمانين جراما فى أوروبا الغربية والجنوبية ؛ أما البرتغاليون (استهلاك ٧٢ جرام) والايطاليون (استهلاك ٧٩ جرام) فيمثلون أدنى استهلاك فردى خارج الدول الشيوعية.

ويقل استخدام الفيتامينات فى أوروبا الجنوبية والبلقان وبولنده. وفى يوغسلافيا



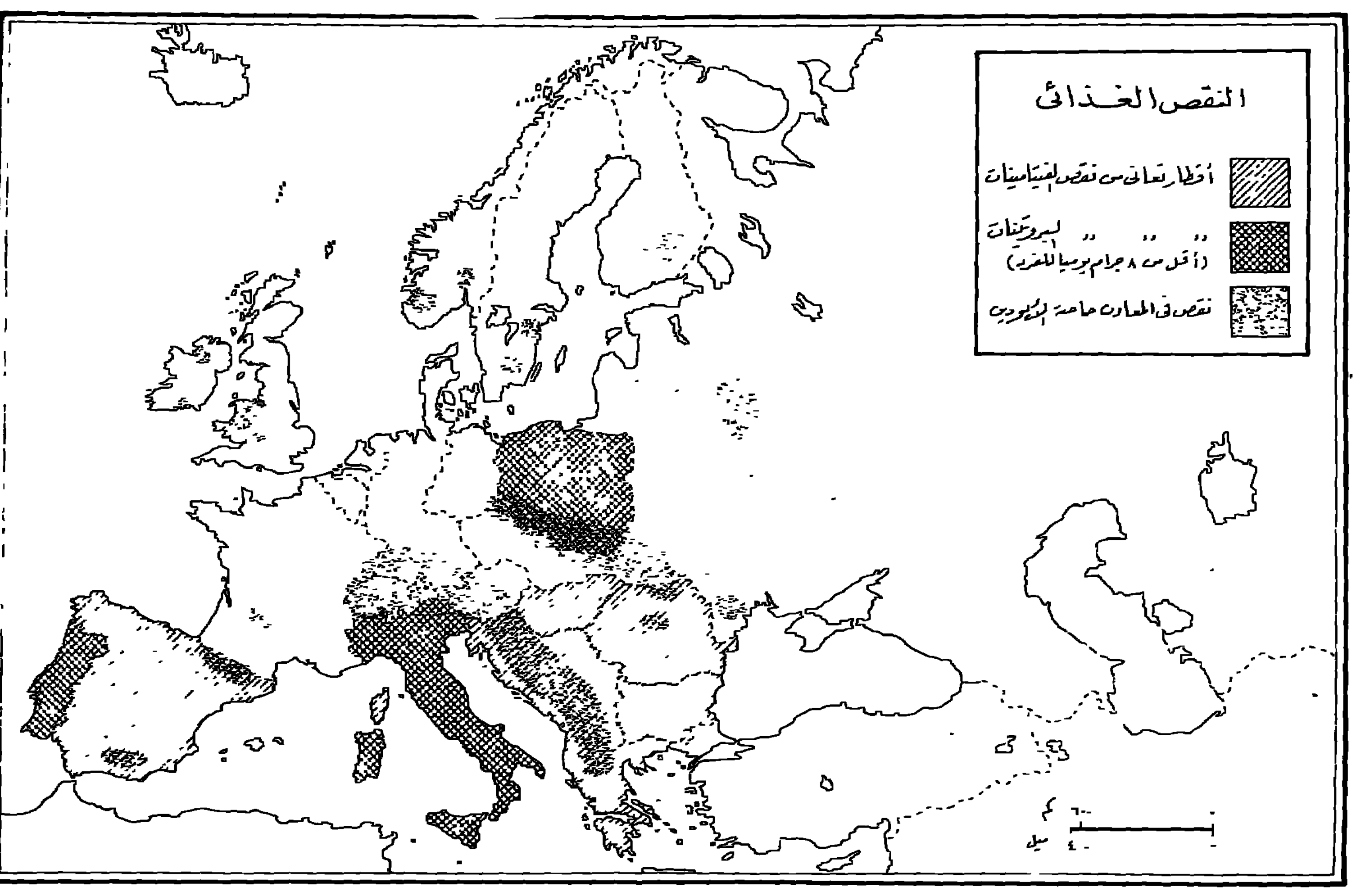
المتوسط اليومى للاستهلاك الفردى
من السعر الحرارى
أكثر من ٣٢٠٠
٢٩٠٠ - ٣٠٠٠
٣١٠٠ - ٣٢٠٠
٢٧٠٠ - ٢٩٠٠
٣٠٠٠ - ٣١٠٠
٢٦٠٠ - ٢٧٠٠
معلومات غير متوفرة
٦٠٠ كم
٤٠٠ ميل

شكل (٢٣)

يصل استعمال فيتامين أ إلى ثلاثة أرباع الكمية الموصى بها فى حين أن استهلاك فيتامينات أ و ج منخفض فى بولنده . ونادرا ما نجد نقصان فى المعادن إلا مادة الأيودين Iodine . فهناك أقاليم متضرسة وجبلية فى جنوب أوروبا وتحتوى ترباتها على كميات قليلة من هذه المادة مما أدى بالتالى إلى قلتها فى غذائهم وإصابتهم بمرض تضخم الغدة الدرقية goiter . (الشكل ٢٣) .

ويمكن أن نرجع الأسباب الأساسية لتفشى سوء التغذية فى بعض أجزاء أوروبا إلى المحن الاقتصادية التى مرت فى القارة مثل الحروب وتذبذب الإنتاج الزراعى أثر إنشاء المزارع الجماعية وأيضا إلى أسباب حضارية مثل المناسبات التى يحرم أثناءها أكل اللحوم ، وكذلك إلى بعض العادات والتقاليد . فالألمانيون مثلا نباتيون فى أكلهم ويقتصرون فى غذائهم على الخبز المصنوع من الذرة الشامية والخضروات ومصل اللبن Whey والجبن وقليل من لحم الضأن فى المناسبات . ويقل استهلاك اللحم فى معظم مناطق أوروبا الجنوبية . وتصل نسبة الوحدات الحرارية المستمدة من أصل حيوانى إلى ما بين ١٥ و ١٧٪ من غذاء الإيطاليين واليونانيين والأسبان والبرتغاليين . فى حين أن هذه النسبة تصل إلى ٤٢٪ من غذاء الانجليز . ومن الاختلافات الإقليمية فى غذاء الشعوب ما نلاحظه من اعتماد البلغاريين على الحبوب النباتية التى تعطى ٩٠٪ من النشويات و ٧٠٪ من البروتينات .

أما العادات فإن لها أثرا مهما على غذاء الشعوب . فكل دولة أوروبية تملك طعاما خاصا أو أسلوبا معينا فى الطبخ . ومن الاختلافات الأساسية ما تتمثل فى استخدام زيت الزيتون فى جنوب القارة والسمن أو الدهون فى الطبخ فى شمالها . وخبز القمح وخبز الجاودار فى شمال وشمال شرق أوروبا . واستخدام الذرة الشامية كطعام وتجنبها فى مناطق أخرى أو تخصيصها لتعليف الحيوانات ونجد تفضيلاً لشراب النبيذ فى جنوب القارة والبيرة فى الشمال الجرمانى والمشروبات الروحية القوية فى شمال وشرق القارة . ويفتخر الأوروبى بطعامه التقليدى ويمتعض من أطعمة الشعوب أو المجموعات الأخرى : فسكان شمال إيطاليا كانوا يتأففون من أكل البيتزا Pizza وهو طعام من جنوب إيطاليا وكثير منهم كان يجهله إلى أن حدثت هجرة الجنوبيين


النقص الغذائي
أقطار تعاني من نقص الفيتامينات
" " " البروتينات
(أقل من ٨ جرام يومياً للفرد)
نقص في المعادن خاصة الأيودين
٦٠٠ كم
٤٠٠ ميل

شكل (٣٣)

بأعداد ضخمة إلى مصانع وادى البو فى الشمال حتى يعودوا عليه واليوم نجد هذا الطعام حتى فى ألمانيا . ويمكن أن نلمس الاعتزاز والفخر العرقى فى النظرة الشوفينية تجاه أنواع معينة من المشروبات والأطعمة مثل السجق والجبن والنبيذ وبعض الأطعمة المميزة التى تنتمى إلى بعض المناطق . وكثيرا ما تحمل هذه الأطعمة والمشروبات أسماء المدن والمناطق التى نشأت فيها مثل أجبان « روكفورت » Requefort و« ليمبورجر » Limburger و« شيدر » Cheddar و« إيدام » Edam . وفى النبيذ يجب أن نحدد أى صنف نعنيه . « موزيل » Mosel أو « بورت » Port أو « شمبانيا » Champagne

جدول ٦ : السكان فى أوروبا

(١) مجموع سكان أوروبا (باستثناء الاتحاد السوفيتى)	٤٧٠،٠٠٠،٠٠٠
(٢) أوروبا الغربية (١٦،٢١٪ من سكان القارة) .	٧٦،١٩٤،٠٠٠
فرنسا	٥٢،٥٠٧،٠٠٠
هولنده	١٣،٥٤١،٠٠٠
بلجيكا	٩،٨٠٤،٠٠٠
لاكسمبورج	٣٤٢،٠٠٠
(٣) أوروبا الوسطى الغربية (١٦،١٨٪) :	٧٦،٠٥٠،٠٠٠
ألمانيا الغربية	٦٢،٠٤١،٠٠٠
النمسا	٧،٥٢٨،٠٠٠
سويسرا	٦،٤٨١،٠٠٠
(٤) أوروبا الوسطى الشرقية (١٦،٠٤) :	٧٥،٣٧٩،٠٠٠
بولنده	٣٣،٦٩١،٠٠٠
ألمانيا الشرقية	١٧،١٦٦،٠٠٠
تشكوسلوفاكيا	١٤،٦٨٦،٠٠٠
المجر	١٠،٤٥٨،٠٠٠

(٥) أشباه جزر وجزر البحر الأبيض المتوسط (٨٩ر١٣٪)	٦٥ر٢٨٧ر٠٠٠
إيطاليا	٥٥ر٣٦١ر٠٠٠
اليونان	٨ر٩٦٢ر٠٠٠
قبرص	٦٤١ر٠٠٠
مالطا	٣٢٣ر٠٠٠
(٦) المملكة المتحدة وجمهورية أيرلنده (٤٧ر١٢٪) :	٥٨ر٥٩٣ر٠٠٠
انجلترا وويلز	٤٨ر٧٥٠ر٠٠٠
أسكتلنده	٥ر٢٢٩ر٠٠٠
أيرلنده الشمالية	١ر٥٢٨ر٠٠٠
جمهورية أيرلنده	٣٠ر٨٦ر٠٠٠
(٧) أوروبا الوسطى الجنوبية الشرقية (٣٤ر١١٪)	٥٣ر٢٧٧ر٠٠٠
يوغسلافيا	٢١ر١٥٣ر٠٠٠
رومانيا	٢١ر٠٢٩ر٠٠٠
بلغاريا	٨ر٦٧٩ر٠٠٠
البانيا	٢ر٤١٦ر٠٠٠
(٨) شبه جزيرة أيبريا (٣٦ر٩٪)	٤٣ر٩٨٧ر٠٠٠
أسبانيا	٣٥ر٢٢٥ر٠٠٠
البرتغال	٨ر٧٣٥ر٠٠٠
جبل طارق	٢٧ر٠٠٠
(٩) الدول الاسكندناوية (٧١ر٤٪)	٢٢ر١٣٠ر٠٠٠
السويد	٨ر١٦١ر٠٠٠
الدنمارك	٥ر٠٤٥ر٠٠٠
فنلنده	٤ر٦٨٢ر٠٠٠
النرويج	٣ر٩٨٧ر٠٠٠
أيسلنده	٢١٥ر٠٠٠
جزرفاروى	٤٠ر٠٠٠

الفصل السادس

اللغة والجغرافيا فى أوروبا

اللغة هى حاملة الثقافة وهى الوسيلة الرئيسية التى يتم التخاطب بواسطتها بين المجموعات الحضارية ، وبهذا المعنى فانها تدخل فى نطاق المواضيع ذات الأهمية للجغرافيين وينصب اهتمام الجغرافى فى دراسة اللغات فى الآتى : —

١ التوزيع الجغرافى للغات والمجموعات التى تتكلم بها .

٢ غالبا ما تكون هناك علاقة وثيقة بين الأنماط اللغوية وبين التوزيعات الجغرافية لأنواع النشاطات الاقتصادية ولأشكال العبادات ، وللامتداد الاقليمى للدول والأقاليم .

٣ تتميز الحدود اللغوية غالبا بالحدة والوضوح وتقسم هذه الحدود منطقة مثل أوروبا إلى مجموعات من الكتل أو الجبهات المتناسقة نسبيا لكنها تختلف فيما بينها فى أشياء كثيرة ما عدا اللغة .

٤ غالبا ما توجد علاقة بين أنماط البيئة الطبيعية وبين خريطة توزيع اللغات .

وفى هذه الدراسة سنركز على توزيع اللغات فى القارة الأوروبية والتفاعل بين هذه اللغات وبين الاختلافات المكانية الأخرى من بيئية وحضارية

(١) أصل اللغات الأوروبية والصلة بينها :

تتميز أوروبا بلغاتها العديدة . وقد دخلها منذ ١٠٫٠٠٠ سنة مضت خليط من لغات عدة انتشر بعضها وازدهر فى حين بقيت أخريات تجاهد للبقاء والاستمرار فى حماية الملاجىء الجبلية بينما اندثرت مجموعة تاركة وراءها كلمات قليلة ظلت متداولة فى لغات باقية أو فى أسماء الأماكن . وفى خضم هذا التنوع اللغوى الذى نشاهده فى القارة يلاحظ الدارس المتمعن درجة من الوحدة بين هذه اللغات التى تنتمى أصلا إلى تلك العائلة اللغوية المعروفة بالهندية — الأوروبية أو الهندية — الآرية . وتبدو هذه العلاقة بين اللغات الأوروبية واضحة عندما نقارن مفرداتها خاصة الكلمات التى

تصف الأشياء اليومية الشائعة مثل الأرقام وصلات الدم مثل الأم . فالتشابه اللغوى يشير إلى أن اللغات الغربية مشتقة أساسا من لغة واحدة قديمة . ويرجع تاريخ أقدم عينة مكتوبة للغة الهندية الأوروبية إلى حوالى ١٩٠٠ ق.م . ولو أن هناك بعض الأدلة على أن هذه اللغة كانت قد انتشرت على نطاق أوسع قبل هذا التاريخ .

وقد تساعدنا الدراسة التحليلية المقارنة للمفردات القديمة والحديثة للغة الهندية – الأوروبية فى تحديد منطقة نشأة هذه اللغة ومعرفة الكثير من أصواتها وكلماتها . ومثلا إذا كانت الكلمات التى تصف عنصرا من عناصر البيئة الطبيعية أو الحضارية متشابهة فى عدد من اللغات الهندية الأوروبية فإن كل الاحتمالات ترجح أن هذا العنصر كان معروفا لدى الناطقين باللغة الأصلية . تماما كما أن الكلمات المتنوعة أو المختلفة قد تعنى أن الصفة المعنية كانت مألوفة للهنود الأوروبيين الأصليين جميعهم .

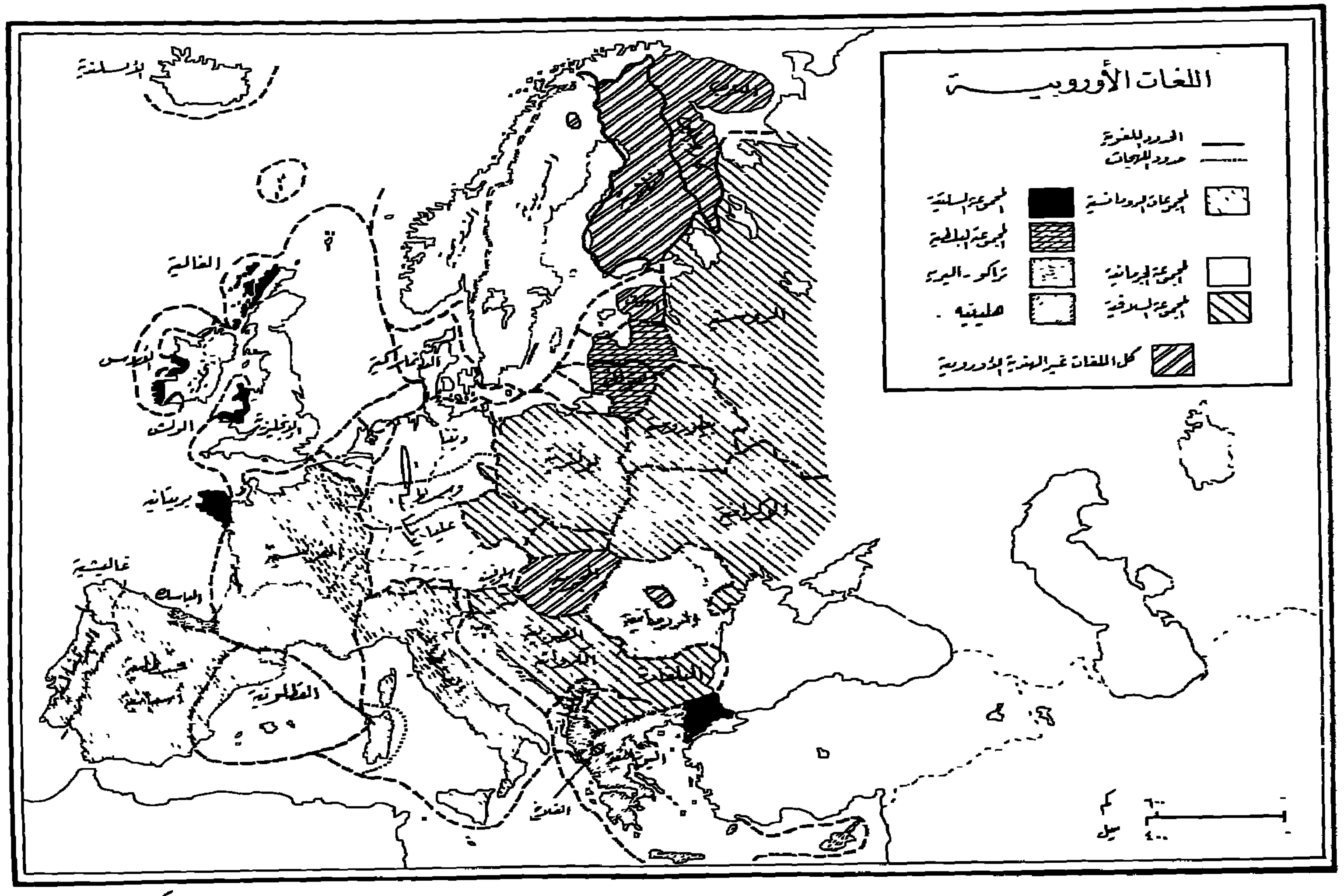
وقد أكد علماء اللغة بواسطة هذه الوسيلة أن طلائع الشعوب الهندية الأوروبية كانوا يعيشون فى بيئة تتميز « بالثلج » و « البرودة » و « الحرارة » مما يشير إلى منطقة تقع فى العروض الوسطى وتتميز بفصول متباينة . كما كان هؤلاء على معرفة « بالأنهار » و « الذئاب » و « الدببة » و « البلوط » و « الصنوبر Pine » « الصفصاف Willows » و« البتولا birch » « الزان Beech » . كما كانت اللغة تخلو من كلمات مثل « البحر » و « الأسد » و « النمر » و « الجمل » و « الجمل » و«الفيل» مما يوحى بعدم ورود المناطق الساحلية والهند وإفريقيا والشرق الأوسط كموطن لهذه اللغة . ولأن هؤلاء الشعوب كانوا يمارسون الزراعة يبدو أنهم كانوا على معرفة ببعض الأشياء التى لها علاقة بالزراعة مثل « المحراث » و « الثور » و « الخنزير » و « الضأن » و « الماعز » و « التفاح » وبعض الحبوب الصغيرة . ولكنهم كانوا يجهلون نباتات منطقة البحر المتوسط النموذجية مثل « التين » و « العنب » . وقد لجأ خبراء اللغة إلى مفردات اللغات القديمة والمندثرة أيضا فى سعيهم لايجاد كلمات مشتركة للظاهرات المتباينة المرتبطة بالبيئة . ومثلا الكلمة الأسبانية Oso والكلمة الألمانية الحديثه bar قد تبدوان بأنهما تشيران إلى كلمتين مختلفتين « للدب bear » فى هاتين اللغتين . ولكن الكلمة الألمانية العتيقة ursel تعنى « الدب » مشتقة من

نفس أصل الكلمة الأسبانية oso . ويمكن أن نخلص من هذا أن موطن نشأة اللغة الهندية - الأوروبية يقع - كما تشير إلى ذلك أدلة المفردات - في إقليم داخلي قاري ذي مناخ معتدل وتكسوه الغابات ، أي منطقة تقع إلى الشمال من جبال الألب والبحر الأسود . . وقد يكون موقع هذا الموطن في ألمانيا الشمالية أو جنوب السويد أو أراضي البلطيق أو إقليم الدانوب أو الجزء الجنوبي من السهل الأوروبي الشرقي . وأقرب
أراضي البلطيق أو إقليم الدانوب أو الجزء الجنوبي من السهل الأوروبي الشرقي . وأقرب
اللغات الأوروبية الحديثة إلى الأم هي اللغة الليتوانية السائدة في الساحل الشرقي لبحر البلطيق (كالشكل ٢٤) .

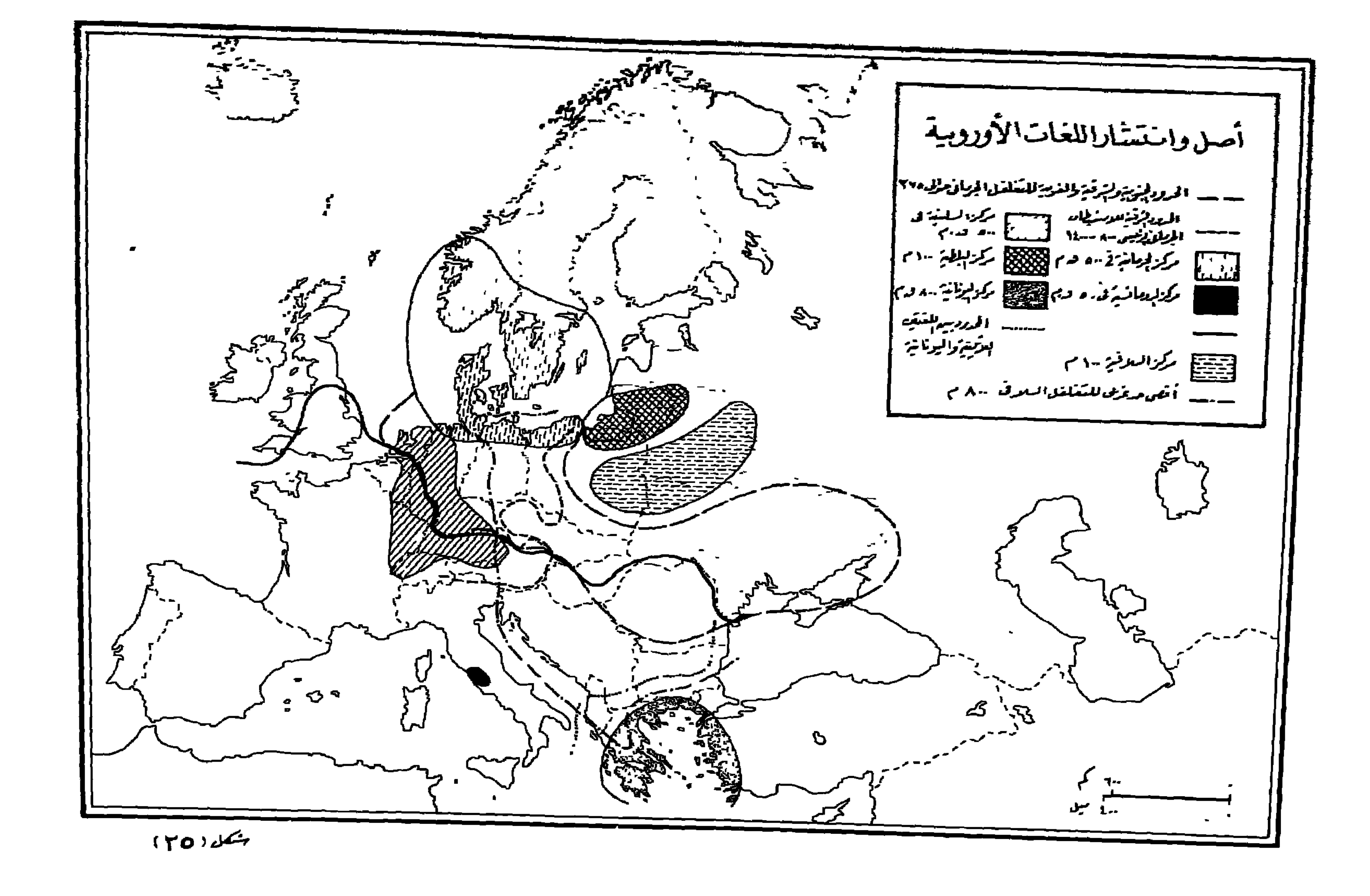
مع نزوح وانتشار الناطقين باللغة الأصلية عبر أوروبا في عصور ما قبل التاريخ بدأت اللغة في التجزئة . ويعتقد بأن أول لغتين اشتقتا من اللغة الأم هي « ساتم Satem » و « سنتم Centum » . وهما اسمان أخذا من نطقين مختلفين للكلمة التي تعني « مائة » . ومنهما اشتقت لغات أخرى كثيرة . فمن مجموعة « سنتم Centum » انحدرت اللغات السلتية Celtic والألمانية Germanic واليونانية والرومانسية Romance وغيرها . والتي انقسمت بدورها لتشكل لغات حديثة عديدة وأخرى مندثرة . وبعملية مماثلة أنتجت مجموعة « ساتم Satem » اللغات السلافية والبلطية Baltic من ضمن لغات أخرى . وهذه التجزئة التي تعرضت لها اللغة الهندية - الأوروبية الأصلية هي المسئولة إلى حد كبير عن التنوع اللغوي الذي نشاهده في أوروبا اليوم .

(٢) توزيع اللغات الهندية - الأوروبية : (الشكل ٢٥)

يكشف التوزيع الجغرافي للغات المختلفة صورة معقدة التركيب . فكل لغة تحتل موقعا معينا من القارة وهذا التوزيع لم يأت عفويا بل كان نتيجة قرون من الصراع الإقليمي بين المجموعات اللغوية المتجاورة والجدولان التاليان يوضحان توزيع هذه اللغات وأماكن انتشارها وعدد الناطقين بها .


اللغات الأوروبية
الحدود اللغوية
حدود اللهجات
المجموعة السلتية
المجموعات الرومانسية
المجموعة البلطية
تراكو - اليرية
المجموعة الجرمانية
هلينية
المجموعة السلافية
كل اللغات غير الهندية الأوروبية
ايسلندية
الغالية
الإرس
الولش
الإنجليزية
بريتانية
غاليشية
الباسك
القطلونية
الرومانية
كم
ميل

شكل (٢٤)


أصل وانتشار اللغات الأوروبية
مركز السلتية في ٥٠٠ ق.م
مركز الجرمانية في ٥٠٠ ق.م
مركز البلطية ١٠٠ م
مركز الرومانية في ٥٠٠ ق.م
مركز اليونانية ٨٠٠ ق.م
مركز السلافية ١٠٠ م
أقصى حد غربي للتغلغل السلافي ٨٠٠ م
٦٠٠ كم
٤٠٠ ميل

شكل (٢٥)

جدول ٧ اللغات الأوروبية الرئيسية منظمة وفق عدد الناطقين بها في القارة

المرتبة	اللغة	المناطق الرئيسيه التى يتحدثون بها	العدد التقريبى للناطقين بها (بالملايين، ١٩٧٠ م)
١	الروسية	الاتحاد السوفيتى	١٣٠
٢	الألمانية	ألمانيا الشرقية والغربية والنمسا ، وسويسره ولوكسمبورج وشرق فرنسا وشمال إيطاليا ووسط المجر ووسط رومانيا .	٨٥
٣	الإيطالية	إيطاليا ، كورسيكا ، أجزاء من الريفيرا الفرنسية مقاطعة وتيسينو السويسرية .	٥٦
٤	الانجليزية	المملكة المتحدة وجمهورية أيرلندا .	٥٥
٥	الفرنسية	فرنسا وجنوب بلجيكا وغرب سويسرا	٥١
٦	الأكرانية	جنوب غرب الاتحاد السوفيتى	٤٥
٧	البولندية	بولنده وغرب الاتحاد السوفيتى	٣١
٨	القسطلية الأسبانية	أسبانيا	٣٠
٩	الرومانية	رومانيا ومولدافيا السوفيتية	١٨
١٠	الهولندية ، الفلمنكية .	هولندا ، بلجيكا وشمال فرنسا	١٧
١١	المجرية	المجر ورمانيا الوسطى	١٤
١٢	الصربية - الكرواتية	يوغسلافيا	١٢
١٣	البرتغالية - الغالية	البرتغال وشمال غرب أسبانيا	١٠
١٤	التشيكية	تشكوسلوفاكيا الغربية	٩
١٥	البلوروسية	غرب الاتحاد السوفيتى	٩

تابع ـجدول ٧ اللغات الأوروبية الرئيسية منظمة وفق عدد الناطقين بها فى القارة

المرتبة	اللغة	المناطق الرئيسية التى يتحدثون بها	العدد التقريبى للناطقين بها (بالملايين/ ١٩٧٠ م)
١٦	اليونانية	اليونان وقبرص وجنوب البانيا	٩
١٧	السويدية	السويد وفنلندة الساحلية	٨
١٨	البلغارية	بلغاريا	٦

جدول ٨ : توزيع اللغات الأوروبية

اللغة	أماكن انتشارها	عدد المتكلمين بها بالمليون
أولا : اللغات الهندية الأوروبية :		
(أ) اللغات الرومانسية :		
(١) اللغة القسطلية	أسبانيا : هضبة الميزتا	٣٠
(٢) اللغة القطلونية	الساحل الشرقى لأسبانيا وجزر البليارى	٦
(٣) اللغة البرتغالية (الغاليشية والغالينية)	البرتغال	١٠
(٤) اللغة الفرنسية	فرنسا وجنوب بلجيكا وغربى سويسره	٥٠
(٥) اللغة الايطالية	إيطاليا وكورسيكا وجنوب سويسره ونيس	٥٦
(٦) اللغة الرومانسية :		
١ . ريتو- رومانى	شرقى سويسره	
٢ لادينى	إيطاليا } فى المناطق الجبلية	
٣ . فريولى	إيطالى } فى المناطق الجبلية	
(٧) اللغة الرومانية	رومانيا	١٨
١ . لغة الفلاخ	سهل ولاشيا	
٢ . لغة لادينو	البلقان	

اللغة	أماكن انتشارها	عدد المتكلمين بها بالمليون
(ب) **اللغات الألمانية** :		
(١) اللغة الألمانية (تنقسم إلى Low و Middle و High من الشمال إلى الجنوب)	ألمانيا الغربية والشرقية والنمسا وسويسره ولوكسمبورج والزاس وليختنشتاين وتايرول	٨٥
(٢) اللغة الفلمنكية والهولندية	هولنده وشمالى بلجيكا ومنطقة دنكيرك	١٧
(٣) اللغات الأسكندناوية :		
١ . اللغة الدنماركيه	الدنمارك	٥
٢ . اللغة النرويجية	النرويج	٤
٣ . اللغة السويدية	السويد وفنلنده الساحلية	٨
٤ . اللغة الأيسلندية	أيسلنده	٢ر٢
٥ . اللغة الفاروية	جزيرة فارويز	
(٤) اللغة الفريزنانية	جزر فريزنان	
(٥) اللغة الانجليزية	الجزر البريطانية	٦٥
(٦) اللغة اليدية	لغة اليهود فى روسيا وأوروبا الوسطى والشرقية	
(ج) **اللغات السلافية** :		
(١) اللغة البولندية	بولنده	٣١
(٢) اللغة التشيكية	غربى تشكوسلوفاكيا (تشكا ومورافيا	٩
(٣) اللغة السلوفاكية	شرق تشكوسلوفاكيا (سلوفينيا)	
(٤) اللغة الصوربية	جنوب شرق برلين (غابة أسبرى)	٠٠٠ر١٠٠ر٠
(٥) اللغة الروسية	روسيا	١٣٠
(٦) اللغة الأكرانية	أكرانيا	٤٥
(٧) اللغة البلورسيه	روسيا البيضاء	٨ – ٩
(٨) اللغة الصربية – الكرواتية	يوغسلافية (تكتب الصربية بالحروف السيريلية بينما تكتب الكرواتية باللاتينية) .	١٢

اللغة	أماكن انتشارها	عدد المتكلمين بها بالمليون
(٩) اللغة السلوفينية	حوض كلاجنفورت فى النمسا	١ر٥
(١٠) اللغة المقدونية	جنوبى يوغسلافيا وبلغاريا المجاورة	٢
(١١) اللغة البلغارية	بلغاريا	٨
(د) اللغات السلتية :		
(١) اللغة الويلشية	فى مقاطعة ويلز	٠ر٦٥٠ر٠٠٠
(٢) اللغة الغالية	اسكتلندا وجزر هيبريديز	٠ر٧٥٠ر٠٠٠
(٣) اللغة البريتانية	اقليم بريتانى الفرنسية	٠ر٩٠٠ر٠٠٠
(٤) لغة الأرس	ايرلنده	٠ر٣٠ر٠٠٠
(ه) اللغة الهلينية :		
اللغة اليونانية	اليونان	٩
(ق) اللغات التراكو- اليرية :		
(١) اللغة الألبانية	البانيا وجنوب يوغسلافيا ومناطق متناثره	٣
(ك) اللغات البلطية :		
(١) اللغة اللتوانية	لتوانيا	٢ر٥
(٢) اللغة اللاتفية	لاتفيا	١ر٥
(٣) اللغة البروسية	اندثرت باحتلال ألمانيا لبروسيا	
(و) اللغة الرومانى	لغة الغجر المتجولين	
ثانيا : اللغات غير الهندية الأوروبية		
(١) لغة الباسك	الإقليم الباسك فى شمالى أسبانيا	٠ر٦٠٠ر٠٠٠
(٢) اللغات الأوراليه :		
١ . اللغة الفنلندية	فنلندا	٤ر٥٠
٢ . لغة اللاب	شمالى النرويج والسويد	
٣ . اللغة المجرية (الأوغرية)	المجر ورومانيا (شعب السزيكلى)	١٤
٤ . اللغة الأستونية	أستونيا	١ر٥
٥ . اللغة الكاريلية	شبه جزيرة كاريليا	

(و) اللغة والبيئة الطبيعية :

يوجد نوع من الارتباط بين الخريطة اللغوية لأوروبا وأنماط البيئات الطبيعية فيها خاصة أنواع التضاريس المختلفة . فالمناطق الجبلية والتلالية كثيرا ما تعين الحدود اللغوية مثل جبال البرانس حيث تلتقى اللغتان الفرنسية والأسبانية ما عدا المناطق الساحلية الضيقة المطلة على البحر المتوسط وخليج بسكاى حيث تحتل اللغتان القطلونية والباسك ناحيتى البرانس . وفى بعض الأماكن تفصل السفوح الألبية اللغتين الألمانية والفرنسية من اللغة الايطالية وكذلك اللغة السلافية الجنوبية من الألمانية . كما أن المرور جنوبا - عبر ممر سان جوثار St. Gotthard الشهير فى سويسرا - يعنى الانتقال من المناطق الناطقة بالألمانيه إلى تلك التى تتكلم باللغة الإيطالية . وقد ساعدت المناطق المتضرسة المختلفة فى أسبانيا فى عزل اللغة الأسبانية القسطلية من اللغات القطلونية والبرتغالية والغالية والباسك المجاورة . كما تمثل جبال الفوزج Vosges المكسوة بالغابات فى شرق فرنسا الحدود بين اللغتين الفرنسية والألمانية منذ فترة طويلة ، ومثل هذه الحدود اللغوية ذات التخلخل السكانى والتى تمر عبر مناطق متضرسة قليلة السكان تتميز عادة بالاستقرار والهدوء . أما الحدود اللغوية التى تمر عبر السهول فهى أكثرها تعرضا للتغيير والزحزحة . فالحدود بين اللغات الرومانسية والألمانية التى تتسم بالاستقرار فى المناطق الجبلية والمتضرسة من جبال الفوزج والألب تعرضت للزحزحة والتغيير فى المناطق السهلية . ففى الأجزاء العليا من وادى نهر الرون تتقدم حدود اللغة الألمانية نحو الغرب بثبات أمام اللغة الفرنسية المتقهقرة كما أن انتشارا مماثلا للغة الألمانية فى أودية سويسره الشرقية أصبح يهدد لغة الريتو - الرومانية Raeto-Romanie بالانقراض . أما فى سهول الفلاندرز الفرنسية فإن اللغة الفلمنكية الجرمانية هى التى تتقهقر أمام اللغة الفرنسية وتنحصر فى منطقة ضيقة حول مدينة دنكيرك القديمة .

وقد كانت التضاريس ، متمثلة فى الجبال والتلال ، ملجأ لتلك المجموعات المستضعفة التى لم تستطع مواجهة المجموعات القوية التى أخذت تسيطر على السهول المجاورة ومن ثم انعزلت فى المناطق الجبلية مما أتاح للغاتها البقاء والاستمرار كما حدث

لقبائل السلت Celts منذ ألفي سنة تقريبا . ويبدو أن اللغة السلتية كانت تتركز قبل عام ٥٠٠ ق . م . في أراضي ألمانيا الجنوبية حيث نجد الآن مخلفات اسمية سلتية كما في اسم الراين Rhine (وهو من الكلمة السلتية renos وتعني الانسياب Flow) واسم الألب Alps) من لغة الأرس Erse الحديثة aılp وتعني « جبل عال High mountain) . ثم أخذ السلتيون ينسرون من منطقتهم هذه عبر مناطق شاسعة من القارة تمتد من المحيط الأطلسي إلى البحر الأسود ولكن سرعان ما تم زحزحتهم من هذه المناطق أو انصهارهم في المجموعات اللغوية الأخرى مثل الألمانية والرومانسية . وأمام هذا المد الطاغي من المجموعات القوية أخذ السلتيون يتقهقرون إلى أن لجأوا أخيرا إلى مرتفعات الجزر البريطانية . وقد استطاع السلتيون الصمود في وجه السيطرة الرومانية ولكنهم أجبروا في النهاية على اللجوء إلى حماية التلال الغربية من بريطانيا أو على عبور البحر إلى منطقة بريتاني Brittany الجبلية في فرنسا على يد الأنجلو - ساكسون . ولهذه الأسباب نجد اللغات السلتية محصورة في المناطق الجبلية المنعزلة . كما أن الملاجيء الجبلية قد ساعدت في الإبقاء على لغات قبائل الفلاخ Vlakh واللادين Ladin والألبانيين Albanians في جبال الأبناين ، وألمان جبال ترانسيلفانيا في داخل رومانيا ، من الاندثار أو الانصهار في اللغات المجاورة . وفي بعض الحالات حدث أن بعض هذه المجموعات الجبلية تركت ملاجئها الجبلية بعد زوال الخطر واستعادت إقليمها في السهول المجاورة كما فعل الرومانيون في العصور الوسطى عندما تركوا معاقلهم في جبال الكربات لاحتلال ولاشيا ومولدافيا ومعظم حوض المجر واستقروا فيها .

أما الجزر فإن تأثيرها على النمط اللغوي يكون بطريقتين :

١ - إذا كانت الجزيرة بعيدة ومنعزلة فإن هذه الانعزالية تساعد كثيرا في الحفاظ على اللغات القديمة : فاللغة الأيسلندية هي أكثر اللغات الاسكندناوية قربا للغة النورس (الشمال) القديمة Old Norse . وذلك لأن الذين يتكلمون بها يعيشون في جزيرة منعزلة في شمال الأطلسي ، كما أن اللغة القطلونية قد احتفظت بنقاوتها في جزر البلياري Baleares . أما الحماية والانعزالية التي تمنحها الجزر فقد ساعدت أيضا

فى بقاء اللهجة الساردينية واللغة الفاروبزية Faeroese والايطالية فى جزيرة كورسيكا .

٢ – أما الجزر التى تقع على الطرق التجارية الرئيسية فقد جذبت إليها أعدادا كبيرة من المسافرين بالبحر وأصبحت تتميز بتعدد اللغات فيها . مثل جزيرة قبرص التى تشترك فيها اللغتان التركية واليونانية وجزيرة صقلية التى أصبحت وطنا للغات الايطالية والألبانية واليونانية .

أما النباتات الطبيعية فلها أيضا تأثيرها على الخريطة اللغوية لأوروبا . فقبائل الماغيار المغيرة الآتية من مناطق حشائش الاستبس الآسيوية هى التى غرزت اللغة المجرية فى أوروبا . وقد نزحت هذه القبائل غربا عبر ممرات جبال الكربات واستقرت فى حوض المجر فى عام ٨٩٥ ميلادية . وقد كان لتعودهم على بيئات المناطق العشبية دور فى اختيارهم هذه البقعة كما ساعدتهم مهارتهم فى الحرب من على صهوات الخيل فى الاحتفاظ بهذه المنطقة أمام هجمات المغيرين والإبقاء على لغتهم حية مزدهرة . وقد باءت محاولاتهم للتوغل فى المناطق الغابية إلى الغرب بالفشل ومن ثم ظلت اللغة المجرية لغة المناطق العشبية المفتوحة .

أما الغابات فقد أصبحت بدورها ملاذا لبعض المجموعات اللغوية . فقد وجد الروس فترة راحة واستجمام من غارات القبائل الأسيوية عبر سهول الاستبس المفتوحة باللجوء شمالا إلى المنطقة المركزية ذات الغابات الكثيفة .

كما أن المستنقعات والمناطق ذات التصريف الردىء تفرض أيضا نوعا من الحماية على اللغات : فشعوب الوند Wends والصورب Sorbs السلافيين قد استطاعت الصمود أمام انتشار شرقى للألمان باللجوء إلى حماية غابة اسبرى Spreewald المستنقعية بالقرب من برلين حيث يتواجدون اليوم . كما تشبث الفريزيان Frisians بإصرار بمستنقعات بحر الشمال الساحلية فى هولنده وألمانيا الغربية والدنمارك ، أما المستنقعات والأماكن الرديئة التصريف التى تنتشر فى تربات السهول التى أرسبها الجليد فقد ساعدت فى حماية اللغات البلطية من التوسع السلافى

الألمانى . ويحدث أحيانا أن تمثل المناطق المستنقعية حدودا لغويا كما فى حالة مستنقعات بريبيات Pripyat التى تفصل منذ وقت طويل شعوب روسيا البيضاء من الأكرانيين وكليهما من البولنديين .

أما المناخ ، خاصة اذا كان قاسيا ، فيلعب نفس دور المستنقعات والجبال والغابات والجزر فى اضفاء الحماية كما هو الحال بالنسبة لقبائل اللاب والفنلنديين الذين يعيشون فى اصقاع المناطق شبه القطبية التى عافتها القبائل المغيرة لقسوة مناخها وبيئتها .

(م) اللغة وهجرات الشعوب : (الشكل ٢٥)

تعتبر اللغة من أفضل الأسس لتعريف وتحديد المناطق الحضارية ، فهى حاملة الحضارة ومتى هاجر شعب من منطقة لأخرى حمل معه لغته ولذلك فإن خريطة أوربا اللغوية قد تشكلت جزئيا بهجرات عديدة حدثت عبر هذه القارة وشملت تقريبا كل المجموعات اللغوية . وقد كانت هذه الهجرات أكثر حدوثا فى فترات تاريخية من غيرها ، ومن هذه الهجرات الجماعية تلك التى حدثت أثناء القرون الخمسة الأولى من العصر المسيحى والمعروفة باسم Volkerwanderungen أى « هجرة الشعوب Migration of Peoples » ، ثم حدثت هجرة أخرى ولكن لمدة قصيرة فى الفترة ما بين ١٩٢٠ و ١٩٥٠م . وفى كلتا هاتين الهجرتين كانت الشعوب الألمانية والشعوب السلافية هى أكثر المجموعات الأوروبية التى تأثرت بها وشملتها التحركات .

يبدو أن منطقة النواة الأصلية للشعوب الألمانية كانت تشمل جنوب اسكندناوه وأقصى المناطق الشمالية من ألمانيا ، ومن هذه المنطقة حدث الانتشار المبدئى للقبائل التيوتونية Teutonic نحو الشرق والجنوب قبل العصر المسيحى حتى وصلت إلى شواطىء البحر الأسود .

وفى أثناء هذه الهجرة الجماعية أخذت هذه القبائل تجلو من أراضى أوروبا الشرقية لتغزو المناطق الواقعة الى الغرب والجنوب وهكذا غادرت القبائل الجرمانية كل

الأراضى الواقعة إلى الشرق من الخط المكون من أنهار سال Saal ، ـــ Elbe ى ألمانيا الشرقية والحدود الحالية بين تشكوسلوفاكيا وألمانيا الغربية وأنهار سالزاخ Salzach وأن Inn فى النمسا . واتجهت جنوبا وغربا تغزو إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وشمال أفريقيا . وفى خلال هذه الفترة استقرت قبائل الأنجلز Angles والساكسون والجوت Jutes فى انجلتره واتخذتها موطنا لهم ، وفى وقت لاحق استوطنت قبيلة النورس Norse (رجال الشمال) جزيرة أيسلنده . وفشلت القبائل التيوتونية فى الحفاظ على لغتهم فى المناطق التى استقرت فيها إلا فى أماكن معدودة وقد عانى معظم القبائل المغيرة من نفس المصير الذى لحق بالفرنك Franks التى انصهرت فى اللغة الفرنسية (الرومانسية) ولم يبق منها إلا اسمها الألمانى الذى عرفت به فرنسا .

ثم اتجه الألمان نحو الشرق للمرة الثانية ومن حوالى عام ٨٠٠ إلى عام ١٣٠٠ ميلادية أخذ المزارعون الرواد فى التحرك شرقا واحتلال واستيطان الأراضى الواقعة فيما بعد نهرى « الب » و « سال » فى السهل الألمانى الشمالى والمناطق التى تمتد إلى الشرق من نهرى « سالزاخ » ،و « إن » فى وادى الدانوب ومنطقة الألب الشرقية فى النمسا . ثم حدث فيما بين عامى ١٩٤٥ و ١٩٥١ جلاء إجبارى لهؤلاء المستوطنين كما أشرنا فى الجزء الخاص بالسكان .

أما التوسع المكانى للغة السلافية وانتشارها فيمثل أعظم تغيير طرأ على الخريطة اللغوية للقارة فى خلال الألفى سنة الأخيرة ، فعند ميلاد المسيح كانت منطقة النواة السلافية تحتل منطقة صغيرة تقع بين الأجزاء العليا من نهر دنيبر Dnepr فى أقصى غربى الاتحاد السوفيتى وبين مجرى نهر فستولا الأوسط فى بولنده الذى كان عبارة عن منطقة غابية كثيرة المستنقعات وذات تربات فقيرة . ويبدو أن ازديادا سكانيا قد حدث للسلاف فى الفترة ما بين عامى ١٠٠ و ٤٠٠ ميلادية اذ اندفع هؤلاء القوم من موطنهم الكئيب ينتشرون فى كل اتجاه ، فبعد أن ردوا القبائل الفنلندية على أعقابهم نحو الشمال ، تحركوا غربا أثر إخلاء الشعوب الألمانية مناطقهم ، واندفعوا جنوبا إلى منطقة البلقان التى كانت تخضع للإمبراطورية الرومانية ثم اتجهوا شرقا نحو سهول الاستبس الأكرانية . ولكن هذا التوسع السريع توقف فى العصور الوسطى

أمام التقدم الألمانى نحو الشرق وتغلغل قبائل الماغيار ثم تحرك الرومانيون من معاقلهم الجبلية فى الكربات للاستقرار فى السهول المجاورة مما أدى إلى فقدان أقاليم واسعة ، وأخيرا إلى ظهور حاجز عرق يقسم السلافيين إلى قسمين : جنوبى وشمالى . وقد عوض السلافيين هذه الخسائر الإقليمية بالتوسع شرقا فى سيبيريا وما زال هذا التوسع مستمرا إلى اليوم .

(ن) اللغة والنمط السياسى :

هناك ارتباط وثيق فى أوروبا بين الحدود اللغوية والسياسية إلى درجة أن القومية أصبحت مرادفة للغة . وإذا نظرنا إلى الخريطة السياسية سنجدها نسخة من الخريطة اللغوية كما سيتضح من دراستنا للجغرافية السياسية للقارة . وهنا يمكن أن نكتفى بالقول إن التفاعل بين الدولة واللغة قد لعب دورا هاما فى تحديد وتقرير مصير اللغات والدول فى أوروبا . فقد أصبحت اللغة أساس الشعور القومى عند كثير من الأمم مما نتج عنه وضع غير عادل بالنسبة للإقليات اللغوية التى تزخز بها القارة

فامتصاص الأقليات اللغوية داخل الدول الأوروبية وانصهارها فيها عملية مستمرة منذ أكثر من ألف سنة : فاللغة الفرنسية تتقدم على حساب اللعات الألمانية فى فرنسا ولكنها تتقهقر أمام الألمانية فى سويسره ، كما أخذت اللغة القسطلية تحل تدريجيا محل اللغتين الغالية والباسك فى أسبانيا ، فى حين أن اللغة السويدية قد خضعت للفنلندية فى فنلنده .

وفى ألمانيا الشرقية تقلص عدد الونديين والصورب Sorbs من ١٤٢ر٠٠٠ شخص فى عام ١٨٤٩ إلى ١٠ر٠٠٠ الآن وتبع ذلك تقلص تدريجى لحدود لغتهم ومثل هذا الانصهار اللغوى يحدث حتى إذا كانت لغة الأقليات معترفة بها رسميا كما حدث فى سويسره وفنلنده كما أنه ينسحب أو ينطبق أيضا على اللهجات واللغات المختلفة تماما : فاللهجات الفرنسية والايطالية واليونانية قد تدهورت إثر توحيد هذه الدول سياسيا .

ويوضح تقلص وتدهور اللغات السلتية ما يحيق بلغات الأقلية من مصير سىء ، ففى بريطانيا استطاعت الدولة الانجليزية التى أنشأتها القبائل الألمانية المغيرة من

إخضاع الملاجىء الجبلية السلتية تحت سيطرتها الواحدة تلو الأخرى . وبعد الخضوع للحكم الانجليزى لم يبق للسلتيين مفر إلا الانصهار فى ثقافة الأقوى . وكانت تلك بداية النهاية بالنسبة للغات السلتية . فنى منتصف القرن الثامن عشر اندثرت اللغة الكورنية Cornish بعد مضى ألف سنة من احتلال الانجليز لمنطقة كورنول Cornwall ولقيت لغة المانكس Manx فى جزيرة مان Isle of man نفس المصير كما أن اللغة الغالية Gaelic فى شمال أسكتلنده على وشك الانقراض لأن الذين يتكلمون بها لا يزيد عددهم الآن عن ألف شخص . أما اللغة الويلزية Welsh فقد أظهرت صمودًا أكثر رغم تقلص حدودها وتناقص عدد المتكلمين بها وثنائية لغتهم مما يشير إلى مصير قاتم فى المستقبل . وفى منطقة بريتانى Britanny الفرنسية أجبرت اللغة البريتانية Breton السلتية على التقهقر أمام اللغة الفرنسية بعد أن خضعت المنطقة للسيطرة السياسية الفرنسية .

وتتلخص المشكلة الأساسية التى تواجه السلتيين فى حرمانهم من كيان سياسى مستقل فى هذه المناطق المذكورة الا فى جمهورية أيرلنده حيث أصبحت لغة الأرس Erse السلتية لغة رسمية للدولة تدرس فى المدارس رغم أن معظم سكانها يتكلمون اللغة الانجليزية التى ورثوها منذ عهد الإحتلال الانجليزى لها . وتهدف الحكومة الأيرلندية من جعل سكانها ثنائى اللغة : تستخدم اللغة الانجليزية فى معاملاتها الدولية وتحفظ تراثها الحضارى السلتى من خلال الأرس التى يبلغ عدد المتكلمين بها الآن حوالى نصف مليون شخص .

ومن الأشياء التى تساعد فى تدهور اللغات السلتية فى بريطانيا وفرنسا وسائل الإعلام الحديثة خاصة الراديو والتلفزيون ، ووسائل الاتصال الألكترونية التى أنهت الانعزالية التى كانت تساعد فى إبقاء اللغات متميزة ومزدهرة : فالإذاعات تصل الآن إلى المناطق النائية بسهولة ويسر .

وقد ساعد إنشاء الامبراطوريات فى انتشار بعض اللغات كما حدث بالنسبة للغة الرومانسية التى انتشرت فى أوروبا على العكس من اللغات الألمانية والسلافية التى حدث انتشارها عن طريق الهجرات الجماعية . فنى حوالى عام ٥٠٠ ق . م . كانت

اللغة اللاتينية قاصرة على عدد من المتكلمين الذين يتواحدون فى إقليم صغير يقع عند الطرف الغربى من جبال الأبناين فى سهل لا تيوم (لازيو Lazio الحديثة) ، ومع انتصارات الجيش الرومانى أخذت هذه اللغة تنتشر ، ببطء فى البداية (إذ استغرق احتلال إيطاليا وحدها زهاء القرنين) ثم بسرعة مع توسع الإمبراطورية . ففى عام ١٠٠ ميلادية امتدت الإمبراطورية ومعها اللغة إلى أقصى حدود لها وأصبحت اللغة الرومانسية تسمع فى شواطىء أنهار التيمس Thames والراين والدانوب وفى شمال أفريقيا . ولم تستطع لغة واحدة الصمود فى وجه هذه اللغة الطاغية ومقاومتها إلا اللغة اليونانية التى قاومت الانصهار فيها لمكانتها الثقافية المتقدمة . ومع تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية تقهقرت اللغة الرومانسية ولكنها لم تختف بسقوطها . فقد أتت القبائل الجرمانية المغيرة بلغتها إلى بريطانيا والشاطىء الغربى من نهر الراين ومنطقة الألب فى حين أن السلاف والماغيار اندفعوا نحو البلقان تاركين اللغة الرومانية رمزا لعظمة الرومان ووجودهم القوى فى هذه المنطقة . وفى هذه المناطق المفقودة بقيت اللغة اللاتينية محفوظة فى أسماء الأماكن الحالية مثل كلمتى caster ، Chester (كما فى مانشستر Manchester ولانكستر Lancaster) المشتقة من الكلمة اللاتينية Castria (وتعنى معسكر جيش Military camp) . أما انقسام اللغة اللاتينية إلى لهجات ولغات منفصلة فقد عجل بها سقوط الإمبراطورية : فقد تسبب زوال السلطة السياسية المركزية فى الانعزال الإقليمى فى مناطق اللغة الرومانسية كما شجعت الانعزالية والأمية والجهل فى تحريف اللغة ومفرداتها .

اللغة والمظهر الحضارى للأرض :

يرتبط المظهر الحضارى للارض بخريطة اللغات من نواحى عديدة ، وأحد أشكال هذا الارتباط يتمثل فى العلاقة بين اللغة وشكل الاستيطان الريفى . ففى ريف أوروبا يسكن معظم الناس فى قرى متجمعة ولكن توجد منازل زراعية متناثرة فى بعض المناطق . وفى مثل هذه المناطق تشجع الانعزالية الناتجة على الإبقاء على اللغات الاقلية بينما يعزز التجمع السكنى الانصهار والاندماج . وفى الحقيقة يدين بعض اللغات الأوروبية بقاءها جزئيا إلى نمط القرى المتناثرة الموجودة فى أماكن إنتشارها .

ففى فرنسا مثلا يتطابق انتشار اللغة الفلمنكية Flemish مع نطاق فى الشمال يتميز بتشتت سكنى كما هو الحال بالنسبة للغة الويلزية فى المملكة المتحدة . كما أن بقاء لغة الباسك قد يرجع إلى نظام القرى المشتتة فى منطقة الحدود الاسبانية – الفرنسية . ومن الأسباب التى عاقت تغلغل اللغة القسطلية فى منطقة نفوذ اللغة الغالية فى شمال غرب أسبانيا وجود تخلخل سكانى فيها . ومن ناحية أخرى يبدو أن الاستيطان القروى قد ساعد فى استيعاب السكان الصقالبة الزراعية الذين كانوا يقطنون فى السهل الألمانى إلى الشرق من خط الب – سال Elbe-Saale بواسطة الألمان فى العصور الوسطى . فقد استقر عدد كبير من الألمان فى القرى السلافية فى تلك الفترة وتم استيعاب السلافيين بسرعة فى الثقافة الألمانية .

ثم هناك اللغة المرئية التى نشاهدها مكتوبة فى لافتات المرور على جوانب الطرق . فمن السهل على المسافر فى أوروبا أن يميز الحدود اللغوية وخاصة إذا كانت تغييرات اللغة تحدث عند حدود دولية – كما عند الحدود النمساوية – المجرية حيث يظهر التغيير بوضوح ملفت للنظر ، ربما لعدم وجود صلة بين اللغتين الالمانية والمجرية . ويعمق وضوح التخوم اللغوية عندما يتطابق تغيير هجائى مع انتقال لغوى كما يحدث فى المنطقة التى يفصل فيها نهر الدانوب رومانيا من بلغاريا . أما المناطق التى تختلط فيها اللغات فتبدو واضحة فى اللافتات الثنائية اللغة المغروزة على جوانب الطرق . ولكن هناك بعض المناطق لاتكون اللغة المرئية فيها مؤشرا صحيحا للغة المحلية السائدة فيها كما هو الحال فى لوكسمبورج Luxembourg ، تلك الدولة الصغيرة التى تقع بين فرنسا وألمانيا . فهنا نجد كل اللافتات مكتوبة بالفرنسية بينما يتكلم الشعب صيغة لغوية ألمانية . حتى اسم الدولة صيغة فرنسية لكلمة لوكسمبورج الألمانية Luxemburg (ومشتق من اللغة الألمانية القديمة Lucilinburhuc بمعنى القلعة الصغيرة (Little Fortress.) وهكذا يستخدم شعب لوكسمبورج اللغة المرئية (الفرنسية) لتمييز أنفسهم من الألمان بينما تميزهم لغة الكلام (الألمانية) من الفرنسيين ، ومن ثم يكونون ذاتية مستقلة لاتنتمى للألمان ولا الفرنسيين مما ساعد فى تدعيم استقلالهم السياسى باستمرار . وقد تكون اللغة غير مرئية فى حالة الأقليات اللغوية التى تضطهدها حكومات مركزية تناصبها العداء .

اللغة والاقتصاد :

لاتخلو ظاهرة اقتصادية من علاقة ماتربطها بلغة من اللغات ، فالتجارة ووسائل النقل قد تساعد فى انتشار اللغة بينما يقيد التباين اللغوى فى بعض الحالات أنماط التسوق ومناطق السوق .

فقد حمل التجار الذين جابوا البلاد لغتهم معهم كعرض جانبى لمهنتهم كما حدث للغة اليونانية . واليوم نجد « جزر » يونانية متصلة فى منطقة تمتد من جنوب إيطاليا إلى منطقة القوقاز الروسية ومن سوريا الساحلية إلى إقليم الاستبس الأكرانى ، وكلها تمثل بقايا من المصالح التجارية اليونانية منذ العصر الكلاسيكى والبيرنطى كما أن تجار الفراء الروسيين هم الذين حملوا اللغة السلافية إلى المناطق الواقعة شرق جبال الأورال . أما فى النطاقات التى تمتزج فيها اللغات فقد يحدث أن تحتل لغة واحدة مكانة معينة وتعرف بلغة الارتباط Language of Association فى مثل هذه الحالة يتحدث الناس غالبا بلغة فى منازلهم ويستخدمون لغة أخرى فى السوق كما فى حوض كلاجنفورت Klagenfurt فى النمسا حيث يعيش قوم يتكلمون اللغتين السلوفينية Slovenian والألمانية معا ، والأخيرة تمثل لغة الارتباط ، وفى مثل هذه المناطق يحدث الاستيعاب اللغوى .

وفى حالة وجود لغتين فى منطقة واحدة ، كل مجموعة تناصب العداء للأخرى ، فإن ماينتج من مثل هذه الأوضاع قد يكون التفرقة الاقتصادية بدون وجود لغة ارتباط . ففى مدينة بروكسل مثلا يتأثر تحديد مكان التسويق اليومى بلغة الأم بالنسبة لمالك الدكان : فالفلمنكيون يميلون لابتياع حاجياتهم من الدكاكين التى يديرها فلمنكيون أكثر من تلك التى يديرها فرنسيون حتى ولو كان مالك المتجر ثنائى اللغة ، أى يتحدث باللغتين وإذا كانت مجموعة لغوية معينة صغيرة فى حجمها ومتماسكة اجتماعيا فإنهم قد يجنحون إلى تكوين مايمكن أن نطلق عليه مجتمعا مغلقا اقتصاديا . وفى بعض الحالات الأخرى قد ينتج خليط من لغة تجارية ، فسكان جزيرة مالطة ذات الموقع الاستراتيجى يتكلمون اللغة المالطية التى هى عبارة عن خليط من اللغتين العربية والإيطالية ، فإذا كان مثل هذا المزيج اللغوى يوجد أساسا كلغة تجارة يطلق

عليه اسم Pidgin وهى عبارة عن لغة مبسطة تستخدم فى الاغراض التجارية وللتفاهم بين الشعوب الناطقة بلغات مختلفة . ومن أمثلة لمثل هذه اللغات الأوربية التى اندثرت الآن « لغة السابر Sabir » وهى مزيج من اللغات الأسبانية واليونانية والايطالية والفرنسية والعربية كانت تستخدم فى العصور الوسطى فى حوض البحر المتوسط ، ولغة روسينورسك Russenorsk ، هى خليط من اللغة الروسية والنرويجية كان يستخدمها تجار السمك فى موانئ النرويج حتى وقت قريب .

وتنتشر اللغات أيضا عبر طرق النقل إلى جهات مختلفة . فإن بناء السكك الحديدية والطرق المعبدة الرئيسية قد أثر فى بعض الأحيان على التوزيع الجغرافى لبعض اللغات . ففى فرنسا ساعد بناء شبكة طرق البريد فى القرن الثامن عشر فى انتشار وسيادة لغة باريس الفرنسية Langue d'oil وتدهور اللهجة الجنوبية Langue d'oc كما أن تشييد خط سكة حديد سيبيريا القارى قد ساعد فى انتشار اللغة الروسية إلى الشرق من جبال الأورال .

وفى بعض الأحوال نجد مجموعة لغوية معينة ترتبط بطرق معيشة معينة ، فشعب الفلاخ الناطق باللغة الرومانسية ويعيش فى جنوب شرق أوربا شعب رعوى كما أن نسبة عالية من الباسك كانت تمارس رعى الضأن وصيد السمك قبل دخول التصنيع فى منطقتهم . أما الغجر (Gypsies) الناطقين بالرومانى Romany فيكونون مجموعة اقتصادية متميزة من البائعين المتجولين .

ونوع المهنة الذى تمارسه مجموعة قد تؤثر فى مفردات لغتها : فلغة شعب الفلاخ تحتوى على عدد كبير من الكلمات المتعلقة بالضأن والمراعى والحشائش مما يعكس نوعية النشاط الاقتصادى الذى يمارسونه . كما أن لغة الغجر الرومانى قد جمعت كلمات كثيرة من اللغات الأخرى التى يأتون على اتصال معها أثناء تجوالهم

الفصل السابع

الدين والجغرافيا في أوروبا

تمثل الديانة المسيحية أهم وأقوى السمات التي تميز الأوروبيين عن الشعوب الأخرى لأن هذه الديانة كانت محصورة حتى عام ١٥٠٠ ميلادية داخل حدود القارة الأوروبية وكانت الثقافة والديانة مترادفتين تقريبا . وقد لعبت الكنيسة دورا كبيرا في النهضة الحضارية للقارة المتمثلة في الإنجازات الفنية والتجارية في العصور الوسطى وعصر النهضة . ففي الأديرة المتناثرة حفظت العلوم وازدهرت خلال العصور المظلمة كما أبقت على بعض الملامح الحضرية من الاندثار . وكانت للكيسة اليد الطولى في استيطان وتعمير المناطق الغابية الواقعة إلى شمال الألب وتحويلها إلى أراضي زراعية خصبة كما أن الكنيسة هي التي ألهمت الأعمال الفنية والأدبية والفلسفية والمعمارية الرائعة التي أنتجتها الحضارة الأوربية .

ينحصر اهتمام الجغرافي في الخصائص المكانية للاديان وفي الطرق التي تختلف فيها الظاهرات الدينية من مكان لآخر وفي دراسة علاقة السبب والنتيجة التي تربط بين مناطق توزيع الأديان والأنماط المكانية الأخرى من حضارية وبيئية . ويمكن تمييز أربعة موضوعات رئيسية في جغرافية الأديان هي :

١ - التوزيع المكاني والتفاعل المكاني بين المجموعات الدينية .

٢ - أثر البيئة الطبيعية في تطور وخصائص وصفات وتوزيع الديانات .

٣ - أثر الديانات على البيئة وخاصة الإسهام الديني في تطور المظهر الحضاري أي البصمات الظاهرة في الريف التي جاءت نتيجة مجهودات الإنسان .

٤ - العلاقة المتبادلة بين الدين والظاهرات الثقافية مثل اللغات والزراعة والسياسة والنقل والصناعة .

وسندرس هذه المواضيع بشئ من التفصيل .

(١) التوزيع والتفاعل المكانى للمجموعات الدينية (الشكل ٢٦)

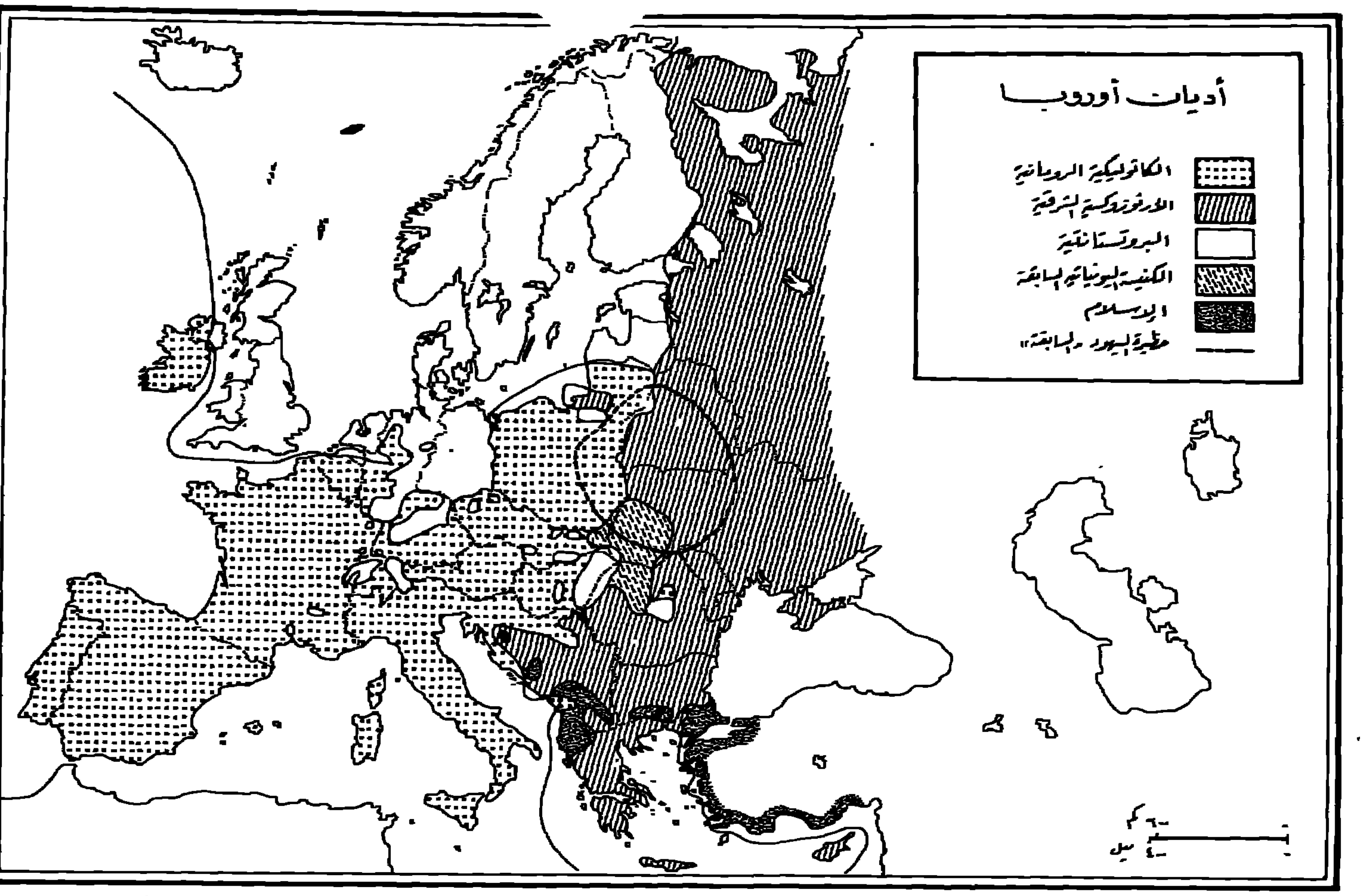
يوجد تباين داخلى كبير فى أوربا رغم الوحدة التى تصبغها المسيحية : فهذه الديانة دخلت أوربا كعقيدة موحدة فى بادئ الأمر ثم انقسمت الى ثلاثة اقسام منفصلة : الكاثوليكية الرومانية ، والأرثوذوكسية الشرقية والبروتستانتية ، وانقسمت الأخيرتان إلى مجموعات دينية عديدة ، ويتطلب فهم النمط الحالى للتوزيعات الدينية الوقوف عند الانتشار المبكر للديانة المسيحية الموحدة فى القارة الاوروبية ودراستها .

فقد سبق الديانة المسيحية إلى أوروبا خليط من الأديان الأخرى كانت فى أكثرها بدائية . فالشعوب الهندية – الأوربية كانت تؤمن بتعدد الديانات ، وفعلا حملت هذه الشعوب دياناتها المتعددة معها فى هجراتها ومارست طقوسها الدينية فى المناطق التى انتشرت فيها : فقدماء اليونان مثلا وضعوا مجموعة من الآلهة والآلهات فوق جبل أوليمبوس ونسجوا أساطير رائعة حول شخصيات وأعمال هذه المقدسات وجاء الرومان من بعدهم وورثوا عددا من الهة اليونان مع تغييرا اسمائها ، فى حين أن القبائل الألمانية والسلتية والسلافية عبدوا آلهة متعددة يرتبط كثير منها بغابات ومستنقعات موطنهم الشمالى .

أما الأديان التوحيدية – التى تؤمن بإله واحد – فقد ظهرت فى جزء محدود من منطقة الشرق الاوسط وسط قبائل صحراوية تتكون من رعاة رحل ، وعلى يد القديس بول أصبحت الديانة المسيحية دينا عالميا يبحث عن المهتدين لغرض نشر تعاليمها على نطاق عالمى ، فانتشار دين من الأديان يتم وفق طرق ثلاثة :

١ – فقد يحمل قوم يدينون بالولاء لدين معين عقيدتهم هذه وينتشرون فى مناطق جديدة ويستقرون بها ، وينشرون دينهم فيها .

٢ – قد يحدث فى منطقة تتميز باختلاط وتمازج سكانى أن يؤدى الاحتكاك والاتصال اليوميين مع أعضاء ديانة أخرى إلى الاهتداء والتحول منه إلى الدين الجديد خاصة إذا كانت إحدى هاتين المجموعتين هى المسيطرة من الناحية السياسية والاقتصادية وهذا مايسمى Contact conversion .


أديان أوروبا
الكاثوليكية الرومانية
الأرثوذكسية الشرقية
البروتستانتية
الكنيسة اليونانية السابقة
الإسلام
حظيرة اليهود السابقة
كم
ميل

شكل (٣٦)

٣ – يتم الانتشار ببعث الإرساليات والبعثات الدينية بواسطة الأديان التي تسعى إلى الانتشار عالميا .

وقد اتخذت الديانة المسيحية الوسيلة الأخيرة فى انتشارها فى ربوع القارة الأوروبية ، كما ساعدت الطرق الرومانية التى كانت تغطى أجزاء كبيرة منها فى هذا المضمار إذ أعطت وسيلة للتحرك السريع لم تكن موجودة من قبل . رغم ذلك فقد اتسم انتشار المسيحية وتقدمها فى الثلاثة قرون الأولى بالبطء الشديد وكان معظم المهتدين من سكان المدن وبقى سكان الريف على وثنيتهم وكان ارتباط المسيحية بالمدن الى درجة أن الكلمة اللاتينية Pagus (وتعنى اقليم ريفى) أصبحت الاصل لكلمتى Pagan(بمعنى وثنى) و Peasant (وتعنى المزارع) الحديثتين مما يشير الى وجود ارتباط بينهما . وبقى الحال كما هو حتى عام ٣١٣ ميلادية عندما اصدر الإمبراطور الرومانى المسيحى قسطنطين مرسوما يقضى بالتسامح نحو المسيحية والذى أدى نهائيا إلى جعله بمثابة دين رسمى للدولة . ومنذ ذلك التاريخ وإلى القرن الرابع عشر جابت الإرساليات أنحاء أوروبا تدعو السكان إلى الدين الجديد .

الديانة الكاثولوليكية الرومانية :

تعتبر الديانة الكاثوليكية الرومانية أهم المجموعات المسيحية الثلاث فى أوروبا من حيث عدد التابعين لها والمساحة التى تنتشر فيها . إذ تسود فى شبه جزيرة أيبريا وفرنسا وإيطاليا وأيرلنده وبلجيكا والمناطق الجنوبية من ألمانيا وبعض دول شرق أوروبا السلافية . ظهرت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فى القرن الرابع الميلادى فى المنطقة التى كانت تخضع لسلطان مطران روما الذى كان يمثل زعيما من أربعة زعماء مسيحيين فى أربع مدن من ضمنها اسطنبول (القسطنطينية) ثم طالب مطران روما زعامة الحركة المسيحية كلها بناء على ماقاله المسيح للقديس بطرس . ولكن هذه المطالبة لم تنل تأييدا جماعيا من المطارنة الآخرين ومن ثم تعرضت الكنيسة تدريجيا لانقسام بين روما والقسطنطينية . وشجع الانقسام السياسى للامبراطورية الرومانية إلى جزء شرقى وجزء غربى واستخدام لغتين مختلفتين فى الكنيستين إلى تعميق الهوة بينهما حتى حدث الانشقاق رسميا فى عام ١٠٥٤ م ومن ثم أصبحت هناك كنيستان منفصلتان .

ويوضح الشكل (الشكل ٢٧) انتشار المسيحية فى أرجاء أوروبا المختلفة .

الأرثوذوكسية الشرقية :

تنتشر الأرثوذوكسية الشرقية فى شرق أوروبا ويشمل نطاقها اليونان والاتحاد السوفيتى وبلغاريا وقبرص وأجزاء من رومانيا ويوغسلافيا . ولهذا النوع من العقيدة المسيحية ارتباط تاريخى بمطران القسطنطينية وكانت كنيستها تمثل دين الإمبراطورية البيزنطية الرسمى . وكانت الكنيسة الشرقية أقل نشاطا فى بعث الإرساليات من مثيلتها الرومانية ولفترة طويلة حصرت اهتمامها فى اكتساب القبائل السلافية التى انتشرت جنوب نهر الدانوب إلى داخل إقليم الإمبراطورية . وقد تم اهتدائهم للكنيسة ماعدا الكروات والسلوفيين (Croats و Slovenes) الذين اعتنقوا الكاثوليكية الرومانية تحت تأثير إرسالياتها وفى شمال نهر الدانوب تعرضت الأنشطة الإرسالية فيما بين عامى ٥٦٧و ١٠٤٨ م إلى انتكاسات حالت دون تقدمها إثر الغارات المتكررة من القبائل الآتية من آسيا عبر رواق ولاشيا المفتوح Walachia . ولكن فى عام ٩٨٩ اعتنق حاكم كيف Kiev الدين وتم تعميده وكانت الحادثة سببا فى اعتناق روسيا المسيحية الشرقية .

البروتستانتية Protestanism : (الشكل ٢٨)

توجد مجموعة من الكنائس البروتستانتية فى شمال أوروبا فى اسكندناوة والمملكة المتحدة وفنلنده وهولنده واجزاء من ألمانيا . وهذه الكنائس لا تتبع سلطة مركزية ولا تدين بالولاء لها ، وحتى الطوائف الفردية تنتظم حول ، وتنقسم وفق ، حدود قومية . وقد ظهرت الحركة البروتستانتية فى مناطق مختلفة وخلال فترات طويلة كمحاولات عديدة لإدخال إصلاحات أو إحدات تغييرات فى داخل الكنيسة الرومانية .

وقد بلغت هذه المحاولات ذروتها عندما ماتحدى مارتن لوثر Martin Luther الكنيسة فى فيتنبرج فى عام ١٥١٧ وكانت بداية انقسام الكنيسة الرومانية وميلاد الكنيسة البروتستانتية التى سرعان ماانتشرت عبر شمال ألمانيا والدول الاسكندناوية ثم إلى سويسره واسكتلنده وانجلتره فيما بعد

انتشار المسيحية في أوروبا
التجمعات المسيحية في القرنين الأول والثاني
المناطق المسيحية في عام ٣٠٠
الحد الشمالي لانتشار الإسلام في ٨٠٠م
حدود الكنيسة الرومانية الغربية ٧٠٠م
" " " " ٨١٤م
" " " " في ١٠٥٤م
" " الشرقية في ٧٠٠م
" " " ٩٠٠م
" " " ١٠٥٤م
بعض الحركات التبشيرية
روما
القسطنطينية
٦٠٠ كم
٤٠٠ ميل

شكل (٣٧)

(انتشار الحركة البروتستانتية

(حوالي ١٥٧٠)

الانجليزية

الكالفينية (المصلحة)

اللوثرية

الانابابتية

جنيف

٦٠٠ كم

٤٠٠ ميل

شكل (٢٨)

الديانات الأخرى :

توجد مجموعات دينية أخرى غير المسيحية فى أوروبا أهمها الإسلام واليهودية وبالرغم من أن الحكم العربى الطويل لشبه جزيرة ايبريا لم يترك وراءه اثرا للاسلام فان توغل الاتراك فى داخل شبه جزيرة البلقان قد ترك هناك مقاطعة حبيسة إسلامية وسط الألبانيين وبعض شعوب الصقالبة الجنوبيين فى ألبانيا ومحافظات يوغسلافيا المجاورة . ويكون المسلمون ٧٠٪ من سكان ألبانيا (٣ر١ مليون شخص) و ١٢٪ من سكان يوغسلافيا . وفى بلغاريا يدين بالإسلام شخص من كل عشرة أشخاص من سكانها .

أما اليهود فقد بلغ عددهم فى عام ١٩٣٩م حوالى عشرة مليون شخص فى أوروبا والاتحاد السوفيتى . فقد كان معظمهم يسكنون بولنده ثم الاتحاد السوفيتى فرومانيا وأخيرا ألمانيا . وقد انتشرت اليهودية فى أوروبا بطريقة تختلف عن تلك التى انتشرت بها المسيحية . ويرجع الوجود اليهودى فى أوروبا إلى الفترة الرومانية التى شتت فيها اليهود من فلسطين وانتشارهم فى جميع أجزاء حوض البحر المتوسط وتغلغلهم تدريجيا وعبر القرون فى كل دولة من دول أوروبا مع أن دولا مثل أسبانيا والبرتغال أصدرت مراسيم رسمية بطرد اليهود وإجلائهم من بلادهم . وتدريجيا تجمع معظم اليهود فى منطقةالحدود الروسية – البولندية الحالية التى أصبحت تعرف فيما بعد بحظيرة أو مقاطعة اليهود Jewish Pale . وقد تم حصرهم فى هذه المنطقة وفق تشريع روسى أعلن فى عام ١٨٠٤ . وعندما احتلت ألمانيا هذه المقاطعة خلال الحرب العالمية الثانية تعرض اليهود للقتل على يد النازية وتقلص عددهم وتشتت الباقون إلى أجزاء أوروبا الأخرى والولايات المتحدة . ثم حدث التآمر الدولى على فلسطين وسكانه العرب الذى أدى نهائيا إلى إجلائهم بحد السيف لايواء الصهاينة .

مناطق التقهقر المسيحى .

تظهر أجزاء كثيرة من أوروبا تدهورا فى نفوذ الدين المنظم بل هناك مناطق معينة انتهى النفوذ الدينى منها كلية . فقد تعرضت الأرثوذوكسية الشرقية لأكثر من نصف قرن للكبت والقمع من قبل السلطات فى الاتحاد السوفيتى والحكومات الشيوعية الأخرى فى رومانيا وبلغاريا ويوغسلافيا لحوالى ثلاثين سنة . وبالرغم من الضغط

الشديد لم تندثر الكنيسة بل بقيت مبتورة النفوذ . وتكمن المشكلة جزئيا فى تحلل العلاقة الوطيدة التى كانت تربط بين الكنيسة والدولة فى هذه المناطق وهى علاقة تعود جذورها إلى عصور الإمبراطورية البيزنطية عندما كان مطران القسطنطينية متورطا فى السياسة الإمبريالية آنذاك .

ومنيت الكاثوليكية الرومانية أيضا بخسائر شديدة فى الآونة الأخيرة ولكنها كانت أحسن حظا من الأرثوذكسية الشرقية فى مقاومتها وتصديها للشيوعية ، خاصة فى بولنده التى تمثل الكنيسة المسيحية فيها أقوى صوت معارض للحكومة الشيوعية رغم المضايقة المستمرة منها ، ولكنها كانت أقل حظا فى بعض الدول الشيوعية مثل تشكوسلفاكيا والمجر وليتوانيا السوفيتية . كما أفل نجم هذا الدين فى عدد من الدول غير الشيوعية مثل فرنسا حيث أصبح سكانها أكثر مقاومة للاكليرك anticlerical بعد الثورة ، وأكثر المرتدين من الدين هم سكان حوض باريس بينما تحتفظ الكنيسة بنفوذ قوى فى المناطق الهامشية مثل بريتانى . والزاس — لورين وإقليم الفلاندرز الفرنسية وسفن فى الهضبة الوسطى ونفار Navarre فى الجنوب . وربما يرجع السبب للظهور الدينى القوى فى هذه المقاطعات إلى وجود اقلية لغوية فيها (ما عدا سفن Cevennes) مثل البريتانيين . والفلمنكيين والألمان والباسك الذين يتمسكون بالمسيحية لأن الأغلبية الناطقة بالفرنسية أخذت تهجرها . وتظهر الأقاليم الريفية من النمسا وجنوب ألمانيا خاصة بفاريا ، تمسكا قويا بالدين . وعلى العموم تنحصر مناطق النفوذ القوية لهذا الدين فى المناطق الجنوبية فى أشباه جزر أيبريا وإيطاليا حيث كانت الكنيسة أقدم ظهورا وتوجد بها رئاستها الحالية .

أما البروتستانتية فقد كانت أكثر العقائد الثلاث عرضه للارتداد منها . ففى هولنده تنصل ١٧٪ من سكانها من أى انتماء دينى فى منتصف هذا القرن . وهذا التنصل من الدين أقوى فى الشمال البروتستانتى منه فى الجنوب الكاثوليكى. وشهدت الكنيسة الأنجليكية ارتدادا كبيرا فى أتباعها فى أجزاء من المملكة المتحدة ومن ضمنهم المنهجيين Methodists من سكان ويلز .

ويوضح الجدول الآتى (رقم ٩) التدهور الدينى فى أوروبا حسب مسح قام به

معهد جالوب فى عام ١٩٦٨م . وقد سئل الذين أجريت معهم المقابلة فيما لو كانوا يؤمنون بالله ويعتقدون فى حياة بعد الموت وفى الجحيم والشيطان ، وقد أظهرت اليونان أكثر الإجابات إيجابا للأسئلة المطروحة فى حين تظهر فرنسا والسويد أكثر المناطق تنصلا من المعتقدات المسيحية التقليدية . ويظهر أكبر ارتداد من الدين فى المناطق الحضرية والصناعية والتى تدين بالبروتستانتية والشيوعية . ويمكن أن نعزو سبب تدهور المسيحية إلى ظهور ما يمكن أن نطلق عليه بأشباه الديانات Quasi-religions أى معتقدات ترقى إلى مصاف الدين لكن ينقصها شعائر العبادة مثل الشيوعية فى روسيا والنازية فى ألمانيا الهتلرية .

جدول ٩ : التقهقر الدينى فى أوروبا

الدولة	نسبة الذين يؤمنون					
	فى الله	فى حياة بعد الموت (القيامة)		فى الجحيم	فى الشيطان	الانتحار فى كل ١٠٠٫٠٠٠ شخص
	١٩٦٨	١٩٦٨	(١٩٤٨)	١٩٦٨	١٩٦٨	١٩٦٥
النمسا	٨٥	٣٨	—	٢٦	٢٣	٢٣
فنلنده	٨٣	٥٥	(٪٦٩)	٢٩	٢٦	١٩
فرنسا	٧٣	٣٥	(٪٥٨)	٢٢	١٧	١٥
اليونان	٩٦	٥٧	—	٦٢	٦٧	٣
هولنده	٧٩	٥٠	(٪٦٨)	٢٨	٢٩	٧
النرويج	٧٣	٥٤	(٪٧١)	٣٦	٣٨	٨
السويد	٦٠	٣٨	(٪٤٩)	١٧	٢١	٢٠
سويسره	٨٤	٥٠	—	٢٥	٢٥	١٨
المملكة المتحدة	٧٧	٣٨	(٪٤٩)	٢٣	٢١	١٠
ألمانيا الغربية	٨١	٤١	—	٢٥	٢٥	٢٠

النتائج التوزيعية الناجمة من تفاعل الديانات :

· عندما تشارك كنائس مختلفة إقليما واحدا أو تجاور بعضها لا بد أن يحدث تفاعل بينها ، وقد يتخذ هذا الاتصال واحدا من أشكال ثلاثة ·

١ تعايش سلمى بينها .
٢ تنافس بينها قد يؤدى إلى عدم استقرار فى المنطقة .
٣ تعصب أو عدم احتمال ثم الإبعاد .

وفى أوروبا اتخذ التفاعل شكلين متطرفين : المعايشة السلمية والتعصب . وتظهر مرتفعات يوغسلافيا مثالا للتعايش السلمى بين المسلمين والمسيحيين الذين يعيشون فى قرى ومدن عديدة فى تآلف تام وقد يتزاوجون مع بعضهم فى بعض الحالات وعلى الزوجة أن تتبع دين زوجها . وقد أدى التسامح المتبادل بين الفئتين إلى حدوث امتزاج بينهما وقد ساعد على ذلك عدم وجود حواجز أو حدود تفصل بينهما .

أما حيث يوجد التعصب اليوم ، أو فى الماضى القريب ، ففيه نجد التفرقة والتمييز بين المجموعات الدينية المختلفة كما تظهر فيها الحدود الدينية بارزة واضحة تفصل بين شعوب متجانسة دينيا على جانبيها كما نشاهد فى مدينتى لندنديرى Londonderry وبلفاست Belfast فى أيرلندة الشمالية ، بين الأحياء التى يسكنها البروتستانتيون والكاثوليك . وحتى فى حالات إحلال التعصب الدينى بالتعايش السلمى بين الأديان المختلفة فقد تبقى التفرقة بينها لفترة طويلة بعد ذلك كما هو الحال اليوم فى المناطق الريفية فى ألمانيا التى تظهر حدودا فاصلة بعد ثلاثة قرون من العداء السافر بين الكاثوليك والبروتستانت . وقد يقلل التعصب من التنوع الدينى فى دولة ما كما حدث فى أسبانيا ، ففى ظل الحكم العربى كانت أسبانيا موطنا للمسلمين والمسيحيين واليهود يعيشون فى سلام وتآلف . ومع زوال الحكم العربى الإسلامى تعرض المسلمون واليهود إما إلى الطرد خارج البلاد أو إلى اعتناق المسيحية مكرهين مما أدى إلى سيادة المسيحية فيها .

وهناك حالات محلية غريبة متناقضة فى أشكال التفاعل بين مجموعتين دينيتين مماثلتين كما فى جزيرة رودس Rhodes التابعة لليونان حيث يتعايش المسلمون

والمسيحيون فى وئام وتآلف بينما يناصب كل من الفئتين الأخرى بالعداء السافر ويتقاتلان فى جزيرة قبرص . فالجزيرتان تسكنهما أغلبية يونانية وأقليات تركية وتقعان فى منطقة واحدة تقريبا ولكنهما تختلفان فى درجة التسامح الدينى .

وقد لعبت المسيحية دورا كبيرا فى التوسع الأوروبى وانتشار الحضارة الأوروبية فى أصقاع كثيرة من العالم . وقد تمثل هذا التوسع الحضارى فى الحروب الصليبية التى حدثت بإيعاز من الكنيسة وتحت إرشادها وقيادتها وفى وقت لاحق شارك « الإله والذهب والعظمة » فى توجيه وإرشاد الكشوفات الأسبانية وإقامة مستوطناتها فى كثير من مناطق العالم خاصة أمريكا اللاتينية .

أثر البيئة على الدين :

تكون العلاقة بين الدين والبيئة المحيطة بها عامة أقوى وسط المجموعات البدائية التى تعتمد على العراف أو الطبيب المشعوذ (الكجور) فى طلب الحماية والوقاية من قوى البيئة المجهولة الغامضة . وفى بعض الأحيان تبقى بعض المؤثرات البيئية حية فى الأديان المتقدمة مثل المسيحية كما يظهر مثلا فى توقير وتبجيل المواضع المرتفعة . ومنذ عصور قديمة اعتبرت الأماكن العالية مثل قمم الجبال كمواضع مقدسة تسكنها الآلهة . وقد كان الإغريق القدماء يوقرون أو يرهبون المواضع العالية مثل « أوليمبوس Olimbos وبارناسوس Parnassos وأثوس Athos وقد كان جبل « أوليمبوس » موطن الإله « زيوس Zeus » وبعض الآلهة الصغيرة بينما كان جبل « بارناسوس » فى وسط اليونان يعد من أقدس المواضع إبان العصر الكلاسيكى إذ كان موطنا لمعبد الالهة دلفى Oracle of Delphi التى كان تصدر تنبؤاتها من المقر التشريفى لها فى معبد أبولو Apollo . أما « أثوس » فقد كانت شبه جزيرة جبلية يخافها ويتفاداها الإغريق .

وقد بقيت هذه النظرة التبجيلية للأماكن المرتفعة حية حتى اليوم فى الديانة الأرثوذكسية مثل احتفاظ « أثوس » بدلالتها الدينية كموضع لعديد من الأديرة وعدم السماح للنساء بالذهاب إلى شبه الجزيرة . وتحتل الأديرة قمم التلال فى جميع أنحاء اليونان وجزر بحر إيجه فى حين أن مثل هذه المواضع تحتوى على كنائس صغيرة

كما فى جمهورية سلوفينيا اليوغسلافية وأجزاء من النمسا . كما أن كنيسة Sacré – Coeur التى تطل على باريس من موضعها الحالى من المناظر التى تجذب السواح .

وشاع أيضا تقديس الغابات والأشجار كما فى الديانات القبلية لقدماء الألمان والصقالبة والسلت واليونان حيث كانت غابات معينة ، تشمل البساتين التابعة للمعابد ، تقدس كمقر لآلهة الغابات . كما حظيت أنواع معينة من الأشجار بالتبجيل مثل شجرة التنوب من قبل الألمان القدماء لخضرتها الدائمة وقد بقيت هذه العادة حية حتى الآن متمثلة فى شجرة عيد الميلاد ووجود بقايا من الغابات حول الأديرة فى منطقة البحر المتوسط .

أما عبادة الشمس فقد كانت منتشرة فى أشباه جزر حوض البحر المتوسط . فقد كانت احدى هذه الفرق الدينية تعبد إلها شمسيا يدعى Invictus يأتى عيد ميلاده فى أواخر ديسمبر عندما تبدأ الشمس فى تحركها الظاهرى نحو الشمال ، ويبدو أن التاريخ المسيحى لاحتفالات عيد الميلاد Christmas قد ورث من أتباع هذا الإله ، بينما أصبح يوم الأحد Sunday أى « يوم الشمس » يوما مقدسا عند المسيحيين .

اللاندسكيب الحضارى الدينى :

يتجلى التعبير المكانى للحضارات فى البصمات الظاهرة التى تتركها هذه الحضارات على سطح الأرض أو اللاندسكيب ، وقد يكون جزء من هذه البصمات نتاج المعتقدات والشعائر الدينية . ولكن قد تختلف أهمية وحجم الإسهام الدينى فى مثل هذه الحالات من مجموعة بشرية إلى أخرى : فالأديان التى تركز على مناشدة الحواس البشرية مثل السمع والبصر هى التى تترك آثارها واضحة على اللاندسكيب بينما تلك التى تركز أكثر على الإيمان والوصايا تكون آثارها على الأرض قليلة . وأكثر هذه البصمات الدينية ظهورا هى المبانى المقدسة وخاصة مبانى الكنيسة . وتظهر أوروبا تباينا إقليميا كبيرا فى حجم الكنيسة والمواد التى تبنى منها وأسلوب المعمار . فالكنائس فى المناطق الكاثوليكية أكبر حجما وأكثر زخرفة من تلك الموجودة فى الأقاليم البروتستانتية والأرثوذكسية ويرجع السبب جزئيا إلى اهتمام الكنيسة الرومانية بابراز الجمال المرئى لاتباعها . وتتميز اللاندسكيب الكاثوليكى والارثوذكسى أيضا

بالعديد من الاضرحة والكنائس الصغيرة الريفية المتناثرة على جوانب الطرق ، حتى فى المناطق الريفية المتناثرة السكان مثل حوض أكويتين فى فرنسا حيث تكثر الكنائس الصغيرة التى ، رغم الخراب الذى حل بالعديد منها ، مازالت تعكس فى معمارها وظيفة الدفاع التى كانت تؤديها فى أوقات سابقة .

أما أسلوب المعمار فهو أشد تباينا من حجم الكنائس . فكما أن أنواعا متميزة من معمار الكنيسة الأنجليكية تذكر الزوار بإنجلتره فإن الكنائس الكاثوليكية ذات الأبراج القببية المدورة تتميز قرى كثيرة فى النمسا وبفاريا الألمانية . ويكتسب بعض أشكال المعمار الكنائسى أهمية فى المناطق التى تتميز بالاختلاط العرقى كمؤشر واضح لمجموعات حضارية معينة ، كما فى منطقة إسترا Istra اليوغسلافية حيث نجد الإيطاليين والصقالبة . فالأثر الايطالى يظهر فى أبراج الجرس المستقلة ، وترتفع مآذن الجوامع فى سماء القرى البلقانية . وتظهر مواد البناء اختلافا من منطقة لأخرى فهناك كنائس مبنية من الخشب فى أجزاء من روسيا ومنطقة مولدافيا الرومانية بينما تكثر الكنائس الحجرية فى جنوب أوروبا . وكثيرا ما تبنى الكنيسة بمواد بناء تختلف من تلك التى استخدمت فى بناء القرى والمدن كما فى إقليم نورماندى الفرنسى وفى أجزاء من شمال ألمانيا حيث تبنى المنازل من الخشب والحجر فى حين أن الكنائس تبنى بالحجر فقط .

وتضفى المقابر منظرا مميزا على اللاندسكيب الدينى ، والمقابر تختلف فى مواضعها وأبعادها المساحية وفى أنواع الشواهد على قبور الموتى . فى بعض الأماكن كان الموتى يدفنون فى أرضية وحيطان الكنائس كما فى أجزاء من جنوب ألمانيا بينما تجمع بقايا الجثث فى سراديب كما فى باريس وروما . وفى القرى الزراعية فى شمال ألمانيا البروتستانتية تكون المقابر عادة صغيرة فى مساحاتها وشواهدها باهتة وذلك لأن المقابر تستخدم مرة تلو الأخرى فى كل خمس وأربعين سنة . أما فى المقابر الكاثوليكية تكون الشواهد أكبر حجما وملفتة للنظر أكثر من تلك المقامة على قبور البروتستانتيين . ولأن حرق جثث الموتى أكثر شيوعا عند البروتستانتيين فقد أدى ذلك إلى تقليل العلاقات الظاهرة فى مناطقهم . ومن أكثر المناظر الفاتا للنظر فى أوروبا تلك التى تتعلق باللاندسكيب المخصص لموتى الحرب مثل المقبرة الأمريكية ذات الشواهد الصليبية البيضاء فى أجزاء من غرب أوروبا ومقبرة السوفييت فى برلين الشرقية .

أما أسماء الأماكن فإنها تكشف الكثير عن تاريخ وحصارة الشعوب . وقد ترك الدين أثره فى ذلك . فى المناطق الكاثوليكية نجد كثيرا من المواضع التى سميت بأسماء القديسيين Saints وكذلك الحال فى مناطق الديانة الأرثودوكسية كما فى اليونان . وتقل الأسماء الدينية كلما اتجه شمالا حتى نصل إلى أقلها فى المناطق البروتستانتية : ومثلا نجد أن ٧٥٪ من المدن والقرى التى تحمل الاسم الدينى « سانت Sankt » فى ألمانيا توجد فى الجنوب الكاثوليكى و ٢١٪ منها فى بفاريا وحدها .

العلاقة المكانية بين الدين والاقتصاد :

للدين آثاره الواضحة على كثير من النشاطات البشرية مثل الزراعة والصناعة والسياحة والتجارة . فإذا أخذنا الزراعة مثلا فإن انتشار النباتات المستأنسة من مواطنها قد يكون مرتبطا بانتشار دين ما وخاصة إذا كان لمحصول غذائى معين دور فى الاحتفالات الدينية : فالسر المقدس للعشاء الرومانى Holy communion كما يمارس فى أوربا يتطلب استخدام النبيذ كرمز لدم المسيح وقد ساعد ذلك فى انتشار زراعة أشجار العنب شمالا من منطقة البحر المتوسط الى المناطق المسيحية فى شمال الألب . كما كان اليهود يستخدمون الأترج Citron فى بعض طقوسهم وقد حمل هؤلاء الأترج وربما فواكه حمضية أخرى معهم عند هجرتهم من أرض فلسطين القديمة وأدخلوها فى الجزء الأوروبى من منطقة البحر المتوسط . وقد حمل العرب المسلمون معهم إلى شبه جزيرة أيبريا البرتقال والليمون والأرز . وقد تتأثر الزراعة أيضا بتحريم الطعام والعمل (أى المحظورات منها) الذى يرتبط بعقيدة دينية معينة مثل غياب الخنازير من مناطق المسلمين فى ألبانيا وكثرتها فى أماكن المسيحيين لأن الإسلام يحرم أكل الخنزير . وكانت الاجازات الدينية من الكثرة فى أجزاء عديدة من أوروبا حتى تأثر الإنتاج الزراعى كما فى فرنسا فى القرن الرابع عشر حيث كانت الاحتفالات الدينية تشغل المزارعين عن أداء عملهم يوما فى كل أربعة أيام .

وهناك علاقات أساسية بين التقاويم الزراعية والدينية فاحتفالات عيد الفصح المسيحى Easter مشتقة أساسا من عيد الفصح اليهودى

Passover والذى كان فى الأصل احتفالا بحصاد الربيع : فكلمة تعنى Pascha فى اليونانية و Pasqua فى الايطالية . وهما مشتقتان أساسا من Pesach العبرية .

ومع انتشار المسيحية إلى شمال الألب فى مناطق أصبح الربيع فيها فصل زراعة بدلا من فصل حصاد أصبح احتفال عيد الفصح بديلا لاحتفال وثنى كان يقام لاستقبال والترحيب بحلول فصل الربيع ، ووفقا لذلك فإن الكلمة الجرمانية لعيد الفصح Easter اشتقت من اسم الهة الربيع Eostre أو Ostara . وتضمن الاحتفال المسيحى رموز الخصوبة الوثنية للربيع مثل الأرنب والبيض . وقد نتج من استيراد التقويم الزراعى للمسيحية الأولى واليهودية أن خلت الاحتفالات المسيحية من عيد مسيحى لحصاد الخريف ومن ثم استوعبت الكنيسة وأقرت دينيا بعض احتفالات الحصاد الوثنية الجرمانية مثل المايكلماس Michaelmas فى انجلتره (فى ٢٩ سبتمبر) . والهالوين Halloween (فى اكتوبر ٣١) .

ومن آثار الكنيسة على الزراعة تلك التى تتعلق بدورها فى إزالة الغابات من المناطق الواقعة إلى شمال الألب واحالتها إلى مناطق زراعية صالحة للاستيطان البشرى . وقد لعبت منظمات الراهب الأخوية دوراكبيرا فى هذا المضمار فى العصور الوسطى . وقد تركزت نشاطات هذه الجماعات الدينية فى إنشاء مستعمرات زراعية تابعة للأديرة فى الأصقاع الغابية والمستقعية .

ومن شرق فرنسا انتشرت الجماعة البندكتية Cistercian فى القرن الثانى عشر لتنشأ مستوطنات ديرية فى مناطق عديدة تمتد من صقلية إلى السويد ومن البرتغال إلى بولنده . فعلى يد هؤلاء الرهبان ، تساعدهم مجموعات من المزارعين تعمل تحت إرشاداتهم ، تم إزالة الغابات وتصريف المستنقعات كما انهم كانوا متورطين فى مشاريع استصلاح ضخمة فى شمال أسبانيا وأواسط أوروبا الشرقية . وقد تم الحصول عل هذه الأراضى بطريقتين :

١ - شراؤها بواسطة هذه الجمعيات الدينية .

٢ – تبرع بها ملاك الأراضى بوازع من رغبتهم فى تحويل هذه الأراضى العذراء إلى أماكن زراعية وتعمير ما خرب منها نتيجة الحروب .

وبعد استصلاح الأرض أصبح المزارعون الذين ساعدوا فى هذه العملية يعملون كاجراء فى الأراضى التى تملكها الجمعيات الدينية ، وهذا وضع يختلف قليلا من الإقطاعية . كما أن جزءا من هذه الأراضى المملوكة من قبل الجمعيات كان الرهبان يفلحونها كمزارع مشاعة او جماعية أو granges (أى مزرعة مجاورة للأديرة) .

وكانت المزرعة تتكون من قطعة مساحتها حوالى مائة هكتار من الأرض الزراعية وتحتوى فى وسطها على مجموعة من المبانى مرادفة لقرية مدنية عادية تحفظ فيها الحيوانات والرجال . وفى بعض أجزاء أوروبا ، مثل شمال انجلتره ، كان اهتمام الرهبان يتركز فى إنشاء مثل هذه المزارع بدلا من تشجيع الاستيطان بواسطة المزارعين . ومع مرور الزمن تحولت هذه المستوطنات الدينية إلى ملكية دنيوية وحولت المزراع إلى قرى وحلت سلطة ملاك الأراضى مكان السلطة الدينية وأصبح عمل الجمعيات الأخوية جزءا من التراث الاقتصادى الريفى لمعظم دول القارة . وحتى يومنا هذا نجد فى بعض الدول مثل اليونان أراضى كبيرة تملكها الكنيسة ويعمل فيها الرهبان .

وكان للكنيسة دور فى تطوير صناعة صيد الأسماك فى أوروبا . فهناك عادة مسيحية تحرم أكل اللحوم أيام الجمعة وخلال أعياد دينية عديدة . ومثلا تشجع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أكل السمك خلال فترات الصوم والتكفير أو التوبة وكذلك فى أيام الجمع مع أن هذه العادة الأخيرة قد أوقفت مؤخرا بمرسوم بابوى . ولهذا ليس مايستدعى العجب فى أن تكون شعوب الباسك والبريتانيين والبرتغاليين الكاثوليك الذين يسكنون بالقرب من السواحل ، من أكثر شعوب القارة احترافا لهذه المهنة ، وأن يحتل القديس بطرس St. Peter ، صياد السمك ، مكانة ذات قدسية فى قرى صائدى الأسماك الكاثوليك وفى اليونان الأرثودوكسية .

وتتجلى أهمية الكنيسة الكاثوليكية بالنسبة إلى صيد الأسماك فى الأزمة الاقتصادية التى أصابت هذه المهنة فى انجلترا عندما أزيلت القيود الغذائية

الكاثوليكية أثر انفصال الكنيسة الانجليكية فى القرن السادس عشر . فقد تحول كثير من الصيادين مجبرين إلى بحارة وساعدوا فيما بعد فى تلك الاكتشافات البحرية الانجليزية وانتشروا فى بقاع العالم المختلفة يمارسون القرصنة ويستعمرون المناطق .

وفى المناطق الكاثوليكية كانت الكنيسة سببا فى خروج تلك الرحلات الطويلة للحج الى اماكن مقدسة معينة . وتتفاوت هذه المواضع فى أهميتها وتتراوح من أضرحة صغيرة يؤمها المخلصون من الاتباع من المناطق المجاورة إلى تلك المواضع المشهورة عالميا ويقصدها الكاثوليك من جميع أنحاء أوروبا وأمريكا مثل «لوردس Lourdes » ، وهى مدينة فرنسية تقع عند سفح جبال البرانس فى حوض أكويتين Aquitaine حيث يزعم أن العذراء مريم ظهرت فى رؤيا ، ومدينة فاطمة Fatima الواقعة إلى الشمال من لشبونة فى البرتغال وتشتوكوا Czestochowa فى بولندة التى تمثل قلب الكاثوليكية البولندية . ويبلغ عدد الذين يقصدون مدينة لوردس مايقرب من مليونى شخص سنويا ولهذا تأتى هذه المدينة الصغيرة (سكانها ١٦٫٠٠٠ شخص) فى المرتبة الثانية بعد باريس فى عدد الفنادق التى بها .

ومن الظاهرات ذات الدلالة الجغرافية أن أماكن الحج هذه تتسم بتوزيع غير متساو فى داخل المنطقة الكاثوليكية ناهيك عن القارة . ففى فرنسا مثلا نجد أن مواضع الحج المكرسة للعذراء مريم تتركز فى الجنوب والغرب مع تجمعات منعزلة فى باقى أجزاء الدولة ، وتقل فى المناطق ذات الكثافة السكانية العالية . وفى مدينة صغيرة فى جنوب بفاريا تسمى «اوبرمرقاو Oberammergau » تطورت إحدى مسرحيات الآلام Passion play التى تعقد كل عشر سنوات فيها إلى نعمة مالية للإقليم كله لكثرة الذين يؤمونها خصيصا لهذا الغرض . أما مدينة الفاتيكان Vatican City فتجذب الملايين من الزوار الكاثوليك إلى روما كل عام . وحتى القرن الثامن عشر كانت الرحلات الطويلة فى أوروبا تتجه نحو روما ومراكز دينية أخرى قليلة مما أدى إلى تطوير طرق عديدة أساسا لمرور الحجاج مع بناء تكيات Hospices فى المناطق الوعرة على الطريق مثل الممرات الجبلية ، كما نشط الرهبان فى إقامة الكبارى على هذه الطرق .

أما فيما يتعلق بالصناعة والدين فإن حركة الإصلاح البروتستانتى لعبت دورا مهما فى النهضة الصناعية فى شمال غرب القارة التى وصلت أوجها فى الثورة الصناعية فى بريطانيا . فقد كانت الكنيسة فى العصور الوسطى تمنع المسيحيين من قرض الأموال بفائدة ، ولما قامت الحركة البروتستانتية رفعت الحظر على الربا ويبدو أن تراكم الأموال الذى نتج من ذلك كان دافعا لمزيد من التجارة والصناعة فى الأراضى الجرمانية ، وسبق أن ركز اليهود أنفسهم فى مناطق عديدة فى أوروبا كمرابين وقد اقترح بعض العلماء ان الخصائص الديناميكية للديانة البروتستانتية ورغبة معتنقيها فى التغيير والعمل من أجل التحسين وآداب المهنة الشاقة والعمل المتواصل والمثابرة كانت من السوابق الاجتماعية للثورة الصناعية . وربما كانت هذه الأسباب هى التى أدت إلى ظهور الصناعة مبكرا فى المناطق التى توفرت فيها مقومات الصناعة من فحم وحديد . ومن الأسباب التى أدت إلى النهضة الصناعية هذه ذلك الاضطهاد الذى تعرض له الهيوغون والبروتستانت الفلمنكيون على يد الكاثوليك وهجرتهم بمهاراتهم الحرفية إلى إنجلترا وشمال ألمانيا وهولنده . وهذا لايعنى أن الكاثوليكية الرومانية كانت ضد التصنيع ، فهى قد ساعدت بوسائل مختلفة فى تقدم الصناعة ، فالأديرة كانت تضم رهبان مهرة كانوا يقومون بعمل كل شئ من الأنسجة المطرزة المزدانة بالصور والرسوم إلى المشروبات الروحية ، وقد استفاد السكان المحليون من هذه المهارة مما أدى إلى تحسين أوضاعهم المالية .

أما من ناحية تشجيع التجارة ، فإن القيود أو الاحتياجات الناتجة من الشعائر الدينية كانت كثيرا ما تشجع التجارة بين الأقاليم المختلفة . فقد أدى اعتناق الأيرلنديين للديانة المسيحية إلى استيراد النبيذ من إقليم بوردو الفرنسى كما أن حركة النبيذ من الجنوب إلى الشمال ازدادت بعد اعتناق الشعب الجرمانى فى اسكندناوه الدين المسيحى . وجعلت متطلبات الغذاء الكاثوليكى دولا ذات بحار مجاورة فقيرة فى السمك مثل اسبانيا وايطاليا تعتمد على السمك المجفف المستورد من أجزاء اوروبا المطلة على المحيط الاطلسى . وحديثا قامت تجارة فى جثث الموتى بين لوكسمبورج ومنطقة شمال شرق فرنسا المتاخمة : فالكنيسة تحرم حرق الجثث فى الدولة الاولى وتقوم مستودعات الجثث الفرنسية بأداء هذه الخدمة لسكان لوكسمبورج الذين يرغبونها لموتاهم .

أثر الأديان فى الجغرافية السياسية :

يتخذ التفاعل المكانى بين الدين والسياسة أشكالا وصورا متعددة فى أوروبا ، وأهم هذه الصور هو الدور الذى يلعبه الدين كأساس للقومية فى بعض الدول . فالدين لعب دورا مهما فى توحيد الحركات الاستقلالية وجمع شملها كما فى جمهورية أيرلندة حيث تكون الديانة الكاثوليكية أساس قوميتها تماما كما فى بولندة ، كما يربط بين الشعب الأسبانى الذى يتميز بالتنوع العرقى والشكلى وكذلك فى اليونان حيث لعبت الأرثودوكسية دورا مهما فى حركتها القومية ، وفى القرن التاسع عشر تسبب خلاف كاثوليكى – بروتستانتى بين الهولنديين والفلمنكيين إلى الانفصال عن البعض وتأسيس دول مستقلة رغم قرابتهم اللغوية ويرجع السبب فى وجود مدينة الفاتكان المستقلة إلى وظيفتها كمقر للبابا.وقد ظلت أجزاء كثيرة من القارة تحت حكم الكنيسة المباشر فى العصور الوسطى . ويكمن الاختلاف الدينى بين الفئات المتصارعة فى أيرلندة الشمالية وراء الحرب الاهلية التى تجتاح تلك الدولة حديثا . فالأغلبية البروتستانتية وجدت طريقها إلى أيرلندة فى القرن السابع عشر وكانت النتيجة أن هذه المنطقة بقيت جزءاً من المملكة المتحدة عندما استقلت أيرلندة الحرة فى عام ١٩٢٠ م ورسمت الحدود تاركة أقاليم ريفية كاثوليكية كبيرة داخل أيرلندة الشمالية مما أثار القلاقل وأدت إلى الحرب الحالية .

ويظهر أثر الدين على السياسة فى نمط الاقتراع عند الانتخابات وفى عضوية الاحزاب السياسية فى بعض الدول الأوروبية . ففى ألمانيا مثلا قامت أحزاب سياسية على الانتساب الدينى ، وكذلك الحال فى هولنده وإيطاليا . فحزب الشعب الكاثوليكى فى هولنده (C.P.P.) تستمد شعبيتها من الأجزاء الجنوبية من القطر حيث يتركز الكاثوليك بينما توجد أحزاب بروتستانتية فى الشمال . وغالبا ماتحمل هذه الأحزاب اسم « الديمقراطى المسيحى» لتؤكد ارتباطها بالكنيسة . ونتيجة لذلك تظهر أنماط الاقتراع أو التصويت فى هذه البلدان توافقا وثيقا مع الأنماط الدينية ، ففى هولنده يوجد حزبان مرتبطان بالكنيسة الهولندية المصلحة والكنيسة الكاثوليكية كما أن هناك أحزاب كاثوليكية فى إيطاليا والنمسا . وكان حزب الوسط فى ألمانيا ماقبل

الحرب مرتبطا بالكاثوليكية وتستمد شعبيتها من مؤيديها فى الولايات الجنوبية مثل بفاريا وويستفاليا وأرض الراين والمناطق التى يسكنها البولنديون فى الشرق.

ويتأثر نمط توزيع الأديان كثيرا بقرار الأنظمة الحكومية فى قبول أو تبنى دين معين لسبب من الأسباب : فلولا اعتناق الإمبراطور الرومانى قسطنطين المسيحية لما انتشر هذا الدين فى أوروبا ، ولو لم يتبن عدد من حكام ألمانيا واسكندناوه ديانته وأعطوه الحماية لهلك مارتن لوثر قبل أن ترى دعوته النور . وكان من الأهمية بمكان أن تكون الكنيسة قد حصلت على وضع الديانة الرسمية للدولة المعنية ، وحيثما وجدت الحركة البروتستانتية مثل هذه الحماية كما فى انجلترا واسكندناوه ودول ألمانيا المختلفة واسكندناوة ازدهرت الديانة وضمنت بقاءها واستمراريتها . ولذلك لم تستطع البروتستانتية أن تثبت أقدامها فى الأماكن التى كانت فيها الكاثوليكية قوية وتمثل الدين الشرعى. ولكن الدول تختلف كثيرا فى درجة ومستوى موالاتها للكنيسة الرسمية . وبينما نجد هذه الموالاة والإخلاص على أشده فى أسبانيا وكذلك فى بلجيكا التى تأثرت بالروح الأسبانية أثناء حكم الأخيرة لها (١٥٠٦ - ١٧١٣) ، لا يهتم الفرنسيون بالدين كثيرا ويظهر هذا الاختلاف بين الدولتين فى درجة الموالاة للكنيسة فى الحضور للصلاة والذهاب إلى الكنيسة ، فنسبة الحضور من البلجيكيين أعلا بكثير بالمقارنة مع الفرنسيين.

الدين وديمغرافية السكان :

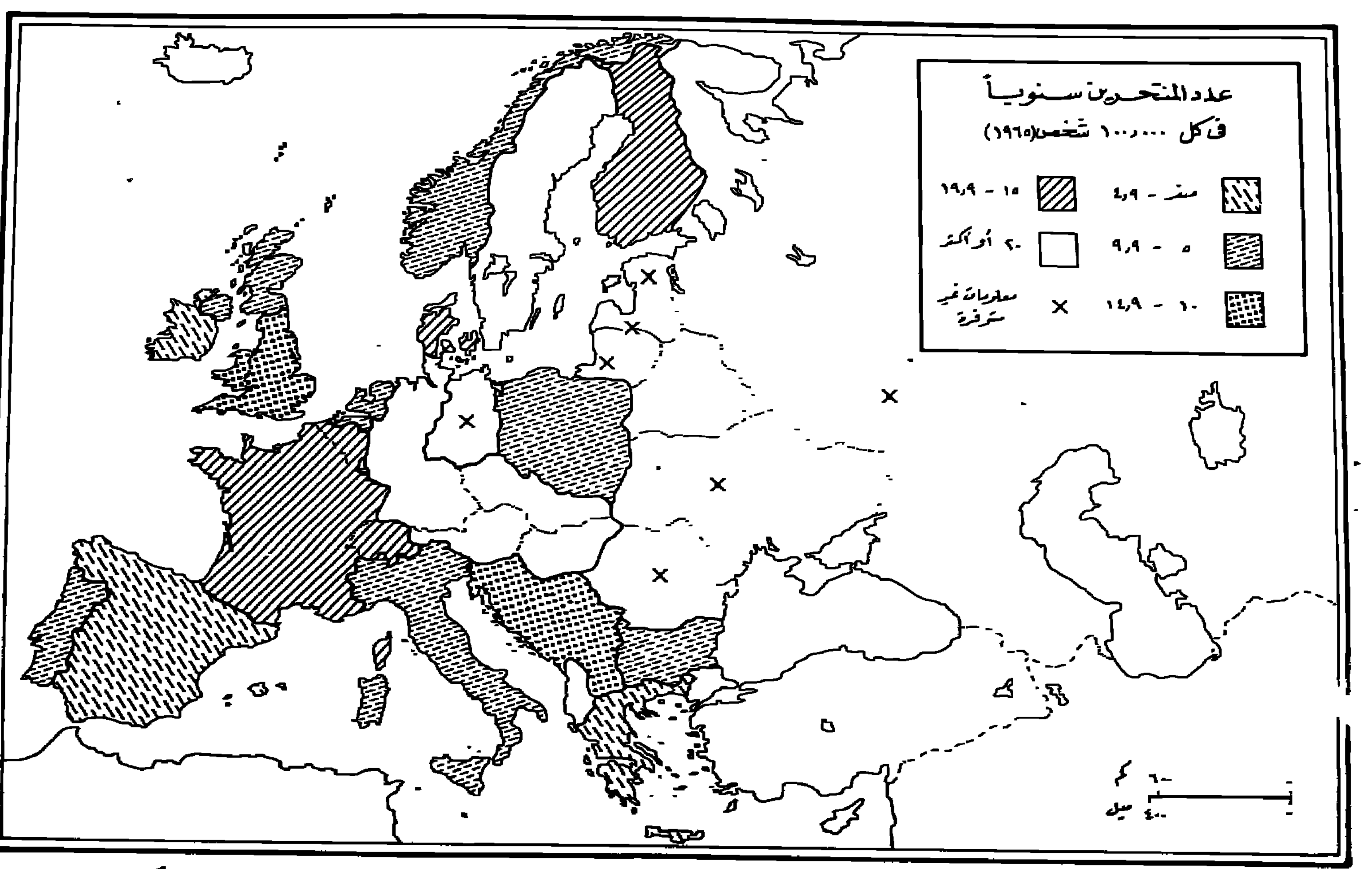
تتأثر خصائص ديمغرافية معينة للسكان مثل التوزيع ونسبة المواليد بعوامل دينية . ففى مراحل انتشار المسيحية الأولى استطاعت الوثنية أن تصمد أكثر فى المناطق ذات التشتت السكانى بينما اعتنقت المدن ذات الكثافة السكانية العالية الدين فى وقت مبكر. ومازال بعض سكان الريف فى أوروبا يؤمنون بالشعوذة حتى يومنا هذا وفى وقت قريب حدث أن حاول المزارعون فى بفاريا إحراق امرأة لاتهامها بممارسة الشعوذة. أما الآن فقد اختلف الوضع عما كان عليه فى مراحل انتشار المسيحية الأولى : فكل الكنائس الثلاثة تحتفظ الآن بحيويتها ونشاطها فى المناطق الريفية بينما تتميز المدن وأماكن تجمعات السكان الأخرى بكثرة المارقين من الدين

وضآلة نفوذ الدين المنظم فى أوساطهم . ولسوء حظ الكنيسة أن نسبة التحضر تزداد من يوم لآخر فى أوروبا .

وتؤثر عوامل دينية تحركات الناس فى أوروبا من منطقة لاخرى ، ويحظى الكاثوليك بحرية الحركة لأنهم لايرتبطون بمكان ما أو يتقيدون به وفق معتقدات دينية مثل بعض شعوب الشرق الذين يلازمون موضعا معينا لأن أجدادهم دفنوا فيها . وقد ساعدت حركة الانتقال والحركة هذه كثيرا من الأوربيين فى الهجرة إلى الأراضى الجديدة فى الأمريكتين وأستراليا . ولكن الصراع الدينى قد أدى فى بعض الاحيان إلى هجرة مجموعات من منطقة لاخرى مثل طرد المسلمين واليهود من أسبانيا وهجرة طائفة تجديد العماد إلى شرق أوروبا وهروب بروتستانتى سالزبيرج إلى شمال ألمانيا وهجرة الهوسيين Hussites (وهم جماعة منشقة هرطقية قبل ظهور لوثر) من التشيك Ceske . وفى الآونة الاخيرة يبدو أن الدين قد أحدث تباينا اقليميا فى نسبة المواليد ، فقد لاحظ الجغرافيون الفرنسيون نسبة عالية للمواليد فى المناطق التى تتميز بنفوذ قوى للكنيسة مثل الزاس وبريتانى بينما تظهر بعض المناطق التى شهدت تقلصا فى النفوذ الدينى مثل نورماندى وأكويتين أدنى نسبة مواليد فى فرنسا .

ومن ناحية أخرى فان ماتطلبه الكنيسة الكاثوليكية والارثودوكسية من تبتل وعزوبة للقساوسة والرهبان والراهبات تحرم جزءا من السكان من الإنجاب مما يؤدى إلى انخفاص فى الخصوبة ، وهناك مثال متطرف لهذا التحريم نجده فى جمهورية أثوس Athos الدينية ذات الحكم الذاتى فى شمال اليونان الذى يتكون سكانها من ٢٧٠٠ رجل فقط (مساحتها ٤٠٠كم٢) منهم ٢٠٠٠ راهب عازب ، ويحرم النساء حتى من زيارة المنطقة .

وتقل نسبة المنتحرين أيضا فى المناطق التى يقوى فيها نفوذ الكنيسة ، ويكاد يكون الانتحار معدوما فى اشباه الجزر الجنوبية لموقف الكنيسة القوى ضد الانتحار . بينما ترتفع نسبة المنتحرين فى المناطق التى شهدت تقلصا فى النفوذ الدينى كما فى اسكندناوه والمانيا وعامة نلاحظ ارتفاعا فى هذه النسبة فى الدول البروتستانتية بالمقارنة مع الدول الكاثوليكية . ورغم أن هناك دوافع اخرى قد يدفع بالناس إلى الانتحار فان الايمان القوى بالدين يقلل من نسبتها ويقف حائلا نفسيا ضد ارتكاب هذه الجريمة .



عدد المنتحرين سنوياً
في كل ١٠٠,٠٠٠ شخص (١٩٦٥)
صفر - ٤,٩
١٥ - ١٩,٩
٥ - ٩,٩
٢٠ أو أكثر
١٠ - ١٤,٩
معلومات غير متوفرة
٦٠٠ كم
٤٠٠ ميل

شكل (٣٩)

الفصل الثامن

جغرافية أوروبا السياسية

تختص الجغرافية السياسية جزئيا بدراسة العوامل الجغرافية من طبيعية وحضارية التي تؤثر فى تكوين وتطور واندثار الدول أو الإمبراطوريات . والأمم التى تتكون منها هذه الدول ما هى إلا نتاج عدد من القوى الداخلية والخارجية المعقدة . ومن مهام الجغرافى السياسى أن يتعرف على هذه القوى وتقييمها لكى يعرف أسباب ازدهار ونجاح بعض الدول وفشل واضمحلال بعضها ، ولماذا تتوسع دول وتنكمش أخريات . وفى دراسة جغرافية القارة الأوروبية تكتسب جغرافيتها السياسية أهمية كبرى ليس لأن هذه المنطقة الحضارية تتسم بالتجزئة والانقسام إلى شعوب كبيرة مستقلة فحسب بل أيضا لأن ليس هناك جزء آخر من العالم أنتج دولا بمثل هذه الكثرة . وأنجب دولا لعبت . وما زالت تلعب ، أدوارا رئيسية فى العالم مثل أوروبا . ولذا ليس من الغريب أن يهتم الدارسون بالنمط السياسى الحالى فى أوروبا كأهم مدخل لدراسة جغرافيتها . فالتنوع المكانى هو الذى يجذب اهتمام الجغرافى ، وكان لابد للتنوع السياسى أن يستحوذ على جزء كبير من هذا الاهتمام ويتعرض للدراسة وللفحص ، والسؤال هو كيف ولماذا صنع الإنسان هذا النمط من الوحدات السياسية التى تحتل منطقة الحضارة الأوربية ؟

(أ) الحقيقة الإقليمية :

يقرر علماء الحيوان أن سلوك كثير من أصناف الحيوانات يتأثر جزئيا بما أسموه بالغريزة الإقليمية Territorial instinct . وهى عبارة عن دافع إجبارى لا يقاوم لامتلاك موضع سكنى والدفاع عنه إما فرادى أو كأعضاء فى مجموعة . ومثل هذا الإقليم يشمل غالبا على مركز heartland يحمى ساكنيه ويبعث الاستقرار والأمن فى نفوسهم . ومنطقة هامشية periphery حيث تقابلهم التحديات

الإقليمية من المجموعات المنافسة . وبالإضافة إلى الحماية والاستقرار فإن الإقليم يمنح شعورا بالذات والكينونة لهذه الحيوانات مما يشبع حاجتهم الأساسية للانتماء .

وقد بدا عدد متزايد من العلماء الاجتماعيين ومن ضمنهم الجغرافيين فى الاعتقاد بأن الإنسان أيضا حيوان إقليمى يتأثر بنفس الدافع الغريزى الذى يؤثر على الحيوانات . ويشعر هؤلاء العلماء بأن السلوك البشرى نتاج أقرب إلى الأصل الحيوانى منه إلى الحضارات التى أقامتها مؤخرا . ولكن مفهوم الغريزة الإقليمية لدى الإنسان ما زال يثير كثيرا من الجدل حوله لأن الارتباط بإقليم معين يمكن أن يكتسب بدلا من أن يكون غريزيا ، كما يمكن أن يكون مصدره من العقل بدلا من الوراثة . ولكن يبدو أن نزعة الإقليمية عند كل مجموعة بشرية توحى بأن هذه النزعة مكتسبة وراثيا .

تتمثل هذه النزعة الإقليمية عند الإنسان فى الحواجز أو الأسوار الخاصة التى يقيمها حول منزله أو مزرعته ، ويمكن أن نلاحظها فى حائط برلين المشهور أو الحدود الدولية ، وفى لافتات « ممنوع الدخول أو التعدى » أو الحماس الذى يندلع عندما يتعرض الوطن إلى غزو خارجى وفى هتافات عشاق الكرة لفريقهم المحلى إلى غير ذلك من الأمثلة العديدة .. ومن الاحتياجات الأساسية والبدائية للإنسان ، سواء أن كانت مكتسبة أو موروثة ، أن ينتمى إلى مجموعة وأن تكون لهذه المجموعة مساحة أرض أو إقليم يخصهم تمارس فيه نشاطاتها . وتتمثل هذه الحاجة للإقليم فى أصغر مستوى فى المنزل والعائلة ثم تتوسع تدريجيا لتشمل العائلة الموسعة ثم البطن فالقبيلة إلى الأحياء الخاصة فالجاليات فالمنطقة فالمقاطعة إلى أن تصل إلى آخر مراحل التطور الإقليمى أى الدولة أو الأمة ... ويمكن أن تكون العضوية فى المجموعة أو الشعور بالانتماء ، مبنية على علاقة الدم أو فى مستوى أرقى على لغة مشتركة أو ديانة مشتركة أو تاريخ مشترك أو الطاعة لحاكم معين ... الخ . وهذا الشعور بالانتماء والروح الجماعية هو أساس القومية التى تمثل أساس الوطنية . ونادرا ما تفشل مجموعة بشرية فى السيطرة على أى نوع من الأقاليم سواء أن كان هذا النوع فناء منزل أو منطقة نفوذ عصابة فى أحد شوارع أحياء الأقليات ghetto فى نيويورك أو ملجأ جبلى لقبيلة

سلتية Celtic أو امتداد إمبراطورية أو دولة . وإذا حرمت مجموعة من إقليمها فلابد أن تحصل على آخر قد يكون أصغر مساحة وإلا فإن مصيرها كمجموعة مميزة سيؤول إلى الهلاك والفناء .

(ب) القوى الجاذبة والطاردة Centripetal & Centrifugal

تختلف الدول فى درجة القوى التى تستمدها من القاعدة أو الضرورة الإقليمية ، ومن ثم فى درجة وحدتها ، أو بصورة أخرى من الأفضل أن يكون سكان دولة معينة مكونا من مجموعة واحدة وأن يتطابق الإقليم القومى مع إقليم تلك المجموعة . فإن وجود مجموعات متنافسة ومتناحرة داخل دولة غالبا ما يؤدى إلى مشاكل وربما تفتت الدولة وانقسامها فى النهاية .

فالقوى الجاذبة Centripetal forces هى تلك التى تدفع السكان إلى التماسك وتجمعهم وتعطيهم كمجموعة شعورا بالذات والانتماء ، كما أن هناك قوة باعثة موحدة ، قوة موحدة تبرز فوق كل القوى فى أى دولة من الدول ، وهذه القوة يطلق عليها « سبب الوجود أو السبب وراء الوجود » « Raison d'etre » . وقد يتمثل هذا السبب فى دولة ما فى اللغة ، وفى دولة ثانية فى الدين وفى أخرى فى الولاء لعائلة حاكمة ... الخ . أما القوى الطاردة centrifugal forces فهى على النقيض تلك التى تنتج من التنوع والتناقض فى داخل دولة والتى تحول دون الوحدة . ولكى تعيش وتبقى لابد لكل أمة أن تحصل على توازن مناسب لهذه القوى حتى تطغى القوى الجاذبة على القوى الطاردة ، والآن نتعرض لدراسة بعض هذه العناصر ..

(١) اللغة :

تعتبر اللغة من أقوى القوى الداخلية فى أوروبا ، فالتجانس اللغوى فى سكان دولة تشجع الوحدة القومية وتساهم فى خدمة الإقليمية على أحسن وجه . أما إذا كانت هناك لغات عدة يتكلمها السكان فإن ذلك مدعاة لعدم الاستقرار فى تلك الدولة . ومنذ حروب نابليون أصبحت اللغة والقومية كلمتان مترادفتان وهذه ظاهرة

لم تكن موجودة دائما : فالدول التقليدية التى قامت قبل عهد نابليون كانت تتوسع وتمتد بصرف النظر عن لغة سكان المناطق المقهورة أو صفاتها الحضارية . وكانت الإمبراطورية النمساوية – المجرية تضم مواطنين يتكلمون الألمانية والمجرية والبولندية والشيكية والإيطالية والسلوفينية والرومانية والسلوفاكية ولغات أخرى . كما أن قادة فرنسا كانوا يتطلعون إلى الراين الذى يسكنه الألمان كحدود شرقية طبيعية لدولتهم بصرف النظر عن لغة الشعب فى هذه المنطقة ، وضمت الامبراطورية الرومانية مناطق بولندية كبيرة عن طيب خاطر ، وتجاهلت انجلتره مطالب السلت Celts بالاستقلال منها فى حين أن روسيا ضمت عدة مئات من المجموعات الأقلية .

ولكن بعد ظهور القومية اللغوية فى القرنين التاسع عشر والعشرين أخذت خريطة أوروبا السياسية تتعدل تدريجيا لتحقيق توافق معقول بين الشعوب واللغات ، وقد تحققت هذه التعديلات إلا فى بعض الحالات المستعصية . فأثناء عملية التعديل حدث كثيرا أن ينقل الناس من أماكنهم بدلا من زحزحة الحدود كما أشرنا من قبل فى الجزء الخاص بالسكان عن الشعوب التى أجبرت للتحرك من منطقة لأخرى أثناء هذه الفترة .

ويستخدم العلماء السياسيون والجغرافيون السياسيون تعبير « الأمة الدولة Nation - State » فى وصف قطر متماسك تربطه سويا صفة ثقافية مثل اللغة . « فالأمة » عبارة عن مجموعة متماسكة من الناس تجمعهم خصائص أو صفات ومعتقدات معينة بينما « الدولة » تمثل كينونة مساحية (مكانية) منظمة كتعبير سياسى للأمة . وفكرة « الأمة الدولة » أصلا أوروبية المنشأ ، ولكنها انتشرت إلى أجزاء كثيرة من العالم فى القرن العشرين . وهذه الفكرة التى تنادى بأن كل أمة لها الحق فى أن تكون مستقلة سياسيا جلبت لأوروبا والعالم مشاكل أكثر بدلا من الفائدة : فنقل الشعوب قسرا من منطقة تواجدهم إلى مناطق أخرى والذى تم فى هذا القرن ما هو الا نتيجة مفهوم « الأمة – الدولة » ، كما أن الحروب الضارية التى اندلعت فى أوروبا كان سببها أيضا هذا المفهوم .

واليوم تمثل اللغة القوة الجاذبة الرئيسية عند كثير من الشعوب الأوروبية . ولكن

ما زالت قوى طاردة تمزق وحدة بعضها مثل بلجيكا حيث يتنافس الفلمنكيون الألمان مع الولون Walloons الفرنسيين فى السيطرة والسيادة على حكم البلاد ، وأسبانيا حيث القسطليون Castilians يحاولون استعادة سيطرتهم السابقة على القطلونين Catalonians والغاليشيين Galicians والباسك Basques . وفى تشيكوسلوفاكيا ما قبل الحرب عندما كان التشيكيون والألمان فى إقليم سوديتز Sudeten يتنازعون فيما بينهم ، كما أن معظم نزاعات الحدود التى كانت تنشب حتى وقت قريب بين شعوب أوروبا كانت تدور حول الأقليات اللغوية مثل المحاولات لضم والصراع حول ، الزاس واللورين وتايرول الجنوبية South Tirol والرواق البولندى وحوض كالجنفورت Klagenfurt

(٢) الدين :

رغم أن الدين لم تعد له أهميته السابقة ونفوذه القديم عند معظم الأوروبيين ، فإن الكنيسة ما زالت تمثل قوة سياسية مهمة عند كثيرمن الشعوب . فإن من المرغوب فيه لصالح الوحدة القومية ، أن ينتمى كل أو معظم سكان دولة ما إلى دين واحد أو كنيسة واحدة لأن التنوع والاختلاف الدينى يمكن أن يصبح قوة طاردة رئيسية تهدد وحدة واستقرار هذه الدولة . فما تشهده أيرلنده الشمالية اليوم من أحداث وصراعات دموية يرجع إلى حد كبير إلى أن الأساس الحقيق للقومية الأيرلندية قائم على الكاثوليكية بعد أن اندثرت مقومات الثقافة السلتية الأخرى المتمثلة فى اللغة والقبيلة ، وبقى الدين رمزا لهذه القومية . ولهذا يشعر الكاثوليكيون الذين يعيشون فى أيرلنده الشمالية ، وهى جزء من المملكة المتحدة ، بأنهم محرومون من حقوقهم كأمة . وحتى فى ألمانيا الغربية ورغم الانحسار الذى تشهده المسيحية فى شعبيتها ، فقد احتاطت الحكومة منذ عام ١٩٤٩ إلى إيجاد توازن فى وظيفة المستشار ورئيس الجمهورية بين الكاثوليك والبروتستانت . فعندما كان كونراد أديناور الكاثوليكى مستشارًا لألمانيا كان البروتستانتى تيودور هيوس يحتل رئاسة الجمهورية ، وهذا التقليد يتبع منذ ذلك الوقت .

أما بالنسبة لبعض شعوب أوروبا فالكنيسة ما زالت تكون أساس قوميتها .

وهذا ينطبق ليس على جمهورية أيرلندة فقط بل بلجيكا الكاثوليكية أيضا ، ثم بولندة واليونان وأسبانيا وإيطاليا على قدر بسيط . وعبر التاريخ تعرضت الأقليات الدينية لحملات ابادة مثلما حدث للأقليات اللغوية فى القرن العشرين وبنفس الضراوة . فقد لجأت فرنسا الكاثوليكية إلى طرد أو إبادة الهيوقون الكالفينيين Calvinist Huguenots وعانى من نفس المصير بروتستانتو سالزبورج على يد الألمان الكاثوليك . وقليل تلك الدول الأوروبية التى استطاعت أن تجمع بنجاح شعوبا ذات معتقدات دينية مختلفة ، وحتى فى بعض الحالات التى أمكن التغلب فيها على هذه القوة الطاردة تحقق التسامح الدينى بعد صراع طويل كما حدث فى حرب الثلاثين سنة فى ألمانيا . وقد أدى فشل كل من المملكة المتحدة وهولندة فى الوصول إلى تناغم وانسجام مع الأقليات الكاثوليكية إلى انفصال الأيرلنديين والفليمنكيين Flemings . كما أن توحيد ألمانيا فى عام ١٨٧١ تم فقط بعد هزيمة النمسا الكاثوليكية وإقصائها من الوحدة .

(٣) الجنس :

كثيرا ما تتعرض الدول التى يتكون سكانها من أجناس مختلفة إلى عدم استقرار داخلى . وقد خلت أوروبا من مثل هذه المشاكل الناجمة من التباين السلالى بالمقارنة مع أجزاء كثيرة من العالم وذلك لسبب بسيط وهو أن سكانها ينتمون إلى العنصر أو السلالة القوقازية . وموضوع « الجنس » الذى أثارته النازية كان فى حقيقته دينيا وثقافيا فى جوهره لأن اليهود ينحدرون أيضا من أصل قوقازى . وعلى النقيض من الدول التى تعانى من المشاكل الجنسية مثل كينيا وجنوب أفريقيا والسودان والولايات المتحدة ، فإن شعوب أوروبا ليست لديها مشاكل من هذا القبيل ، إلا فى بعض المناطق مثل المملكة المتحدة حيث نزحت إليها حديثا أعداد ضخمة من الهنود وزنوج الهند الغربية محدثا وضعا قد يؤدى إلى قلاقل سياسية فى المستقبل .

(٤) التاريخ المشترك :

تستمد الوطنية معظم قوتها الحيوية من التجارب التاريخية المشتركة بين مجموعة

بشرية وأسلافها ، فإن ذكرى حرب استقلال كما فى اليونان وسويسره وطرد الغزاة الأجانب من فرنسا فى الحرب العالمية الأولى أو الاتحاد السوفيتى فى الحرب الثانية وأفعال الأبطال القوميين مثل « وليام تل » Tell و « جان دارك »، وألسيد El cid كلهـــا تلعب دورا فى تماســـك وتلاحم الشعوب ومن ثم الوحدة القومية . وليس من المفروض أن تكون هذه الذكرى سعيدة لكى تجمع الناس سويا ، فإن الهزائم وفترات الاضطهاد والسيطرة الطويلة التى عانى منها البولنديون والبلطيقيون والتشيكيون ، قد تقوى القومية وتعمق الشعور بالذات عند المجموعة ، كما ليس من المهم أن يكون الأبطال حقيقيين . فإن الأفعال الأسطورية والشحصيات الخيالية قد تبعث وتثير الشعور القومى كما يثيره الأبطال الحقيقيون . وليس من المهم أيضا أن تكون بطلة قومية مثل « جان دارك » ابنة مزارع تعرضت للحرق أو أن تكون كما اقترح البعض امرأة من النبلاء متواطئة فى مؤامرة لخداع المزارعين الفرنسيين وحملهم على مساندة العرش فى صراع طويل ضد الانجليز ، بل المهم أن الفرنسيين كانوا يعتقدون فى أصل منشأها البسيط وفى بطولتها وفى كونها ماتت فى سبيل الوطن .

ومن الناحية المثالية فعلى أى شعب أن يشعر أن الدولة موجودة لأنهم أو أجدادهم هم الذين أنشأوها ودافعوا عنها ضد القوى الخارجية . وإذا فقد هذا الشعور كما فى الدول التى تخلقها أو تفرضها قوى خارجية بدلا من سكانها ، تصاب القومية بالضعف ويفقد سبب الوجود معناه ويصبح فارغ المعنى .

(٥) الفلسفة السياسية – الاقتصادية :

لا يفضل أن يوجد تشعب أو اختلاف كبير فى الفلسفة الاقتصادية والسياسية بين سكان دولة واحدة ، على الأقل فى وضع يكثر فيه المؤيدون لأيدلوجيات منافسة كما يفضل أن يكون شعب ما متحداً فى رغبته لنظام الحكم الذى يرتضيه سواء كان هذا النظام ديمقراطيا أو ملكيا أو دينيا أو دكتاتوريا أو رأسماليا أو اشتراكيا أو شيوعيا ، ولا يحتاج أن يكون ما يفضلونه من نظام هو النظام الفعلى الذى يحكم البلاد على أساسه لأن الوحدة القومية يمكن أن تزدهر وتقوى بالرغبة العامة للتغيير .

وإذا كانت الدولة تضم مجموعات ذات أيدولوجيات سياسية واقتصادية منافسة

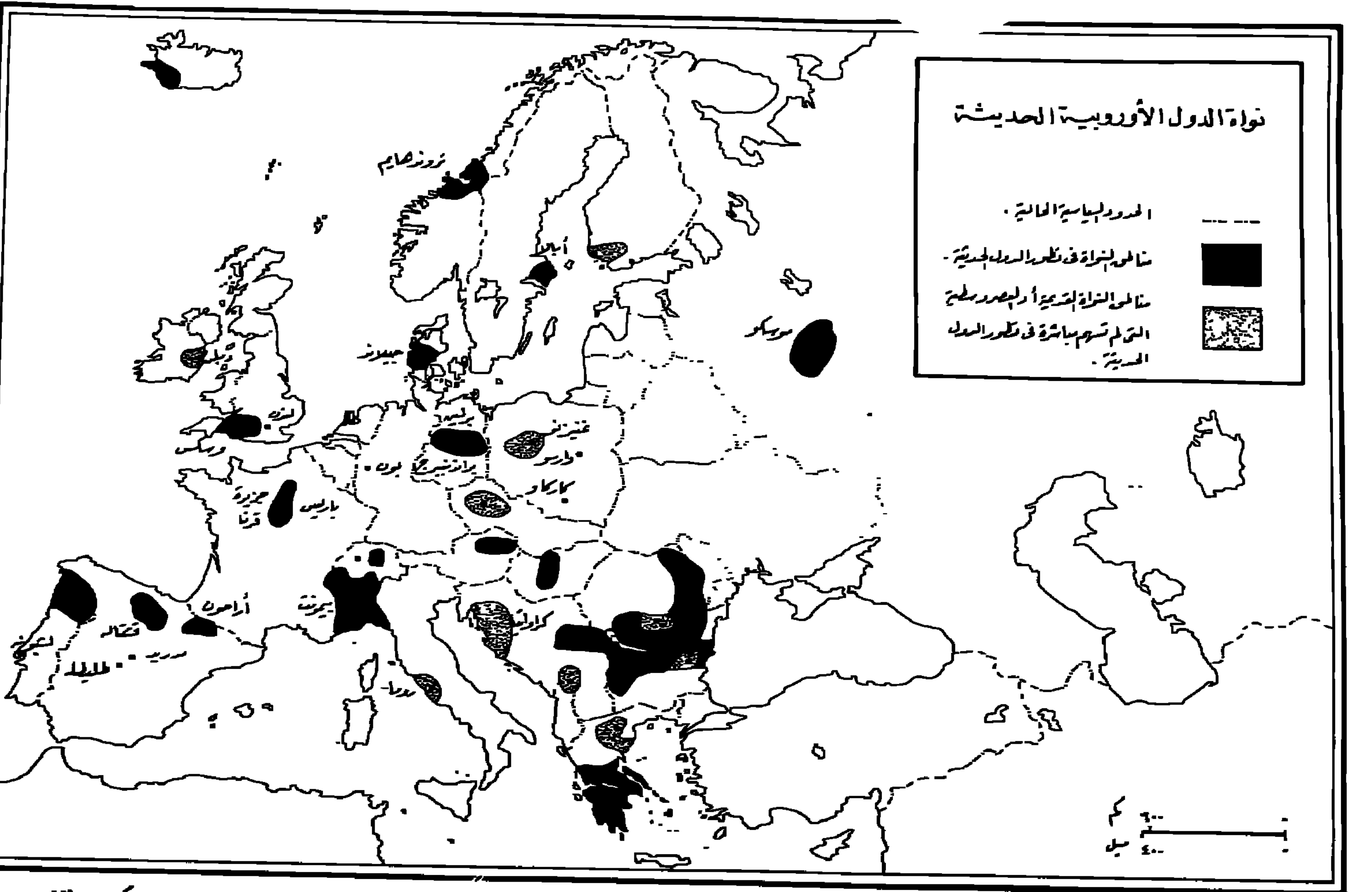
فإن عدم الاستقرار الذى ينتج من ذلك يؤدى فى الحالات المتطرفة إلى الانفصال أو الحرب الأهلية وتحطيم الدولة . فأسبانيا مثلا كانت مهددة بانقسامات دائمة أثناء الحرب الأهلية فى ثلاثينيات هذا القرن عندما كان « المخلصون » يحاولون صد قوات الجنرال فرانكو . فلو لم تتغلب إحدى هذه القوى على الأخرى لأصبحت هناك دولتان أسبانيتان اليوم . أما ألمانيا فقد كانت أقل حظا من أسبانيا لأن هناك ألمانيتان ذات نظم سياسية واقتصادية متباينة ساعدت فى استمراريتهما قوى خارجية . وإذا شاءت الظروف الدولية أن تتوحد الدولتان فإن مشاكل رئيسية قد تتمخض عن ذلك : فقد يرفض سكان ألمانيا الشرقية بعد خمس وعشرين سنة من حكم الشيوعيين نظام الحكم والاقتصاد السائد فى ألمانيا الغربية . وفى مثل هذه الحالة فإن إعادة توحيد الدولتين قد تتحطم نتيجة الاختلاف والتباين بين الألمان أنفسهم .

(٦) مستوى المعيشة :

وقد تتعرض الوحدة القومية للخطر إذا كان هناك تباين فى مستوى المعيشة بين مجموعات السكان خاصة إذا كان الذين يعانون من مستوى أقل يشكلون جزءا كبيرا منه . وقد يتفاقم الوضع إذا كانت هذه المجموعات الاقتصادية المتباينة تعيش فى مناطق منفصلة من الدولة . ومثلا تتميز إيطاليا بوجود جزئين متباينين فيها : الجزء الشمالى حيث تتركز الصناعة والتقدم والثراء والجزء الجنوبى المتأخر الفقير . ويرجع أصل هذا التنافس إلى العصور الوسطى . ولكن نسبة للهجرة المتواصلة من الجنوب إلى الشمال سعيا وراء العمل فقد خفت حدة التوتر وذلك بإتاحة الفرصة للجنوبيين للوصول إلى مستوى معيشى أفضل ، كما تقوم الحكومة الإيطالية بمحاولات جادة لتصنيع الجنوب لغرض إزالة الفقر والتأخر فيه . وتضم تشيكوسلوفاكيا أيضا منطقة سلوفينا Slovenia المتأخرة فى الشرق ومنطقتى بوهيميا ومورافا الصناعيتين فى الغرب . اللتين بدورهما تعانيان من اختلافات لغوية مما يساعد فى التباعد بينهما .

(٧) مناطق النواة والعواصم Core Areas : (الشكل ٣٠)

نشأت دول عديدة ، ومن ضمنها الغالبية العظمى من الدول الحالية فى اوروبا .


نواة الدول الأوروبية الحديثة
الحدود السياسية الحالية .
مناطق النواة في تطور الدول الحديثة .
مناطق النواة القديمة أو المصدر
التي لم تسهم مباشرة في تطور الدول
الحديثة .
تروندهايم
أبسالا
موسكو
باريس
روما
قشتالة
أراجون
طليطلة
مدريد
وارسو
كراكاو
برلين
لندن
كم
ميل

شكل (٣٠)

فى مناطق نواة ونمت وتوسعت منها عبر القرون إلى إقليم المحيط بها . ومثل هذه المناطق كانت تتميز بخصائص معينة مثل :

١ – حماية طبيعية ضد هجمات المغيرين .

٢ – كثافة سكانية عالية نسبيا .

٣ – اقتصاد زراعى مزدهر زيادة فى المحصولات تكفى لإعالة مؤسسة عسكرية كبيرة .

والأكثر أهمية هو أن إدارة هذه المنطقة كانت تتطلب قيادة طموحة متمرسة فى الفنون العسكرية والدبلوماسية ، أى رجالا مولعين بالتوسع الإقليمى. وأثناء عملية التوسع غالبا ماتحتفظ النواة بمكانتها كأهم منطقة داخل الدولة تضم العاصمة والمركز الثقافى والاقتصادى للأمة .

وقد تتخذ منطقة النواة موضعا وسطا من الدولة أو مكانا هامشيا إذا كان التوسع قد حدث فى اتجاه واحد . ومثلا نجد باريس و « جزيرة فرنسا Ile de France اللتين تمثلان العاصمة ومنطقة النواة للدولة الفرنسية ، تقعان فى وسط فرنسا تقريبا ، بينما وسكس Wessex وهى نواة المملكة المتحدة ، تحتل الجزء الجنوبى الهامشى منها ، كذلك نجد مناطق النواة الأسبانية والإيطالية تقعان فى الأطراف هذا إذا اعتبرنا بيمونت Piemonte لا روما النواة التى منها توحدت إيطاليا . وفى بعض الحالات النادرة يحدث أن تفقد دولة نواتها أوجزءا منها لدولة مجاورة عن طريق المصادرة الإقليمية كما حصل للبرتغال وألمانيا الغربية . فغاليشيا الجنوبية Galicia والتى كانت جزءا من النواة التى توسعت منها البرتغال جنوبا إثر مطاردتهم لفلول الجيوش العربية فقدتها البرتغال أولا لمقاطعة ليون Leon ،واخيرا لأسبانيا القسطلية رغم احتفاظ سكان النواة القديمة باللغة البرتغالية يتكلمون بها حتى اليوم . أما ألمانيا الاتحادية فقد حرمت من الاتصال المباشر بنواة براند نبيرج نتيجة الحرب وانقسام ألمانيا .

وتحتوى منطقة النواة ، مع عاصمة الدولة أحيانا ، مدينة أخرى رئيسية

Primate City تضم اكبر تجمع سكانى وكذلك الوظائف الاقتصادية والثقافية ، مثل باريس وموسكو وأثينا . ويحدث فى بعض الأحوال النادرة أن تنقل العاصمة من منطقة النواة الأصلية وتبنى فى منطقة أخرى نتيجة أسباب عديدة منها :

١ – فى بعض الحالات يحرك مقر الرئاسة السياسية إلى تخوم التوسع الإقليمى وتسمى فى هذه الحالة بعاصمة الدفع الأمامى Forward - Thrust ، فمدينة صوفيا خلفت عواصم قديمة تقع إلى الشرق مع التوسع البلغارى جنوبا وغربا على حساب الدولة التركية ، بينما احتلت لشبونة وتوليدو مكان العواصم الشمالية عندما أخذ البرتغاليون والأسبان يدفعون بالعرب جنوبا ، كما اتخذت مدينة بيترسبرج (لينينغراد حاليا) عاصمة مؤقتة لروسيا عندما كان القياصرة يسعون إلى توثيق العلاقات الثقافية مع أوروبا ، وحلت أوسلو محل تروند هايم كعاصمة للنرويج لقربها من السويد والدنمارك التى حكمت وسيطرت على النرويج لقرون عديدة . واختارت سويسرة مدينة بيرن Bern الواقعة عند الحدود اللغوية الألمانية والفرنسية عاصمة لها بدلا من إبقائها فى منطقة بحيرة لوزيرن Luzern حيث كانت بداية الدولة . ويندر أن تحتفظ مناطق النواة التى فقدت وظيفتها كمركز الدولة السياسية بأهمية فى الوقت الحاضر .

٢ – فى الأحوال الأخرى تحرك العاصمة نتيجه الفقد الإقليمى كما حدث فى بولندة وألمانيا الغربية .

تتسم الدول التى نمت حول منطقة النواة بالاستقرار أكثر من تلك التى خلقت لتملأ فراغا إقليميا كان موجودا من قبل وخاصة إذا كانت منطقة النواة مازالت محتفظة بحيويتها ونفوذها . وقد ينتج عدم الاستقرار إذا كانت الدولة تخلو من منطقة نواة أو إذا كانت هناك مناطق متعددة متنافسة داخل حدودها . ومن الدول التى تنتمى للصنف الأول – التى لاتملك مناطق نواة – بلجيكا والبانيا ولوكسمبورج وألمانيا الغربية ، فهى دول ولدت كبيرة تحت إشراف وحماية قوى خارجية وسياسة القوى . وعندما حرمت ألمانيا الاتحادية من منطقة نواتها حول براندنبيرج أثر التقسيم اتخذت مدينة جامعية صغيرة – بون – عاصمة لها ، وتغلبت بذلك على منافسة ميونيخ

وفرانكفورت وهامبورج والمدن الكبيرة الأخرى التى كانت ترنو إلى تلك المكانة ، ونتيجة لذلك تفتقر ألمانيا الاتحادية إلى التماسك الذى تجلبه منطقة النواة ولو أن منطقة الرور الصناعية تخدم هذه الوظيفة إلى حد ما .

أما مناطق النواة المتنافسة فهى أكثر تخريبا من عدم وجودها . وتاريخيا نشب مثل هذا الصراع فى الأراضى الألمانية بين برلين التى كانت تقع فى منطقة النواة البروسية وفيينا عاصمة النواة النمسوية . وقد تصارعت القوتان الألمانيتان لقرون قبل أن يبت فى الموضوع نهائيا فى عام ١٨٦٦ م لصالح بروسيا وبرلين . ولكن بروسيا اختارت اقصاء النمسا ومنطقة نواتها من ألمانيا الموحدة . وعندما ألحق هتلر النمسا إلى الرايخ فى عام ١٩٣٨ حاول جاهدا التقليل من أهمية فيينا السياسية والحد من خطورة منافستها لبرلين العاصمة .

وأسبانيا أيضا تعانى من مشكلة الإقليمية المرتبطة بمنطقتى النواة الرئيسيتين فى أراجون (قطلونة) وقسطلة القديمة واللتين تحتويان أيضا على مجموعات لغوية . وقد أدى نقل العاصمة جنوبا أولا إلى توليدو وأخيرا إلى مدريد الواقعتين فى قسطلة الجديدة إلى تعقيد هذه المشكلة . وما زالت المنافسة على أشدها بين برشلونة القطلونية (سكانها ١٫٦٥٠٫٠٠٠ نسمة) ومدريد القسطلية (سكانها ٢٫٤٥٠٫٠٠٠ نسمة) وكعاصمة للبلاد لم تنجح مدريد فى بسط نفوذها الكامل على أجزاء الدولة وقد يرجع جزء من السبب إلى قلة سكانها وفقر المنطقة المحيطة بها وقلة إنتاجها . وفى إيطاليا تتعايش روما نواة الفترة الكلاسيكية والتى لم يكن لها دور فى توحيد إيطاليا ، مع بيمونت : المقاطعة الشمالية التى منها تم توحيد القطر . وقد تكون لنهضة بيمونت الصناعية مع سهل لمبارديا المجاورة دلالة كبيرة فى المستقبل البعيد .

(٨) توزيع السكان :

يتأثر الاستقرار السياسى فى دولة ما بالطريقة التى يتوزع بها السكان داخلها والتوزيع المثالى للسكان هو أن يتجمع هؤلاء فى داخل الدولة الذى يشمل منطقة النواة وأن تكون مناطق الحدود قليلة السكان ومتخلخلة التوزيع أو خالية منه تماما .

وهذا النمط من التوزيع السكانى نشاهده فى ايطاليا حيث توازى جبال الألب المتخلخلة السكان حدودها الشمالية وكذلك فى غرب تشكوسلوفاكيا حيث توجد منطقة جبلية . ويحدث عدم الاستقرار عندما تحتوى مناطق الحدود على أعداد من السكان أكبر مما فى المناطق الداخلية ، ومثل هذا التوزيع قد يؤدى إلى تقوية الصلات بين سكان الحدود والمناطق المجاورة . وأسبانيا تعانى من مثل هذه التجمعات السكانية الهامشية والتى يعقدها أكثر التنوع اللغوى . كما أن فرنسا تواجه مشاكل مشابهة ولكنها أقل حدة من تلك التى تعانى منها أسبانيا .

(٩)دور الأنماط البيئية :

فى الفترة التى شهدت تطور معظم الدول الأوروبية ، وذلك قبل ابتكار وسائل الحرب الحديثة ، تأثرت الفعالية السياسية لهذه الدول بعدد من العوامل البيئية . فالدول التى كانت تتمتع بنوع من الحماية الطبيعية ، مثل السلاسل الجبلية والغابات او مستنقعات على الحدود أو بموضع جزرى أو كوستات خارجية الوجهة ، كانت تملك احتمالات أكثر للبقاء والتطور . وهذه المعاقل الطبيعية تعرف باسم « القلاع الشعبية Folk fortresses » . ففرنسا مثلا كانت معدة طبيعيا لهذه الحماية لأن منطقة نواتها ، حوض باريس ، كانت محاطة بكويستات داخلية وحائط دفاع خارجى يتمثل فى جبال البرانس والألب وجورا وفوزج والأردن . كما كانت نواة سويسرة الأصلية محمية طبيعيا لوقوعها بين سلاسل الألب . والبريطانيون مدينون بقدرتهم على صد كثير من الهجمات التى أتت من القارة إلى ذلك الخندق الطبيعى المتمثل فى القنال الانجليزى ، كما أن الموقع الجزرى مسئول جزئيا عن استقلال أيسلنده وأيرلندة . واستغل الهولنديون انخفاض أراضيهم فى الدفاع عن الوطن وذلك بإغراق البولدرات بمياه البحر أو الأنهار وسد الطريق أمام الغزاة كما حدث عام ١٥٧٤ عندما فتح سكان مدينة ليدن Leiden الجسور للسماح لسفنهم الحربية بالابحار عبر البولدرات المغمورة ومهاجمة الأسبانيين الذين كانوا يحاصرون المدينة . أما المواقع شبه الجزرى فقد ساعد فى تكوين إيطاليا وأسبانيا واليونان وذلك بمنحها إطارًا طبيعيا للتوسع الإقليمى رغم أن مثل هذه المواضع ليست لها أى مميزات دفاعية .

ويحدث كثيرا أن تعوق العوامل البيئية نجاح وتطور الدول . وربما كان مصير بولنده سيكون أحسن حالا اليوم لو لم تكن الدولة واقعة على السهل الأوروبى الشمالى بدون أى جبال أو عوائق طبيعية تحميها من غزوات الألمان والروس من جهتين . حتى المستنقعات التى كانت فى وقت ما تضفى حماية على بولنده ، فقد جففها واستصلحها الألمان واستقروا فيها فى حين أن مستنقعات بريبيات الضخمة إلى الشرق لم تكن كافية لصد الهجمات لأن طرق الغزو كانت تقع إلى شمال وجنوب هذا الحاجز الطبيعى .

وبينما تكتسب الحواجز الطبيعية فى مناطق الحدود أهمية كبرى لأغراض الدفاع فإن نفس هذه الحواجز تكون ذات نتائج عكسية إذا كانت واقعة فى داخل الدولة . فإذا كانت هناك جبال وصحارى وغير ذلك من الحواجز تشق وسط الدولة فإن أثر ذلك حتما سيكون عكسيا أى طاردا . ومثلا رومانيا التى نشأت فى سهل ولاشيا تقطعها سلسلة جبال الكربات القليلة السكان إلى نصفين ، وربما نتيجة لذلك وجدت الدولة صعوبة فى الحصول على والاحتفاظ بسيادتها على الأقاليم التى يسكنها الرومانيون والواقعة خلف هذه الجبال فى حوض المجر . وهكذا أصبحت الجبال التى كانت ملاذا وملجأ للرومانيين فى الفترات العصيبة التى تلت سقوط الإمبراطورية الرومانية عامل انقسام وعزل لأمة واحدة . ويمكن تفسير مشكلة التفرقة الداخلية فى أسبانيا جزئيا بالحواجز الطبيعية بين أحواض هضبة الميزيتا التى تحيط بها الجبال (كاستيلا) وبين المنخفضات الهامشية . ولولا خبرة النرويجيين البحرية ومهارتهم لكان من الصعب توحيد التجمعات السكانية العديدة التى تزخر بها رؤوس الفيوردات والتى تفصلها عن بعضها البعض سلسلة جبال كيولن Kjolen .

(١٠) توزيع الإقليم القومى :

يساعد تكتل إقليم الدولة فى التماسك القومى ، وأفضل شكل تتخذه الدولة من الناحية النظرية هو دائرة أو شكل ثمانى الأضلاع مركزها فى منطقة نواة ذات موقع مركزى ومن الدول التى تقرب أشكالها لهذا الشكل المثالى فرنسا ورومانيا . بينما هناك دول أخرى مثل بولنده وأسبانيا والمجر تتمتع بتوزيع مناسب لإقليمها القومى .

ويمكن أن يحدث عدم الاستقرار فى الدولة إذا كانت هذه الدولة تملك نمطا إقليميا غير مناسب مثل وجود ما يسمى بالمقاطعة المحاطة بأرض أجنبية أو المقاطعة الحبيسة Enclaves والمقاطعة أو الإقليم المعزول Exclaves .

والمقاطعة الحبيسة هى إقليم تحيط به دولة معينة من كل جانب ولكن لا يخضع لحكم هذه الدولة. ففى أيطاليا توجد مقاطعتان حبيستان هما مدينة الفاتيكان وسان مارينو ، كما يمكن اعتبار برلين الغربية مقاطعة حبيسة من وجهة نظر ألمانيا الشرقية . وقد تكون المقاطعة الحبيسة ذات حكم ذاتى أو تخضع لدولة مجاورة . ومن الأوضاع غير المرغوب فيها تلك الدول التى تتكون من أقاليم منفصلة عديدة تشمل منطقة رئيسية تضم العاصمة وواحدة أو أكثر من مقاطعة حبيسة ، كما توضحها الولايتان الألمانيتان المستقلتان : براونشفايج Braunschweig وفورتمبيرج Wurttemberg فى أواخر القرن الثامن عشر. وحديثا نجد برلين الغربية التى تطورت كمنطقة معزولة لألمانيا الغربية مؤديا بذلك إلى وضع غير مستقر لأن المنطقة الواقعة بين برلين الغربية وألمانيا الاتحادية تسيطر عليها دول معادية تحت سيطرة دولة كبرى هى ألمانيا الشرقية . وقد حدث مثل هذا الوضع المهزوز بين الحربين العالميتين عندما فصلت بروسيا الشرقية التى تحكمها ألمانيا عن باقى الأمة بواسطة الدهليز أو الرواق البولندى Polish Corridor . وحتى إذا كانت الدولة تتكون من كتلة واحدة فقد تتولد صعوبات إذا كان هذا الشكل غير متناسق . فالدول ذات الشكل الضيق الطويل مثل النرويج وتشكوسلوفاكيا قد تجد بعض الصعوبات فى بسط نفوذها على هذه الأقاليم المتباعدة . وقد عانت تشكوسلوفاكيا من فقدان سلوفينا مؤقتا وإقليم روثينيا Ruthenia إلى الأبد فى خلال خمسين سنة نتيجة التوزيع الإقليمى القومى غير المتناسق .

(١١) قوة وشعبية الحكومة المركزية :

تستطيع الحكومات المركزية القومية التغلب على قوى التمزق الداخلية وتشجيع الوحدة الوطنية ، وقد يتطلب الوضع نوعا من الدكتاتورية لتحقيق هذا التماسك الداخلى فقد بقيت ألمانيا الشرقية نتيجة الحكم الدكتاتورى الذى تسنده روسيا كما

استطاع الدكتاتور فرانكو السيطرة الفعلية على المجموعات العرقية المختلفة فى أسبانيا . وقد تكون الشعبية بديلا فعالا للحكومة المركزية فى بعض الأحيان كما فى انجلتره حيث تلعب العائلة المالكة دورا كبيرا فى الحفاظ على مكانتها التى لا تتعدى على تأثير احتفالى أو رمزى على الحكومة المنتخبة .

هذه هى أهم القوى الجاذبة والقوى الطاردة التى تعمل داخل الدول جالبة الاستقرار أو التفتت والدمار . وليس من دولة واحدة تملك كل عناصر الوحدة والاستقرار . والمطلوب فقط هو أن تحصل دولة على توازن معقول بين هذه القوى داخليا تكون عوامل الوحدة فيه طاغية على عوامل التمزق والتفرقة . والخريطة السياسية لأوروبا تشير إلى أن كل دولة فيها قد توصلت إلى مثل هذا التوازن ، على الأقل فى الوقت الحاضر : وقد يكفى فى بعض الأحوال « سبب بقاء » واحد قوى للتغلب على قوى التمزيق . ولكن هناك حقيقة أخرى وهى أن التركيب الداخلى مهما بلغ من تماسك لا يضمن بقاء دولة لأن الناس إذا فشلوا أو فقدوا القدرة على مواجهة التحديات الخارجية فقد يؤدى ذلك إلى انتهاء الدولة رغم قوة الشعور القومى .

(ج) العوامل الخارجية :

(١) العلاقات الاستراتيجية الإقليمية :

من العوامل التى تساعد فى خدمة قضايا السلام وتبعث على الاستقرار السياسى ، الاعتراف من قبل جميع الدول بالمواثيق الدولية واحترام الحدود الدولية والإحجام عن التوسع الإقليمى خاصة على حساب الغير . ولكن من المؤسف أن تاريخ أوروبا القديم منه والحديث ، يكشف عن عمليات خرق عسكرية متكررة لسيادة الدول وعن محاولات مستمرة لتوسع رقعة دولة على حساب أخرى . وما من دولة أوروبية إلا وحاولت بصورة أو بأخرى ضم إقليم تابع لدولة مجاورة لها فى وقت أو آخر عبر تاريخها الدامى الطويل .

ولهذا السبب يجب أن تكون لدولة واحدا من هذين الهدفين لتضمن بقاءها و ستمراريتها :

١ – أن تكون قادرة على إعالة قوة عسكرية قادرة على الدفاع عنها وحمايتها من الأعداء وذلك بجمع وتسخير مواردها البشرية والطبيعية ضد العدو . وتقليديا كان وجود القلاع الشعبية يساعد فى الحصول على القوة الدفاعية والتى أيضا ترتبط مباشرة بعدد السكان وإنتاجية اقتصاد هذه الدولة . وقد يكون أفضل وضع فى هذه الحالة أن تكون الدولة محاطة بشعوب ضعيفة من الناحية العسكرية كما كان الحال فى العصور الوسطى عندما كانت بعض الإمبراطوريات محاطة بما يسمى « بالمارشلاند Marches or Marchlands » وهى عبارة عن نطاقات « محيدة » يقابلون فيها تحديات القوات الخارجية بدلا من خوض الحرب فوق تراب الوطن . فالإمبراطورية الفرنكية كانت محاطة بالمارش الأسبانى جنوب جبال البرانس ، وبالمارش البرتانى من ناحية الغرب وبمجموعة من المارشات من الشرق . والمرادف الحديث للمارش هو الدولة العازلة Buffer state . وكثير من دول أوروبا الصغيرة تدين بوجودها إلى مثل هذه الوظيفة أى عزل الدول الكبرى من بعضها البعض . فإن بقاء واستمرار لوكسمبورج كدولة كان مرهونا بوظيفتها التى خلقت من أجلها : أى دولة عازلة بين فرنسا وألمانيا . وينطبق نفس الوضع على بلجيكا وهولنده

٢ – إذا عجزت الدولة بسبب ما فى تكوين قوة دفاعية قوية ، فقد يصبح من الضرورى الدخول فى أحلاف مع دول أخرى تواجهها أخطار خارجية مشتركة . وإذا عجزت الدولة فى الاعتماد عسكريا على نفسها أو أن تدخل فى أحلاف دفاعية مع غيرها ، فأنها تضع نفسها تحت رحمة الدول المجاورة القوية ، وكم من دول اختفت من الوجود لضعفها ووقعت لقمة سائغة للدول الأقوى . فدول البلطيق الثلاثة أستونيا ولاتفيا وليتوانيا والتى تحررت من الحكم الروسى بعد الحرب العالمية الأولى ، كانت أضعف من أن تدافع عن نفسها كما لم تتمكن أو لم ترغب فى الدخول فى أحلاف دفاعية فيما بينها . ولهذا لم يدم استقلالها أكثر من عشرين سنة ، إذ ضمت للاتحاد السوفيتى عنوة . أما ألمانيا فقد خلقت بعدوانها العسكرى أعداء لم تستطع فى النهاية التعامل معهم مما أدى إلى تحطيم وحدتها الوطنية فى ١٩٤٥ م وتمزيقها بعد ذلك .

(٢) العلاقات الاقتصادية :

ليست هناك دولة مكتفية ذاتيا من الناحية الاقتصادية أو تستطيع الاستغناء عن ضرورة تبادل البضائع والمنجات مع دول العالم الأخرى.وبقاء الدولة وازدهارها يتطلب إقامة ودعم نمط تجارى معقول . فى العصور الوسطى كان قطع العلاقات التجارية بين الدول المدينية وخلفيتها عن طريق الحصار كافيا لتحطيم استقلال المدينة ، كما أن الحصار البحرى الذى فرض على ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى سبب مشاكل اقتصادية كبيرة لها . ولأن المحيطات تمثل أكثر الطرق التجارية وأرخصها استخداما فإن حرية الوصول لهذه البحار واستعمالها يجب أن تكون مكفولة لكل الشعوب . فالدول الداخلية تعانى من عدم اتصالها بالبحر . وقد تفسر هذه المشكلة قلة عدد الدول الأوروبية التى لا تطل على البحر ولا تملك منافذ بحرية .

ومن الناحية الاقتصادية والعسكرية يعتبر الحجم الصغير للدولة معوقا للبقاء القومى . وعلى مثل هذه الدول الصغيرة إما أن تدخل فى اتحاد اقتصادى مع الدول المجاورة الكبرى كما فعلت لوكسمبورج فى الأول مع بلجيكا وهولنده (دول البنيلكس Benelux) ومؤخرا بالانضمام للسوق الأوروبية المشتركة ، أو أن تطور نوعا من الفضول والحافز الاقتصادى لجذب الأموال مثل كازينوهات القمار فى موناكو والأسواق الحرة والتهريب كما فى أندورا Andorra ، وبيع طوابع البوسطة كما فى سان مارينو وليختنشتاين .

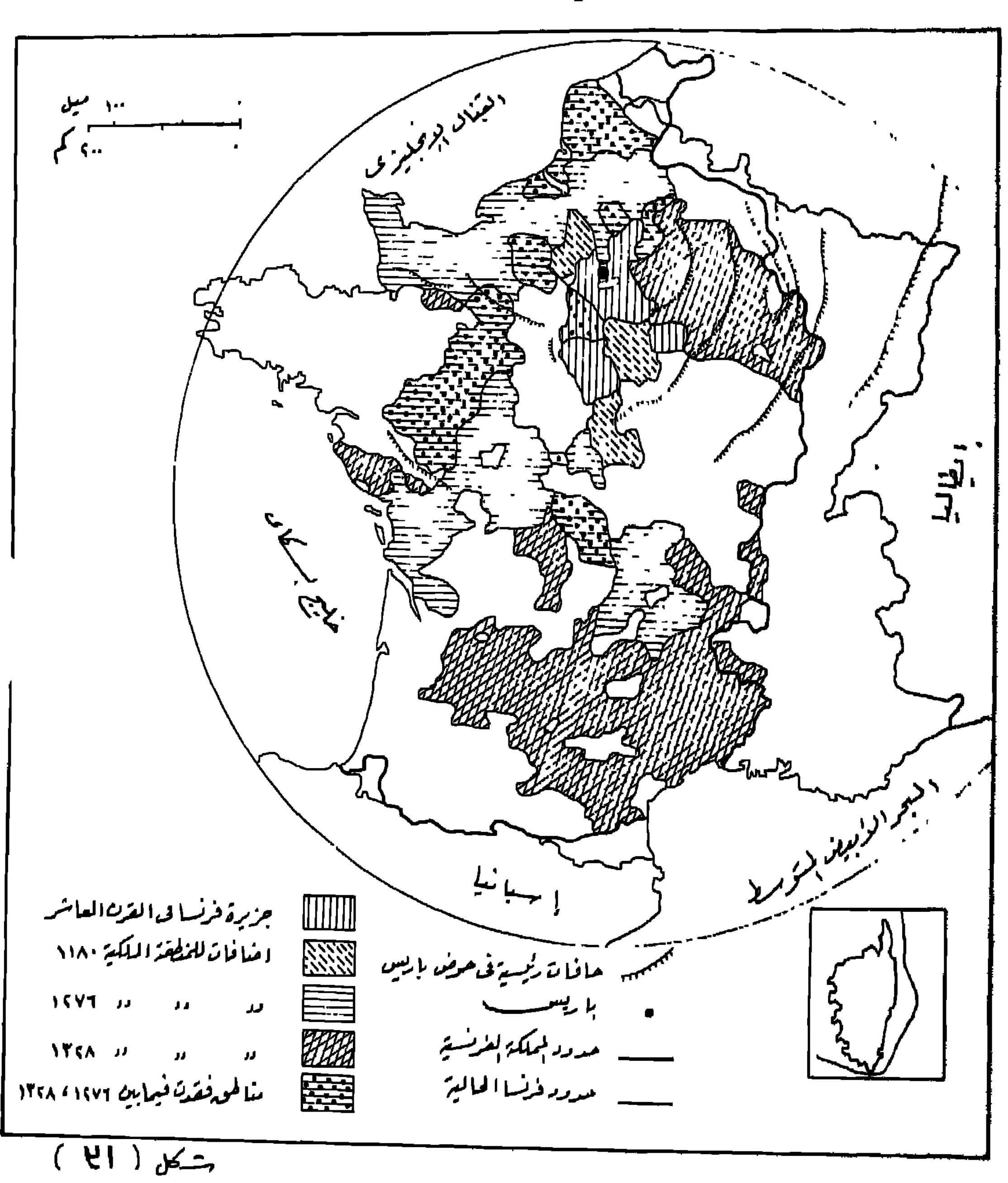
(د) تطور وبقاء بعض الدول الأوروبية – دراسة تطبيقية :

بعد دراستنا للقوى الطاردة والجاذبة والعلاقات الاستراتيجية والاقتصادية الخارجية وتأثيرها على الدول من حيث نموها وازدهارها أو اضمحلالها ، نحاول الآن دراسة الجغرافية السياسية لبعض الدول فى أوروبا خاصة من ناحية نشأة هذه الدول والعوامل التى أثرت فى ذلك .

١ - فرنسا : (الشكل ٣١)

تتميز فرنسا التى تعتبر من أقدم الدول الأوروبية وأكثرها فعالية ، بتفوق ورجحان كفة القوى الجاذبة التى جعلتها من أكثر الدول الأوروبية استقرارا . ورغم ارتباطاتها اللغوية والدينية مع منطقة حوض البحر المتوسط ، فإنها تدين بأصل نشأتها

التوسع الإقليمي لفرنســا



شكل (٢١)

وباسمها إلى قبيلة ألمانية هى « الفرنك » التى انتشرت غربا من بلادها بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية . وقد حدثت محاولات جادة لبناء الدولة على يد هؤلاء الفرنك توجت فى النهاية بإنشاء الإمبراطورية الفرنكية التى كانت تضم ليس فرنسا الحديثة وحدها بل بلاد أخرى مثل شمال إيطاليا وألمانيا الغربية والأراضى المنخفضة . وفى عام ٨٤٣ ميلادية انشقت الإمبراطورية إلى ثلاثة أجزاء وأصبح الجزء الغربى نواة الدولة الفرنسية الحالية . وكان هذا الجزء يضم حوض أكوتين ومعظم حوض باريس والهضبة الوسطى . أما رواق الرون وسارون والمناطق التابعة لتصريف نهر الراين فقد كانت تقع خارج ذلك الجزء . ورغم أن الوحدة الفرنسية من الناحية الفنية ظلت بدون اضطراب خلال ألف سنة وحتى وقتنا الحالى فحقيقة الوضع تقول بأن مملكة الفرنك الغربية انقسمت بعد عام ٨٤٣ إلى أقسام على يد الإقطاعيين... كل إقطاعى يحكم ممتلكاته الصغيرة مستقلا من الملك الذى كانوا يدينون له بولاء اسمى وتدريجيا أصبحت الملكية وظيفة تشريفية لاغير.. وبهذه الصورة انتقلت الملكية (أو لقبها الاسمى) إلى عائلة « الكابتس Capets » التى كانت ممتلكاتها الإقطاعية تحتل مساحة صغيرة فى قلب حوض باريس وشاء القدر أن تصبح هذه المساحة جزءا من « جزيرة فرنسا Ill ue I mee » التى أصبحت فيما بعد نواة الدولة الفرنسية المتحدة . ولكن الملكية لم تأت بأى اضافات إقليمية . ولهذا بقيت المنطقة التى يحكمها « الكابتس » محصورة فى « جزيرة فرنسا » فى البداية ولكنهم استطاعوا أن يوسعوا المنطقة الملكيه Royal Domain ، ومن ثم امتدت سيطرتهم إلى معظم أجزاء فرنسا الشمالية وقد ساعدتهم عوامل فى هذه المبادرة :

١ - كانت العائلة طموحة جدا ومحظوظة فى بعض الأحيان . وقد لعب الإطار الطبيعى لحوض باريس والمتمثلة فى تلك الدوائر الموازية من الكويستات ذات الوجهة الخارجية فى جعل « جزيرة فرنسا » مكانا للتوسع منه إلى الأقاليم الأخرى ، ولكن الطموح البشرى كان يشكل القوة الدافعة فى المقام الأول . ولم يكن التوسع يتقدم بثبات . فقد كانت أحواض صغيرة داخل حوض باريس كان من الصعب السيطرة عليها . ولهذا كان هناك تراجع وأحيانا وقفات وهكذا وبنهاية القرن الثالث

عشر أصبح حيزكبير من حوض باريس جزءا من المنطقة الملكية . وتم ضم إقليم شامبين Champagne الغنى عن طريق الزواج بيها أضيفت مناطق أخرى بالقوة .

٢ - ثم دخلت هذه الدولة النواتية فى صراعين كبيرين بسبب سعيها للتوسع خارج حوض باريس . أولها كان حرب المائة سنة التى خاضت غمارها فى القرنين الرابع والخامس عشر ضد الانجليز الذين كانوا يحكمون نورماندى وأكوتين ويقفون فى وجه أى توسع فرنسى نحو المحيط الأطلسى . وقد أدى الصراع ليس إلى طرد الانجليز الذين لجأوا إلى جزر جيرنزى وجيرزى الساحلية فقط ، بل إلى ظهور أول بطلة قومية هى جان دارك . أما الصراع الثانى فقد كان ضد دولة بورغون Bourgogne القوية التى ظهرت إلى الشرق من فرنسا الحديثة وكانت تسيطر على رواق الرون - ساوون الذى يربط بين حوض باريس ومنطقة البحر المتوسط . وقد تم هزيمة بورقون فى القرن السادس عشر وضمت آخر بقايا هذه الدولة فى القرن الدى تلا . وفى القرن الثامن عشر ظهرت فرنسا بحدودها الحالية تقريبا .

ويمكن حصر عناصر الوحدة والتماسك العاملة داخل الدولة الفرنسية فى الآتى : اللغة والدين ، ووجود منطقة نواة قوية وتكتل أو تماسك الإقليم القومى . وتقليد ثقافى وتاريخى مشرف . وظروف طبيعية مناسبة متمثلة فى المرتفعات التى منحتها حدودا طبيعية وقلعة شعبية Folk fortress فالتطابق القريب من ناحية مساحية بين فرنسا واللغة الفرنسية يعتبر صدفة تاريخية لأن ملوك فرنسا ما كانوا يعيرون اهتماما يذكر للغة المناطق التى كانوا يسعون إلى ضمها فى دولتهم . وقد حدث أن ضمت أقليات لغوية ولكن نظرا لصغرها ولأنها لم تنتم إلى شعوب قوية خارج حدود فرنسا لها القدرة فى تحدى الحكم الفرنسى . فقد انصهرت هذه المجموعات فى المجتمع الفرنسى . . السلت البريطانيين الذين كانوا يسكنون فى مرتفعات بريتنى Britanny وحتى ضمت لفرنسا عام ١٤٩١ لم يتلقوا أى مساعدة من إخوانهم فى الجزر البريطانية كما لم يتلق الباسك فى نفار الفرنسية Navarre أو قطلونيو روسيلون Roussillon أى دعم وإعانة من حكام أيبيريا . وخذلت إيطاليا سكان جزيرة كورسيكا والريفيرا كما لم تكن هناك دولة قوية فى الفلاندرز ليستنجد بها الفلمنكيون الذين كانوا يسكنون حول دنكيرك . أما المنطقة الوحيدة ذات الأقلية

اللغوية التى أقلقت فرنسا وجلبت لها المشاكل فهى مقاطعة الألزاس واللورين Alsae-Lorraine . فقد تمكنت ألمانيا المتحدة من السيطرة على هذه المقاطعة مرتين منذ ۱۸۷۰ كما تنقلت يد السلطة فيها أربع مرات فى خلال القرن الماضى . فقد حكمت ألمانيا المقاطعة لحوالى نصف قرن فى القرن الماضى ، وهى الآن تحت سيطرة فرنسا .

أما قوى التفريق والتقسيم فهى قليلة وضعيفة ، وقد استطاعت فرنسا التغلب على الاختلاف فى اللهجة بين الشمال الألمانى والجنوب الرومانى ، كما شهدت الدولة فى فترة سابقة صراعا دينيا استطاعت حلها بذبح وتهجير الهيوقون Huguenots

أما أساس الاستقرار الذى تتمتع به فرنسا فيرجع إلى حد كبير فى فخرهم واعتزازهم بالثقافة الغنية المرتبطة باللغة ، ثقافة قل ما تنافسها ثقافة فى جودتها ونوعيتها وإنتاجها المستمر . ويمكن أن نضيف إلى هذه الثقافة ، التاريخ المشترك والذكريات عنه والتى تمتد من إنجازات جان دارك إلى الثورة الفرنسية وعظمة نابليون وإنشاء الإمبراطورية الضخمة . وقد برهنت فرنسا خلال القرن الماضى بأنها تستطيع البقاء حتى فى ظل حكومات مركزية ضعيفة واهية وأنها لاتحتاج إلى شخصيات فذة مثل ديجول ونابليون لتبقى حية مزدهرة .

أما التهديدات الخارجية لفرنسا فكانت تأتى من المملكة المتحدة وألمانيا وقد تصدى لها حكام فرنسا بتكوين أحلاف مع روسيا والولايات المتحدة . وفى أوائل هذا القرن دفعت أخطاء السياسة الخارجية الألمانية إلى دخول فرنسا فى تحالف مع بريطانيا وأصبحت ألمانيا هى العدوة الوحيدة لفرنسا إلى نهاية الحرب العالمية الثانية وبهزيمة ألمانيا انتهى آخر مصدر تهديد خارجى لفرنسا .

٢ – المملكة المتحدة :

هناك أشياء مشتركة بين فرنسا والمملكة المتحدة : فكلتاهما دولتان عريقتان تتمتعان باستقرار سياسى كما أن تأسيسهما تم على يد أحفاد شعب ألمانى (جرمانى) غزوا المنطقتين بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية . كما أن كلتيهما يحملان أسماء جرمانية لأن انجلترا أو England أو Angle-land هو اسم إحدى القبائل المغيرة . ومن أوائل الشعوب التى استقرت فى بريطانيا الجوت Jutes والساكسون والأنجلز

Saxons, Angles ثم تبعهم رجال الشمالى Noisemen والدنماركيين Danes .

فى بداية نشأتها ظهر عدد من الدول الإقطاعية المستقلة منها (وسيكس Wessex) أو أرض الساكسون الغربيين « Land of the Western Saxons التى برهنت على قدرتها على التوحيد مستغلة حريتها وبعدها من غارات الفايكنج نسبة لموقعها الغربى وبعدها من مسرح الأحداث فى المناطق الشرقية والشمالية الشرقية . وفى البداية لم تخدم لندن كعاصمة لدولة الوسيكس لموقعها فى الشرق فى ميدلسكس ، ولوقوعها تحت سيطرة الدنماركيين لفترة فى القرن التاسع . وقد كانت المنطقة الواقعة إلى الشمال والشرق من الطريق الرومانى القديم المعروف « بشارع والطنق Watling Street » والذى يجرى فى اتجاه شمالى غربى من لندن ، واقعة تحت سيطرة الدنماركيين .

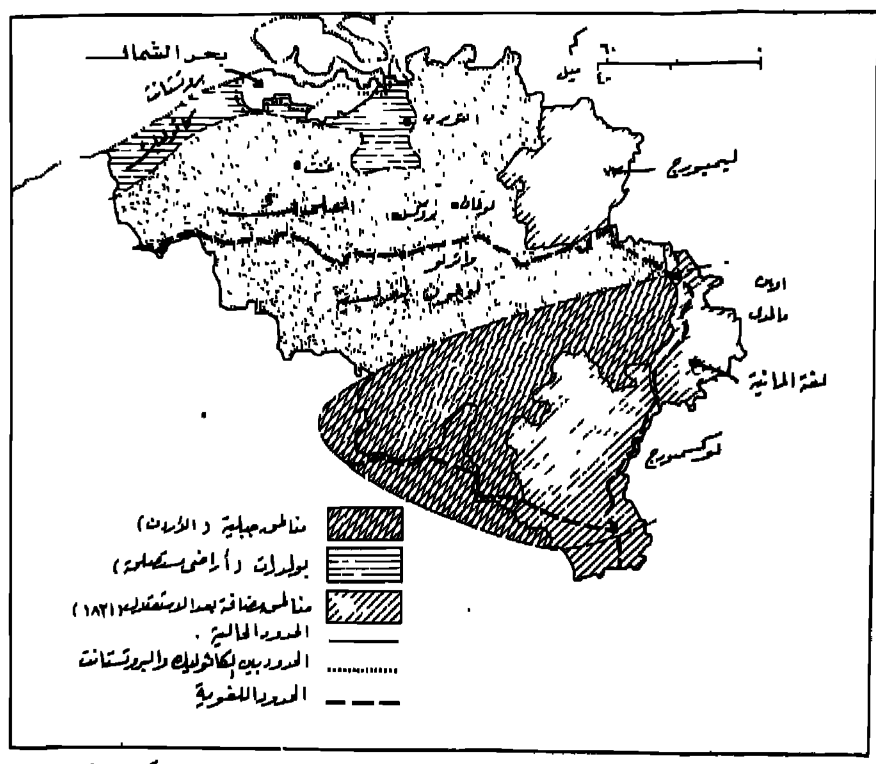
وبالإضافة إلى بسط حكمهم على مناطق استقرار القبائل الجرمانية الأخرى ، بدأ ملوك وسيكس الساكسونيين فى مهمة كبرى وهى إخضاع قبائل السلت Celts فى ملاجئهم الجبلية . وكانت كورنوول أولى هذه الملاجىء الذى يسقط فى يد الوسيكس ، وفى عام ١٠٦٦ استولى الحاكم وليام النورمانى على مملكة الساكسون ، واندفع هو وملوك آخرون ينتمون إلى عوائل ملكية مختلفة يهاجمون السلتيين ، وشهدت ثلاثينات القرن السادس عشر نهاية المقاومة الرئيسية فى ويلز ، وهزم الاسكتلنديون نهائيا فى عام ١٧٤٦ ، أما الأيرلنديون فقد نالوا استقلالهم فى عام ١٩٢٢ م بعد أن خضعوا للساكسون لفترة طويلة . وهكذا أصبح السلت يحملون الجنسية الانجليزية رغما عنهم ، ولهذا أصبحت هذه الأقلية تشكل قوة طاردة فى المملكة المتحدة . ولكن القومية السلتية أخذت تضعف عبر قرون من الانصهار والتمثيل التدريجى خاصة فى كورنوول وأسكتلنده . أما الملامح الثلاثة للثقافة الأسكتلندية – أى اللغة الغالية Gaelic والكاثوليكية والقبلية – فقد اندثرت الآن تقريبا . ويعانى أهل ويلز من نفس المصير . ولكن الأيرلنديون تشبثوا بدينهم الكاثوليكى وقاوموا الخضوع للثقافة الانجليزية والانصهار فيها وتمخضت هذه المقاومة عن استقلال جمهورية أيرلندة وتفسر إلى حد كبير الحرب الأهلية الدائرة الآن فى أيرلندة الشمالية .

أما قوى الوحدة والتماسك فهى كثيرة ومتنوعة : تاريخ عريق يعتزون به مثل تسعة قرون من الاستقرار والهدوء ، خالية من غارات أو غزوات خارجية ، وإقامة أكبر إمبراطورية عرفتها البشرية ، ثم الإنجازات الرئيسية فى ميدان العلوم والأدب داخل الإطار الموحد للغة الإنجليزية ، والملكية الاسمية التى تتجسد فيها عظمتهم الماضية . كل هذه العوامل تساعد فى الاستقرار التى تتمتع به المملكة المتحدة . ومن العوامل التى ساعدت على نجاح هذه الأمة موقعها الجزرى ووجود منطقة نواة ومدينة كبيرة . وقد ساعدت عمليتا الانصهار والانفصال مشكلة الأقلية السلتية إلا فى أيرلنده الشمالية حيث تدور الحرب سجالا بين الكاثوليك والبروتستانت .

٣ - ألمانيا : (الشكل ٣٣)

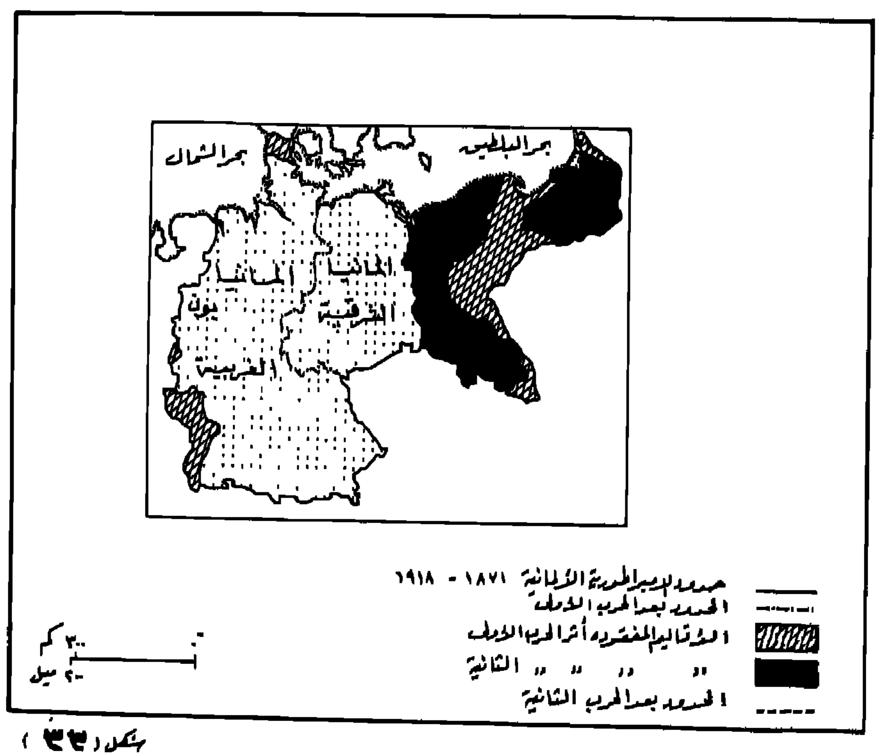
تعتبر ألمانيا ، على عكس المملكة المتحدة وفرنسا ، من الدول التى توحدت حديثا ، أو على الأقل كانت متحدة قبل أن تتجزأ إلى ألمانيتين فى عام ١٩٤٥م . ومع ذلك فإن بدايتها كدولة أشبه ببداية فرنسا لأن ألمانيا ظهرت أيضا بعد انقسام الإمبراطورية الفرنكيه فى عام ٨٤٣ ميلادية . وبينما تطور الجزء الغربى من هذه الإمبراطورية إلى الدولة الفرنسية ، أصبح الجزء الشرقى منها ، والتى كانت مساحتها تشمل تقريبا مساحة ألمانيا الغربية الحالية ، يكون الإمبراطورية الألمانية المقدسة Holy Roman Empire . وكما رأينا من قبل فإن توحيد فرنسا تم على يد عائلة مالكة واحدة فى حين أن الإمبراطورية الألمانية انقسمت بعد فترة وحدة قصيرة تحت حكم الساكسون ، إلى وحدات اقطاعية ومع مرور الزمن ازداد انقسام الامبراطورية إلى أن ظهرت إلى الوجود ثلاثمائة دولة مستقلة منفصلة فى حوالى القرن السابع عشر . وأصبح لقب « امبراطورية ألمانيا » كلمة جوفاء لا معنى لها كما كان الحال مع ملك فرنسا الأصلى . وقد يكون للجغرافية الطبيعية أثر فى الانقسام والتنافر بين أجزاء ألمانيا : فالأحواض المنفصلة والأودية والمرتفعات التى تفصل بينها وقفت ضد توحيد البلاد . ولم تكن فى ألمانيا منطقة محمية مثل حوض باريس . فالأراضى الألمانية مجزأة إلى أجزاء منفصلة بتقسيمات تضاريسية . ولكن يبدو أكثر منطقا فى هذه الحالة أن نعزو أسباب هذه التفرقة والتمزق إلى عدم وجود أباطرة أقوياء لهم الطموح والرغبة لتحقيق الوحدة بين أجزاء ألمانيا المتصارعة . وبدلا من توحيد

بلجيكا : عوامل الجغرافية السياسية للدولة



شكل (٣٢)

تدمير ألمانيا الموحدة وتمزقها



شكل (٣٣)

بلادهم اتجه أباطرة ألمانيا إلى إيطاليا للسيطرة على روما أو إلى الحروب الصليبية وانشغلوا بهذه المغامرات عن أمور البلاد ووحدتها .

كانت القاعدة الإقليمية الأصلية للإمبراطورية الألمانية تقع فى ألمانيا الأصلية Urdeutschland ، وهى المنطقة التى احتفظت بسكانها الألمان فى تلك الفترة التى شهدت التحرك نحو الغرب مع ما يسمى بهجرة الشعوب Migration of – Peoples فيما بين عامى ٤٠٠ و٨٠٠ ميلادية . وفى العصور الوسطى فيما بين ٨٠٠ و١٤٠٠م اندفع الرواد الزراعيين الألمان نحو الشرق إلى ما وراء خط إلب - سال – أن – سالزاخ إلى داخل أراضى الصقالبة (السلاف) خالقين نطاقا كبيرا جديدا تسكنها شعوب ناطقة بالألمانية ، وهذه المستعمرة الألمانية كانت تتمركز فى منطقتين كبيرتين تتيحان المجال للتوسع شرقا : السهل الألمانى الشمالى ووادى الدانوب والمنطقة الألبية الشرقية .

ومع الانقسام المستمر لمنطقة « ألمانيا الأصلية » ظهرت دول قوية فى كل من المنطقتين الشرقيتين فى المستعمرة الألمانية . أما براندنبيرج ذات التربة الرملية والمكسوة بغابات الصنوبر ، (ومركزها برلين التى كانت فى تلك الفترة عبارة عن قرية سلافية صغيرة لصيد الأسماك) فقد ظهرت كمنطقة شرقية عازلة March فى السهل الألمانى الشمالى. وعندما منحت براندنبيرج لعائلة هوهنزوليرن Hohenzollern الطموحة أصبحت براندبيرج ندا لدول الإمبراطورية الأخرى ثم تفوقت عليها من ناحية القوة والتنظيم ، وأخيرا تطورت براندبيرج لتكون مملكة بروسيا التى أصبحت أقوى دولة فى السهل الشمالى. ويمكن أن نعزو نجاح هذه المملكة وقوتها إلى سياسة التسامح نحو الأقليات الدينية التى جذبت أعدادا كبيرة من الهيوقون والفلمنكيين والسالزبيرجين والأنابابتيين Anabaptists الذين أتوا بمهارات صناعية وزراعية كان البروسيون فى أشد الحاجة إليها . ومع بداية القرن التاسع عشر كان ثلث سكان بروسيا يتكونون من سلالة هؤلاء النازحين الهاربين من الاضهاد الدينى فى فرنسا والنمسا والبلاد الأخرى .

وحدث تطور سياسى مماثل فى القطاع الجنوبى من « ألمانيا المستعمرة » حيث

طورت المنطقة الشرقية العازلة Ostmark البفارية لتصبح النمسا Osterreich أو « الإمبراطورية الشرقية » تحت القيادة الماهرة لعائلة هابسبرج Hapsburg . ثم وجهت الدولتان الشرقيتان القويتان ، بروسيا والنمسا ، اهتمامها نحو ألمانيا الأصلية المجزأة وأخذتا تتنافسان للسيطرة عليها مدة طويلة وأخيراوفى عام ١٨٦٦ استطاعت بروسيا إلحاق الهزيمة بالنمسا وإزاحتها من طريقها ثم انفردت بتوحيد ألمانيا تحت سيطرتها وذلك فى عام ١٨٧١ . ولم تختلف الإمبراطورية التى أنشأتها بروسيا من كونها امتدادا لبروسيا لأن ملك بروسيا هو الذى توج قيصرا على ألمانيا الموحدة وبقيت عاصمة بروسيا ، برلين ، عاصمة للإمبراطورية الجديدة . أما النمسا فقد اتجهت باهتماماتها شرقا نحو البلقان .

ومن عناصر الوحدة التى كانت تتمتع بها الإمبراطورية تلك التى تتعلق باللغة الألمانية وانجازاتها الثقافية الباهرة المتمثلة فى الموسيقى والعلوم والأدب التى بز فيها الألمان على كثير من الشعوب . وقد ساعد غزو نابليون فى إذكاء الشعور الكامن للوحدة الألمانية واستغلت بروسيا الفرصة بنجاح لتنصب نفسها حامية على ألمانيا وبطلة شعبها والمدافعة عن مصالحه . ثم انتقلت الأعمال والتجارب التاريخية للشعب الألمانى كأمة متفككة إلى الإمبراطورية الجديدة مفعمة بأبطال قوميين مثل هيرمان Hermann رئيس القبيلة الذى هزم القوات الرومانية عام ٩ ميلادية ثم فريدريك باربر وسا الإمبراطور الذى مات فى احدى الحروب الصليبية وجيبهار دفون بلوخر Gebhard von Blucher . من الذين ساعدوا فى هزيمة نابليون وهكذا كانت ألمانيا كينونة بشرية متميزة وبروسيا أعطت التعبير السياسى لهذه الكينونة .

ولكن ألمانيا الموحدة لم تبق طويلا ، فقد بدأت تتجزأ مع نهاية الحرب العالمية الأولى عندما بدأت تفقد المناطق العرقية الأجنبية مثل الرواق البولندى وسايليزيا العليا وشيلزفيك Schleswig الشمالية وبعض المناطق التى يسكنها الألمان مثل الألزاس واللورين واوين مالدى Eupen-Malmedy وسار Saar .

وهذه الأخيرة عادت إلى ألمانيا بعد استفتاء وهى الآن جزء من ألمانيا الغربية . وبعد هزيمتها فى الحرب العالمية فقدت ألمانيا اقاليم أخرى ، والأسوأ من ذلك

انقسامها إلى دولتين ألمانيتين مستقلتين تحت نظامين مختلفتين . وهكذا عاد التمزق لألمانيا فى أنها عجزت عن التعامل مع القوى الخارجية . ويمكن تلخيص مأساة ألمانيا فى أنها سعت لاستخدام موقعها المركزى كمحور تنطلق منه للسيطرة على أوروبا ولكن المهمة كانت أكبر من إمكانياتها ولذلك أعطيت دور دولة عازلة مجزأة بين الشرق والغرب .

جـ- إيطاليا : (الشكل ٣٤)

تم توحيد ايطاليا حديثا . وقبل منتصف القرن التاسع عشر كانت إيطاليا تستخدم كممربرى بواسطة المغيرين الذين كانوا يفدون من الشمال عبر ممرات جبال الألب أو عن طريق صقلية من شمال أفريقيا . فقد خضعت أجزاء مختلفة من إيطاليا أثناء فترة التمزق هذه لحكم الأسبان والألمان والأغريق والبيزنطيين والفرنسيين والعرب .

وفى القرن التاسع عشر اجتاحت إيطاليا موجة من القومية اللغوية بلغت أوجها فى تلك المحاولة الجادة للتوحيد الذى قادته مملكة بيمونت وسردينيا بنجاح من قاعدتها فى ولاية بيمونت فى الجزء الغربى من وادى نهر البو . ورغم معارضة النمسا والبابا وبعض الحكام المحليين تم فى الفترة ما بين ١٨٥٩و١٨٧٠ ضم أجزاء ايطاليا الأخرى تارة بالقوة وتارة بالاقناع إلى سردينيا – بيمونت . وهكذا كانت بداية الدولة الحديثة . ثم فقدت منطقة النواة ، بيمونت ، العاصمة لصالح مدينة روما بحكم موقعها الوسط وأهميتها التاريخية والدينية . وكما حدث فى ألمانيا فقد جاء الدافع للوحدة من منطقة هامشية ولكن عملية التوحيد تمت أسرع مما حدث فى ألمانيا كما أن الوحدة كانت أكثر ثباتا ، ومن ثم خرجت إيطاليا من الحرب الثانية متماسكة .

أما سبب الوجود Raison d'etre بالنسبة لايطاليا فتتمثل فى اللغة الايطالية وآدابها وثقافتها كما أن هناك عناصر موحدة مثل الدين الكاثوليكى وتراث الإمبراطورية الرومانية والإطار الطبيعى لشبه الجزيرة . أما الصراعات الداخلية الحادة فهى قليلة إلا من التباين الاقتصادى بين الجنوب المتخلف والشمال الصناعى المتقدم ، ووجود أقلية ألمانية فى تايرول الجنوبية والقوة التى يتمتع بها الحزب الشيوعى فى الإقليم الشمالى الأوسط من البلاد .

التطور الاقليمي لايطاليا

مملكة بيومنت

توسع الدولة ١٨٥٩

" " ١٨٦٠

" " ١٨٦٦

" " ١٨٧٠

" " ١٩١٩-١٩٢٠

الحدود الحالية

كورسيكا

سردينيا

صقلية

٣٠ كم

شكل (٢٤)

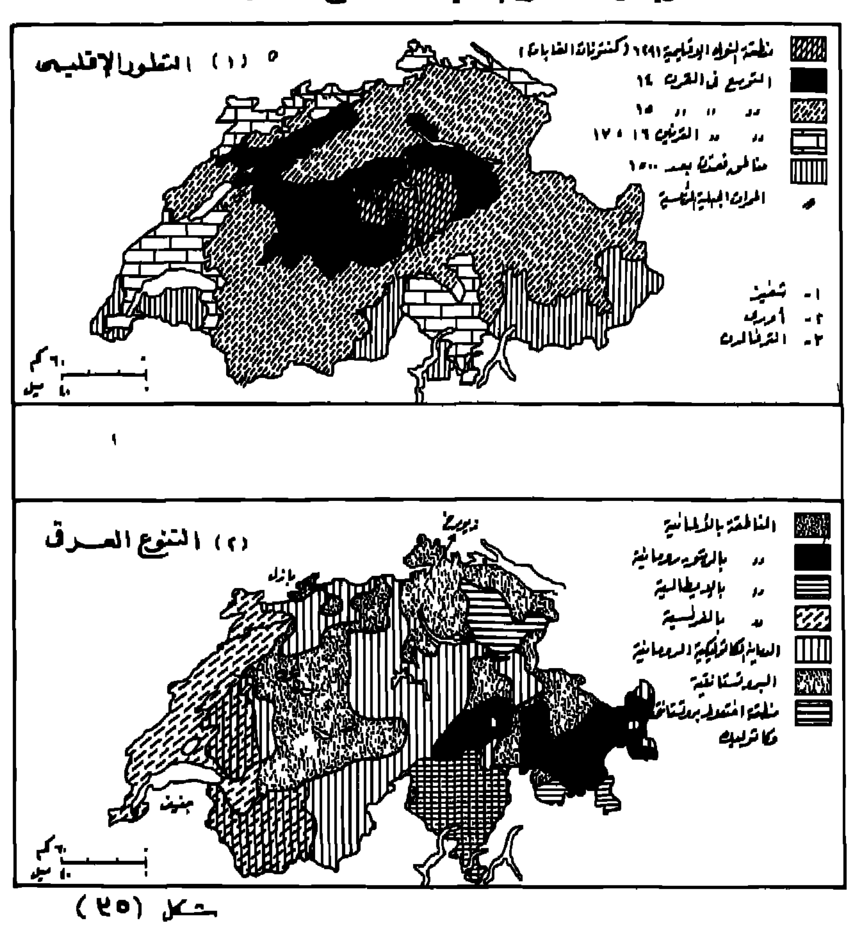
٥ - سويسرة وبلجيكا : (الأشكال ٣٢و٣٥).

يعد الحد الفاصل بين اللغات الرومانسية فى الجنوب واللغات الألمانية فى الشمال أهم تخوم لغوى فى أوروبا الغربية . وتفرشخ سويسره وبلجيكا هذه الحدود اللغوية وتتشابهان فى نواحى معينة ولكن النجاح لن يكون حليف إلا واحدة منها .

فسويسره تعتبر من أكثر دول أوروبا فعالية واستقرارا ومن أقواها من ناحية الشعور بالوطنية على نطاق القارة كلها تقريبا . وإذا أخذناها من ناحية الحجم والسكان أو القوة العسكرية فهي ليست بذات أهمية كبرى ، ولكن أهميتها تكمن فى قدرتها على توحيد شعوب متباينة ثقافيا ، فسويسرة منقسمة ليس من الناحية اللغوية فقط بل من الناحية الدينية وجغرافيتها الطبيعية أيضا . فمن الناحية اللغوية يتكلم أكثر من ٧٠٪ من سكانها باللغة الألمانية ، ١٩٪ منه باللغة الفرنسية ، ١٠٪ باللغة الإيطالية وأقل من ١٪ باللغة الرومانشية Romansh . أما من الناحية الدينية فإن حوالى ثلاثة أخماس السكان تدين بالبروتستانتية ويسكن معظمهم فى المدن . أما الباقى فينتمون إلى الديانات الكاثوليكية الرومانية وينحصرون أساسا فى المناطق الريفية . وينعكس هذا التنوع البشرى فى عدم وجود ثقافة سويسرية أصيلة : فالعلماء والموسيقيون والكتاب الذين يتكلمون اللغة الألمانية يضمون عادة إلى الثقافة الألمانية كما أن الفرنسيين والإيطاليين السويسريين ينتمون ثقافيا إلى فرنسا وإيطاليا . أما جبال الألب فلها أيضا دور فى تمزق سويسره لأنها أدت إلى تركز السكان فى أودية منفصلة عن بعضها البعض . ورغم هذه القوى الطاردة بقيت سويسره متماسكة مزدهرة ومتحدة .

فالنجاح الذى أحرزته سويسره فى ضم هذه المجموعات المتباينة تحت راية الوحدة والتضامن يرجع إلى فترات تاريخية مضت . فقد كان سكان الشواطئ الشرقية لبحيرة لوزيرن يحتلون المدخل الشمالى لممر سان جوتهارد-St. Gott hard Pass . الذى كان يربط بين إيطاليا والأراضى الألمانية فى القرن الثالث عشر . وقد أعفاهم إمبراطور الرومانية المقدسة من رسوم الاقطاعية نظير وعدهم بمنع الملاك المجاورين من السيطرة على الممر . ولكن هذه الحرية لم تدم كثيرا تحت حكم

٢٥ سويسرة : التطور الإقليمي والتنوع العرقي



شكل (٢٥)

عائلة هايسبيرج القاسى مما أدى إلى عصيان الرجال الأحرار من أورى Uri واوبفالدن ونيدفالدن Obwalden ، Nidwalden وشفيز Schwyz لاستعادة حقوقهم المسلوبة . ونجح التمرد وكانت ميلاد الكونفدرالية السويسرية . وأصبحت ذكرى حرب الاستقلال هذه وبطل ملحمتها العظيم وليام تل William Tell وقودا يؤجج الروح الوطنية ويذكى الشعور القومى . وفى مراحلها الأولى كانت اللغة الألمانية هى لغة الدولة التى تمركزت على البحيرة التى كانت تربط بين الكانتونات المختلفة . واستلمت كانتون شفيز زمام القيادة مبكرا وأعطت اسمها المحرف Schweiz (Switzerland) للدولة كلها . وزودت الجبال المحيطة بالبحيرة الحماية الكافية للدولة الوليدة التى أخذت تقوى حتى استطاعت فى عام ١٣١٥ إلحاق الهزيمة بقوات الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى مورقارتن ثم تبعتها بنصر على النمساويين فى سيباخ فى عام ١٣٨٦ مما قوى من مطالبتهم بالاستقلال ودعمها . وقد شجعت هذه الانتصارات المتتالية الدول المدينية المجاورة مثل لوزيرن Luzern وريوريخ وزوق Zug وبيرن Bern للانضمام للكونفدرالية السويسرية فى القرن الثالث عشر . ومع هذه المرحلة الثانية للنمو الإقليمى أخذت المدن تسيطر على المنطقة الريفية للكانتونات الاربعة Unterwalden . وفى عام ١٤٧٦ اشترى السويسريون مدينة فينترتور Winterthur من عائلة هايسبرج . أما مرحلة التوسع الثالث فقد حدثت فى القرنين الخامس والسادس عشر وفيها تمت السيطرة على ممرات جبال الالب ومناطق العبور على نهر الراين ، كما تم ضم منطقة تيسينو Ticino الناطقة بالايطالية وفود Vaud الناطقة بالفرنسية . وقد كانت الشهرة العسكرية السويسرية طاغية لدرجة أن البابا وآخرون كانوا يستأجرون جنودا مرتزقة من الكونفدرالية للاستعانة بهم فى حروبهم .

ومع مرور الزمن تقوى « سبب الوجود » السويسرى الأصلى (أى الدعم المتبادل للحفاظ على الحرية) بسبب وجود آخر وهو الوقاية من الحرب . وبعد انتهاء فترة التوسع العسكرى حرصت سويسرة على تجنب الحروب التى اجتاحت أوروبا فى القرون الثلاثة الماضية . ورغم تغلغل الديانة البروتستانتية فيها فقد استطاعت سويسرا أن تتجنب حرب الثلاثين سنة وأيضا الحربين العالميتين . ويمكن أن نعزو نجاح

حيادها جزئيا إلى مناطق القلاع الجبلية Folks fortiesses التى يدافع عنها جيش احتياطى قوى يتكون من الذكور فيا بين العشرين والخمسين من العمر. أما الصراع الكامن بين المجموعات العرقية المختلفة فقد أمكن تفاديه بمنح مزيد من الحكم الذاتى المحلى للكانتونات وظلت الحكومة المركزية ضعيفة كما لم تحدث محاولات من الأغلبية الألمانية لفرض ثقافتها على الأقلية اللاتينية . وقد اعتقد السويسريون فى وقت مضى بأن تجربتهم الناجحة فى توحيد مجموعات متباينة من البشر ستكون ذات فائدة وقيمة لأوروبا والعالم أجمع ، ولذلك قاموا بتدعيم ومساندة عصبة الأمم وقدموا مدينة جنيف كمقر لها . ونظرا للفشل الذريع الذى منيت به العصبة الدولية لم يأبه السويسريون بالانضمام للأمم المتحدة التى قامت على أنقاض المنظمة الدولية الأولى .

أما بلجيكا فهى أيضا تقع على جانبى الحدود بين اللغتين الرومانسية والألمانية التى تربط بين الفلمنك فى الشمال والولون الفرنسيين فى الجنوب ، ولكن ميزة بلجيكا على سويسره أن سكانها يدينون بالديانة الكاثوليكية الرومانية . وقد سعت الدولة البلجيكية ، التى لاتختلف كثيرا عن سويسره فى مساحتها وقوتها العسكرية ، إلى تقليد نجاح السويسريين فى سياسة الحياد وتوحيد العناصر البشرية المتباينة ، ولكنها باءت بالفشل ولذلك فإن هذه الدولة يتهددها عدم الاستقرار نتيجة الصراع بين العنصرين البشريين الأساسيين اللذين يتكون منهما سكانها .

ويمكن ملاحظة اختلافات عديدة بين سويسره وبلجيكا يمكن أن تفسر لنا التناقض فى وضع الدولتين :

١ - فبلجيكا أحدث عمرا إذ يرجع نشأتها إلى عام ١٨٣٠ عندما انفصل سكانها الكاثوليكيون من هولنده التى كانت تحت سيطرة البروتستانت وقد كان البلجيكيون الناطقون بالفرنسية ، الولون Walloons ، يفضلون الانضمام إلى فرنسا أكثر من اتحادهم مع الفلمنكيين Fleming الجرمانيين ، ولكن بريطانيا وألمانيا وقفتا ضد تحقيق هذه الرغبة لمعارضتهم للتوسع الإقليمى لفرنسا .

٢ - لم تظهر بلجيكا إلى الوجود بناء على رغبة سكانها بل من خلال قرار اتخذته القوى العظمى . ولهذا فقد كانت تفتقر إلى سبب الوجود raison d'etre لأن

الديانة الكاثوليكية برهنت على أنها كانت أضعف من أن تجمع بين العنصرين الأساسيين للسكان وتوحد بينهما وتزرع فيهم روح الانتماء لبعضهم البعض . كما كانت تفتقر إلى تلك العناصر الأخرى التى توثق الصلة بين أفراد الشعب مثل الكفاح المشترك من أجل الاستقلال والابطال القوميين الذين خاضوا غمار مثل هذه الحروب ومنطقة نواة . وقد وضح عدم أصالة الدولة البلجيكية بجلاء عندما تم انتخاب ملك ألمانى لها حسب رغبة نفس الدولة الكبرى التى باشرت خلق الدولة نفسها .

٣ – واختلاف آخر يتمثل فى فشل بلجيكا فى الحفاظ على حيادها . فهى أنشئت أساسا كدولة عازلة Buffer State للسيطرة على ممرات الفلاندرز الاستراتيجية التى تعتبر الطريق العسكرى الطبيعى بين ألمانيا وفرنسا ، وحدث أن أغيرت بلجيكا مرتين خلال هذا القرن . ولم تهبها الطبيعة بجبال أو معاقل طبيعية تساعدهم فى الدفاع عن أنفسهم ولذلك فشلت الدولة فى منح الحماية والملجأ لسكانها من ويلات الحرب والدفاع عنهم عندما يتعرضون للخطر والغزو من الخارج. وفى ظل غياب قوى جاذبة موحدة أو ضعفها برزت قوة الطرد المتمثلة فى التنوع اللغوى إلى المقدمة . ففى مراحل نشأتها الأولى ، كان الولوون الفرنسيون يكونون ٥٨٪ من سكان بلجيكا ويسيطرون على الدولة وفرضوا لغتهم الفرنسية على جميع السكان كلغة الدولة الرسمية الوحيدة وكان على كل من يتطلع إلى تبوء مكانة هامة أن يتكلم تلك اللغة وبقى الفلمنكيون أقلية مضطهدة ولكن بمرور السنين تفوقوا عدديا على الولوون نتيجة ارتفاع نسبة المواليد عندهم وأخيرا اصبحت لهم الاغلبية وازدادت لغتهم أهمية تبعا لذلك . ففى النصف الاخير من القرن التاسع عشر انشأت جامعة فلمنكية فى مدينة غنت Gent وفى عام ١٨٩١ اخذت لغتهم تظهر بجانب اللغة الفرنسية على الطوابع والعملة القومية ثم كان نصرهم الاكبر حينما تم فى عام ١٩٦٣ رسم حدود رسمية داخل بلجيكا تكون الافضلية شمال هذه الحدود للغة الفلمنكية (الشكل ٣٢) .

وقد شهدت الستينات حوادث عنف شديدة بين المجموعتين المتنافستين تمثلت فى حرب الشوارع فى مدينة بروكسل العاصمة حيث تسكنها أغلبية فرنسية رغم وقوعها

شمال الحدود اللغوية . كما احدث طلاب جامعة لوفان Louvain الفرنسية والواقعة فى الاقليم الفلمنكى كثيرا من الشغب وأضربوا مؤيدين المطالب التى تنادى بجعل اللغة الفلمنكية لغة التعليم فى الجامعة واغلاق كلية اللغة الفرنسية وقد نجحوا فى مسْعاهم وتم لهم ما أرادوه .

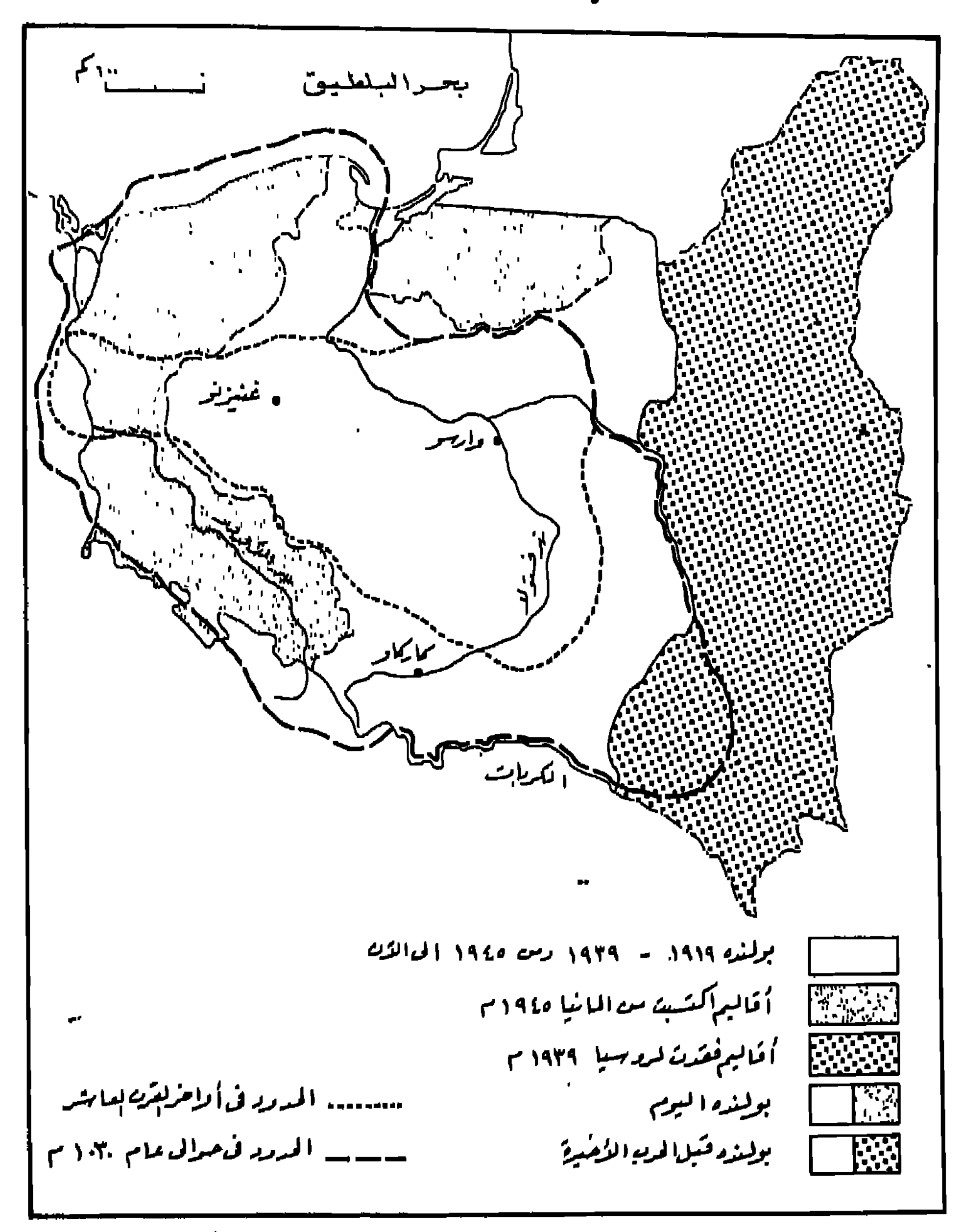
وهكذا يوجد شعبان داخل دولة بلجيكا ، ولكى تبقى الدولة وتستمر فعلى الحكومة أن تمنح الحكم الذاتى لكل مجموعة من المجموعتين المتصارعتين . وفعلا صوت البرلمان البلجيكى فى أغسطس ١٩٨٠ إلى جانب قرار يقضى بمنح الحكم الذاتى لأقاليمها والاعتراف بكامل الحقوق للفئتين المتصارعتين .

٦ - بولنده (بولونيا) : (الشكل ٣٦) .

برهنت أوروبا الشرقية بأنها أقل المناطق السياسية فى أوروبا استقرارا ، وكملتقى لغات عديدة متباينة مثل الصقالبة (السلافية) والألمانية والرومانسية ، وديانات مختلفة مثل البروتستانتية والكاثوليكية والأرثودكس الشرق والاسلام ، طورت المنطقة نمطا عرقيا معقدا أدى بدوره إلى ظهور مجموعة من الدول الصغيرة والضعيفة . وقد جرى التقليد عند علماء الجغرافية السياسية والسياسيين بتسمية هذه المنطقة « حزام التمزق Shatter Belt » اعترافا بهذا التجزؤ السياسى الذى تتميز به المنطقة . وفى هذا النطاق المتمزق تقع بولنده .

فنى عام ٩٦٠ ميلادية اجتمع عدد من القبائل السلافية المحلية فى المنطقة الواقعة حول بحيرة غوبلو Goplo ومدينة غنيزنو « Gniezno » عند جنوب غرب منحنى نهر فستولا الكبير لتكوين نواة الدولة البولندية ، وأعطت أكبر تلك القبائل اسمها « Polans or Poljame » إلى الدولة الناشئة ، كما أصبحت منطقة النواة تعرف باسم « بولنده العظمى Wielkopolska ». ثم أخذت بولنده تتوسع وفى أقل من مئتى سنة امتدت حدودها جنوبا إلى جبال الكربات وغربا إلى نهر الأودر Oder وشمالا حتى ساحل البلطيق وشرقا حتى نهر بق Bug . ومن أسباب هذا التوسع السريع فى كل الجهات خلوها آنذاك من تنظيم سياسى منافس خارج وداخل الدولة . وكمثيلاتها من الدول الأخرى شهدت بولندة فترة تمزق وعدم استقرار

التطور الإقليمى لبولنده



شكل (٢٦)

وضعف فى الفترة ما بين ١١٤٠ إلى ١٣٣٣ وفقدت نتيجة ضعف حكومتها أجزاء من أراضيها فى الغرب والشمال للفرسان التيوتونيين Teutonic Knights الألمان .
وتجاوبا مع هذا الفقد والتقلص الإقليمى سحب البولنديون عاصمتهم إلى كاركاو Karkow الواقعة عند سفوح جبال الكربات أى إلى الجنوب والشرق من غنيزنو

وبعد هذه الانتكاسة دخلت بولندة عصرها الذهبى عندما أخذت قيادتها الطموحة تتوسع وتمتد فى الفترة ما بين أواخر القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر وقد بدأ هذا العصر مع اعتلاء الملك كاسمير Casimir العظيم عرش بولنده ويشمل أيضا الوحدة التى تمت بينها وبين ليتوانيا فى ١٣٨٦ .. وفى توسعهم ضم البولنديون أراضى تمتد من البلطيق حتى البحر الأسود ومن لاتفيا وأستونيا إلى نهر الدنيبر . كما تم القضاء المبرم على الفرسان التيوتونين وضم كل بروسيا الشرقية والمنطقة التى عرفت فيما بعد بالرواق البولندى . وهكذا أصبحت بولنده أكبر دولة فى أوروبا وخضعت تحت سلطان ملوكها شعوب أخرى مثل الألمان والأكرانيين وشعب روسيا البيضاء والليتوانيين ومجموعات أخرى .

ولكن لم يمض وقت طويل حتى ظهرت دول منافسة قوية حدت من عظمة بولنده ، مثل الدولتان الألمانيتان ، بروسيا والنمسا من الغرب ودولة سلافية قوية هى روسيا من الشرق . وفى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر تعرضت بولنده إلى ثلاثة تقسيمات وضمت الدولة المنافسة أجزاء من بولنده إلى أراضيها إلى أن اختفت الدولة البولندية من خريطة القارة . وقد لعب موقعها في السهل الأوروبى العظيم وخلوها من مناطق دفاعية إلى انهيارها التام تحت ضغط جاراتها القوية ، وظهرت معادلة قاسية تحكم مصيرها :

ألمانيا قوية + روسيا ضعيفة = بولندة تسيطر عليها الألمان.
ألمانيا ضعيفة + روسيا قوية = بولندة تسيطر عليها الروس
ألمانيا قوية + روسيا قوية = لا وجود لبولندة

وشهد القرن الثامن عشر ولادة دولتين ألمانيتين قويتين وروسيا قوية مما أدى إلى اختفاء بولنده من الخريطة . ثم ظهرت الدولة البولندية لفترة وجيزة عندما هزم

نابليون بروسيا والنمسا وروسيا ولكنها وقعت للمرة الثانية تحت سيطرتهم بعد عام ١٨١٥م .

وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى حدث وضع أصبحت فيه ألمانيا وروسيا دولا ضعيفة ، وفى غياب هاتين الدولتين ظهرت بولندة من جديد ، ولكنها اختفت للمرة الثانية فى عام ١٩٣٩ نتيجة تقسيمها بين الجارتين القويتين : روسيا وألمانيا اللتين استعادتا قوتيهما بعد الحرب وقامتا بالسيطرة على بولندة . وأثناء الحرب العالمية الثانية حقق الغزو الألمانى وضعا مؤقتا أصبحت فيه ألمانيا قوية وروسيا فى موقف الضعف أى المعادلة الأولى وظهرت دولة بولندية تابعة تحت الاحتلال الألمانى . ولكن النتيجة النهائية للحرب كانت المعادلة الثانية : فقد انهزمت ألمانيا وخرجت روسيا منتصرة وقوية وتحت سيطرتها ولدت الدولة البولندية من جديد عام ١٩٣٥م . ومنذ ذلك الوقت ما زالت بولندة تحت سيطرة الروس . وقد بدأ اعتماد بولندة على روسيا عندما منح ستالين لبولندة ربع الإقليم الألمانى قبل الحرب والذى يتكون من سايليزيا Schelsien (Silesia) ، وبومـــيرن Pommern وبروسيا الشرقية Ostpreussen) بعد طرد الألمان منها . وكان على بولندة الاعتماد على الحماية الروسية لتحتفظ بهذه الأراضى الجديدة ، وأصبحت حدود بولندة الجديدة موازية لحدودها فى عامى ١٠٠٠ أو ١١٠٠ ميلادية .

ويبدو من هذا السرد أن مصير بولندة تتحكم فيه قوى خارجية . ففى أيام محنتها لم تنفع الأحلاف التى عقدتها مع فرنسا والمملكة المتحدة ، ورغم ما تتمتع به بولندة الحديثة من وحدة داخلية مبنية على اللغة والدين وتاريخ طويل فإنها ليست دولة مستقلة بالمعنى المفهوم للاستقلال ، ويبدو أن الصراع الحالى بين عمال ومزارعى ومثقفى الشعب البولندى والحكومة ما هو إلا انعكاس لهذا الوضع المزرى لهذا الشعب .

(٧) تشكوسلوفاكيا : (الشكل ٣٧) .

كانت مشكلة تشكوسلوفاكيا التقليدية تكمن قبل الحرب الثانية فى موقعها بين مجموعات ألمانية عديدة لأن السيطرة السوفيتية عليها لم تحدث إلا بعد الحرب الأخيرة .

التوحيد السياسي
فى تشيكوسلوفاكيا

جبال سوديتز

براغ

فيينا

براتيسلافا

بودابست

مملكة بوهيميا ١٤٧٥

الحدود بين اللغة التشيكية والسلوفاكية

حدود تشيكوسلوفاكيا الحالية

مناطق أضافتها تشيكوسلوفاكيا بعد الحرب ورفضت .

حدود روثينيا (ضمت إلى روسيا بعد الحرب الثانية .

حدود دفاعية لقلعة تشسكا الشعبية

بوهيميا

منخفض مورافيا

جبال الكربات

حوض المجر

١٥٠ كم

١٠٠ ميل

شكل (٤٧)

وقد استطاع التشيك من المحافظة على كينونتهم الثقافية وتطوير دولة التشيك Ceske في حوالى عام ٩٠٠ ميلادية في قلعة بوهيميا الشعبية Folk fortress الواقعة بين النمسا والسهل الألماني الشمالي. وقد استطاعت مجموعة تعرف بالبريمسليدز Premyslids ، التي كانت تأخذ منطقة براغ قاعدة لها ، من إلحاق الهزيمة بقبائل منافسة وتوحيد التشـيك ومورافا داخل حدود شبيهة بالحدود التشكوسلوفاكية الغربية . ثم أصبحت تشيك مملكة داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة ولكنها احتفظت بوضعها المستقل حتى عام ١٥٢٦ عندما ضمتها عائلة هابسبيرج للنمسا . وفي عام ١٩١٨ ظهرت تشيك باسم تشكوسلوفاكيا للمرة الثانية بعد ضم أجزاء من ما تبقى من الإمبراطورية النمساوية المجرية ، ولكن حدثت أخطاء في مرحلة تكوين الدولة الجديدة . وأكبر هذه الأخطاء فداحة هو ربط التشيك سياسيا مع السلوفاكيين والروثنيـين Ruthenians ليكونوا دولة قومية طويلة وضعيفة وتحتوى على مجموعات سلافية مختلفة .

فقد ضحت الدولة الحديثة بتلك الوحدة العرقية والتكتل المساحي التي كانت تشيك الأصلية تتمتع بها . ثم أضيف إقليم سوديت Sudetenland التي يسكنها الألمان إلى الدولة الجديدة وتم ربط هذه الأقاليم المتنافرة عرقيا بشبكة فقيرة من النقل الداخلي، وكان ضم النمسا للرايخ الألماني على يد هتلر في عام ١٩٣٨م يعني وجود الألمان حول تشيك ومورافا من ثلاثة جوانب ولم يمض وقت قصير حتى حدث الانقسام والتجزئة . فقد ضم الجزء الغربي إلى ألمانيا أو أصبحت محمية ألمانية ، بينما تحولت سلوفينا إلى دولة منفصلة تابعة لألمانيا . وبعد نهاية الحرب وهزيمة ألمانيا عادت الدولة التشكوسلوفاكية إلى الظهور ولكنها لم تنعم باستقلالها طويلا ، فقد وقعت ، مثل بولندة ، تحت السيطرة السوفيتية وباءت محاولة الاسكندر دوبشيك لاستعادة نوع من الاستقلال والحرية للدولة بالفشل على أعقاب الغزو الروسي في عام ١٩٦٨م .

(٨) يوغوسلافيـــا :

هناك أوجه شبه كثيرة بين يوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا : فكلتا الدولتين ظهرت

فى العصور الوسطى وسط مجموعة سلافية . ثم ازدهرتا لفترة قبل اختفائهما ليعاد تكوينهما مرة أخرى فى القرن الحالى كدولة سلافية متعددة اللغات . وقد نال الصرب استقلالهم فى عام ١١٨٠ عندما كانت الإمبراطورية البيزنطية تتدهور ، وكانت دولتهم تقوم فى منطقة Polia أى المنخفضات الدينارية الخصبة حول المركز الدينى فى بيكى Pec . وبعد أربعين عاما تقلد حكام الصرب Serbia لقب الملك ووصلت الدولة قمة مجدها فى منتصف القرن الرابع عشر عندما بلغت حدودها إلى البحرين ، الإدرياتى وإيجه . ولكن الدولة اندثرت بعد هزيمة منكرة على يد الأتراك فى عام ١٣٨٧ ، لتعود للظهور مرة ثانية فى عام ١٨١٧ ولكن كدولة تابعة للأتراك . . ثم نالت استقلالها التام فى وقت لاحق من نفس القرن .

وقبل الحرب العالمية الأولى أخذ الصرب ينادون بالوحدة السلافية-Pan-Slavism أو التضامن السلافى واحتجوا بوجه خاص على المشاكل التى يتعرض لها السلاف الجنوبيين تحت حكم الامبراطورية النمساوية - المجرية . وقد جنى الصرب ثمار احتجاجهم اذ ظهرت بعد الحرب دولة صربية اكبر حجما : دولة سلاف جنوبيين تضم ليس الصرب فقط بل الكرواتيين Croats والبوسنيين Bosnians والمقدونيين Macedonians وغيرهم : فكلمة «يوغسلافيا Yogoslava أو Jugoslavija تعنى فى الاصل «أرض الصقالبة» (السلاف) الجنوبيين Land of the South Slavs » كما ضمت ديانات مثل الكاثوليكية والمسيحية الأرثوذكسية الشرقية والاسلام .

ولكن هذا الاتحاد لم يحالفه النجاح التام . فهذه المجموعات المتباينة من الشعوب من الصعب توحيدها وصهرها فى بوتقة دولة واحدة . فتماسك يوغسلافيا الحالى ووحدتها يرجع إلى شعبية رئيسها السابق جوزيب بروز تيتو قائد المقاومة ضد الاحتلال الألمانى أثناء الحرب العالمية الثانية . وقد حاول تيتو التغلب على الاختلافات العرقية الإقليمية بمنح حكم ذاتى لكل مجموعة ثقافية لتدبير شئونها الخاصة . فحدود الجمهوريات والمقاطعات داخل الدولة مرسومة على طول الخطوط اللغوية والدينية ، والجمهوريات تتمتع بحكم ذاتى كبير . ولكن هناك مشكلة مازالت متعلقة بدون

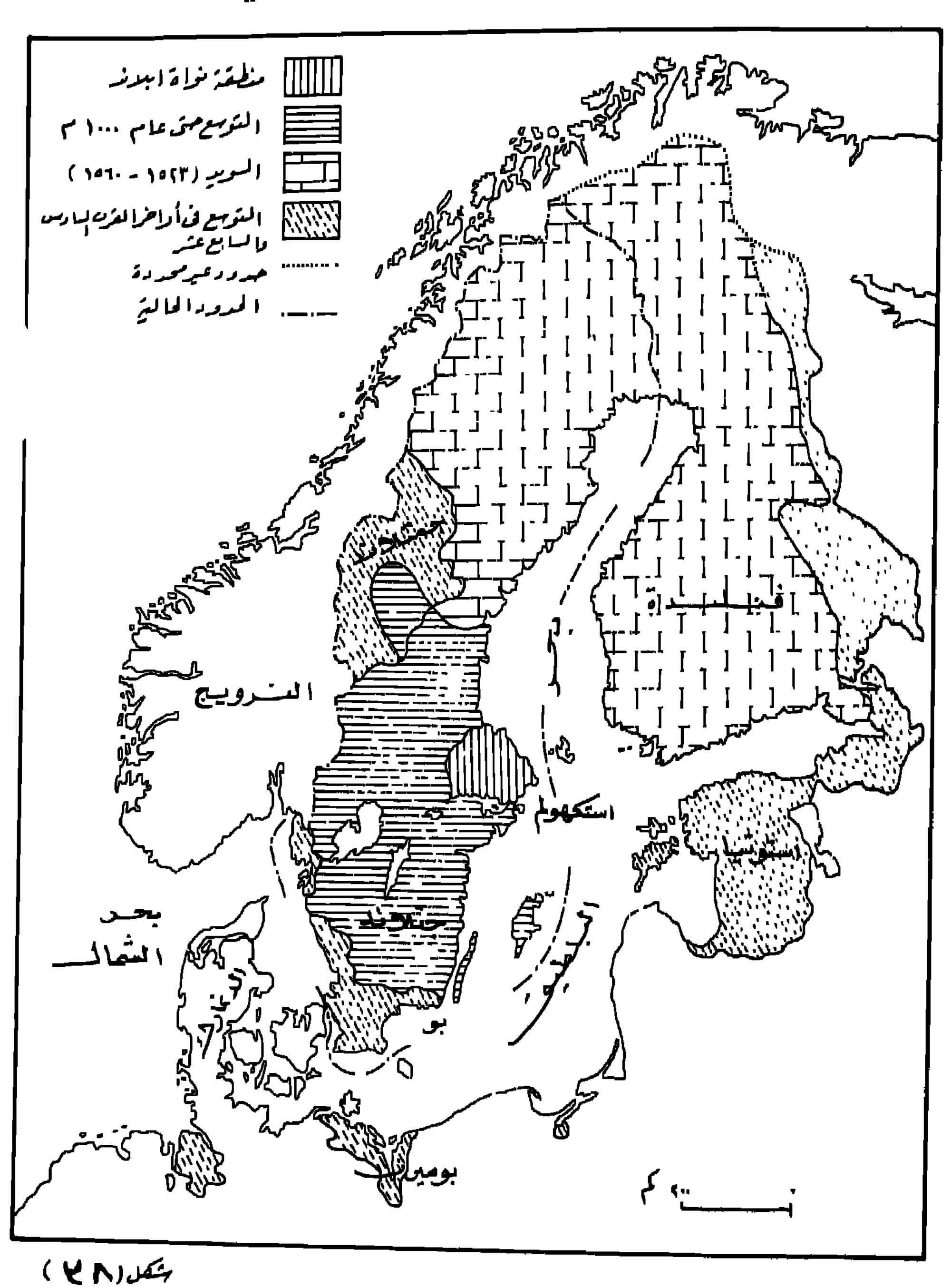
حل : امشكلة المنافسة بين الصرب والكروات لما لديهم من تقليد قديم للاستقلال السياسى يرجع إلى العصور الوسطى . فالكرواتيون الذين يسكنون فى الجمهورية التى تحمل اسمهم « كرواتيا Croatia » يشعرون بأن جزءا كبيرا من دخل جمهوريتهم الغنية نسبيا تذهب إلى الحكومة المركزية التى تنفقها على الجمهوريات الجنوبية الفقيرة مثل مقدونيا ، كما انهم يتذمرون من السيطرة السياسية لبلغراد الصربية ومن صورة يوغسلافيا نفسها كامتداد لدولة الصرب (صربيا) القديمة . وهذا الامتعاض والتذمر من الصرب يفسر لنا لماذا قبل الكروات عن طيب خاطر وضعهم كدولة منفصلة تابعة للألمان أثناء الاحتلال الألمانى ليوغسلافيا خلال الحرب الثانية . وربما يحاول الكروات الانفصال من الدولة اليوغسلافية بعد وفاة تيتو وهل يطلبون مساندة الروس هذه المرة ؟ فالاختلاف الأساسى بين الصرب والكروات اختلاف دينى ولو أنهم ينتمون إلى كنائس مختلفة فأهل كرواتيا معظمهم يتبعون الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بينما يتبع الصرب الكنيسة الأرثودكسية الشرقية .

أما لغتهم فهى لغة واحدة ، وهناك مشاكل أخرى تواجه الدولة اليوغسلافية مثل نزاعات الحدود بينها وبين بلغاريا وألبانيا ، فبلغاريا تشعر أن الصقالبة المقدونيين ينتمون إلى بلغاريا بينما ترغب ألبانيا فى ضم منطقة كوسوفو- ميتوهيا Kosovo - Methoija فى جنوب يوغسلافيا والتى يتكلم سكانها اللغة الألبانية إليها .

(٩) السويد والدنمارك : (الشكل ٣٨) .

وصل إقليم أوروبا مجده السياسى على يد دولتين صغيرتين هما الدنمارك والسويد . ففى منتصف القرن العاشر الميلادى وفى شبه جزيرة جيلاند Jylland تمت الوحدة الدانمركية على يد قبيلة كانت تتخذ مدينة جيلينج Jelling القديمة مقرا لها . ثم تجهت أنظار الدنماركيين فى البداية نحو بحر الشمال اذ عبروا البحر وحكموا انجلترا كلها للفترة ما بين ١٠١٤ إلى ١٠٤٢ تحت ملكهم كنوت Canute ثم تحولوا باهتمامهم إلى الشرق إلى جزر أرخبيل البلطيق المجاورة والجزء الجنوبى من السويد الحالية وأثناء هذه العملية اخـــذوا يركزون اهتمامهم أكـــثر على

التوسع والتقلص الإقليمي للسويد



شكل (٢٨)

الأراضى القريبة من مضيق بحر البلطيق وبالأخص على جزيرة زيلاند Sjaelland . ثم خلفت مدينة روسكيلد Roskilde ثم كوبنهاجن جلنج القديمة كعاصمة للدولة . اما محاولاتها لتصبح القوة الرئيسية فى هذه المنطقة عن طريق ضم اراض متباينة مثل استونيا وبوميرنPommern ومكلنبرج Mecklenburg تحت سيطرتها ، فكان مصيرها الفشل لتصدى الألمان والسويد ومعارضتهم لمثل هذه السياسة التوسعية . ومن ثم استقرت الدنمارك فى وضعها الحالى كدولة صغيرة وضعيفة عسكريا . وقد وجدت الدنمارك بعض الحماية من موقعها الجزرى وشبه الجزرى ويعزى وحدتها الحالية إلى اللغة الواحدة والعقيدة اللوثرية . أما الملكية فقد فقدت معناها ومغزاها القومى لتعاونها مع الغزاة الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية

أما السويديون فقد اتخذوا مدينه بسالا Uppsala الواقعة فى إقليم ابلاند Uppland مقرا لهم فى البداية ويرجع تاريخ احتلالهم للقبائل المجاورة ومن ضمنها الغوطGoths الى حوالى القرن السابع الميلادى أو قبله وكان لابد للدول السويدية اليافعة أن تتجه بأنظارها إلى الشرق نحو بحر البلطيق لأنها وجدت طريقها للوصول إلى ممرات كاتيقات Kattegat وسكاجراك Skagerrak والتى تربط بين بحر البلطيق وبحر الشمال ، مقفولة بالإقليم النرويجى والدنماركى . فقد كانت الدنمارك تحتل حتى عام ١٦٥٨ أغنى مناطق السويد الحالية زراعيا ، وهى اسكانيا . ولكن الأقاليم التى ضمتها السويد إلى ممتلكاتها كانت كبيرة وتشمل فنلنده (١٢٥٠) كاريليا الجنوبية Karelia (١٣٠٠) واستونيا Estonia (١٥٦١) ولاتفيا Latvia (١٦٢١) وبعض المناطق الساحلية من ألمانيا (١٦٤٨) . كما امتد نفوذها إلى داخل روسيا على طول الطرق النهرية التجارية المؤدية إلى الأجزاء الشرقية من البحر الأبيض المتوسط . ولكن هذه العظمة السياسية لم تدم طويلا إذ ظهرت دولتان قويتان هما روسيا وألمانيا اللتان ضمتا أجزاء كبيرة من الأقاليم السويدية . وإزاء هذا التهديد والتوغل الإقليمى اتبعت السويد سياسة حيادية ناجحة وقد ساعدها فى هذا الاتجاه موقعها الهامشى بعيدا من منطقة الصراع الأساسية فى وسط وشرق القارة وموقعها المحمى بواسطة بحر البلطيق . ويرجع سبب وحدتها الحالية جزئيا إلى التناغم اللغوى الذى تتمتع به السويد إلا من أقليات يورالية

Uralic ولابية Lapp ، فنلندية وهى أغلبيات ضئيلة لايمكن ان تصبح مصدر قلاقل سياسية . ولكن نقطة ضعفها كدولة سياسية تعبر عن اللغة السويدية تكمن فى عجزها عن استعادة السكان الناطقين بهذه اللغة والذين يسكنون المناطق الساحلية من فنلنده وجزر الالند (Ahvenamaa) Aland . ومع اللغة يبقى الدين من عوامل الوحدة السويدية ، فالسويد من أوائل الدول التى تبعت المذهب البروتستانتى وهى تتذكر بفخر دورها فى الحفاظ على هذه الديانة إبان حرب الثلاثين سنة واليوم يتمتع السويديون بأعلى مستوى معيشى فى أوربا مما يقوى من مساندة الشعب وتلاحمه كما يخلو المجتمع من تباينات طبقية قد يؤدى إلى تمزيقه وتفتته .

(١٠) قبرص :

تتمتع هذه الجمهورية بوضع نادر : فرغم انها من أقدم مهود الحضارات فى منطقة البحر المتوسط ، ورغم موقعها كملتقى طرق بين حضارات الشرق الادنى وحضارات أوروبا فهى لم تتمتع بحكومة ذاتية فى تاريخها الطويل إلى أن نالت استقلالها من بريطانيا فى ستينات هذا القرن . فقد خضعت الجزيرة فى وقت أو آخر لحكم وسيطرة كل القوى الكبرى التى سادت على هذه المنطقة . . من آشوريين ويونان وفينقيين ومصريين وفرس ورومانيين وبيزيطيين وعرب ، وأتراك وبريطانيين ومما يبعث على الدهشة أن واحدة من هذه القوى لم تخلف نفوذا وأثرا على هذه الجزيرة إلا الأتراك واليونانيين الذين تركوا بقايا عرقية من فترة سيطرتهم عليها ولهذا نجد أن سكان الجزيرة يتكونون من عنصرين متنافرين : أربعة أخماس منه من الإغريق الكاثوليكيين والخمس من الاتراك المسلمين .

وقد تجنبت قبرص بفضل الادارة البريطانية التى بدأت فى عام ١٨٧٨ أن تكون طرفا فى الحرب الطويلة التى دارت بين اليونان وتركيا فقد أراد البريطانيون أن تكون الجزيرة محطة تحرس المدخل الشمالى لقناة السويس ولذلك احتفظوا بها . ولكن تأميم قناة السويس على يد قادة ثورة يوليو فى مصر ثم حركة الاينوسيس Enossis ضد الاستعمار أفقدت الجزيرة اهميتها بالنسبة للانجليز الذين سارعوا فى عام ١٩٦٠ عنحها الاستقلال تاركين الجزيرة فى وضع يحسد عليه .

ولكن الصراع اليونانى - التركى الذى بدأ فى أواخر الحكم البريطانى ما زال يشكل المشكلة الأساسية لهذه الجمهورية . فاليونانيون الذين يكونون أغلبية سكان الجزيرة يفضلون الوحدة مع اليونان بينما يطلب الأتراك إما الاستقلال التام للجزيرة مع منحهم صوتا أكبر فى الحكومة أو تقسيم الجزيرة إلى منطقتين يونانية وتركية وتوحيد كل جزء مع الدولة الأم .. الجزء التركى مع تركيا والجزء اليونانى مع اليونان . وهذاالتقسيم يستحيل تنفيذه الا عن طريق النقل الاجبارى للسكان لأن الوضع الحالى للسكان فى الجزيرة يحول دون ذلك .. فقد اختلط السكان من الجاليتين فى كثير من المناطق وقد يؤدى التقسيم إلى كثير من المعاناة والمشاكل الانسانية التى شهدتها أوروبا بعد الحرب ، وقد ساعد فى تصاعد المشكلة وتفاقمها احتلال تركيا بعد انقلاب لأجزاء من الجزيرة كانت تتبع للقبارصة اليونانيين قبل الانقلاب . وما زالت المناقشات دائرة فى حل هذه المعضلة : القبارصة الأتراك الذين يحتلون مناطق كانت أصلا تابعة للقبارصة اليونان .

(٥) نظرية الصراع بين المنطقة المركزية والمنطقة الهامشية

Heartland - Rimland Contest

سلكت دراسة الجغرافية السياسية لقارة أوروبا اتجاهين :

(١) اتجاه يركز فى دراسة الدول والقوى الداخلية والخارجية التى تؤثر فى نمو هذه الدول واضمحلالها كما أوضحنا فى النماذج التى اخترناها للدراسة .

(٢) اتجاه آخر يتناول بعض الأنماط العامة وبالأخص إمكانية بعض القوى فى السيطرة على كل القارة أو بعض أجزائها .

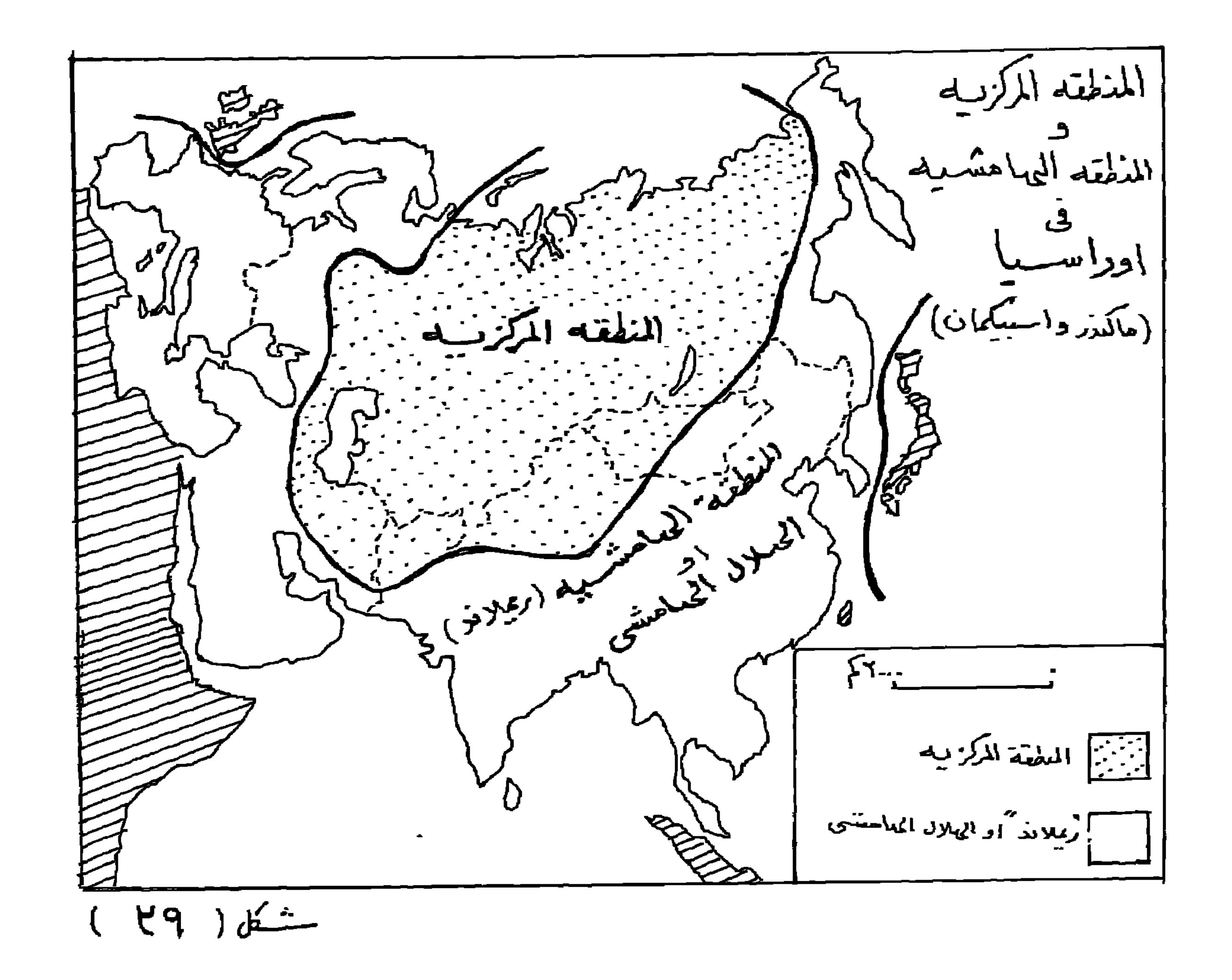
لم يحدث أن وقعت أوروبا تحت السيطرة العسكرية لدول كبرى إلا خلال فترات قصيرة عندما استطاع نابليون الفرنسى وهتلر الألمانى من إخضاع أجزاء من القارة تحت سيطرتيهما . ورغم أن هذه السيطرة لم تدم طويلا فإن بعض الجغرافيين السياسيين يؤمنون بوجود إمكانية حقيقية لسيطرة أوروبا من قبل قوة كبرى واحدة . ومن النظريات الشائعة التى تؤيد هذا الرأى نظرية الجغرافى البريطانى هالفورد ماكينـــدر Halford Mackinder التى اقترحها عام ١٩٠٤ ثم أدخل فيها

بعض التعديلات فى عام ١٩١٩ ، وأصبحت تعرف بنظرية قلب اليابس-Heartla nd Theory (الشكل ٣٩) .

يرى ماكيندر أن أوراسيا ستكون القاعدة التى ينطلق منها الغزو على بقية أجزاء العالم لسببين : أولا لأن هذه القارة كبيرة الحجم وذات موارد متنوعة وكثيرة ولأنها تحتوى على حوالى ٨٠٪ من سكان العالم ، وثانيا بعد الدراسة المتأنية للقارة اكتشف ماكيندر إقليمـــين آخرين ، منطقة مركزية داخلية Heartland ومنطقة هامشية ساحلية أو هلال هامشى حول طرف القارة . ويعتقد ماكيندر أن المنطقة المركزية هى التى تملك إمكانية أكبر تؤهلها لقيادة حملة لغزو العالم يساعدها فى ذلك الموقع الداخلى الذى يجعلها فى منأى من أى قوة بحرية ، أما منطقة الهلال الهامشى والتى تشمل أوروبا فهى أكثر تعرضا للغزو من قبل قوة عسكرية برية . وعن طريق عمليات دفع متكررة من المنطقة المركزية فى اتجاه خارجى ستصبح منطقة الهلال الهامشى وقوتها البحرية خاضعة لهذه القوة الداخلية ، وتصبح المنطقة المركزية قوة بحرية بعد أن تضم إليها المناطق الساحلية ومن ثم توجه هذه القوة البحرية ضد القارات والجزائر المجاورة حتى يصبح العالم كله تحت سيطرة هذه القوة المركزية . وسيحدث الاحتلال المبدئى للمنطقة المركزية فى أكثر الاحتمالات من قبل قوة تتخذ من السهل الأوروبى الشرقى قاعدة لها لأنه يمثل أكثر أجزاء المنطقة المركزية اكتظاظا بالسكان وأعظمها من ناحية الإنتاج الزراعى. ويلخص ماكيندر نظريته فى الآتى : —

(١) أن من يحكم أوروبا الشرقية يسيطر على المنطقة المركزية .
(٢) ومن يسيطر على المنطقة المركزية يسيطر على أوراسيا .
(٣) ومن يسيطر على أوراسيا يسيطر على العالم .

وفى الوقت الذى كتب فيه ماكيندر ونادى بنظريته هذه كانت الدولة الروسية قد أنجزت الخطوة الأولى من النظرية ، وعندما تبنت روسيا المبدأ الشيوعى كأساس لنظامها السياسى وأخذت تنادى بالأممية الشيوعية وتزحف على دول أوروبا الشرقية وتتوسع شرقا نحو سيبيريا والشرق الأقصى وآسيا الوسطى لقيت نظرية المنطقة المركزية



المنطقه المركزيه
و
المنطقه الهامشيه
فى
اوراسيا
(ماكندر واسبكمان)
المنطقه المركزيه
المنطقة الهامشيه (رمِلاند)
الهلال الهامشى
٢٠٠٠كم
المنطقة المركزيه
"رمِلاند" او الهلال الهامشى

شكل (٢٩)

رواجا واهتماما كبيرين . فالنظرية تنادى أو توحى بحتمية السيطرة الشيوعية على العالم . ولكن هذه النظرية مليئة بالاخطاء وأهم هذه الاخطاء هوانها تهمل أو تسقط من عدادها دور قوة الطيران والصواريخ الموجهة والاسلحة النووية . ويمكن أن نعذر ماكيندر لتجاهله هذه الابتكارات التى تكون أساس الحرب الحديثة . ، فالفترة التى صاغ فيها نظريته (١٩٠٤) كانت فترة حروب تقليدية . ولكن أحد مستمعيه أشار إلى أهمية الطيران فى المستقبل وأنه سيكمل وسائل النقل البرية (السكة حديد) والبحرية . ومتى تم ذلك فان السيطرة والقوة ستكونان من نصيب الدول الصناعية . . وليس مهما أن يكون موقع هذه الدول فى أواسط القارات أو على الجزر . . لان الشعوب التى تملك القوة الصناعية وقوة الابتكار والعلم هى التى فى النهاية ستتمكن من الحاق الهزيمة بالآخرين .

وتكمن قيمة نظرية ماكيندر فى أنها قادت إلى نظرية أخرى هى نظرية المنطقة الهامشية Rimland Theory التى نادى بها أمريكى يدعى نيقولا أسبيكمان Nichols J. Spykman فى كتاب له ظهر فى عام ١٩٤٤ بعنوان « جغرافية السلام Geography of Peace » وقد شعر سبيكمان بأن قيمة المنطقة المركزية قد أعطيت أهمية أكثر مما تستحق لأن هذه المنطقة فى رأيه تتكون من :

(١) أصقاع ذات كثافة سكانية متخلخلة .

(٢) تتكون فى معظمها من أراضى غير صالحة للزراعة من صحارى وتندرا وغابات صنوبرية .

(٣) أقل الأماكن صلاحية لتكون قاعدة لغزو العالم منها .

وهو يشارك ماكيندر فى اعتقاده بأن أوراسيا هى القارة المركزية ولكنه يختلف عنه فى أنه يضع قيمة أكبر على منطقة الهلال الهامشية أو المنطقة الهامشية Rimalnd كما أسماها . وتحتوى هذه المنطقة الهامشية على ثلثى سكان العالم وموارد طبيعية ضخمة وتشمل بالتقريب كل شعوب ودول أوروبا . وهكذا عكس اسبيكمان نظرية ماكيندر إذ ينادى بالآتى : —

من يحكم المنطقة الهامشية يحكم أوراسيا
Who rules the rimland rules guroasia
Who rules Euroasia rules the world
من يحكم أوراسيا يحكم العالم

ولكن المنطقة الهامشية هذه تعد من أكثر المناطق المجزئة سياسيا فى العالم وتتوزع قوة المنطقة بين دول عديدة منفصلة مما يقلل من فعاليتها وأهميتها كقوة ضاربة . ويقول اسبيكمان بأن طاقات الدول الواقعة خارج المنطقة الهامشية مثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى يجب أن توجه لتمزيق وتجزئة هذه المنطقة ، فقد كان شعور اسبيكمان نابعا من تخوفه من تحالف ألمانيا النازية والإمبراطورية اليابانية حول خطة مشتركة للزحف عسكريا والالتقاء فى الهند .. أى كان يخاف من إمكانية توحيد المنطقة الهامشية على يد دول قوية مثل اليابان وألمانيا مما يسبب كارثة على الدول الأخرى ويمهد لاحتلال العالم .. ولهذا فهو ينصح بأن تسعى هذه الدول الكبرى إلى تفتيت هذه الجهود نحو الوحدة .

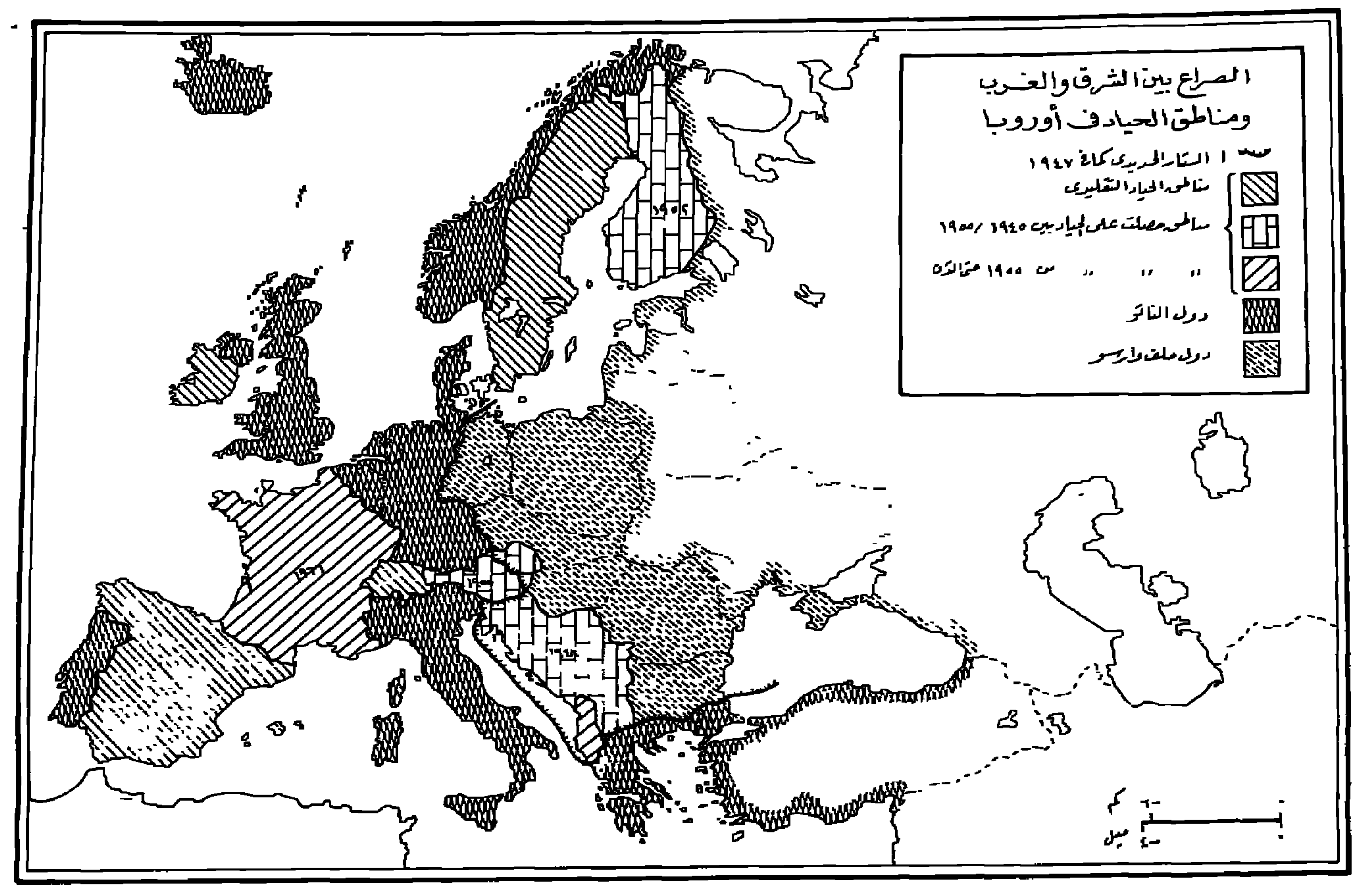
ولكن إذا نظرنا لميزان القوى فى عالم اليوم والذى تلعب فيه أوروبا دورا مهما ، فهناك ثمة اختلاف من توقعات هذين المؤلفين الكبيرين ، ماكيندر واسبيكمان ، ورغم وجود أدلة على تأثير رأى ونفوذ المؤلفين على كثير من الأحداث ، فالصراع الكبير بين الاتحاد السوفيتى والغرب يمثل ، كما تنبأ ماكيندر ، الصراع بين المنطقة المركزية Heartland والمنطقة الهامشية Rimalnd . ولكن المنطقة المركزية لم تقم بالسيطرة المتوقعة على العالم كما أن القوة الجوية والنووية أصبحت هى القوة الضاربة أكثر من القوات البرية والبحرية أما اسبيكمان فقد تأثرت بنظريته السياسة الخارجية الأمريكية التى تكرس جهودها لمنع توحيد المنطقة الهامشية على يد الشيوعيين وتترك المنطقة المركزية التى لا قيمة سياسية لها مسرحا للسيطرة الشيوعية . ولكن تنبؤ عن تحالف سوفيتى أمريكى للحيلولة دون توحيد المنطقة الهامشية لم يتحقق بعد .

بعد الحرب وقعت أوروبا فى خضم الصراع بين المنطقتين ، المركزية والهامشية . فالدول الأوروبية كانت تحتل مركزاً مرموقا فى الشئون الدولية فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الثانية حين أصبحت القرارات التى تؤثر فى مصير الشعوب تتخذ فى

لندن وباريس وبرلين وروما وأصبحت أوروبا بؤرة النشاط السياسى آنذاك . ومع نهاية الحرب تقلص نفوذ الدول الأوروبية وضعف البعض ، حتى الدول التى خرجت منتصرة من الحرب لم تعد قوية كما كانت قبل الحرب ، وفى فترة الضعف هذه فقدت أوروبا مكانتها السياسية المرموقة كما انهارت الإمبراطوريات التى نتها ولم تعد لديها القدرة ليس على تقرير مصير أفريقيا ومناطق النفوذ الأخرى فحسب بل فقدت التحكم فى مصيرها السياسى وأصبحت القرارات التى تحكم مصيرها وشعوبها تتخذ بعيدا فى واشنطن وموسكو.. ومثلما انحدرت ألمانيا من دولة محور قوية إلى عازلة ضعيفة أصبحت أوروبا كلها منطقة مجابهة بين قوتين عظميين غير أوروبيتين ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . فقد خرجت أوروبا منهوكة ومحطمة من حربين مدمرتين وكساد اقتصادى ، وحرمت من الملايين من خيرة شبابها . وهكذا وفى عام ١٩٤٥م تحولت القارة إلى مجموعة من دول ضعيفة من الدرجة الثانية والثالثة ، وقد اغتنمت الدولتان العظميان الفرصة لملء الفراغ الذى نتج من انهيار القوة السياسية الأوروبية .

وقد تكونت المجابهة بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة فى الأربعينات عند الخط الذى عرف فيما بعد بالستار الحديدى . ويمتد هذا الخط الفاصل من مدينة لوبك على بحر البلطيق إلى مدينة تريستا على البحر الأدرياتى مارا عبر أوروبا الوسطى ويطابق مجموعة من الحدود التقليدية التى كانت تفصل منذ مدة طويلة بين الشرق والغرب فى هذه القارة ، فخط المجابهة بين الرومان والقبائل البربرية إبان القرون الأولى من العصر المسيحى، وبين الشعوب السلافية والألمان بعد هجـرة الشعوب . وبين ألمانيا الأصلية وألمانيا المستعمرة ، وبين المزارعين الأحرار وبقايا الاقطاعية فى القرن التاسع عشر – قد سبقت هذه الحدود التى تفصل اليوم بين الدول الديمقراطية والدول الدكتاتورية ، والشيوعية وغير الشيوعية عند نفس هذا الخط تقريبا ، ولكن الاختلاف الوحيد يكمن فى أن المتصارعين الأوائل كانوا أوروبيين بيما متنازعو اليوم من خارج القارة . (الشكل ٤٠) .

ورغم استعادتها الاقتصادية بعد الحرب فقد ظل الوضع السياسى لأوروبا كما


الصراع بين الشرق والغرب
ومناطق الحياد في أوروبا
الستار الحديدي كما في ١٩٤٧
مناطق الحياد التقليدي
مناطق حصلت على الحياد بين ١٩٤٥ / ١٩٥٥
" " " من ١٩٥٥ حتى الآن
دول الناتو
دول حلف وارسو
كم
ميل

شكل (٤٠)

كان .. فقد رأت دول أوروبية أن مصلحتها تكمن فى بقائها محايدة فى الصراع الدائر بين الشرق والغرب وتتطور تدريجيا إلى كتلة ثالثة تتكون من دول محايدة ومتحالفة ، وذلك بتوحيد إمكانياتها البشرية الهائلة حتى تستعيد قوتها وتبقى بعيدة من سيطرة الأمريكان والسوفييت .

إن محاولات التحرر أو الانفكاك من سيطرة السوفييت لم تكلل جميعها بالنجاح : فقد استطاعت يوغسلافيا التحرر من السيطرة الشيوعية السوفيتية فى عام ١٩٤٨م ثم تبعتها ألبانيا مؤخرا ، ولكن محاولات تشكوسلوفاكيا والمجر المماثلة فشلت تحت قمع الدبابات السوفيتية مع أن رومانيا استطاعت أن تحافظ على استقلالها وردع التدخل السوفيتى جزئيا فى شئونها الداخلية . أما من الناحية الغربية من الستار الحديدى فقد احتفظت سويسره والسويد بحيادهما التقليدى وانضمت إليهما فرنسا التى انسحبت من حلف ناتو NATO الذى يسيطر عليه الأمريكان . أما النمسا وفنلنده فقد أتيحت لهما الفرصة لإقامة حياد فى النطاق الفاصل بين الشرق والغرب .. فقد قسمت النمسا بعد الحرب إلى أربعة قطاعات عسكرية ولكن الدول المحتلة انسحبت منها فى عام ١٩٥٥م وجعلت منها دولة محايدة . وفى عام ١٩٥٢ م استطاعت فنلندة أن تتجنب السيطرة السوفيتية عليها وذلك بدفع آخر قسط من تعويض الحرب War reparations الذى كان الغرض منه أساسا تحطيم الاقتصاد الفنلندى وخلق مبرر للتغلغل السوفيتى فى حالة عجز فنلندة عن دفع التعويضات .

ولكن سياسة تحييد أوروبا ما زالت مبكرة ، فإن هناك دولا قوية اقتصاديا مثل ألمانيا الغربية والمملكة المتحدة ما زالتا خارج حركة التحييد وما زال التحالف بين الدولتين وبين الدول الأوروبية سواء كان اختياريا أم اجباريا قائما ومستمرا .. وهذا ما سيشل من قدرة الدول الأوروبية فى تقرير مصيرها .

ويعتقد الكثيرون بأن توحيد أوروبا سياسيا يمكن أن يحدث وقد حاول البعض تحقيق هذه الوحدة عن طريق الغزو العسكرى ولكن المحاولات لم تكلل بالنجاح وكانت نتائجها وبالا على القارة أما دعاة الوحدة الحاليين فبغيتهم هى الوحدة الاقتصادية وإزالة الحواجز التجارية والانتقال الحر للعمال الذين يبحثون عن العمل

عبر الحدود من دولة لأخرى . وهؤلاء الدعاة يعترفون أن دوافع اقتصادية لعبت دورا مهما فى إذكاء نار الحرب بين دول القارة ويأملون أن يؤدى الاتحاد والتعاون الاقتصادى نهائيا إلى الوحدة السياسية بينها . وقد سبقت ألمانيا فى هذا المضمار عندما أنشأت منظمات اقتصادية تربط بين دويلاتها المنفصلة وذلك قبل توحيد الأمة سياسيا بوقت قليل .

وبدافع من هذه الروح التعاونية تم انشاء السوق الأوروبية المشتركة فى الخمسينات وذلك بتخفيض مبدئى للتعريفة الجمركية الداخلية على الفحم والصلب . وقد بدأت هذه المنطقة الاقتصادية بستة أعضاءهم : ألمانيا الغربية وإيطاليا وفرنسا وهولندة وبلجيكا ولوكسمبورج ثم انضمت إليها دول أخرى مثل المملكة المتحدة والدنمارك والجمهورية الأيرلندية وأخيرا اليونان .

وهناك اتفاق بين الدول الأعضاء على تكوين اتحاد سياسى بين الأعضاء الستة ولكن صورة أو شكل هذا الاتحاد لم يتفق عليه نهائيا ، وقد تم أخيرا تكوين برلمان ينتسب أعضاؤه من الدول كما أن هناك جاها لتكوين عملة واحدة Eurodollar .

ويعتمد نجاح هذه الحركات الوحدوية على مدى بقاء أو زوال فكرة الدولة - الأمة أو نزعة الإقليمية حية فى أذهان الأوروبيين : فهناك دليل بأن الحربين العالميتين قد دمرتا حيوية وقوة الإقليمية والقومية وأن التعاون والتدخل الاقتصادى الذى تم حتى الآن بين الـــدول الأوروبية يجعل من حدوث صراع عسكرى بينها فى عداد المستحيلات . ولكن على دعاة الوحدة الأوروبية أن يتقدموا فى طريقهم بحذر شديد وبتؤدة وتمعن ، فما زالت توجد فى القارة العديد من الأقليات والمجموعات العرقية التى تحتفظ بكينونتها وترفض التمازج والاختـــلاط ، ولذا لابد من منحها حكما ذاتيا محليا .. أى أن يعطى الاعتبار الكافى لهذه المجموعات العرقية فى أى تخطيط للوحدة السياسية وأن يوفق بين النزعة الإقليمية والتطلعات العليا نحو هذا الهدف الكبير .

الفصل التاسع

أنماط الاستيطان الريفي

تعنى جغرافية السكن بدراسة المظهر الحضارى والبصمات الظاهرة التى تركها الإنسان فى المناطق الريفية وذلك من خلال مجهوداته فى استغلال هذه المناطق

وقد تختلف هذه البصمات والظاهرات من منطقة لأخرى تبعا لاختلاف ثقافات الشعوب . ولذلك فإن أشكال هذه البصمات تتخذ أنواعا مختلفة فى أوروبا : فمظاهر الأرض الريفية فى أسبانيا مثلا تختلف من تلك التى نجدها فى اسكندناوه . وقد نجد تباينا رئيسيا حتى فى ريف دولة صغيرة واحدة مثل ألمانيا . وقد أدى هذا الاختلاف والتباين فى مظهر الريف الأوروبى إلى اجتذاب أعداد ضخمة من السواح خاصة من دول العالم الجديد التى تتميز أريافها برتابة المنظر وتشابهه .

وتركز جغرافية الاستيطان الريفى دراستها على ثلاثة معالم منفصلة من اللاندسكيب الحضارى ، وهى:

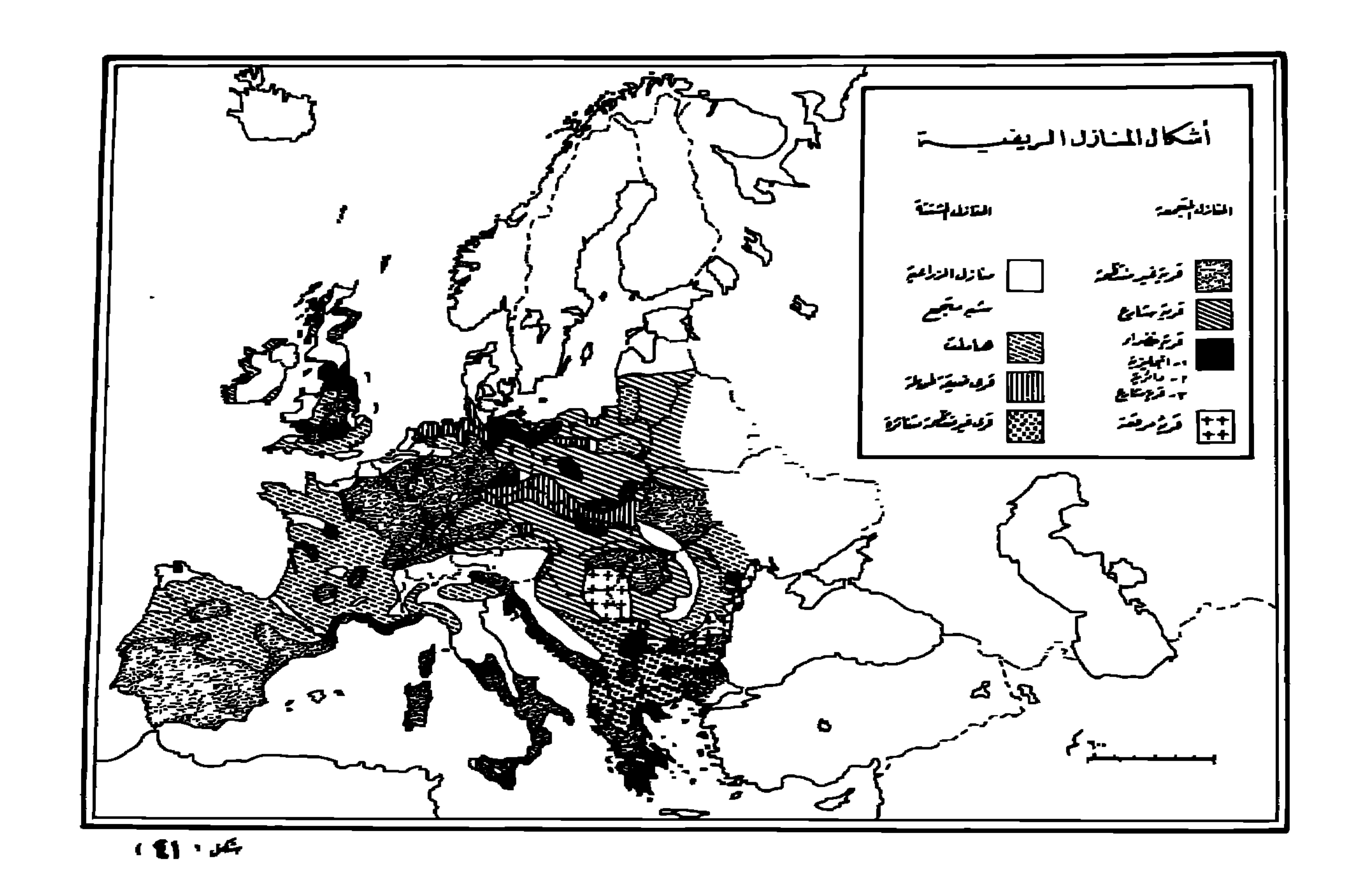
١ – نمط الاستيطان أو توزيع المنازل الزراعية .

٢ – نمط الحقول الزراعية أو شكل الحقول الذى تمخض عن تقسيم الارض لغرض الاستفادة منها .

٣ – أنواع المنازل والبيت الزراعى وتشمل مواد البناء المستخدمة وهندسة المعمار أو طريقة بناء هذه المنازل ومدى تأثير عادات وتقاليد الشعوب على ذلك

(أ) نمط الاستيطان : Settlement Pattern (الشكل ٤١)

تتخذ المنازل الريفية أشكالا مختلفة : فقد تكون متجمعة أو مشتتة أو تتخذ نمطا وسطا بين هذين ، وأوروبا تتميز فى هذا المجال بوجود أنواع مختلفة من أنماط الاستيطان الريفى يمكن أن نميز منها الآتى :



أشكال المنازل الريفية
المنازل المتجمعة
المنازل المشتتة
قرية غير منتظمة
قرية شارع
قرية خضراء
١- انجليزية
٢- مارشية
٣- قرية شارع
قرية مرصعة
منازل الزراعية
شبه متجمع
هاملت
قرى خشبية المرتفعة
قرى غير منتظمة متناثرة
٦٠٠ كم

شكل (٤١)

١ – السكن الريفى المتجمع : Clustered

القرية الزراعية : Farm Village

يسكن معظم المزارعين فى أوروبا فى قرى بدلا من المنازل المنتشرة فى أصقاع الريف كما فى الولايات المتحدة واستراليا وكندا ومناطق الاستيطان الأوروبى الأخرى فيما وراء البحار . وتتجمع المنازل مكونة قرى صغيرة عديدةتاركة المناطق الزراعية المجاورة خالية من المبانى والمنشآت وعادة مايقوم المزارع برحلات يومية الى الحقول للعمل فيها ويقضى فيها يومه ثم يعود الى منزله فى القرية فى آخره . وقد تضافرت عوامل عديدة ، معظمها تاريخية ، فى ظهور هذا التجمع السكانى الريفى . ويمكن تلخيص هذه العوامل فى الآتى :

١ – الحاجة الى الدفاع والحماية : عاصرت أوروبا ، خاصة المناطق الريفية منها ، فترات من عدم الاستقرار السياسى ، وكانت عصابات الغزاة واللصوص تسيطر على الريف وتعيث فيه قتلا ونهبا . ولحماية أنفسهم من هذه العصابات وأعمالها كان على المزارعين أن يتجمعوا فى قرى حتى يتسنى لهم درء هذه الأخطار جماعة . وهناك أمثلة عديدة لقرى نمت وكبرت حجما فى فترات عدم الاستقرار والحروب لتعود وتتقلص وتضمحل أو تختفى فى بعض الأحيان ، عندما يعم الاستقرار والسلام تلك المناطق . ومن ثم نلاحظ أن القرى الزراعية فى أوربا كثيرا ما تحتل مواضع يسهل الدفاع عنها .

(٢) العلاقات القبلية والأسرية :

كانت لهذه العلاقات أهمية أكبر فى ربط سكان القرية لأن الذين كانوا ينشأون القرية فى البداية كانت تربطهم علاقات دم . وقد أدت هذه القرابة الى رغبة هؤلاء فى السكن قرب بعضهم البعض كما يظهر فى العديد من أسماء الأماكن . فان من الكلمات الشائعة فى غرب أوروبا تلك التى نجدها فى آخر أسماء المدن والقرى مثل inge, -ing , ange. -ingen وغيرها كما فى Trossingen (المانيا) و Challerange (فرنسا) و Kolding (الدنمارك) وريدنج Reading (انجلترا) وهى مشتقة من اللغة الالمانية وتعنى حرفيا «سكان أو شعب» . أو قبلية «ريدا» مما يدل على مجموعة متماسكة من الناس ، أما

الكلمات البادئة فى اسم المكان فهى تشير إلى رئيس العائلة أو القبيلة مثل Sigmaringen (مدينة فى جنوب غرب المانيا) التى تعنى «شعب أو قبيلة سيقمر Siegmar » .

وكثيرا ماكانت هذه العلاقات الاجتماعية ترتبط بدرجة معينة من الجماعية أو المشاعية فى استغلال الأرض حيث كانت الحقول والمراعى والغابات شائعة الاستخدام بين أفراد القبيلة وكان توزيع الحقول يتم بحيث أن كل قروى يمنح قطعة أرض ذات مساحة وخصوبة متساوية وعلى بعد متساو من القرية كالآخرين وكان هذا التوزيع يتم وفق طريقتين :

أولا : يتم تجزئة الأرض التى يستخدمها المزارع الى عدد من القطع المنفصلة تقع كل قطعة منها فى اتجاهات مختلفة وعلى بعد أو مسافات مختلفة من القرى وتتضمن القطع على نسب من أنواع التربات المختلفة من غنية وفقيرة.

ثانيا : يعاد توزيع هذه القطع فى فترات معينة لاتتعدى سنة حتى يتسنى للمزارع القيام بزراعة قطعة أرض أخرى لم تكن فى حوزته فى السنة الماضية . ولم تكن تجزئة الأرض الزراعية إلى قطع صغيرة واعادة توزيع هذه القطع كل سنة على أفراد القرية تشجع التشتت السكنى لأن القطع المتنا رة كانت على العموم ضيقة أو صغيرة لاتسمح باقامة أو انشاء منازل عليها .

(٣) ندرة المياه :

كانت ندرة الماء خاصة فى تلك الأماكن التى تتميز بتربات جيرية تشجع تجمع المنازل حول المواضع التى تتواجد فيها المياه ويتمركز هذا النوع من الاستيطان حول الآبار العميقة التى يتم حفرها وكذلك صيانتها بواسطة أهل القرية أو عند الينابيع والعيون المتناثرة . وتتميز أقاليم بيكاردى الفرنسية Picardie ومقاطعة ويلتشيرداونز Wiltshire Downs فى جنوب غرب انجلترا بوجود طبقة مسامية ووجود تجمعات قروية ، ولكن هناك من يعارض مفهوم « قرى المواضع الرطبة » خاصة فى إقليم بيكاردى حيث وجد أن الآبار العميقة الموجودة هناك يرجع تاريخها

إلى القرنين أو الثلاثة الأخيرة : أى بعد أن اتخذت القرى أشكالها الحالية بزمن طويل .

وقد يؤدى توفر المياه فى المناطق المستنقعية الرطبة المعرضة للفيضانات الى تجمع المنازل فى المواضع المرتفعة الجافةكما فى المناطق الساحلية من هولنده حيث نجد قرى متماسكة على المرتفعات « terpen » التى صنعها الإنسان .

(٤) الوراثة المتجزئة :

قد يرجع وجود قرية إلى ممارسة ما يسمى بالوراثة المتجزئة أى تقسيم الأرض وتوزيعها على الورثة عند وفاة الأب .. فقد يحدث أن يتحول منزل زراعى أصلى تدريجيا إلى سكن متجمع عندما تبنى أجيال عديدة من أنساب المؤسس الأول منازلهم فى نفس الموضع . وعلى نحو مغاير فإن النمط المتناثر من السكن يكثر فى المناطق التى لا تمارس فيها الوراثة المتجزئة كما فى شمال غرب ألمانيا وأجزاء من النرويج .

(٥) المحصولات الحقلية :

هنال ارتباط بين التجمع السكنى والاقتصاديات التى قوامها المحصولات الحقلية وذلك لأن مساحة الأرض التى يحتاج إليها المزارع أقل فى النظم التى تسودها زراعة المحصولات على عكس تربية الماشية التى تحتاج إلى مساحات أكبر ووحدات زراعية كبيرة لغرض الرعى وزراعة العلف . ومتى ما كبرت مساحة المزرعة أصبح الاستيطان القروى أكثر صعوبة لأن التنقل من وإلى الريف سيزداد طولا . وعلى العموم فإن المناطق السهلية المنخفضة كانت من البداية أماكن تسود فيها زراعة المحصولات بينما كانت الأماكن الجبلية والمرتفعات تستغل للرعى مما أوجد ترابطا بين المناطق المستوية والاستيطان القروى فى أوروبا . ولكن نظرا لأن البيئة لا تتحكم فى كل تصرفات الأوروبيين فإن هناك استثناءات لما قلناه كما تتمثل فى القرى المتناثرة التى نجدها فى سهول الفلاندرز وشمال غرب ألمانيا وفى تجمعات القرى فى مناطق جنوب إيطاليا الجبلية . وفى وقتنا الحالى سعت الحكومات الدكتاتورية خاصة فى

الدول الشيوعية إلى تبنى سياسات الغرض منها تجميع سكان الريف فى أماكن معينة مما يسهل التحكم فيهم وتربيتهم وفق مبادىء الشيوعية .

ومن بين العوامل التى أدت إلى التجمع السكنى فى الريف يبدو أن الوجود التاريخى للمشاعية القبلية واستمراريتها فى ظل النظام الإقطاعى من أقوى هذه العوامل أثرا : فالشعوب التى تربط بينها مثل هذه العلاقات كانت أكثر قبولا للتجمعات السكنية . فقد ترك الاختفاء التدريجى للتنظيم الجماعى أثر تدهور الإقطاع وراءه القرية الزراعية كمخلفات أثرية عتيقة . ولكنها ما زالت تتشبث بالوجود رغم ذلك لأن سكان الريف يقاومون التغيير والتحويل عما ألفوه عبر السنين .

(ب) أنواع السكن الريفى المتجمع Clustered Rural Settloments

تختلف القرى الزراعية الأوروبية فى مناظرها الخارجية من منطقة لأخرى وقد استطاع جغرافيو السكن تمييز عدد من الأنواع الرئيسية لهذه المساكن . وكان للعلماء الألمان دور كبير فى هذا المضمار إلى درجة أن المصطلحات الألمانية أصبحت شائعة الاستعمال بين الجغرافيين عامة وهذه الأنواع هى : (الشكل ٤١) .

١ — القرية المتجمعة بغير انتظام أو Houstendorf : وتوجد فى أجزاء من ألمانيا الغربية وشمال فرنسا والمناطق المنخفضة من بريطانيا وفى معظم أجزاء جنوب أوروبا . وكما يدل الاسم فإن هذه القرى المتجمعة بغير انتظام يبدى مظهرا غير متناسق وخالى من أى أثر للتخطيط وشوارعها متعرجة وضيقة كما تتجمع المنازل بغير اتساق . وعادة تحتل كنيسة القرية موضعا وسطا وتحيط بها المنازل والحظائر والبساتين الصغيرة التى تزرع فيها الخضروات . وتختلف أحجام هذه القرى من منطقة لأخرى ويتراوح سكانها بين ٤٠٠ و١٠٠٠٠ شخص فى المناطق الألمانية إلى ١٠٠٠٠ أو أكثر فى قرى جنوب إيطاليا الجبلية وحتى إلى ٢٠٠٠٠ أو ٣٠٠٠٠ نسمة فى قرى حوض المجر الكبيرة . وهذه القرى الكبيرة (Kertes Vares) تمثل استجابة شعوب الماغيار Magyars للخطر العسكرى التركى الذى كان يهدد سكان الحوض كما تعكس قرى جنوب إيطاليا الكبيرة حالة عدم الاستقرار التى سادت تلك المناطق بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية . وعدم التخطيط الذى تتميز به هذه القرى يلقى كثيرا

من الضوء على أصـــل نشأتها ويحتمل كثيرا أن هذه القرى بدأت أول ما بدأت كتجمع مفكوك لمنازل زراعية قليلة تملكها عائلات تربط بينها وشائج القربى ، مكونة بذلك تجمعا طائفيا أو قبليا clan hamlet . وبمرور الزمن ازداد سكانها وأضيفت إليها منازل أخرى حتى أصبحت أكبر وأكثر تماسكا كما تحولت طرق المشاة التى تقود إلى الحقول إلى شوارع أوسع .

ويحتمل أيضا أن المسكن الأصلى فى بعض المناطق كان يتكون من منزل معزول بدلا من تجمع قبلى يمارس سكانه نظام الوراثة المتجزئة الذى أدى إلى زيادة المنازل ومن ثم نموها وتطورها إلى قرية .

أما قرى شرق أوروبا فإنها تظهر فى أشكالها الحديثة درجة عالية من التخطيط خاصة فى معظم المناطق التى تقع إلى الشرق من الحدود السلافية الألمانية القديمة ، فى حين أنه إلى الغرب من الخط القديم الذى يصل بين أنهار الألب والسال والان وسالزاخ تسود القرى غير المنتظمة . ولكن فى المناطق السلافية التقليدية التى تقع إلى الشرق من هـــذا الخط فإن القـــرى تتميز بالنظام فى أشـــكالها وتخطيطها . ويتمثل هذا النوع من السكن المخطط فى القـــرى المستقيمة أو قرية الشـــارع strassendorf, street village . وبدلا من الشوارع الكثيرة الملتوية التى نجدها فى القرى غير المخططة تتميز القرية المستقيمة بوجود شارع واحد مستقيم تقوم على جانبيه المنازل : وتطل واجهة المنازل والمبانى الأخرى على الشارع بينما تقع الحدائق إلى الخلف . ويختلف هذا النوع من القرى فى أحجامها التى تتراوح من منازل قليلة تتواجد على جانب الطرق الجانبية أو عند نهاية الأزقة المقفولة إلى قرى كبيرة طويلة تمتد على جانبى الطرق الرئيسية الريفية ويسكنها مئات الأشخاص .

وأصبح من المؤكد الآن أن القرية المستقيمة نشأت عند السلاف وترتبط بمظهر خاص من مظاهر التراث أو الثقافة الشعبية . وحتى فى الأجزاء الشرقية من ألمانيا فإن كثيرا من هذه القرى ، وخاصة الصغيرة منها ، ما زالت تحمل أسماء سلافية تنتهى بالأحرف الآتية : ow – و in – و itz – و zig كما فى تربنيتز trebnitz وليبزيج Leibzig

ولكن السؤال : لماذا اختار السلاف ، خاصة السلاف الشماليين ، القرية المستقيمة نمطا شائعا لمساكنهم الريفية ؟ لم يجد إجابة شافية حتى الآن . فالحاجز الخشبى الذى كان يحيط بالحد الخارجى لحديقة المنزل كان يضفى نوعا من الحماية ، مع الحيطان الخلفية للمبانى الزراعية ، على القرية وساكنيها . ولكن كانت هناك وسائل أفضل شكلا وأكثر حماية من الحاجز والحائط . وبالإضافة إلى ذلك فإن المنازل مبنية من الخشب ، ومفصولة عن بعضها البعض بأماكن خالية لدرء خطورة الحرائق ومنعها من الانتشار مما يقلل من أهمية الحماية من المغيرين من الخارج لأن المنازل المعزولة أكثر عرضة للهجوم من المبانى المتلاصقة . حتى مجموعات المزارعين الألمان الذين نزحوا شرقا فيما وراء نهرى الب وسال بعد عام ٨٠٠ ميلادية تخلوا عن تجمعاتهم القروية غير المنتظمة وتبنوا نظام القرية المستقيمة السلافية . ورغم انصهار السلاف فى ألمانيا الشرقية مع مرور الزمن فإن شكل قراهم التقليدى ظل باقيا حتى اليوم .

(٢) القرية الخضراء Green Village

يتميز هذا النوع أيضا بالتخطيط وبوجود مكان خال من المبانى فى وسطها يسمى « بالقرين » green . وتنتشر هذه القرى بأنواعها فى أجزاء مختلفة من السهل الأوروبى الشمالى تمتد من سهول انجلترا حتى بولندا . وكان « القرين » يستغل عادة لإقامة الحفلات وانعقاد السوق وكحظيرة محمية لحفظ الماشية . ويختلف شكل « القرين » ومعها شكل القرية كلها اختلافا كبيرا ويتراوح من شكل دائرى إلى مثلثى أو مستطيل أو بيضاوى .

وتوجد أنواع من القرى الخضراء مصنفة حسب شكل « القرين » وأحد هذه الأنواع هو ما يسمى قرية الشارع الخضراء (street - Green village)
(Angerdorf or strassenongerdorf)

والذى يوجد فى اختلاط مع قرى الشارع السلافية والألمان الشرقيين ، وتختلف الأولى من الثانية فى أن الشارع الرئيسى فى الأولى يتسع نحو وسط القرية ليكون « القرين » . ويكثر هذا النوع من القرى الخضراء فى شرق ألمانيا . أما النوع الآخر من

القرى الخضراء فهو ما يسمى القرية المستديـرة
rundby, Rundorf, round village)
وفيه يتكون أصل أو مركز القرية من فسحة دائرية أو شبه دائرية الشكل تتجمع حولها المنازل . وتنحصر هذه القرى فى مناطق صغيرة على جانبى نهر الألب الأدنى والحدود بين الألمانيتين والشاطىء الشرقى لنهر السـال وأجزاء من تشيكوسلوفاكيا الغربية . ويحتمل أن تكون هذه القرى الدائرية سلافية النشأة لأنها كثيرا ما تحمل أسماء تشير إلى هذه المجموعة العرقية مثل كرملين Kremlin و Wutzow .

ومن الواضح أن القرى الدائرية قد خططت أساسا لغرض الحماية والدفاع وهذا الغرض قد يفسر لنا تركز هذه القرى عند الحدود السلافية الألمانية حيث الحروب كانت شائعة . وكان الفضاء الأوسط يؤدى نفس الوظيفة التى كان يؤديها فناء قلعة أو داخل الدائرة المحاطة بعربات النقل المغطية فى الغرب الأمريكى : منطقة توجه منها الدفاع وصد المغيريـن . وأول خط الدفاع كان يتكون من حاجز خشبى دائرى مقام حول الطرف الخارجى للحديقة ، وفى حالة انهيار هذا الحاجز أمام هجمات المغيرين انسحب القرويون إلى حماية المبانى حول الفناء . وفى الفناء الداخلى نجد البئر والبحيرة الصغيرة تمولان الماء كما يوجد به مكان لحفظ الماشية . ومع تحول السكان إلى المسيحية كانت الكنيسة تبنى فى الفضاء فى بعض الأحيان بينما كان الفناء فى بعض الحالات يستخدم كموقع لقصر مالك الأرض فى ظل النظام الإقطاعى .

وتوجد القرى الدائرية أيضا فى أشكال مختلفة . ويبدو أنها بدأت فى الأصل كمساكن صغيرة تتكون من أربعة أو خمسة منازل حول الفضاء المركزى ، وما زال هذا الشكل موجودا فى شرق ألمانيا ويطلق عليه القرية الصغيرة الدائرية
(Rundweiler, round hamlet)
وتتكرر الأسماء السلافية فيها بشكل ملفت . ومع ازدياد السكان تحولت هذه القرية الصغيرة إلى الشكل التالى الأكبر حجما والذى يعرف بالقرى الدائرية الصغيرة (Rundlinge) ثم تطور بعضها لتصبح قرى دائرية . وإذا كان هذا التوسع قد حدث نتيجة إضافة منازل عديدة جديدة فإن القرية تصبح أكثر شبها لقرى الشارع الخضراء التى نجدها فى ألمانيا الشرقية لأن هذه المنازل كانت تبنى بعيدا من الفناء المركزى على الطريق أو الطرق المؤدية إلى القرية .

ويحتمل أن القرى الخضراء تمثل أقدم شكل سكنى فى أوروبا إذ عثر علماء الآثار على قرى يرجع تاريخها إلى عصر الحديد كما توجد أدلة تشير إلى تاريخ أقدم . وترجع الصعوبة التى تكتنف تحديد توزيعها السابق إلى السهولة التى يمكن أن تتحول بها هذه القرى إلى قرى متجمعة غير منتظمة إذا سمح للأجيال اللاحقة ببناء منازلهم وحظائرهم فى الفضاء الداخلى (القرين) .

(٣) قرى الشوارع المستقيمة ذات الزوايا القائمة : (الشكل ٤٤و٤٥)

وهذه تمثل نوعا آخر من القرى المخططة وتكثر فى أوروبا الشرقية خاصة فى حوض الدانوب الأوسط والأدنى فى أجزاء من المجر ويوغسلافيا ورومانيا وبلغاريا ، كما يوجد نوع آخر منه فى بعض المناطق التى تحيط بالساحل الشمالى لبحر إيجه فى اليونان . وعلى نقيض ما شهدناه فى القرى السابقة ، فإن هذا النمط حديث النشأة فقد تم إنشاء العديد من هذه القرى بواسطة حكام الإمبراطورية النمساوية - المجرية ابتداء من عام ١٧٥٠ ، خاصة فى إقليم « بانات Banat » فى يوغسلافيا وجنوب المجر كجزء من مشروع يهدف إلى إعادة توطين المناطق التى دمرتها الحروب كما بنى الإغريق مثل هذه القرى فى المناطق التى طرد منها الأتراك فى عشرينات القرن الحالى . وتتميز هذه القرى بشوارعها المنتظمة التى تلتقى مع بعضها فى زوايا قائمة وتختلف فقط من المدن الأمريكية الحديثة فى أن سكانها من المزارعين الذين يعملون فى الحقول المجاورة .

(٤) السكن الريفى المتناثر Dispersed Rural Settlement .

المنزل الزراعى المعزول :

رغم أن معظم المزارعين الأوروبيين يعيشون فى القرى فهناك مناطق تسود فيها المنازل الزراعية المنعزلة وفيها تسكن كل عائلة على مسافة من الجيران (Einzelhofe) . أما العوامل التى أدت إلى نشأة هذه المنازل المنعزلة فهى تختلف عن تلك التى شجعت نشأة القرى وتطورها وتشمل هذه العوامل :

(١) عدم وجود الحاجة إلى الدفاع والحماية نسبة للسلام والاستقرار السائدين .

(٢) عملية الاستيطان تمت بواسطة عوامل رائدة بدلا من المجموعات التى تربط بينها وشائج الدم أو الدين وما شابه ذلك .
(٣) سيادة العمل الزراعى الخاص بدلا من الملكية الجماعية .
(٤) وحدات زراعية كبيرة بدلا من الملكيات المجزءة .
(٥) اقتصاد ريفى تسود فيه تربية الماشية .
(٦) مناطق تلالية أو جبلية .
(٧) وجود المياه بكميات وافرة وسهولة الحصول عليها .

وقد يحدث مثل هذا النمط من السكن الريفى نتيجة سياسة حكومية مقصودة ، الغرض منها تشتيت القرى وتوحيد القطع المجزءة من الأرض فى وحدات كبيرة وذلك لرفع إنتاجية الزراعة وكفاءتها .

وتكثر المنازل الزراعية المنعزلة فى اسكندناوه ومرتفعات بريطانيا وفى جبال الألب وبعض المناطق الجبلية المعينة وأماكن متباعدة من أوروبا مثل الفلاندرز ومناطق منسترلاند Munsterland وبحيرة كونستانس التابعة لألمانيا الغربية وحوض نهر اللوار الأدنى فى فرنسا .

ومن حيث نشأتها يمكن تقسيم هذه المساكن إلى نوعين :
(١) المنازل القديمة التى تمثل الشكل التقليدى .
(٢) المنازل التى ظهرت حديثا نتيجة العمل الحكومى أو التغيير الاقتصادى .

وتنتمى إلى المجموعة الأولى منازل شمال غربى المانيا وهولنده حيث خرج أفراد المزارعين الذين حرموا من الارث وفق القانون الألمانى إلى الاراضى المستنقعية وقاموا باستصلاحها وبناء منازلهم عليها وزراعتها . وتعرف هذه المنازل بمساكن المعسكرات Kamp Settlement .

ولكن أكثر المنازل المتناثرة يرجع تاريخ إنشائها إلى وقت حديث . ففى الدول الاسكندناوية أدت القوانين التى سنتها الحكومة فى فترة مابين أواخر القرن الثامن عشر

وبداية القرن التاسع عشر تدريجيا إلى القضاء على الملكيات المجزاة وإحداث تشتت فى سكان الريف كما يتضح من هذا الجدول : (جدول ١٠)

الدولة	نسبة سكان الريف الذين لايعيشون فى قرى متجمعة
الدنمارك	٨٧٪
فنلنده	٩٧٪
ايسلنده	٧١٪
النرويج	٩١٪
السويد	٧٩٪

وفى إحدى أقاليم جنوب ألمانيا الصغيرة بالقرب من بحيرة كونستانس وسفوح بال الألب بدأ الإقطاعيون المحليون فى بداية القرن السادس عشر بتشتيت المزارعين ، واستمرت هذه العملية حتى القرن التاسع عشر ، وتسببت فى تحويل الأرض الزراعية إلى مراعى للضأن فى كثير من أجزاء الجزر البريطانية كما أدى إلى الانخفاض الهائل فى سكان الأرياف وتحويل الملكيات المجزءة إلى وحدات زراعية كبيرة ، وفى تناثر وتشتيت العديد من القرى وإحلال المنازل الزراعية محلها ابتداء من بداية القرن الخامس عشر. كما عمل ملاك الأرض فى Latvia لاتفيا ومناطق البلطيق الشرقية فى تشتيت المزارعين الذين كانوا تحت سيطرتهم لفرض رفع الكفاءة الإنتاجية ، كما تبنت الحكومة الإيطالية فى عشرينات هذا القرن برنامجا يهدف إلى عمل منازل زراعية متناثرة فى الجزء الجنوبى من البلاد ، رغم أن منطقة البحر الأبيض المتوسط تميزت منذ عصر اليونان بالسكن المشتت .

ويمتاز السكن المشتت على النمط القروى من الناحية الاقتصادية وأهم عامل فى هذا المضمار هو الوقت المطلوب للتنقل من المنزل إلى الحقل فى النظام القروى . وقد دلت أبحاث أجريت فى هولنده والسويد أن استخدام المزارعين للأرض البعيدة من القرية أقل كثافة من القطع الأقرب إليها . وفى نفس الوقت تزخر القرية بحياة اجتماعية زاخرة بالمقارنة مع حياة الوحدة والعزلة فى المنازل المتناثرة . وقد عانى المزارعون الايطاليون الذى تم توطينهم فى منازل منعزلة من حالات نفسية وهبوط ذهنى ، لأن

أسلوب حياة القرية والرفقة والزمالة التى تزخر بها تمنح المزارعين نوعا من الأمان والسلام الذهنى .

د - السكن الريفى شبه المتجمع : (Semi-clustered)(الشكل ٤١ ، ٤٢)

توجد فى أوربا أشكال عديدة من السكن الريفى التى لاتتفق مع النوعين المذكورين آنفا ؛ المشتت والمتجمع ، رغم أنها تجمع بعض مميزات وسمات هذين النوعين . ويمكن أن نطلق على هذه الأشكال شبه متجمعه أو شبه مشتتة » . ومن هذه الأشكال :

١ - القرى الصغيرة (weilev, Drubble, Hamlet)

وهذه هى أكثر الأنواع شيوعا وتتكون من عدد صغير من المنازل تتجمع بغير اتصال وثيق . وكما نجد فى القرى الزراعية فإن هذه المنازل تقع فى مركز القرية بعيدا ومنفصلا من الأرض الزراعية ، ولكن القرى الصغيرة (هاملت) تختلف عن القرية فى حجمها الأصغر وعدم تماسكها أو تكتلها . ويختلف عدد المنازل من اثنين أو ثلاثة إلى خمسة عشر أو عشرين منزلا ويصعب كثيرا التمييز بين الهاملت الكبيرة والقرية على أساس الحجم

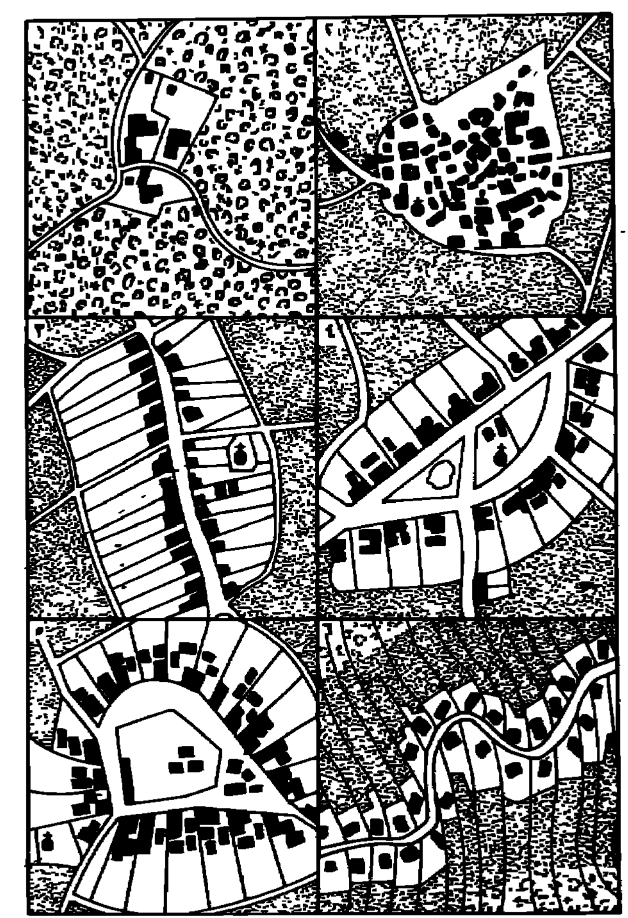
وتنتشر هذه القرى الصغيرة فى أوروبا خاصة فى جنوب فرنسا وبعض أجزاء ألمانيا ومناطق كبيرة من شبه جزيرة أيبريا وشمال إيطاليا . وكثير من الأقاليم التى تتميز بالسكن المشتت كانت مناطق تزخر بالقرى الصغيرة سابقا كما فى ملاجئ مرتفعات السلت Celts فى الجزر البريطانية ويصعب تحديد توزيع هذه القرى الصغيرة نظرا لوجودها وسط المنازل المتناثرة .

نشأة القرى الصغيرة (الهاملت) :

يختلف جغرافيو السكن فيما بينهم فى تفسير أصل نشأة الهاملت . ويبدو أن هناك عمليات معينة كانت تعمل فى مناطق الهاملت المختلفة أدت فى النهاية إلى ظهور هذا النمط الاستيطانى فى تلك الأماكن . وهناك رأيان :

يقول الرأى الأول بأن أصل الهاملت يرجع فى مناطق مثل جنوب ألمانيا والأجزاء

بعض أشكال القرى الأوروبية

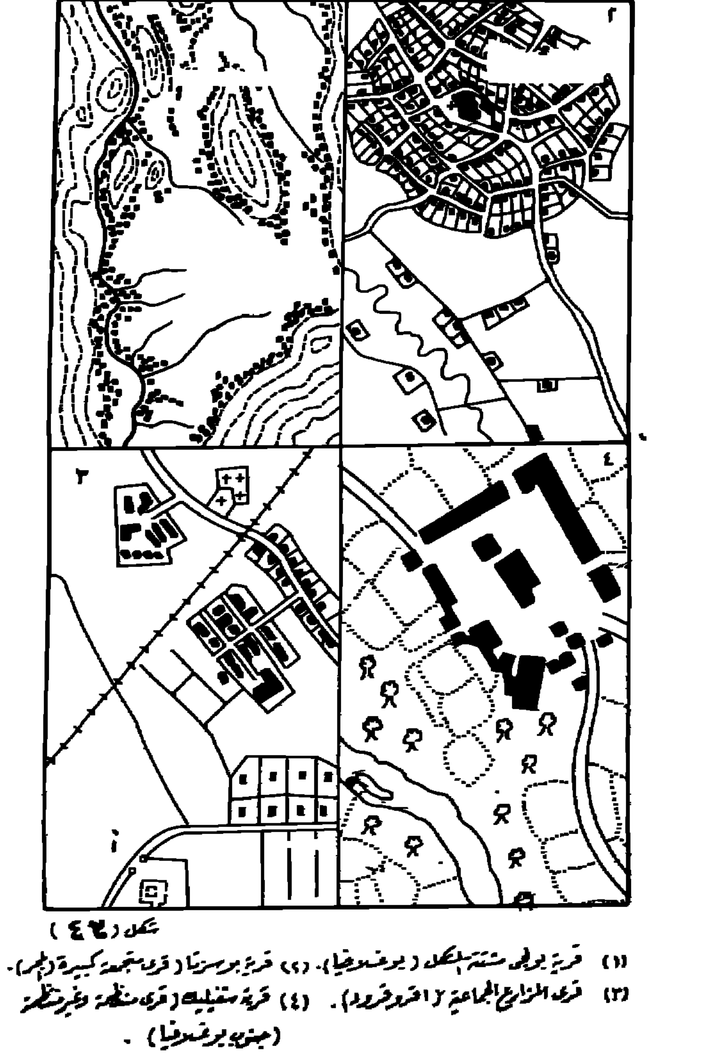


شكل (٤٣)

(١) عاملة (٢) قرية متجمعة غير نظامية (٣) قرية الشارع (٤) قرية شارع القطراء

(٥) قرية مستديرة (٦) قرية الغابة الطولية -

أشكال القرى (شرق ووسط أوروبا)



شكل (٤٤)

(١) قرية بولي مشتتة الشكل (يوغسلافيا). (٢) قرية برسزينا (قرى متجمعة كبيرة (المجر).

(٣) قرى المزارع الجماعية (اقبرو فرود). (٤) قرية ستفليك (قرى منظمة وغير منتظمة

(جنوب يوغسلافيا) .

المجاورة من سويسرا وفرنسا إلى العهد الرومانى ، واستدل على ذلك بكثرة حدوث كلمة weiler فى نهاية أسماء الأماكن فى هذه المناطق والتى فى أكثر الاحتمالات مشتقة من الكلمة اللاتينية villare التى تعنى « المنزل الزراعى formstead » وقد اقترح بعض الجغرافيين أن هذه المنازل الأصلية قد تطورت إلى تجمعات للقرى الصغيرة عن طريق ممارسة تجزئة أو تقسيم الورثة وفق النظام الرومانى للوراثة . وهناك أمثلة عديدة للأسماء التى تنتهى بكلمة weiler فى منطقة المانيا التى تأثرت بالحكم الرومانى مثل Habertsweiler و Martinsweiler حتى أن كلمة Weiler أصبحت تعنى « القرية الصغيرة » فى اللغة الألمانية .

ويقترح الجغرافى الفرنسى ديمانجيون Demangeon نفس السبب لنشأة الهاملت فى الأجزاء الجنوبية من فرنسا . أما فشل هذه القرى الصغيرة فى النمو والتطور إلى قرى فقد يكون له ارتباط بالإمكانية الإنتاجية المنخفضة لأماكن تواجد هذه القرى ويمكن أن نفترض ان زيادة سكانية قد حدثت فى هذه الأماكن ولكن الأراضى الفقيرة فى الهضبة الوسطى لم تستطع إعالة هذه الزيادة من السكان فهاجر الناس وبقيت القرى الصغيرة على حالها . بمعنى أن العوامل البيئية هى التى عاقت تطور هذه القرى الصغيرة الى قرى كبيرة .

أما الرأى الآخر فهو أن بعض العلماء يعتبرون الهاملت أكثر أشكال الاستيطان قدما ويرجع تاريخها الى بداية الاستيطان المستقر بواسطة المجموعات القبلية والعائلات الكبيرة بدلا من كونها مشتقة من تجمع المنازل المتناثرة . وقد يشمل هذا النوع قرى شمال ألمانيا المعروفة باسم Drubbel ويمكن القول بأن أشكالها الحديثة هى التى بدأت بها وأن الحفاظ على الحجم والمورفولوجى أو الشكل عبر السنين يرجع إلى قانون الوراثة الألمانى الذى لايقر بتقسيم الورثة على الأبناء وأيضا إلى فقر الأرض الزراعية فى هذه المناطق .

(٢) قرى مفتتة غير منتظمة :

تتواجد هذه القرى فى منطقة البلقان الأوربية وتشترك مع القرى الصغيرة (الهاملت) فى كثير من السمات ولكنها تختلف عن الأخيرة فى ناحية

اجتماعية هامة ، إذ تتكون المجموعات القروية غالبا من ثلاث أو أربع مجموعات منفصلة من القرى الصغيرة وأساس التفرقة مبنى على علاقة الدم أو الدين أو اللغة . وتحمل المجموعة كلها التى تتكون منها القرية اسما واحدا كما يرتبط الناس بشعور الانتماء إلى المجتمع القروى رغم الانفصال الجغرافى بين مجموعات القرى الصغيرة . وقد يصل السكان اعدادا كبيرا تؤهلها بأن تكون قرية ولكنها تفتقر إلى الشكل المتماسك الذى تتميز به القرية . وقد حدث فى بعض الحالات أن امتلأت الاماكن الخالية بين مجموعات القرى الصغيرة بالمنازل عندما ازداد عدد السكان مكونا فى النهاية قرية غير منتظمة . ولكن مثل هذا التطور اقتصر على المناطق ذات التربات الخصبة والأحواض المتناثرة فى منطقة البلقان .

ويكثر هذا النوع من القرى غير المنتظمة بين السلاف الجنوبيين وقد يكون أصلها مرتبطا بالنفوذ والقوة التقليدية للعائلة الكبيرة (zadruga) كمؤسسة اجتماعية عند هذه المجموعة . ويحتمل أن القرى الصغيرة العائلية قد تطورت من المنازل المتناثرة الأصلية عندما أخذ الأبناء والأحفاد فى إنشاء منازلهم بالقرب من منزل الأب . وقد ساعد فى هذا التكوين ذلك التنوع العرقى الكبير الذى تتميز به منطقة البلقان والذى شجع انفصال القرى من بعضها البعض .

(٣) القرى المهجورة جزئيا :

توجد مثل هذه القرى فى مناطق أوروبية مثل اسكندناوه والسهول البريطانية حيث تسبب برامج الإصلاح الحكومى فى إعادة توطين المزارعين فى منازل منفصلة ، تاركة وراءها قرى تحتوى فقط على جزء كبير من سكانها الأصليين . وتتميز غالبية سكان الريف فى الدنمارك بالتشتت ، وما زالت بقايا القرى باقية رغم أن المنازل الباقية أصبحت متجمعة الآن نسبة لإزالة الكثير منها أثناء عملية التشتيت .

(٤) قرى الصف أو المزرعة الطويلة Hufendorf, Reihendorf, Linear Long-Lot

تعرف هذه القرى فى اللغة الألمانية باسمين :

Reinendorf (قرية الصف) أو Hufendorf (القرية ذات المزرعة الطويلة)

وهى من ناحية الشكل وسط بين المتجمع والمتشتت ، وتوجد المنازل الفردية على

طول طريق واحد مثل قرية الشارع التى وصفناها ولكن الأولى تختلف عن الثانية فى أن منازلها أكثر تباعدا من بعضها البعض ، وفى أن كل الأرض التى تخص المزارع تقع فى كتلة كبيرة طويلة تمتد من خلف المنزل . وهكذا يعيش المزارع فى مثل هذه القرى فى مزرعته التى تتكون من كتلة واحدة غير مجزءة من الأرض وفى هذه الناحية تشبه هذا النمط المنازل المتناثرة . ولكن ضيق قطع الأرض الطويلة وتركز المنازل على الطريق أمام المزرعة يضفى درجة معينة من التجمع لانجده فى حالة المنازل المتناثرة كما أن سكان هذه المساكن لديهم شعور الانتماء إلى القرية وما يتطلبه ذلك من الاتصالات والعلاقات الاجتماعية . وتختلف هذه القرى ذات القطع الزراعية الطولية فى أحجامها من ست مزارع إلى مائة مزرعة أو أكثر كما تختلف هذه المزارع فى عرضها وعمقها ، ففى أضيق حالاتها يكون عرضها حوالى ٢٠ مترا بينما يصل العرض إلى ٢٠٠ متر. أما العمق فقد يصل من ٣٠٠ متر إلى عدة كيلو مترات .

وتتناثر أنواع من هذه القرى فى أجزاء من أوروبا وأكثرها شيوعا الأنواع الثلاثة الآتية :

١ - قرية الغابة ذات المزارع الطويلة Waldhofendorf

وتتواجد فى حزام غير متواصل يمتد عبر المناطق المرتفعة من أوروبا الوسطى خاصة فى أيرز قبيرج Erzgebirge فى ألمانيا الشرقية وجبال سوديتز Sudetes والكرباث فى جنوب بولنده . كما تتواجد عينات متناثرة منها فى الأراضى المرتفعة من ألمانيا الغربية والسهل الألمانى الشمالى . وفى هذه القرى يتبع الطريق الرئيسى نهرا ومنه تمتد المزارع الطويلة على الجانبين حتى تصل إلى المرتفعات المجاورة . وعامة تترك الأجزاء الخلفية من المزرعة ذات الانحدارات الكبيرة لنمو الغابات . ويتأثر شكل القرية بتعرج وادى النهر وينذر وجود حدود ملكية فاصلة مستقيمة .

٢ - قرية المستنقع ذات المزارع الطويلة : Marschhufendorf

تتواجد فى المستنقعات الساحلية الفقيرة التصريف والتى تمتد من شمال فرنسا عبر الأراضى المنخفضة إلى الدنمارك وألمانيا وساحل البلطيق فى بولنده . وهنا تمثل قناة التصريف نقطة التجمع التى تحيط بها على الجانبين جسور عريضة اصطناعية

حيث تقام المنازل والطرق ، بينما تمتد الحقول الطويلة فى الأراضى المنخفضة المستصلحة . وتتميز حدود الأملاك باستقامتها . وكان سكان هذه القرى ذات المزارع الطويلة يتكون عامة من المزارعين المتحررين من قيود الإقطاعية ولم تكن المشاعية معروفة لديهم ، لأن كل مزارع كان لديه مرعاه ومرجه meadow وغابته .

أصل ونشأة هذه القرى :

هناك جدل كثير حول نشأة هذه القرى ولو أن هناك نقاطا معينة متفق عليها بين العلماء . ويعتقد معظم العلماء أن قرية المستنقع هى أقدم نوع ظهر حوالى ٩٠٠ ميلادية فى هولنده فى بداية فترة بناء الجسور هناك . وفى ألمانيا تم إنشاء أول قرية مستنقعية بعد ١١٠٦ م بقليل على يد ستة هولنديين كانوا قد منحوا أراضى فى نهر الفيزر Weser الأدنى بالقرب من بريمن Bremen .

وشهدت القرون التى تلت هذه القرى نحو الشرق والغرب حتى وصلت المستنقعات النهرية البولندية فى القرن السادس عشر ، وفى القرن السابع عشر إلى نهر السين الأدنى فى فرنسا . وقد تم هذا الانتشار أيضا على يد الهولنديين .

ولكن ليس هناك اتفاق كبير بين العلماء بخصوص نشأة قرية الغابة . ويعتقد البعض أن هذا النوع من القرية نشأ أو تطور من قرية المستنقع وأن الألمان تبنوها من الهولنديين وحملوها إلى الداخل نحو تلال أوربا الوسطى . ومما يؤيد هذا الرأى وجود النوعين من القرى (المستنقعى والغابى) على بعد ٣٤ كيلومترا من بعضها فى سهل نهر الراين الأدنى فى ألمانيا الغربية . والشبه الشديد فى شكل النوعين يشير إلى وحدة الأصل . ويقول آخرون بأن هذه القرية ربما تطورت من مساكن المعسكرات Kamp التى قامت فى أطراف قرى شمال ألمانيا الصغيرة (drubbel) والتى أنشأها المزارعون الذين حرموا من الإرث وفق القانون الألمانى ، كما اقترح البعض بأن المزارع الطويلة مشتقة من قطع الحقول الضيقة التى يتميز بها معظم مناطق القرى الألمانية خاصة تلك التى توجد فى جنوب ألمانيا الشرقية فى منطقة ساخسن Sachsen بالقرب من منطقة تركز رئيسى لقرى الغابات فى أيرز قبيرج (جبال الأورر) .

(ب) أنماط الحقول :

ومعلم أساسى ثانى للمظهر الحضارى للريف الأوروبى يتمثل فى أنماط الحقول أو تقسيم الأرض الزراعية للاستخدام البشرى . وعلى عكس مزارعى أمريكا الشمالية وأستراليا فإن مزارع الأوروبيين تتكون من مساحات صغيرة متجزئة ومتناثرة فى اتجاهات مختلفة وعلى مسافات متفاوتة من منازلهم فى القرى . والحديقة المنزلية فقط هى الموجودة فى القرية وتقع خلف كل منزل ، أما الحقول والمراعى والمروج فجميعها يقع على مسافة من القرية مما يستدعى التنقل إليها . واليوم يجد المزارع الأوروبى نفسه فى وضع يحسد عليه ، وخاصة فى وجه التحديات التى تواجهه ، نظرا لانخفاض إنتاجية أرضه المجزءة مما يؤثر فى قدرته على المنافسة مع المزارع الكبيرة الحديثة فى تلبية احتياجات المدن والمناطق الصناعية من خضروات وألبان ولحوم . وهذه القطع المجزءة ، والتى أصبحت جزءا من اللاندسكيب الحالى ، تمثل التركة التى ورثها المزارع من عهود سابقة مثلها ومثل القرى الزراعية التى يعيش فيها .

(١) الحقول المفتوحة Open Fields

يمكن أن نقتفى أصل الممتلكات المجزءة إلى الممارسة التقليدية لنظام الحقول المفتوحة . وفى ظل هذا النظام الضارب فى التقدم كانت المشاعية قوية إذ يخرج كل مزارعى القرية ويعملون سنويا فى الحقول وفق تواريخ محددة للقيام بعمليات الحرث والزراعة والحصاد . وكان كبار رجال القرية هم الذين ينتقون نوع المحصول الذى يزرع وذلك وفق دورات زراعية محددة مثل نظام الدورتين أو الثلاث دورات كما كانت المزرعة عادة ما تقسم إلى عدد من الوحدات الكبيرة تسمى زيقلن (Zelgen) : تزرع وحدة معينة بالقمح فى سنة معينة بينما تترك وحدة أخرى بورا بينما تخصص الثالثة لزراعة الشوفان أو الشعير .

وكان المزارع يعمل فى قطعة صغيرة أو أكثر داخل هذه الوحدات ويتبع أوامر كبار رجال القرية بخصوص وقت الزراعة والمحصولات التى يزرع فيها . وقلما كانت هذه القطع الفردية تحاط بسياج أو سور ، ومن ثم جاء تعبير الحقول « المفتوحة »

كما كانت الأرض توزع بتساو وعدل على أفراد القرية ثم يعاد توزيعها سنويا كما شرحنا سالفا .

وكان هناك نمطا حقل رئيسيين مرتبطين بالممتلكات المجزءة التابعة لنظام الحقول المفتوحة :

(١) فى المناطق الواقعة إلى الشمال من جبال الألب كانت القطع الفردية التى يعمل فيها المزارع تتخذ شكلا طوليا وضيقا . ويعتقد أن هذا الشكل الغريب تم اختياره ليسع المحراث الألمانى الضخم الذى يصعب تدويره لحجمه وثقله . ولتقليل المجهود الذى يبذل فى هذه العملية اختار المزارعون القطع الطويلة الضيقة التى تتطلب دورانا أقل .

(٢) أما النمط السائد فى منطقة البحر المتوسط الأوروبية فيختلف من ذلك الذى كان شائعا فى شمال الألب . فالقطع كانت تتسم بعدم الانتظام فى الشكل الذى غالبا ما يكون مستطيلا . وكان المحراث المستخدم فى حقول الحبوب فى المناطق الرومانية صغير الحجم وسهل التحكم فيه . وبالإضافة إلى ذلك فإن معظم الأراضى الخصبة فى جنوب أوروبا كانت قد خصصت لزراعة البساتين والكروم وفيها كانت المعزقة تمثل الأداة الزراعية الرئيسية ، ولذلك فإن الحقول الطويلة الضيقة لم تكن لها أى ميزة ومن ثم لم تلق شعبية فى هذه المنطقة .

ومع تقدم الزمن واضمحلال الرباط الطائفى وتماسك المجموعة أخذت الملكية الفردية تحل محل الملكية الجماعية تدريجيا ، ومع تقلص نفوذ كبار القرية أوقف العمل بنظام إعادة التوزيع السنوى ومن ثم أصبح المزارع حرا فى اختيار ما يناسبه من محصول فى أرضه . وبهذه الوسيلة تطورت المزارع الحديثة والتى تتكون من منزل وحديقة فى القرية وعشرات أو مئات من الحقول الصغيرة المتناثرة فى الأرض المجاورة .

(٣) الإصلاح الزراعى:

تتميز الممتلكات المجزءة بانخفاض كفاءتها الإنتاجية كما يتضح من المثال الآتى : فى مقاطعة ليون Leon الأسبانية وبالقرب من مدينة زامورا Zamora

يمتلك مزارع ٣٩٤ قطعة منفصلة من الأرض الزراعية ، يصل متوسط مساحة كل قطعة حوالى ٠٧ر٠ هكتار ، بينما فى قرية سيشامب Seichamp فى مقاطعة اللورين الفرنسية تم تقسيم ٣٢٥ هكتار تخص كل مزارعى القرية إلى ١٤٥١ قطعة ، مساحة كل قطعة حوالى ٢٢ر٠ هكتار . ومثل هذه الحقول الصغيرة زائدا الوقت المطلوب للتنقل إليها وبينها يضع المزارع الأوروبى فى موقف ليس فى صالحه خاصة فى وجه المنافسة من الأماكن المماثلة ذات الأراضى الشاسعة . واعترافا بهذه المشكلة ، سعت الحكومات المختلفة إلى تطبيق برامج الإصلاح الزراعى واستصلاح الأرض الذى يتطلب إعادة رسم حدود الأملاك لتقليل أو إيقاف عملية تجزءة الملكيات الزراعية .

بدأ إصلاح الأرض فى انجلترا منذ القرن الثالث عشر كجزء من حركة عرفت بالقفل Enclosure ووصلت قمتها بين عامى ١٤٥٠و ١٧٥٠ حين قام ملاك الأرض بإلغاء الممتلكات المجزءة وإحلال الحقول المفتوحة بمزارع ذات وحدات زراعية كبيرة ومحاطة بحواجز من الشجر ، وغالبا ما تم ذلك تلبية لرغبهم فى التحويل من إنتاج المحصولات إلى تربية الضأن . وعند قيام الثورة البروتستانتية كان نصف ٨٥٠٠ مقاطعة فى انجلترا قد تم إحاطتها . ثم انضمت الحكومة البريطانية إلى صف الملاك حتى تم تطبيق الإصلاح فى القرن الثامن عشر ما عدا فى أماكن قليلة حيث توجد الممتلكات المجزءة . ومن المناظر المألوفة فى الريف البريطانى منظر صفوف الأشجار التى زرعت على طول حدود الملكيات والحقول حيث كان موضع السياج الشجرى الأصلى .

أما فى اسكندناوه حيث كانت تجزئة الأرض أقل حدة ، فقد حدث تقدم ملحوظ فى الإصلاح أثناء القرنين الثامن والتاسع عشر رغم أن عملية الإدماج ما زالت مستمرة . وأصدرت الحكومة الدنماركية أمرا فى عام ١٧٨١ طالبة إنهاء الحقول المفتوحة وتوحيد القطع وتم ذلك فى عام ١٨٣٥ . ولكن التوفيق لم ولكن هناك تقدم بطىء فى هذا المضمار وإن كان القضاء النهائى للقطع المتناثرة

وإلغاؤها نادر الحدوث . وهناك خطط عملت للإسراع فى تطبيق برامج الإصلاح فى دول السوق الأوروبية المشتركة ، كما تم إنجاز الإصلاح فى قرية Nerdlen نيردلن فى ألمانيا الغربية فى عام ١٩٠٥ ولكن ما زالت هناك أراضى مجزءة كما نرى فى هذا الجدول :

جدول ١١ : أمثلة توضح التقلص فى عدد الملكيات المجزءة فى نيردلن

عينة المزرعه	عدد القطع قبل إصلاح الارض	عدد القطع بعد تطبيق الإصلاح
المزارع أ	٢٩٦	٢٤
المزارع ب	٢١٦	٢١
المزارع ج	٩٢	١٣

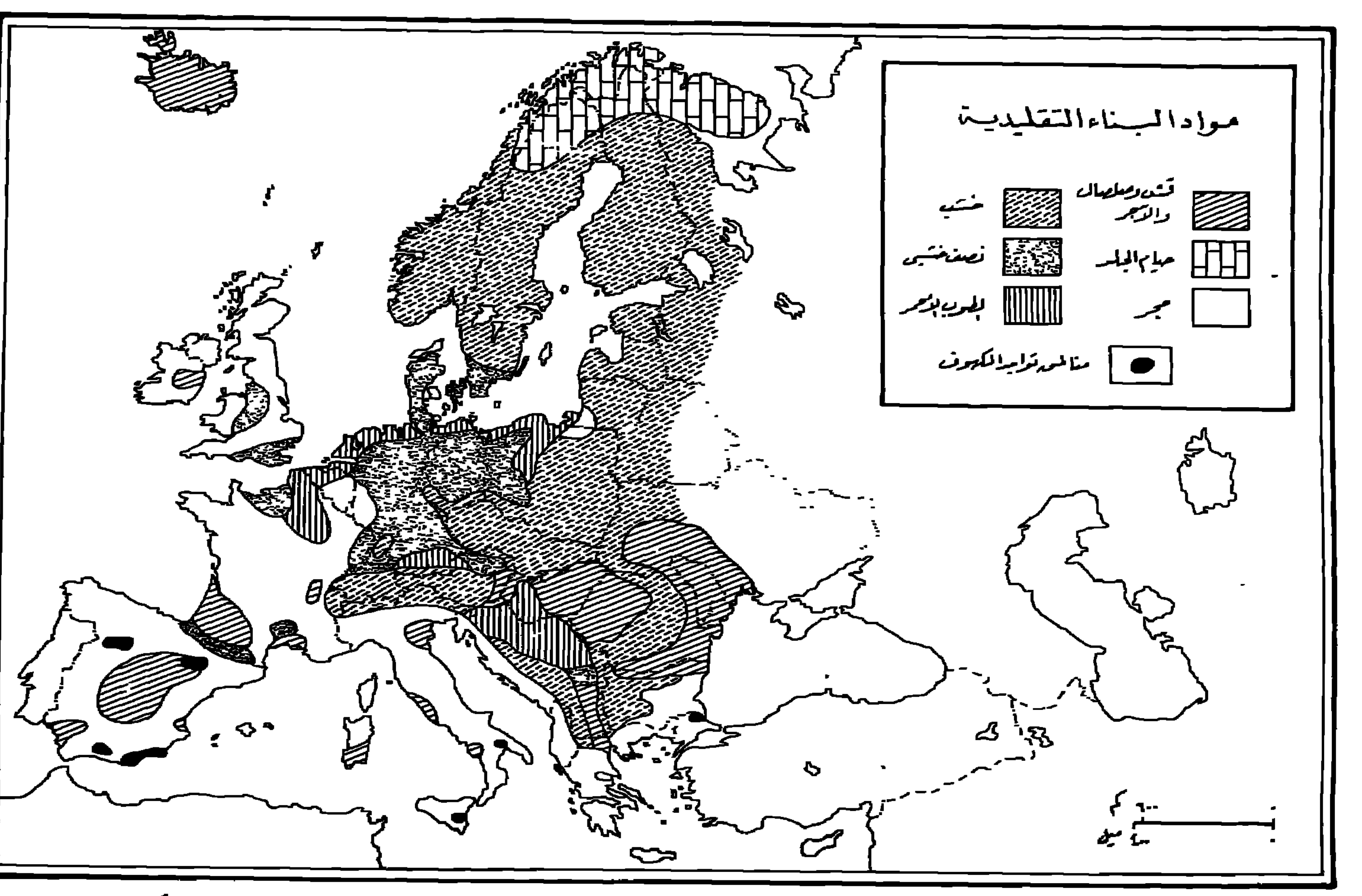
أما الدول الشيوعية فقد حلت موضوع الملكية المتجزئة بتطبيق المشاعية أو الجماعية والغاء الملكية الخاصة وتحويل الأرض إلى مزارع جماعية ضخمة ومزارع دولة . وقد يتيح هذا التحول إلى المزارع الكبيرة تطبيق أحدث الوسائل العلمية والآلات الزراعية الحديثة فيها أكثر من الحقول الضيقة الصغيرة المتناثرة التى نجدها فى الغرب .

(ج) أنواع المنازل :

من أكثر الأشياء التى تجذب نظر المسافر عبر الريف الأوروبى المتغير تلك التى تتعلق بالمنازل التقليدية والمنازل الزراعية والتى هى من أكثر عناصر الريف عرضة للتغيير من منطقة لأخرى : فكل إقليم تقريبا يظهر طريق بناء وفنا معماريا شعبيا محليا خالصا . ورغم هذا التنوع فى أنواع المنازل وطرق بنائها وأشكالها يمكننا أن نميز سمات معينة سائدة على امتداد مناطق شاسعة ، ومن هذه السمات :

١ – مواد البناء التقليدى (الشكل ٤٤) :

تعتبر مواد البناء من المعالم أو الصفات التى تميز أنواع المنازل والمنزل الزراعى . وقد يشمل أبسط طرق البناء استخدام التراب أو التراب المتماسك مثل الآجر . وهذه مواد أوقف استخدامها فى أوروبا منذ أمد طويل . وفى بعض أجزاء أشباه جزر البحر المتوسط ما زال الطوب المصنوع من الطين يستخدم فى البناء خاصة فى سهول


مواد البناء التقليدية
قش وصلصال والآجر
خشب
خيام الجلد
نصف خشبي
حجر
الطوب الأحمر
مناطق تواجد الكهوف
٦٠٠ كم
٤٠٠ ميل

شكل [٤٤]

الدلتوات حيث يندر وجود الحجارة . وطريقة أخرى بدائية هى وضع كميات من الطين حول نسيج من الأغصان والفروع أو الأعشاب أو البوص لعمل حيطان المنزل . وهذه الطريقة تمارس فى مناطق مختلفة من أوروبا مثل سهول أيرلنده ومستنقعات فيندى Vendee فى فرنسا وسهول رومانيا . أما فى منطقة الحشائش التى تمتد من أوروبا الشرقية إلى سهول أكرانيا فما زالت البيوت المبنية من الآجر المخلوط بالقش شائعة حتى اليوم . وفى أيسلنده كانت الحيطان عادة ما تبنى بالقش وقطع التربة ثم تـزرع عليها الحشائش ، وتزين الواجهة بالأخشاب التى يجلبها البحر. والملاحظ أن هذه المنشآت المبنية من التراب تسود فقط فى المناطق التى تخلو من الحجارة والأخشاب كما فى منطقة البحر المتوسط حيث تندر الحجارة فى السهول وفى أيرلندة حيث توجد الصخور فى عمق تحت المستنقعات . أما الكهوف فقد أصبحت من سمات عصور ما قبل التاريخ إلا فى مناطق معينة من أسبانيا وبعض الدول وجنوب إيطاليا وصقلية وقبرص .

(أ) الحجر :

يعتبر الحجر من أكثر مواد البناء شيوعا ، وتسود المبانى الحجرية فى معظم أجزاء أوروبا الجنوبية وتنتشر غربا بعض أجزاء الجزر البريطانية .والملاحظ أن هذا النطاق جبلى فى كثير من أجزائه حيث يتواجد الحجر على السطح . ويمكن الحصول عليه بدون صعوبة الا فى سهول ودلتوات الأنهار الكبيرة ، كما أن الحجر الجيرى كثير الوجود والمبانى الحجرية هى التى تضفى نوعا من التمييز على اللاندسكيب الحضارى فى أوربا الجنوبية لأن كل المعالم البشرية مصنوعة تقريبا من هذه المادة مثل المنازل والكنائس والمصاطب والكبارى والحواجز وحتى بقايا الحضارات القديمة . ويتطابق نطاق المبانى الحجرية مع المناطق التى شهدت إزالة الغابات منها ، وهناك أدلة أثرية تشير إلى أن إنسان هذه المنطقة كان يفضل البناء بالخشب فى فترة سابقة عندما كانت الاخشاب متوفرة ، وأنه اتجه إلى البناء بالحجارة بعد ماتم إزالة الغابات التى كانت تمده بالأخشاب . وقد اكتسب سكان جنوب أوروبا مهارة فائقة فى هذا النوع من البناء وعلى يدهم انتقل هذا الفن إلى شمال جبال الألب عندما استعان المسؤلون بهؤلاء فى بناء الكنائس والمنشآت المهمة .

(ب) الخشب :

أما البناء بالخشب فقد كان سائدا منذ فترة طويلة فى الأجزاء الشرقية والشمالية من أوروبا : فى الاقاليم السلافية والدول الاسكندناوية وكذلك فى المناطق الجبلية من أوروبا الوسطى . وهذه المناطق هى أكثر أجزاء أوروبا تغطية بالغابات ويمكن أن نقول كقانون عام ان الخشب هو أكثر المواد استخداما فى البناء حيثما توفرت الغابات . وكان البناء بقطع الخشب الكامله Logs هو أكثر طرق البناء شيوعا ولو أن أهميته قد تلاشت تقريبا . وقد اشتقت غرف الخشب الأمريكية Log cabins أصلا من المهاجرين السويديين والفنلنديين والألمان الذين أتوا من منطقة الغابة السوداء ، حيث كانت الكنائس تبنى بالخشب فى هذه المناطق وهناك عاينات من هذه الكنائس . ما زالت موجودة فى روسيا ومولدافيا الرومانية والنرويج . وتغلب المبانى الخشبية على مبانى مدن أوروبا الشمالية كما فى مدينة بيرجن Bergen النرويجية ومدينة تامبير Tampere الفنلندية حيث كانت المبانى الخشبية تؤلف ٨٤٪ منها حتى عام ١٩٠٠ . ومن أهم عيوب الخشب أنه عرضة للحريق وخاصة عندما يكون متجمعا فى حيز ضيق مثل القرى والمدن . وقد تعرضت مساكن كثيرة فى سويسره للحرائق وحتى المدن الكبيرة مثل موسكو وبيرجين تعرضت لحرائق مدمرة من قبل .

(ج) الطوب :

يسود بناء الطوب فى شريط ضيق من المستنقعات الساحلية ودلتاوات الأنهار التى تطل على سواحل بحرى البلطيق والشمال فى الأراضى المنخفضة وألمانيا وشمال فرنسا . وقد كانت هذه المنطقة خالية جزئيا من الغابات لتعرضها للفيضانات كما أن الإرسابات الغرينية السميكة حالت دون الحصول على الحجر . ومن ثم كان لابد أن يستخدم الطوب فى بناء المنازل ولونه المائل للاحمرار يضفى سمات مميزة للاندسكيب الحضارى فى هذه المنطقة كما أن هناك منطقة أخرى فى سهول شمال يوغسلافيا الداخلية تسود فيها مبانى الطوب .

(د) البناء المختلط :

يتميز معظم باقى أجزاء أوروبا خاصة ألمانيا والدنمارك وإقليم اسكانيا السويدية

ونورماندى والزاس وأجزاء من السهل الانجليزى بالبناء التقليدى الذى يسمى Half-timbering ، وفيه يقام إطار من خشب البلوط القوى كدعامة رئيسية مع دعامات أخرى مساعدة وتملأ الفراغات والفجوات بنسيج مصنوع من الفروع والحشائش المخلوط بالطين . وفى الآونة الأخيرة استبدل النسيج بالطوب أو الحجر المكسور . وعامة يليس هذه الفجوات ويطلى باللون الأبيض كما أن العوارض الخشبية تطلى بلون غامق مما يضفى على المنزل منظرا باهرا مميزا . ورغم أن هذا النوع من البناء عرف فى ألمانيا وأصبح من معالم ريفها الأساسية فإن هناك أجزاء منها خاصة تلك التى كانت تحت سيطرة الرومان جنوب الدانوب أو غرب الراين يندر فيها هذا النوع . وربما كان هذا البناء ابتكارا ألمانيا ومنها انتقل إلى انجلترا وفرنسا بواسطة الغزاة الساكسون والفرنك . ويرتبط هذا النوع من البناء فيما يبدو بالمناطق التى شهدت إزالة معقولة للغابات حيث كانت الأخشاب كافية فقط لإمداد البنائين بأخشاب الإطار الضرورية ولكن ليس بالوفرة التى تسمح ببناء منازل خشبية كاملة .

ويمكن أن نعتبر هذا البناء وسطا بين المبانى الخشبية السائدة فى الشمال ومبانى التراب فى الجنوب . وقد ربط الجغرافى الألمانى أدولف هلبوك A. Helbok هذا النوع من البناء بمناطق غابات البلوط على أساس أن أشجار البلوط تصلح جيدا لعمل العوارض السائدة لكنها غير كافية لسد حاجة البناء بالخشب غير المنشور Log لأن الأشجار ليست مستقيمة بالدرجة الكافية لامداد القطع الطويلة . ويوجد هذا النوع من البناء أيضا فى إقليم مقدونيا والصرب فى يوغسلافيا وجزيرة كورسيكا وإقليم الباسك وفى بعض أجزاء أسبانيا الوسطى وأقليم سفنز فى جنوب فرنسا .

الخرسانة :

شهدت أوروبا خاصة فى النصف الأول من هذا القرن تحولا من مواد البناء التقليدية والاتجاه نحو مواد حديثة من الخرسانة . ونجد أن معظم المبانى الحديثة تبنى من الأسمنت .

(٢) المعمار الشعبى :

يعتبر أسلوب البناء ، ربما أكثر من مواد البناء ، من أهم العناصر فى تصنيف

أنواع المنازل والمنازل الزراعية لأنه هو الذى يسترعى الأنظار ويجذب الانتباه . ورغم تنوع أسلوب البناء الشعبى فى أوروبا فإننا نستطيع أن نميز نوعين رئيسيين :

(١) المنزل الزراعى الذى يتكون من وحدة متكاملة Unit farmstead (Einneitshaus) ويضم تحت سقف واحد وفى بناء واحد ، مساكن الناس والحيوانات والمخازن .

(٢) المنزل ذو المبانى المتعددة Mehrbaubof) multi-structure farm-sleads ويشمل عددا من المبانى المنفصلة . (الشكل ٤٥)

ويمكن تقسيم النوع الأول إلى صنفين آخرين على أساس عدد الطوابق . فنى الحزام الممتد عبر السهل الألمانى الشمالى إلى الأراضى المنخفضة والفلاندرز يوجد المنزل ذو الطابق الواحد وفيه يحتل الناس والحيوانات أجزاء مختلفة من المنزل . ويمكن أن نضم إلى هذه المجموعة الأنواع الآتية من المنازل : الساكسونى saxon والفريزيان Frisan والأيدرشتدت Eiderstedt . فالنوعان الأولان (ساكسون وفريزيان) يتميزان بتواجد غرف المعيشة والحظائر عند الأطراف المقابلة لبناء طويل يفصل بينهما الموقد ، ومبنى بالخشب والطوب half-timbering والسقف مغطى بالقش thatch . أما الأيدرشتدت فهو من أكبر المبانى العائلية فى العالم ويتميز بسقف هرمى كبير من القش يغطى منزلا مربعا يتوسطه جرن threshing floor . وهذه الوحدات ذات الطابق الواحد تمثل أنواعا كانت سائدة فى سهول ألمانيا وبقيت حتى وقتنا الحالى ولو أنها فى طريقها إلى الزوال فى مناطق أخرى . وقد حملها الساكسون معهم إلى انجلترا ولكن حدث تعديل فى القرن السادس عشر عندما تم فصل مساكن الحيوانات من المنزل إلا فى الأجزاء الشمالية من الجزيرة . وفى عام ١٤١٩ وبموجب قانون صدر فى لندن أصبح حفظ الحيوانات مع الناس تحت سقف واحد جرما يحاكم عليه .

أما المنزل ذو المبانى المتعددة فهو أكثر شيوعا خاصة فى جنوب أوروبا والأقاليم الجبلية مثل جبال الألب والغابة السوداء . وفى هذه المنازل عادة ما يحتل الناس والحيوانات طوابق مختلفة وغالبا ماتكون الحظائر فى الطابق الأرضى وفوقها مباشرة

٦٠٠ كم

٤٠٠ ميل

أنواع المنزل والمنزل الزراعي التقليدية

منزل زراعي ذو طابق واحد

،، ،، ذو طابقين

،، ،، ذو فناء مغلق

،، ،، ذو فناء مفتوح

،، ،، مشتت

شكل (٤١)

تقع غرف المعيشة . وربما يوجد مكان فى أعلى المنزل attic لتخزين علف البهائم . وفى مناطق جبال الألب غالبا مانجد قبوا cellar لصنع الجبن وفى مناطق زراعة العنب يستخدم القبو الموجود مباشرة تحت غرف المعيشة لتخزين النبيذ . أما فى المناطق الأخرى مثل ما فى بارفاريا فهذه المنازل غالبا ما تتكون من طوابق متعددة وتبنى بجانب مخزن متصل به ، وتمثل منازل منطقة الغابة السوداء فى جنوب غرب ألمانيا وشاليهات سويسرا أمثله للوحدات ذات الطوابق المتعددة .

أما باقى أجزاء أوروبا فتسود فيها أنواع من المنازل ذات المبانى المتعددة ، منها : (الشكل ٤٥) .

١ - المنزل ذو الفناء Courtyard Farmstead

وفى هذا النوع يتجمع المنزل والمخزن والمبانى الأخرى حول ثلاثة أو أربعة جوانب لفناء مركزى داخلى ، ويوجد فى منطقة من أوروبا الوسطى تمتد من شمال فرنسا شرقا إلى بولنده والبلقان . وأحسن مثال لمثل هذه النوع من المنازل هو المنزل الفرنكى الذى يتطابق توزيعه مع نطاق انتشار اللهجة الألمانية الوسطى ونطاق النفوذ القديم للقبائل الفرنكية . وفى أغلب الأحيان تحيط المبانى بالفناء الداخلى من ثلاثة جوانب ويكون السور الخشبى والبوابة الجانب الرابع من السياج ويحتمل أن المنزل الفنائى قد صمم فى البداية لغرض الدفاع على مستوى العائلة .

٢ - أما أنواع المنازل الأخرى فهى لاتتجمع حول الفناء بل تتكون عادة من مجموعة من المبانى المتناثرة حول أو بالقرب من المنزل ويعرف عند الجغرافيين الألمان باسم streuhof أى المنـــازل المتناثرة وهذا النوع أكثر شيوعا فى أمريكا الشمالية منه فى أوروبا .

وينحصر وجوده فى أوروبا فى شمال وشرقى القارة الذى يتطابق مع نطاق البناء الخشبى حيث يتطلب إبعاد المنازل من بعضها البعض تفاديا للحرائق علاوة على ذلك فإن البيوت المتناثرة لها علاقة بالمنازل المتناثرة ذات الحقول الكبيرة حيث لا توجد ضرورة لازدحام المنازل .

وهكذا نجد أن المظهر الحضارى للريف الأوروبى يعكس إلى حد بعيد قدم المنطقة وقدم الاستيطان فيها . فالقوى التى أنتجت أنماط الحقول وأنواع المنازل والقرى الزراعية المختلفة كثيرا ما تكون ضاربة فى جذور التاريخ القديم وممعنة فى القدم أحيانا حتى أصبحت غير معروفة لدى العلماء . ولكن يد الزمن ومتطلبات العصر الحديث قد أخذت تحدث تغييرات جذرية فى الريف ، فالأشكال التقليدية التى لا تتمشى مع متطلبات القرن العشرين قد أخذت تندثر ببطء. ومع اندثارها سيفقد الريف الأوروبى كثيرا من سحره وجماله ... ثمنا للتقدم .

الفصل العاشر

جغرافية الاستيطان الحضرى

شهدت أوروبا نهضة صناعية صخمة خلال المائة سنة الأخيرة . ونتيجة لذلك تحول معظم الأوربيين إلى سكان مدن إلى درجة أننا نجد أن أربعة أخماس أو أكثر من سكان بعض الدول الصناعية الكبرى يقطنون المدن بأنواعها . وترتفع نسبة سكان المدن فى غربى اوروبا وتنخفض كلما اتجهنا نحو الجنوب والجنوب الشرقى كما يتضح من الجدول التالى . ولكن هذه النسب يجب أن تؤخذ كمؤشر أو دليل لان المفهوم الاحصائى لسكان المدن يختلف من قطر لآخر كما يختلف التعريف او التحديد القانونى للمدينة . وكذلك نسبة التحضر . فنى أوروبا الغربية حيث تصل نسبة سكان المدن فى بعض الدول إلى اكثر من ٨٠٪ فان نسبة المجموع الكلى للسكان فى المدن ترتفع فى بطء الآن لأن فترة التحضر السريع التى حدثت فى القرن الماضى قد شارفت النهاية . والمسألة الآن تتلخص فيما اذا كانت دولة أو اقليم بأكمله سيتحول إلى مناطق حضرية حسب المفهوم الجغرافى الحقيقى أم حسب المفهوم الاحصائى . فالهجرة إلى المدن ما زالت عالية فى شرق وجنوب شرق القارة الذى ما زال يشهد نهضة حضرية كبيرة . وحتى فى المناطق التى تقل فيها نسبة سكان المدن فان هذه النسبة عالية اذا قارناها مع النسب الموجودة فى أفريقيا وآسيا . (الشكل ٤٦) .

جدول ١٢ نسبة سكان المدن فى الدول الاروبية

بلجيكا	٨٧ر١	فنلنده	٥٧ر٧
السويد	٨١ر٤	ايرلنده الشمالية	٥٤ر٧
المانيا الغربية	٧٩ر٢	سويسره	٥٤ر٦
انجلترا وويلز	٧٧ر٧	بولنده	٥٤ر٤
هولنده	٨٧ر٢	ايرلنده	٥٢ر٢
المانيا الشرقية	٧٥ر٤	النمسا	٥١ر٩

نسبة السكان الذين يعيشون في المدن

أكثر من ٨٠٪

٧٠ - ٨٠٪

٦٠ - ٧٠٪

٥٠ - ٦٠٪

٤٠ - ٥٠٪

أقل من ٤٠٪

٦٠٠ كم

٤٠٠ ميل

شكل (٤٦)

فرنسا	٧٠ر٠	المجر	٤٩ر٧
اسكتلنده	٧٠ر٠	النرويج	٤٤ر٨
لوكسمبورج	٦٨ر٩	رومانيا	٤٢ر٧
الدنمارك	٦٦ر٩	يوغسلافيا	٣٨ر٦
تشيكوسلوفاكيا	٦٦ر٧	البانيا	٣٣ر٨
اليونان	٦٤ر٨	البرتغال	٢٦ر٤
بلغاريا	٥٨ر٧	اسبانيا	٥٦

عرفت أوروبا المدينة من قبل العصر الكلاسيكى مما يستدعى معرفة أصولها الحضرية لالقاء الضوء على التركيب الحضرى لاوروبا الحديثة .

(١) تطور المدينة قبل الثورة الصناعية :

(١) المدن الفينيقية واليونانية :

ظهرت أولى المدن الاوروبية فى الهلال الخصيب ، حيث أدت نشأة الزراعة المروية الى فائض فى انتاج الطعام الذى بدوره حرر جزءا كبيرا من سكان تلك المناطق – خاصة بلاد الرافدين – من مهمة انتاج الطعام . كما أوجد هذا الفائض مادة مهمة للتجارة . وكان لابد من سلطة مركزية قوية لادارة وضبط عمليات الرى المختلفة ومنشآته المعقدة وتنفيذ المشروعات المتعلقة به ، وادارة الشونة وتوزيع مابها من محصولات . ومن هذه البلاد انتقلت هذه النواة الى الغرب ووصلت جزيرة كريت فى الالف الثالثة قبل الميلاد ، وكانت الجزيرة الصغيرة مهيئة بحكم موقعها الجغرافى للسيطرة على جزء كبير من تجارة المنطقة الشرقية من حوض البحر المتوسط وآسيا الصغرى .

انخرط اولئك الذين تحرروا من انتاج الطعام فى ممارسة نشاطات مختلفة ولكن التجار كانوا يكونون أهم مجموعة بين هؤلاء ، ولذلك عرفت المدن التى ظهرت قبل النهضة الصناعية بالمدن التجارية mercantile city رغم أن المزارعين كانوا يشكلون الاكثرية من بين سكانها .

ومن جزيرة كريت انتشرت الحضارة المدينية إلى اليونان بعد عام ٢٠٠٠ ق.م بقليل ، وبحلول عام ١٤٠٠ق.م احتل سكان« مايسنيا Mycenae الحضرية فى بيلوبونيسون peloponnisos مكانة مرموقة ، ومن ثم شهدت بلاد اليونان زيادة كبيرة فى عدد المدن فى القرون التى تلت حتى بلغت فى القرن الخامس ق.م ستمائة مدينة فى شبه الجزيرة وبقية مناطق ايجه .

كما أنشأ التجار الاغريق مدنا فى شواطئ البحر المتوسط الأوروبية فى آسيا الصغرى حول البحر الأسود فى الفترة مابين ٧٥٠و٥٥٠ق.م ومازالت بعض هذه المدن التجارية باقية حتى اليوم مثل سيراكيوزا فى قبرص ومارسيليا فى فرنسا . كما ساهم الفينيقيون فى إنشاء مدن على الشواطئ الأوروبية منها قرطاجة فى أسبانيا .

لم تكن هذه المدن اليونانية والفينيقية عظيمة لافى مظهرها ولافى حجمها وعادة ماكانت المدن اليونانية تحاط بحائط وتضم من الداخل قلعة تقبع فى مكان مرتفع ، وشوارع ضيقة متعرجة ومنازل مبنية من الآجر أو الخشب وميدانا عاما وبعض المبانى العامة مثل المعابد والمسارح . وبمرور الزمن تحول كثير من المدن اليونانية إلى دول مدينية city states تتكون من المدينة ومنطقة مجاورة تمدها بما تحتاج اليه من طعام . وبحلول عام ٦٠٠ ف ق . م كانت هناك حوالى ٢٠٠ دولة مدينية . وهذه الدول هى التى أدت فى النهاية إلى النشاط الثقافى الكبير الذى بلغ أوجه فى العصر الذهبى الكلاسيكى والحكومات الديمقراطية .

(٢) مدن أترسكا والرومان :

أخذ المركز الحضرى يتحرك تدريجيا من بلاد اليونان إلى ايطاليا حيث أضاف الاترسكيون فيما بين عامى ٧٠٠و٥٠٠ ق.م عددا من المدن إلى تلك التى أنشأها الإعريق والفينيقيون . ورغم أن الاترسكين اتخذوا الجزء الشمالى من شبه الجزيرة الواقع إلى الغرب من جبال الابناين مركزا لنشاطهم فإن نفوذهم فى عملية التحضر امتد حتى شمال سويسرا وبلاد الدانوب فى جنوب ألمانيا حيث بدأت القبائل المحلية فى بناء مدن محصنة .

وتأثر الرومان فى هذا المجال باليونان والاترسكيين . ففى بداية عظمتهم كان إقليما

لازيو Lazio وتوسكانا Toscana يحتويان على اثنتين وأربعين مدينة . وفى عهد أغسطس كانت إيطاليا تفخر بإنشاء ٤٣٠ مدينة جديدة . أما أهم إنجاز رومانى فى هذا المجال فيتمثل فى تطوير عاصمتهم روما . فى أوج عظمتها كانت روما تضم مايقرب من تسعة ملايين نسمة فى مساحة لاتزيد عن ٢٣ كيلومتر مربع . وكان الماء يوزع بالمواسير كما كان بها نظام مجارى وحمامات عامة وقوة بوليسية لحفظ النظام فى مدينة نصف سكانها من العبيد . وكان الرومان سببا فى نشر حياة الحضر فى أوروبا عن طريق إنشاء مدن جديدة فى فرنسا وألمانيا وبريطانيا وداخل أيبريا وأماكن أخرى . وحول المعسكرات والثكنات الحربية نمت مدن جديدة مثل لانكاستر Lancaster ، وينشستر Winchester (كاستر – من الكلمة اللاتينية castra بمعنى معسكر جيشى) . وتوافد التجار والحرفيون إلى هذه المعسكرات لمد العساكر باحتياجاتهم من أكل وغيره ثم استقروا بالقرب منها وهكذا أسهموا فى إنشاء نواة تطـــورت فيما بعد إلى مدن . وكثيرا ماكان الرومان يستولون على قرى الأعداء المحصنة ويقومون بتوسيعها وتطويرها ، فى حين أن مدنا أخرى أخذت تنمو تلقائيا عند ملتقى الطرق التجارية .

أما المستعمرات colonies فكانت عبارة عن مدن جديدة يتم إنشاؤها بأمر الدولة ويقوم بتخطيطها المساحون ، وتبنى عادة فى ايطاليا نفسها . وتميزت هذه المدن بشوارعها المستقيمة المتوازية مع بعضها البعض والتى تتقاطع فى زوايا قائمة ، وبها شارعان رئيسيان يلتقيان فى زوايا قائمة مع بعضهما فى وسط المدينة ، حيث يوجد المنبر والمبانى . وتماما كالمدن اليونانية كان معظم المدن الرومانية صغيرة وغير ذات أهمية نسبيا وتخدم أساسا كأسواق محلية كما كانت تختلف فى أحجامها ، ففى فرنسا كان سكان المدن الرومانية يتراوح ما بين ٦٠٠ إلى ٣٥٫٠٠٠ شخص وفى انجلترا بين ٥٠٠ إلى ٣٧٫٠٠٠ شخص (لندن) .

وقد بقيت آثار الرومان إلى اليوم متمثلة فى شوارع بعض المدن الحديثة مثل بافيا Pavia فى شمال إيطاليا وزراجوسا Zaragosa فى أسبانيا (سرقسطة) وكولون Koln فى ألمانيا وشستر Chester فى انجلترا ، كما احتفظت مدن كبيرة بالأسماء

اللاتينية الأصلية مع بعض التحريف مثل كولون (Koln) (كولونيا)
(Colonia) ريمس Reims (ريمى) Remi يورك York (ابوراكم)
(Eboracum) لندن (لونديتيوم) (Londinium) وبوردو Bordeaux
(بوردقالا Burdigala) . ومثلا بدأت زراجوسا Zaragosa باسم « سيزاريا
أوغسطا Caesarea Augusta وحرفها العرب إلى « سرقسطة Zarakusta ،
ثم أصبحت Zaragoza على يد المسيحيين .

وكانت المدن الكبيرة تجارية فى وظيفتها ، ولكنها أيضا كانت تؤدى وظائف إدارية وحربية وكان العساكر يكونون نسبة كبيرة من سكانها . ومع انتشار المسيحية وقبولها كدين رسمى أصبحت الوظيفة الدينية تكتسب أهمية خاصة فى بعض المدن التى أصبحت مركزا للأديرة أو مقرا لسلطة دينية .

(٤) التدهور الحضرى فى العصور المظلمة :

مع غارات القبائل البربرية على الإمبراطورية الرومانية شهدت أوروبا فترة تدهور حضرى . ومع سقوط الإمبراطورية تفشت الفوضى وعدم الاستقرار مما أدى إلى تدهور شديد فى النشاط التجارى الذى كان يكون عصب هذه المدن . وتحولت بعض المدن فى غرب أوروبا إلى قرى زراعية بينما أخليت مدن أخرى وهجرت وأصبح الدين هو الأمل الوحيد فى بقاء المدن وأصبح وجود مركز أسقف أو دير فى مدينة ما سببا فى بقائها واستمرارها فى تلك الفترة المظلمة . وكان هذا التدهور الحضرى أقوى فى أطراف الإمبراطورية منه فى داخلهامثل جنوب ألمانيا وانجلترا وشمال فرنسا وسويسره والنمسا . أما فى أيبريا وإيطاليا واليونان وجنوب فرنسا فقد ظلت المدن رغم تقلص عدد سكانها محتفظة ببعض الصفات الحضرية .

مع عودة النظام والاستقرار فى ظل النظام الإقطاعى فى القرن الحادى عشر ازدهرت التجارة وتم إحياء مدن رومانية عديدة وبناء مدن جديدة خارج حدود الإمبراطورية القديمة فى شمال ألمانيا واسكندناوة وبلاد الصقالبة . ويحتمل أن نشأة مدن العصور الوسطى قد حدثت بطرق عديدة :

١ – كان بعض المدن عبارة عن توسيع بعض المواضع التى استطاعت الاستمرار والاحتفاظ بنشاطها التجارى أثناء فترة الاضمحلال .

٢ – ويبدو أن البعض تطور عندما استقر عدد من الحرفيين والفنيين فى قرى زراعية كبيرة وقيامهم بخدمة المناطق المجاورة بإمدادها بالبضائع المصنعة . ومثل هذا الأصل توحى به أسماء الأماكن التى تنتهى بمثل هذه الكلمات : dorf (تعنى قرية) heim ، ingen ، ingham ، housen ، house كما فى Mulhouse (فرنسا) و Nordlingen (ألمانيا الغربية) و Birmingham (فى انجلترا) . Nordhausen (ألمانيا الشرقية) و Hildesheim (ألمانيا الغربية) . و Dusseldorf (ألمانيا الغربية)

٣ – أما معظم المدن فقد نمت وتطورت من مراكز محصنة قديمة والتى هى عبارة عن مواضع يسيطر عليها معقل إقطاعى أو سلطة دينية . وقد شهد القرن التاسع والعاشر فترة بناء رئيسية للقلاع بواسطة ملاك الأرض الإقطاعيين فى سعيهم للسيطرة على مناطق الريف المجاورة . وكان التجار المتنقلون هم الأداة فى تحويل هذه المراكز المحصنة إلى مدن مزدهرة عندما لجأوا إلى هذه المعاقل لمباشرة أعمالهم تحت حمايتها فى الأسواق المحلية . ثم دفعتهم الرغبة فى الحصول على مساكن شتوية آمنة إلى إنشاء مساكن دائمة عند هذه المراكز عرفت بمستعمرة التجار . وفى مراحل تطورها الأولى كانت المدينة تتكون من مراكز متميزة : القلعة ، سوق أو سوقين ، بيوت محصنة ومتناثرة للتجار ، كنيسة وبعض منازل المزارعين .

٤ – إنشاء مدن جديدة على أسس مخططة بواسطة سلطة مركزية على غرار المستعمرات الرومانية القديمة ، وتكثر مثل هذه المدن فى المناطق الألمانية الشرقية وتتميز بالشوارع المستقيمة التى تقاطع بعضها فى زوايا قائمة .

أما الخصائص الثلاثة الرئيسية للمدينة الأوروبية فى العصور الوسطى فهى: الصك أو العقد أو الميثاق charter وسور (حائط) المدينة والسوق . فالميثاق عبارة عن قانون أو أمر من امبراطور أو حاكم يمنح بموجبه السيادة أو الحكم الذاتى للمدينة وتحرير سكانها من قيود الإقطاعية السائدة فى المناطق الريفية . وكانت المدينة

تحكم ذاتيا ومسئولة عن الدفاع عن نفسها . ثم أخذت المدن التى تنتمى إلى التجار الأثرياء تطلب منحها هذه المواثيق لتتحرر من قيود الإقطاعيين التى كانت تقف حجر عثرة فى وجه التجار تعوق تحركاتهم ومبادراتهم الشخصية . وكان الحرفيون والفنيون يؤيدون مثل هذه الطلبات خاصة بعد أن أنشأوا مهنا متخصصة فى المدن . وقد سمحت الصكوك إنشاء دول مدينية على غرار المدن الكلاسيكية فى معظم أنحاء أوروبا الغربية . وما زالت مدن كثيرة تحسب تاريخ إنشائها من يوم حصولها على الصك .

أما السوق ، والتى كانت تضم قاعة تجارية ، فكانت تمثل مركز النشاط الاقتصادى فى المدينة لأن الوظيفة التجارية للمدينة ظلت سائدة أثناء العصور الوسطى . وكانت المعارض التجارية السنوية تقام فى بعض المدن الكبيرة ، وقد بقيت بعض هذه المعارض فى بعض المدن إلى يومنا هذا مثل معرض لا يبزيج وفرانكفورت وميلانو وليون .

أما من ناحية أحجامها فقد كانت مدن العصور الوسطى أشبه بمدن العصر الكلاسيكى ، وقليل من زاد سكانها عن ١٠٠٫٠٠٠ نسمة مثل باريس ونابولى .

ثم شهدت أوروبا فى الفترة ما بين بداية القرن السادس عشر وانتشار الثورة الصناعية تطورات مهمة فى التركيب الحضرى . فقد توقف تشييد المدن الجديدة إلا من عدد ضئيل منها تم إنشاؤهـا على أسس مخططة وكمراكز سياسية أو مصايف بشوارع واسعة تتفرع من الوسط وتحتوى على بعض المبانى الفخمة . أما المدن الموجودة فأخذت تنمو وتزداد حجما إلا فى بعض المناطق مثل شمال إيطاليا حيث أدى قطع العلاقات التجارية إلى تقلص فى النمو الحضرى . وما لبثت الدول المدينية أن فقدت أهميتها واضمحلت عندما أخذت المدن تفقد تدريجيا وضعها السياسى المستقل وتدمج ، قهرا فى بعض الأحوال ، فى الإمبراطوريات والدول الكبرى باستثناء ألمانيا حيث احتفظت المدن بحكمها الذاتى داخل الامبراطورية الرومانية المقدسة . وكان عدد المدن المستقلة فى ألمانيا حتى عام ١٧٩٠ يربو عن ثلاثين مدينة يتجمع معظمها فى الجزء الجنوبى الغربى من الدولة . وما زال بعض بقايا دول العصور الوسطى

المدينية موجودة كما فى هامبورج وبريمن اللتين تحتفظان بوضع الدولة داخل جمهورية ألمانيا الفيدرالية ، وسان مارينو المدينة المستقلة التى تقع فى إيطاليا .

صاحب تدهور الدول المدينية ظهور العواصم القومية وتطورها إلى مدن كبرى . ففى عام ١٤٠٠ كان سكان لندن لا يتعدون ٥٠٫٠٠٠ نسمة وبريستول ٣٠٫٠٠٠ . وفى خلال ثلاثة قرون قفز عدد سكان لندن إلى ٧٠٠٫٠٠٠ بينما ظلت بريستول على حالها . كما وكان يصحب اختيار مدينة كعاصمة قومية تغييرات جذرية فى شكلها كتوسيع الشوارع وإزالة المبانى البالية القديمة .

ولكن عملية التحضر لم تؤثر كثيرا فى نمط توزيع سكان أوروبا : ففى عام ١٦٠٠ كان عدد السكان الذين يعيشون فى مدن سكانها ١٥٫٠٠٠ لا يتعدى أربع ملايين نسمة من مجموع ٨٥ مليون شخص أى ٥٪ فقط . وفى هولندة وإيطاليا ، وهى من أكثر دول أوروبا تحضرا آنذاك ، بلغت نسبة سكان المدن فيها إلى ١٢٪ و ١٣٪ من مجموع السكان فى حين أن ٢٪ من سكان ألمانيا وبريطانيا وفرنسا فقط كانوا يعيشون فى المدن .

(ب) المرحلة الصناعية من ١٨٠٠ إلى الآن :

طرأ تغيير كبير على المدن الصناعية خلال القرنين الماضيين نتيجة الثورة الصناعية : فقد أصبحت الصناعة من الوظائف الأساسية لكثير من المدن كما تقلص نفوذ المدن التجارية . وأهم سمات هذه المرحلة الصناعية هو الزيادة الكبيرة التى طرأت فى حجم المدينة أثر الهجرة المتزايدة للسكان إلى هذه المراكز الصناعية طلبا للعمل . وكانت انجلترا وويلز من أوائل الدول التى تحول أكثر من نصف سكانها إلى حضريين وذلك فى خمسينيات القرن الماضى . وعند بداية القرن الحالى وصل عدد سكان المدن إلى ثلاثة أرباع مجموع السكان ، كما وصل عدد سكان المدن فى ألمانيا إلى نصف سكانها . وفى عام ١٩٣٠م وجدت دول أخرى خاصة فى شمال غربى القارة أن نصف سكانها يسكنون المدن . وهذا الاتجاه مستمر الآن . وأكثر دول أوروبا تحضرا هى هولنده وبلجيكا حيث يبلغ عدد السكان فى المدن التى يبلغ سكانها ٢٠٠٠ نسمة لما فوق أكثر من أربعة أخماس مجموع سكانها . أما أقل الدول تحضرا فهما البرتغال والبانيا حيث التصنيع ما زال فى بدايته (جدول ١٢) .

والثورة الصناعية هى التى أدت إلى الزيادة السكانية العالية التى شهدتها المدن حديثا : وقد قفز سكان لندن من ٩٥٠ر٠٠٠ نسمة فى عام ١٨٠٠ إلى ما فوق المليون فى العشر سنوات الأولى من القرن الماضى وإلى مليونين فى ١٨٥٠ ، فى حين بلغ عدد سكان باريس أكثر من مليون ونصف شخص فى منتصف القرن الماضى . ومع نهاية القرن شهدت موسكو وبرلين وفيينا ولينينغراد زيادات مماثلة . وإذا استثنينا مدينة موسكو فإن هذه المدن كانت تجمع مع وظيفتها كعاصمة قومية وظيفة أخرى هى الصناعة . وفى عام ١٩٧٠ م وصل سكان عشرين مدينة أخرى مليون شخص أو يزيد .

ولم تنتج الثورة الصناعية إلا القليل من المدن الجديدة : فقد وسعت المدن التجارية الموجودة وبنيت المصانع والمنازل خارج الحيطان التى أخذت تنتشر بعيدا فى كل اتجاه . ومن المدن القليلة التى تم إنشاؤها فى هذه المرحلة مدينتى لودفج هافن Ludwigshafen وفولفسبرج Wolfsburg فى ألمانيا الغربية .

(ج) موضع المدينة :

رغم التغييرات الجذرية التى أحدثتها الثورة الصناعية فى المدينة الأوروبية ، فإن هذه المدن تظهر إلى حد كبير التركة التى ورثتها ليس من العصور الوسطى فحسب بل من العصر الكلاسيكى أيضا ، وتتمثل هذه التركة فى موضع المدينة ومورفولوجيتها أو الشكل ، وتخطيطها أو امتدادها المكانى .

(١) الموضع :

إن القرارات التى حددت المواضع المعينة لمعظم المدن الأوروبية اتخذت منذ زمن بعيد بواسطة الإغريق والرومان وملاك الأرض الإقطاعيين فى العصور الوسطى . وكانت هذه القرارات مبنية على أساس الوظيفة التى كانت تؤديها هذه المدن ، والتى كانت غالبا ما تتعلق بالدفاع أو الطرق التجارية .

(١) المواضع الدفاعية للمدن Defensive sites

اكتسبت المواقع الدفاعية أو التى يسهل الدفاع عنها أهمية كبرى فى تحديد مواقع

المدن بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية ، خاصة بالنسبة لملاك الأراضى الإقطاعيين ، العلمانيين منهم والدينيين ، الذين بنوا قلاعهم فى مثل هذه المواضع على عكس الرومان الذين كانوا يختارون الأماكن الفسيحة معتمدين على قوة جيوشهم ، ويبنون مدنهم أو معسكراتهم العسكرية عند الطرق أو على الأنهار الصالحة للملاحة حتى يستطيعوا التحرك بسهولة . ومواقع روما وأثينا الداخلية مثلا ترجع إلى الرغبة فى تفادى غارات القراصنة الذين كانوا يغيرون على موانى البحر المتوسط فى العصر الكلاسيكى وبعده .

(١) المواضع عند تعرج النهر River-meander Site

وفى مثل هذه المواضع يكون موقع المدينة داخل الانحناءة حيث يبتدى النهر فى الدوران حول نفسه فى الاتجاه المضاد تاركا عنقا ضيقا من الأرض من الناحية المقابلة غير محمية بالمياه ، مثل بيزانسون Besancon على نهر دوبس Doubs فى شرق فرنسا . وهناك الانحناءات النهرية العميقة Incised meanders التى كانت أكثر شعبية كمواضع للمدن لأن الانحناءة تصبح أكثر ثباتا وصلابة وعمقا مما يصعب اختراقها ، ومدينة بيرن Bern عاصمة سويسره التى تقع على نهر أر Aare ومدينة درهام فى شمال شرق انجلتره الواقعة على نهر الوير wear مثالان جيدان لمثل هذه المواضع .

(٢) موضع الجزيرة النهرية River-island site

وهذا الموضع أشبه بالموضع السابق ولكنه ذو ميزات أكبر ، ويجمع بين صفات خندق مائى طبيعى ونهر سهل العبور ، وهذه الميزة الأخيرة كانت مهمة بالنسبة للتجار . وقد بدأت باريس كمدينة فى « جزيرة المدينة » (Ile de la Cite) فى وسط نهر السين ، ومثلها كانت مدينة روكلاو wroclaw البولندية على نهر الأودر Oder

(٣) موضع الجزيرة البحيرية Lake-island site

أحسن مثال لمثل هذا الموضع هو مدينة أستوكهولم التى تحتل ما يقرب من اثنتى عشرة جزيرة فى المنطقة التى تتصل فيها بحيرة مالارن maalern ببحر البلطيق .

(٤) موضع الجزيرة بالقرب من الشاطىء off-shore island

يجمع هذا الموضع بين الدفاع والحماية وتسهيلات الميناء . وأفضل مثال هو مدينة البندقية التى بنيت على أعمدة خشبية مغروزة فى حاجز رملى، بالقرب من الشاطىء ، كان يفصل بحيرة ساحلية صغيرة من البحر الأدرياتى . وهكذا حرمت عصابات المغيرين من الوصول إلى المدينة إلا بواسطة القوارب . ويمكن أن ندرج مدينة وكنيسة « مون سان ميشيل Mon-Saint Michel » الواقعة على صخرة بالقرب من شاطىء نورماندى فى فرنسا تحت نفس الصنف . وهنا عندما يأتى المد كانت المدينة تنفصل عن الشاطىء لتعود وتتصل به عبر ممر صعب عند انحسار المد ، ولكن هناك جسر دائم يربطها بالبر الآن .

(٥) المواضع الجافة : Dry-points site

كانت المستنقعات تضفى نوعا من الحماية لبعض المدن الأوروبية فى نشأتها الأولى ، فالموانىء النهرية مثل هامبورج على نهر الألب ووارسو على الفستولا وروتردام على الراين كان من الصعب الوصول إليها حتى تم تجفيف المستنقعات التى كانت تحيط بها . وكانت هذه المواقع الجافة تختار كمواضع لكثير من القرى الزراعية .

(٦) موضع المراسى المحمية Sheltered-harbour

كانت هذه المواضع مهمة فى حالة المناطق التى تتعرض للغزو من ناحية البحر ، وكان المدخل الضيق للمرسى يتيح الدفاع عنه بسهولة ومن المدن الكبيرة التى تحتل مثل هذه المواضع مدينة أوسلو عاصمة النرويج ومدينة لشبونة عاصمة البرتغال .

(٧) المواضع المرتفعة : Acroplis site

وكانت هذه المواضع تختار لأسباب دفاعية ، وهى عبارة عن قلعة أو معقل يحتل نقطة مرتفعة من الأرض وتقع المدينة فى سطحها . ومدينة أثينا من طلائع المدن التى بنيت على مثل هذا الموضع كما أن هناك أمثلة عديدة فى أنحاء متناثرة من القارة . ففى المناطق التى تأثرت بالشعوب الألمانية والسلافية كانت هذه المدن تسمى باسم « المعقل على الأرض المرتفعة » كما تشير إلى ذلك أسماء الأماكن التى تنتهى بمثل

الكلمات الآتية : burg . burgh . bourgh – ، grad – والتى تعنى « قلعة fortress » ومثلا أدنبره Edingburgh الأسكتلندية (تحريف قلعة أدوين Edwin) مثال لمدينة تحتل مثل هذا الموضع وأيضا مدينة سالزبورج وبودابست وبراغ وهايدلبيرج وفورزبيرج وغيرها من المدن العديدة . وهناك مدن شبيهة كانت تحتل مواضع مرتفعة خاصة فى مراحل تطورها الأولى وغالبا بالقرب من المعقل مثل بلغراد (وتعنى القلعة البيضاء) التى تقع على تل يطل على ملتقى نهرى الدانوب وسافا Sava . ومدينة سقوفيا Segovia فى أسبانيا وسان مارينو San Marino فى جبال الأبناين ، وغالبا ما تحمل مثل هذه المدن فى المناطق التى تنطق باللغة الرومانسية أسماء تبتدىء بكلمة mont أو Monte مثل مونت كورنو فى إيطاليا Monte Corno

مواقع الطرق التجارية :

كان التجار – الذين كانت لهم اليد الطولى فى تطوير المدن من نواتها الأولية – يختارون المواقع المنيعة التى تقع على الطرق التجارية . وكانت هناك مواضع عديدة تملك المميزات التى كان ينشدها التجار فى اختيارهم لمواضع مدنهم .

(١) موقع عبور النهر River-Ford

فى أوائل العصور الوسطى وقبل أن تبنى الكبارى كانت هذه المواقع موضع اهتمام التجار حيث كانت الأنهار ضحلة وقيعانها ثابتة . وهناك مدن تحمل أسماء تدل على أهمية مناطق العبور هذه وتشمل نهاية الكلمة الألمانية Furt – ، والانجليزية Ford – ، مثل فرانكفرت Frankfurt فى ألمانيا الغربية التى تقع على معبر سهل فى نهر المين Main حيث يمر به الطريق التجارى القديم الآتى من سهل الراين الأعلى فى طريقه شمالا لإقليم فيتراو wetterau وعبره إلى السهل الألمانى الشمالى. وعلى نفس النهر وفوق فرانكفورت تقع المدن الآتية : أخسنفورت Ochsenfurt (معبر الثيران) – وشفاينفورت Schweinfurt (معبر الخنازير) وهاسفورت Hassfurt وترنفورت Trennfurt ولينقفورت Lengfurt ؛ والمدن الانجليزية أكسفورد Oxford على نهر التيمز وهيرتفورد على نهر اللى Lea وبدفورد على نهر الآوز Ouse ، وكلها أسماء تشير إلى الأهمية السابقة للأجزاء الضحلة من الأنهار فى تحديد

مواقع المدن .. وما زالت الكلمة اللاتينية المرادفة لكلمة فورد Ford ، وهى Trajectus ، باقية فى شكل محرف فى بعض أسماء المدن الهولندية مثل أو ترخت Utrecht (Trajectus ad Rheium أى المعبر على نهـــر الراين) وماستريخت Maastricht (Trajectus ad Mosam أى المعبر على نهر الماس) .

(٢) موضع الكبرى Bridge-point

كانت هذه المواضع تؤدى نفس وظيفة المعبر النهرى . وهنا أيضا كانت الأنهار تتميز بشواطىء (جروف) قوية وقيعان ثابتة . فأسماء المدن التى تحتوى على كلمات مثل pont و bridge و Bruck وما شابهها تشير إلى أن مواضعها اختيرت أساسا لإنشاء الكبارى . وقد اشتهر الرومان ببناء الكبارى . واشتقت مدن كثيرة أسماءها ومواضعها من هذه المنشآت الرومانية مثل Les-Ponts-de-Ce (كبارى قيصر) على نهر اللوار فى فرنسا وبنطون Paunton (من الكلمة اللاتينية Adanonten بمعنى عند الكبرى) فى مقاطعة لينكولنشير فى انجلترا . وكبرى لندن التاريخى تم إنشاؤه فى الأصل فى نقطة على نهر التيمز بعيدة من المستنقعات التى كانت موجودة عند المصب ، وكان موضع الكبرى ضيقا وجروف النهر قوية وثابتة . وكان الرومان يتخذون هذا الموضع معبرا من الساحل إلى داخل انجلترا . وهناك أيضا مدينة كمبريدج Cambridge (كبرى على نهر كام Cam) وبريقهام Brigham (مدينة كبرى) فى انجلترا ، وبنتواز Pontoise (كبرى على نهر أواز Oise) بالقرب من باريس ، وبيرزنـــبروك Bersenbruck (الكبرى المكسور) فى شمال غربى ألمانيا وبروخسال Bruchal (كبرى على سالزباخ Salzbach) فى مقاطعة بادن الألمانية ، وانزبروك Innsbruck (كبرى على نهر إن Inn) فى النمسا وبوينتالارينا Punta-la-Reina (كبرى الملكة) فى أسبانيا .

(٣) موقع عند ملتقى الأنهار River Confluence

يحتل كثير من مدن شمال أوروبا مواضع على الأنهار الصالحة للملاحة التى كانت تستخدم كطرق تجارية هامة وتكثر مثل هذه المواضع عادة عند ملتقى نهرين ، ومدينة كوبلنز Koblenz الألمانية الواقعة عند ملتقى نهرى الراين وموزيل تشتق اسمها فى

الأصل من الكلمة اللاتينية للملتقى Confluence ، بينما مدينة باساو Passau في منطقة بفاريا ربما تمثل المدينة الوحيدة التي تلتقي عندها ثلاثة أنهار – الدانوب وإن Inn وإلز Ilz . ومن العوامل التي ساعدت في تطور ونهضة مدينة باريس تجمع أنهار من Marne وأوز Oise والسين Seine بالقرب منها ، كما استفادت مدينة ليون من موقعها عند ملتقى نهري الرون Rhone والساون Saone .

(٤) موقع عند نهاية الملاحة Head-of-navigation

توجد هذه المواضع حيث تبدأ أو تنتهي الملاحة النهرية وهي كثيرة وتخدم الأماكن التي تتغير عندها النقل من وسيلة إلى أخرى Transshipment مثل مدينة بازل السويسرية الواقعة في المجاري العليا من الجزء الصالح للملاحـة من نهر الراين في سويسرة .

(٥) موقع عند ملتقى الطرق Crossroad

وهو من المواضع الشائعة في أوروبا . من أشهرها مدينة فيينا عاصمة النمساالواقعة عند تقاطع طريق شرقي -- غربي كان يربط بين السهل المجري وجنوب ألمانيا على طول وادي نهر الدانوب . مع الطريق الشمالي – الجنوبي القديم الذي كان يمر عبر بوابة مورافيا إلى السهل الأوروبي الشمالي . وتقع مدينة هانوفر عند تقاطع طريق قديم يمر عند الطرف الجنوبي لسهل ألمانيا الشمالي . مع الطريق الذي يتبع مجرى نهر اللاين Leine عبر التلال الواقعة إلى جنوب المدينة .

(٦) موقع الميناء البحري Seaports

يمكن تقسيم هذه المواضع إلى نوعين رئيسيين :

أ – المواضع التي عند أو بالقرب من التقاء الأنهار أو مصباتها الصالحة للملاحة مع الساحل . وهي أكثرها شيوعا وتشمل مدنا مثل لندن وهامبورج وبوردو ودانزيج Danzig (جدانسك) .

ب – المواضع التي تلتقي فيها الطرق البرية مع السواحل . وهذه المواضع نجدها في جنوب أوروبا حيث تقل أهمية الأنهار كوسائل نقل وانتقال نتيجة قصرها وفصلية الأمطار التي تنزل في هذه المنطقة . ولذلك نجد الموانىء الكبيرة عند ملتقى الطرق

البرية مع الساحل أكثر من تواجدها عند مصبات الأنهار المستنقعية . ومثلا يقع ميناء قادس Cadiz الأسبانية على بعد حوالى ثلاثين كيلومترا جنوب مصب نهر الوادى الكبير ، وقليل من يشهد التقاء نهر الأبرو Ebro مع البحر المتوسط ، وهناك مرسيليا التى تقع إلى الشرق من مستنقعات دلتا الرون كما أن مصبات الأنهار الرئيسية فى حوض البحر المتوسط مثل البو والتافير Taverc تخلو من موانىء رئيسية .

المواقع الأخرى ذات الأهمية الاقتصادية :

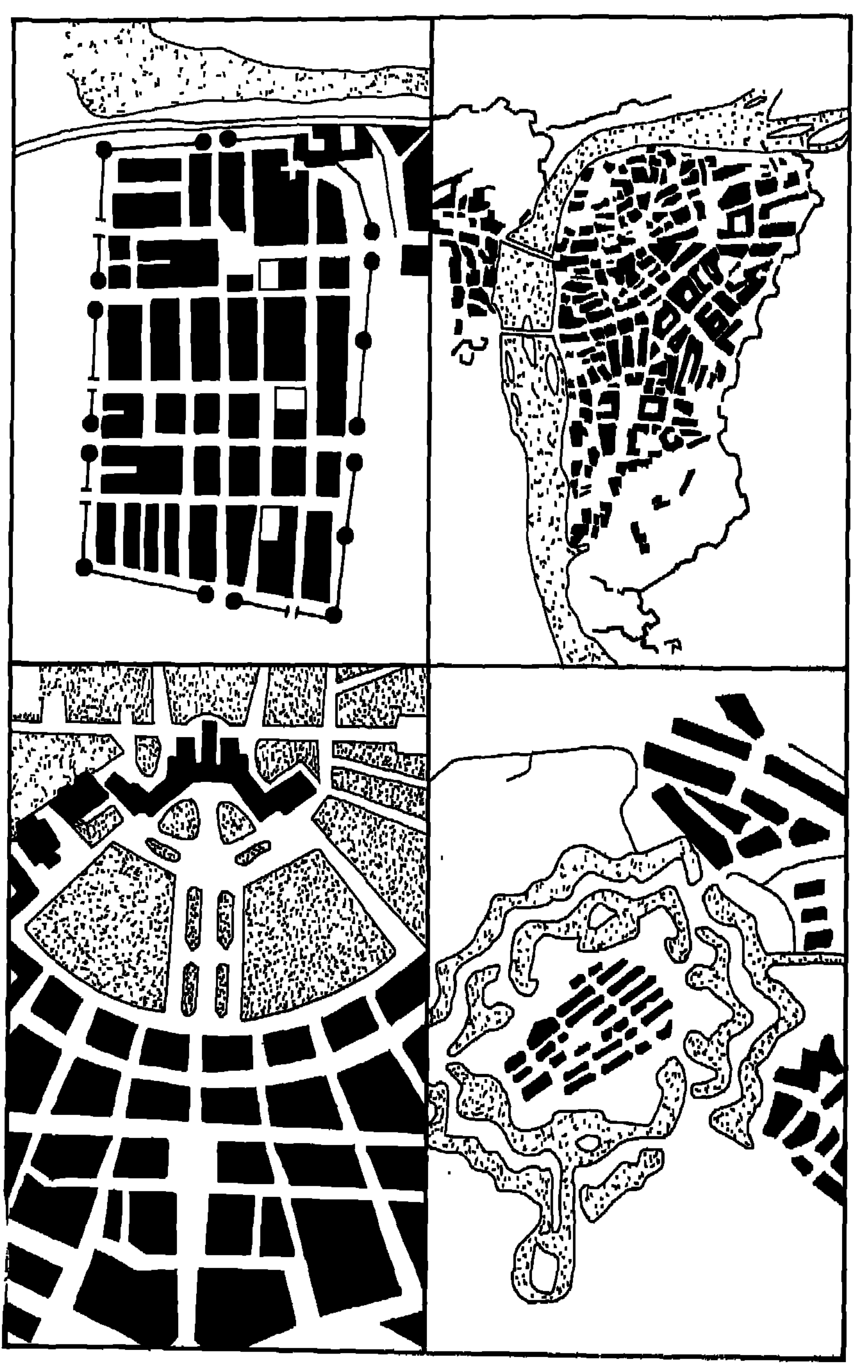
كان النشاط التجارى من أهم الوظائف التى تؤديها المدن فى الفترة التى سبقت الثورة الصناعية . ولكن كانت هناك عوامل اقتصادية أخرى أحيانا تحدد مواضع المدن ، خاصة التعدين وإدارة المصايف . وقد أدى استخراج المعادن المختلفة مثل خام الحديد والنحاس والملح والفضة وغيرها إلى ظهور مدن التعدين . ففى ألمانيا والنمسا تشير أسماء الأماكن إلى الأهمية الحالية أو السابقة للتعدين مثل Salz (ملح) و Hall (ملح) و Eisen (حديد) و gold (ذهب) و Kupfer (نحاس) كما فى Salzungen (فى ألمانيا الشرقية) و Kupferburg فى (بفاريا — ألمانيا الغربية) .

أما المصايف فإن تاريخها يرجع إلى العصر الرومانى ، وخاصة تلك التى تتعلق بحمامات المياه المعدنية أو الينابيع الحارة . ومثل هذه المدن تحمل أسماء تدل على وظيفتها مثل الكلمات الآتية : bains و bad أو baden أو bagni ، وكلها تعنى « حمام Bath » ، مثل Bad pyrmont وفيزبادن Wiesbaden فى ألمانيا الغربية ، وباقنولى Bagnoli (حمام) بالقرب من نابولى فى إيطاليا و Luxeuil-les-Bains فى شرق فرنسا . ومدينة باث Bath الإنجليزية (والتى كانت تعرف عند الرومان ب Aquae Sulis) من المصايف العريقة فى انجلترا .

(د) مورفولوجية (شكل) المدينة : Morphology (الشكل ٤٧و٤٨) .

تختلف المدن الأوروبية فى مظهرها الطبيعى من مدن أمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزلنده وجنوب أفريقيا ومناطق الاستقرار الأوروبى الأخرى . ويلعب العمر دورا كبيرا فى تفرد المدن بمظهرها الحضارى المميز ، كما أن سكان هذه المدن لا يقبلون

شكل ٤٧ أنواع المدن الأوروبية



١ - براغ (تشيكوسلوفاكيا)
٢ - إيجه مورت (فرنسا)
٣ - نااردن (هولندة)
٤ - كارلزروها (ألمانيا الغربية)

إجراء تعديلات جذرية عليها مما يفقدها سماتها الأساسية التى توارثتها عبر الأجيال والتى يعتز بها السكان .

وتتمثل مورفولوجية المدينة فى نمط الشارع وتكتل أو تماسك المدينة ونطاقاتها .

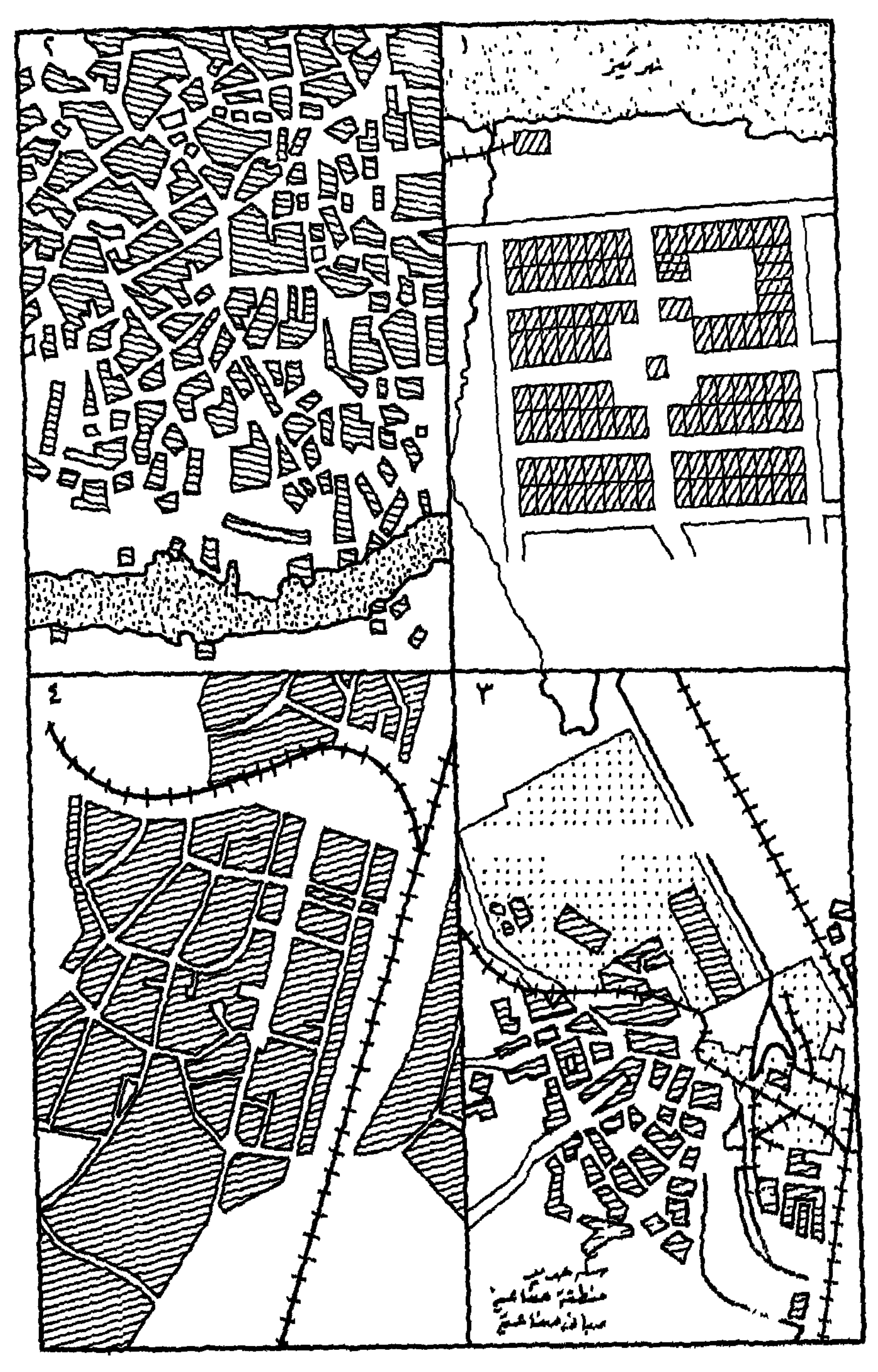
(١) نمط الشارع Street pattern :

يتميز نمط الشارع فى غالبية المدن الأوروبية بعدم الانتظام خاصة فى وسط المدينة ، فالشوارع تلتقى فى زوايا غريبة بدون تخطيط ظاهر ويندر أن نرى مربوعات ومساحات مستطيلة أو مربعة الشكل . وتقل الشوارع النافذة كما أن انسياب المرور أو الحركة من جزء إلى آخر من المدينة صعب إلى حد كبير . وتشبه هذه الشبكة العشوائية من الشوارع نمط الشارع فى القرى الزراعية المتجمعة غير النظامية لأن مثل هذه القرى كانت فى الأساس هى النواة التى تكونت منها بعض المدن . حتى بعض الضواحى الحديثة تظهر عدم الانتظام هذا لأن شوارعها كانت تتبع فى الأصل خريطة النمط الحقلى غير المنتظم الذى كان سائدا عندئذ ، مثلما حدث عندما توسعت مدينة ليدز Leeds للتكيف مع النمو الذى حدث إبان الثورة الصناعية .

ومن الأشياء التى تساعد فى تعقيد عدم انتظام وعشوائية نمط الشوارع فى المدن ما يمكن أن نسميه ميل الأوروبى فى إطلاق أسماء عديدة مختلفة على شارع على طول امتداده القصير المتعرج . ويحدث أن يتغير الاسم عند كل تقاطع مثلما فى ميونيج فى ألمانيا الغربية حيث يحمل شارع قصير يمتد عبر ستة مربعات من البناء ستة أسماء مختلفة ، كما يؤدى عدم الانتظام فى ترقيم المنازل إلى كثير من الارتباك للغرباء .

أما المدن ذات الشوارع المنتظمة فهى قليلة : فبعض المدن الإغريقية والمستعمرات الرومانية ذات الشوارع المستقيمة المتوازية ما زالت باقية ، ولكن عدم الانتظام قد انتشر حتى إلى بعض المدن . مثل كولون فى ألمانيا وفيرونا فى إيطاليا ، حيث ما زال النمط الرومانى واضحا فى تخطيط شوارعها . ومثل نيوبرانديبرج Neubrandenburg (ألمانيا الشرقية) وكونزالين Koszalin على الساحل البولندى اللتين تظهران شوارع منتظمة ومبانى مربعة فى أجزائها الوسطى رغم وجود شوارع غير منتظمة فى ضواحيها .

شكل ٤٨ : أنواع المدن الأوروبية



١- ميدلسبره ١٨٣٠ (إنجلترة)

٢ - توليدو (اسبانيا)

٣- ايزنهوتنشتاد (المانيا الشرقية)

٤ - ويلوين جاردن سيتي (انجلترة)

أما أكثر المدن التى تتميز بالشوارع الهندسية المنتظمة فهى التى أنشئت فى الفترة ما بين ١٥٠٠ و ١٨٠٠م . فقد بنيت أكثرها كمقر للعائلات الملكية وتتميز بشوارع واسعة تلتقى عند ميادين وبلازات واسعة فى منتصف المدينة ، مثل مدينة نيوسترليتز Neustrelitz فى ألمانيا الشرقية وفارسايل Versailles فى ضواحى باريس وكارلزروها Karlsruhe بالقرب من نهر الراين فى جنوب غرب ألمانيا .

وقد شهد بعض مدن العصور الوسطى تعديلات فى شوارعها غير المنتظمة فى الفترة ما بين ١٥٠٠ و ١٨٠٠ وأيضا فى القرن التاسع عشر ، وتتمثل هذه التعديلات فى عمل شوارع جديدة مستقيمة وواسعة وفرض مخطط لشوارع نافذة منتظمة على النمط القديم العشوائى ، ومن بين هذه المدن نذكر باريس وبرلين وفينا . كما تم إحلال الحيطان القديمة بشوارع (بولفارد) دائرية واسعة . فقد أدى تدهور الدول المدينية أو إدماجها فى الوحدات السياسية القومية الكبيرة ، والتقدم الذى طرأ على وسائل الحرب إلى تحطيم التحصينات السابقة من قبل مدن كثيرة فى محاولة لتسهيل حركة المرور داخلها : فقد استبدلت بعض المدن ميدانها بشوارع واسعة دائرية أو شبه دائرية كمدينة فينا وكولون وبودابست وأنتويرب ، وفى فرانكفورت يمثل حزام من الشوارع والحدائق الموقع الملتوى السابق لتحصينات العصور الوسطى الأصلية . وتخلو المدن الانجليزية من مثل هذه الشوارع الواسعة والبولفارد لأن استقرار الوضع السياسى والوحدة السياسية المبكرة أدت إلى إزالة الحيطان فى وقت مبكر .

وعلى العموم يمكن القول بأن الأوروبى قاوم إجراء تغييرات فى مدنهم أو إدخال تعديلات جذرية فى شوارعها العشوائية . ولكن الحرب أتاحت فرصة طيبة لمخططى المدن بتدميرها الكثير من المدن . فقد تم تدمير ٨٠٪ من المبانى فى بعض المدن الألمانية . وكان هؤلاء المخططون يريدون إعادة بناء هذه المدن بشوارع واسعة ومستقيمة كافية للعربات وطرق نافذة . ولكن نصائحهم ذهبت أدراج الرياح إذ تم إعادة بناء المدن على نفس النمط القديم . وقليل من المدن الألمانية هى التى شهدت بناء شوارع نافذة . وعلى عكس المدن الألمانية فإن إعادة بناء روتردام فى هولنده وكوفنترى فى انجلترا تعكس إلى حد كبير احتياجات إنسان العصر الحديث . وربما

كان الشعور بالفقد والهزيمة كبيرا فى ألمانيا إلى درجة أنهم أرادوا إحياء القديم بدلا من إصلاحها وتغييرها .

وتتعقد حركة المرور الناتجة من عدم انتظام الشارع أكثر بسبب ضيق الشوارع النافذة وندرة مواقف العربات . فى مدينة بريمن Bremen الألمانية يبلغ ٨٤٪ من مجموع ميل الشارع Street mileage أقل من سبعة أمتار فى العرض وهو أقل عرض موصى عليه لشارع ذى مسارين يحمل حركة ثقيلة . ورغم هذا فإن هذه المدينة أحسن حالا من المدينة الألمانية الأخرى لوبك Lubeck حيث تبلغ النسبة ٩١٪ ومدينة أولدنبرج Oldenburg حيث أن ١٪ فقط من شوارعها أوسع من ٧ أمتار . وفى فيرونا Verona يبلغ عرض الشوارع ٦ أمتار فقط ويشير المتوسط ل ١٤١ مدينة ألمانية غربية إلى أن ٧٧٪ من مجموع ميل الشارع فى المدينة ضيق جدا للسماح لحركة مأمونة فى اتجاهين .

ومن المشاكل التى تواجه الزوار فى المدن الأوروبية مشكلة الأماكن المخصصة لمواقف العربات . فمدينة ميونيخ Munich التى تعتبر من كبريات مدن غربى أوروبا فيها ما يزيد عن ٣٠١,٠٠٠ عربة مسجلة ومواقف عربات تسع ل ٨,٣٠٠ عربة فقط ، و ٧٠٪ فقط من مجموع مساحة المواقف التى تبلغ ١٨,٦ هكتارا هو الذى أصلح كمواقف لإيواء ٥,٨٠٠ عربة ، والمساحة الباقية عبارة عن رصيف .

ورغم إقبالهم على شراء العربات فقد رفض الأوروبيون إجراء التعديلات اللازمة التى يتطلبها ذلك القبول . فقد احتفظت المدن بشخصياتهاوسحرها ولكن على حساب التنقل السريع والمريح فى داخلها : وكما أصبحت الدراجات من أحسن وسائل التنقل فى بعضها مثل كوبنهاجن وأمستردام ، فإن نظام القطر الأرضى يجىء أفضل الوسائل لتفادى حركة الشوارع السطحية الضيقة كما فى باريس ولندن (underground, Subway)

(٢) تكتل المدينة Compactness :

تحتل المدن الأوروبية مساحة أقل بالمقارنة مع مثيلاتها فى أمريكا وأستراليا وجنوب أفريقيا ، وقد استطاع الأوروبيون تحقيق هذا التماسك فى مدنهم ببناء مبانيهم

قريبة من بعضها البعض وتفضيلهم سكنى الشقق والشقق المزدوجة على المساكن العائلية المنفصلة . ومن الدلائل على أسلوب الحياة المختلف هنا أن ١٦٪ فقط من كل المبانى السكنية الحضرية فى ألمانيا الغربية فى عام ١٩٦٥ كانت تتكون من منازل العائلة الفردية بالمقارنة مع الولايات المتحدة حيث وصلت النسبة إلى ٧٦٪ فى عام ١٩٦٠ ، كما أن منازل العائلة الواحدة أكثر شيوعا فى المملكة المتحدة من باقى أجزاء أوروبا ولكن حتى هنا فإن هذه المنازل عادة ما تبنى فى صفوف طويلة ملاصقة ذات حيطان مشتركة .

فالأوروبى يفضل السكن قريبا من وسط المدينة لأن هذه المنطقة تخدم منذ العصور الوسطى «كغرفة المعيشة» (أى مكان يجتمع فيه بعد العمل ليبتاع حاجياته ويأكل ويتسكع فيه) كما تتيح الشقق المتماسكة القرب من وسط المدينة لأغلبية السكان : ومن ثم لا نرى ظاهرة الهروب إلى الضواحى كما فى أمريكا . ولهذا فإن وسط المدينة يعنى به تماما ويكاد يخلو من المساكن الشعبية الفقيرة slums . ويحدث فى كثير من الأحوال أن نرى عمال المصانع ، والذين يعملون أيضا فى الحقول لبعض الوقت ، ينتقلون بين المدينة والريف ، فى حين أن الكثير من سكان المدينة يشبعون هواية العمل فى الحدائق والبساتين بالعمل فى مساحات الأرض الصغيرة التى يملكونها فى أطراف المدينة والتى عادة ما تحتوى على كشك صغير يلجأون إليه لقضاء عطلة نهاية الأسبوع .

وما زالت عادة العصور الوسطى فى الجمع بين محل السكن ومحل العمل معمولا بها حتى الآن فى المدن . وهكذا نجد مثلا الخباز أو الجزار أو صاحب المطعم يتخذ سكناه فوق محلاتهم كما هو شائع فى جنوب أوروبا حيث نجد كثيرا من سكان المدن يعيشون على مسافة قريبة من محل عملهم ولو أن الانتقال اليومى من محل السكن إلى أماكن العمل داخل أو خارج المدينة فى تزايد مستمر فى غرب أوروبا . ويمكن أن نعزو ازدحام المبانى فى وسط المدن جزئيا إلى القصور التكنولوجى عند بنائى ومهندسى المعمار فى العصور الوسطى الذين لم يكن فى مقدورهم الفنى إقامة مبانى عالية وضخمة ، ولهذا تندر المبانى العالية كناطحات السحاب الأمريكية وتسود

مآذن الكنائس أو قلعة أو حطام مبانى كلاسيكية على سماء المدن . وحتى المنطقة التجارية المركزية C.B.D فإنها تخلو من مبانى ترتفع إلى أكثر من ستة طوابق إلا ما بنى حديثا .

وحتى المبانى القديمة التى دمرت أثناء الحرب العالمية الثانية فقد أعيد بناؤها على نفس الطراز القديم ، وتظهر الصور الفوتوغرافية التى أخذت لمدينة ميونيخ ، والتى تحطم ٨٠٪ من مبانيها ، قبل وبعد الحرب شبها كبيرا فى طراز المبانى . ومدينة دانزيج (جدانسك Danzig مثال للمدينة التى أعيد بناؤها على نفس النمط القديم : فبعد هزيمة ألمانيا قامت بولندة باحتلال دانزيج وطرد سكانها الألمان ، ثم شرعت بولنده فى بناء المدينة من جديد كنسخة طبق الأصل من النسخة الألمانية القديمة .

(٣) النطاقات الحضرية Urban Zones :

فى قلب المدينة الأوروبية يقع المركز العصرى الوسطى القديم يحيط به غالبا الشارع الدائرى الذى يتبع مكان حيطان المدينة ، وفى أماكن متناثرة نجد حول هذا الهامش البوابات القديمة التى تمثل بقايا الحيطان والتى يرجع تاريخ بعضها إلى العصور الكلاسيكية . فالبوابة السوداء Porta Nigra الموجودة فى مدينة ترايز Trier الألمانية باقية من عهد الرومان ، بينما تمثل بوابة هولشتاين Holstentor فى مدينة لوبيك الألمانية بقية من حائط عصر وسطى ، فى حين أن « بوابة براندبيرج Brandenburg Gate المشهورة فى برلين والتى تم بناؤها فى القرن الثامن عشر للزينة والزخرف لم تؤد وظيفة بوابة المدينة أبدا .

وفى داخل المركز القديم يوجد عدد من المبانى المميزة التى تشمل كنيسة فخمة تشهد ضخامتها بأهمية وحيوية الديانة المسيحية فى العصور الوسطى ، وكانت هذه الكنائس تكلف مبالغ طائلة فى بنائها وفى صيانتها ، وكثير منها الذى يجذب السواح مثل « كنيسة نوتردام » فى باريس و « سان ماركو » فى البندقية ، وكنيسة كولون و « سان استيفان » فى فيينا « وكنسية شارترى Chartres » فى جنوب غربى باريس .

وإذا كانت المدينة مقرا لإحدى العائلات المالكة ، فالمركز عادة ماكان يضم

قصرا مثل « قصر اللوفر » فى باريس ، و « هوفبرج Hofburg » فى فيينا و « الكرملين » فى موسكو و « قلعة أدنبره » فى أسكتلنده و « قصر دوكال » Plazzo-Ducale فى البندقية . وفى بعض الحالات ، خاصة فى عصر النهضة . حدث أن هجر الملوك قصورهم فى المدينة ليبنوا قصورا فخمة فى الضواحى، فقصر « فارسايل » احتل محل اللوفر وبنى ملوك « هابسبرج » النمساويين » قصر شوبنرون Schonbrunn » خارج فيينا كما أمرت عائلة فيتيلباخ Wittelbach « البلغارية بناء قصر نمفمبرج Nymphenburgh عند الأطراف الغربية لمدينة ميونيخ .

وفى قلب المدينة القديم توجد السوق وتقع غالبا أمام الكنيسة ، وما زالت الأسواق تقام اليوم فى مثل هذه المدن كما كانت منذ خمسمائة سنة ولكن البائعين قد اختلفوا : فقد ترك التجار الأثرياء وأصحاب المصانع المجال للمزارعين الذين يعرضون منتجات حقولهم لبيعها . وهناك أيضا وبالقرب من السوق توجد دار البلدية Town Hall ، مقر إدارة الدولة المدينية سابقا ، كما نجد ما يسمى ببيوت النقابات Guild House فى بعض المدن خاصة البلجيكية مثل « غنت Gent » « وبروج Brugge وانتويرب Antwerp » .

ومن الناحية الاقتصادية يخدم هذا المركز عددا من الأغراض ، ففيه توجد أنواع عديدة من مخازن القطاعى retail الصغيرة ، والمساكن العائلية المتعددة ، ومصانع الحرفيين التى تشبه الورش . وعلى نطاق المدينة كلها فإن التمييز بين النطاقات السكنية والصناعية والتجارية ضعيف جدا كما يوجد تداخل بين هذه النطاقات فمركز المدينة عادة ما يؤدى الوظائف الثلاث مع أن المصانع صغيرة وأشبه بورش الحرفيين .

وتحيط بالمراكز أحيانا ضواحى ما قبل العصر الصناعى التى تتميز بمبانى أقل تكتلا تم بناؤها خارج حيطان المدينة القديمة بعد إزالتها ، وغالبا ما يحتوى هذا النطاق على محطات السكة الحديد التى تتواجد عند هامش المركز القديم لصعوبة اختراق داخل المدينة لضيق الشوارع وازدحام المبانى . وهكذا نجد مدنا كبرى مثل لندن وباريس تحيط بها محطات السكة الحديد ، كل محطة تحمل اسم المدينة الرئيسية التى تقع على الخط . ومثلا نجد باريس فيها « محطة ليون » Gare de Lyon فى نهاية الخط المؤدى

إلى هذه المدينة ، وكذلك « محطة سان لازار » و « محطة أورليانز » . وفى بعض الأحيان تكون هناك محطة رئيسية واحدة تغادر منها كل القطارات المتجهة إلى أنحاء البلد المختلفة . ومدينة كولون الألمانية هى المدينة الوحيدة تقريبا التى استطاع القطار أن يخترقها إلى وسطها حيث توجد محطة بالقرب من الكنيسة .

أما الثورة الصناعية فقد أضافت فى القرنين التاسع وبداية العشرين مجموعة من الشقق الشبيهة بالثكنات يسكنها العمال ، ومصانع حديثة ضخمة ثم مناطق سكنية نظيفة وجميلة تم بناؤها حديثا ، وفى أطراف المدينة توجد الحدائق الصغيرة التى يقتنيها سكان المدينة حيث يقضون فيها أجازات نهاية الأسبوع . وفى بعض الأحيان خصص مخططو المدن المناطق الريفية الهامشية كأحزمة خضراء دائمة يحرم فيها أى توسع للمدينة وأشهر هذه الأحزمة موجودة حول مدينة لندن الكبرى .

(هـ) الأنماط البشرية داخل المدينة الأوروبية :

إن الموضع الذى تقوم عليه المدينة ومورفولوجيتها لا يكونان إلا هيكل المدينة ولا يستطيعان ، رغم جاذبيتها وانعكاسها لثقافة سكانها ، إعطاء صورة كافية عن المدينة الأوروبية . فالسكان هم أهم عنصر حيوى فى هذه المدن .

فالمدينة فى أوروبا وغيرها من مناطق الأرض تتميز بعدم التجانس من الناحية البشرية : فسكان المدينة يختلفون عن بعضهم فى نواحى حضارية واقتصادية عديدة : ففى داخل المدن خلق هؤلاء السكان مناطق متميزة كل منطقة لها مجموعة من الخصائص الاجتماعية الخاصة بها . ومن سمات التحضر فى أى بقعة من بقاع العالم تلك النزعة من قبل سكان المدن إلى التفرقة فى السكن على أساس صفات اجتماعية ، وأحيانا كانت هناك قيود شرعية تتعلق بمكان السكن ولكن مناطق الجوار أو الأحياء ذات الخصائص المميزة تظهر بمساندة القانون أو بدونه لأن هذه الظاهرة لها علاقة بالنمط السلوكى للإنسان .

فقد كان الدين من أقوى العوامل التى تفصل بين الناس داخل المدن الأوروبية ، فكثير من مدن العصور الوسطى كانت بها أحياء لليهود وما زال بعض الشوارع فى ألمانيا تحمل أسماء مثل « شارع اليهود Judenstrasse » وحتى الآن فالتفرقة

السكنية على أساس الدين موجودة فى مدن مثل بلفاست Belfast فى ايرلندة الشمالية حيث توجد أحياء كاثوليكية وبروتستانتية مميزة .

والاختلافات اللغوية أيضا كانت سببا فى تفرقة الناس داخل المدن فى أوروبا وخاصة فى المناطق التى تتميز بتنوع لغاتها . ففى العصور الوسطى كانت مدينة برنو Brno الواقعة فى مناطق مورافيا التشيكية تتميز بنمط سكنى كان الألمان بمقتضاه يسكنون فى الجزء الشمالى والتشيكيين فى الجزء الجنوبى من المدينة ، كما طورت مدن مثل أرماه Armagh وداون باتريك Downpatrick فى ايرلنده الشمالية أحياء مميزة فى القرن السابع عشر كما تشير إلى ذلك أسماء الشوارع مثل « الشارع الانجليزى » ، « والشارع الأسكتلندى » . وفى مدينة كارنافرون Carnavron فى ويلز إبان العصور الوسطى كان الإنجليز المهاجرون يسكنون داخل الجزء المحاط بالسور بينما كان الوطنيون يتجمعون فى منازل خارج السور مباشرة . أما فى وقتنا الحالى فإن هناك تجمعات مماثلة للعمال المهاجرين الأجانب حول عديد من مدن غربى أوروبا . فالعمال اليونانيون واليوغسلافيون والايطاليون وغيرهم يتجمعون فى مناطق منفصلة من المدن فى ألمانيا الغربية وسويسره وفرنسا وغيرها من الدول .

أما السلالة (الجنس) فلم تكن عامل تفرقة ذى أهمية وذلك لعدم وجود عناصر غير قوقازية كثيرة فى المدن الأوروبية . وفى الأماكن التى تتواجد فيها هذه العناصر فإنهم يميلون إلى التجمع فى أجزاء معينة من المدينة التى يعيشون فيها كما يفعل زنوج جزر الهند الغربية فى مدينة لندن وباقى المدن البريطانية . ولكن ليس هناك تفرقة ، على الأقل قانونيا ، وبالصورة التى تمارس فى جنوب أفريقيا وأمريكا ، كما أن هنود آسيا والباكستانيين أيضا يتعرضون لتفرقة غير حادة فى بريطانيا على غرار تلك التى يتعرض لها الزنوج .

أما الطبقة الاجتماعية فتمثل أقوى أسباب التفرقة السكنية فى المدن . وهذا الوضع يحدده نوع الوظيفة التى يمارسها أفراد طبقة معينة ، ففى العصور الوسطى كان للتجار والحرفيين والفنيين أحياء خاصة يسكنون فيها كما تشير إلى ذلك أسماء الشوارع الحالية . ففى مدينة ميونيخ نجد مثلا « شارع الدباغين » Lederstrasse

و « شارع الصباغين » Farbergraben و « شارع السروجية » Sattlerstrasse وغيرها . وهذه الأسماء تشير إلى أماكن عمل هؤلاء الحرفيين الذين كانوا يتخذونها مساكن لهم . وفى مدينة لوبك Lubeck كان التجار فى العصور الوسطى يعيشون إلى الغرب من شارع رئيسى يجرى من الشمال والجنوب بينما اتخذ الحرفيون مساكنهم إلى الشرق منهم .

ويمكن ملاحظة أنماط التفرقة السكنية المبنية على أساس الوظيفة أو العمل فى وقتنا الحالى ، وقد أظهرت دراسة عن مدينة ليفربول الانجليزية Liverpool أن الإداريين وأصحاب المتاجر والموظفين الصغار وأصحاب الوظائف يكونون نسبة عالية من سكان المناطق السكنية البعيدة من مركز أو وسط المدينة بينما تتجمع أعداد كبيرة من العمال شبه المهرة وغير المهرة فى وسط المدينة . وفى بريطانيا ومعظم الدول الأوروبية يوجد ارتباط بين الطبقة الاجتماعية والرغبة فى سكنى الأحياء ذات الخصائص المميزة . ومن المناظر المألوفة فى المدن الصناعية الكبيرة فى المملكة المتحدة تلك المناطق السكنية الكئيبة التى يسكنها العمال .

وفى الآونة الأخيرة قامت بعض المدن بتطوير ضواحى جميلة للأثرياء ، ولكن غالبا ما نجد الطبقات الدنيا هم الذين يحتلون المناطق الهامشية من المدن . وكان الأثرياء قبل تطوير وسائل النقل الجماعى يحتلون أواسط المدن ، وما زال هذا النمط موجودا فى بعضها .

وتتميز هذه الأحياء المختلفة التى ذكرناها ببعض الصفات الاجتماعية الأخرى : فمثلا نجد أحياء الطبقات الدنيا من المدن أكثر ازدحاما بالسكان بينما ترتبط الاختلافات الدينية أحيانا بالاختلافات فى نسبة المواليد كما فى مدينة بلفاست فى ايرلنده الشمالية : فالأحياء الكاثوليكية منها تتميز بكثرة الأطفال فيها ومن ثم بمتوسط عمر أقل بالنسبة لسكانها . والمعروف أن الكاثوليك لا يؤمنون بتحديد النسل . وبأختصار فان هناك علاقة متبادلة قوية بين الكثافة السكانية والعمر والوظيفة والطبقة والدين والجنس والجنسية ، ومثل هذه العلاقة تنتج مناطق جوار تختلف عن بعضها فى نواحى عديدة .

(و) وظيفة المدينة وتوزيع المدن :

ينصب اهتمام جغرافى المدن الآن على توزيع المدن وذلك لتحديد العوامل السببية التى تؤثر فى تشكيل النمط الموقعى للمدينة ، وليس مدعاة للعجب أن يجدوا أن الوظائف الاقتصادية للمدن تلعب دورا فى غاية الأهمية فى تحديد الموقع لأن السبب الأساسى لوجود المدن يكمن فيما تؤديها من نشاطات اقتصادية ؛ ويمكن تمييز ثلاثة أنواع من هذه النشاطات :

(١) مرحلة الاستخراج Extractive stage أو مرحلة الإنتاج الأولى مثل الزراعة وصيد الأسماك والتعدين وقطع الأخشاب .

(٢) المرحلة الثانية أو مرحلة المعالجة الصناعية Processing stage مثل مثل الصناعة ومعالجة او تصنيع المواد الخام التى يتم انتاجها فى المرحلة الأولى .

(٣) المرحلة الثالثة Tertiary stage أى توزيع المواد المصنعة وامداد الخدمات المختلفة من سياسية وتعليمية وطبية ووسائل نقل وكذلك تجارة الجملة والمفرق(القطاعي) . ويتأثر موقع المدن التى تتخصص فى احدى هذه الوظائف أو اخرى بمجموعة معينة من العوامل السببية .

(١) المدن التى تعمل فى مجال الانتاج الأولى :

ظهرت بعض المراكز الحضرية وتطورت أساسا كمدن موارد تعمل مباشرة فى استخدام أو استخراج الموارد الطبيعية أو المواد الخام . وعادة ما يحدث نوع من المعالجة الأولية لهذه المواد فى مثل هذه المدن التى تشمل مدنا للتعدين مثل كيرونا فى السويد حيث يستخرج خام الحديد ، وقرى صيد الأسماك والتعليب على الساحل البرتغالى ومدن المناشير ولب الخشب على ساحل بوثنيا السويدى ، والمراكز التى تعمل فى معالجة المنتجات الزراعية المتجمعة حول مصانع القشطة وطواحين الدقيق ومصانع تكرير سكر البنجر وما شابه ذلك .

أما وجود أو غياب نهضة حضرية فى مثل هذه المواضع فتحدده خصائص المورد أو المادة الخام مثل : ندرتها ونوعيتها وكميتها وموقعها بالسبة إلى الأسواق . ومثلا تعانى أوروبا من نقص فى مصادر الحديد الخام مما أدى إلى استغلال الإرسابات الموجودة فى مناطق نائية مثل السويد والنرويج ، وهذا أدى بدوره إلى قيام مدن التعدين فى حين أن وفرة الفحم الحجرى لم تجذب إلا أعدادا قليلة من السكان الدائمين إلى مجموعة جزر سفالباد Svalbad النرويجية النائية حيث توجد إرسابات الفحم .

(٢) المدن التى تعمل فى الإنتاج الثانوى :

أما العوامل التى تحدد موقع هذه المدن التى تعمل فى الصناعة فهى نفسها التى ذكرناها بالتفصيل عند مناقشتنا للصناعة فى أوروبا ، والتى يمكن تلخيصها فى الآتى : وزن وحجم وقابلية المواد الخام للتلف ، والقرب من السوق ، توفر وتكلفة وسائل النقل ، وعدد ونوعية العمال ، وجود مصدر طاقة ، والقرارات الحكومية وتأثيرها وغير ذلك . .

(٣) المدن التى تعمل فى الإنتاج الثالث :

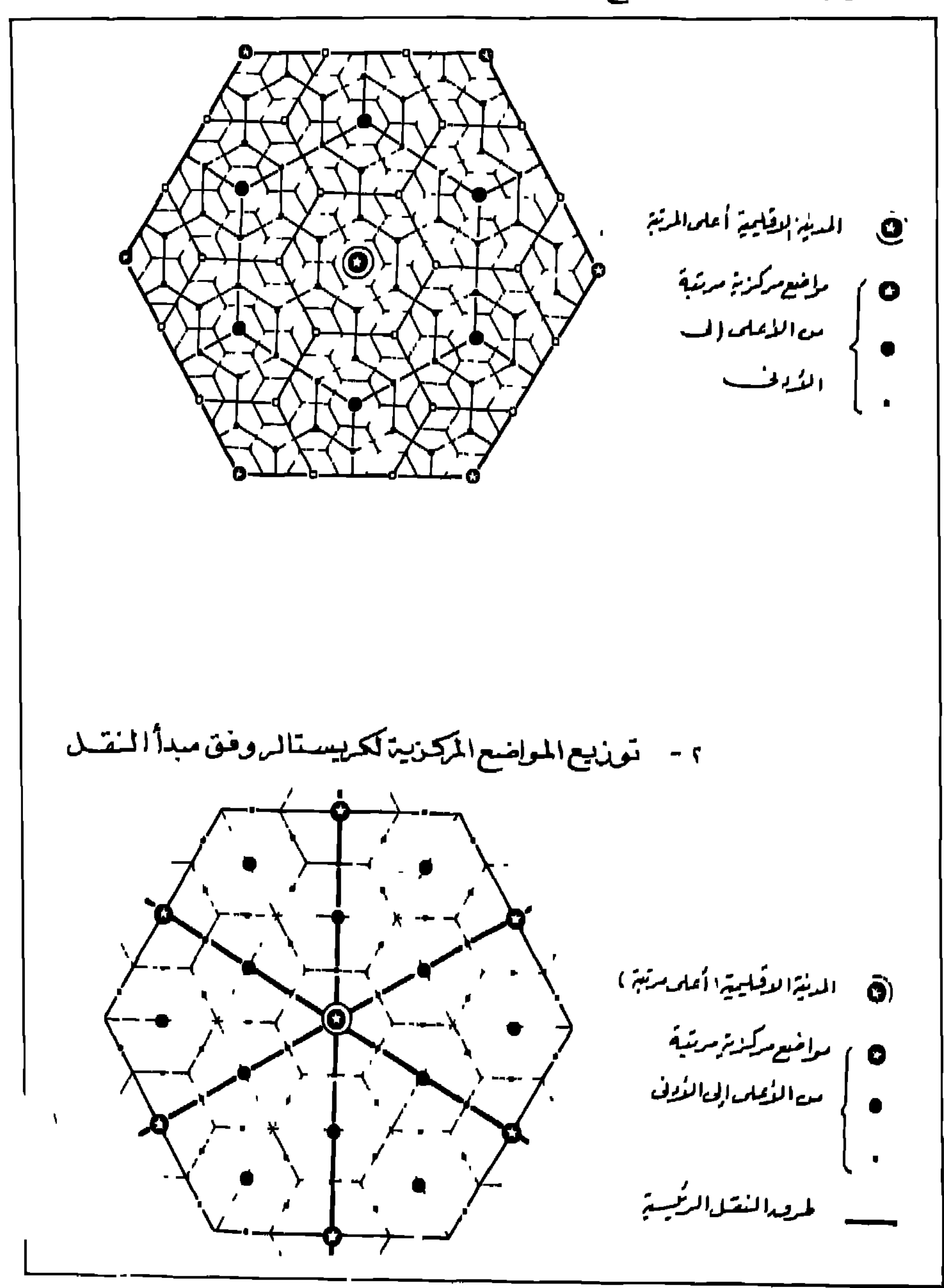
يعمل معظم المدن فى هذا المجال : كإمداد المستهلكين بما يحتاجون إليه من بضائع وخدمات ، وتسهيل توزيع المواد المصنعة للناس الذين يسكنون بالقرب من هذه المدن وتمويل الخدمات السياسية والطبية والتعليمية وغيرها . وهذه المدن هى التى حظيت باهتمام الجغرافيين الأكبر الذين يهتمون بتحليل نمط توزيع المراكز الحضرية . ومن أشهر هؤلاء الجغرافيين فالتر كريستالر Walter Christaller الجغرافى الألمانى الذى اخترع نظرية أطلق عليها « نظرية الموضع المركزى – Central Place Theory » لتحديد موقع هذه المدن . وقد عرف كريستالر الموضع المركزى كأى تجمع سكنى يخدم كمركز لمنطقتها الخلفية الريفية والوسيط الاقتصادى بين ما حولها من مناطق وبين العالم الخارجى . ومن الأشياء الهامة الحاسمة بالنسبة لهذه النظرية تلك الحقيقة التى تقول بأن البضائع والخدمات المتفرعة تختلف :

١ – فى المدى Range أى المسافة القصوى أو نصف المدى من مركز التمويل التى عندها تصل البضائع والخدمات إلى المستهلكين .

٢ – فى حجم السكان المطلوب لجعل إمداد الخدمات ذات جدوى من الناحية الاقتصادية . مثلا يتطلب بناء مستشفى أو جامعة أو سوق مركزى عددا أكبر من السكان مما يحتاجه إنشاء محطة بنزين أو مكتب بريد أو بقالة . وبنفس المنطق فإن المستهلكين على استعداد لقطع مسافة أطول لاستشارة اخصائى أمراض القلب أو لتسجيل ملكية أرض أو لشراء عربية أكثر من استعدادهم لشراء رغيف وإرسال خطاب أو شراء البنزين للعربة . فالناس يقضون أقل وقت ويبذلون أقل مجهود ممكن فى الاستفادة من الخدمات الموجودة فى الأماكن المركزية أى القريبة من وسط المدينة فى حين أنهم يضطرون للسفر بعيدا للانتفاع من الخدمات التى تتطلب سوقا أكبر حجما .

وينتج من اختلاف المدى (المسافة) للخدمات والبضائع المركزية ما أسماه بالهرمية Hierarchy للمواضع المركزية منظمة حسب حجم السكان وعدد البضائع والخدمات الموجودة . وفى قمة الهرمية توجد المدن الإقليمية الكبيرة Regional metro-polises التى تقدم كل الخدمات المرتبطة بالمواضع المركزية ولها مناطق خلفية فرعية كبيرة ، وغالبا ما تمثل هذه المدن العواصم القومية أو على الأقل مراكز سياسية لأقاليم كبيرة . وفى الطرف المضاد سوق القرية الصغيرة والتى قد تحتوى على لا شىء أكثر من مكتب بريد ومقهى ومحطة خدمة فقط . وبين هاتين النقطتين المتطرفتين توجد مواضع مركزية متصلة على درجات مختلفة من الأهمية . وكلما صعدنا إلى أعلى نجد أن كل أعلى نظام للموضع المركزى يمول كل البضائع والخدمات الموجودة فى المراكز الأدنى منه مباشرة فى الهرمية زائدا بضاعة أو خدمة أو اثنين منهما . والمواضع المركزية التى تنتمى إلى نظام أدنى يفوق فى عددها على تلك المراكز القليلة الموجودة فى مستويات أعلى فى الهرمية . ويمكن أن تحتوى مدينة إقليمية واحدة على آلاف المواضع المركزية الأصغر حجما فى منطقتها الفرعية . ويتحدد حجم المساحة السوقية لموضع مركزى أساسا بمدى المسافة للبضائع والخدمات التى يقدمها الموضع . (الشكل ٤٩)

شكل ٤٩ ١ - توزيع المواقع المركزية لكريستالر وفق مبدأ السوق



وبعد هذه الخلفية ، يقترح كريستالر ثلاثة مبادىء أو عوامل سببية هي التي تحدد توزيع وموقع المواضع المركزية وهي : -

١ - مبدأ السوق Markc -principle :

وهو الافتراض بأن كل إقليم سيتمول بالبضائع والخدمات من أقل عدد من المواضع المركزية العاملة ، هذا إذا كانت العوامل الأخرى تعمل بالتساوى . وفى الحالة المثلى سيتخذ منطقة السوق لموضع مركزى شكلا دائريا مرسوما على نصف المدى أو المسافة للبضائع المركزية ، ولكن المراكز المجاورة لنفس الرتبة Hierar-chial rank تستلزم تعديل الدائرة إلى الشكل ذى الثمانية أضلاع hexagon وهو أقرب الأشكال الهندسية للدائرة والذى يتيح شبكة كاملة من مناطق السوق دون إحداث أى نوع من التداخل كما يحدث عند رسم الدوائر . ونمط الأشكال المتداخلة هو التوزيع المثالى لمدن الإنتاج الثالث . وأى اختلاف من هذا النمط يجب تفسيره على أساس عوامل موقعية أخرى « معوقة » .

٢ - مبدأ الحركة Traffic Principle :

يقول بأن أكبر عدد ممكن من الطلبات لتسهيلات النقل ستجاب أو يمول بأقل صرف ممكن على إنشاء وصيانة هذه التسهيلات . ووفق هذا المبدأ سيكون توزيع المواضع المركزية على أفضله عندما يقع أكبر عدد ممكن من المواضع ذات الرتب العليا على طريق النقل الذى يربط بين موضعين مركزين هامين . وهذا الطريق يجب أن يكون مستقيما على قدر الإمكان . وإذا كان مبدأ الحركة يحدد أكثر من أن يعدل فى توزيع المواضع المركزية فان موقع مدن الإنتاج الثالث سيكون على طرق مستقيمة تتفرع مثل البرمق من المواضع الأكبر حجما والأكثر أهمية .

والصراع الأساسى بين مبدأ السوق ومبدأ الحركة يكمن فى الحقيقة الآتية : أن الطرق المباشرة بين مواضع الدرجة الأولى المركزية فى الهرمية ، والتى حددت مواقعها حسب مبدأ السوق ، لا تمر عبر المواضع التى تنتمى إلى الدرجة الدنيا التالية . وفى هذه الحالة لابد أن يحدث شيئان ، إما طرق ملتوية وهذا يعتبر إنتهاكا لمبدأ الحركة ،

أو يحدث تمزيق للنمط الثمانى الشكل وهذا ينتهك مبدأ السوق . ونلاحظ أنه فى الأساس فإن مبدأ الحركة خطى Lineai بينما مبدأ السوق مكانى spatial . وقد شعر كريستالر بأن مبدأ الحركة سيزداد أهمية فى الدول الصناعية ذات الكثافة السكانية العالية حيث توجد أعداد أكبر من المواضع المركزية ويوجد فيها طلب كبير للنقل عبر المسافات الطويلة . أما المناطق ذات الاكتفاء الذاتى وتسود فيها الزراعة وسكانها أقل ازدحاما فإنها تميل إلى تفضيل مبدأ السوق ، فى حين أن تقليص طرق النقل أو حصرها فى أودية ضيقة فى المناطق الجبلية يؤدى إلى تفضيل مبدأ الحركة كما يشير إلى ذلك توزيع المواضع المركزية فى أودية جبال الألب فى سويسرة والنمسا .

٣ - مبدأ العزل أو الفصل Separation principle :

هذا المبدأ والذى يمكن أن نطلق عليه « المبدأ السياسى » قد تم صياغته اعترافا بالحقيقة أن الحدود القومية والأقليمية والوحدات الإدارية الأخرى كانت تعمل لفصل المجموعات البشرية وعزلهم وحمايتهم من أى نفوذخارجى. ولهذا فإن مبدأ الفصل يعتبر مخربا أو ممزقا أو معوقا disruptive لأن الحدود السياسية تميل إلى اتباع الحدود النهائية للشكل الثمانى للمنطقة الفرعية للموضع المركزى الإدارى للوحدة السياسية المعينة . ومثل هذه الحدود تمر عبر المنطقة التجارية « الطبيعية » للمواضع المركزية الأدنى فى منطقة الحدود مما يؤدى إلى إيقاف أو تعويق حركة البضائع والخدمات .

ويحدث نفس عدم الاستقرار عندما تفرض الحدود السياسية بدون دراسة وبدون أى اعتبار لنظام الموضع المركزى . وقد اضمحلت مدينتا برلين وفيينا من أعلى موضع عندما عزلتهم الحدود الجديدة من معظم أقاليمها الفرعية . كما تأثرت مدينة ترست Trieste الايطالية بنفس الوضع : فى البداية بفقدان منطقتها الخلفية الشاسعة للنمسا والمجر فى عام ١٩١٩م وحديثا فى عام ١٩٤٠ عندما أزيلت منطقتها الفرعية المباشرة الواقعة فى مقاطعة إسترا Istria اليوغسلافية . وعامة تقل أهمية وحجم المواضع المركزية فى مناطق الحدود إذا لم تكن هناك حرية كاملة لمرور الناس والبضائع وغيرها .

وهناك تعقيدات أخرى تسببها التغييرات التى تحدث فى الظاهرات المحلية المرتبطة بالمبادىء الأساسية الثلاثة . فإن التعديلات التى تطرأ على شبكة النقل مثل إنشاء طرق وسكك حديد جديدة . وكذلك التخلى عن الطرق القديمة يمكن أن يحدث تغييرا فى عدد وتوزيع وترتيب المواضع المركزية . وفى الحقيقة أن أى ابتكار يحدث تغييرا فى مدى البضائع المركزية والخدمات سيكون له شأن فى توزيع المدن التى تعمل فى الإنتاج الثالث . وقد يؤثر وضع سياسى ديناميكى على مبدأ الفصل كما حدث بعد أن توحدت جنوب ألمانيا مما أدى إلى وضع مطابق لمبدأ السوق .

وقد قام كريستالر بتطبيق نظريته هذه على توزيع المساكن التى تعمل فى الإنتاج الثالث فى جنوب ألمانيا حيث وجد أن المبادىء الثلاثة تنطبق بدقة على الموقع الفعلى للمواضع المركزية .

ومن المآخذ التى أخذت على نظرية كريستالر هو تقديره المغالى فيه للقوى الديناميكية : حتى منطقة جنوبى ألمانيا التى قام فيها بدراسته الأولية لها تراث حضرى أساسه ضارب فى العصور الوسطى ، وهناك مدن مثل « نوردلينقن » و « دنيكلزبوهل » و « وروثنبرج – أو ب – دير تاوير » محفوظة بإتقان منذ العصور الوسطى وتجذب السواح ، كما تؤدى وظيفة المواضع المركزية . وتوزيع هذه المدن يعكس مدى البضائع المركزية الخاصة بالقرن الخامس عشر أكثر منه بالعصور الحديثة .

وقد لاحظ سميث C.T. Smith أن مدن الميثاق فى جنوب ألمانيا فى أواخر العصور الوسطى كانت تقع فى المتوسط على بعد مرحلة أربع أو خمس ساعات من بعضها البعض وتخدم منطقة خلفية تتراوح مساحتها بين ١٠٠ إلى ١٣٠ كم مربع . ويبدو أن قدرة مزارع العصور الوسطى على السير من منزله إلى المدينة وبالعكس كان مقياسا أهم فى توزيع المواضع المركزية الأوروبية من الحركة التى جلبتها السكك الحديدية والعربات مؤخرا . ولذلك فإن دراسة العوامل التاريخية مهمة جدا فى فهم مدن أوروبا وتوزيعها . وهذا ما تفتقر إليه نظرية كريستالر .

الفصل الحادى عشر

الزراعة فى أوروبا

يرتبط اسم أوروبا فى أذهان كثير من الناس بالصناعة . والحقيقة أن النشاط الصناعى هو السائد على أوجه النشاط البشرى الأخرى ولكن عبر التاريخ وحتى الثورة الصناعية وبعدها كانت الزراعة تمثل أساس الاقتصاد الأوروبى ... وما زالت الزراعة تمثل جزءا حيويا فى اقتصاديات كثير من دول أوروبا الحالية .

نشأة الزراعة وانتشارها :

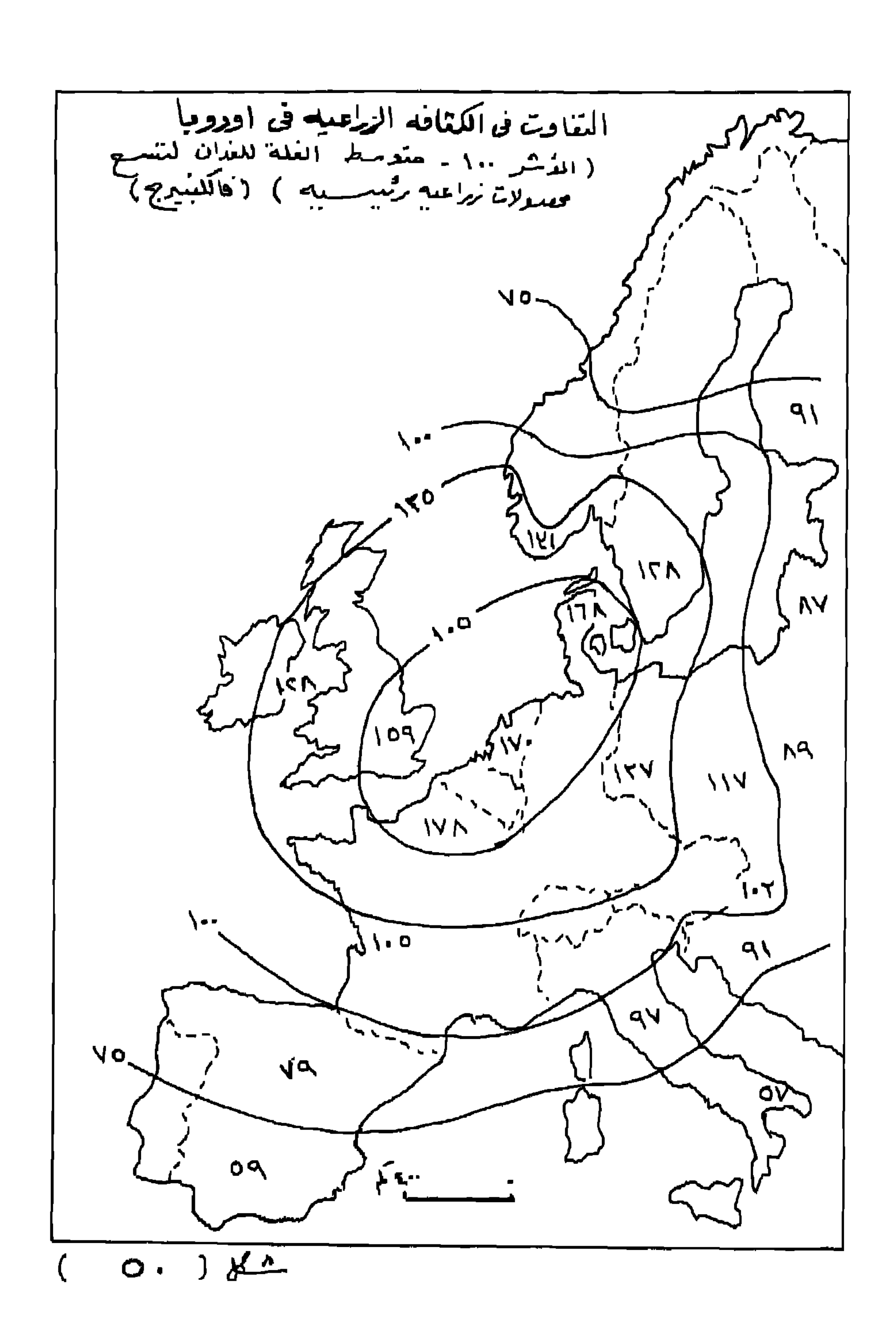
على الرغم من أن الزراعة لم تنشأ فى أوروبا فإن هذه المهنة تمارس هناك منذ أمد بعيد فى التاريخ . فالمعروف حتى الآن أن استئناس النبات والحيوان تم تقريبا فى أجزاء من القارة الآسيوية خاصة منطقة جنوب غرب وجنوب شرق هذه القارة . ومن هناك أخذت الزراعة تنتشر تدريجيا نحو الشمال والغرب عبر الهند والهلال الخصيب حيث أضيفت بعض المحصولات المهمة حتى وصلت منطقة البحر الأبيض المتوسط فى حوالى ٦٥٠٠ ق .م . أما أوروبا الوسطى فقد أصبحت زراعية حوالى ٣٠٠٠ ق . م . وايرلندا حوالى ٢٠٠٠ ق .م . ومنطقة تروندهايم النرويجية حوالى ١٨٠٠ ق .م . ويبدو أن الزراعة كانت معروفة لدى طلائع الشعوب التى كانت تتكلم اللغة الهندية الأوروبية لأن مفردات لغتهم كانت تضم كلمات مثل الثور والغنم والخنزير والمحراث . والقمح والشعير والتفاح . ونجد أن معظم المحاصيل والحيوانات التى تمثل الخصائص الأساسية للزراعة الأوروبية قد استأنست خارج حدود القارة وأن الهنود الأوروبيين قد ورثوها من شعوب أخرى : فالقمح جاء أصلا من جنوب غربى آسيا فى حين أن الحمضيات أتت من الهند المدارية عن طريق البلاد العربية ، والبطاطس الأبيض والذرة الشامية من أمريكا ، والخنزير من جنوب شرقى آسيا والماشية من شمال غرب الهند والخيل من منحدرات جبال القوقاز . وينطبق هذا أيضا على مصدر الوسائل والآلات الزراعية مثل فن عمل المصاطب الذى ربما قد

نشأ فى منطقة التلال القريبة من الهلال الخصيب . أما طرق الرى فهى هدية شعوب منطقة الصحارى والسهوب لسكان جنوب أوروبا . ونجد أن المعزقة والمحراث وجدتا طريقهما من مناطق خارج القارة .. غالبا منطقة جنوب غرب آسيا . وهكذا يمكن أن نعتبر أوروبا منطقة هامشية أخذت أساليب الزراعة وفنونها من مناطق أكثر تقدما وذات حضارات أرق وأنها لم تكن مركز ابتكار أو ابتداع زراعى .

يتأثر نمط الزراعة فى أوروبا بعدة عوامل مختلفة منها المناخ وبوجه خاص الحرارة ، والمطر عامل واضح الأثر على الزراعة ، فهو ضابط لنوع الزراعة . فنى داخل القارة تتحدد الحبوب المختلفة التى يمكن زراعتها فى خطوط متوالية وتشمل من الجنوب إلى الشمال الذرة ، القمح ، الشوفان ، الشعير الذى يحتاج لفصل نمو أقصر من الحبوب الأخرى . حتى الأرز يزرع فى مناطق صغيرة معينة فى جنوب أوروبا .

تصلح معظم أراضى أوروبا لممارسة الزراعة على أن الأحوال المناخية وصفات التربات تختلف كثيرا من جهة لأخرى . فالتربة تختلف من تربة البدزول الفقيرة السائدة فى المناطق الشمالية الباردة إلى التربات البنية والكستنائية وحتى السوداء كلما اتجهنا جنوبا وشرقا إلى أن نصل إلى مناطق التربة السوداء الغنية فى سهول أكرانيا السوفيتية . وتغطى السهل الأوروبى العظيم تربات مستمدة من بقايا العصر الجليدى وتتراوح من تربة طينية إلى رملية خفيفة وإلى طفل جيرى Loams وتربة اللويس التى تكسو مناطق واسعة حول الكتل الهيرسينية . وأخيرا التربة الغرينية التى توجد فى معظم أودية الأنهار الكبيرة ، أما فى إقليم البحر الأبيض فنجد أن التربة الحمراء -Terra rossa هى السائدة وقد نتجت من تعرض الصخور الجيرية إلى عوامل التجوية .

وقد كان لمناخ أوروبا خاصة الغربية أثر واضح فى احتفاظ التربة بخصوبتها نسبيا وذلك لأن نزول الأمطار طول السنة وبكميات معتدلة وكثرة الضباب والندى قد قلل من غسل التربة بالمقارنة مع المناطق الأخرى . أما المزارع الأوروبى فإليه يعزى خصوبة التربة ، فمن خلال الممارسة الطويلة للزراعة عبر السنين فقد عرف أثر السماد الحيوانى على التربة ومارس الدورات الزراعية ليخفف من الضغط على التربة ، وأدرك أهمية السماد فاحتفظ لذلك بكمية من الحيوانات فى مزرعته .



التفاوت فى الكثافه الزراعيه فى اوروبا
(المؤشر ١٠٠ - متوسط الغلة للفدان لتسع محصولات زراعيه رئيسـيه) (فالكنبرج)
٧٥
١٠٠
١٣٥
١٠٥
٩١
١٢١
١٢٨
١٦٨
٨٧
١٢٨
١٥٩
١٧٠
١٣٧
١١٧
٨٩
١٧٨
١٠٢
١٠٠
١٠٥
٩١
٩٧
٧٥
٧٩
٥٧
٥٩
٤٠٠ كم

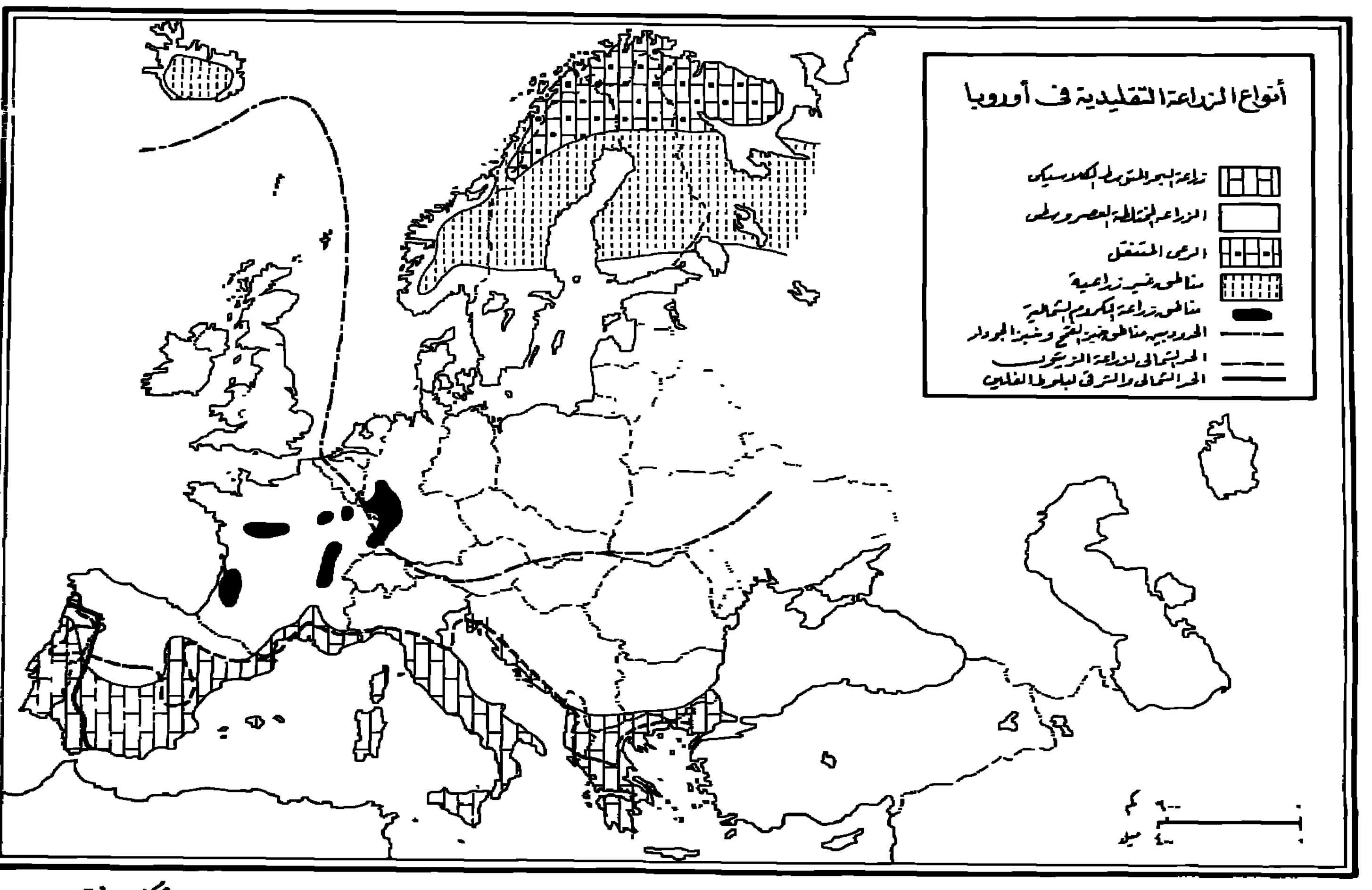
شكل (٥٠)

أما الأراضى التى لا تصلح للزراعة فهذه توجد فى الأقاليم الجبلية المرتفعة وبعض الأجزاء التى تقع فى شمال اسكندناوه وذلك بسبب قسوة مناخها . وفى بقية أجزاء القارة نجد أن هناك تباينا واضحا بين حوض البحر المتوسط وشمال أوروبا . ففى حوض البحر المتوسط يستغرق فصل النمو الشتاء والربيع وتنضج المحاصيل خلال أشهر الصيف الحارة الجافة وتعد المحاصيل الشجرية مثل الزيتون ومحاصيل الكروم مثل العنب من أهم معالم الزراعة فى هذا الإقليم ، وتقل محاصيل نباتات العلف التى تذوى وتجف فى فصل الصيف الجاف . ونتيجة لذلك يقل عدد ماشية الألبان . وعلى الرغم من أن أعداد الماشية قد تزايدت فى السنوات الأخيرة إلا أن دول البحر المتوسط لا تزال تعتمد فى الحصول على حاجتها من منتجات الألبان على الأغنام والماعز . وقد لعبت طبائع هذه الحيوانات الرعوية دورا كبيرا فى القضاء على الغابات فى هذه المنطقة . وتزيد أهمية الرى فى جهات محدودة من الحوض وبخاصة فى جنوب أسبانيا وبعض أجزاء من إيطاليا .

وإلى الشمال من المرتفعات الألبية يستغرق فصل النمو الصيف ولكن إلى الشمال وإلى الشرق منها توقف قسوة الشتاء نمو النباتات وتحد إلى درجة كبيرة من مدى وعدد المحاصيل التى يمكن زراعتها .

وتتميز الأطراف الشمالية الغربية للقارة بصيفها المعتدل الأميل إلى البرودة وبشتائها الدافىء ووفرة أمطارها وكلها عوامل تساعد على نمو الحشائش ومحاصيل العلف ولذلك تزيد أهمية ماشية الألبان ومنتجاتها فى شمال غرب فرنسا والجزر البريطانية والأراضى المنخفضة (هولنده وبلجيكا) واسكندناوه .

أما فى شرق القارة فالمناخ أكثر جفافا والشتاء أشد برودة وتقل أهمية الحشائش ومحاصيل العلف وتشتمل الزراعة هنا على محاصيل الحبوب والبطاطس والبنجر وتحدد الظروف المحلية للمناخ والتربة والدورات الزراعية أنواع الغلات ، ولكن بصفة عامة يزرع الشيلم فى التربات الضعيفة الخصوبة ويزرع القمح فى التربات الجيدة كما يزرع الشوفان كعلف للحيوان والشعير الذى تقوم عليه صناعة البيرة . أما فى شمال أوروبا


أنواع الزراعة التقليدية في أوروبا
زراعة البحر المتوسط الكلاسيكي
الزراعة المختلطة لعصر وسطى
الرعي المتنقل
مناطق غير زراعية
مناطق زراعة الكروم الشمالية
الحد بين مناطق خبز القمح وخبز الجودار
الحد الشمالي لزراعة الزيتون
الحد الشمالي والشرقي للبلوط الفلين
٦٠٠ كم
٤٠٠ ميل

شكل (٥١)

فالتربات أفقر نوعا وفصل النمو أقصر منه فى وسط أوروبا وتزيد هنا أهمية الحشائش ومحاصيل العلف والكتان محليا عن القمح كما تزيد مساحة المناطق الغابية .

وتعد الخضر من أهم الغلات الزراعية بالقرب من المدن وتزرع محاصيل الخضر المبكرة والبطاطس والزهور للتصدير لأسواق المدن البعيدة فى بعض الجهات المحددة الملائمة لهذه الزراعات كما هو الحال فى جنوب وجنوب غرب فرنسا وفى الأجزاء الدافئة نوعا فى جنوب غرب الجزر البريطانية .

الأنماط الزراعية : تطورها وخصائصها : (الشكل ٥١)

أ - زراعة البحر الأبيض المتوسط :

تتميز أوروبا بتنوع جغرافى طبيعى وحضارى ، وليس من الغريب أن نجد الزراعة أيضا تتسم بتنوع شديد لأن الإنسان طور مجموعات مميزة من المحاصيل والحيوانات ، كل مجموعة منها تمثل إقليما معينا من القارة ، لأن أشباه الجزر الواقعة فى جنوبها هى التى وصلتها الزراعة أولا ، فالأجدر أن نبدأ دراستنا بإلقاء الضوء على نوع الزراعة التى نشأت هناك . فإن سكان أرياف جنوب شبه جزيرة أيبيريا وساحل فرنسا الجنوبى وإيطاليا جنوب سهل البو وساحل يوغسلافيا الأدرياتى واليونان قد طوروا اقتصادا ريفيا معينا يمكن أن نطلق عليه زراعة البحر الأبيض المتوسط . ولكى نفهم خصائص هذا النظام الزراعى حاليا علينا أن نعود إلى العصر الكلاسيكى وقبله إلى عصر الإغريق والرومان .

١ - الزراعة فى العصر الكلاسيكى :

كانت الزراعة فى العصر الكلاسيكى تتكون من ثلاثة عناصر أو سمات متميزة ومنفصلة من بعضها البعض ، كل عنصر يمثل هذا الجزء الجنوبى من أوروبا . فمناخ البحر الأبيض المتوسط يتميز بصيف جاف طويل وشتاء ممطر معتدل ، فإذا أخذنا المظهر الأول للزراعة فنجده يتمثل فى الزراعة الشتوية للقمح والشعير حيث ينمو المحصول بطيئا خلال فصول الشتاء ويصل مرحلة النضوج فى أيام الربيع المشمسة الدافئة . وكان الحصاد يتم فى أواخر الربيع وأوائل الصيف قبل حلول فترة الجفاف الشديد . وللحفاظ على خصوبة التربة كانت هناك دورتان زراعيتان تزرع خلالها

الأرض مرة كل سنتين وتترك بورا نصف الوقت لكى تستعيد خصوبتها . وفى عديد من المناطق كانت المحاصيل تزرع فى الأراضى السهلية المنخفضة فى حين اتخذ المزارعون مساكنهم على سطوح التلال المجاورة لأغراض الدفاع . وقد برهن هذا الاختيار جدواه حينما انتشرت الملاريا فى المناطق المنخفضة متأخرا . وكان للقمح أهمية خاصة لسكان الإقليم ولذا كان يحتل المناطق الخصبة حيث تتوفر المياه فى حين أن الشعير كان يزرع فى الأجزاء الهامشية ذات التربات الفقيرة والمطر القليل . وما زال القمح والشعير يحتلان ٤٠٪ من الأرض المزروعة فى إيطاليا و ٥٠٪ فى اليونان .

أما العنصر الثانى فيتمثل فى زراعة المحصولات الشجرية المقاومة للجفاف مثل العنب فى فصل الصيف . والعنب يعتبر من المحصولات الغذائية الهامة فى هذه المنطقة إذ يعد منه النبيذ – الشراب المفضل عند سكان المنطقة – كما أن كميات كبيرة منه تجفف لصنع الزبيب أو يؤكل طازجا . أما العنب الطازج فيعد من المواد الغذائية الهامة .

وكان حصاد محصول العنب يتم فى أواخر الصيف أو أوائل الخريف بينما يجفف الزبيب قبل هطول الأمطار لأن الهطول المبكر للأمطار الذى تتبعه فترات شمس مشرقة يؤدى إلى تشقق العنب وإتلاف المحصول كلية . وكانت مزارع العنب تحتل مدرجات التلال وبطون الأودية الغرينية . أما الآن فإن ٤٠٪ من محصول العنب فى اليونان تستغل لعمل النبيذ و ٢٥٪ يعمل زبيبا ويستهلك ما يتبقى فى حالته الطازجة .

أما الزيتون فهو شجرة طويلة العمر مقاومة للجفاف لكنها لا تتحمل الصقيع وتعتبر مؤشرا صادقا لمناخ البحر الأبيض المتوسط . وقد تعيش شجرة الزيتون لألف سنة أو تزيد وكانت تمثل المصدر الوحيد للزيت لمزارعى العصر الكلاسيكى كما أن الكتاب الرومانيين كانوا يتقززون من الشعوب الجرمانية التى تأكل الدهون الجامدة كالزبدة ويتندرون بهم فى كتاباتهم . وتزدهر شجرة الزيتون فى منحدرات التلال وفى الأودية كما تنمو أيضا فى التربات الرقيقة . ومن أشجار البستان الأخرى نجد التين وهى مقاومة للجفاف أيضا ومن الأشجار المتوطنة فى الإقليم التى تتناسب ومنحدرات التلال ، وشجرة الكستناء Chestnut التى يستخدم ثمرها للأكل ، وشجرة البلوط ويستخرج منها الفلين .

أما السمة الثالثة للزراعة فى العصر الكلاسيكى فى هذا الإقليم فتتمثل فى رعى الحيوانات الصغيرة مثل الضأن والماعز والخنزير التى تقتات بالأعشاب الفقيرة القليلة التى تجود بها مناطق الرعى التى تتواجد على المنحدرات الوعرة . وغابات البلوط التى تنمو فى أطراف الجبال . فالماعز والضأن يمكنها أن تتحرك بخفة ورشاقة بين الصخور فى حين أن الخنزير يقتات بجذع أشجار البلوط وكانت القطعان ترعى خارج حدود القرية وإن جرت العادة فى العصر الكلاسيكى أن لا تبتعد الحيوانات كثيرا عن القرية . أما الضأن فقد كانت أكثر عددا من الماعز والخنزير وتمول المزارعين بالصوف والجلود واللحوم وإن كان استهلاك اللحوم قليلا نسبة إلى اعتماد سكان الإقليم على غذاء حضارى . أما الماعز فقد كانت مصدرا للصوف mohan واللبن والجلود ، كما كانت تحتل محل أبقار الألبان كما فى وقتنا الحالى . وحتى الآن فإننا نجد أن معظم الأجبان التى تصنع فى منطقة البحر المتوسط مصنوع من لبن الماعز وفى حالات نادرة من ألبان الضأن كجبن روكفورت .

أما الخنزير فهو أقل الثلاثة عددا وأهمية . ورغم انتشاره فى العصر الكلاسيكى فإن عدده تقلص كثيرا مع تقلص غابات البلوط التى كان يتغذى عليها . وحاليا نجد تربيته تنحصر فى غابات البلوط المتبقية التى تتواجد فى المنحدرات الغربية الممطرة من جبال شبه جزيرة أيبيريا . وكان هناك انفصام ظاهر بين تربية الحيوانات والأعمال الزراعية الأخرى مثل زراعة المحاصيل وقطع الحشائش للعلف وجمع سماد الحيوانات واستخدامها فى تسميد الأرض وتعليف الحيوانات لغرض التسمين (Stall-Feeding)

أما المواشى الكبيرة مثل الأبقار والحمير والخيول فقد كانت موجودة فى العصر الكلاسيكى ولكنها كانت أقل عددا وأهمية من الحيوانات الصغيرة بسبب تضرس المنطقة ووعورتها وقلة الحشائش فى فصل الصيف .

هذا ملخص للأحوال الزراعية فى العصر الكلاسيكى ، وهذا التقسيم إلى عناصر أو سمات ثلاث لا يعنى أن كل نوع يمارس على حدة أو منفصلا عن الآخر فقد كان المزارع يمارس كل هذه الأنواع فى مزرعته وإن كان يركز جهوده على نوع دون آخر .

ومن خصائص الزراعة فى هذه الفترة ملكيات الأرض الكبيرة أو اللاتيفونديا Latifundia فى هذه الأطيان التى تمتلكها أقلية غنية كان المزارعون يكدون فى سبيل لقمة العيش كما كانوا يقومون بالعمل الشاق فى قطع الأرض المجزءة . أما المحراث فلم يكن ذا أهمية آنذاك وكانت المعزقة هى الآلة الزراعية الرئيسية المستخدمة خاصة فى الزراعة بين أشجار الزيتون والتين والعنب . أما زراعة الحبوب فكانت تتم بواسطة محراث صغير يعرف بأراترو Aratro or Araire كان يخدش السطح بدون عمل أخاديد عميقة بينما زراعة الخضروات وبعض الحبوب كانت تتم بين صفوف الأشجار مما يدل على استخدام مكثف للأرض .

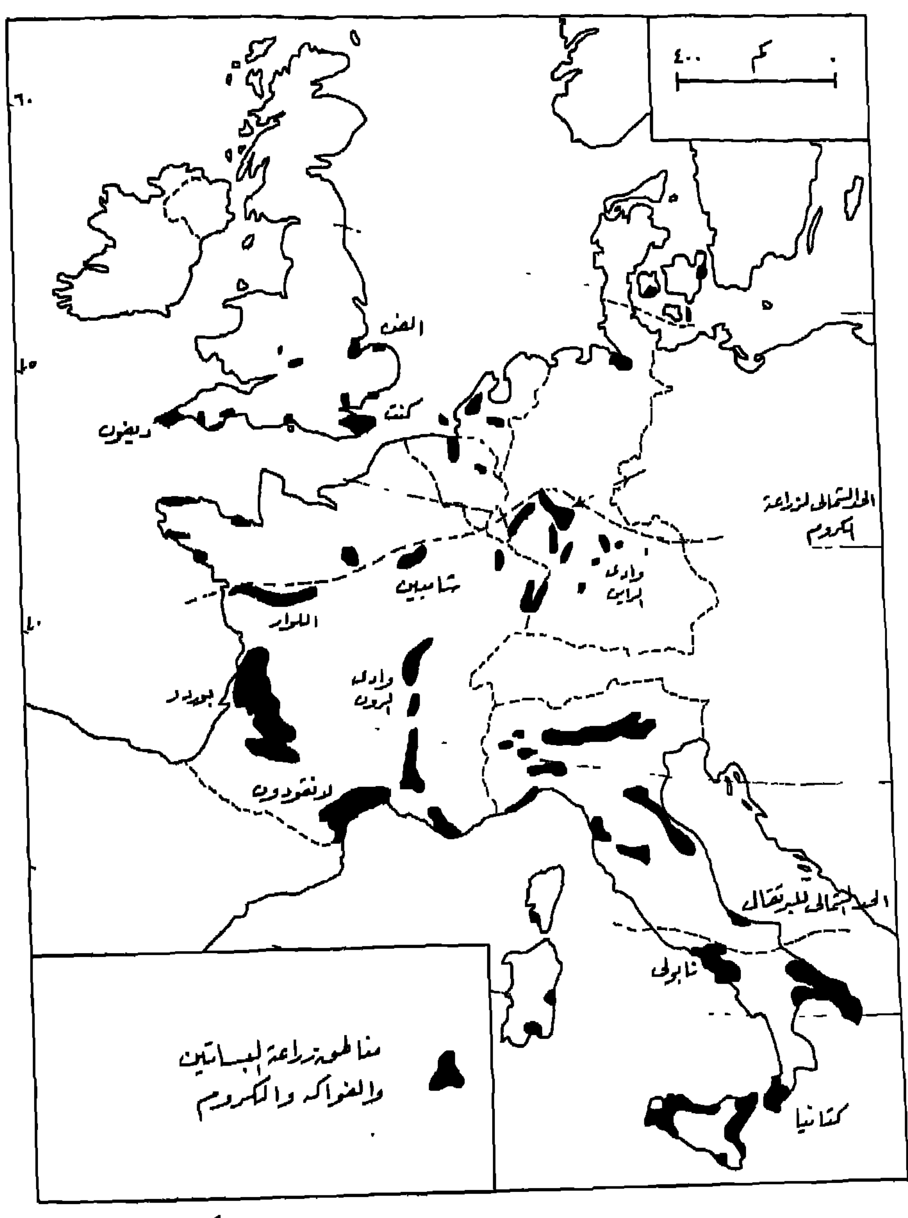
٢ – ملامح التغيير فى الزراعة الكلاسيكية : (الشكل ٥٢)

رغم التغييرات التى طرأت على الزراعة منذ العصر الكلاسيكى فإننا نجد كثيرا من سمات هذا النظام الزراعى قد انحدر إلى زمننا الحاضر وكثيرا ما نجد–خاصة فى بعض المناطق البعيدة والمتخلفة – المزارعين يمارسون نفس العمليات الزراعية التى كان يمارسها أجدادهم . لكن الزراعة عامة شهدت تغيرا فى نوعيتها وإضافات فى محاصيلها وتطورا فى نظامها نتيجة الاحتكاك والاتصال مع شعوب أجنبية .

ومن أهم التغيرات التى حدثت للزراعة إدخال نظام الرى الصناعى . وقد كان هناك نوع من الرى الصناعى يمارس فى العصر الكلاسيكى خاصة فى البساتين الصغيرة أيام هومر كما أن الرومان طوروا نظاما للرى يمكن من رى مساحات أكبر من أراضى اللاتيفونديا . أما بالنسبة للمزارع العادى فقد كانت فكرة الرى الصناعى غريبة عليه لأن المحصولات التى كان يزرعها كانت إما مقاومة للجفاف أو تزرع فى فصل الأمطار ولذلك كانت حاجته للرى قليلة . وعندما انهارت الإمبراطورية الرومانية ذهبت أيضا الحكومات النظامية التى كانت لها القدرة فى إدارة وتنظيم طرق الرى المعقدة مما أدى إلى اندثار الفكرة الموجودة عن الرى الصناعى وطرق إدارتها فى عهود الإمبراطورية الزاهرة .

ثم حدثت الطفرة الكبرى فى تطبيق الرى عندما حدث الاتصال الحضارى مع الشعوب العربية التى غزت أسبانيا وأخضعت بعض مناطق جنوب أوروبا تحت

الزراعة المتخصصة والمكثفة : زراعة البساتين والكروم



شكل (٥٢)

نفوذها السياسى . وقد وجد العرب وضعا طبيعيا جيدا لممارسة الرى يتمثل فى تلك الجبال التى يختزن فيها التساقط الشتوى فى شكل ثلوج سرعان ماتذوب فى الربيع والصيف لتحملها الأنهار إلى المناطق المنخفضة حيث الحقول .

ومع امتداد النفوذ العربى الحضارى والسياسى فى الجزء الاوروبى من حوض البحر الابيض المتوسط أخذت السهول الغرينية التى كانت تخصص عادة لزراعة الحبوب الصغيرة المعيشية تزدهر بمحصولات أكثر قيمة . ولكن انتشار نظام الرى كان بطيئا إلى حدما وقد بقى مجهولا فى بعض المناطق حتى العصور الوسطى ومن أوائل مشروعات الرى فى هذا الجزء من أوروبا تلك التى أقيمت على نهر ديورانس فى إقليم بروفنس فى فرنسا وذلك عام ١١٧١ .

تبع تطور نظام الرى إدخال عدد من المحصولات الجديدة التى لم تكن مقاومتها للجفاف شديدة . ومن أهم هذه المحاصيل الحمضيات التى يبدو أنها لم تكن معروفة لدى الاغريق مباشرة وان كانوا قد سمعوا عنها وعن وجودها فى المناطق العربية . وقد أدخل البرتقال لأول مرة فى أوربا بواسطة اليهود ولكن هذه الأشجار الأولى لم يكتب لها البقاء واندثرت مع إرهاصات سقوط الإمبراطورية الرومانية . أما إدخال الحمضيات بصورة دائمة فقد تم على يد نفس القبائل العربية التى أدخلت نظام الرى الصناعى فى هذه المنطقة ، ومن أسبانيا انتشرت زراعة الحمضيات إلى باقى أجزاء الحوض لتصبح من أهم سمات الزراعة فى هذا الإقليم ومن أهم محاصيلها أيضا .

أما الأرز فقد دخل البرتغال وإيطاليا فى عصر الاكتشاف وذلك بواسطة المكتشفين الذين رجعوا من الصين وأجزاء آسيا ومن المرجح أيضا أن هذا المحصول قد أتى به فاتحو الأندلس المسلمين الأوائل ، ويزرع الآن فى بعض المواضع فيها . وكذلك القطن الذى أدخل من مصر. أما التبغ الذى يكتسب أهمية كمحصول نقدى فى شرق الحوض فقد أدخل بعد اكتشاف الأمريكتين .

أما ثانى تغيير هام يطرأ على نظام الزراعة الكلاسيكية فيخص نظام الرعى الرأسى Transhumance أو الهجرة الفصلية مع البهائم من منطقة الرعى الشتوى فى المنخفضات إلى أماكن الرعى الصيفى فى الجبال . وعلى عكس البدو الرحل فإن

هؤلاء الرعاة لهم منازل دائمة مبنية يستخدمونها أثناء الشتاء بدل التنقل الدائم من منطقة إلى أخرى انتجاعا للمرعى كما يفعل البدو . وهذه الهجرة مع الماشية كانت تمارس فى العصر الكلاسيكى فى حدود ضيقة وإن كانت هناك بعض البراهين تشير إلى أن مدينة روما تطورت أصلا من مساكن صغيرة كانت تقع على إحدى طرق الهجرات هذه وذلك فى العصر البرونزى . ويبدو أن معظم هؤلاء الرعاة كانوا مستقرين فى بيوت ثابتة ولا يتحركون بعيدا من قراهم . ولكن بعد عصر الرومان انتشرت حياة التنقل وأخذت تكتسب أهمية ربما نتيجة لانتشار نفوذ القبائل المغيرة التى كانت تغلب على حياتها البداوة مثل الفلاخ Vlakhs والقوط Goths وقبائل البربر الأفريقية . وهكذا نشأت مجموعة من طرق الهجرات هذه فى إيطاليا بين منطقة المستنقعات الساحلية المهجورة – مثل الكمبانيا Compagna التى ارتدت إلى أرض قاحلة بعد سقوط الإمبراطورية – ومنحدرات جبال الأبناين . وفى فرنسا كانت قطعان الضأن تقضى الشتاء فى سهل لانقويدوك وتساق إلى المراعى الصيفية فى منحدرات الألب البحرية . أما أسبانيا فقد شهدت اكتمال تطوير نظام الهجرة لرأسية الفصلية خاصة فى العصور الوسطى : ففى هذه الفترة نشأت جمعية المستا Mesta فى قسطلية لغرض تنظيم وضبط تحركات قطعان الضأن وفى عشرينات القرن السادس عشر كانت قسطلية وحدها تضم ٣٫٥ مليون رأسا من الضأن . وفى بعض الحالات كانت قطعان الماشية تساق من الأندلس فى جنوب أسبانيا إلى المرعى الصيفى فى جبال البرانس وكنتابريا . ورغم تقلص أهمية هذه الهجرات الرأسية حديثا فما زالت قطعان الضأن والماعز تساق على الأقدام أو على العربات والقطارات إلى حيث تتوفر المراعى الصيفية . ومن أهم مميزات هذا النظام أنه يسمح باستغلال فعال للمراعى الموجودة مما يتيح تربية أعداد أكبر من البهائم مما كان متاحا تحت النظام الاستقرارى القديم .

٣ – التخصص الزراعى :

كان أهم تغير طرأ على الزراعة منذ العصر الكلاسيكى هو الاتجاه الحديث نحو التخصص فى الانتاج الزراعى لغرض التجارة . وكان من أهم خصائص النظام الزراعى فى العصر الكلاسيكى ذلك التنوع الذى شاهدناه والذى يجمع بين أشتات

من النشاطات تتراوح بين زراعة الحبوب والعناية بأشجار الزيتون والعنب وممارسة الرعى . وهذا التنوع يعد من سمات الزراعة المعيشية لأن المزارعين يعتمدون عليها لسد احتياجاتهم من ضروريات الحياة ولذا فعليهم أن يتعيشوا مما تجود به هذه الحقول من محاصيل . ولكن هناك بعض الأدلة تشير إلى وجود نوع من الإنتاج لغرض التسويق التجارى .. فقد كانت أتيكى Attiki بالقرب من أثينا مثلا تزدهر ببساتين الزيتون كما كانت صقلية وتراكى Thraki تشتهران بحقول القمح كما أن بعض جزر بحر إيجه كانت تغص بأشجار العنب والنبيذ . وفى العصور الوسطى ازدهرت صناعة النسيج فى إيطاليا والفلاندرز (بلجيكا) . واستجابة للطلب المتزايد للصوف الخام أخذت الهضبة الأسبانية (الميزيتا) تتخصص فى تربية الضأن لسد احتياجات هذه المصانع ، وتطورت حرفة رعى الماشية فى الأندلس لتمول مصانع الدباغة المنتشرة فى أنحاء أوروبا بالجلود . ورغم هذا التخصص الجزئى فقد ظلت الزراعة معيشية حتى حوالى بداية القرن التاسع عشر تنتج أساسا لسد احتياجات المزارعين من غذاء .

وخلال القرن الأخير شهدت المنطقتان الشمالية والغربية من أوروبا نهضة صناعية وحضرية كان من أثرها اشتداد الطلب على المنتجات الزراعية ، وكان من نتائجها أن اتجهت الزراعة فى حوض البحر الأبيض المتوسط نحو التخصص والإنتاج التسويقى . وكان من أثر التحسين فى وسائل المواصلات والنقل أن استطاع المزارع الوصول بمنتجاته إلى أسواق ألمانيا وبريطانيا وفرنسا والأراضى المنخفضة . وفى هذه الأسواق المفتوحة بدأ المزارع يشعر تدريجيا بالمنافسة التجارية من أقطار العالم الأخرى .

وكان هذا الاختيار للتخصص فى الإنتاج الزراعى يرغب المزارع على أخذ هذا التنافس فى اعتباره . فقد وجد أن القمح الذى يزرعه فى قطعة أرضه الصغيرة المجزءة لا يمكن انتاجه بكميات كبيرة وتسويقه بأسعار زهيدة كما يحدث فى برارى وسهول كندا والولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا حيث الأراضى شاسعة ووسائل الإنتاج حديثة ومتطورة ، مما أدى نهائيا إلى تقلص شديد فى مساحات حقول القمح خاصة فى المناطق التى اتجهت نحو الإنتاج التجارى . وكذلك لم يستطع المزارع أن يتنافس بنجاح مع إنتاج مزارع الرعى الضخمة من الصوف والموهير فى أستراليا والولايات

المتحدة والأرجنتين وجنوب أفريقيا ونيوزيلنده مما أدى إلى هبوط واضح وسريع فى عدد المواشى .

وهكذا وجد المزارع أن اثنتين من سمات نظامه الزراعى – تربية الماشية وزراعة الحبوب – لا يبشران بالنجاح تجاريا كما وجد أن إنتاج البساتين والعنب والخضروات يتيح فرصا واحدة فى التخصص التجارى ، وكان أهم سند له فى هذا الاتجاه هو المناخ المعتدل الدافىء الذى يتميز به الإقليم . فكثير من أنواع الفواكه : مثل الحمضيات ، والخضروات التى تخصص فى إنتاجها لا ينجح زراعتها فى أقاليم أوروبا الأخرى ، ثم إن سرعة تلف كثير من هذه المحاصيل أبعدت المنافسة الخارجية فى أسواق أوروبا . وكان من البديهى أن تتسع المساحة المتخصصة لهذه المحصولات وتتبعها زيادة ملموسة فى عدد مشاريع الرى .

وسرعان ما أخذ هذا التخصص يتبع نمطا نموذجيا معينا فى كل أجزاء الإقليم . فقد تحول الساحل الفرنسى المطل على البحر الأبيض إلى « بحر من أشجار العنب » يمتد عبر مساحات شاسعة فى حين أصبحت منطقة الأحواض Huertas المروية فى ساحل أسبانيا الشرقى مشهدا لزراعة الحمضيات ومن أشهر إنتاجها برتقال فالنسيا . أما الأندلس والساحل الأدرياتى فى إيطاليا ومنطقة الريفيرا فقد اشتهرت بالزيتون فى حين أن شمال صقلية والمنطقة حول نابولى تخصصت فى زراعة الحمضيات واشتهر وادى نهر الدورو فى البرتغال بمزارع العنب التى تنتج نبيذبورت المشهور ، ومن المناظر الزراعية المثيرة فى منطقة البحر الأبيض تلك المساحة الشاسعة من سهل كريسا Krissa التى تغطيها أشجار الزيتون فقط دون أشجار الفواكه الأخرى .

وكان من آثار هذا التخصص أن اندثرت أهم مميزات الزراعة فى هذا الإقليم والتى كانت مبنية أساسا على الجمع بين ثلاثة مساعى زراعية متنافرة فى الحقل الواحد . ويمكن أن نصف النتاج النهائى لهذا التخصص الزراعى بأنها زراعة الخضروات للتسويق وبساتين الفاكهة . ورغم أن النزعة التخصصية قد شملت معظم أجزاء الإقليم فما زال هناك بعض المناطق الداخلية التى لم تشهد أى تغيير يذكر وما زالت تتمسك بالزراعة التقليدية .. وهذه المناطق هى التى عادة ما تعانى من قلة

فى مياة الرى ، أو التى للزراعة التقليدية فيها أهمية أكثر من زراعة الزيتون والعنب . وكان من نتائج هذا الازدواج أن ظهر نطاقان ذا اختلاف زراعى وحضارى : نطاق تسود فيه الزراعة التقليدية بطرقها الزراعية العتيقة البدائية وآخر نجد فيه زراعة الخضروات لغرض التجارة وفق أسس تجارية حديثة وبواسطة الآلات الزراعية الحديثة وتطبيق الوسائل الزراعية العلمية .

ومن التغيرات التى حدثت ومرتبطة بانتهاء الإقطاعية :

١ – تقسيم الأطيان الزراعية الكبيرة إلى أجزاء صغيرة .
٢ – إلغاء طبقة ملاك الأراضى الريفيين الأغنياء وتقسيم هذه الأراضى وتمليكها للفلاحين .

وقد تقلص عدد أراضى اللاتيفونديا إلا فى بعض الأجزاء الجنوبية من شبه جزيرة أيبريا وإيطاليا . وفى اليونان نجح التمرد على الحكم التركى فى تدمير نفوذ الأرستوقراطية الإقطاعية التى كانت فى معظمها تتكون من الأتراك وفى جزيرة كريت نجد أن ٩٦٪ من الفلاحين يمتلكون أراضيهم وهناك محاولات جادة بواسطة برامج الإصلاح الزراعى لتحديث وسائل ورفع الكفاءة الإنتاجية فى المناطق التى ما زالت تسود فيها الأساليب الزراعية البالية .

ب – الزراعة المختلطة Mixed Farming (الشكل ٥١)

يتميز النطاق الزراعى الذى يقع شمال منطقة البحر المتوسط بزراعة المحاصيل وتربية الماشية . ولإلقاء الضوء على تطور هذا النمط الزراعى الهام لابد أن نتعرض أيضا للنظام الزراعى التقليدى الذى كان يسود هذا النطاق .

كانت الزراعة المختلطة هى النمط السائد لاستغلال الأرض فى العصور الوسطى وفيها كانت بعض محاصيل الحبوب الصغيرة تزرع وفق نظام دورات زراعية . وكان القمح يشكل المحصول الرئيسى فى الأجزاء الجنوبية والغربية من هذا النطاق ويزرع إما فى الصيف أو فى الشتاء كمحصول غذائى أساسى ، ولهذا يسود استخدام الخبز الأبيض بين سكان فرنسا والجزر البريطانية والبلقان وسهوب روسيا حتى يومنا هذا .

أما الجاودار(rye) فكان يحتل المرتبة الثانية من حيث الأهمية الغذائية وكانت زراعته تتركز فى الأجزاء الشمالية الباردة مثل ألمانيا ودول اسكندناوة وبولندة والأجزاء الغابية من روسيا حيث يفضل الخبز الأسود . ورغم أن الحد بين منطقة القمح ومنطقة الجاودار كان فاصلا ، كان هناك تداخل بين النطاقين فى بعض الأجزاء عندما ينتشر القمح فى مناطق شمالية والجاودار فى أجزاء جنوبية من مناطق تركزهما . أما الشوفان فقد كان يزرع فى فصل الصيف فى كل أجزاء نطاق الزراعة المختلطة أساسا كغذاء للماشية ولكن ثمة مناطق فقيرة مثل أسكتلنده حيث كانت عصيدة الشوفان تكون غذاء رئيسيا للسكان . أما الصنف الرابع من الحبوب فيتمثل فى الشعير الذى كان يزرع أساسا كعلف للماشية ولصنع البيرة – الشراب البديل للنبيذ فى شمال القارة ، كما كان جزء من الأرض يخصص لزراعة الكتان كمحصول ليفى يستخدم فى صناعة الأقمشة الكتانية وما زالت زراعة الكتان لها أهمية بالغة فى أوروبا التى تنتج – ومعها الإتحاد السوفيتى – ٩٠٪ من إنتاج العالم من نبات الكتان سنويا .

وكانت هذه الحبوب تزرع وفق نظام الدورة الثلاثية حيث يزرع كل جزء من الأرض على التوالى بمحصول شتوى – بور – محصول صيفى . أما فى المناطق ذات التربات الفقيرة فيطبق فيها نظام دورة واحدة ويشمل جزءا صغيرا من الأرض تزرع باستمرار وتعرف بالحقل الداخلى ' infield ' القريب من البيت الريفى وتحيط به قطعة أكبر حجما تعرف بالحقل الخارجى ' outfield ' مخصصة للرعى أو لزراعة بعض المحاصيل كما فى أسكتلندة حيث كانت تستخدم وسائل الزراعة المتنقلة البدائية ' ' Shifting Cultivation ' إذ كانت الأرض تزرع باستمرار لمدة تتراوح بين سنتين وأربع سنوات وبعدها تترك بورا لمدة عشر سنوات أو أكثر حتى تستعيد الأرض خصوبتها . أما فى المناطق ذات الدورة الزراعية الواحدة مثل شمال غربى ألمانيا ومرتفعات بريطانيا والنرويج ، فقد كانت الماشية تربط فى الحقول الداخلية من وقت الحصاد حتى حلول موسم الزراعة لصيانة خصوبة التربة بروث البهائم مما أتاح زراعة الجاودار بصفة دائمة فى شمال ألمانيا . وفى أجزاء من سهول بريطانيا وجنوبى فرنسا وشمال شبه جزيرة أيبريا كان المزارعون يمارسون نظام دورتين كما فى زراعة البحر المتوسط والذى بمقتضاه تترك الأرض بورا كل سنتين بدلا من كل سنة فى ثلاث

سنوات كما فى الدورة الثلاثية . ويبدو أن نظامى الدورتين والثلاث دورات مشتقتان من نظام الدورة الواحدة البدائية وذلك نتيجة الضغط السكانى المتزايد الذى أجبر المستوطنين على إخضاع الحقل الخارجى للزراعة المستمرة تدريجيا حتى لم تعد القطعة تترك بورا إلا مرة واحدة كل سنتين أو ثلاث سنوات .

وجزء هام من هذا النظام التقليدى كان يتمثل فى الاحتفاظ بقطعة أرض بالقرب من بيت المزرعة تتعهدها النساء وتزرع فيها الخضروات الصيفية مثل الخس والبازلاء والجزر واللفت (سلجم) وكذلك فواكه المناطق المعتدلة مثل التفاح والكرز والأجاص والبرقوق (الخوخ) .

أما الجانب الثانى للزراعة التقليدية المختلطة فقد كان يتمثل فى قطع الحشائش من المروج وتجفيفها لتعليف البهائم فى فصل الشتاء . وكثيرا ما يختلط مفهوم كلمتى « الكلأوالمروج pasture and meadows » فى أذهان سكان المدن إذ تعنى الكلمتان شيئا واحدا بالنسبة لهم ولكن هناك اختلاف جذرى بين الكلمتين : فقد كانت الدواب تترك لترعى « الكلأ » بينما المروج هى التى تقطع منها الحشائش لتجفيفها وتخزينها . فخلال معظم أيام الشتاء كانت الماشية تحفظ فى الحظائر لتأكل الحشائش المجففة والحبوب ، ثم تطلق فى فصل الصيف لترعى فى الحقول البور والحشائش وبقايا الغابات التى كانت تقع عادة عند هامش أرض القرية .

وقد كانت للمواشى أهمية فى الزراعة المختلطة فى العصور الوسطى أكثر مما نجدها فى زراعة البحر المتوسط إذ كانت تمول معظم احتياجات المزارع الريفى من المواد الغذائية مثل اللحم واللبن ومنتجاته ، كما كانت تعطى السماد وتشكل القوة الساحبة للمحراث الضخم الذى تميزت بها المنطقة الجرمانية . وقد كان من المناظر المألوفة حتى وقت حديث رؤية أبقار الألبان وهى تجر المحراث ولو أن الثيران كانت تستخدم لهذا الغرض فى الغالب الأعم . وفى معظم أجزاء أوروبا الوسطى كما فى بولنده وألمانيا كان الخنزير يمثل المصدر الرئيسى للحم وما زال لحم الخنزير يكون جزءا أساسيا من غذاء سكان هذه المناطق إذ يتميز حيوان الخنزير بقدرته على تحويل النفايات وبقايا الطعام إلى لحم من نوع جيد كما أنه يعتمد على ثمر البلوط وشجر الزان فى تغذيته . أما الخيول

فلم يحظ بامتلاكها إلا عدد ضئيل من المزارعين إذ كانت تتعرض للمصادرة أثناء الحروب من قبل الأمراء والحكام . أما قطعان الضأن فقد كانت منتشرة فى معظم نطاق الزراعة المختلطة ولكنها كانت تسود فى المناطق الفقيرة زراعيا مثل مروج لونبيرج فى شمال ألمانيا والمرتفعات البريطانية ، فى حين أن الدواجن كانت تربى بأعداد كثيرة فى معظم المزارع .

وهنا يمكن أن نلمس الاختلاف الرئيسى بين الزراعة المختلطة وزراعة البحر الأبيض الكلاسيكية وذلك فى أن العلاقة بين المحصولات والدواب فى الأولى كانت أوثق مما فى الأخيرة وعلى الرغم من أن المزارع فى النظام الأخير كان يقوم بزراعة الحبوب ورعى الحيوانات فى آن واحد لم تكن هناك ثمة علاقة أو رباط بين الاثنين لأن المهنتين كانتا تمارسان منفصلتين عن بعضهما البعض فى حين أننا نجد ارتباطا وثيقا بين الدواب والزراعة فى الزراعة المختلطة لأن المواشى هى التى كانت تمد الأرض بالسماد لتحافظ على خصوبتها وهى التى تقوم بعمليات الزراعة مثل الحرث وتبعا لذلك فإن بعض محصولات الحقل مثل الشعير والشوفان كانت تطعم للدواب كما أن مساحات واسعة من الأرض كانت تخصص لمروج لترعى فيها .

ولكن هذا الاختلاف لا ينفى وجود بعض التشابه بين النظامين الزراعيين ، ففى كلتا الحالتين كانت هناك أرستقراطية مالكة للأرض تسيطر على الفلاحين الأجراء كما أن المزارع الفردية كانت صغيرة ومجزءة . وكانت الزراعة غير متخصصة إنما تنتج للاكتفاء الذاتى مما يحد من تطلعات المزارعين نحو حياة أفضل . وفى كلا النظامين أيضا ظهرت طبقة من الفلاحين غير المتعلمين فى معزل من تأثير الابتكارات الحديثة التى اجتاحت المدن .

ولكن كما حدث فى زراعة البحر المتوسط فإن الزراعة المختلطة قد تعرضت لتغييرات وتطورات فى أكثر من ناحية . فقد تم استجلاب أنواع جديدة من المحاصيل إثر عصر الاكتشافات الذى أحدث احتكاكا حضاريا بين الأوروبى والأراضى المكتشفة . فقد أحضر البطاطس الأبيض (أو البطاطس الأيرلندى) والذى استأنسه هنود أمريكا إلى أوروبا فى أوائل القرن السابع عشر ونال قبولا واسعا عند

مزارعى المنطقة فى القرن الثامن عشر خاصة فى ألمانيا وأيرلنده وبولنده . وفى بعض الأقطار اكتسب البطاطس أهمية كبرى ليس كمحصول غذائى رئيسى فحسب بل كعلف للحيوان ومصدر للمشروبات الكحولية أيضا . فقيمة البطاطس الفعلية تكمن فى قدرته على إنتاج كميات كبيرة من الطعام من مساحة أرض صغيرة حتى فى المناطق الباردة الكثيرة الغيوم . ولهذا يعتبر إدخال البطاطس كمحصول غذائى فى أوروبا نقطة تحول تاريخى لأن الاعتماد على هذا المحصول المدهش قد أصبح حيويا إلى درجة أن فشله فى أربعينات القرن التاسع عشر أدى إلى مجاعات أيرلندة المشهورة التى دفعت آلافا منهم إلى الهجرة إلى أمريكا والأراضى الجديدة .

أما المحصول الثانى الذى أدخل من أمريكا إلى أوروبا فهو الذرة الشامية التى أصبحت تشكل العلف الأساسى للدواب فى الأجزاء الجنوبية الدافئة من نطاق الزراعة المختلطة التى تشمل منطقة البلقان وشمال أيبريا ووادى نهر البو وأجزاء جنوب فرنسا . أما كمحصول غذائى فالذرة الشامية لم تجد الرواج إلا فى شمالى إيطاليا ورومانيا فقط ولو أن البلغاريين والمجريين قد استخدموها فى غذائهم فى حالات طارئة . وهناك منطقتان لم تنل الذرة فيها قبولا عند المزارعين : منطقة البحر الأبيض بصيفها الجاف ، ومنطقة الساحل الغربى المعتدل لعدم تناسبها للظروف المناخية الرطبة الباردة . أما أكثر المناطق ملاءمة لزراعة الذرة فهى تلك التى يسود فيها المناخ القارى وشبه المدارى ذات الصيف الدافىء الرطب .. مثل منطقة البلقان التى تجد فيها ما يماثل نطاق الذرة الشامية فى الولايات المتحدة .

أما مجالات التغيير الأخرى فقد شملت تكثيف استغلال الأرض لغرض الزيادة فى انتاجيتها ولتحقيق ذلك أخذ المزارع يتخلص تدريجيا من الأرض البور واختفى نظام الدورتين والثلاث دورات الزراعية مما أدى إلى زيادة ملحوظة فى رقعة الأرض المزروعة كما فى إنتاج المحصولات الغذائية . فقد كانت الأرض البور مصدر مشاكل للمزارع لأنها كانت تختنق بالحشائش والأعشاب الضارة ما لم يفلحها المزارع باستمرار . وفى بعض المناطق كان محصول اللفت يزرع فى الأرض البور مما يتطلب العزق المستمر للحفاظ بالحقل نظيفا من الحشائش الضارة ، فى حين أن نظاما

متطورا من الدورة الزراعية مثل نظام « نورفولك الرباعى » الذى يتضمن اللفت أخذ يمارس فى هذه المناطق ، كما أدى انتشار زراعة أنواع البرسيم المختلفة إلى تحسين واضح فى نوعية المراعى والأعلاف فى حين أن الزيادة فى زراعة اللفت وسكر البنجر نتج منها تنوع واضح فى كمية علف الدواب .

وتقلصت مساحات الكلأ الطبيعى وزرعت مناطق الرعى القديمة بالمحصولات مما أدى إلى زيادة ملحوظة فى أنواع العلف وكذلك فى عدد الحيوانات . وبدلا من أن تترك الدواب تتجول فى المرعى والغابات كما كان معهودا فقد أخذت تربط داخل حظائر وتطعم فيها مما أتاح جمع السماد بصورة أفضل وهذا بدوره ساعد فى التخلص من الأرض البور . وأثمر الاتجاه نحو تشجيع وتحسين نوع الماشية بالاستيلاء الموجه فى ظهور أنواع جيدة من الحيوانات .

ورغم أن السماد الكيميائى طور فى ألمانيا فى أوائل القرن التاسع عشر فما زال معظم المزارعين يفضلون استخدام السماد العضوى المشتق من مزج وخلط روث البهائم وأوراق الشجر الميتة (compost) لتسميد الأرض وقد أصبحت ركامات الروث هذه من معالم القرى الريفية فى ألمانيا وغيرها من الدول .

كل هذه التغييرات كونت معا ما سمى بالثورة الزراعية التى لعبت انجلترا فيها أيضا دورا قياديا . وقد حدثت هذه التغييرات فى شكل حلزونى : إزالة الأرض البور – زيادة فى إنتاجية محصولات العلف – زيادة فى عدد الدواب – زيادة فى السماد العضوى – زيادة فى خصوبة الأرض – زيادة فى إنتاجية محصولات العلف ... الخ ..

وكما فى منطقة البحر المتوسط فقد حدثت تغييرات هامة فى ملكية الأرض فى منطقة الزراعة المختلطة ولو أن التعديل قد اختلف من جزء إلى آخر فى المنطقة . ففى غربى أوروبا كان هناك تقدم مضطرد نحو تمليك الأرض للفلاحين فى الفترة ما بين عامى ١٦٥٠ و١٨٥٠ مع التخلص التدريجى من الأرستقراطية المالكة . وقد سلك هذا الانتقال طرقا متعددة لكن تتابع الأحداث فى وادى نهر البو فى شمال إيطاليا يمكن أن يوضح لنا مسار هذا الانتقال . فهنا ألزم القانون ملاك الأرض بدفع كل

تكاليف الإصلاح والتحسين الذى قام به الفلاح المؤجر للأرض عندما تنتهى فترة إيجار الأرض وإذا تقاعس المالك عن تنفيذ ما نص عليه القانون فعليه أن يجدد عقد الإيجار بدون أى زيادة . أما التحسينات المشار إليها فقد كانت تتضمن إزالة الأشجار وصرف المستنقعات أو إقامة مشروع رى أو إدخال وسائل الرى . ولأن الملاك كانوا يجبرون بدفع تكاليف هذه المشاريع بدون أى تأخير ونظرا لأن هذه التكاليف كانت دائما باهظة كان المالك لا يجد مخرجا إلا بتجديد عقد الإيجار وبدون زيادة عن الإيجار السابق . وهكذا بقى الإيجار ثابتا بينما خفض التضخم قيمته النسبية حتى أصبح فى إمكان الفلاح شراء الأرض وامتلاكها . أما فى شرق أوروبا فقد دامت الأرستقراطية مدة أطول ولذا لم تتح الفرصة إلا لقليل من المزارعين لامتلاك الأراضى التى كانوا يزرعونها . وبقيت ملامح الاسترقاق الإقطاعى فى منطقة الصقالبة وألمانيا الشرقية حتى القرن الحالى . وربما كان لاستمرار هذه الظاهرة مدة أطول دور فى أن يتسم حل مشكلة ملكية الأرض فى هذا الجزء من أوروبا بطابع العنف المتطرف : فقد تمت عملية التصفية النهائية للأرستقراطية المالكة بواسطة الشيوعية الحاكمة التى كسبت تأييد الفلاحين مبدئيا بوعدهم بأن ملكية الأرض ستؤول إليهم . ففى ألمانيا الشرقية حدثت حملة مماثلة فى ١٩٤٦ تحت شعار « أرض الأرستقراطية للفلاحين » وفعلا قامت الحكومة بتمليك الأرض للفلاحين لتصادرها بعد فترة وجيزة وتحيلها إلى مزارع دولة ومزارع جماعية . فالمزارع الجماعية تشمل مجموعة من المزارعين يعملون كوحدة يدفعون الإيجار للدولة ويتقاسمون الأرباح فيما بينهم . أما فى مزارع الدولة فالمزارعين عبارة عن موظفى دولة برواتب يعملون بأجور محددة فى مزارع حديثة ويقومون بتسليم كل المحصول للحكومة . ويسود هذان النوعان من المزارع فى جميع الدول الشيوعية ما عدا يوغسلافيا وبولنده اللتين سمحتا ببقاء الملكية الفردية . ويمكن أن نأخذ فكرة عن السرعة التى تمت بها تحويل الحقول إلى مزارع جماعية فى ألمانيا الشرقية حيث تقلص عدد المزارع الخاصة من ٩٣٪ فى ١٩٥٢ إلى ٧٪ فى ١٩٦٠ فى حين أن يوغسلافيا تركت أكثر من ٩٠٪ من مزارعها تحت الملكية الخاصة .

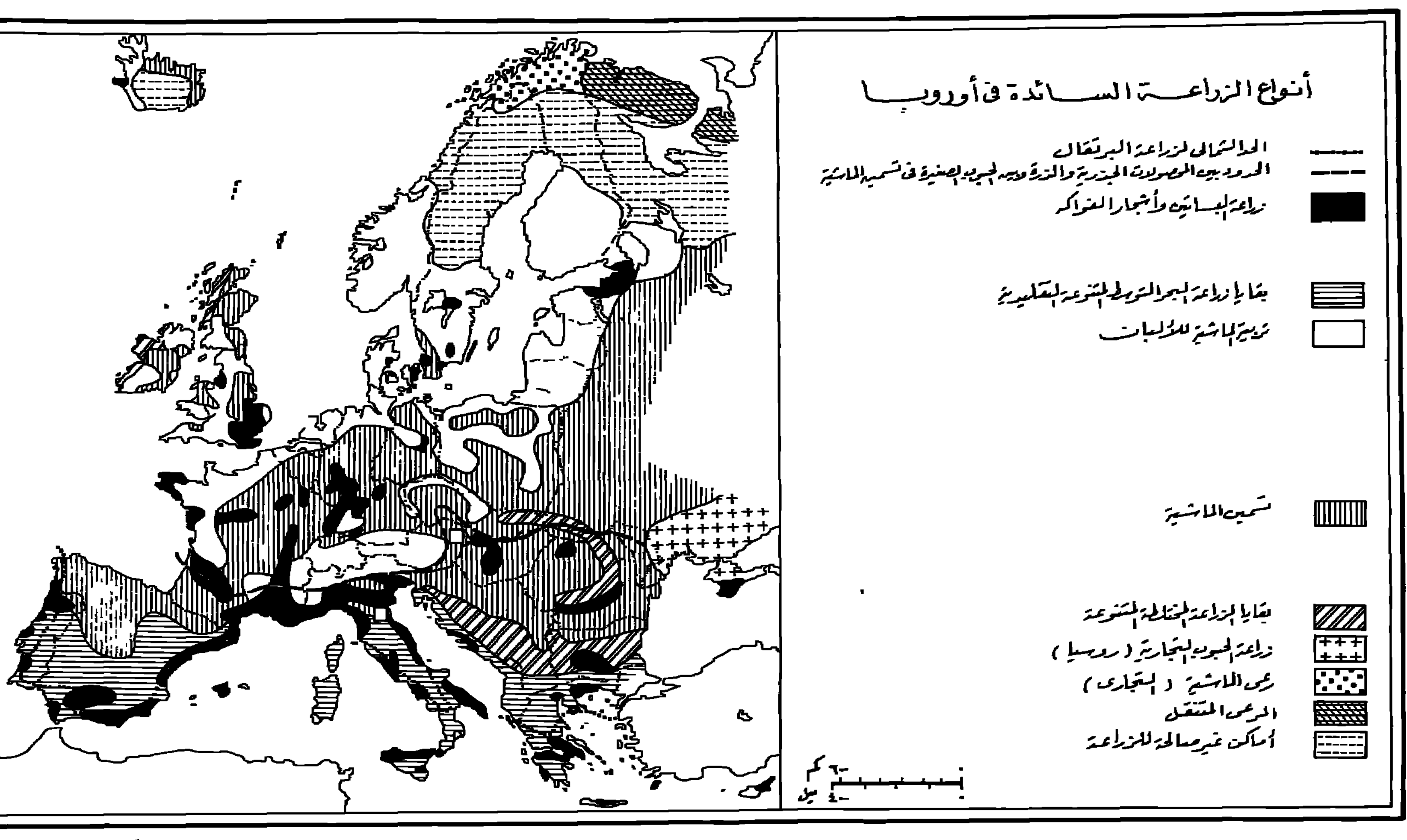
ومنذ حوالى عام ١٩٥٠ جلبت الميكنة المتزايدة للعمليات الزراعية تغييرات هامة

فى الزراعة المختلطة التقليدية . ففى أوروبا الغربية زاد عدد ماكنات الحصد والدرس ثلاث عشرة مرة فى الفترة ما بين ١٩٥٠ و١٩٦٠ والمكنات سبعة أضعاف والتركتورات ثلاثة أضعاف ، وإن كنا مازلنا نرى المحاريث التى تجرها الثيران والعربات التى تجرها الخيول فى بعض المناطق فهذه الظاهرة فى طريقها إلى الاختفاء السريع خاصة فى غربى أوروبا .

ظهور التخصص الزراعى : (الشكل ٥٣) .

كما حدث فى إقليم البحر المتوسط فإن التغييرات البعيدة الأثر فى الزراعة المختلطة جاءت نتيجة التركيز على التخصص والتتجير مما أدى نهائيا إلى تحطيم كثير من ملامح الزراعة التقليدية المتنوعة . وفى بعض الحالات نجد بعض مظاهر الزراعة التقليدية غير المهمة قد أوليت اهتماما لتصبح مرتكزا لاقتصاد موجه نحو التجارة . أما الاتجاه نحو التخصص فى الزراعة بغرض التجارة فقد بدأ فى أواخر العصور الوسطى وبداية العصر الحديث ولكن التقدم الفعلى فى هذا الاتجاه لم يحدث إلا فى القرنين التاسع عشر والعشرين . وقد كان هذا التطور فى البداية متواضعا وظهر فى نطاقات صغيرة متناثرة تتميز بزراعة مكثفة ومتخصصة فى إنتاج الخضر لبيعها فى السوق مثل الأراضى المنخفضة (وتشمل زيلند وهولنده وفلاندرز) والأقاليم القريبة من مدينتى ميلانو والبندقية فى سهل البو ، وحول باريس ولندن ومدن وادى نهر الراين وبعض المناطق الحضرية وكان الحافز الرئيسى وراء هذا الاتجاه هو ظهور المدن أثناء الثورة الصناعية .

وكان على الخبراء الزراعيين اختيار أنواع خاصة من المحاصيل ينافسون بها الدول الأجنبية المصدرة لهذه المحصولات . وقد وضح لهم أن زراعة الحبوب الغذائية على أساس تجارى ليس بمربح خاصة فى وجه المنافسة الشديدة من مناطق القمح الشاسعة فى الأمريكتين وروسيا وأستراليا . وحتى الاتجاه فى بعض المناطق نحو التخصص فى زراعة بعض الحبوب قبل بدء فترة المنافسة التجارية فى هذا المجال أخذ يتضاءل . فمثلا اشتهرت مناطق بيوس فى فرنسا فى بداية القرنين السابع والثامن عشر بمزارع القمح الكبيرة ، واتجه المزارعون فى ألمانيا والدنمارك لزراعة الحبوب


أنواع الزراعة السائدة فى أوروبا
الحد الشمالى لزراعة البرتقال
الحدود بين المحصولات الجذرية والذرة وبين الحبوب الصغيرة فى تسمين الماشية
زراعة البساتين وأشجار الفواكه
بقايا زراعة البحر المتوسط المتنوعة التقليدية
تربية الماشية للألبان
تسمين الماشية
بقايا الزراعة المختلطة المتنوعة
زراعة الحبوب التجارية (روسيا)
رعى الماشية (التجارى)
المرعى المتنقل
أماكن غير صالحة للزراعة
٦٠٠ كم
٤٠٠ ميل

شكل (٥٤)

الغذائية فى بداية القرن التاسع عشر. ولكن رؤى أن هذا النوع من التخصص لا مستقبل له فى الاقتصاد الريفى ومن ثم ظهر تطور واضح فى اتجاه تربية أبقار الألبان وتسمين الماشية وزراعة الخضروات والفواكه والزهور للتسويق . وكان من العوامل التى أدت إلى نهاية زراعة الحبوب على أساس تجارى فى المملكة المتحدة تلك القوانين المسماه بـ « Corn Laws » والتى سنت فى ١٨٤٦ والتى بموجبها أزيلت كل القيود المفروضة على استيراد الحبوب من الخارج . وقد كان التخصص فى المجالات الآتية : (الشكل ٥١ و٥٣) :

١ – صناعة إنتاج اللبن والزبدة والجبن :

فى كثير من أجزاء منطقة الزراعة المختلطة أخذت أبقار اللبن تهيمن على الزراعة وأخذت منتجات الألبان تشكل أهم مجال للتخصص بالنسبة لمعظم المزارعين . وتمتد منطقة مزارع الألبان الأوروبية حول شواطىء بحر الشمال وبحر البلطيق وتشمل معظم الجزر البريطانية وفرنسا الساحلية والأراضى المنخفضة ، وشمال ألمانيا والأراضى الأسكندناوية : وخارج هذا الحزام نجد مناطق أخرى فى الجنوب تتخصص فى منتجات الألبان مثل منطقة جبال الألب فى سويسرا والنمسا . ويمكن أن نعزو أسباب تخصص هذه المناطق فى صناعة الألبان ومنتجاتها إلى الآتى :

١ – كانت الشعوب الجرمانية تفضل ألبان الأبقار ومنتجاتها التى كانت تكون جزءا أساسيا من غذائها .

٢ – تحتل منطقة مزارع تربية الماشية للألبان تلك الأجزاء من شمال غرب أوروبا التى تتمتع بمناخ بارد وملبد بالغيوم يناسب المراعى وزراعة الحشائش لحصدها وتجفيفها أكثر من ملاءمته لزراعة محاصيل الحقل مثل القمح .

٣ – أما مناطق الألب المتضرسة ومنحدراتها فهى أصلح لزراعة الحشائش وحصدها أكثر من زراعة الحبوب وهناك مساحات شاسعة من مراعى الجبال المسمى بألمين Ilmen تقع على مرتفعات عالية لا يمكن زراعتها ولكن يمكن الاستفادة منها فى إطعام الدواب .

٤ - بالإضافة إلى هذه العوامل الطبيعية والحضارية فقد أثر توزيع السكان فى

تحديد موقع هذه المزارع . فالألبان ومنتجاتها تعتبر من المنتجات السريعة التلف ولهذا يجب تسويقها بسرعة خوفا من فسادها وليس من قبيل الصدفة أن نرى منطقة المزارع هذه تحاذى أو تطابق فى بعض الأحيان ، حزام الكثافة السكانية العالية والتى تمتد عبر شمال وأواسط أوروبا وتتضمن نسبة عالية من المراكز الحضرية والمناطق الصناعية الأوروبية .

ويمكن أن نرجع هذا الاتجاه نحو التخصص فى تربية الأبقار لإنتاج الألبان فى بعض أجزاء شمال أوروبا إلى العصور الوسطى . ففى انجلترا مثلا اشتهرت مقاطعتا أسكس وسفولك الشرقية المطلتان على ساحل بحر الشمال والقريبتان من مدينة لندن بتربية الأبقار للألبان منذ هذه الفترة . وفى أوائل القرن السابع عشر انتشر هذا النوع من الزراعة إلى مقاطعتى هيرتفورد وبكنجهام وبعض أجزاء المنطقة الوسطى (الميدلاندز) وكانت المزارع الهامشية هى التى تتخصص فى انتاج الجبن لسهولة حفظه لمدة أطول فى حين أخذت المزارع القريبة من لندن تتخصص فى انتاج الألبان لسرعة تسويقها فى هذه المراكز الحضرية . وفى نفس هذه الفترة أخذت بعض مقاطعات فرنسا تتخصص فى إنتاج الألبان كمقاطعات نورماندى على الساحل وبرى قرب باريس . ونجد نفس هذا الاتجاه فى بعض أجزاء الأرض المنخفضة وفى القرن التاسع عشر انتشر هذا النوع من الزراعة ووصل إلى حدودها الحالية وقد ساعد فى هذا الانتشار التطور الذى طرأ على وسائل النقل الحديثة . كما حلت مزارع الألبان محل مزارع القمح فى بعض الأقطار كما فى الدنمارك .

ومنطقة مزارع الألبان هذه لها أهمية تجاوزت حدود أوروبا الحالية وامتدت فوائدها إلى أقطار أخرى . فالتطورات التى حدثت فى هذه المنطقة كانت لها آثارها البعيدة فى اقتصاديات المناطق التى نزح إليها الأوروبيون مثل أمريكا الشمالية ونيوزيلنده وأستراليا حيث تم إنشاء مزارع تربية الماشية . ومثلا فإن معظم أنواع أبقار الألبان الموجودة فى هذه المناطق مشتقة فى الأساس من أبقار منطقة مزارع الألبان الأوروبية ، فأسماء هذه الأبقار تحمل إشارة إلى مصادرها الأولية : فالجيرسى Jersey والجيرنزى Guernsey تحملان أسماء الجزيرتين البريطانيتين الواقعتين فى

القنال الإنجليزى بين بريطانيا وفرنسا . أما صنف أيرشير فقد طور فى مقاطعة أير الأسكتلندية أما الفريزيان – الهولشتاين Frisian-Holistein فهو مشتق من الفريزلند Friesland فى شمال هولندا والمحافظة الشمالية الألمانية .. أما البراون سويس Brown Swiseفتأتى أصلا من محافظة Schwiz فى أواسط سويسرا . أما صنف كيرى Kerey الأقل إنتشارا فيرجع أصلها إلى مقاطعة كيرى الأيرلندية وكذلك صنف الدتش بلتيد Dutch Belted يوحى بالمنطقة التى نشأت فيها . وبطريقة مماثلة نجد أن أشهر أصناف الجبن فى العالم تأخذ أسماءها من مدن منطقة مزارع الألبان الأوروبية مثل أيدام Edam الهولندى ، ومنستر Munster من شمالى ألمانيا « وكممبرت من نورماندى الفرنسية » وغرويرز » من المنطقة الفرنسية من سويسرا « وتلسيت » (حاليا Sovietsk) من بروسيا الشرقية وكثير مثلها .

وكان للقرار الاقتصادى للتخصص فى مجال الزراعة لإنتاج الألبان دور كبير فى إحداث تغيرات جذرية فى استخدام الأرض ، فقد توسعت المساحات المخصصة للحشائش على حساب الأراضى المخصصة لزراعة الحبوب التى تقلصت فى مساحتها أو اختفت نهائيا فى بعض المناطق كما ازدادت الرقعة المزروعة بحبوب العلف مثل الشعير والشوفان على حساب الحبوب الغذائية مثل القمح والجودار . ورغم أن بعض المحصولات الجذرية مثل البنجر يزرع فى بعض المناطق كعلف للبهائم فإن الحشائش والمروج التى تشكل المنظر السائد فى منطقة مزارع الألبان ما زالت تشكل المصدر الرئيسى لغذاء هذه الحيوانات .

ورغم هذه التغييرات فإننا نلاحظ تناقضا إقليميا واضحا فى هذه المنطقة من حيث نوع الإنتاج والكثافة الزراعية . فالدنمارك التى تتخصص فى إنتاج الزبدة وتساهم بـ ١٦٪ من الزبد الذى يدخل التجارة العالمية ، تعتبر من أكثر الدول تطورا فى هذا المجال فالمزارعون الدنماركيون أعضاء فى جمعيات تعاونية الغرض الرئيسى منها تسويق المنتجات وأيضا لغرض التنظيم الجماعى لمصانع الزبدة والجبن ، ولكن الأرض والماشية ما زالتا تملك ملكا فرديا فكل رزمة من رزم الزبد تحمل ختم أو شفرة المؤسسة التعاونية والمزارع حتى إذا اشتكى بائع من نوعية صنف معين يسهل توجيهه

إلى المتجين المسئولين عن المزارعين حتى يتسنى تغريمهم ، وهذا النظام الدقيق أدى إلى تجويد المنتجات الدنماركية حتى أصبحت الزبدة ولحوم الخنزير الدنماركية تتمتع بشهرتها العالمية المعروفة . أما فى هولندة فالاهتمام موجه لإنتاج الألبان وأصناف الجبن الجيدة ، فهى تقوم بإنتاج ٢١٪ من الجبن الذى يدخل التجارة العالمية و $\frac{1}{4}$ الإنتاج من اللبن المكثف أو المجفف . أما بريطانيا فهى من الدول المتقدمة فى هذا المضمار وتتخصص فى تسويق اللبن الطازج . أما المناطق الجبلية من سويسرا والنمسا والنرويج فقد عرفت مزارع الألبان منذ مدة طويلة . وهنا تساق أبقار الألبان إلى المراعى الجبلية العالية فى فصل الصيف حيث يقوم الرعاة الذين يسكنون فى أكواخ صغيرة بحلب الأبقار ويصنعون الجبن الذى يجمع فى أوقات منظمة وتؤخذ للأسواق . وفى هذه الأثناء يقوم زملاؤهم فى الأودية بزراعة العلف ويقطعون الحشائش لتخزينها لفصل الشتاء حين يعود الرعاة بقطعانهم إلى المزارع لقضاء فصل الشتاء البارد فى حظائر . وعملية التحرك الرأسى بين مراعى الصيف العالية والمزارع فى بطون الأودية تقلل من إنتاجية الأبقار ولكن أمكن التغلب على هذا الأثر جزئيا بنقل الماشية بالعربات بين مناطق الرعى . أما فى النرويج لم يعد لهذا النظام أهمية فى الآونة الأخيرة فالرعاة عادة ما يتركون قطعان الماشية فى عناية عوائلهم ليتفرغوا هم لأعمال أخرى مثل صيد الأسماك وقطع الأخشاب .

٢ تسمين الماشية :

أما خارج نطاق مزارع الألبان ومزارع العصور الوسطى المختلفة كان اتجاه التخصص نحو تسمين الماشية الذى كان يمثل جزءا مهما من النظام التنوعى الأصلى آنذاك . وحاليا يتخصص معظم المنطقة جنوب مزارع الألبان وشمال البحر الأبيض المتوسط فى تسمين الأبقار والضأن والخنزير وتمثل هذه الحيوانات المسمنة أهم سمات النظام الزراعى فى هذه المنطقة . وقد بدأت أجزاء من بريطانيا – خاصة انجليا الشرقية وليسترشير – تتخصص فى هذا المجال منذ بداية القرن السابع عشر كما حدثت تطورات مماثلة فى نفس الوقت فى أجزاء من ألمانيا وهولنده ولكن التقدم الحقيقى فى هذا المضمار لم يحدث إلا بعد نمو الأسواق الحضرية فى القرن التاسع عشر

أما فى مناطق التسمين فقد حلت زراعة علف الماشية محل إنتاج المحصولات للاستهلاك البشرى مما أدى إلى ظهور تباين إقليمى واضح فى اختيار محاصيل الحقل . فالى الجنوب من خط فاصل يمر عبر شبه جزيرة البلقان والحافة الجنوبية لجبال الألب مارا بجنوب فرنسا تحتل الذرة الشامية الصدارة كعلف للماشية كما فى الذرة الأمريكى فى حين أنه إلى الشمال من هذا الخط تسود الحبوب الصغيرة والمحاصيل الجذرية مثل الشعير والشوفان والبطاطس والبنجر . وفى ألمانيا مثلا فإن ٧٠٪ أو أكثر من حصاد البطاطس يستخدم كعلف للبهائم .

وكما أعطت منطقة إنتاج الألبان الأسماء لأنواع عديدة من الماشية وأصناف الجبن فأن منطقة تسمين الماشية أيضا قد تركت آثارها فى أسماء اللحوم والسجق . ومثلا نجد أسماء مثل « ثورنقر » ، « وبراون شفايقر » ولحم «وستفاليا » (وهو لحم بقرى فى الأصل) مشتقة من أسماء محافظات ألمانية تقع داخل منطقة تسمين الماشية فى حين أن أسماء مثل « فرانكفورتر » « وفيينا » « وبولونيا » تحمل أسماء مدن موجودة فى هذه المنطقة أيضا .

٣ – الزراعة التسويقية :

أما الاتجاه الآخر فى التخصص فى منطقة الزراعة المختلطة فيتمثل فى نمو الزراعة التسويقية كما كان الحال فى منطقة البحر الأبيض المتوسط .. ففى النظام الزراعى المختلط المتنوع كانت حديقة الخضروات والبستان تكونان ملحقات مهمة للمحاصيل الحقلية ومنهما حدث التخصص فى انتاج فواكه وخضروات المناطق المعتدلة . وحينما ظهرت أسواق حضرية كبيرة اكتسبت حديقة الخضروات الصغيرة أهمية كبرى وأخذت تتوسع على حساب حقول المحاصيل الأخرى حتى احتلت تدريجيا الصدارة فى النظام الزراعى المختلط . ورغم الأهمية الاقتصادية لهذا النوع من الزراعة فإن المساحات التى يحتلها صغيرة لدرجة أنه من الصعوبة بيانها على الخرائط التى توضح أنواع الزراعة الحديثة .

وتختلف منتجات الزراعة التسويقية من منطقة لأخرى وتتضمن مثلا التفاح (لانتاج شراب السايدر فى غرب فرنسا) والبرقوق (الخوخ) والكمثرى والتبغ والكرز وأنواع من الخضروات والزهور (لإنتاج الحبوب) كما فى بعض أجزاء

الأراضى المنخفضة : فحقول الزنابق المزهرة فى بلجيكا وهولندة من المناظر الجميلة التى لا تنسى .

بدأت هذه المساحات الصغيرة ذات الزراعة الكثيفة لإنتاج الخضروات والفواكه فى الظهور فى أواخر العصور الوسطى فى وادى نهر البو فى إيطاليا ومنطقة الفلاندرز وفى المناطق التى شهدت تطور المراكز الحضرية . وبحلول القرن السابع عشر ظهر النمط الحديث لهذا النظام الزراعى فى هولنده بصورته الحالية فى حين أن معظم المزارع التسويقية ظهرت مع الثورة الصناعية فى إنجلترا ثم فى باقى أوروبا مع انتشار آثار هذه الثورة إليها . وتسبب قبول هذا النوع من الزراعة كمجال للتخصص فى إحداث تغييرات جذرية فى أسلوب الزراعة فى المناطق المعنية . فقد تقلصت إعداد البهائم أو اختفت كلية من مثل هذه المزارع وأخذت المراعى والمروج والحبوب الصغيرة طريقها إلى الزوال ، وتحولت المزرعة نهائيا إلى حديقة أو بستان كبير .

٤ – المزارع التجارية لإنتاج الحبوب :

رغم أن معظم مزارعى الزراعة المختلطة وجدوا أن التركيز فى إنتاج الحبوب الغذائية لغرض التجارة غير مربحة نظرا للمنافسة الشديدة من الدول المنتجة الأخرى وآثروا التخصص فى المجالات التى ذكرناها آنفا فإننا نجد أن هذا لم يمنع تطور هذا النوع من الزراعة فى بعض الأجزاء الهامشية من أوروبا كما فى سهول أكرانيا السوفيتية التى اشتهرت بإنتاج القمح . ومع ازدياد أهمية هذا المحصول فى هذه المنطقة واحتلاله الصدارة فى الانتاج أخذت أعداد البهائم تقل واختفى نهائيا نظام الدورة الزراعية الثلاثية والدورات الأخرى وحرثت مناطق الرعى والمروج وزرعت قمحا وأفسحت حبوب العلف المكان لحقول القمح الواسعة ، وهكذا بقيت أكرانيا منطقة متخصصة فى زراعة القمح فى حين أن مزارع الحبوب التجارية فى أجزاء أوروبا الأخرى أخذت تفسح المجال لأنواع من الزراعة الكثيفة فى أواخر القرن التاسع عشر.

ج : زراعة الكروم المتخصصة التقليدية شمال البحر المتوسط (الشكل ٥١و٥٢)

كانت زراعة العنب تكون أحد العناصر الأساسية فى الزراعة الكلاسيكية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ومن ثم أصبحت زراعة الكروم تكون أساس الزراعة

التسويقية فى كثير من المقاطعات الجنوبية كما فى مقاطعة دوروDuoro فى البرتغال .
ولكن زراعة الكروم لم تقتصر على منطقة البحر الأبيض فقط بل انتشرت شمالا منذ عصر الإمبراطورية الرومانية . وبحلول القرن الرابع الميلادى كانت الكرمات قد أنشأت فى رواق الرون - ساون فى شرق فرنسا والتى تتضمن إقليم Cota d'Or المشهورة بإنتاج العنب حاليا فى برقندى ، وأيضا حول مجرى نهر اللوار كذلك فى أجزاء أكثر شمالية مثل أودية موزيل قرب المدينة الألمانية الحديثة ترير . وفى القرون التالية ساعدت حاجة الكنيسة المسيحية للنبيذ فى طقوسها الدينية فى التوسع فى زراعة الكروم فى أودية أنهار الراين ونيكر ومين فى ألمانيا الغربية كما تمت محاولات فى إدخالها فى بعض المقاطعات مثل الفلاندرز وجنوب شرق بريطانيا وشمال ألمانيا ولكنها باءت بالفشل لأسباب مناخية . وقد شجع الحكام الفرنجة انتشار مزارع الكروم فى ممتلكاتهم العديدة للحصول على عوائد أكبر من الأرض .

وقد اختلفت زراعة الكروم فى المنطقة الشمالية من مصدرها فى حوض البحر المتوسط وأيضا من الزراعة المختلطة المجاورة لها . وعلى عكس النظام التقليدى السائد فى منطقة البحر الأبيض فهذه الأجزاء الشمالية تخصصت فى إنتاج الكروم فقط وخاصة عنب النبيذ لأن الزبيب وعنب الطاولة لم يكن بذى أهمية هنا . ومنذ البداية اتجهت زراعة الكروم فى الشمال نحو التخصص فى مجال الإنتاج التجارى مما يتطلب درجة عالية من المهارة والرعاية . وبقيت وسائل الزراعة والخبرة المكتسبة فى العائلة يتوارثها الابن من الأب أو جيل الرهبان من جيل لآخر وظلت الكرمة فى ملكية العائلة الواحدة لقرون عديدة . وكان تجار الخمور غير خاضعين لقيود إقطاعية وهكذا كونوا طبقة وسطى صغيرة لكنها غنية وسط مجتمع إقطاعى غريب .

وفى العصور المظلمة جاهدت الأديرة المنتشرة فى ألمانيا الغربية وفرنسا فى إبقاء زراعة الكروم حية رغم ما أصابها من تقلص ، ولكن مع إحياء الطرق التجارية وإعادتها بين مختلف مناطق غرب أوروبا دبت الحياة فى هذه الصناعة من جديد واكتسب نبيذ شمبانيا وبرقندى والراين وموزيل شهرته العالمية من خبرة متوارثة تمتد عبر ١٥٠٠ سنة أو أكثر .

أما الاختلاف الثانى مع زراعة الكروم فى البحر المتوسط فيتمثل فى اختيار أو تعيين موقع الكرم . ففى جنوب أوروبا توجد الكرمات فى السهول والمنحدرات على السواء فى حين أنها فى شمال الألب توجد فى مصاطب على منحدرات التلال حيث الفرصة أحسن للاستفادة من أشعة الشمس . وإذا أخذنا الكلمة الألمانية للكرم نجدها تعنى حرفيا « تل أو جبل النبيذ » وهذه دلالة واضحة لمدى الارتباط أو العلاقة بالموقع على المنحدرات .. فبعض أجود أنواع النبيذ يأتى من المنحدرات المواجهة للجنوب مثل نبيذ « راينفاو » بالقرب من فرانكفورت وفيزبادن فى ألمانيا الغربية . ونسبة لاختلاف تعرض الشمس مع كل انحناءة أو انعطاف فى الوادى فقد يترتب على ذلك الحصول على أنواع مختلفة من النبيذ من حقول متجاورة . ولذلك فإن حقول العنب المشهورة وأحسن سنين التعبئة معروفة لدى خبراء النبيذ . ونسبة للتقلبات الجوية وظروف الطقس التى تختلف من سنة لأخرى فإن جودة النبيذ فى هذه المناطق الشمالية الهامشية تتقلب تبعا لذلك .

وفى وقتنا الحالى نجد أن مناطق زراعة الكروم العريقة قد اندمجت مع النظام الزراعى المتخصص فى ألمانيا وفرنسا وتقع تحت صنف الزراعة التسويقية والبستانية ولكن هناك فارق أساسى ألا وهو أن مزارعى الكروم هؤلاء هم ورثة خاصية زراعية عريقة ذات تقاليد ضاربة فى عمر الزمن وليست مشتقة حديثا من زراعة العصور الوسطى المختلطة .

أما وجود وغياب زراعة الكروم من مناطق عديدة شمالى البحر المتوسط فله علاقة وثيقة بنوع الشراب المفضل محليا . فعلى العموم يمكن أن نقول إنه متى وجد النبيذ فهو الشراب المفضل عد العامة كما فى فرنسا وجنوب غربى ألمانيا . أما خارج هذه المنطقة ، فنجد البيرة أو المشروبات الكحولية المصنوعة من الحبوب الصغيرة هى السائدة كما فى شمال ألمانيا وبفاريا والأراضى المنخفضة ودول اسكندناوة والجزر البريطانية وأقطار الصقالبة الشمالية .

د . الرعى المتنقل (الشكل ٥١و٥٣) .

أما النوع الأخير من أنواع الزراعة التقليدية فهو الرعى المتنقل الذى يسود فى

أقاصى شمالى بلاد إسكندناوه وفنلنده والمناطق المتاخمة من الاتحاد السوفيتى وسط المجموعة المعروفة باللاب Lapp[1] . والطريقة التقليدية التى يتبعها هؤلاء تشمل الآتى : تنقلات فصلية لقطعان الرنة الأليفة وانعدام كلى للحيوانات الأخرى والحبوب الزراعية والسكن فى خيام متنقلة تناسب حياتهم البدوية .

ويحصل رعاة اللاب من حيوان الرنة ما يحتاجون إليه من ضروريات الحياة من لحم وجلد للكساء وبناء مأواهم والعظم لعمل الآلات والمعدات . وكان هؤلاء الرعاة يقضون فصول الصيف ويرعون قطعانهم على حشائش التندرا فى منحدرات التلال الداخلية وأطراف السواحل الشمالية من منطقة اللاب التى تشمل أيضا بعد الجزر الواقعة قرب الساحل النرويجى . أما فى فصل الشتاء فإن قطعان الرنة تساق إلى حماية الغابات الصنوبرية التى تتخذ كمأوى للحيوانات من الرياح الباردة القارصة التى تجتاح إقليم التندرا المفتوحة . ثم يقضون فصلى الخريف والربيع فى الطريق من وإلى مناطق الرعى الصيفى فى التندرا . ولم يبد اللاب أى اعتبار للحدود الدولية وكانوا يتجولون بحرية تامة عبر ما يعرف اليوم بالنرويج والسويد وفنلنده والاتحاد السوفيتى .

وحتى هذا الركن النائى من أوروبا لم يكن فى منأى من التغيرات البعيدة المدى التى أثرت فى الاقتصاد الزراعى فى بعض أجزاء القارة . وقد خبر اللاب وكذلك حياتهم التقليدية تجارب جديدة وتغييرات جذرية حديثا كان من نتائجها تحطيم نظام الرعى البدوى ومنذ عام ١٨٥٢ بدأت المشاكل تحيق بهم وذلك عندما تم إغلاق بعض الحدود الدولية مما أجبرهم على تبنى جنسية دولة من الدول المعنية وأدى نهائيا إلى تمزيق كثير من طرق الهجرات الفصلية بين مناطق الرعى التى كانوا يرتادونها . ولتسهيل هذه الضائقة وصل السويديون والنرويجيون إلى اتفاق يسمح بمقتضاه لبعض اللاب السويديين باستخدام مراعى التندرا الصيفية فى النرويج مقابل السماح لعدد قليل من اللاب النرويجيين باستعمال الغابات السويدية كمأوى لقطعانهم فى فصل الشتاء . ولكن رغم هذا فإن عبور الحدود الدولية انتجاعا للمرعى نادر الحدوث الآن . ومن التغيرات الهامة التى بدأت حديثا فى هذه المنطقة تلك التى تشمل إقامة السياج أو الزريبة حول المألف أو مكان المرعى مما يؤدى إلى الفصل بين

قطعان مجموعات اللاب المتجاورة وينهى فى نفس الوقت نظام الرعى المفتوح التقليدى . وأحد هذه السياج الفاصلة يوجد فى موازاة الحدود النرويجية — الفنلندية ، كما تم إنشاء مثيلات لها داخل الدولة المعنية ، وقد عينت السويد حدودا داخل إقليمها ومنحت اللاب الأسبقية فى استخدام الأرض شمالى هذه الحدود . أما النرويج فقد أنشأت مكتبا خاصا للرنة تابع لوزارة الزراعة وينتمى رعاة اللاب إلى الجمعية الوطنية لرعاة الرنة اللابيين . ويطلب مكتب الرنة تقريرا سنويا بعدد الحيوانات كما يقوم بالإشراف على الهجرات بين المراعى ويطلب من كل صاحب قطيع توسيم قطعانها وتسجيل العلامة المميزة عند الحكومة ، كما تم تشييد سلخانات صحية وتجهيزات لتجميد اللحوم . وهناك محاولات لتسويق هذه المنتجات داخليا وخارجيا . وأهم تغيير فى حياة اللاب هو تخلى الكثير منهم عن مهنة الرعى واتخاذهم وظائف أخرى كصيد الأسماك والزراعة والتعدين والصناعات الأخرى .ولم يبق إلا جزء من المجموعة المسمى « بلاب الجبال » التى ما زالت تمارس مهنة تربية الرنة ، وحتى هؤلاء قد تخلوا عن سكنى الخيام المتنقلة فى سبيل أكواخ دائمة لكنها بائسة . واليوم نجد أن حياة التنقل قد اختفت تماما وحل محلها نظام التنقل الأفقى والذى يتطلب حياة مستقرة لخمسة أو ستة أشهر فى السنة ، والنتاج الأخير لهذه التغيرات هو أن ما يمارسه اللاب اليوم أقرب إلى تربية الماشية منه إلى الرعى المتنقل ، ثم اختفاء نظام الرعى التقليدى من مناطق كثيرة إلا التندرا السوفيتية النائية التى ما زالت تحتفظ به حتى اليوم .

العوامل التى تؤثر فى توزيع الأنماط الزراعية :

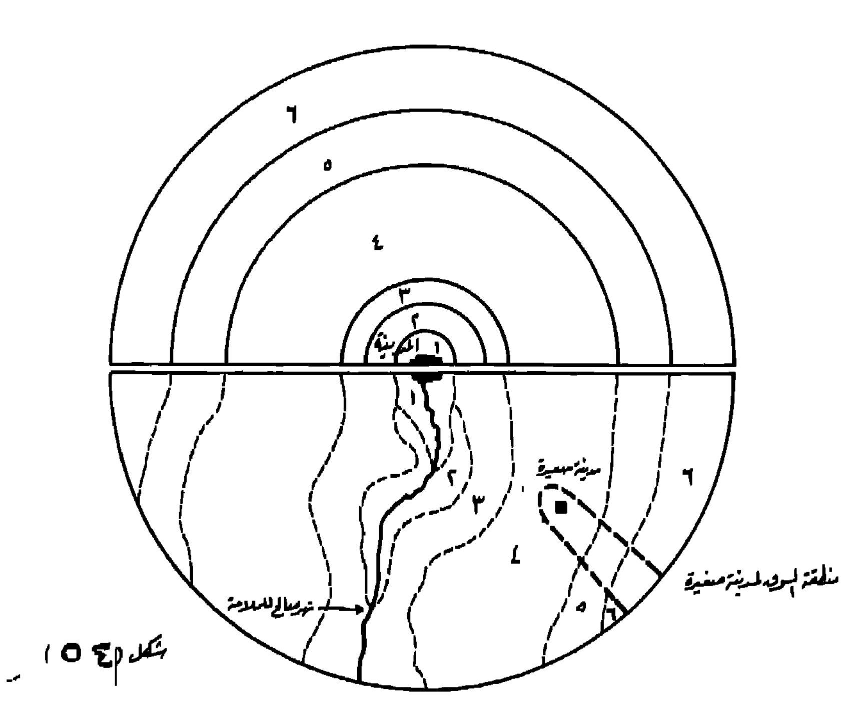
من هذه الدراسة يظهر لنا أن هناك أسبابا اقتصادية وحضارية وطبيعية قد أثرت فى نشأة وتطور الأنماط الزراعية التى تكلمنا عنها . فالدور الذى تلعبه عناصر المناخ والتربة والتضاريس قد سبق الإشارة إليه فى معرض الحديث عن أنماط الزراعة الأوروبية وأيضا عن العلاقة بين زراعة البحر الأبيض فى العصر الكلاسيكى وبين فصلية الأمطار مما أدى إلى التركيز فى زراعة الحبوب الشتوية واختيار أشجار الفاكهة للجفاف كما يتجلى أيضا فى المناطق الفقيرة المجدبة فى كثير من أجزاء أوروبا التى

تتخصص فى تربية الضأن فى حين أن المنحدرات تترك لنمو الحشائش والغابات ، وكذلك فى مزارع العنب شمالى منطقة البحر الأبيض المتوسط التى تزدهر على منحدرات التلال الأكثر تعرضا لأشعة الشمس وفى منطقة الألبان التى تطابق تلك الأجزاء التى تتميز بمناخ بحرى بارد ملبد بالغيوم ، أما إنتاج الزبيب فيعتمد أساسا على الأيام المشمسة الجافة التى تتبع فترة الحصاد فى حين أن منتجى الألبان السويسريين يعتمدون على الحشائش الجبلية لرعى حيواناتهم فى فصل الصيف .

وفى ممارسته لكل هذه الوسائل كان الإنسان يأخذ فى اعتباره ضروب البيئة الطبيعية فى اتخاذ قراراته الزراعية . وفى نفس الوقت أظهر الإنسان الأوروبى قدرته الخلاقة فى تطويع وتهيئة تلك البيئات غير الصالحة لتلائم احتياجاته : فقلة الأمطار أمكن التغلب عليها باللجوء إلى الرى الصناعى كما فى أحواض شرق أسبانيا كما استطاع رفع إنتاج التربات الفقيرة باستخدام الأسمدة الكيماوية وأخضع منحدرات المناطق المتضرسة للزراعة ببناء المصاطب عليها . وقد تمكن مزارعو الخضروات الأيسلنديون من استخدام مياه الينابيع الساخنة لتدفئة المنازل الخاصة حيث تزرع أنواع من الخضروات التى لم يكن فى مقدورهم زراعتها فى ظل الظروف المناخية الباردة التى تتميز بها الجزيرة .

ولكن أيضا هناك أسباب أخرى بشرية لها آثارها فى الزراعة ، مثل نظرية فون ثونين Von Thunen. وقد حاول كثير من العلماء تفسير أنماط استخدام الأرض على أسس اقتصادية ولكن فون ثونين كان من أوائل الذين كتبوا فى هذا الشأن . ففى عام ١٨٢٠م ظهر كتابه « Isolated State » الذى أصبح فيما بعد مثلا نموذجيا لنظرية تحديد الموقع ، رغم أن آراءه يمكن تصنيفها كمنهج تحليلى أكثر منه لشرح نظرية الموقع . وكان فون ثونين مقتنعا تماما بأن لتكاليف النقل والترحيل وموقع السوق تأثيرها الكبير على اتخاذ القرارات الخاصة باستخدام الأرض وليبرهن هذا بحث عن وضع مثالى يمكن تطبيق آرائه فيه ، وكان أن اقترح دولة افتراضية معزولة تماما ومحاطة بمنطقة مقفرة خالية من طرق النقل الرئيسية (الشكل ٥٤) . وفى وسط دولته الدائرية الشكل جعل مدينة تجارية أو مدينة وافترض أن المزارعين الذين

شكل يوضح مدينة فون ثونن المعزولة . الجزء الأسفل من الشكل يوضح أثر نهر صالح للملاحة ومدينة ثانية صغيرة على نمط استخدام الأرض



شكل رقم (٥٤)

انواع استخدام الأرض توضح التغيير الذى يطرأ عليها كلما ازداد البعد من المدينة المركزية على النحو التالى :

النطاق ١ : زراعة المحصولات وتربية الماشية وفق خصائص المناخ والتربة والطلب .

النطاق ٢ : غابات .

النطاق ٣ : زراعة مكثفة خالية من البور والمراعى (زراعة الدرنيات والبرسيم والحبوب والبقول فى دورات) .

النطاق ٤ : زراعة دورية تشمل الحبوب - الحشائش - بور (أى تترك الأرض بورا لسنة واحدة كل سبع سنوات) .

النطاق ٥ : نظام الثلاث دورات زراعية . حبوب وتترك الأرض بورا لمدة سنة واحدة فى كل ثلاث سنوات .

النطاق ٦ : رعى الماشية ويترك معظم الأرض تحت الحشائش .

ملحوظة : يجب تقييم هذا الشكل فى اطار الظروف الاقتصادية السائدة فى اوائل القرن التاسع عشر .

يعيشون على بعد متساو من المدينة يتساوون أيضا فى اتصالهم بها . ولم يول فون ثونين اهتماما لأية فروقات فى خصوبة التربة ولا فى غلة المحصولات كما اختار موقعا لدولته المعزولة فى أرض منبسطة خالية من أية معالم . ولتحقيق الهدف من دراسته افترض أيضا أن المزارعين جميعهم يزرعون لغرض تسويق منتجاتهم وأنهم لذلك سيبحثون عن الطرق التى بواسطتها سيجنون الأرباح الطائلة من الأرض . وهكذا نجد أن فون ثونين كان فى الحقيقة يقوم بإبطال أو تحييد عوامل سببية فى سبيل دراسة أثر عوامل قليلة اقتصادية فى مضمونها .

وأكثر ما أثار انتباه المؤلف وفضوله هو الفرق بين سعر المنتجات الزراعية وتكاليف إنتاجها وتسويقها .. وأن كليهما – الأسعار والتكاليف – عالية قرب المدينة وذلك لأن الأرض والعمل كانا أكثر تكلفة والطلب على المنتجات أكبر . ومع تزايد المسافة بعدا من المدينة انخفضت الأسعار أكثر من التكلفة وذلك لارتفاع تكاليف النقل مما يغطى أو يوازن جزئيا الهبوط فى تكاليف الأرض والعمل مع البعد من المدينة . وهكذا نجد أن الفرق بين التكاليف والأسعار – والذى يمثل أرباح المزارع – كان أكثر فى المناطق القريبة من المدينة . ثم استطرد فون ثونن يناقش بأن أكثر أنواع الزراعة كثافة ستتركز قرب المناطق التى تتيح فرصة أكبر لجنى أرباح أكبر أى فى أكثر المناطق قربا للمدينة وأن نسبة الكثافة الزراعية ستقل كلما اتجهنا إلى أطراف الدولة المنعزلة . والزراعة المكثفة بالقرب من المدينة ماهى إلا نتيجة لإمكانية الأرباح الطائلة والتى تستدعى استخداما أكثر للعمل ورأس المال للفدان وذلك قبل تدارك نقطة تناقص الغلة أو الإنتاج . وبالإضافة إلى ذلك فإن القيمة العالية للعقار الأرضى بالقرب من المدينة ، والتى تتمثل فى تكاليف البيع أو التأجير والضرائب – تشجع استخداما أكثر كثافة للأرض وهذه يمكن الحصول عليها إما باستعمال أكثر للعمال ورأس المال للفدان أو بالتحول إلى إنتاج محاصيل أو تربية حيوانات ذات قيمة أعلى .

وتظهر دولة فون ثونن الفرضية ستة نطاقات لاستخدام الأرض متحدة المركز (الشكل ٥٤) . فى النطاق المجاور للمدينة يتم زراعة المحاصيل وتربية الماشية وفق حالة الطقس والتربة وكذلك الطلب . فالقرب من المدينة يجعل تكاليف النقل

والوقت غير ذات أهمية فى تحديد الاستخدام الأرضى وبهذا فقد صنف فون تونن هذا النطاق بأنه نطاق الاختيار الحر أى أن للمزارع كامل الحرية فى اختيار نوع الزراعة الذى يراه مناسبا . وفى الحقيقة كانت الأفضلية تولى لإنتاج المنتجات سريعة التلف مثل اللبن والخضروات والفواكه لقرب موقعه من المدينة وإمكانية الحصول على أرباح عالية مما أدى إلى قيام منطقة مزارع ألبان وزراعة الخضروات للتسويق فى هذا النطاق .

أما النطاق الثانى فيتكون من غابات وتفسير هذا هو أن الطلب على الأخشاب كوقود كان عاليا خاصة للتدفئة ، لأن وسائل النقل كانت بدائية فى تلك الفترة (القرن التاسع عشر) ، فالحمولة الزائدة للأخشاب وحجمها الكبير استدعت أن تكون مصادرها قريبة من مناطق استهلاكها داخل المدينة . وخلف نطاق الغابة توجد ثلاث مناطق متتابعة من المحاصيل وتتميز كل منطقة عن الأخرى بمدى الكثافة الزراعية التى تقل تدريجيا كلما ابتعدنا من المدينة . فمنطقة المحصولات التى تجاور نطاق الغابات خالية من الحشائش والأرض البور مما يدل على كثافة زراعة عالية فى حين نجد أن الأرض كانت تترك بورا لمدة سنة فى كل سبع سنوات فى النطاق الرابع ولمدة سنة كل ثلاث سنوات فى النطاق الخامس . أما النطاق السادس الذى يقع على هامش الدولة فكان مقتصرا على تربية الماشية فقط .

إذا أدخلنا فى اعتبارنا عوامل أخرى مثل الاختلاف فى خصوبة التربة من منطقة لأخرى وعدم توفر المواصلات بالتساوى بين مختلف المناطق ، ووجود أسواق متعددة وعوامل أخرى عديدة – فإننا نرى أن نطاقات فون تونن يصيبها التشوه والتحريف . ولهذا نجد أن نتائج بحثه النوعى أصبحت قديمة عفا عليها الزمن ولكن إذا أخذنا آراءه العامة وطريقة تحليله فنجدها ما زالت سارية المفعول مما أتاح الفرصة لدراسات أكثر عمقا وصقالة للأسباب التى تؤثر على أنماط استخدام الأرض . وهناك الكثير فى التوزيع الحالى والقديم لأنواع الزراعة فى أوروبا مما يؤيد صحة أساسيات نظرية فون تونن كما أن هناك براهين متفاوتة الدرجات ومتفرقة تؤيد ذلك . فحول القرى المتناثرة فى بلاد متباعدة مثل إيطاليا والأراضى المنخفضة (هولندا) والسويد وبلغاريا لوحظ

أن الحقول القريبة من القرية أو المنزل الريفي هى أكثرها استغلالا فى حين أن الحقول التى تقع على هامش القرية تترك فى كثير من الحالات لنمو الحشائش والغابات . ولا يسعنا إلا أن نذكر هذا الشخص ونحن نلاحظ تلك الحقول من العنب والفواكه التى تحيط بكثير من القرى الإيطالية والتى تفسح المجال لحقول الحبوب ثم للحشائش مع ازدياد المسافة بعدا من القرى .

وعلى المستوى الإقليمى نجد هناك دراسات يقوم بها الجغرافيون عن التغيير الذى يطرأ على نوع الزراعة كلما بعدنا من السوق أو المركز التجارى . وفى انجلترا مثلا نجد الجغرافى مايكل تشيشولم M. Chisholm قد ساعد كثيرا فى تفهم كثير من العوامل النسبية وراء التوزيع الزراعى . ففى وصف للزراعة فى عام ١٨١١ لوحظت نطاقات زراعية معينة حول مدينة لندن مرتبة هكذا من الداخل إلى الهامش : مزارع لإنتاج الألبان ثم حقول لانتاج الحشائش ثم حقول خضروات . وهناك عناصر معينة من هذا التوزيع ما زالت موجودة حتى الآن . فالمحصولات البستانية التى تتلف بسرعة أو تحتاج إلى نوع معين من التربة أو المناخ وجد أن توزيعها محدد إلى درجة كبيرة فى انجلترا فى حين أن منتجات الألبان الأخرى الأقل تعرضا للتلف مثل الجبن والزبدة المملحة واللبن المجفف تجلب من منا لق أبعد مسافة من تلك التى يجلب منها اللبن السائل . أما تربية الضأن فنجدها فى مناطق نائية مثل مرتفعات أسكتلنده . وعلى نطاق القارة نجد أن مبادىء فون ثونن ما زالت موجودة ويمكن أن نراها ممثلة فى بعض الظاهرات (جدول ١٣) . وفى العشرينات كتب الجغرافى السويدى « أولاف جوناسن » يشبه المنطقة الصناعية فى شمال غرب أوروبا بمنطقة حضرية ضخمة أو مدينة كبرى تحيط بها نطاق نون ثونن الداخلى حيث مزارع الخضروات والألبان تماما مثل المدينة المركزية التجارية الدولية المعزولة . وقد أوضحت دراسات الجغرافيين « فان فالنكنبرج » « وهيلدم » أن الكثافة الزراعية تنخفض كلما ازددنا بعدا من المنطقة الصناعية الحضرية الآنفة الذكر .

وهناك تحليلات حديثة مبنية على نظرية فون ثونن ، تصدى لها حديثا الجغرافى ج .د . بيت الذى طور النظرية وأضاف إليها تحليله عن التغيرات التى طرأت على

توزيع المناطق الزراعية خلال الزمن ، خاصة فى القرن التاسع عشر . ومن الواضح أن التغيرات السكانية فى المدينة المركزية ، والتى حتما ستؤدى إلى تغيرات فى الطلب على المنتجات الزراعية ، ستؤثر بالطبع على الزراعة فى النطاقات الأخرى المجاورة كما هو الحال أيضا فى حالة تطور وسائل نقل جديدة ورخيصة لهذه المنتجات . وفعلا قد حدث مثل هذه التغييرات فى شمال غرب أوروبا فى القرن التاسع عشر عندما برزت « مدينة عظمى » إلى الوجود وذلك فى شكل تلك المراكز الحضرية الصناعية الواقعة فى الحزام الصناعى حول حقول الفحم فى بريطانيا والأراضى المنخفضة وألمانيا .

جدول : ١٣

يوضح كيف تقل كثافة استخدام الأرض وأنتاجيتها مع تزايد المسافة بعدا من المزرعة

الأراضى المنخفضة (هولنده)		السويد	
بعد القطعة من المزرعة	متوسط ساعات العمل المخصصة سنويا للقطع الزراعية التى تزيد مساحتها عن ١٥ هكتار	حجم المزرعة (بالهكتار)	النسبة المئوية لمدى أرتباط تناقص الأنتاج مع البعد (لكل كيلو متر) من المزرعة
٥ر٠ كيلو متر	٤٠٠ ساعة	١٠ – ٢٠ هكتار	٤٪
١ كيلو متر	٣٦٠	٢٠ – ٤٠	٩
٢ كيلو متر	٣٠٠	فوق ٤٠	٢٦
٣ كيلو متر	٢٤٠		
٤ كيلو متر	١٩٠	كل المزارع	١٣
٥ كيلو متر	١٥٠		

Source : M . Chisholm. Rural Settlement and Land Use. Hutchinson, London, 1962.

وهذه « المدينة العظمى » الأوروبية كونت مع صنوها فى شمال شرق الولايات المتحدة ما أسماه « بيت » بمدينة ثونن العالمية . وقد رافقت تطور هذه المدينة العظمى زيادة كبيرة فى عدد السكان مما أدى إلى ظهور سوق كبيرة . وفى نفس الوقت

أصبحت وسائل نقل المنتجات الزراعية سهلة ورخيصة بواسطة القنوات والسكك الحديدية والبواخر المحيطة الضخمة . وعلاوة على ذلك فقد ازدادت دخول سكان المدن زيادة ملحوظة فى بداية القرن التاسع عشر مما أدى إلى ارتفاع القوة الشرائية وزيادة فى استهلاك الأصناف الجيدة من الطعام . ويمكن أن نلخص نتيجة هذه التغيرات فى : (١) زيادة الطلب على المنتجات الزراعية ، (٢) سهولة الاتصال بالسوق . وحسب رأى بيت فإن لهذة الزيادة فى الطلب على المنتجات الزراعية أثران : (١) توسع رأسى فى الإنتاج بمعنى أن هذه الزيادة ستؤدى إلى تكثيف الإنتاج فى المناطق المزروعة ، ثم (٢) توسع أفقى أى توسع فى مساحة الأراضى الزراعية المنتجة لهذه المحصولات . وهكذا فإن زيادة الطلب على المنتجات الغذائية ذات الجودة مثل الفواكه ومنتجات الألبان واللحوم والتى حدثت نتيجة زيادة دخول المستهلكين أدت إلى : (١) تكثيف زراعة الخضروات والألبان وتسمين الماشية فى تلك المناطق التى كانت تتخصص عادة فى هذا المجال . (٢) إحلال أو إزاحة أنواع الزراعة الأخرى غير الكثيفة بالأنواع الكثيفة المذكورة . ولذلك نجد أن احلال مزارع الألبان محل زراعة القمح الذى حدث فى هولنده يطابق نظرية فون ثونن إلى حد كبير . وخلاصة ما توصل إليه « بيت » هى أن نموذج « فون ثونن » قد أثبت العلاقة بين العامل السببى لقيام الثورة الصناعية وبين انتشار الزراعة التجارية فى أوروبا وباقى أجزاء العالم فى بداية القرن التاسع عشر . وما زالت أفكار « فون ثونن » تساعد إلى حد كبير فى تفسير وفهم توزيع النطاقات الزراعية المختلفة التى نجدها فى أوروبا اليوم خاصة مزارع الألبان وتسمين الماشية ومزارع إنتاج الحبوب .

وقد تصدى جغرافى آخر هو « و . أى . بيكر » لتفسير النمط التوزيعى للمحاصيل الزراعية وتربية الماشية . ورغم أنه قام بدراسته هذه فى العشرينات فإن ما توصل إليه من نتائج يمكن أن تطبق على الأوضاع الحالية فى أوروبا . وقد اقترح بيكر الآتى : (١) أن المنتجات الزراعية التى عليها طلب كبير ولكنها تعانى من عدم توفر العناصر المناخية والبيئية الملائمة ، ستعطى الأولوية فى أخصب أجزاء الأرض الزراعية فى المناطق الصالحة لزراعتها . (٢) أن المنتجات التى تتميز بالوزن القليل والقيمة العالية

ستكون لها الأسبقية فى تلك المناطق الصالحة مناخيا وبيئيا لزراعتها (٣) سيكون هناك ميول أو اتجاه نحو التخصص فى زراعة محصولات قليلة جدا فى اقتصاد موجه للتجارة أو التسويق لأن المزارعين فى مثل هذه الأوضاع يميلون إلى زراعة المحاصيل التى تدر عائدا أكثر للقطعة الزراعية . (٤) وأن نوعية وتجارب ومهارة السكان الزراعيين سيكون لها أثرها فى اختيار المحصول . ومن هذه الدراسة نرى « بيكر » متأثرا إلى حد كبير بآراء فون ثونن .

وإذا تركنا تأثير عوامل النقل والسوق والبيئة الطبيعية جانبا فاننا نجد عوامل ذات طبيعة حضارية أو سياسية قد لعبت دورا مهما فى توجيه المزارعين للسير فى طريق زراعى معين رغم أن هذه الممارسة قد تبدو غير منطقية أبدا . ومثلا فإن عدم وجود نطاق مزارع الألبان فى الجزء الأوروبى من حوض البحر الأبيض يرجع جزئيا إلى النظام الغذائى لأهل هذه المنطقة : فهذه المنطقة بالأخص لم تتوارث منتجات الألبان المشتقة من لبن الأبقار فى حين أن احتياج الكنيسة للنبيذ فى طقوسها الدينية ساعد إلى حد كبير فى إنشاء مزارع العنب فى ألمانيا ، كما صحب الاتصال بالعالم الخارجى دخول محاصيل أخرى كثيرة أدى نهائيا إلى تطوير التكنولوجيا الزراعية .

وقد أدت التعريفات الجمركية والاعانات الحكومية التى تمارسها كثير من الحكومات الوطنية والكتل التجارية إلى الاستمرار فى إنتاج محاصيل معينة فى تلك الأقطار التى تخشى المنافسة الأجنبية . وعلى العكس فان إزالة قيود الاستيراد قد يسبب فى إحداث تغييرات جذرية وفجائية فى الزراعة كما حدث عندما الغت بريطانيا قانون الحبوب فى عام ١٨٤٦م . وفى الوقت الحاضر فان القيود التعريفية المفروضة على المحاصيل الزراعية المستوردة وتركيب الأسعار الزراعية داخل السوق الأوروبية المشتركة هى موضع مباحثات صعبة بين أعضائها . فبريطانيا تعترض بشدة على الضرائب المفروضة عليها وفق السياسة الزراعية العامة للسوق الأوروبية المشتركة . وحسب هذه السياسة تفرض ضرائب عالية على الواردات من المواد الزراعية (الغذائية) ويصرف جزء كبير من هذا الدخل لتدعيم الزراعة — خاصة مزارع إنتاج الألبان — فى الدول الأعضاء . واحتجاج بريطانيا على هذه لسياسة ينبع

من كونها دولة تستورد معظم احتياجاتها من المواد الغذائية من الخارج مما يرفع من حصتها فى الضرائب المفروضة بينما يمثل القطاع الزراعى فيها قطاعا ثانويا ولذلك لا تستفيد من الدعم المالى الذى يمنح لمزارعى أعضاء السوق المشتركة ومن ثم مطالبتها بتخفيض نصيبها من الضرائب المفروضة .

السياسة الزراعية العامة أو المشتركة Common Agricultural Poliey

تم إنشاؤها فى عام ١٩٦٢ ويقوم « صندوق الضمان والإرشاد الزراعى الأوروبى » بتنفيذها وتتلخص وظيفتها فى شيئين رئيسيين : إرشاد وتحسين الإنتاج الزراعى وكفالة الضمان أو الحماية للمزارع ودخله ، أما الهدف الرئيسى فهو إنشاء سوق واحدة لكل المنتجات الزراعية . وهذا يعنى إزالة كل الحواجز القومية والمالية والطبيعية من أمام التجارة ، كما يستدعى ذلك سريان أسعار ثابتة ومضمونة على نفس المستوى داخل الدول الأعضاء ، ويتوقع أن تؤدى سهولة الاتصال بأجزاء السوق المشتركة إلى إزالة أو تقليل تكلفة النقل إلى أدنى حد ممكن . وعلى الوجه الامثل يعنى هذا أن الفرصة ستكون مواتيه للمناطق ذات الكفاءة الإنتاجية العالية من الناحية الاقتصادية والبيئيه ، وفى النهاية سيكون التخصص الاقليمى فى الزراعة هو السمة السائده . ومثلا ستتخصص المملكة المتحدة فى منتجات الالبان واللحوم (الضأن والبقر والخنزير والدجاج) وانتاج الحبوب لصلاحية البيئه لممارسة الزراعة المختلطه ، بينما تتخصص دول مثل ايطاليا وجنوبى فرنسا فى انتاج المحصولات الشجرية (الزيتون والحمضيات والكروم) والخضروات وهكذا ينتج كل اقليم ما يلائمه من محصولات وسيتحول الاستقلال القومى إلى اتكال اقليمى ، وقد يؤدى هذا التخصص الاقليمى إلى الاكتفاء الذاتى فى المنتجات الزراعية وهذا ما تصبوا إليه الدول الاعضاء .

(١) حماية دخل المزارعين

هى من أهم أهداف هذه السياسه وينبثق هذا الاهتمام من الاعتراف بصعوبة المحافظة على دخول المزارعين فى مجتمع قوامه الصناعة فى مستوى مساو لدخول العمال الصناعيين ، وتتكفل السياسة بضمان هذا المستوى . ولكن لماذا حاجة المزارعين بالذات ؟ يرتبط جزء من الإجابة بتركيب أعضاء السوق الست الأصليين ويوضح

المزارعين القوى (من الناحية الانتخابية) فى كل من فرنسا وايطاليا اللتين اعتمدتا على هذه السياسة الزراعية كعامل تعويض مقابل فتح أسواقها للمنتجات الصناعية الألمانية . وحماية دخل المزارع على (أى سياسه الضمان) تعمل بالطريقة الآتية :

تطبيق سياسة تسعيرية عامة على كل إنتاج ، وتحدد تسعيره مستهدفه Target Price سنويا ، الهدف منها تقدير عائد معقول لمزارع كفء فى منافسة مفتوحة (أى سوق يتنافس فيها مع منتجات المناطق الأخرى) . وهكذا يستطيع كل مزارع أن يبيع منتجاته فى سوق مفتوحة بسعر مرتبط بالتسعيرة المستهدفة ، ولكن فى حالة انخفاض هذه التسعيرة هنالك ما يسمى التسعيرة « intervention-Price تتدخـــل عندها منظمة محلية تديرها السوق وتشترى كل المنتجات الزراعية . وتمثل هذه التسعيرة نوعا من السعر الاحتياطى وتقل بحوالى ٨٪ من سعر السوق . وبالإضافة إلى ذلك فإن على المنتج الأجنبى الذى يريد بيع منتجاته داخل السوق المشتركة أن يدفع ضريبة عند الحدود مما يزيد من أسعار منتجاته إلى مستوى التسعيرة المستهدفة ، وهكذا تمنع المنتجات الأجنبية الرخيصة من منافسة منتجات مزارعى السوق المشتركة . ومعنى ذلك أن دخول المزارعين محمية عند مستوى اصطناعى وهو التسعيرة المستهدفة . ولكن هناك ضمان واحد بالنسبة للمستهلك : فى حالة ارتفاع سعر السوق لمنتوج معين أكثر من التسعيرة المستهدفة فإن منافسة المنتجات المستوردة ستخفض السعر إلى مستوى التسعيرة المستهدفة مرة أخرى مما يحقق نوعا من التحكم على التسعيرة وتنظيمها .

ولتغطية الدعم التسعيرى هذا فان على الدول الأعضاء دفع الضرائب التى تفرض على المواد الغذائية المستوردة للصندوق وكذلك الجمارك ونسبة من عوائدها من ضريبة القيمة المضافة Value Added Tax (VAT) ومعنى ذلك أن الضرائب غير المباشرة التى يدفعها المستهلك هى مصدر الحماية المضمونة التى يتمتع بها المزارعون .

ويمثل فائض الإنتاج أهم المشاكل التى تمخضت عن سياسة الحماية . ففى فترات الوفرة الزائدة ، والتى يتعرض لها منتجات الألبان أكثر من غيرها ، تشترى السوق كل الفائض وتقوم بتخزين كميات ضخمة منها عند سعر الدعم أو سعر التسعيرة .

وتمثل الزبدة أحسن مثال لعملية التكدس هذه و « جبال الزبدة » التى تكونت فى مخازن السوق فى أوائل السبعينات توضح بجلاء أن سياسة الحماية ، مالم ترتبط بنوع من الإصلاح ، تخلق فى النهاية فائضا فى الإنتاج كما إنها غير ذات فعالية على المدى البعيد . وأساسا تكمن المشكلة فى أن التسعيرة المنظمة والتى تحمى مزارعا صغيرا معمرا فى الهضبة الوسطى الفرنسية من الافلاس المالى هى أيضا التى تشجع المزارعين الاكفياء فى حوض باريس وتدفعهم للإنتاج الوفير مما يؤدى إلى تلك الفوائض الدورية .

(٢) الأرشاد الزراعي والإصلاح .

يتمثل الجانب الايجابى الآخر فى السياسة الزراعية العامة فى الارشاد الزراعى والاصلاح ، وهو من الأهداف بعيدة المدى . وتتلخص المشكلة فى أن ثلثى مزارعى السوق المشتركة قد تجاوزوا الخمسين من العمر (٧١٪ من مزارعى أيطاليا) كما تقل نصيب ثلاثة أرباع من هؤلاء المزارعين من الماشية عن عشر أبقار ويبلغ متوسط حجم المزرعة عشرة هكتارات . أما فى انجلتره فإن حجم المزرعة يبلغ ثلاثة أمثال هذا الحجم الذى تتطلع إليه السوق .

ومنذ الخمسينات شهدت هذه الدول تحسينات جذرية فى التركيب الزراعى فى اطار سياسة تطوير مناطق المعاناة كما سنوضح فى الفصل الرابع عشر

جدول ١٤

استخدام الأسمدة والميكنات فى بعض دول السوق المشتركة

	استخدام الأسمدة (كج للهكتار)			عدد الجرارات ١٠٠ (لكل هكتار)	استخدام الأسمدة : التباين الاقليمى
	١٩٦٥	١٩٧٠	١٩٧٤	١٩٧٤	
فرنسا	٩١	١٢٨	١٧٠	٤ر١	(١) أكثر من ٢٠٠ كج للهكتار
هولنده	٢٣٩	٢٧٨	٣٠٧	٧ر٠	فى حوض باريس .
إيطاليا	٤٩	٦٣	٨١	٤ر٥	(٢) أكثر من ٤٥٠ كج للهكتار
					فى مناطق زراعة البستنه .

وعلى الرغم من التحسينات المستمرة التى طرأت على الزراعة خلال هذه الفترة الطويلة ، فهناك مشكلات باقية مثل عدم الكفاءة الإنتاجية والإنتاج الفائض لبعض المواد الغذائية وندرة بعضها . وتحاول خطة ما نزهولت Mansholt (١٩٦٩) وضع حلول لهذه المشكلات وتوصى بأن يسحب خمسة مليون مزارع من الزراعة بحلول عام ١٩٨٠ يحال نصفهم للمعاش ويعاد تدريب النصف الآخر لوظائف صناعية ، كما يخصص خمسة مليون هكتار من الأراضى الهامشية الزراعية لزراعة الغابات والمنتزهات . ورغم ما يثار حولها من جدل فإن الدول الأعضاء قد قبلت مبادىء الخطة الأساسية ، وشرعت الدول فى تطبيق هذه الإصلاحات كما سنرى فى الفصل الرابع عشر ، وتهدف الخطة فى النهاية إلى إزالة المنتجين الهامشيين ذوى التكلفة المرتفعة ومن ثم الكفاءة الإنتاجية وتخفيض السعر المستهدف وإزالة الإنتاج الفائض .

جدول ١٥ : الزراعة واهميتها لدول السوق الاوروبية المشتركة (١٩٧٢/ ١٩٧٣)

الدولة	نسبة الزراعة فى الانتاج القومى (٪)	نسبة الواردات الغذائية والزراعية إلى اجمالى الواردات (٪)	نسبة الصادرات الغذائية والزراعية إلى اجمالى الصادرات (٪)	الوضع كمستورد أو مصدر للمواد الغذائية (٪)	نسبة الاسهام لميزانية السوق (مقدر) (٪)
ألمانيا الاتحادية	٣ر١	١٦ر٤	٤ر٠	موردة	٢٧
فرنسا	٦ر٣	١٢ر٤	١٨ر٤	مصدرة	٢٢
إيطاليا	٨ر١	٢٠ر١	٨ر١	موردة	١٧
هولنده	٥ر٩	١٤ر٢	٢٢ر١	مصدرة	٨
بلجيكا/ لوكسمبورج	٣ر٩	١٢ر١	٩ر٢	موردة	٧
المملكة المتحدة	٢ر٢	١٩ر٥	٧ر٠	موردة	١٦
جمهورية ايرلنده	١٧ر٠	١٢ر٧	٤٣ر٠	مصدرة	١
الدنمارك	٧ر٩	١٠ر٥	٣٥ر٣	مصدرة	٢

الاكتفاء الذاتى والدول المنتسبة إلى السوق : (جدول ١٥) :

تتميز السوق المشتركة بالاكتفاء الذاتى فى كثير من المواد الغذائية الرئيسية وحتى اذا استلزم الوضع استيراد بعض هده المواد فان الانتاج المحلى قد يسد ما بين ٨٠ و ٩٠٪ من هذا الطلب . ومع ذلك فان استيراد المواد الغذائية فى ارتفاع مستمر استجابة لازدياد الطلب عليها والارتفاع فى مستوى المعيشة . ويتكون معظم الواردات من الذرة الشامية والحمضيات والزيوت النباتية ، كما أن المستورد من الحبوب قد ارتفع كبيرا منذ عام ١٩٥٨ نظرا لاستعمالها فى اطعام الحيوانات . ومما يعقد الامر اكثر أن دول السوق تصدر القمح اللين soft wheat وتستورد كميات اكبر من القمح القوى hard wheat أما الفائض من الزبد واللحم البقرى وكذلك النبيذ (١٩٧٦) فيحتاج إلى تنظيم فى الإنتاج اكثر دقة دون أن يؤدى ذلك إلى وضع معاكس تعانى فيه الدول من نقص فى هذه المواد . وعامة فإن السوق قد وصلت إلى درجة عالية من الاكتفاء الذاتى ، وتتمثل المشكلة الرئيسية فى كيفية إزالة الفوارق بين الفائض والعجز فى الإنتاج بتكافوء ، فإن وسائل التحكم فى الأسعار المعمول بها غير كافية لتحقيق ذلك وتحتاج إلى نظام أكثر كفاءة ودقة وشمولا ليحقق التحديد والتحكم المنشود على الإنتاج .

إن التوسع المنطقى للسياسة الزراعية يتمثل فى تكملة منتجات السوق من محصولات المناطق المعتدلة بمواد غذائية من المناطق المدارية التى لا تستطيع إنتاجها لأسباب مناخية . وقد تحقق ذلك بفتح الانتساب لعدد من المستعمرات الأفريقية السابقة : ومنذ عام ١٩٦٣ انتسبت ثمانى عشرة دولة أفريقية فى معظمها مستعمرات فرنسية سابقة ، إلى السوق الأوروبية فى معاهدة ياوندى ، كما انتسبت مؤخرا مستعمرات انجليزية سابقة إليها (١٩٧٥) . ووفق هذه المعاهدات تضمن الدول المنتسبة دخول واحد أو أكثر من منتجاتها الزراعية الرئيسية أو من محصولات التصدير إلى السوق دون جمارك مما يتيح لها حرية الوصول إلى سوق ضخمة ، كما تعطى لها الأفضلية فى الحصول على الإعانات والمساعدات المالية لمشاريع التنمية من خلال

صندوق التنمية الأوروبية . أما السوق الأوروبية فإنها تستفيد من هذا المصدر المضمون للمنتجات الأولية والمواد الغذائية المدارية وأيضا من الأفضلية الممنوحة لمنتجاتها الصناعية فى أسواق هذه الدول المنتسبة .

وضع المملكة المتحدة :

هناك مشاكل تحيق بالسياسة الزراعية العامة داخل السوق المشتركة تتمثل فى تضارب المصالح لعدد من الدول وما يترتب على ذلك من توتر فى العلاقات . فألمانيا الغربية والمملكة المتحدة على سبيل المثال دولتان صناعيتان كما أن جزءا كبيرا من سكانها يقطنون المدن ، ومعنى ذلك أن الزيادة السكانية قد قامت على إنتاج الطعام منذ أوائل القرن الماضى : أى أن الدولتين تستوردان معظم موادهما الغذائية من الخارج . وهذه النزعة نحو استيراد المواد الغذائية (ودفع الضرائب المفروضة عليها) تعنى أن كلتيهما تسهمان بأموال ضخمة لأموال السياسة الزراعية العامة وصناديقها . وتلقى المملكة المتحدة بصفة خاصة فائدة لا تذكر من هذه السياسة لمشاريعها التنموية الزراعية وإصلاح التركيب الزراعى نظرا لنظامها الزراعى المتقدم .

أما فرنسا وإيطاليا فهما من أكبر الدول المنتجة زراعيا كما أن فرنسا من الدول المصدرة للمواد الغذائية فى حين أن أيرلنده ، رغم إنتاجها القليل ، من الدول المصدرة لمنتجات الألبان نظرا لقلة سكانها . وهذه الدول الثلاث (فرنسا وإيطاليا وإيرلنده) هى أكثر الدول معاناة من مشاكل التركيب الزراعى وأكثر الدول الأعضاء استفادة من الأسعار المضمونة والدعم الممنوح للصادرات والأسواق الداخلية للسوق والمساعدات والمنح المالية التى تكفلها السياسة الزراعية . وهولنده والدنمارك أيضا من الدول المصدرة للمواد الغذائية مما يعكس كفاءتها الإنتاجية فى مجال تربية الماشية للألبان وزراعة الخضروات والزهور ، وساعدهم فى ذلك قلة السكان فيها . وقد استعادت الدنمارك ما فقدته عند بداية تطبيق السياسة الزراعية من أسواق وانفتحت أمامها الآن أسواق ألمانيا الغربية والمملكة المتحدة .

أما المملكة المتحدة فإنها تجد أن هذه السياسة الزراعية تتضارب مع مصالحها الخاصة . فنظرا لوضعها الفريد فى مراحل التصنيع الأولى ومواردها الزراعية المحدودة

ونسبة التحضر العالية بين سكانها فقد تبنت الدولة سياسة غذائية رخيصة من أربعينات القرن الماضى . ووفق سياسة التجارة الحرة التى كانت تتبعها سمحت الدولة باستيراد المواد الغذائية بأسعار زهيدة من جميع أنحاء العالم ، وإن كان معظم هذه المواد يأتى من مستعمراتها الشاسعة . أما مزارعوها فقد عوضوا بما يسمى « بمدفوعات بالعجز Deficiency payments » أى مبالغ تدفع لهم كتعويض للخسارة التى يتكبدونها نتيجة استيراد المواد الغذائية بأسعار زهيدة ، وهى عبارة عن الفرق بين أسعار تكاليف منتجاتهم العالية الثمن وأسعار الواردات الزهيدة . وهكذا استمر المزارع البريطانى فى عمله بدعم من الحكومة ، وأخذت الواردات من المواد الغذائية تدخل السوق البريطانية بدون قيود وبسعر منخفض ودافع الضرائب هو الذى يدفع الفرق ، ولكنه كان أيضا يتمتع بأسعار المواد الرخيصة . وبالحق كان هذا الترتيب جيدا بالنسبة لقطر به عدد ضئيل من الزراعيين ويحتاج إلى مواد غذائية ضرورية مستوردة ، ويسيطر على مناطق زراعية شاسعة فى مستعمراته .

ولكن بدأ هذا الوضع يتغير أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها . فقد أدت الحاجة لزيادة الإنتاج والاكتفاء الذاتى فى الفترة ما بين ١٩٣٩و ١٩٤٥ (الثورة الزراعية) وقبول الرأى بأن الحكومات ملزمة بإدارة والحفاظ على جهاز إنتاج زراعى قومى ذى كفاءة عالية ، أدت إلى اسهام أكبر من قبل المزارعين البريطانيين فى سياسة الاكتفاء الذاتى بمعدل ٥٥ إلى ٦٠٪ فى كثير من المواد الغذائية وإلى اكتفاء ذاتى فى منتجات البيض واللبن والشعير ولحم الخنزير والدواجن .

مع انضمامها للسوق المشتركة تركت بريطانيا وضعها السابق كدولة مستوردة للمواد الغذائية على أساس التجارة الحرة من دول الكومنولث وباقى أجزاء العالم ، ودخلت تحت الحماية الأوروبية . وهنا تبرز نقطتان :

١ - أن المزارع البريطانى يتمتع بوضع ممتاز بالمقارنة مع مزارعى كثير من دول السوق ووفق نظام الأسعار المضمونة فإن كفاءته الإنتاجية ستكون حافزا لإنتاج أوسع عند دمجه فى سوق أوروبية موسعة تهدف إلى اكتفاء ذاتى فى إنتاج المواد الغذائية . وقد تعانى تلك المجموعات المتخصصة فى إنتاج أنواع معينة من

المحصولات ، مثل مزارعى الخضروات ، من مشاكل تتعلق بظروف مناخية غير مناسبة ، ولكن الوقت موات ليزداد الطلب على منتجاته من الحبوب واللحوم والألبان .

٢ ـ هناك مشكلة الدخول المتأخر فى نظام خطط أساسا لتلبية احتياجات مختلفة : فالهدف النهائى للسياسة لاغبار عليه : فعلى المدى البعيد يركز هذا الهدف على أن القوة الزراعية لدول السوق ستكون القاعدة والأساس للتخصص والإصلاح داخل هذه الدول ذاتها ، وأن دمج العشر دول الأعضاء سيخلق نظاما زراعيا وغذائيا قويا يستطيع تزويد وسد احتياجات سكانها . ولكن بالنسبة للمملكة المتحدة فإن هذه الميزات مشكوك فيها : فالمستهلك البريطانى قد فقد حماية الدعم ودخل فى نظام أسعار مرتفعة . ومن ثم فإن على المملكة المتحدة أن تدفع إسهامات مالية ضخمة للصندوق الزراعى نظرا لأنها من الدول المستوردة للمواد الغذائية ، وفى نفس الوقت لا تستفيد من الدعم المالى للصندوق لأن نظامها الزراعى لا يحتاج إلى دعم أو إعادة فى تركيبها . وهذا هو مصدر الخلاف بينها وبين باقى أعضاء السوق كما شرحنا من قبل .

من هذا الكلام يبدو أن السياسة الزراعية العامة استطاعت ، فى مراحل تكوينها الأولى ، أن تخلق نظام تحكم غير متقن يحتاج إلى صقل . فهناك حاجة للتغيير لتصليح مشكلة الإنتاج الفائض ووضع حل له كما أن فرض عقوبة على أولئك الذين ينتجون فوق ما اتفق عليه يبدو ضروريا للتغلب على هذه المعضلة . ففى نظام زراعى خاضع لإدارة وضبط ، يجب أن تولى العناية بالمستهلك كما بالمزارع . وهذا يعنى أن لا تترك الأسعار ترتفع دون تحكم بسبب الحاجة إلى تحقيق الاكتفاء الذاتى بأى ثمن . فإن استيراد المواد الغذائية بأسعار أرخص يمكن أن يلعب دورا فى تخفيض أسعار هذه المواد كما يستطيع الدعم المالى تحقيق ذلك فى حالات الطوارىء ولمنتجات معينة . وقد اعترضت المملكة المتحدة وألمانيا الغربية على أداء السياسة الزراعية وقد شرع الأعضاء فى إعادة النظر فيها .

ويمثل عامل الزمن صعوبة رئيسية فى إيجاد وضع متوازن فى الزراعة : فإنتاج قطيع من أبقار الألبان يحتاج إلى وقت كما أن هناك فترة زمنية فاصلة بين الاستثمار وتحقيق الإنتاج ، وهذا هو السبب الرئيسى وراء الفائض الدورى فى الإنتاج الذى يجب على السياسة الزراعية التغلب عليه .

أما المشكلة الثانية التى تجابه السياسة الزراعية فتتعلق بنظام الحسابات التى تتعامل به . فكل التسعيرة والحسابات يتم وفق « وحدة (زراعية) خضراء » « Green Currency » وهى عبارة عن شكل مختلف من عملات الدول الأعضاء . وهكذا نجد مثلا « الجنيه الأخضر » و « الفرنك الأخضر » و « المارك الأخضر » ، ويكمن أحد المصاعب فى التخفيض الدورى لقيمة العملات كما حدث للجنيه الأسترلينى ولأنه لم يحدث تعديل « للجنيه الأخضر » فى نفس الوقت فإن قيمته ظلت أكثر ارتفاعا من قيمته الحقيقية وكان هذا فى صالح المملكة المتحدة إذا كانت أسعار المواد الغذائية أقل ومدعومة لأنها كانت تدفع بالجنيه الأخضر ، ولذلك فقد استفادت المملكة المتحدة ماديا فى الفترة ما بين ١٩٧٥و ١٩٧٦ من سريان هذا النظام . ولأداء ثابت فى المستقبل فإن نظام « العملات الخضراء » يجب أن يكون جزءا من سعر تبادل ثابت يمكن تعديله تدريجيا وبسهولة فى حالة تذبذب قيمة العملات الأجنبية

كما أن هنا حاجة ماسة لمرونة أكثر ترعى احتياجات ورغبات الدول الأعضاء وقد تكمن الإجابة الصحيحة فى إعادة النظر إلى سياسة المساعدات للسوق المشتركة كوحدة متكاملة ومنح دور موسع لها كصندوق زراعى وإقليمى وصناعى يتيح لقيام نظام لتخطيط مالى واقتصادى على نطاق السوق . وستشهد السنوات القادمة تغييرات جذرية فى هذه السياسة .

الفصل الثانى عشر

الصناعة وتطورها فى أوروبا

يهتم الجغرافى بالجانب المكانى للصناعة أى توزيعها كما يهتم بمواقع النشاطات الصناعية المختلفة وكيف تغير توزيعها عبر الزمن . وأهم من ذلك كله فإن الجغرافى يسعى أيضا إلى معرفة الأسباب التى أدت إلى التوزيع الحالى للصناعة . وفى بحثه عن الأسباب التى تحدد موقع الصناعة ، فهو أيضا يبحث عن العلاقة بين الأنماط المكانية للصناعة وبين الظواهرات الجغرافية الأخرى من بيئية وحضارية . فإن توزيع وحجم الصناعة وأهميتها قد طرأ عليها التغير عبر القرون . ولكى نفهم النمط الحالى للصناعة فالأجدر فى البداية أن نلم بالتغيرات الزمانية التى طرأت على الصناعة لأن الصناعات الأوروبية الحديثة قد قامت على أساس من التراث الصناعى العريق .

الصناعات التقليدية :

كانت صناعة الكوخ أو المنزل Cottage or household industry هى أكثر الصناعات انتشارا فى أوروبا قبل القرن الثامن عشر . وكانت هذه الصناعة فى طبيعتها ريفية ومحصورة فى القرى الزراعية وتمارس كنشاط ثانوى للزراعة التى كانت تمثل أساس الاقتصاد الريفى آنذاك . وجرت العادة أن تضم القرية أصحاب حرف عدة مثل الحداد والإسكافى والطحان والناسج الذين كانوا يقضون جزءا من وقتهم فى الزراعة وباقى الوقت ، وخاصة أثناء فترات الراحة ، فى ممارسة صنعتهم . ولعل كثرة الأشخاص فى انجلترا وألمانيا الذين يحملون أسماء العوائل مثل سميث « smith » و« شميدت » schmidt و « ميلر » Miller و « مولر » Muller و« ويفر »Weaver و « ووبر » Weber ...الخ ، لها دلالة واضحة على الكثرة السابقة للحرفيين القرويين . وكان انتقال المهارات تتم بصورة غير رسمية : الابن يتعلم من الأب والابنة تتعلم من الأم عن طريق الملاحظة أثناء أداء الصنعة ثم المحاكاة .

وقد تسببت الثورة الصناعية فى إزالة الصناعة المنزلية إلا فى أجزاء معدودة من أوروبا حيث بقيت هذه الصناعة تمارس وذلك بفضل البائعين الذين يأتون من خارج المنطقة لشراء منتجاتها . ومثلا هناك أجزاء معينة فى أسكتلنده تقوم ربات البيوت فيها بنسج النسيج الصوفى الخشن المعروف باسم Harris tweed على أنوال بدائية فى مساكنهن الخاصة .

أما الصناعة التقليدية الأخرى والأكثر أهمية من صناعة المنازل فكانت صناعة النقابات Guild . وهى عبارة عن منظمة حرفية أو مهنية للحرفيين ذوى المهارة فى صنعة معينة . وعلى عكس أصحاب الحرف المنزلية كان المهنيون النقابيون يقضون معظم وقتهم فى مهنتهم ويسكنون المدن غالبا . وكانت المهارات أكثر تعقيدا وتقدما كما أن انتقال المهارات هذه كان يتم عن طريق التدريب وفقا لشروط عقد . وحسب هذا النظام يختار صبى ويمرن عند صانع ما لفترة حتى يكتسب المهارة ذاتها وبعد ذلك يمتحن الصبى أمام لجنة مكونة من أعضاء النقابة نفسها وعند مروره الامتحان بنجاح يصبح الصبى عضوا فى النقابة ويستطيع ممارسة المهنة مستقلا بنفسه . وكانت كل نقابة تمتلك منزلا فى الميدان العام فى المدن الكبيرة . ويمكن [illegible] هذه المنازل حاليا فى بعض المدن المحافظ عليها مثل جنت Ghent وبروج Bruges والتويرب فى بلجيكا .

وما زالت بقايا نظام النقابات ظاهرة حتى اليوم . ودكاكين الحرفيين أيضا موجودة بأعداد كبيرة حتى فى الدول المتقدمة مثل ألمانيا الغربية حيث نجد فيها حوالى أربع وستين حرفة مسجلة وتمثلها أكثر من تسعة آلاف نقابة محلية تتضمن الخياطين والخبازين وصانعى السكاكين والسجق وأمثالهم . وهناك حرف الخدمات والحرف التجارية والحرف الصناعية التى تستوعب حوالى ١٥٪ من القوى العاملة فى ألمانيا الغربية مما يوضح مدى قوة هذه الحرف فى الصمود فى وجه التغييرات البعيدة الأثر التى حدثت نتيجة الثورة الصناعية .

ورغم الاختلافات العديدة بين صناعة النقابات والصناعة المنزلية فإن هناك أوجه شبه أساسية بينهما . فكلتاهما كانت تعتمد على المهارة اليدوية للعمال والقوة البشرية رغم أن الطحان قد استغل الرياح والماء فى إدارة طواحينه . فصناعة النسيج كانت

تتم على أنوال يدوية صغيرة يديرها أصحابها فى حين أن الحديد كان يصهر فى أفران صغيرة بواسطة الفحم النباتى .

الصناعة الحضرية وانتشارها :

كانت الصناعة المتقدمة نوعا ما تتركز فى حوض البحر الأبيض المتوسط وخاصة فى اليونان حيث انتقلت إليها من منطقة الهلال الخصيب ومصر . وفى عصرها الذهبى كانت المدن اليونانية مثل أثينا وكورينث هى الرائدة فى المجال الصناعى وتفتخر بما لديها من النساجين والصباغين الذين تمرنوا على يد الفينيقيين ، وصانعى الجلود والخزافين الذين تركوا مخلفات أثرية قيمة وراءهم ، وصانعى الأسلحة والمجوهرات والمعادن والسفن . وقد زالت هذه القيادة الفنية والمهنية بزوال القيادة السياسية لليونان وانتقلت إلى روما ومن بعدها إلى القسطنطينية .

أما فى العصور الوسطى فقد أصاب التدهور الصناعة والنشاط التجارى عموما وظلت الصناعة الباقية محصورة فى منطقة البحر المتوسط . ثم أخذت أسبانيا الإسلامية تنافس القسطنطينية : وفى الأولى برزت توليد واشتهرت بمنتجاتها من الصلب الجيد النوع وقرطبة ببضائعها الجلدية الراقية . ولكن من أبرز التطورات التى حدثت فى هذا العصر هو ظهور شمال إيطاليا كمنطقة صناعية رائدة نتيجة للعوامل الآتية :

١ – تقلص النفوذ العربى الإسلامى فى حوض البحر المتوسط .

٢ – القوة المتزايدة للبابوية وانتشار المسيحية عبر أوروبا الألبية .

٣ – نمو السكان والإنتاج الزراعى فى المناطق الجرمانية والفرنسية ، مما أدى إلى توسيع الظهير الاقتصادى لشمال إيطاليا .

٤ – المكانة المهيمنة للتجار الايطاليين الذين كانوا يتنقلون بتجارتهم ما بين الصين وانجلترا مستغلين وضع ايطاليا المركزى آنذاك فى حوض البحر المتوسط .

واشتهرت مدن مثل جنوه وميلانو وفلورنسه والبندقية بمنتجاتها من الحرير والأقمشة الأخرى وصباغة النسيج والأدوات النحاسية والأسلحة والزجاج وصناعة السفن . وفى أوج مجدها كانت فى البندقية ١٦٫٠٠٠ صانع سفن يصنعون سفينة

كبيرة كل يوم . وبحلول عام ١٧٠٣ كان حرفيو فلورنسه يصنعون١٠٠٠ر١٠٠ قطعة قماش في السنة وأصبحت ميلانو أهم مركز لصناعة الأسلحة في أوروبا . وقامت هذه المنجزات على أكتاف نظام وتحت رعاية النقابات الحرفية الحرة على عكس نظام المهنيين العبيد السائد في العصور المظلمة .

ولكن هذه السيادة الاقتصادية لم تدم طويلا : فالحروب الواسعة الانتشار التي شملت فرنسا وانجلترا وأسبانيا وجنوبي إيطاليا زائدا عليها التلف والخراب الناتجين من انتشار الطاعون البوبوني والتوسع التركي وظهور المحيط الأطلسي كطريق بحري رئيسي ، كلها أومأ بتدهور شمال إيطاليا كمنطقة صناعية وذلك في القرنين الرابع والخامس عشر . وتقلصت أهمية المراكز الصناعية العربية في أسبانيا بعد الاحتلال المسيحي كما عجل الأتراك بسقوط القسطنطينية ، وكان من جراء هذه الأحداث أن عانت المناطق الصناعية الرئيسية في حوض البحر المتوسط من هذه النكسات المتتالية .

وتبع ذلك أن انتقلت الزعامة التجارية - الصناعية شمالا إلى بلجيكا وسويسره وبالأخص جنوبي ألمانيا الذي انتقل إليها بعض المهارات الإيطالية.والمدن التي تأثرت بهذه النهضة الجديدة تتضمن نيورنبيرج ، ألم Ulm واوغزبيرج Augsburg ونوردلنجن وروذنبيرج . وأسس إيطاليون آخرون صناعة الحرير التي اشتهرت بها مدينة ليون في فرنسا . أما المنطقة الصناعية الرئيسية فكان مركزها في الفلاندرز التي شهدت بداية التطورات الأساسية في القرن الثاني عشر .

والحقيقة أن التقدم الصناعي في إقليم الفلاندرز لم يكن نتاجا لما حدث في إيطاليا أو وليد الصناعة الإيطالية بل كان معاصرا لها . فقد ساعد صانعو الأقمشة الفلمنكيون المهاجرون في تأسيس صناعة النسيج في فلورنسا الإيطالية . ومثل شمال إيطاليا اكتسبت الفلاندرز أهميتها الصناعية لموقعها التجاري المناسب . فقد أتاح تركز طرق تجارية بحرية ونهرية وبرية على إقليم الفلاندر تحقيق نفس السيادة في شمال أوروبا التي حققتها المدن الإيطالية من قبل في إقليم البحر المتوسط . وفي البداية كانت صناعة الأقمشة تتركز في « يبرس » و « غنت » و « بروج » و « دواى » وتعتمد في موادها

الخام على الصوف المستورد من انجلترا وأسبانيا . ثم أضيفت صناعة الكتان إلى الصوف فى القرن الخامس عشر وأصبح الكتان من أهم منتجات المدن الفلمنكية وكانت له شهرة استمرت حتى القرن التاسع عشر .

وكان لنفوذ هؤلاء الحرفيين المهاجرين وتأثيرهم دور كبير فى نهضة هولندا الصناعية ابتداء من القرن الخامس عشر ، كما هاجرت نخبة من خبراء الصناعة الصوفية الفلمنكيين إلى منطقة يوركشير البريطانية منذ القرن الرابع عشر وأسهموا فى تطوير هذه الصناعة هناك . وفى القرن السابع عشر طغت هولندا صناعيا على الفلاندرز فى حين أن شمال ألمانيا وخاصة بروسيا تفوقت صناعتها على الأجزاء الجنوبية منها . وطورت السويد وانجلترا صناعات رئيسية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

وكان هذا الانتقال التدريجى للنشاط الصناعى نحو الشمال وما تبع ذلك من تدهور فى الأجزاء الجنوبية للقارة يعنى أن الصناعة أخذت ترتبط أو تطابق فى وجودها بالمناطق الجرمانية التى تدين بالبروتستانية أكثر من تطابقها مع الدول الكاثوليكية ذات اللغات الرومانسية . وقد ذهب بعض الكتاب إلى عزو هذه الظاهرة إلى خصائص اجتماعية معينة تتميز بها الديانة البروتستانية مثل القبول والموافقة على التغيير وتقديس العمل . وأن هذه الظاهرة هى التى أفضت إلى التطور الصناعى فى الشمال البروتستانتى أكثر منه فى الجنوب الكاثوليكى وليس هناك من شك فى أن بعض الأحداث قد ساعدت ماديا فى ارتقاء هولندا وبروسيا وانجلترا صناعيا مثل اضطهاد وطرد الحرفيين والتجار الهيوقنون Huguenot من قبل الحكومة الفرنسية الكاثوليكية والضغط الذى تعرض له الفلمنكيون البروتستانت من قبل حكامهم الأسبان الكاثوليك . وعلى أى حال فإن نقابات الجرمانيين هى التى كانت تقوم بالصناعات الرئيسية فى أوروبا عند حلول القرن الثامن عشر . ومع الصدارة الصناعية جاءت القوة السياسية التى ساعدت انجلترا فى الحاق الهزيمة بفرنسا وساعدت بروسيا فى السيطرة على النمسا وفى هذا المحتوى المكانى حدثت الثورة الصناعية بأبعادها الاقتصادية والحضارية

الثورة الصناعية

كان من نتائج الابتكارات والابتداعات التى أتت بها الثورة الصناعية بعد عام ١٧٣٠ تقويض نظام النقابات والصناعات المنزلية . وقد بدا واضحا أن هذه الثورة التى ما زالت مستمرة فى تقدمها، قد تضمنت أكثر التغييرات التكنولوجية أثرا فى حياة الإنسان ، وقد تحمل فى أحشائها أسباب فناء البشرية نهائيا . ومهما كانت نتائجها فإن بريطانيا هى التى شهدت تباشير تكنولوجيا هذه الثورة فى القرن الثامن عشر . وقد رافق هذه الثورة تغييران رئيسيان :

(١) حلت المكنات محل اليد البشرية فى تشكيل وإنتاج المنتجات ، وأصبحت كلمة manufacturing (تعنى مصنوعة باليد) قديمة تكنولوجيا . وبدلا من النساج الذى كان يقضى وقتا طويلا أمام نوله ليصنع قطعة إثر قطعة من القماش ، اخترعت مكنات ضخمة تؤدى نفس العمل بسرعة وبتكلفة أقل . وقد اصبح استخدام الغيارات ونظام التجميع الصناعى Assembly line ممكنا آليا فى كثير من الصناعات فى وقتنا الحالى .

(٢) ظهور الطاقة غير الحيوية وذلك عندما بدأ الإنسان فى تسخير الماء والبخار وأخيرًا الكهرباء والبترول والذرة فى استخداماته العديدة . وهذه التكنولوجيا لم تأت بين ليلة وضحاها بل أخذت عشرات السنين بل القرون ، كل اختراع على حدة ، لتصل إلى ما وصلنا إليه من تقدم ، وفيما بين ١٧٣٠و ١٨٥٠ حدثت كل التطورات المتصلة أو المرتبطة بالمرحلة التكوينية للثورة الصناعية فى المملكة المتحدة . فالثورة الصناعية هى هبة البريطانيين للعالم ومن ثم كانت أهميتهم كشعب فى تاريخ البشرية . ولهذا سنبحث فى تطور الثورة الصناعية فى بريطانيا أولا ثم فى انتشار هذه الثورة إلى أجزاء أوروبا الأخرى .

١ - صناعة النسيج :

هى أولى الصناعات التى تأثرت بالثورة الصناعية . وفيما بين ١٧٣٣ و ١٧٨٥ حدث تقدم أساسى فى تطوير وتحسين الأنوال الآلية التى أصبحت تدار بالقوة المائية ويشغلها عمال شبه مهرة . وكان هذا بداية النهاية للحرفيين . ثم أخذت المصانع تنشأ

حيثما وجدت مساقط المياه والشلالات التى تدير الأنوال وخاصة على الجوانب الشرقية والغربية من جبال البناين فى المنطقة الشمالية الوسطى من انجلترا ومنخفضات أسكتلنده حيث تنحدر الأنهار من سفوح المرتفعات المجاورة . وأصبحت منطقة لانكشير التى تقع على الجانب الغربى من جبال البناين المركز الرئيسى لصناعة النسيج الحديثة . وكان أول من استفاد من هذه المبتكرات وجنى من ورائها الأرباح هم تجار الأقمشة القطنية : ورثة أصول وتقاليد صناعة الصوف والكتان القديمة . وما لبثت صناعة الصوف فى يوركشير والتى يرجع تاريخها إلى العصور الوسطى أن استفادت من المبتكرات الجديدة وسخرت الأنهار التى كانت تمد غسيل الصوف بالماء الخفيف فى إدارة السواق التى كانت تدير الأنوال الآلية الجديدة .

٢ – تعدين الفحم :

طغت القوة المائية على المرحلة الأولى من صناعة النسيج كمحرك للآلات ولكنها لم تدم طويلا . فخلال ستينات القرن الثامن عشر أتقن الأسكتلندى جيمس واط وآخرون صناعة ماكينة البحار وبدأ أول مصنع نسيج يدار بواسطة البخار عمله فى عام ١٧٨٥ . وسرعان ما نالت هذه الطاقة الجديدة قبول الجميع . ولكن هذه الآلات التجارية كانت تحتاج إلى كميات كبيرة من الوقود لإدارتها وتشغيلها ، وبريطانيا كانت فقيرة فى الغابات التى تقلصت مساحاتها نتيجة انتشار الزراعة والاستيطان البشرى ولم تكن بقايا الغابات المتناثرة تكفى لسد احتياجات هذه الآلات من وقود . ولكنها عوضت هذا الفقد فى الغابات بمصادر أهم منها ألا وهو الفحم الحجرى . وهكذا شاءت الأقدار أن يكون استخراج الفحم ثانى صناعة تتأثر بالثورة الصناعية . وكان تعدين الفحم بكميات قليلة معروفا منذ العصر الرومانى حين كان الفحم يستخدم لتسخين وتدفئة الحمامات الرومانية العامة فى هذه الأصقاع الباردة . وكذلك فى العصور الوسطى لتدفئة المنازل مما أدى إلى تلوث الهواء فى لندن فى القرن الثالث عشر . ولكن حتى بداية القرن التاسع عشر كانت الكمية المستخدمة قليلة عير ذات بال .

ولكن مشكلة الفحم الحجرى تكمن فى كونه كبير الحجم مما يصعب ترحيله

لمساحات طويلة وكانت هذه المشكلة أكثر تفاقما فى بداية القرن التاسع عشر قبل أن تتطور وسائل النقل من سكك حديد ومكنات الاحتراق الداخلى والسفن الكبيرة . وكانت النتيجة أن انجذبت الصناعات التى تعتمد على الفحم كمصدر قوة إلى حيث يستخرج الفحم .. أى إلى حقول الفحم تماما كما انجذبت الصناعات الأولى إلى مساقط المياه والشلالات . وشاءت الأقدار أن توهب أقاليم لا نكشير ويوركشير والمنخفضات الأسكتلندية بكميات كبيرة من الإرسابات الفحمية مما أتاح انتقالا مريحا من القوة المائية إلى القوة الحرارية وبأدنى قدر من التغيير فى موضع المصانع . وبالإضافة إلى ذلك وجدت كميات ضخمة من إرسابات الفحم فى المنطقة الوسطى من انجلترا – منطقة الميدلاندز – وفى الأطراف الساحلية فى جنوبى ويلز ومنطقة نيوكاسل وفى ساحل بحر الشمال بالقرب من الحدود الاسكتلندية .

وسرعان ما برزت ظاهرة مميزة للثورة الصناعية : التركيز الإقليمى أو المساحى للصناعات : أى ظهور الأقاليم الصناعية . وفى الحقيقة أن مدنا وأقاليم معينة اشتهرت بمنتجات معينة تحت نظام النقابات ولكن معظم هذه الصناعة كانت مشتتة فى مدن صغيرة عديدة عبر أقاليم شاسعة ، وعلى عكس ذلك تركز الإنتاج الآلى فى عدد قليل من المدن والأقاليم التى أخذت تستقطب أعدادا ضخمة من السكان . وأدى انجذاب الصناعة نحو حقول الفحم إلى سرعة التركيز المساحى للصناعة مما سبب زيادة كبيرة فى السكان فى الأقاليم المفضلة وهجرة على نطاق واسع من أجزاء أخرى من البلاد .

(٣) صناعة الحديد والصلب :

تعتبر الصناعات المعدنية من الصناعات القديمة التى يرجع تاريخها إلى بداية عصر البرونز والحديد فى فترات ما قبل التاريخ . وعبر معظم عصور التاريخ كانت صناعة الحديد عملية بدائية تتم بدون فهم واع لما يحدث بالضبط : وكان خام الحديد يسخن فى نار من الفحم النباتى ويتحد الكربون من الفحم مع الأوكسجين من خام الحديد لينتج الحديد . وتضفى وحدة بعض الكربون مع الحديد متانة للمادة لأن الحديد الصافى مرن ويسهل قطعه أما إذا كانت كمية الكربون كبيرة فالحديد الناتج

يبقى هشا .. أى يكون الناتج حديد الزهر الهش . أما إذا كانت الكمية صحيحة فالنتيجة هى الصلب . ويمكن إنتاج أنواع من الصلب بإضافة ما يسمى بالسبائك الحديدية Ferroalloys مثل النيكل أو الكروم وتتم هذه العملية عن طريق الصدفة أو بالقصد .

قبل منتصف القرن الثامن عشر كان صانعو الصلب يلجأون إلى ممارسة طقوس وخرافات واحتفالات معينة عندما يريدون إنتاج نوع جيد من الصلب . وبعض المدن التى اشتهرت بصناعة أنواع جيدة من الصلب فى تلك الفترة مثل توليد وسولينجن كانت تدين بشهرتها فى أغلب الحال إلى وجود إرسابات محلية من الحديد الجيد الذى كان يعطى تلقائيا صلبا جيد النوع عند صهره . وعبر آلاف السنين لم يطرأ أى تغيير فى طريقة معالجة الحديد . وكانت الصناعة نفسها مشتتة ذات طابع ريفى وتقع فى الأقاليم الجبلية النائية ذات الكثافات السكانية المتخلخلة .

وأتت الثورة الصناعية بتغييرات رئيسية فى صناعة الحديد والصلب : —

(أ) فقد حل فحم الكوك Coke محل الفحم النباتى كمصدر للحرارة فى عملية صهر خام الحديد . والكوك عبارة عن كربون صافى يحترق فى درجة حرارة عالية وينتج بتسخين نوع جيد من الفحم الحجرى بطرد المكونات الغازية . وكانت بريطانيا أول دولة تقوم بإنتاج واستخدام فحم الكوك فى صناعة الصلب إذ كان أكثر من ٧٠٪ من أفران الصهر العالية blast furnaces فى انجلترا وأسكتلندا تعتمد على الكوك فى عام ١٧٨٨ وارتفعت هذه النسبة إلى حوالى ٩٧٪ بحلول عام ١٨٠٦ .

وقد أحدث قبول الكوك كوقود فى صهر الحديد تغييرا جذريا فى التوزيع المساحى لصناعة الصلب . فقد هجرت الصناعة الأفران البدائية العديدة وبحكم الضرورة رحلت إلى مناطق الفحم حيث تتوفر إمكانية الحصول على الكوك رخيصا . وهكذا ساهمت صناعة الحديد والصلب أيضا فى عملية تركيز الصناعات فى أقاليم قليلة .. ولحقت هى بصناعة النسيج فى الهجرة نحو حقول الفحم .

برزت أقاليم فى بريطانيا كمراكز مهمة لصناعة الحديد والصلب :

(١) على نهر تير Tees بالقرب من ساحل بحر الشمال حيث اجتمع فحم نيوكاسل وحديد مرتفعات كليفلاند .

(٢) فى الميدلاندز حيث يوجد الفحم والحديد جنبا إلى جنب مما أدى إلى ظهور مدن صناعية مثل بيرمنجهام وشيفيلد .

(٣) وجود خامات الحديد المحلية بالقرب من حقول الفحم فى جنوب ويلز والأطراف الغربية لمنخفضات أسكتلنده حول جلاسقو أدى أيضا إلى ازدهار صناعة الصلب فيها .

(ب) وتتضمن التحسينات التى أدخلت فى صناعة الحديد والصلب البريطانية :

(١) فصل الصهر والتكرير أو التنقية إلى عمليتين متميزتين

(٢) عملية مص أو تسويط الحديد (puddling process) أى إضافة مؤكسد إلى ذائب الحديد لجعله حديدا مطاوعا . وهى طريقة محسنة لاستخلاص الحديد الخالص من زهر الحديد (cast iron) بعد الصهر المبدئى .. وقد اخترعت فى عام (١٧٨٤) .

(٣) ماكينة صقل الصفائح الصلبية the rolling mill التى حلت محل المطرقة والسندان فى العمليات النهائية وهى عبارة عن آلة لعمل وصقل الصفائح الصلبية .

(٤) تطوير أنواع كبيرة من الأفران العالية blast furnaces بدلا من الأفران الصغيرة .

(٥) طريقة بيسمر Bessemer Process (١٨٥٦) التى استخدمت لأول مرة الأوكسجين المشتق من الهواء فى أغراض تنقية الصلب مما أتاح مجالا أوسع للعمليات المختلفة .

(٦) اختراع طريقة الفرن المفتوح Open hearth (١٨٦٨) التى أتاحت الضبط والتحكم على محتوى الكربون فى الصلب .

(٧) طريقة غيلكرايست Gilchrist Process (١٨٧٦) التى سمحت استخدام خام الحديد الفسفورى الفقير النوع .

وبإحلال التفهم والعلم محل الخرافات اتخذ علم المعادن طابعا رفيعا ومصقولا وكان من نتائج ذلك الرق والارتقاء أن زاد استخدام السبائك الحديدية Ferroalloys .

وهكذا تصدرت بريطانيا العالم فى القرن التاسع عشر من خلال هذه الابتكارات والتغييرات التى أحدثتها وأنشأت مجتمعا قوامه الصلب .

(٤) صناعة السفن :

وصناعة السفن صناعة أخرى أحدثت فيها الثورة الصناعية تغييرا دائما . والسفن المعروفة آنذاك كانت صغيرة الحجم وتصنع من الأخشاب وتتحرك بواسطة الهواء أو المجاديف ، وكانت انجلترا تعتمد اعتمادا أساسيا على مستعمراتها الأمريكية ، وخاصة نيوانجلند ، فى الأخشاب فى صناعتها وفى الحقيقة كان لنقص الأخشاب فى بريطانيا دور كبير فى بروز مدينة بوسطن كمركز مهم لصناعة السفن .

ومنحت الثورة الصناعية عروضا ضخمة لسفن أكثر سرعة وأكبر حجما لنقل المواد الخام الثقيلة والمنتجات الصناعية ، كما وفرت الثورة الوسائل التكنولوجية لإنتاج مثل هذه السفن الضخمة فقد حل الصلب محل الخشب والبخار محل الرياح . وبحلول الخمسينات من القرن التاسع عشر كانت السفن الحديثة تمخر عباب المحيطات موصلة بريطانيا بمستعمراتها العديدة المترامية الأطراف .

وظهرت مراكز بناء السفن الأساسية فى بريطانيا فى الأماكن التى كانت مصانع الصلب قريبة من السواحل مثل منطقة التاين Tyneside بين نيوكاسل وبحر الشمال . ولكن المركز الرئيسى كان حول منطقة كلايد Clydeside بالقرب من جلاسقو فى المنخفضات الاسكتلندية ، وبحلول عام ١٨٩٠ كانت مصانع السفن البريطانية تنتج ٨٠٪ من السفن البحرية فى العالم .

(٥) الصناعات الأخرى .

كانت صناعات النسيج واستخراج الفحم والصلب والسفن تكون لب الثورة الصناعية ، ولكنها لم تكن تشمل كل أنواع الصناعة التى انبثقت منها . فتجمع هذه الصناعات فى حقول الفحم كان سببا فى جذب السكان والصناعات الأخرى

(١) استخدام الآلات أو المكنات أدى إلى نشوء صناعة جديدة تتخصص فى صناعة الآلات وأدوات أو أجزاء المكنات . ونظرا لأن المواد الخام لهذه الصناعة – الصلب – وسوقها التى تتمثل فى الصناعات الأخرى ، كانت توجد فى حقول الفحم نفسها ، فإنه من المنطقى أن يختار صانعو الآلات موقع مصانعهم بجانب هذه الحقول أيضا . وكلما أصبحت المكنات أكثر تعقيدا وذات أغراض متعددة وازداد الطلب عليها ، كلما نمت هذه الصناعة وتطورت إلى أن أصبحت من أهم الصناعات .

(٢) وصناعة أخرى تعتبر أساسا من الصناعات الجديدة تتمثل فى الصناعات الكيماوية التى تتضمن الأصباغ والبوهيات والأسمدة والأدوية والمتفجرات والصابون وكذلك المنتجات الكيماوية الراقية مثل المنسوجات أو الألياف الاصطناعية . وكثير من هذه المواد يمكن استردادها من منتجات عملية صنع الكوك الجانبية by-product وهذا السبب يفسر جزئيا نزوح كثير من المصانع الكيماوية إلى حقول الفحم .

(٣) ومن الصناعات الأخرى (غير صناعة الصلب والمكنات) التى كانت تستخدم الصلب كمادة خام واختارت مواقع بالقرب من مصانع الصلب نجد : صناعة السكاكين وأدوات المائدة والآلات الطبية والأقفال والأسلحة . كما وجد صانعو الملابس أحسن موقع لهم بالقرب من مصانع النسيج .

(٤) كان لتجمع الصناعات فى حقول الفحم دور كبير فى اجتذاب أعداد ضخمة من السكان لهذه المواقع بحثا عن العمل فى مصانعها العديدة وكانت النتيجة أن تجمع السكان فى هذه المراكز الصناعية ، وبالتالى أخذت بعض الصناعات الأخرى تجتذب إلى مراكز التجمعات السكانية هذه خاصة تلك التى تتطلب منتجاتها القرب من مناطق الاستهلاك مثل الخبازين والجزارين ومعلبى اللحوم وصانعى المشروبات والأطعمة وناشرى الصحف والمجلات .

(٦) تطور الصناعة فى منطقة لندن

نظرا لأهمية الفحم كمحدد لموقع الصناعات المختلفة فى بريطانيا خاصة فى المراحل الأولى من الثورة الصناعية ، أخذت كل الصناعات تتركز فى حقول الفحم

ما عدا منطقة واحدة ، وهى منطقة لندن . فقد كانت المدينة بعيدة من حقول الفحم ولم تكن لها موارد ذات أهمية غير نهر التيمز الصالح للملاحة . ورغم افتقارها إلى كثير من مقومات الصناعة فقد تطورت لندن إلى أكبر مركز صناعى فى المملكة المتحدة وذلك للأسباب الآتية :

١ - كانت لندن مركزا لتجمع سكانى ضخم حتى قبل الثورة الصناعية . ففى أواخر القرن السابع عشر وصل عدد سكانها ٧٠٠٫٠٠٠ نسمة أى شخصا واحدا من كل عشرة بريطانيين كان يسكن لندن . وعندما جاءت الصناعة كان هناك مستهلكون (سوق) وعمال (عمل) بأعداد وفيرة .

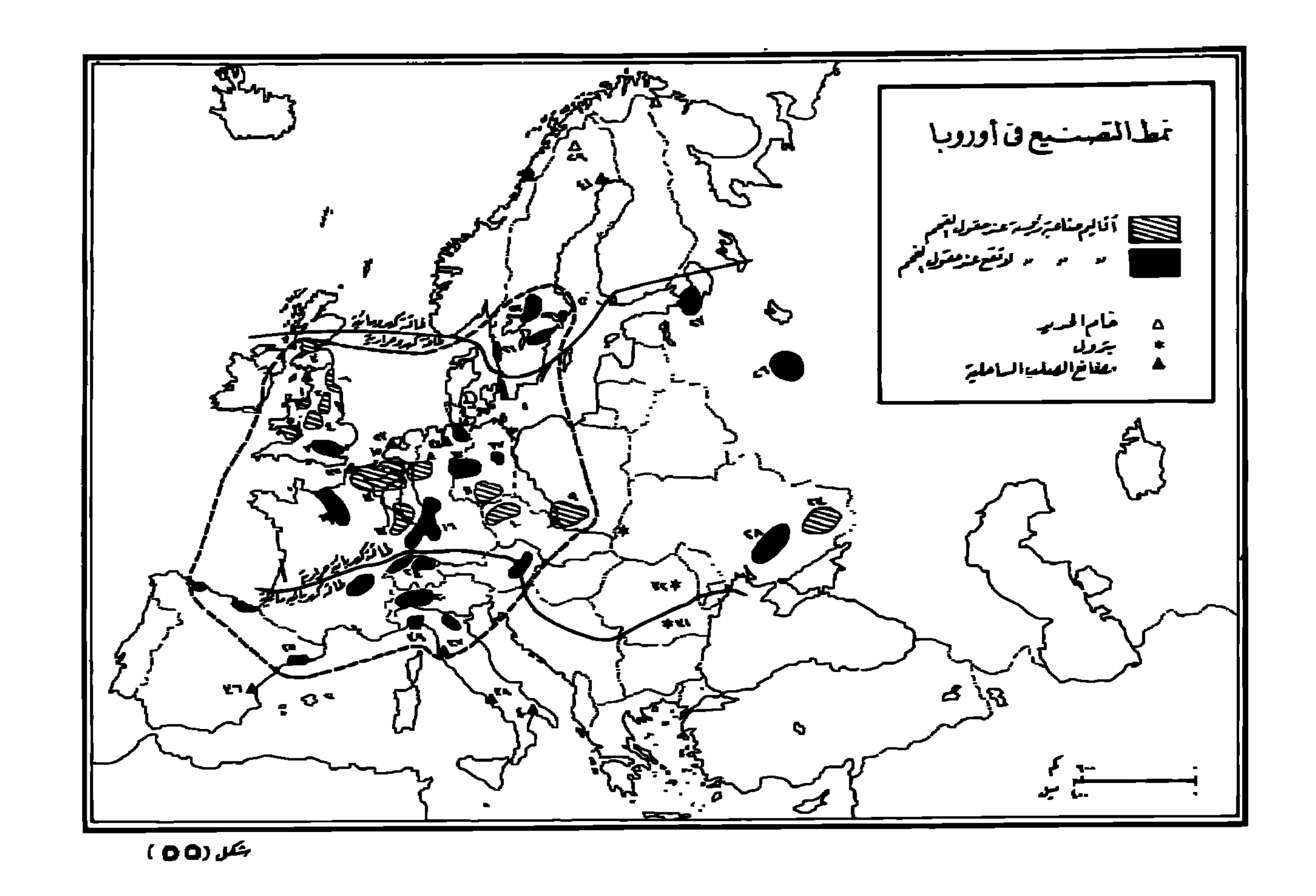
٢ - كانت لندن المركز التجارى للدولة وعبر مينائها تمر ثلاثة أرباع تجارة الدولة الخارجية (١٧٠٠) وكانت النتيجة أن تجمعت بها البنوك وشركات التأمين وبيوت السمسرة وهذا أدى بدوره إلى نمو المدينة . ووجدت الصناعات التى تعتمد على المواد الخام المستوردة أو على الأسواق الأجنبية لتصريف منتجاتها فى لندن موقعا ممتازا لمصانعها .

(٣) كانت طبقة التجار الأثرياء فى المدينة تمتلك وتتحكم فى رأس مال ضخم للاستثمار فى النشاطات الصناعية المختلفة .

وكانت النتيجة أن ازدهرت لندن ابان الثورة الصناعية وأصبحت اليوم موطنا لخمس سكان الجزيرة ولصناعات متنوعة تتراوح من صناعة الملابس والأطعمة إلى تكرير البترول وإنتاج العربات وصناعة المعدات الكهربائية والطائرات .

انتشارا الثورة الصناعية إلى حقول الفحم الأوروبية : (الشكل ٥٥) .

كانت بريطانيا تأمل فى الاحتفاظ بالثورة الصناعية فى أرضها وفعلا كانت هناك محاولات لكبت أسرارها والحيلولة دون تسربها إلى باقى أجزاء القارة ولكنها باءت بالفشل . أما أولى المستفيدات من آثار هذه الثورة فكانت أوروبا الرئيسية حيث بدأت أقاليم صناعية فى الظهور منذ القرن التاسع عشر . وفى بادىء الأمر اقتصر الانتشار على المناطق الجرمانية البروتستانتية خاصة شمال ألمانيا . ولكن هذا لا يعنى


نمط التصنيع فى أوروبا
أقاليم صناعية بعيدة عن حقول الفحم
" " " تقع عند حقول الفحم
خام الحديد
بترول
مصانع الصلب الساحلية

شكل (٥٥)

أن خصائص متعلقة بالعقيدة البروتستانتية كانت الدافع للتصنيع . بل هناك أرتباط وثيق بين التصنيع وبين مواقع حقول الفحم وكان من حظ الشعوب الجرمانية أن جزءا من أراضيها تحتوى على إرسابات صخمة من الفحم الجيد أكثر من أراضى الفرنسيين والأسبان والايطاليين الكاثوليك .

(١) إقليم الرور الصناعى :

كما حدث فى بريطانيا . تركز التصنيع فى أوروبا منذ البداية فى أماكن صغيرة وغالبا عند حقول الفحم . وقدر لمنطقة الرور فى ألمانيا الغربية أن تصبح أهم منطقة صناعية فى أوروبا وتتفوق على كل سابقاتها من الأقاليم البريطانية . ومنطقة الرور – سميت باسم فرع من فروع نهر الراين – تقع عند ملتقى السهل الألمانى الشمالى والمرتفعات الجنوبية المعروفة باسم سورلاند (Sauerland and Siegerland) وسيقرلاند ، وفى إحدى المناطق ذات التربات الخصبة المستمدة من إرسابات اللويس وتسمى البورد borde والتى توجد فى أجزاء عديدة من الأطراف الجنوبية من السهل العظيم . أما نهر الرور فيجرى خلال نطاق التلال وتفصله من السهل الشمالى خط ضيق من التلال يعرف باسم هارسترانق Haarstrang (بمعنى خيط الشعر) . وإلى الشمال من هارسترانق وتحت تربة البورد الخصبة توجد إرسابات ضخمة من فحم جيد النوع وتظهر على السطح فى بعض الأماكن القريبة من الأطراف الجنوبية هذه التلال .

تأخر تطوير منطقة الرور أكثر من تطور أجزاء بريطانيا وبلجيكا المماثلة . ومنذ العصر الحجرى الحديث جذبت تربة المنطقة الخصبة أعدادًا كبيرة من المزارعين وكان استغلال الفحم يقتصر وبنسبة ضئيلة على الإرسابات السطحية لاستخدامه فى تدفئة المنازل محليا .. وذلك فى القرن الثالث عشر . وفى العصور الوسطى تطورت صناعة الحديد والصلب تحت نظام النقابات فى مدينة سولينجن وغيرها من الأماكن فى مرتفعات سورلاند وسيقرلاند ، وكانت تعتمد على خام الحديد المحلى والفحم النباتى من الغابات الكبيرة المتبقية . وفى أواخر العصور الوسطى قويت صناعة الأقمشة الكتانية المصنوعة من الكتان المزروع محليا بواسطة النقابات والقرويين واكتسبت أهمية كبيرة فى هذه المنطقة .

وحتى بداية القرن التاسع عشر كانت مصانع الصلب تعمل بالأساليب التقليدية وكانت صناعة النسيج تتركز غرب نهر الراين ، وكانت المنطقة معزولة تماما من آثار الثورة الصناعية التى كانت تجتاح بريطانيا إلا من بعض المضخات البخارية التى أقيمت لايقاف تسرب المياه فى مناجم الفحم الصغيرة . أما المدن فقد ظلت صغيرة ومحصورة داخل أسوار العصور الوسطى العالية وتؤدى مهمتها كمراكز تجارية وزراعية . ولنصف قرن بعد ذلك بقيت منطقة الرور ريفية فى مظهرها وظلت الصناعة على حالها معزولة من أثر الثورة الصناعية وتعمل بأساليبها التقليدية التى ورثتها من العصور الوسطى .

وفى عام ١٨٥٠ ظهر أول معلم من معالم الثورة الصناعية فى هذه البيئة الريفية : فقد شهدت مدن كريفيلد Krefeld ميونيخ – جلادباخ München - Gladbach وبعض مدن غرب الراين . شهدت أول مصانع آلية تدار بالبخار ، ووجد أصحاب الصناعات المنزلية والنقابات أنفسهم أمام هذا التيار العارم من التغيير والتكنولوجيا الحديثة ، وكما حدث فى بريطانيا كانت صناعة النسيج أولى الصناعات التى تأثرت بالثورة الصناعية فى ألمانيا .

وفى نهاية القرن التاسع عشر برزت منطقة الرور كأهم منطقة صناعية فى أوروبا . وكانت هذه النهضة مطابقة لتوحيد ألمانيا . ومن آثار هذا التغيير أن ازداد إنتاج الفحم سبعة أضعاف فيما بين ١٨٠٠ – ١٨٥٠ ، وثلاثة وثلاثين مرة خلال النصف الأخير من هذا القرن . وأصبحت المناجم كبيرة تستخدم مئات الآلاف من العمال وأحدث الآلات وتغيرت إلى مؤسسات حضرية ضخمة بدل أن كانت صغيرة وريفية . وآل معظمها إلى ملكية شركات الحديد والصلب الكبيرة . وكما حدث فى بريطانيا نزحت مصانع الحديد والصلب إلى حقول الفحم وحلت المصانع الضخمة التى تستخدم فحم الكوك محل النقابات الصناعية التى كانت تعتمد على الفحم النباتى .

ولم يكن خام الحديد المحلى كافيا لسد احتياجات ألمانيا الصناعية ومن ثم أخذت الدولة تستورد كميات ضخمة من خام الحديد من السويد وأسبانيا وإقليم اللورين

(التى ضمتها ألمانيا إليها فى تلك الفترة) . وتصدر فحم الكوك فى عملية مبادلة . وبرز نهر الراين العريق كأهم ممر نهرى لنقل البضائع وحلقة الوصل بين منطقة الرور وبقية أجزاء العالم ، ويعج الآن بالصنادل الضخمة التى تحمل خام الحديد أو الفحم أو المنتجات الصناعية .

وكان طبيعيا أن يزداد سكان المنطقة أثر هذا التطور وانتشار وتوسع المدن الصناعية . وعلى طول الجانب الشمالى لتلال هارسترينق تطورت مراكز حضرية عديدة تمتد من دورتمند Dortmund فى الشرق عبر بخوم Bochum وإسن Essen وأوبرهاوسن Oberhausen إلى دويسبيرج Duisburg ، على نهر الراين فى الغرب . وازداد سكان مدينة إسن مثلا من ٤٫٠٠٠ شخص فى العصور الوسطى إلى ١٠٫٠٠٠ فى منتصف القرن التاسع عشر ثم إلى ٢٠٠٫٠٠٠ فى عام ١٩٠٠ .

ولم يكن عدد السكان الزراعيين المحليين كافيا لتمويل الصناعات المزدهرة بما تحتاج اليه من أيدى عاملة ، ولذلك أخذ الناس يتوافدون من باقى أجزاء ألمانيا وبلجيكا وهولنده وشرق أوروبا .. وهكذا أصبحت منطقة الرور بوتقة ينصهر فيها هؤلاء المهاجرون مما أضفى لها شخصية عرقية مميزة عن باقى مناطق ألمانيا الأخرى .

وخلال جو الرور الريفى الصحو أخذت المصانع تقذف بأدخنتها الكثيفة تلوث بها البيوت والبيئة وصدور الناس ، وعلى هذه الأدخنة بنت ألمانيا مجدها الصناعى وبرزت كأكبر منطقة صناعية فى أوروبا . وشهدت سنين ما بعد عام ١٩٠٠ أحداثا جسيمة وتطورات ضخمة كانت لبعضها آثار مأسوية : فترتان خلال هذه الفترة جندت امكانيات المنطقة لتمويل الأسلحة للجيش الألمانى وفى المرتين كانت العواقب وخيمة عليها . لم يجلب فقدان ألمانيا للحرب العالمية الأولى دمارا ماديا لمنطقة الرور لأن جبهة الحرب كانت تقع بعيدا فى فرنسا عندما استسلمت ألمانيا .

وقد طالبت فرنسا بتعويضات مبالغ فيها . وعندما فشلت ألمانيا من دفعها اتخذت فرنسا ذلك حجة فى غزو واحتلال منطقة الرور (١٩٢٣ — ١٩٢٤) .

أما الحرب العالمية الثانية فقد تركت المنطقة خربة ومشلـــــولة اقتصاديا وحوكم عتاة الصناعة فيها من أمثال كروب Krupp كمجرمى حرب وأودعوا السجون .

واقترح بعض المستشارين السياسيين الأمريكيين بارجاع الرور إلى حالتها الزراعية الأصلية وتحويل أكبر منطقة صناعية إلى « مراعى » للماعز والأغنام لمنع أية محاولة لإحياء ألمانيا مستقبلا . ولكن شاءت الأقدار أن يحدث عكس ما تمنوه : فقد تحملت عبء إنعاش وإعادة تطوير الرور من خلال مشروع مارشال ، وفى مدة وجيزة رجع مستوى الإنتاج إلى ما كان عليه قبل الحرب وتفوق عليه .

واليوم تمثل الرور قلب السوق المشتركة النابض . ومركز المنطقة أو الرور الداخلية (والتى تمتد لمسافة ٥٦ كيلو مترا من الشرق للغرب و٢٤ كم من الشمال إلى الجنوب) مقسم تقليديا بين مصانع الصلب الجنوبية ونطاق استخراج الفحم الشمالى . وباستنزاف الإرسابات السطحية فى الجنوب انتقل تعدين الفحم تدريجيا إلى الأجزاء الشمالية من المنطقة . أما الرور الخارجية ففيها نجد مراكز النسيج فى فوبرتال Wuppertal ومدن الراين ، وفيها أيضا صناعات أخرى عديدة ومنها تلك التى تستخدم الصلب كمادة خام فى صناعاتها .

(٢) إقليم سايليزيا العليا الصناعى :

عند منابع نهر الفيزر والأودر فى جنوبى بولنده حيث يلتقى السهل الشمالى الأوروبى مع جبال الكربات والسوديتس Sudetes فى منطقة تربات البورد الخصبة يقع إقليم سايليزيا العليا الصناعى التى تعتبر ألمانية من حيث نشأتها وتطويرها وبولندية من حيث ملكيتها (منذ عام ١٩٤٥) .

وتحت نظام النقابات قامت هناك صناعة تقليدية قوامها صهر الحديد بواسطة الفحم النباتى المستمد من الغابات الكثيفة فى المنطقة وخام الحديد المحلى القليل . أما إرسابات الفحم الغنية فقد تركت بدون استغلال . وكانت هناك عوائق تحول دون تطوير سايليزيا العليا التى كانت جزءا من مديرية شليسن Schlesien البروسية والتى أخذت بالقوة من النمساويين فى منتصف القرن الثامن عشر . وهذه العوائق هى :

١ – موقعها فى ركن ناء من بروسيا ، وبعيدا من الأسواق وفى منطقة متخلخلة السكان عندما كانت ألمانية .

٢ – كان نهر الأودر فى مصبه قليل الإمكانيات من حيث الصلاحية للملاحة وكوسيلة لنقل البضائع ، وكان بعيدا من البحر ومن ثم الأسواق الخارجية .

٣ – لم تكن إرسالات الفحم بالضخامة التى وجدت فى الرور .

رغم هذه المعوقات شهد الإقليم برنامجا تصنيعيا كبيرا فى القرن التاسع عشر ويعزى ذلك جزئيا إلى رغبة حكومة « بروسيا » فى النهوض بالإقليم متمثلة فى التشجيعات الألمانية بما فى ذلك الإعانات المالية التى منحت لملاك الأراضى الأغنياء الذين كانوا يملكون معظم أراضى الإقليم ، وقد استجاب هؤلاء باستثمار أموالهم فى الصناعة .

وكان لقلة فحم الكوك وكثرة الغابات فى سايليزيا العليا دور كبير فى استمرار استخدام فحم النبات لمدة أطول حتى حوالى الستينات من القرن التاسع عشر . وبعد نفاذ خام الحديد المحلى أخذت المنطقة تستورد الحديد من النمسا عن طريق السكة الحديد عبر بوابة مورافيا . ثم أجريت تحسينات عديدة فى مجرى نهر الأودر فى عام ١٨٩٥ بغية الوصول إلى بحر البلطيق ومن ثم أصبحت السويد أهم ممول للحديد للإقليم . ولكن الإقليم لم يرق إلى مصاف الرور من حيث الأهمية والإنتاج الصناعى . وكان ينتج حوالى ١٠٪ من إنتاج ألمانيا من الحديد فى عام ١٩٠٠ .

وعلى خلاف منطقة الرور عانت سايليزيا العليا من تغييرين أساسيين فى الحدود السياسية فقبل الحرب العالمية الأولى كان كل الإقليم يقع داخل الأراضى الألمانية إلا من جزء صغير عبر الحدود فى النمسا والمجر . وبعد الحرب منح نصف الإقليم إلى الدولة البولندية الجديدة وقد تم ذلك على أساس استفتاء شعبى قامت به عصبة الأمم بين سكانه . وفى عام ١٩٤٥م استولى البولنديون على النصف الآخر وطرد الألمان المقيمون فيها وهكذا حصلت بولنده على منطقة صناعية متقدمة أصبحت الأساس التى بنت عليه نهضتها الصناعية فيما بعد .

(٣) إقليم سار ولورين الصناعى

وهذا إقليم صناعى قائم فى حقول الفحم طوره الألمان أيضا . ويمتد على جانبى الحدود الحالية بين ألمانيا وفرنسا ويتضمن أجزاء من جنوبى لوكسمبرج . والسار تقع

فى ألمانيا وبها كمية كبيرة من الفحم فى حين أن لورين الفرنسية هى إحدى المراكز الرئيسية لتعدين خام الحديد فى أوروبا . ولحق الإقليم بركب الصناعة متأخرا ، فقد تم استخدام الكوك لأول مرة فى عام ١٨٣٨ وحل محل الفحم النباتى بالتدريج ، وتم إدخال الأفران العالية فى صناعة الصلب فى الخمسينات ، وفى الحقيقة لم يتم أى تقدم صناعى أساسى فى المنطقة الا بعد أن ضمت ألمانيا المتحدة إقليم اللورين إليها فى ١٨٧١ . كان العائق الأساسى للتوسع الصناعى هو أن فحم سار لم يكن يصلح لعمل فحم الكوك مما استلزم استيراد الفحم من منطقة الرور . وقد ساعد فى هذه العملية شق القنوات فى نهر الموزيل Mosselle مما سهل نقل الفحم والحديد بين الإقليمين .

وكانت للأهمية الصناعية لإقليم سار ولورين دور فى احداث تغييرات عديدة فى الحدود فى القرن الماضى : وقد استولت ألمانيا على إقليم اللورين مرتين وخسرتها فى حين أن فرنسا حاولت مرتين ضم إقليم سار إليها بدون جدوى .

(٤) إقليم سامبر – ميوز – ليز الصناعية : Sambre - Meuse - Lys

قبل حدوث الثورة الصناعية بمدة طويلة كان حوض نهر ليز Lys عند الحدود الفرنسية البلجيكية مركزا لصناعة نسيج مزدهرة بينما كانت صناعة المعادن تتجمع فى المدن الواقعة على طول نهرى سامبر وميوز فى بلجيكا الوسطى . وفى العصور الوسطى كان الحرفيون ينتجون النحاس والنحاس الأصفر والحديد فى مدن دينان Dinant ونامور Namur وهوى Huy . وفى منتصف القرن السادس عشر كانت توجد حول مدينة نامور زهاء ١٢٠ كير وفرن تخدم نشاطات ٧٠٠٠ شخص من صناع الفحم النباتى . ومن ثم عرف إقليم برابانت Brabant ذات الغابات الغنية باسم Silva Carbonnaria أو « غابة صانعى الفحم النباتى » .

وكما فى إقليم الرور وسايليزيا العليا يوجد فحم إقليم سامبر ميوز فى السهل الأوروبى عند حافة تلال الأردن Ardennes . وقد بدأ استخدام الفحم كوقود فى القرن السادس عشر على يد صانعى المعادن وكان يصدر إلى الجهات المجاورة . أما الاستغلال الحقيقى له فلم يتم إلا فى القرن التاسع عشر . وقد كان الجزء الولونى

Walloon (الفرنسى) من إقليم سامبر – ميوز هى التى تم فيها استخدام فحم الكوك لأول مرة حين تم فى مدينة لييج Liege إنشاء فرن عال يعمل بالكوك فى ١٨٢٣ . وبحلول عام ١٨٤٢ قفز عدد الأفران التى تعمل بالكوك إلى ٤٥ فرنا من مجموع ١٢٠ فرن فى المنطقة ، وفى عام ١٨٦٠ فاق إنتاج فحم الكوك فيها إنتاج أية منطقة صناعية فى أوروبا (عدا بريطانيا) .

وكان حرفيو إقليم سامبر – ميوز من أوائل الصناعيين الذين تبنوا التقنية البريطانية الجديدة ولم تستطع منطقة الرور ، رغم مواردها الكبيرة أن تبز على إقليم سامبر ميوز إلا فى أواسط الستينات . وتتضمن ميزات الإقليم الآتى :

١ – نهر ميوز Meuse (Maas) الصالح للملاحة .
٢ – كميات كافية من فحم الكوك Coking-Coal .
٣ – إرسابات خام الحديد المحلية .

وكانت لهذه الخصائص أهمية كبرى فى بداية النهضة الصناعية ، ولكن الإقليم يستورد كميات كبيرة من الفحم وخام الحديد الآن .
والمشكلة التى تواجه الإقليم حاليا تتلخص فى استهلاك أو نفاذ موارد الفحم المحلية ومشاكل تحديث الصناعة .

وقد ظلت صناعة الحديد والصلب من أهم صناعات الإقليم مما جعل بلجيكا تحتل المرتبة الخامسة بين دول أوروبا المنتجة للصلب . ومن الفحم تنتج الكيماويات النايتروجينية . أما صناعة النسيج فمركزها ليل Lille فى فرنسا التى تشتهر بمنتجاتها القطنية والكتانية والصوفية ، وفى فيرفيرز Verviers فى بلجيكا حيث تسود الأقمشة الصوفية ، وفى مراكز صغيرة عديدة فى حوض نهر ليز Lys .

وإقليم سامبر – ميوز – ليز هى المنطقة الوحيدة التى شذت من التقليد الصناعى السائد فى أوروبا فى القرن الماضى وذلك لأنها جزئيا جرمانية وتدين بالكاثوليكية على عكس الأقاليم الصناعية الأخرى فى أوروبا التى تدين بالبروتستانتية .

(٥) إقليم حوض بوهيميا الصناعى Bohemian Basin

ومن الأقاليم الكاثوليكية التى حدث فيها التصنيع فى القرن التاسع عشر الجزء الشمالى من مديرية بوهيميا التى كانت جزءا من النمسا (التى تحكمها ألمانيا) حتى عام ١٩١٨ ثم أصبحت تابعة لتشكوسلوفاكيا الآن . وبتشجيع من الحكومة النمساوية – المجرية نهضت منطقة صناعية كاملة فى السبعينات رغم العوائق التى تميز بها الإقليم من عزلة فى الموقع وعدم توفر أنهار صالحة للملاحة مثل مثيلتها سايليزيا العليا . وحتى ارسابات الفحم كانت ضئيلة بالمقارنة مع المناطق الصناعية فى ألمانيا وبلجيكا وبريطانيا .

وتتركز صناعة الحديد والصلب التى تقوم على ارسابات الفحم الموجودة شمال غرب براغ وخام الحديد من جبال أور Ore (Erzgebirge) القريبة فى الشمال ، تتركز فى مدن كلادنو Kladno وبلزن Plzen ، كما تساهم فى صناعة أسلحة سكودا Skoda ذات الشهرة العالمية .

أما المعدات والمكنات الثقيلة التى تشمل صناعة العربات وعربات وقاطرات السكك الحديدية فتصنع فى براغ . أما أنواع الصناعات الأخرى الموجودة فى الإقليم فتتضمن :

١ – الأنسجة القطنية والكتانية حول ليبريك Liberec .

٢ – صناعة الملابس فى براغ .

٣ – صناعة الخزف والزجاج المشهورة فى كارلوفى فارى Karlovy Vary وبلزن .

٤ – الكيماويات .

٥ – الصناعات الغذائية وصناعة البيرة (بيرة بلزن الشهيرة) .

وكثير من هذه الصناعة تطورت أساسا من العصور الوسطى .

(٦) مثلث ساكسون Saxon Triangle :

ومنطقة صناعية ألمانية أخرى ذات أهمية فى القرن التاسع عشر تشمل ذلك الجزء من مملكة ساخسن Sachsen أو ساكسونيا وتقع حاليا فى ألمانيا الشرقية ويقع مثلث

رؤوسها عند مدن بلاون Plauen وهال Halle ودرسدن Dresden . وفيها حقل فحم لكن من نوع أقل جودة من فحم الرور . ولكن هناك أسباب أدت إلى نمو المنطقة صناعيا منها :

١ – الامتيازات والإعانات التى قدمتها حكومة ساكسونيا .

٢ – وجود خام الحديد فى الجبال الواقعة جنوبى المنطقة .

٣ – هجرة الحرفيين من الهيوقنون الفرنسيين والهولنديين ساعدت كثيرا فى إنشاء صناعة الخزف والنسيج والأسلحة .

وحاليا تتركز صناعة النسيج فى مدينة بلاون ومدينة كارل ماركس Karl-Marx-Shadt (سابقا شمنتز Chemnitz) حيث حل استخدام الفحم محل القوة المائية التى اعتمدت عليها الصناعة من قبل .
أما الصناعات الكيماوية فتعتمد جزئيا على إرسابات الأوانى الخزفية الراقية والتى تشجعها الحكومة وتوجد فى منطقة درسدن أيضا صناعة الآلات الدقيقة كما أنها مركز تقليدى للمعارض التجارية .

انتشار التصنيع خارج حقول الفحم (الشكل ٥٥) :

كان النمو الصناعى فى المناطق الخالية من الإرسابات الفحمية من أوروبا بطيئا فى القرن التاسع عشر وشهد بعض المناطق ذات الصناعات التقليدية تدهورا فى صناعاتها فى وجه المنافسة من مناطق الفحم الصناعية . وقد تمكنت بعض المدن الكبيرة ذات الأعداد السكانية الضخمة من مجاراة لندن والاقتداء بها فى جذب الصناعات إليها بحكم الأعداد الضخمة من العمال والسوق الموجودة بها . وتتمثل هذه المراكز فى المدن مثل برلين وباريس وهامبرج وفيينا وروتردام .

وتخصصت باريس فى صناعتين أساسيتين هما :
(١) مواد الترف والرفاهية الراقية مثل ملابس الموضة والروائح والمجوهرات والتى كانت تصنع فى مصانع صغيرة موزعة حول المدينة .
(٢) الصناعات الهندسية والتى تسيطر عليها حاليا صناعة العربات وتتركز فى مدن الضواحى .

أما أجزاء فرنسا الأخرى فقد كانت متخلفة صناعيا للأسباب الآتية :

١ – عدم وجود الفحم .

٢ – نسبة النمو البطيئة لسكان فرنسا مما أدى إلى صغر حجم السوق والقوى العاملة .

٣ – التركيز الشديد لوسائل النقل فى مدينة باريس مما أدى إلى صعوبة الوصول إلى المواد الخام والسوق بالنسبة للأقاليم التى تقع فى الأطراف البعيدة .

٤ – تلكؤ الحكومة حتى القرن التاسع عشر فى تشجيع التصنيع خارج باريس .

ومن الأقاليم الرئيسية التى شهدت تطورا صناعيا كبيرا فى القرن التاسع عشر سهل أعالى الراين فى جنوب غرب ألمانيا والذى يتضمن مدنا هامة مثل مانهايم وفرانكفورت . وتكسب المنطقة أهميتها من وقوعها على طريق برى قديم كان يربط بين البحر المتوسط والسهل الأوروبى ، وكثير من مدنها قد ورثت صناعة النقابات منذ فترة . وفى القرن التاسع عشر أنشأت صناعات جديدة وخاصة الصناعات الكيماوية . وقد أصبحت مدينة لودفيج شافن Ludwigshafen المجاورة لمانهاين على نهر الراين موضعا لمصانع فاربن Farben الكيماوية المشهورة كما طورت هوخست Hochst وهى من ضواحى فرانكفورت صناعة مماثلة . وفى هذا القرن نشأت مصانع عربات هامة فى الراين العليا ووادى نهر نيكر Neckar مثل عربات مرسيدس ديلمر فى شتتقارت Stuttgart ومصانع أوبل Opel فى روسلشهايم Russelsheim بالقرب من فرانكفورت .

عند حلول القرن العشرين كان النطاق الصناعى فى أوروبا يتركز فى الأراضى الجرمانية وأساسا فى المملكة المتحدة وألمانيا ، فى حين أن أوروبا الشرقية والجنوبية لم تتأثر كثيرا بالثورة الصناعية . ولكن الاتجاه منذ بداية هذا القرن كان نحو تشتيت الصناعات لأماكن جديدة بدل تركيزها فى مناطق معينة وكان من نتائج هذه السياسة أن ظهرت دول صناعية مهمة مثل إيطاليا والسويد .

والأسباب الرئيسية وراء انتشار الصناعة وتشتتها يعزى إلى :

(١) تطوير مصادر جديدة للطاقة وخاصة القوة الكهربائية المائية .

(٢) تحسين و إتقان وسائل نقل جديدة تتيح حركة أكبر للمواد الخام والمنتجات المصنعة بدرجة عالية من الكفاءة .

(٣) تحسينات فى تكنولوجيا صناعة الحديد والصلب مما أتاح الاستفادة من كميات قليلة من الفحم فى العمليات الصناعية .

ويمكن الآن تقسيم أوروبا إلى ثلاثة نطاقات من حيث الطاقة المستخدمة حسب المفهوم الصناعى للطاقة : (الشكل ٥٥) :

١ – النطاق الأوسط والذى يطابق الحزام الصناعى القديم فى القرن ١٩ حيث تسود الطاقة الحرارية Thermal والمشتقة من وقود حفرى مثل الفحم ، وقد بدأ تحول أساسى من الفحم إلى استخدام البترول والغاز الطبيعى ومشتقاته والذى يستورد معظمه من الشرق الأوسط .

ولكن هناك كميات كبيرة من الغاز الطبيعى يستخرج الآن من مقاطعة غورينجن Goringen الهولندية ومن بحر الشمال حيث يتوقع أن يكون الرصيف القارى مصدرا مهما للبترول فى المستقبل كما حدث فى المياه الإقليمية لبريطانيا . وفى عام ١٩٦٩ كانت دول السوق المشتركة الواقعة فى داخل النطاق الحرارى تستمد ٥٧٪ من احتياجاتها من الطاقة من البترول و٣٠٪ من الفحم .

جدول ١٦ :

تقلص أهمية الفحم كمصدر طاقة فى بعض الدول الأوروبية :

	النسبة المشتقة من الفحم والليغنايت ١٩٦٩/٦٢/٢٩	النسبة المشتقة من البترول والغاز الطبيعى ١٩٦٩/٦٢/٢٩٢٩م	النسبة المشتقة من الطاقة الكهربائية ١٩٦٩/٦٢/٢٩م
المملكة المتحدة	٩٦ ٧١ ٤٨	٤ ٢٧ ٢٧	– ٢ ٥
بلجيكا ولكسمبرج	٩٩ ٧١ ٤٠	١ ٢٩ ٥٩	– – ١
النرويج	٣٥ ٤ ٥	٤ ١٨ ٣١	٦١ ٧٨ ٦٤
السويد	٦٥ ٧ ٥	٧ ٤٤ ٦٦	٢٨ ٤٩ ٢٩

(٢) يحيط نطاق الطاقة الحرارية من الشمال والجنوب نطاقان تسود فيهما القوة الهايدوكهربية حيث تمكن الجبال الشاهقة والمرتفعات من توليد القوة الكهربائية المائية . وحتى هنا نجد أن استخدام البترول والغاز الطبيعى يكتسب أهمية كل سنة ويزداد . ولكن مع الارتفاع المستمر لأسعار البترول من الصعب التكهن حول ما إذا كان البترول سيطغى على الكهرومائية كمصدر للطاقة . ولكن إذا تم اكتشاف كميات كبيرة من البترول والغاز الطبيعى فى بحر الشمال تكفى لسد احتياجات هذه الدول فليس من المستبعد أن يستمر الاتجاه الحالى وخاصة عندما يفوق الطلب على إمكانيات النطاقين من القوة الكهرمائية .

(١) إقليم وادى نهر البو الصناعى :

ساعدت القوة الكهربائية المائية فى إحياء وإنعاش المجد الصناعى لشمال إيطاليا خاصة المنطقة الواقعة عند مجارى نهر البو العليا بين تورينو وميلانو . وكانت ميلانو هى أول مدينة أوروبية تضاء بالكهرباء وذلك فى عام ١٨٨٣ . وقد أغدقت حكومة موسولينى على المنطقة الإعانات المالية والحوافز المغرية من أجل تصنيعها ووفرت لها أعدادا ضخمة من القوى العامة من مزارعى أطراف جبال الألب وجنوبى إيطاليا . ومنذ عام ١٩٤٥ شهدت المنطقة نهضة متواصلة وضعتها فى المرتبة الثانية بعد إقليم الرور من بين أقاليم أوروبا الصناعية الأخرى من حيث أهميتها . ومعظم الكهرباء التى تستهلك فى وادى البو تولد بحرق البترول والغاز الطبيعى .

أما صناعاتها المتنوعة فتشمل الحديد والصلب وتستورد خاماتها من الخارج وصناعات العربات مثل مصنع فيات فى تورينو وصناعة النسيج . وجنوه هى ميناء الإقليم الرئيسى وتابعة صناعيا للإقليم وفيها مصانع ضخمة للحديد والصلب وأحواض بناء السفن . أما مدينة البندقية العريقة فلم تستفد كثيرا من النهضة الصناعية هذه لأن البحر الأدرياتى يعتبر ممرا خلفيا وراكدا بالمقارنة مع البحر الأبيض ، وبعيدا من الأسواق والأماكن التى تمد الإقليم بالمواد الخام .

(٢) إقليم الهضبة السويسرية جورا Swiss Plateau-Jura :

تتميز المنطقة الصناعية بسويسرا التى تقع فى شمالى جبال الألب وتحتل هضبة فى

مرتفعات Jura جورا بصناعاتها التى أبرزت من البداية تكيفا لندرة المواد الخام التى تتميز بها الدولة . ولذلك فإن صناعتها تعتمد على العمال ذوى المهارات العالية لإنتاج المواد الراقية ذات القيمة العالية . وقد احتفظت النقابات الصناعية بحرفهم حية أثناء الثورة الصناعية فى القرن التاسع عشر كما أن استخدام القوى الكهربائية المائية قد دفعت بالصناعة نحو التوسع فى القرن العشرين . وصناعة الساعات التى تتركز فى عديد من المدن الصغيرة المنتشرة فى جورا هى رمز الصناعة السويسرية . وقد احتفظت هذه الصناعة بتوزيعها الجغرافى القديم وبتوفيرها للحرفيين . أما صناعة النسيج فتتركز فى سان غالين St.Gallen فى الشرق وتنتج الحراير الراقية وأنواع الأشرطة فى حين أن مدينة بال (بازل) مركز مهم للصناعة الكيميائية وميناء نهرى مهم على نهر الراين . وتشمل الصناعات الأخرى إنتاج أنواع من المكنات والمواد الغذائية .

(٣) شمال أسبانيا :

تأثرت مناطق عديدة صغيرة فى شمال أسبانيا بالثورة الصناعية وذلك فى مرحلة تطوير القوة الكهربائية المائية خاصة منطقة بارشلونة على ساحل البحر المتوسط وساحل خليج بسكاى حول مدينتى بيلباو Bilbao وسان سباستيأن . وفى المنطقة الأخيرة توجد صناعة حديد وصلب محلية تعتمد على إرسابات خام الحديد الضخمة وقليل من الفحم ، ويستخدم الصلب فى صناعة السفن . أما بارشلونة فهى مركز لصناعات متطورة ومن أهمها صناعة النسيج .

(٤) وسط وجنوبى السويد :

كانت السويد فى خلال القرنين السابع والثامن عشر من أقوى دول أوروبا سياسيا مما جعلها تسيطر على منطقة البلطيق . وقد بدأت النهضة الصناعية فى السويد فى نهاية العصور الوسطى فى شكل تعدين خام الحديد والنحاس . وكان خام الحديد يعالج فى السويد قبل تصديره إلى أجزاء أوروبا . وبحلول القرن السادس عشر زاد التصدير السنوى للحديد وأخذت الأفران العالية تحل محل الكير وتم فصل عمليتى التنقية والصهر من بعضها . وكان معظم إنتاج الحديد يتركز عند أماكن تواجد الخام

فى منطقة بيرغسلاجن Bergslagen فى المنطقة الداخلية الوسطى من القطر حيث بلغ عدد معامل الحديد العاملة فيها ٣٢٤ معملا فى عام ١٦٩٥ . وقد كان لانعدام فحم الكوك فى السويد دور فى استمرار استخدام الفحم النباتى فى صناعة الحديد وحتى وقت حديث ولو أن معظم الحرفيين قد تخلوا عنه الآن . وقد اكتسب هؤلاء الحرفيون شهرة فى إنتاج نوع من الصلب فى غاية الجودة . ولكن كمية الصلب المنتجة لاتضارع الكميات التى تنتج فى ألمانيا أو بريطانيا ، ولكن السويديون يعتمدون على كميات قليلة من الصلب الجيد النوع والتى تتضمن أنواعا من إشابات الصلب Steel alloys . وهناك صناعات هندسية محلية متنوعة تعتمد على هذا النوع من الصلب وتتضمن صناعات المكائن والعربات ومحمل الكريات (البلامى) ball bearings والمعدات الكهربائية ومكنات الطائرات والدراجات ومكنات الديزل (موترات) والأسلحة وسفن ذات نوعية جيدة للغاية . وما زالت منطقة بيرغسلاجن تحتكر إنتاج الصلب ولكن الصناعات الهندسية تنتشر فى أواسط وجنوب السويد وتشمل مصانع سيارات فولفو ومحمل الكريات فى غوتبرج Goteborg وأحواض السفن فى مالمو Malmo ومصانع الدراجات والمعدات المنزلية فى هوسكفارنا Huskvarna الواقعة إلى الداخل عند شاطىء بحيرة فترن Vattern .

واستخدام الطاقة الكهربائية المائية فى الصناعات المختلفة هو الذى أنقذ الصناعة السويدية من التدهور الذى أصابها فى القرن التاسع عشر وأدى إلى خلق رفاهية اقتصادية رفعت المستوى المعيشى للشعب السويدى إلى أعلا مستوى فى أوروبا . ويتم استخدام الكهرباء مثلا فى الأفران الكهربائية المستخدمة فى عملية صنع الصلب . أما إرسابات خام الحديد الضخمة والجيدة النوع التى تستخرج من المناطق الشمالية فى كيرونا وغاليفارفهى للتصدير إلى بعض دول أوروبا الصناعية خاصة ألمانيا الغربية وبريطانيا .

أما الاتجاهات الحديثة فى جغرافية أوروبا الاقتصادية فسنفرد لها فصلا خاصا .

الصناعات الأخرى :

توجد صناعات أخرى مهمة فى أوروبا ومن أهمها صيد الأسماك والسياحة .

١ – صناعة صيد السمك :

توجد أنواع عديدة من الأسماك ذات القيمة التجارية فى كل البحار التى تحيط بالقارة الأوروبية . وأكثر الشعوب التى تستغل هذه الثروة السمكية تنتمى إلى دول هامشية وتشمل النرويجين والأيسلنديين والفارويز والفريزيان والبرتغاليين واليونان واليوغسلافيين (على ساحل دالماشيا) والباسك . ورغم العدد القليل من سكانها فإن مصيد النرويج من السمك سنويا يبلغ حوالى ٥٪ من مجمـــوع المصيد العالمى و١٨٪ من صيد الحيتان . أما فى أيسلنده فنجد أن شخصا فى كل خمسة أفراد يعمل فى صيد السمك وشخص فى كل عشرة فى النرويج وتسعة أشخاص فى كل عشرة فى جزر فاروى Faeroe . وحتى فى الدول الصناعية مثل ألمانيا الغربية والمملكة المتحدة يعتبر صيد الأسماك من الصناعات المهمة .

ولكن ليس كل السكان الذين يقطنون بالقرب من البحار صيادين ، فإن بعضهم قد نبذوا هذه الحرفة كمهنة أساسية لهم . ومن هؤلاء الأيرلنديون الذين ماتوا جوعا فى الأربعينات من القرن الماضى فى المجاعة التى اجتاحت بلادهم ولم يفكروا فى استغلال الثروة السمكية الضخمة التى تعج بها البحار من حولهم . وعموما يمكن القول بأن الشعوب التى اتخذت صيد الأسماك حرفة رئيسية هم أولئك الذين يقطنون فى الدول التى تفتقر إلى أراضى زراعية واسعة : ففى النرويج مثلا تبلغ مساحة الأرض القابلة للزراعة ٣٪ من المساحة الكلية .

وتختلف مصايد الأسماك من بحر إلى آخر فى أوروبا . ومثلا يهتم صيادو البحر الأبيض المتوسط بسمك التونا والسردين (سميت هكذا باسم جزيرة سردينيا) ، والسفنجة التى تتواجد فى بحر إيجه . أما إنتاج البحر الأسود وبحر قزوين فيتكون من سمك الحنش Sturgeon الذى يصنع من بيضه الكفيار ، فى حين أن صيادى بحر الشمال والمحيط المتجمد الشمالى والبحر النرويجى يتخصصون فى صيد البكلاه (القد) والرنجة والاسقمرى mackerel والحدوق Haddock . ويكتسب صيد السمك المفلطح flounder والجريث eels (بالإضافة إلى سمك القد والرنجة) أهمية فى بحر البلطيق حيث تظل ملوحة المياه نسبيا . أما خليج بسكاى ومياه الأطلسى التابعة لايبريا فيشتهران بصيد المحار oysters والسردين .

السياحة :

شهدت أوروبا تطورا كبيرا فى السياحة فى القرن العشرين إلى درجة أنها أصبحت صناعة تنافس الصناعات الأخرى من حيث أهميتها كمصدر دخل قومى لكثير من البلاد . وإلى حد ما يمكن القول بأن السياحة كانت من نتاج الثورة الصناعية فالتطور الكبير الذى حدث فى تكنولوجيا وسائل النقل المختلفة قد قلل من الوقت الذى يستغرق فى الرحلات كما أدى إلى سهولة الاتصال بالقارة وبين أجزائها ، وعلاوة على ذلك فإن الثورة الصناعية قد أفرزت طبقة متوسطة فى أوروبا وأمريكا تملك الموارد المالية الكافية لتسمح لها بالسفر والتجوال خاصة قبل ١٩٢٠ . ومنذ ١٩٤٥ فإن جماهير هذه الطبقة المتوسطة قد ساعدت فى نهضة هذه الصناعة .

وللأمريكيين دور كبير فى بعث هذه النهضة السياحية فى أوروبا ، لأن أوروبا كانت لها جاذبية خاصة عند الأمريكيين على مختلف طبقاتهم :

(١) فبالنسبة إلى الفئة المثقفة والمتعلمة من الأمريكيين فإن أوروبا تمثل ماضيهم العتيد . والولايات المتحدة دولة حديثة يرجع تاريخها (الأوروبى) إلى ٣٥٠ سنة . وهذه المدة صغيرة بالقياس إلى عمر الشعوب . ولذا كان لابد للأمريكى لكى يشبع فضوله الثقافى عن أصله وفصله الحضارى أن يلجأ إلى رحاب القارة الأم ، لأن تاريخه ينفذ فى أوروبا ويتخلل كيانها : فإن خرائب اليونان من العهد الكلاسيكى وكاتدرائية شارلمان فى آخن ، ومروج رونى ميد حيث وقعت معاهدة ماقنا كارتا ، ومدن العصور الوسطى المحفوظة مثل روتنبرج فى ألمانيا وكاركسون فى فرنسا وعظمة البندقية الذاوية ، كلها تمثل جزءا من ماضى أمريكا .

(٢) وإغراء آخر يتمثل فى كون أوروبا منطقة فريدة : فهى تمثل العالم القديم ، وجذابة بحكم كونها غير مألوفة أو عتيقة الطراز . فأوروبا تختلف فى نواحى كثيرة عن أمريكا وهذا الاختلاف يرجع أساسا إلى عمر القارة الحضارى وعراقتها ، والمظهر الحضارى لأوروبا ينضح بالاستقرار والديمومة والنظافة والتناسق والتكامل . فهى تسر العين الأمريكية لأنها تظهر متكاملة ومصقولة بالمقارنة إلى دولتهم . وفتنة أوروبا تنبثق أيضا من تنوعها . وعبر مسافة قصيرة يرى السائح أنواعا من المظاهر الحضارية

ويستمع إلى لغات عدة ويكتشف عادات وتقاليد كثيرة . والعبور الكثير للحدود الدولية يضيف نكهة إضافية إلى الرحلة ذاتها على عكس أمريكا حيث نشاهد رغم تنوع بيئتها الطبيعية اتساقا مملا فى كل مظاهرها الحضارية .

أما السياحة بين الدول الأوروبية نفسها فبعثها الاختلافات المناخية بين أجزائها : فالسويديون والألمان والبريطانيون يلجأون إلى دفء أجواء حوض البحر الأبيض المتوسط هربا من مناخهم البارد الممطر والملبد بالغيوم . وكثيرا ما نرى مجموعات قومية معينة تفضل أماكن سياحية معينة . ومثلا السواح الألمان يفضلون ساحل يوغسلافيا الأدرياتى فى حين أن السويديين والبريطانيين من أكثر المترددين فى جزيرة رودس اليونانية .

وقد استجابت أوروبا لهذا الإقبال الشديد من السواح الأمريكيين والأوروبيين على حد سواء ببناء شبكة ضخمة من الفنادق على جميع المستويات وإنشاء المصايف وإدارتها بواسطة خبراء يجيدون عدة لغات وهناك أيضا الرحلات المبرمجة على أنواعها والكازينوهات وصالات القمار وأماكن التزحلق على الجليد وغيره من المغريات الأخرى التى تدر ملايين الدولارات على شعوبها وخاصة بعض الشعوب الصغيرة التى تمثل السياحة عمودها الفقرى الاقتصادى .

العوامل المؤثرة فى توزيع الصناعة الأوروبية :

(١) السوق :

السوق هى المنطقة التى يباع فيها إنتاج معين بكمية مربحة للمنتج . وحجم ونوعية السوق ربما يكون العامل الوحيد المهم فى تشكيل التوزيع العام للصناعات فى القارة الأوروبية . ويعزو الذين يهتمون بدراسة موقع الصناعة لجاذبية السوق أهمية كبرى لدرجة أنهم يعتبرون موقع السوق المعيار أو القاعدة الأساسية لتحديد موقع الصناعة الحديثة . ومن المعروف أن صناعات معينة يجب أن تقام – من ناحية اقتصادية – بالقرب من السوق بمعنى أنه على بعض أرباب الصناعة إقامة مصانعهم حيث يوجد المستهلكون وذلك لتقليل تكلفة الإنتاج وللحصول على أقصى ربح ممكن . وتشمل مثل هذه الصناعات تلك التى تتخصص فى إنتاج بضائع ذات وزن كبير مثل

المشروبات المعبئة فى زجاج أو ذات أحجام ثقيلة مثل الأوانى الزجاجية أو الأوعية والأوانى . أو بمعنى آخر إذا كان الوزن والحجم يضافان إلى المواد الخام فى العملية الصناعية ، فإن إقامة المصنع بالقرب من المستهلكين تصبح ضرورة اقتصادية وذلك نسبة لعامل تكلفة النقل . ومثل ذلك إذا كانت البضاعة المنتجة أكثر قابلية للتلف من المواد الخام التى صنعت منها كما فى حالة منتجات المخابز وصناعة الثلج والأطعمة ، فإن هذا يتطلب أيضا إقامة المصنع بالقرب من السوق . والجرائد المحلية التى تعدم أية قيمة تجارية خارج حدود نطاق توزيعها أو بعد تاريخ إصدارها تعتبر من المنتجات السريعة التلف . ثم هناك البضاعة القابلة للكسر أكثر من المواد التى تدخل فى صنعها مثل صناعة الزجاج ، فإقامة المصنع بالقرب من السوق فى هذه الحالة تصبح مهمة أيضا . وعلى العموم ، فإن درجة أهمية السوق كعامل محدد لموقع أى مصنع تزداد مع مستوى التصور الاقتصادى لأى دولة وتصل هذه الأهمية قمتها فى الدول الغنية المتحضرة حيث يتركز السكان فى تجمعات حضرية كبيرة .

وهناك صناعات عديدة لا يتحتم أن تكون مواقعها بالقرب من الأسواق . ولكن من الواضح أن مثل هذه الصناعات لابد وأن تدخل فى اعتبارها الموقع الجغرافى للسوق حيث تختار موضع المصنع . وقد اقترح عالم اقتصادى بأن الامتداد المساحى لسوق شركة ما هو أفضل مؤشر لمستوى الحكمة الذى استخدم فى الاختيار المبدئى لموقع المصنع .

كما أن تعريف كلمة السوق يمكن أن يؤثر على الموقع . فهناك بعض أصحاب المصانع الذين يقومون بتمويل مجمعات سوقية كبيرة فى مراكز حضرية رئيسية فى حين أن البعض ومن ضمنهم صانعى الآلات الزراعية يهتمون بمستهلكين مشتتين فى أماكن واسعة . فنى النوع الأول يخضع تحديد موقع المصنع ويتأثر بالاعتبارات السوقية أكثر منه بالنسبة للنوع الثانى حيث ينصب الاهتمام على خدمة أسواق متناثرة .

وتقع أهم سوق فى أوروبا فى المنطقة ذات الكثافة السكانية العالية والتى تمتد من لندن عبر الأراضى المنخفضة وعلى طول الطرف الجنوبى للسهل الأوروبى الشمالى حتى

ألمانيا الشرقية . ويطابق ذلك موقع المراكز الصناعية الرئيسية فى أوروبا مما يوضح أهمية الاتصال والوصول إلى السوق بالنسبة للمصانع لتسويق وتوزيع منتجاتها مع أن التركز السكانى كان فى كثير من الأحيان نتيجة أكثر منه سببا للتصنيع الذى تتميز به هذه المنطقة . وهناك ميزة أخرى إضافية : فإن مثل هذا الموقع غالبا ما يساعد فى ظهور صناعة ما بالقرب من المصانع الأخرى التى تنتج مكونات أو أجزاء أساسية ، مثل الصلب ، التى يحتاج إليها فى العمليات الصناعية ، ومن الفوائد الأخرى :

(أ) القدرة على الاستجابة السريعة لأى تقلب فى الطلب .

(ب) قدرة كبرى على قياس حجم وتركيب السوق وتقييم تقلباتها

حتى الصناعات التى تتقيد فى موقعها بمصدر المواد الخام تتأثر إلى حد كبير بعامل السوق ، كما فى حالة صناعة الحديد والصلب فى لوليا Lulea فى شمال السويد . فهى لا تضاهى فى أهميتها تلك التى نجدها فى الرور وانجلترا أو بلجيكا ، كما تقع فى منطقة متخلخلة السكان وبعيدة من الأسواق الرئيسية . فالمواد الخام التى تتواجد فى مناطق نائية لا يحبذ استغلالها ما لم تكن نادرة ومن نوع جيد إلى درجة يمكنها أن تعوض عن عدم وجود سوق محلى . ويتضح أثر السوق على موقع الصناعة فى ظاهرة « التأثير التضاعفى » . فحين تقوم صناعة فى منطقة ما فإنها تخلق وظائف إضافية تجذب الناس بأعداد كبيرة مما يؤدى إلى تضخم ونمو السوق وهذا يؤدى بدوره إلى منح المكان فرصة فى اجتذاب صناعات أخرى بحكم هذه المميزات المكتسبة . وظاهرة التأثير التضاعفى هى المسئولة عن تركيز الصناعة فى مناطق الفحم والقوى المائية أثناء الثورة الصناعية خاصة فى انجلترا ، مما يوضح بجلاء بأن الأسواق الكبيرة تعوق اللامركزية الصناعية .

٢ - عامل المواد الخام :

المعروف أن المواد الخام هى أساس كل الصناعات التحويلية أو أى نشاط صناعى كما أن مدى قوة جذب المواد الخام للصناعات تتنوع حسب خصائص هذه المواد والعمليات التى بواسطتها تحول هذه المواد إلى منتجات ذات فائدة والوسائل الموجودة لنقل هذه المواد من منطقة إلى أخرى . ومن الأهمية أن نعرف بأنه ليس كل

أصحاب المصانع يكتفون باستخدام مادة خام واحدة وأن كثيرا منهم يعتمدون فى صناعاتهم على منتجات مصانع أخرى أكثر من اعتمادهم على إنتاج الصناعات المستخرجة Extractive مثل التعدين لبعض المواد « الخام » .

وبعض الأنشطة الصناعية تقوم بالضرورة حيث توجد هذه المواد الخام مثل التعدين وقطع الأخشاب . وتتضمن الصناعات التى ترتبط فى مواقعها بأماكن تواجد المواد الخام تلك المصانع التى تقوم بإنتاج البضائع المصنعة :

١ - التى تعانى من فقدان كبير فى الحجم أو الوزن أثناء المعالجة كما فى تكرار أو تنقية المعادن أو صناعة اللب والورق حيث يكون الفقد فى الوزن يمثل حوالى ٤٠٪ من وزن لب الخشب .

٢ - والتى تستدعى صناعتها استهلاكا لكميات كبيرة من مصدر الطاقة الثقيلة الوزن أو كبيرة الحجم مثل الفحم .

٣ - أو التى تكون أقل قابلية للتلف من المواد الخام التى صنعت منها مثلما فى صناعة الزبد والجبن وبودرة اللبن من اللبن السائل وتعليب الخضروات والفواكه

وعندما يحدد موقع الصناعة حسب مصادر المواد الخام لا يعطى فى هذه الحالة اعتبار كبير للتوزيع السكانى والأسواق .

وعلى العموم فإن قوة المواد الخام كعامل استقطاب للصناعات قد تقلصت مع التقدم فى الثورة الصناعية . فالتطور المبدئى للأقاليم الصناعية فى بريطانيا سبق اختراع وإنشاء السكك الحديدية وطرق العربات والبواخر المحيطية . ومثلا لم يكن من السهل نقل الصلب اقتصاديا لمسافات طويلة ولذلك كانت على الصناعات التى تستخدم الصلب أن تقيم مصانعها حول معامل الصلب عند حقول الفحم .

والانتشار الحديث للصناعة فى أوروبا ، وبالأخص الزيادة الملحوظة فى مصانع الفولاذ عند شواطىء البحر ، يعكس العلاقة المتدهورة بين المصنع ومصانع المواد الخام . وفى نفس الوقت فإن بعض القرارات التى اتخذت قبل مائتى سنة والمبنية على ضرورة إقامة المصانع قرب مصادر المواد الخام ما زالت تحدد موقع الصناعة اليوم ، ذلك فقط لأن المناطق الصناعية الراسخة تملك قدرة احتمالية أكبر . وقد تبقى

الصناعة فى نفس المكان حتى عند نفاذ المواد الخام التى حددتها فى البداية : فرأس المال الضخم المستثمر فيها وأنماط التسويق الموجودة ووجود القوة العاملة والتسهيلات فى وسائل النقل كلها لا تشجع أى تغيير فى موقع هذه الصناعات العريقة . وهذا يفسر بقاء معظم الصناعات الثقيلة وتجمعها عند حقول الفحم .

٣- عامل وسائل النقل فى اجتذاب الصناعة :

من الناحية النظرية وفى حالة الحياد التام لعوامل المواقع الأخرى ، تميل الصناعات إلى التركيز حول المواضع التى تتيح أدنى تكلفة نقل ممكنة بالنسبة للمواد الخام والمنتجات المصنعة . ولكن فى الحقيقة فإن تكلفة النقل ما هى إلا جزء من التكلفة الإجمالية للتصنيع ، ولذلك فإن الصناعات التى تكون لتكلفة النقل فيها دور كبير فى التكاليف الإجمالية هى التى تتأثر من حيث موقعها بعامل النقل . ووفق نظرية الموقع لا لفريد ويبر A. Weber فإن الإنتاج الصناعى يشد أو يجتذب طبيعيا للمواضع التى تمنح أقل تكلفة نقلية والتى بدورها ترتبط ارتباطا وثيقا بالمواد الخام والسوق وطبيعة المواد المصنعة . ويعتبر كل العوامل الموقعية الأخرى ثانوية لأنها تؤدى إلى تحريف أو تشويه النمط الطبيعى الذى تحدده تكلفة النقل .

وتتكون تكاليف النقل من جزئين أساسيين :

أ- رسوم معاملة Terminal or handling charge تتطلب شحن وتفريغ البضائع .

ب- رسوم الخط Line charge وهى عبارة عن تكاليف النقل الفعلى للبضائع والتى تزداد مع المسافة . واعتمادا على نوع الصناعة ، فإنه يمكن تخفيض تكلفة النقل وذلك عند مصدر أو مصادر المواد الخام أو السوق حيث يتم انتقال بضاعة من وسيلة نقل إلى وسيلة أخرى . أما إذا كانت المواد الخام تستجلب من مناطق واسعة متنوعة فإن أفضل موقع للمصانع يكون فى انتقال وسط مثل الموانىء وأقرب مثال لذلك مصانع الصلب عند شواطىء إيطاليا وبعض دول أوروبا الغربية .

أما العوامل الأخرى التى تؤثر فى تكلفة النقل فهى :

١ - المسافة التى يجب تغطيتها .

٣ - تكاليف بناء وصيانة التسهيل النقلى .

فالمسافة البعيدة تسلب الموارد الطبيعية قيمتها وتمنع من استغلالها . فنى أوروبا حيث يستخدم الأنهار والقنوات فى النقل على نطاق واسع فإن سهولة الاتصال للطرق المائية لها أهمية كبيرة للصناعات . فالتطور الصناعى لسايليزيا العليا تعثر طويلا حتى سبعينات القرن التاسع عشر عندما تمت الإصلاحات الملاحية فى نهر الأودر ومن ثم الاتصال عبره بأجزاء ألمانيا الأخرى مما ساعد على النهضة الصناعية للمنطقة واستغلال الفحم الجيد فيها .

٤ دور القوى العاملة فى جذب الصناعة :

يمكن أن يحدث تغيير فى الموقع من نقطة ذات تكلفة نقل أدنى وذلك فى حالة أن التوفير فى تكلفة العمل أكبر من تكلفة النقل الإضافية الناجمة من هذا التغيير . فعلى العموم فإن تكلفة العمل عامل له تأثيره فى تحديد مواقع الصناعات . وأكثر الصناعات التى تتأثر بهذا العامل هى تلك التى تكون لتكلفة العمل فيها دور بارز أو تمثل جزءا كبيرا من التكلفة الإجمالية ، وخاصة تلك الصناعات التى تعتمد على كادر من العمال ذوى المهارة العالية والذين يتخصصون فى إنتاج أشياء صغيرة ذات قيمة عالية مثل الساعات وآلات التصوير وراديوهات الترانزيستور وأشباهها .

فهناك خصائص عديدة للعمل يدخلها أرباب المصانع فى اعتبارهم عندما يقررون تحديد مواقع لمصانعهم مثل : وجود أو تيسر الحصول على العمل ، ومتوسط الأجور ، والمهارات الضرورية ، وإنتاجية العمال ككل .

وحسب التقليد يتجمع العمال ذوى الخبرات والمهارات فى عدد قليل من الأماكن وذلك نتيجة للحاجة للتدريب الشخصى فى مثل هذه الحالات التى تتطلب تخليد او استمرارية مهارات معينة . وبالتالى فان أرباب المصانع يبحثون عن مثل هذه المواضع التى يتجمع فيها العمال الذين يملكون المهارات المطلوبة . ولم يكن من محض الصدفة أن قامت مصانع النسيج الآلية الأولى فى إنجلترا وألمانيا فى المناطق التى كانت لها تقاليد عريقة فى صناعة النسيج . وقد جذب وجود العمال المهرة أصحاب

مصانع المنسوجات القطنية والأقمشة الاصطناعية إلى تلك المناطق التى اشتهرت من قبل بإنتاج الأقمشة الكتانية والصوفية والحريرية .

وقد قل تأثير القوى العاملة فى تحديد موقع الصناعات حديثا نتيجة القدرة والامكانية المتزايدة للعمال الأوروبيين فى التحرك والانتقال من منطقة لأخرى . فقد كانت الهجرات العمالية العالمية واضحة فى القرن التاسع عشر عندما كانت منطقة الرور فى المانيا تنهض صناعيا ، ولكن زادت سرعة الهجرات منذ الحرب العالمية الثانية نتيجة للمعاهدات الدولية التى تسمح وأحيانا تشجع مثل هذه الهجرات . فالمصانع الألمانية والفرنسية وحتى السويسرية تعتمد الآن اعتمادا كبيرا على العمال من جنوبى القارة مثل الاغريق والأسبان واليوغسلافيين والجزائريين الذين ينزحون إلى المناطق الصناعية فى الشمال وبأعداد ضخمة ويقطنون الأحياء الفقيرة من المدن الكبيرة . ورغم أن معظم هؤلاء العمال يأتون الى هذه الدول الصناعية بصفة مؤقتة ، فإن بعضهم يقومون بصفة دائمة فى بعضها ، ومثل هؤلاء العمال المقيمين هم الذين يثيرون بعض المشاكل السياسية بالنسبة للدول التى يقيمون فيها ومبعث هذه المشاكل هو خوف بعض الوطنيين من طغيان هؤلاء الأجانب وتأثيرهم على الخصائص القومية مثلما حدث فى سويسرا فى عام ١٩٧٠ م عندما أجرت الحكومة استفتاء بخصوص وضع حد أدنى لنسبة الاجانب فى عدد سكانها .

وهناك تزايد فى الهجرات الداخلية : وفى إيطاليا برهنت الدراسات على وجود توافق منذ عام ١٩٥٢ بين الهجرة من الجنوب وبين كمية الاستثمار الصناعى فى منطقة وادى نهر البو وجنوا فى الشمال الغربى من الدولة .

٥ – مصدر الطاقة كعامل جذب للصناعة :

تقوم الثورة الصناعية أساسا على استخدام القوة غير الحيوية ، وبالتالى كان لمصدر الطاقة دور فى تحديد موقع المصنع ، خاصة فى المراحل التكوينية للثورة عندما كانت القوة المائية تربط أرباب المصانع إلى شواطىء الأنهار حيثما توجد الشلالات والجنادل ، وما زالت بعض مصانع النسيج البريطانية العريقة تستخدم القوة المائية وظلت ثابتة فى مواضعها منذ القرن الثامن عشر . وعندما حلت مكائن البخار التى

تستخدم الفحم محل العجلات المائية ظلت العلاقة الموقعية بين مصدر الطاقة والمصنع باقية متشبثة . ولكنها أخذت تضعف تدريجيا مع التقدم فى تكنولوجيا النقل . ومع ذلك ، فقد بقيت النهضة والتطور الصناعى متبعثرا وعاجزا بدون إرسابات الفحم الكبيرة حتى القرن الحالى . عندما حلت مصادر الطاقة الأخرى مثل القوى الكهربائية المائية والبترول والغاز الطبيعى محل الفحم إلى حد كبير .

وفى نفس الوقت يجب أن نعرف أنه قبل أن يصبح الفحم مصدرا رئيسيا للطاقة كانت الصناعات تتركز عند كل حقل فحم من حقول بريطانيا وأوروبا . فقد كانت مقاطعات لانكشير ويوركشير والرور . ومنطقة سايليزيا العليا ومنطقة سامبر – ميوز ومقاطعة ساخسن فى ألمانيا الشرقية مقرا لتجمعات صناعية هامة قبل أن يصبح للفحم أهمية تجارية . وفى هذه المناطق كانت مهمة الإرسابات الفحمية الموجودة فيها أنها يسرت قبول تكنولوجيا الثورة الصناعية لدى أصحاب المصانع الموجودين من قبل .

وكان لإحلال الفحم بالبترول والقوى الكهربائية المائية دور كبير فى إضعاف الارتباط بين المصنع ومصادر الطاقة وذلك لسهولة نقل كليهما من الناحية الاقتصادية . وتبادل الكهرباء أصبح من الأمور الشائعة بين دول أوروبا فى حين أن انشاء أنابيب البترول وتطور صناعة ناقلات البترول الضخمة بعد عام ١٩٥٢ سهلا نقل البترول من مناطق إنتاجه إلى مناطق الاستهلاك .

ورغم ذلك فإننا نجد التوزيع الحالى للصناعات الأوروبية قد تحدد خلال تلك الفترة التى كان القرب لمصادر الطاقة أمرا ضروريا وعلاوة على ذلك فإن بعض الصناعات ، ومن ضمنها المصانع التى تعمل فى تحويل الالمنيوم . لها تركيبات تكلفة تسيطر عليها المصروفات على الطاقة ولذلك فإن أصحابها يضعون أهمية كبرى لمصادر الطاقة عند اختيارهم الموقع لإقامة مصانعهم .

٦ الاعتبارات السياسية والصناعة :

كان للتجزئية السياسية تأثير كبير على موقع الصناعة فى أوروبا . وفعليا فإن

« القوانين » العديدة التى تحدد موقع صناعة ما قد يبطل مفعولها بمجرد وجود حدود دولية . والتدخل الحكومى ينتج من الرغبة فى :

(١) مساعدة الصناعات التى تنتج مواد تلاقى منافسة من المنتجين الأجانب .

(٢) تطوير الصناعات ذات الأهمية الاستراتيجية .

(٣) إيجاد مواقع آمنه للصناعات الاستراتيجية .

(٤) تنويع الاقتصاد الصناعى للمناطق البالغة التخصص فى انتاج مواد معينه .

(٥) تحديد النمو المتزايد للتجمعات الحضرية الضخمة Conurbations

(٦) رفع المستوى المعيشى للمناطق المتخلفة .

وتشكل الحدود السياسية نقاط حواجز تتمثل فى التعريفات Tariffs الجمركية وكوتات استيراد والتصدير كما أنها تعوق حركة العمال ورأس المال أو النقل عبرها .

ولم تعد للتعريفة Tariff تأثير كبير فى تحديد موقع الصناعة فى أوروبا كما كان من قبل . وذلك لإنشاء ثلاث مجموعات عالمية تجارية يسعى أعضاؤها لإزالة العوائق والقيود من طريق التبادل التجارى . وهذه المجموعات التجارية هى (الشكل ٥٦) :

١ - السوق الأوروبية المشتركة التى تتكون من الأعضاء المؤسسين : ألمانيا الغربية وفرنسا وإيطاليا وهولنده وبلجيكا ولكسمبورج . وتأسست عام ١٩٥٧ م (وتضم الآن عشر دول هى بريطانيا والدنمارك وأيرلنده واليونان والنرويج) .

٢ - الاتحاد الأوروبى للتجارة الحرة وأعضاء الميثاق هم : المملكة المتحدة والنرويج والسويد والدنمارك والبرتغال وسويسرا والنمسا وتأسس عام ١٩٦٠ م .

٣ - الكوميكون Comecon أو المجلس للمساعدة الاقتصادية المتبادلة وتضم الاتحاد السوفيتى ودول أوروبا الشرقية الشيوعية ما عدا يوغسلافيا والبانيا (انسحبت) .

ومن المتوقع حدوث تغييرات أساسية فى هذه التنظيمات مستقبلا : قد حدثت

المجموعات التجارية فى أوروبا

أعضاء السوق المشتركة الأصليين (٦)

أعضاء انضمت أخيراً

أعضاء منظمة افتا الأصليين

أعضاء انضمت لافتا مؤخراً

منظمة الكوميكون

غير منتمى لأى تجمع

٦٠٠ كم

٤٠٠ ميل

شكل (٥٦)

تغييرات فعلا منها انضمام فنلنده وأيسلنده للاتحاد الأوروبى وانضمام المملكة المتحدة والدنمارك للسوق المشتركة . ولكن التعريفة الجمركية ما زالت مطبقة على بعض أعضاء هذه المنظمات ومع غير الأعضاء . والتعريفة من شأنها أن تجعل الحدود السياسية تحدد أو تقلل من وصول المواد الخام الأجنبية والأسواق مما يدعم موقف المواد الخام المحلية والأسواق . وكثيرا ما تعانى أماكن الانتاج بالقرب من الحدود المحمية بالتعريفة الجمركية من تكاليف التوزيع أو قلة فى الإنتاج أو كليهما . وهكذا تتسم منطقة السوق بالاكتفاء أو عدم التوازن مع طاقة استهلاكية كافية كبيرة فى اتجاه دون آخر من المصنع . ومثال متطرف لهذا الوضع هو مصنع سيارات الفولكس واجن فى ولفيبرج Wolfurg فى ألمانيا الاتحادية

فعند اختيار هذا الموضع فى عهد هتلر كان الموضع مركزيا بالنسبة لألمانيا آنذاك ومع اتصال مباشر بقنال الميدلاند الهام . وبعد افتتاح المصنع بعد الحرب العالمية الثانية وأثر التعديلات فى الحدود وانقسام الدولة الى شطرين اصبح موقع الستار الحديدى على بعد ١١ كم إلى الشرق من المصنع . وقد أبقى أمل توحيد شطرى ألمانيا المصنع فى موضعه القديم غير المناسب . ومع الاستثمار الكبير لرأس المال أصبح نقل المصنع إلى موضع آخر أصعب من الناحية الاقتصادية . وهكذا بقى المصنع فى مكانه بعيدا من السوق الرئيسية فى ألمانيا الغربية وتمثل برلين الغربية السوق الوحيدة فى الشرق .

ووجود قوانين وضرائب أو أجور أدنى مختلفة على جانبى الحدود الدولية أيضا يؤثر على موقع الصناعة عن طريق منع أو تشجيع هجرة رأس المال والعمال عبر هذه الحدود (الشكل ٥٧) .

ويكتسب العامل السياسى أهمية عندما تتخذ الحكومات اجراءات لتحديد موقع الصناعة لأسباب استراتيجية . والشعوب المهددة بالحروب تجنح إلى تشتيت المصانع داخل الدولة لتفادى الهجوم عليها وقذفها بالقنابل لغرض تدميرها . وأثناء الحرب الأخيرة لجأت بريطانيا إلى إقامة مصانع للذخيرة فى مقاطعة لانكشير لأنها كانت بعيدة عن متناول الغارات الألمانية .

وكثيرا ما تلجأ الحكومات إلى إجراءات من شأنها النهوض بالمناطق المتخلفة

التقلص في مساحة السوق الناتج من الضرائب (التعريفة الجمركية) والتقييد في عدد نقاط العبور الحدودية وتظهر كلتا الحالتين تقلصاً في مساحة السوق لوجود الحدود الدولية.

شكل (٥٧)

داخل الدولة ، ومثال ذلك محاولات الحكومة الايطالية فى اقامة المصانع فى الجنوب . فمصنع الحديد والصلب فى ترانتو ومصنع التروكيماويات فــى غيلا فى صقلية أمثلة لهذه المحاولات . وإقامة مصنع الصلب فى موى رانا فى النرويج والمحاولات المبدئية لحكومة بروسيا لتطوير إقليم سايليزيا العليا صناعيا كلها اجراءات لتطوير هذه المناطق المتخلفة .

ويحدث العكس أحيانا كما فى حالة الحكومة البريطانية التى اتخذت احراءات من شأنها عدم تشجيع اقامة صناعات أخرى فى منطقة لندن وبيرمنحهام لصناعيتين وهما من أهم المناطق الصناعية فى انجلترا .

ومن هذه الدراسة يتضح لنا الآتى : —

١ — إن الحدود السياسية الدولية تميل إلى تعويق أو إثباط الصناعات فى منطقة الحدود ، وذلك بدفعها إلى داخل الدولة .

٢ — تعمل التعريفات الجمركية إلى تشتيت الصناعة ، وتتيح المجال لصناعات معينة لكى تقوم فى أماكن ماكانت لها أن تقوم فيها لولا هذه الظروف الخاصة .

٣ — تشتيت الصناعة بأوامر حكومية لأسباب تتعلق بالأمن او لغرض النهوض بالمناطق المتخلفة أيضا تساعد على عدم تكتل أو تركز الصناعات فى مناطق محدودة .

٤ — ويتخوف بعض الخبراء فى مجال الموقع الصناعى من أن إزالة القيود أو التقييدات الرسمية على موقع المصانع فى أوروبا قد يؤدى إلى ازدهار ونهضة فى قليل من المناطق التى تتمتع بمواقع مركزية مثل منطقة الرور فى ألمانيا الغربية على حساب المناطق الهامشية التى قد يصيبها التدهور والركود .

الفصل الثالث عشر

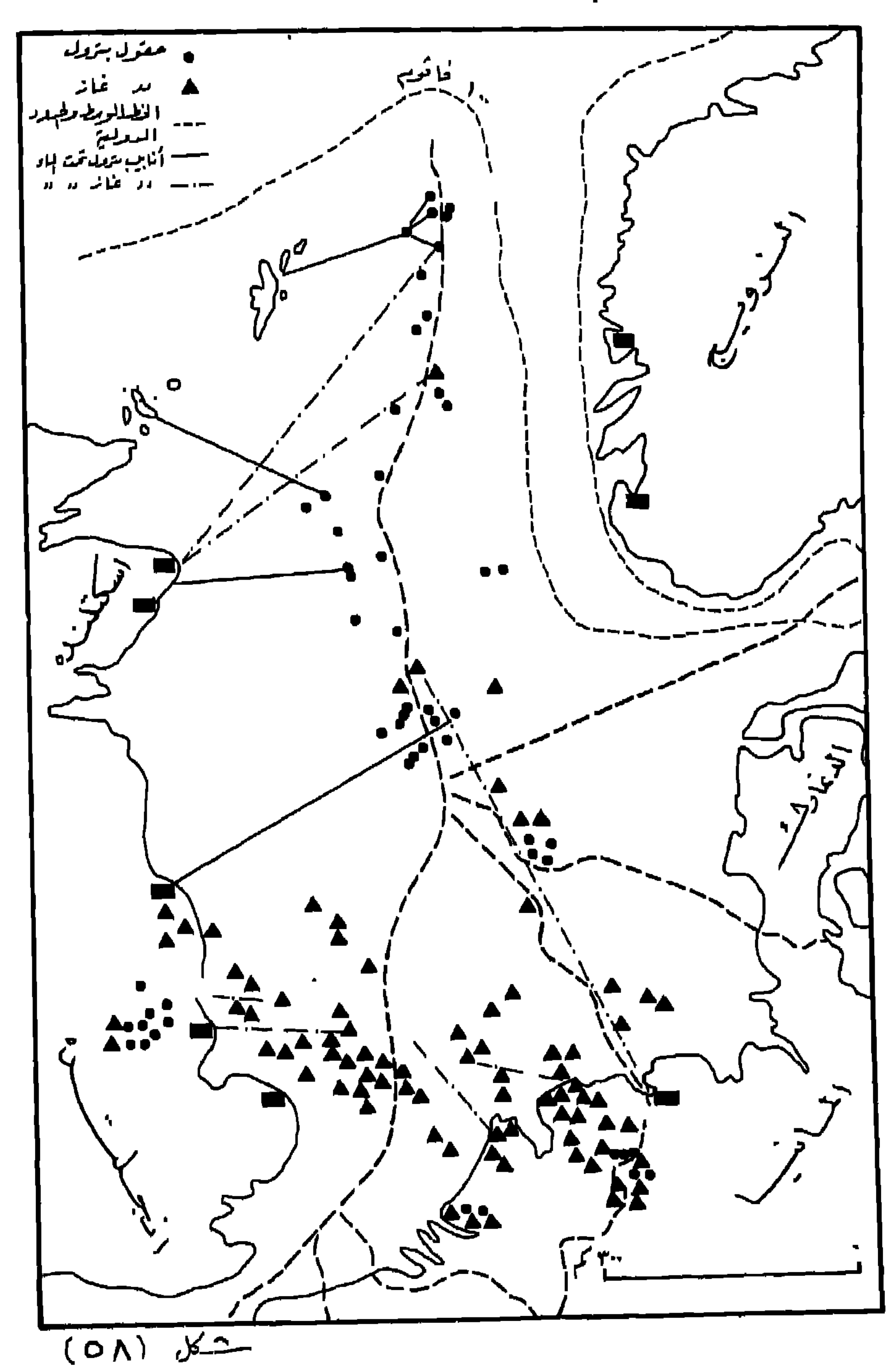
اتجاهات حديثة فى جغرافية أوروبا الاقتصادية

شهدت أوربا بعد الحرب العالمية الثانية تطورات كبيرة فى كثير من نواحى جغرافيتها الاقتصادية كما برزت اتجاهات جديدة فى هذا المجال نوجزها فى الآتى : -

١ - فى مصادر الطاقة : (الشكل ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١) :

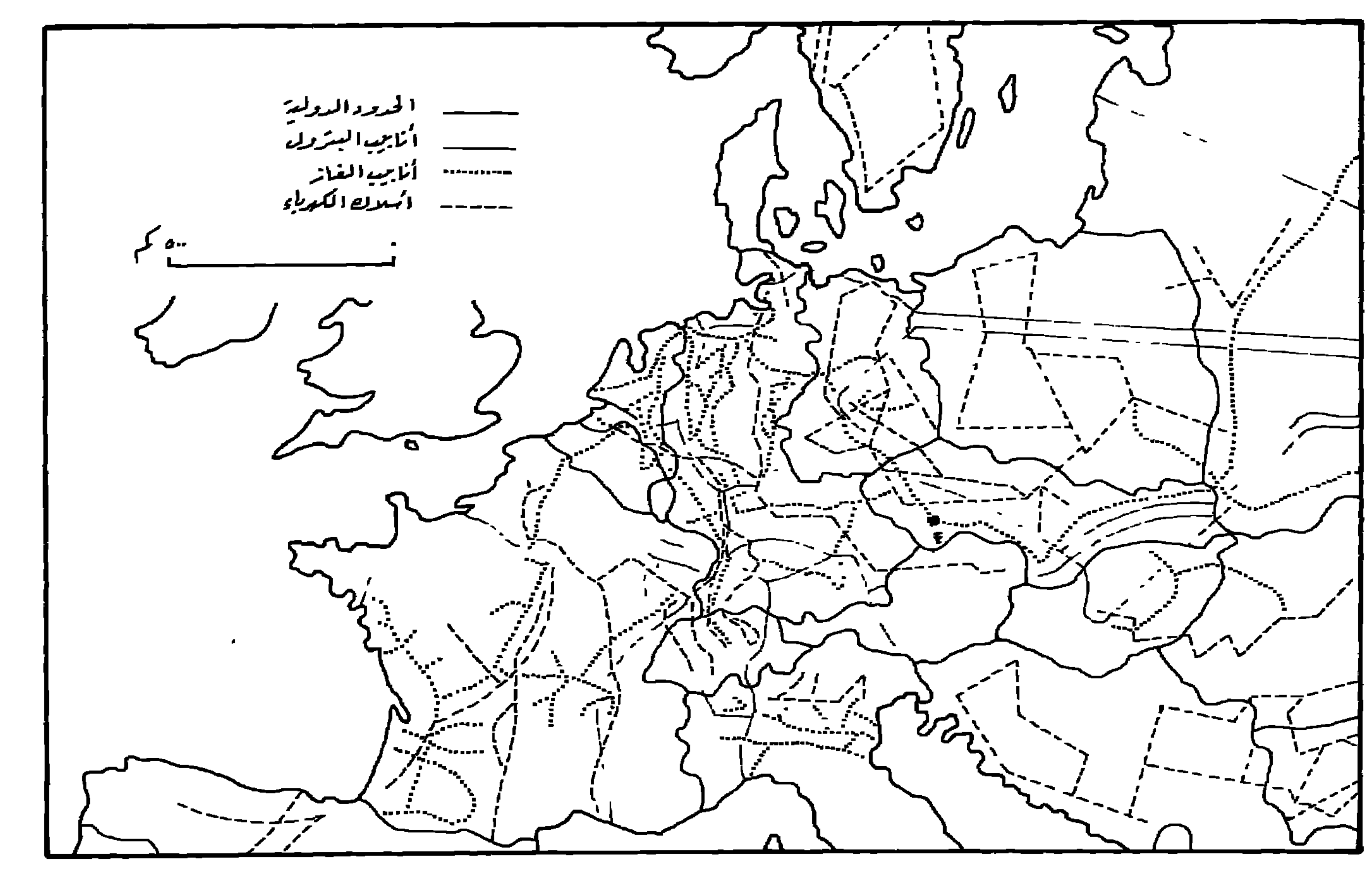
كان لأهمية الفحم الحجرى كمصدر أساسى للطاقة والحاجة الماسة للحديد والصلب للإنشاء ، أثر كبير فى تعمير القارة بعد الحرب فى المعسكرين الشرقى والغربى ، فقد ازداد الطلب على الفحم وكثفت الجهود لاستغلال المناجم الموجودة واكتشاف حقول جديدة : فألمانيا أخذت تستغل مواردها الهائلة من الفحم من إقليم الرور كما ان فرنسا طالبت بضم حقول فحم السار ومصانعها اليها ، واخذت بولندا تغرق أسواق أوربية مثل اسكندناوه وإيطاليا بالفحم من حقول سايليزيا العليا وشرعت بلجيكا فى استغلال حقول كمبيتلاند الشمالية بينما أخذت هولنده تطالب ببعض الأقاليم عند الحدود الالمانية ظنا منها بانها تحتوى على فحم . أما الحقول البريطانية فقد عجزت عن سد احتياجات الدول المستوردة لأسباب منها إعادة تنظيم المناجم وتحديثها وإنتاج الفحم المتضائل وتكلفته العالية . وقد أسفر البحث المتواصل عن مصادر جديدة من الفحم عن العثور على طبقات جديدة منه فى انجلترا وفى المانيا الديمقراطية كما تم رصد كميات كبيرة منه فى هولنده وغرب روسيا وزاد الإنتاج والبحث فى جنوب شرق القارة .. وهكذا استمر إنتاج الفحم فى توسع وازدياد حتى منتصف الخمسينات عندما أدى الاستخدام المتزايد للبترول فى غرب أوربا إلى فرط فى إنتاج الفحم وخاصة فى منطقة الرور الألمانية وكساد فى الطلب .. ولولا الطلب المتزايد للكهرباء من المولدات التى تدار بالفحم وأيضا لفحم الكوك من قبل مصانع

استغلال موارد البترول والغاز الطبيعي في بحر الشمال

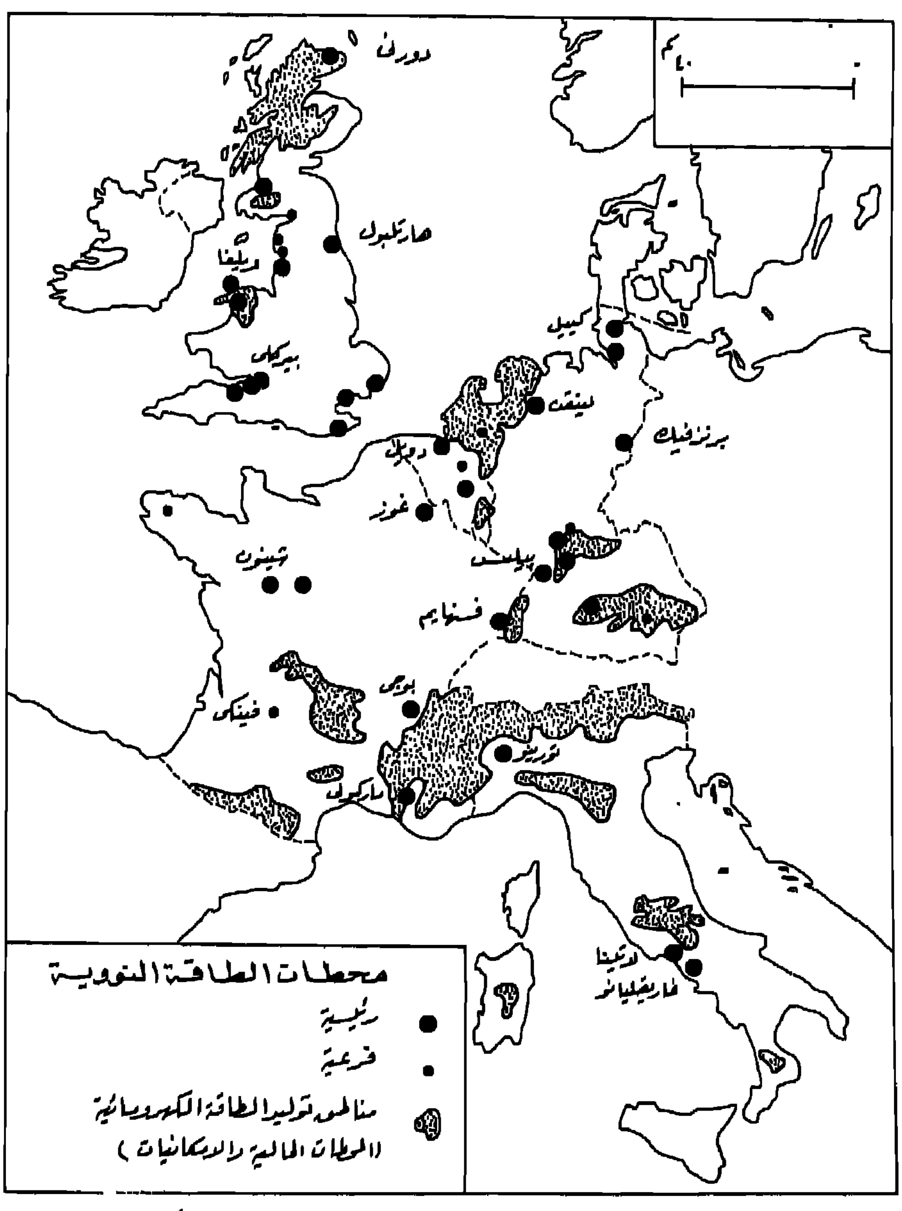


شكل (٥٨)

شكل ٥٩ : أنابيب البترول والغاز الرئيسية وإسلاك الكهرباء

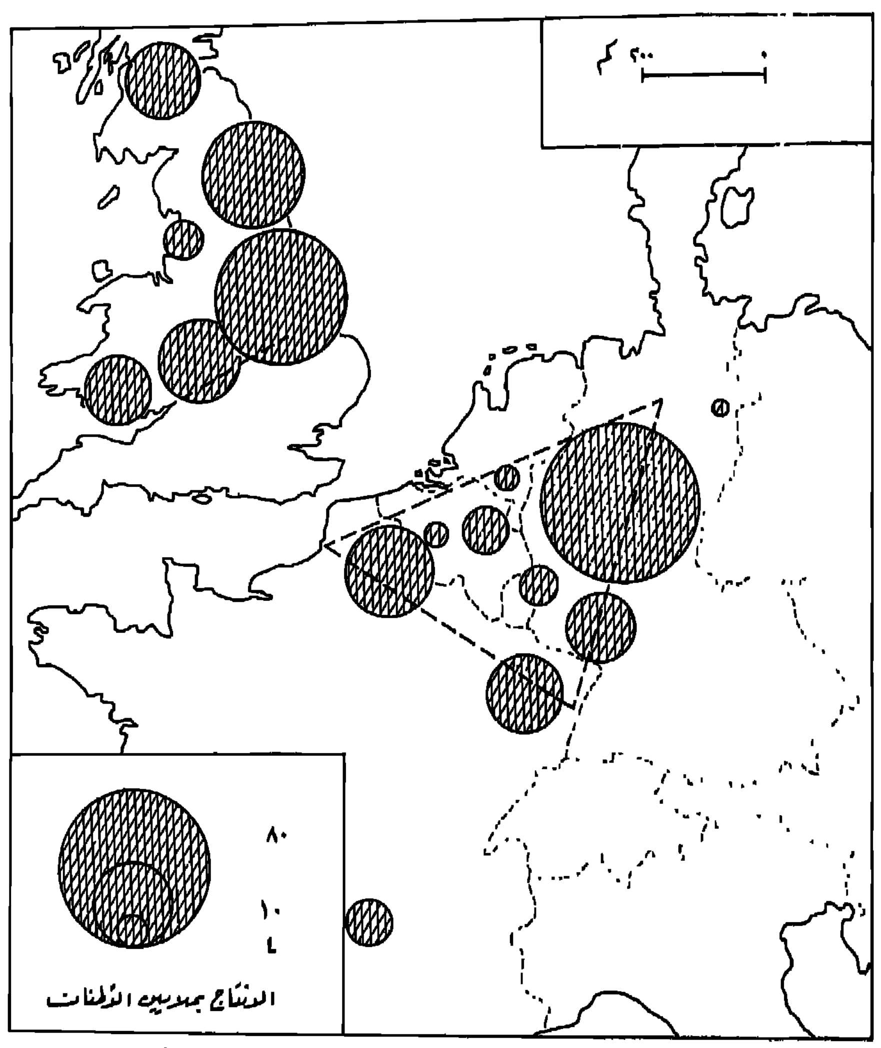


الطاقة النووية والكهرومائية فى السوق المشتركة



شكل (٦٠)

مناطق انتاج الفحم فى السوق المشتركة (٤/١٩٧٣)



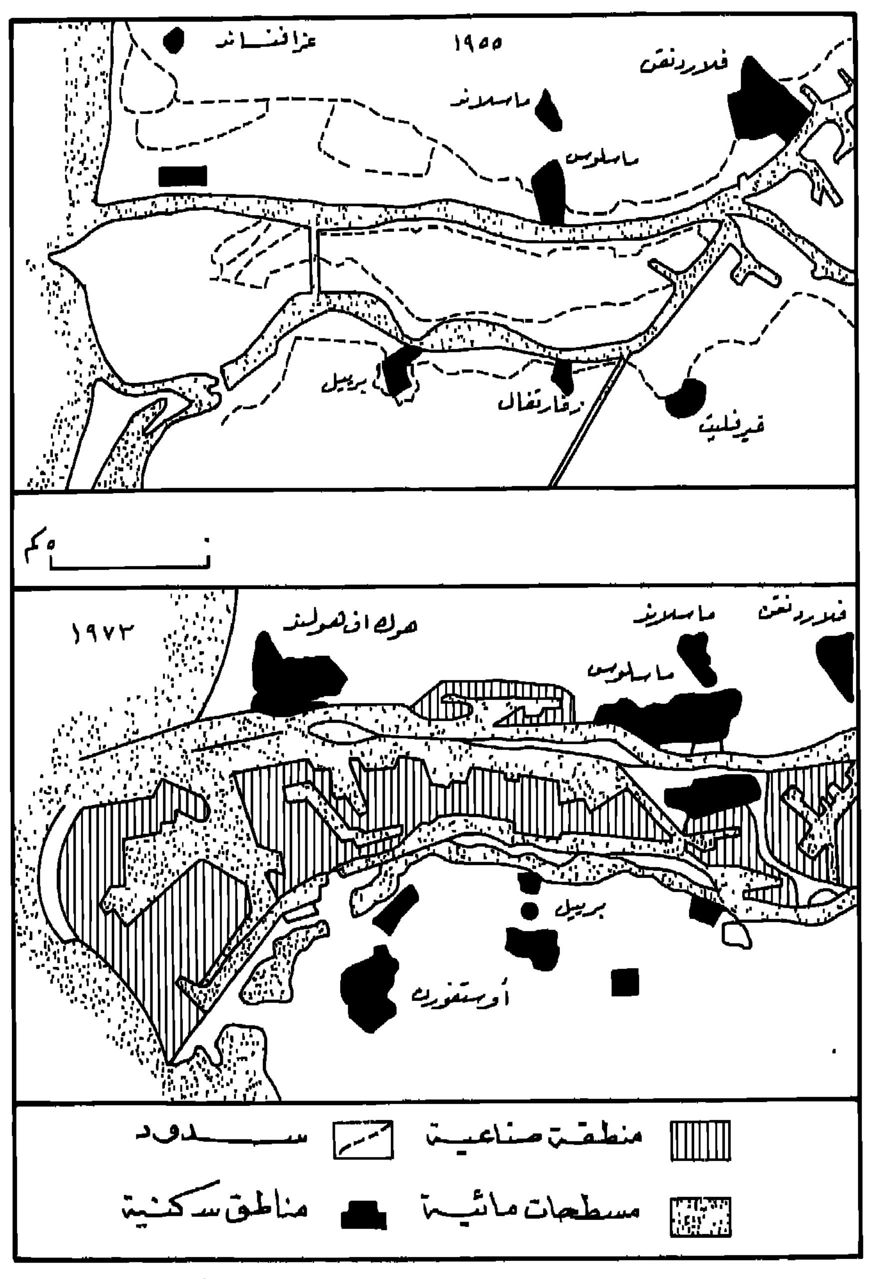
شكل (٦١)

الحديد والصلب لانخفض الطلب على الفحم بصورة سريعة . ومن ثم هجرت بعض الحقول الصغيرة فى غرب أوروبا رغم صلاحية بعضها للاستغلال الاقتصادى (الشكل ٦١) .

كانت أوروبا قبل عام ١٩٣٩ تعتمد على البترول المكرر فى مصافى مقامة بالقرب من حقول النفط ثم أخذت ألمانيا تطور لاعتبارات استراتيجية إنتاج البترول الصناعى وكذلك البحث عن البترول الطبيعى داخل أراضيها ولكن دون نتائج مجدية نتيجة الزيادة التى طرأت على أسعاره أثناء الحرب وبعدها . وبعد انتهاء الحرب انخفضت أسعار البترول مما أدى إلى زيادة كبيره فى عدد العربات وأيضا إلى استخدام البترول فى مجال الصناعة خاصة فى توليد الطاقة الكهربائية . كما حدث تطوير سريع فى صناعة البتروكيماويات لتصبح أساسا لأنواع عديدة من المواد الاصطناعية ، وأخيرا أدى الخوف من تأمين حقول البترول من قبل الدول المصدرة زائدا مشكلة دفع الأسعار بالعملات الصعبة والتطوير الهائل فى طريقة التكرير – أدت هذه العوامل إلى ضرورة إنشاء مصاف للبترول فى الدول المستهلكة لان ترحيل البترول الخام أقل تكلفة من نقل المكرر منه كما أن عملية التكرير ستتم بالقرب من أماكن الاستهلاك مما يتيح الإستفادة من آخر التطورات فى المنتجات الجانبية ، بينما تتيح هذه العملية نوعا من الحرية فى اختيار أرخص مصادر البترول الخام وتوفير العملات الصعبة . وساعد فى انجاح هذه العملية ظهور الناقلات الضخمة مما أدى إلى تكلفة نقل أقل .

ولذلك يتسم معظم مصافى البترول فى غرب اوروبا بمواقعها الساحلية مثل المجمع البترولى الضخم فى روتردام – يوروبورت – Rotterdam-Europoort (الشكل ٦٢) وفى منتصف الستينات فقدت مواقع أهميتها نظرا لصعوبة وصول الناقلات الضخمة إليها وأخيرا أدت ازمة حرب السويس وإغلاق القنال إلى ظهور الناقلات الضخمة التى اخذت تنقل بترول الخليج الخام إلى أسواق أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح وبتكلفة أقل . أما توزيع البترول داخل الدول فقد كان يتم فى الخمسينات عن طريق السكك الحديدية والصنادل المائية ، وقد شجع الطلب المتزايد خاصة فى أسواق ألمانيا الداخلية إلى مد أنابيب البترول بما ساعد أيضا فى ضخ

تطور الميناء الأوروبي (يوروبورت)



شكل (٦٢)

البترول الخام عبر هذه الأنابيب إلى المصافى المقامة فى الداخل خاصه فى حوض نهر الراين (الشكل ٥٩) .

اما فى المعسكر الشرقى فما زال الفحم يحتل نسبة أعلا فى توليد الطاقة بالمقارنة مع دول غربى أوروبا وما زالت بعض الصناعات المعدنيه فى الدول الشرقية تعتمد على الفحم المستورد من الاتحاد السوفيتى بينما انخفض إنتاج الفحم فى ألمانيا الديمقراطية لنفاذ الطبقات الصالحة للاستغلال . وقد يرجع السبب فى قلة استهلاك البترول فى هذه الدول إلى قلة العربات بالمقارنة مع دول اوروبا الغربية ، ولكن يبدو أن احتياطى الفحم فى روسيا وسهولة استخدامه تكنولوجيا بالمقارنة مع البترول قد أثر فى سياسة الطاقة فى أوروبا الشرقية .

وكما حدث فى الغرب كانت هناك مساعى للتنقيب عن البترول كما فى رومانيا حيث تم العثور على إرسابات جديدة وفى غرب سيبريا فى الاتحاد السوفيتى . وقد أدى الطلب المتزايد للبترول فى دول أوروبا الشرقية إلى مد الأنابيب من حقول الأورال – فولجا إلى بولنده وألمانيا الديمقراطية وتشكوسلوفاكيا والمجر . وتستورد ألمانيا الديمقراطية بعض احتياجاتها من البترول الخام عن طريق ميناء روستوك Rostock ، كما أن حوض الدانواب سيمول بالبترول الخام من دول العالم الثالث بالأنابيب الممدودة من الميناء اليوغسلافى ريجيكا – بكار Rejeka-Bakar ، كما يتم حاليا تصدير كميات من بترول روسيا الخام إلى الدول الغربية عن طريق ميناء فينتسبلز Ventspils الذى يتم بناؤه حاليا على بحر البلطيق كما أن هناك مشروعا لمد خط أنابيب غاز طبيعى من شبه جزيرة يامال إلى غرب أوروبا تقوم بتمويله دول غربية . ويصل استهلاك دول غرب أوروبا من الغاز السوفيتى حاليا كالآتى : –

النمسا ٥٥٪ (٧٠٪ فى عام ١٩٨٦) ، ألمانيا الغربية ١٦٪ (٣٠٪ عام ١٩٨٦) فرنسا ٧٪ (٣٠٪ عام ١٩٨٦) إيطاليا ٢٣٪ (٣٠٪ عام ١٩٨٦) ، ويصل المجموع إلى ٩٪ وسترتفع النسبة إلى ٢٥٪ فى عام ١٩٨٦ .

أدى الاستخدام المتزايد للبترول إلى الاهتمام باستغلال الغاز الطبيعى الذى شهد تطورا كبيرا فى الاتحاد السوفيتى خلال الخمسينات وقد تم اكتشاف كميات كبيرة منه

فى السهل الأوروبى الشمالى وخاصة فى إقليم جرونقن Gronigen الهولندى . وتمول هولندا جيرانها من هذا الحقل بعد سد الاحتياجات المحلية ، وهذا الاعتماد على الغاز يفسر لنا عدم الاهتمام بالفحم حتى الموجود منه حاليا . وقد شجع هذا الاكتشاف الهولندى البحث عن الغاز فى جنوب بحر الشمال خاصة فى القطاع البريطانى الذى تم العثور فيه على كميات كبيرة أيضا مما قلل من اعتماد بريطانيا على الفحم . أما فى أوروبا الغربية فلم تثمر الجهود عن كميات تجارية من الغاز إلا فى رومانيا حيث يكفى الإنتاج للاستهلاك الداخلى وللتصدير لشمال المجر . وقد يصبح الاتحاد السوفيتى من الدول الممولة لأوروبا الغربية بالغاز أو تستلم ألمانيا الغربية وايطاليا جزءا من غازها الطبيعى بواسطة أنابيب مدت خصيصا من الشبكة التى تمول دول الكوميكون . كما أن عملية تحويل الغاز الطبيعى إلى سائل يسهل نقله بالناقلات من حقول شمال أفريقيا .

وقد ساعد التقدم التكنولوجى فى مجال البحث والتنقيب عن البترول فى بحر الشمال ، فإن استخدام أحدث الوسائل العلمية من المسح الجيولوجى والكمبيوتر والتنقيب تحت الماء يزيد التكاليف مما استدعى توحيد الجهود بين دول عدة لاستغلال هذه الموارد الهامة . وقد ساعد ارتفاع أسعار البترول فى تخفيف هذه التكاليف . ويمثل القطاعان البريطانى والنرويجى أهم مناطق استخراج البترول حتى الآن (١٩٧٩) كما يبشر البحث عن البترول فى بحر السلت Celtic Sea (القطاع البريطانى الأيرلندى) ، بوجود كميات منه والبحث ما زال جاريا من قبل كل دولة للبحث عن البترول فى قطاعاتها من بحر الشمال (الشكل ٥٨) .

أما الكهرباء فقد أصبحت مصدرا مهما للطاقة . وقد حدث أكبر توسع فى الإنتاج فى المحطات الحرارية التى تستخدم الفحم والليجنايت والبترول والغاز الطبيعى والطاقه النووية . أما الطاقة النووية فقد استخدمت كمصدر للطاقة لأول مرة فى الولايات المتحدة وبريطانيا ودخلت دول غربى اوروبا هذا المجال مع تدشين منظمة الطاقة النووية الأوروبية Euroatom فى عام ١٩٥٧ . أما الدول المنتجة لليورانيوم داخل السوق المشتركة فهى ألمانيا الغربية وفرنسا بينما تحتل المملكة المتحدة

الصدارة فى عدد المفاعل الذرية . وقد شرعت ألمانيا مؤخرا فى بناء مفاعل لها . أما الاتحاد السوفيتى فلديه كميات كبيرة من مادة اليورانيوم ودخلت مجال استخدام الطاقة النووية فى منتصف الخمسينات كما قام بمساعدة دول الكوميكون بانشاء محطاتها النووية ولكن روسيا اقل اعتمادا على الطاقة النووية نظرا لتوفر مصادر الطاقة التقليدية فيها (الشكل ٦٠) .

بينما شهدت دول اسكندناوه ومنطقة جبال الألب تطورا فى توليد الطاقة الكهربائية خاصة قبل عام ١٩٤٥ . فقد بقى استغلال وتطور هذا المصدر محدودا فى أجزاء أخرى من القارة ، كما شهدت بعض الدول (مثل بريطانيا وألمانيا) تقلصا فى نصيبه .. أما فى دول أوروبا الشرقية فقد اعطى تطوير الطاقة الكهرمائية أولوية خاصة فى مشاريع التنمية ومن ثم تم إنشاء محطات توليد عديدة (ومحطات كهربائية خاصة فى بلغاريا ورومانيا) كما أن هناك مشروعا مشتركا بين يوغسلافيا ورومانيا على الدانوب عند البوابة الحديدية لتوليد الطاقة الكهربائية المائية كما تم اخيرا ربط جميع اعضاء الكوميكون بواسطة شبكة كهرباء موحدة (الشكل ٦٠) .

مع التزايد المستمر فى الطلب على الطاقة واستهلاكه فإن مشكلة الطاقة ستبقى أهم ما تواجه الدول الأوروبية كما حدث فى عام ١٩٧٣ عندما شعرت هذه الدول مدى الخطورة التى تتعرض لها فى مثل هذه الاوقات . وقد دفعت الاسعار المرتفعة للبترول وعدم الاستقرار السياسى فى مناطق الإنتاج (الحرب الايرانية العراقية) إلى تكثيف الجهود للبحث عن هذه الموارد فى داخل القارة (كما فى بحر الشمال) وإيجاد بدائل للطاقة كالطاقة النووية أو تطوير دور آخر للفحم كاستخدامه فى استخراج البنزين (غازوهول) وإيجاد وسائل لاستخراج الفحم الموجود تحت بحر الشمال . وهذا الارتفـاع المتزايد فى أسعار البترول هو الذى أدى الى تصدير البترول والغاز الطبيعى السوفيتى إلى دول غرب أوروبا .

صناعة الحديد والصلب :

أما أثر التكنولوجيا الحديثة على أنماط الجغرافية الاقتصادية فى القارة فيظهر بوضوح فى صناعة الحديد والصلب حيث أدت وسائل الإنتاج الجديدة والتطور فى

وسائل النقل إلى تغيير فى متطلبات المواقع التقليديه للمصانع ، فقد شجع النقص فى إنتاح الحديد والصلب بعد الحرب الثانية مباشرة استثمارا ضخما فى المصانع فى منتصف الخمسينات فى الدول الغربية والشرقية . وأدى استخدام الطرائق التقنية الحديثة فى زيادة الإنتاج ، كما أدت هذه الزيادة فى الإنتاج مع الانخفاض فى الطلب على الحديد والصلب فى السبعينات إلى تضخم فى الإنتاج overcapacity خاصة فى المصانع القديمة ذات القدرة التنافسية الأقل على الرغم من برامج التأميم التى شملت هذه الصناعة بغرض رفع قدراتها الإنتاجية . وقد أثرت ثلاثة عوامل ذات أبعاد عالمية فى صناعات الحديد والصلب الأوروبية هى : -

(١) الزيادة التى طرأت فى عدد المصانع القومية الذى قفز من ٢٠ مصنعا فى عام ١٩٣٨ إلى ٨٠ مصنعا فى عام ١٩٧٥ (منها ألبانيا وبلغاريا كدول جديدة) أثر سياسة التصنيع التى تبنتها الدول حديثة الاستقلال .

(٢) التحسين فى أسلوب وطرائق التقنية الحديثة بما أدى إلى تقليل النسبة بين المواد الخام المستخدمة بالنسبة إلى مقدار المواد المصنعة مع الإسراع فى عمليات الإنتاج المختلفة .

(٣) الثورة التى حدثت فى وسائل النقل البحرى والمتمثلة فى ناقلات المواد الضخمة مما أدى إلى انخفاض فى تكلفة النقل . ومن نتائج هذا التطور أن زادت مصادر المواد الخام وتنوعت لأنها سهلت استجلاب المواد من مناطق مختلفة رغم أن هذه الوسيلة قد أعطت الأهمية للمواقع الساحلية .

وكانت النتيجة ان زادت طاقة الإنتاج القصوى للمصانع (التى زادت أيضا فى أحجامها) من مليون طن فى عام ١٩٤٧ إلى عشرة مليون طن فى عام ١٩٧٤ . أما بالنسبة لأوروبا فقد كانت هذه التغييرات تعنى انخفاضا نسبيا فى وضعها الدولى بينما احتلت الولايات المتحدة وروسيا واليابان الصدارة فى هذا المجال .

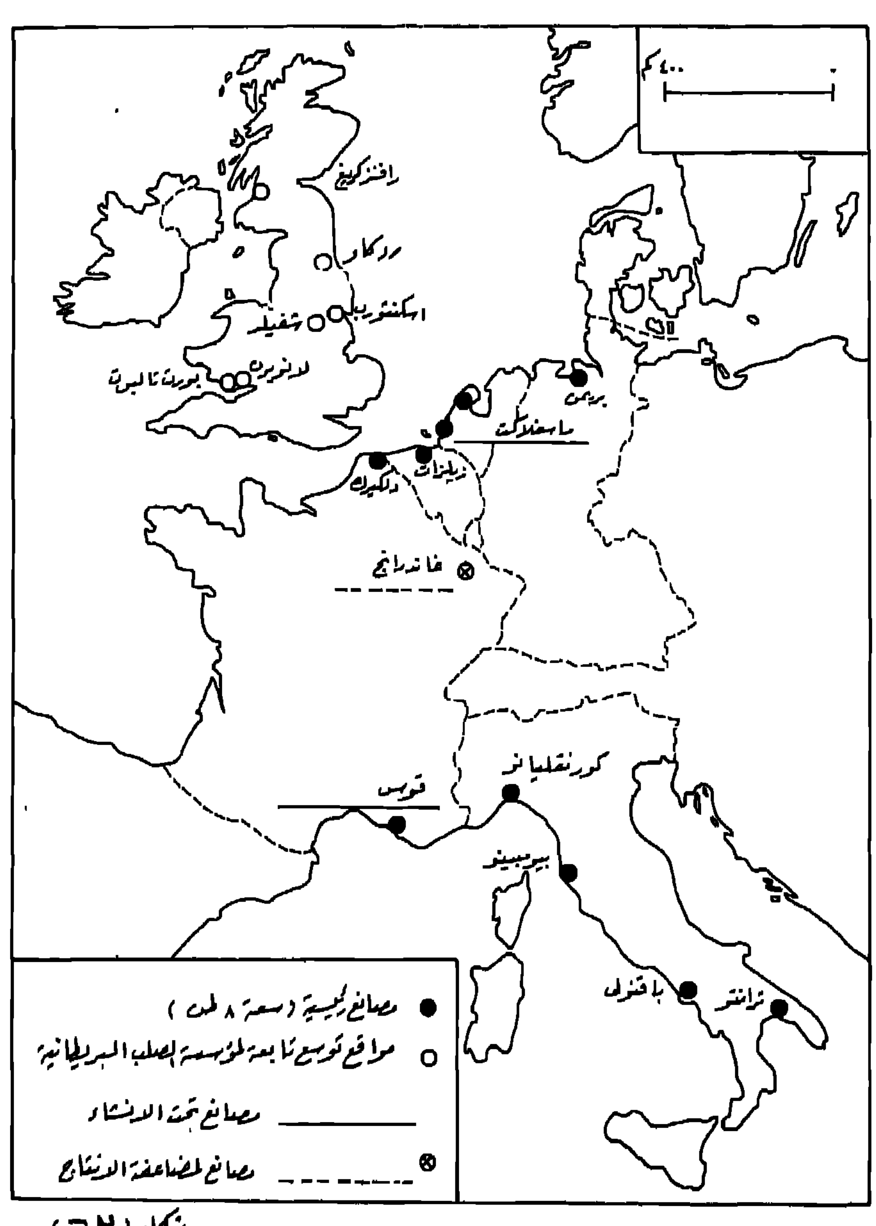
وظهرت المصانع الساحلية (على غرار اليابان) التى تصل طاقتها الإنتاجية إلى مابين ٨ و ١٠ مليون طن وتغذيها الناقلات الضخمة بالمواد الخام المستوردة من مناطق عدة .. وكانت بريطانيا هى أكثر دول أوروبا استفادة من هذه المواقع ولكن

مشاكل الصناعة البنيويه ومشاكل العمال أثرت فى نجاح هذه المصانع الساحلية وازدهارها . وقد تم إنشاء مصانع كبيره فى جنوب ويلز وشمال شرق انجلترا كما أن هناك مصانع مقترحة لغرب اسكتلندا ويتوقع التوسع فى هذا المجال داخل إطار السوق المشتركة ، فإن إصرار الحكومة على استخدام فحم الكوك المحلى ذى التكلفة العالية من حقولها الداخلية كان من الأسباب التى عاقت توسع وأداء هذه المصانع فى الماضى (الشكل ٦٣) .

وتم تشييد مصانع ساحلية فى كل من فرنسا وإيطاليا : فإيطاليا بالذات تعتمد على المواد الخام المستوردة كما أنها تستفيد من وفرة العمال ورخصه فى الجنوب (ميزيقيو رنو Mezzegiorno) . اما خطط ألمانيا الغربية فى بناء مصانع ساحلية عند مصب نهر الألب فلم يتحقق حتى الآن (١٩٧٩) كما أن المصنع الموجود فى بريمن بعيد مما يعيق تطويره بصورة فعالة . اما مصانع الرور فتعتمد على المواد الخام (الحديد) المنقولة عن طريق الماء من ميناء (روتردام – يروبورت) . ونسبة لأهمية الأنهار فى نقل المواد الخام والمصنعة فإن المصانع أصبحت تتجمع على شاطىء الراين بينما أخذت مصانع الرور الشرقية تستخدم الصلب الخام من المصانع الساحلية الهولندية فى اجميدن Ijmuiden . أما مصانع إقليم سارلورلكس Saarlorlux (السار – اللورين – لوكسمبرج) الحديد الداخلية فهى فى وضع تستطيع فيه المنافسة فى الأسواق الداخلية . أما فى المناطق الأخرى فقد أخذت المصانع الداخلية الموقع تتخصص فى منتجات فرعية وأصبحت تعتمد على الحديد الزهر والصلب الخام المجلوب من المصانع الساحلية . كما أن هذه المصانع الداخلية أخذت تبتكر وسائل إنتاج جديدة مثل الصناعة النمساوية التى طورت صلب الأوكسجين المعروف بـ LD steel بينما تركز الصناعة السويدية فى إنتاج الصلب الجيد ذى الخصائص المميزة المكتسبة بالوسائل الكهربائية .

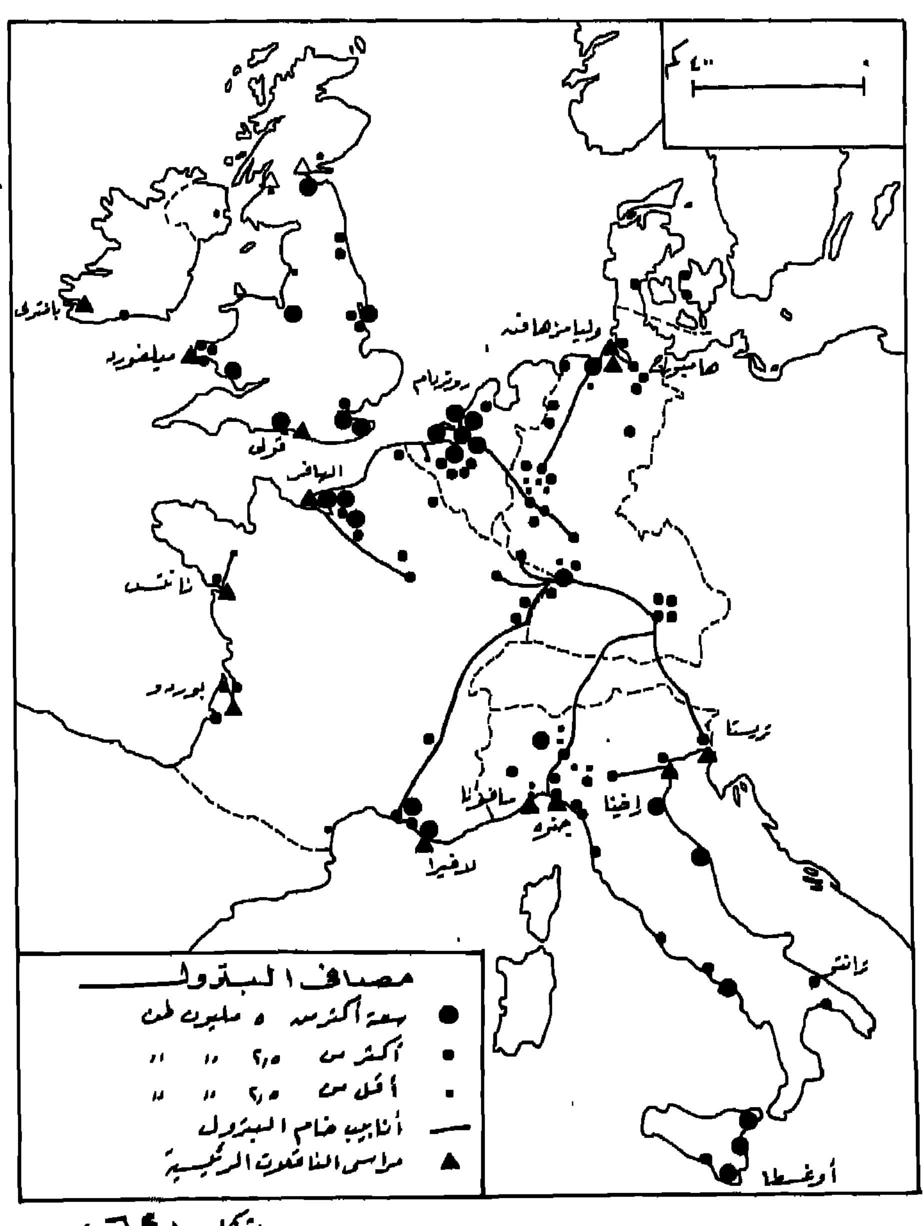
وفى روسيا أعطيت الأولوية لصناعة الحديد والصلب واتبعت نفس السياسة فى دول أوروبا الشرقية . ففى الخمسينات شهدت هذه الدول الشرقية إقامة العديد من هذه المصانع دون إعطاء اعتبار لحجم وموارد المواد الخام المحلية . وكانت روسيا

مصانع الصلب الساحلية فى السوق المشتركة



شكل (٦٤)

السعة التكريرية للبترول في السوق المشتركة



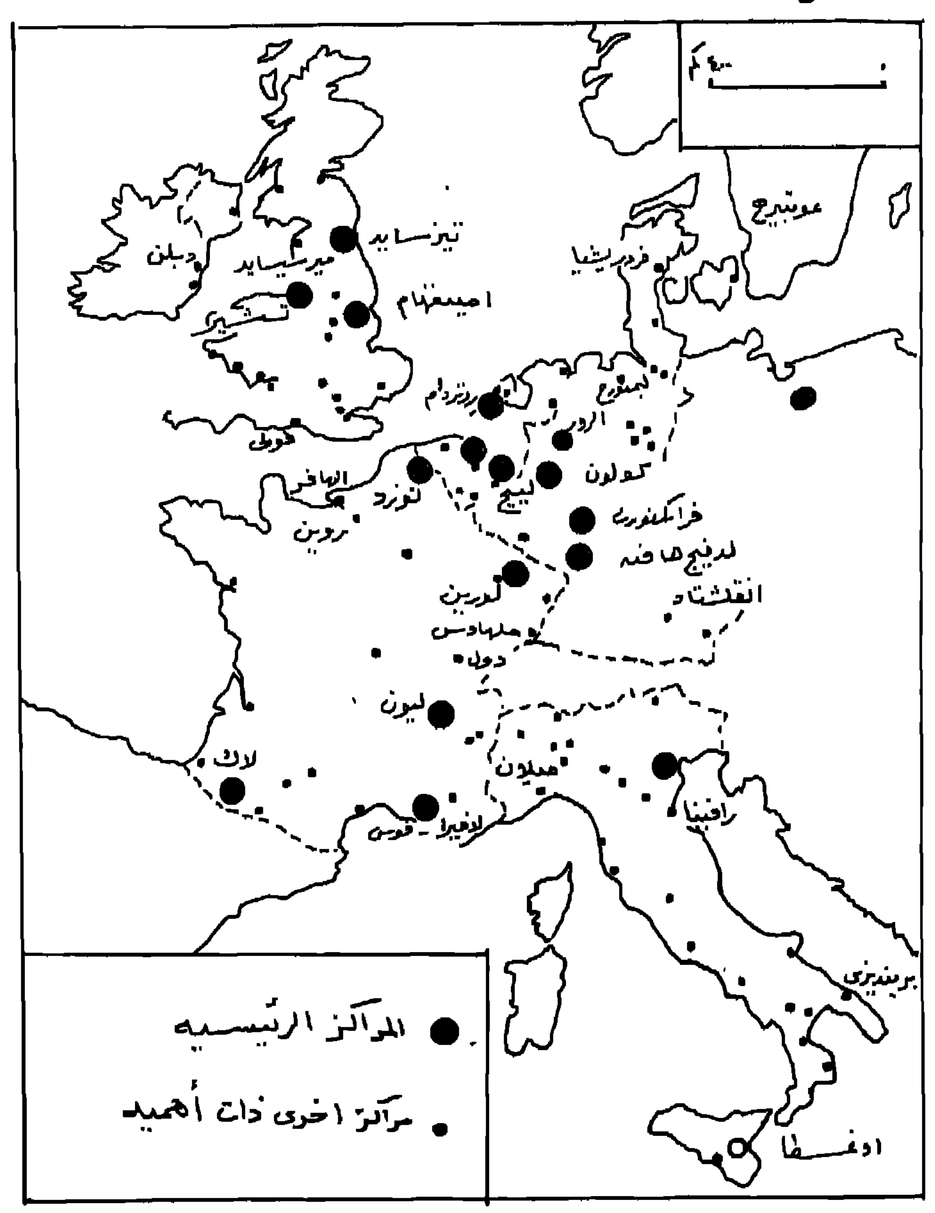
شكل (٦٤)

لأسباب سياسية – جغرافيه تمول هذه المصانع بالفحم والحديد . وهذا الوضع ينطبق على الصناعة فى ألمانيا الديمقراطية التى كانت تعتمد قبل الحرب على مصانع تقع الان فى ألمانيا الغربية وبولنده وتفتقر إلى المواد الخام الأساسية . أما فى بولنده فقد ظهر المجمع الصناعى الضخم فى نووا حوتا Nowa Huta شرق مدينة كاركاو كجزء من سياسة للتصنيع الإقليمى ، كما ارتبط مصنع دونو يفاروس Dunaujvaros فى المجر على خام الحديد المستورد من بلغاريا والاتحاد السوفيتى والفحم المحلى كما تم تشييد مصنع فى سلوفاكيا يعتمد اعتمادا كليا على الخام المستورد من روسيا واتبع نمط تصنيع مشابه فى رومانيا ويوغسلافيا بينما شرعت بلغاريا والبانيا فى التخطيط لإقامة مصانع جديدة . ومع فقدان سياسة الاتوقراطية معناها ، ومع تبنى سياسات تصنيع جديدة ، ظهرت عدم فعالية هذه المصانع .

فى الصناعة الكيماوية : – (الشكل ٦٥) .

جلبت التكنولوجيا الجديدة تنوعا فى منتجات ، وتطورا شديدا فى الصناعة الكيماوية خاصة من خلال تطوير صناعة البتروكيماويات . وتركزت هذه الصناعة فى محور نهر الراين ودلتا الراين والماس حيث نمت صناعة تكرير البترول ، كما شهدت السواحل الفرنسية وجنوب انجلترا تطورات مشابهة بينما توسعت الصناعات الكيماوية غير البترولية فى منطقة همبرسايد وشمال شرق انجلتره . وعاصرت فترة الستينات انتشار الصناعات الكيماوية فى اوروبا الشرقية أثر قرار سوفيتى يهدف إلى تطوير وتحديث الصناعة خاصة بعد اكتشاف كميات كبيرة من البترول فى حوض نهر الفولجا . أما فى أوروبا الشرقية فقد تركز الاهتمام فى تطوير وتوسيع وتحديث المصانع الكيماوية الضخمة فى حوض الألب والسال فى ألمانيا الديمقراطية كما حدث تطور فى هذا المجال فى بوهيميا وأخذت بولندة تطور وتوسع من المصنع الذى ورثته من الألمان بعد طردهم من سايليزيا . أما بلغاريا ورومانيا والمجر فقد استغلتا المساعدات المالية من دول الكوميكون فى تطوير صناعاتها الكيماوية خاصة صناعة الأسمدة والكيماويات الزراعية .

شكل ٦٥ : الصناعات الكيمائيه فى السوق المشتركه



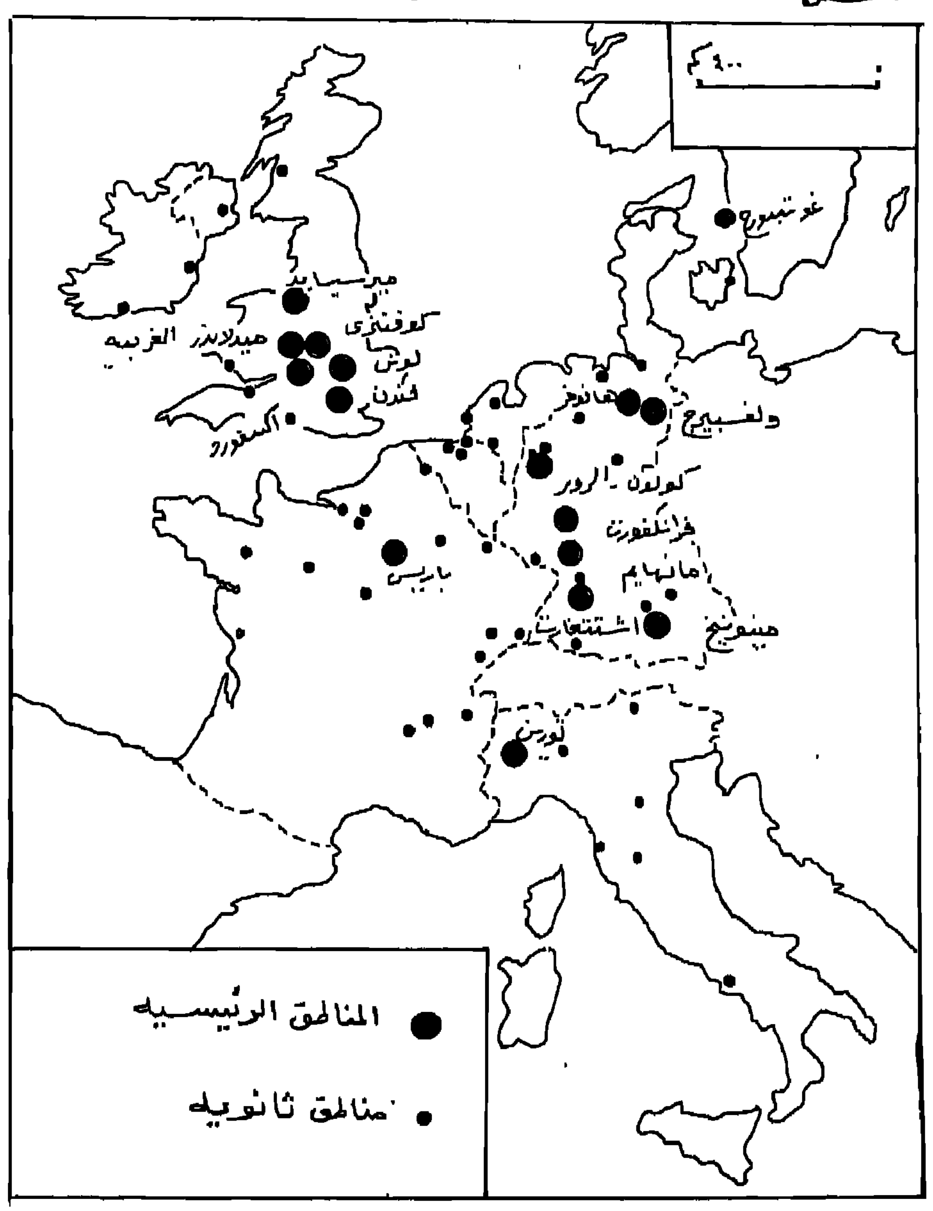
صناعة البضائع الاستهلاكية : -

شهدت الفترة ما بعد الحرب ، خاصة من الستينات فصاعدا ، ثورة تسويقية فى غرب أوروبا أثر تزايد الطلب على المواد الاستهلاكية . فبينما أولت أوروبا الغربية اهتمامها للمستهلك الخاص ، أعطت سياسة الاستثمار المخطط فى شرق أوروبا الأولوية لقطاعات أخرى ، فالمواد الاستهلاكية المتينة Consumer durables هى عبارة عن مجموعة من مصانع التجميع الحرة غير المقيدة لكنها مرتبطة ببعضها البعض فى أغلب الأحيان ، يلعب فيها عامل العمال دورا كبيرا فى تكلفة الإنتاج وتحديد موقع المصانع . ولذلك أصبحت إيطاليا فى الخمسينات من أكبر الدول المنتجة للمعدات الكهربائية المنزلية مستغلة فى ذلك احتياطى العمال الضخم من إقليم الجنوب (ميزوقيورنو) . كما شهدت ألمانيا الغربية نهضة مماثلة فى الصناعات الاستهلاكية فى الخمسينات مستفيدة أيضا من السكان المطرودين من ألمانيا الديمقراطية آنذاك ولكنها اضطرت بعد عشر سنوات إلى الاستعانة بالعمال الأجانب . ومن أواخر الستينات أجبرت التكلفة المتزايدة للعمال فى أوروبا الغربية المنتجين على القيام بدراسة إمكانية الاستفادة من العمال الرخيصين من شبه جزيرة أيبريا وجنوب أوروبا وحتى من جنوب شرق آسيا (مثل تجميع آلات الكميرا والبضائع الكهربائية من قبل الشركات الأوروبية فى تايوان وسنغافورة وأخيرا اليابان) . أما فى دول شرق أوروبا فإن التطور فى هذا المجال (Consumer durables) كان بطيئا على الرغم من وجود العمال بكميات كبيرة نتيجة إعادة تنظيم القطاع الزراعى على الأسس الاشتراكية الجديدة . ولكن نشأ بعض العلاقات كما فى ألمانيا الديمقراطية حيث يتم تجميع بعض القطع الألكترونية فى المجر حيث يتوفر العمال كما أن بولندة تفكر جديا فى إنشاء مصانع تجميع لقطع الغيار لبعض الشركات الغربية كوسيلة لكسب العملات الصعبة .

صناعة السيارات : (الشكل ٦٦) :

شمل التغيير أيضا صناعة السيارات التى تعتبر نموذجا كلاسيكيا لصناعة التجميع . فقد شهدت الستينات نموا كبيرا فى هذه الصناعة تمثلت أولا فى توسيع

شكل ٦٦ : صناعة السيارات فى السوق المشتركه



مصانع ما قبل الحرب وثانيا إنشاء مصانع فى مواقع جديدة فى مناطق تحتاج إلى حوافز اقتصادية (مثلا فى منطقة ميرسى سايد Merseyside واسكتلندا فى المملكة المتحدة وإقليم بريتانى Brittany فى فرنسا وحقول فحم الرور والسار فى ألمانيا الغربية) . كما تم إنشاء مصانع تتخصص فى إنتاج عربات ذات جودة فى السويد وانتاج عربات صغيرة فى هولنده ، بينما نشأت علاقات جديدة بين شركات تنتمى إلى جنسيات مختلفة (خاصة الشركات الأمريكية) . وتم إقامة مصانع تجميع فى الأقطار التى تتمتع بوفرة عمالية مثل أسبانيا ، ويحتمل أن يشمل التوسع فى هذه الصناعة تلك المواقع ذات الوفرة العمالية الرخيصة . أما فى دول أوروبا الشرقية فصناعة العربات ما زالت على مستوى صغير . ففى ألمانيا الديمقراطية ما زال الإنتاج دون مستوى ما قبل الحرب نتيجة تفكيك المصانع بعد الانقسام كما لم يحدث أى توسع حديثا ، كما حاولت بعض هذه الدول (مثل بولنده والمجر) إنتاج العربات لتغطية احتياجات السوق المحلية ولكن هذه الأسواق وجدت أنها أصغر من أن تبرر إقامة مصانع ضخمة ، ومن ثم اتفقت دول الكوميكون على أن تتخصص دول منها فى إنتاج أنواع معينة من العربات ثم تغطية احتياجاتها بالتبادل مع الدول الأعضاء أو دول أخرى . وهكذا شرعت بولنده ورومانيا فى بناء عربات أجنبية بالترخيص كما فعلت يوغسلافيا فى حين أن مصانع تشيكوسلوفاكيا لم تشهد توسعا يذكر بعد الحرب . فأوربا الشرقية ما زالت تعتمد على روسيا فى صناعة العربات والماركات الروسية (المصنوعة محليا والمستوردة منها) .

انعكس الأسلوب الدولى الجديد للتنظيم الاقتصادى فى غرب أوروبا فى اتجاهات جديدة فى العمل . فقد سعت الشركات فى إنشاء فروع لها فى دول أخرى وذلك لغرض الاستفادة من وفرة العمال فى تلك المناطق أو للنفاذ إلى أسواق أخرى أو حتى للتغلب على حواجز مالية وشرعية . وظهر تعاون كبير على مستوى دولى كما يظهر خاصة فى ارتباط الصناعات الثقيلة فى مبدأ سارلورلكس المتمثل فى المشروع الألمانى – الفرنسى المشترك فى الصناعات الكيماوية والثقيلة . وقد سعت مثل هذه المشاريع المشتركة إلى تسويغ الإنتاج أو الاستفادة من اتجاهات جديدة فى موقع المصانع كما يظهر فى الدمج بين مصانع دورتمند للصلب ومصانع الحديد الهولندية فى

اجميدن ويظهر هذا التعاون المشترك فى صناعة طائرات الكونكورد بين بريطانيا وفرنسا وطائرات الباص الجوى بين دول أوروبية غربية ، وتعتبر هذه المشاريع المشتركة فى صناعة الطائرات الطريقة الوحيدة لتحدى السيطرة الامريكية فى هذا المجال .

وقد بدأت الخطوة الاولى فى مثل هذه التطورات بدخول الرأسمال الأمريكى فى الصناعات الأوروبية مثل شركة فورد الأوروبية ومصانعها المنتشرة فى بريطانيا وبلجيكا وألمانيا والدمج الذى حدث بين شركة كرايسلر الأمريكية وشركة روتس Rootes البريطانية وشركة سيمكا Simca الفرنسية الذى لم يخالفه النجاح . وقد كانت إمكانيات أمريكا الضخمة فى مجال البحث والتطور العلمى على مستوى العالم من العوامل الأساسية التى أدت إلى سيادتها على الصناعات الألكترونية فى أوروبا . فالصناعات الأوروبية التى تمولها الولايات المتحدة تأتى فى المرتبة الثالثة من حيث الإنتاج العالمى ، فهذه الشركات ذات الجنسية المتعددة تتميز عادة بحريتها وعدم تقيدها بعوامل الإنتاج ما دامت وحداتها الإنتاجية تنسجم مع نظام إنتاجى متكامل . وبهذا الشكل لعبت هذه الشركات دورا هاما فى مناطق التنمية حيث فرص الربح والكسب مواتية . ونتيجـة لهذا يجب تفسير نمط توزيع بعض الصناعات الأوروبية الرئيسية مثل تكرير البترول وتوزيعه فى محتوى النشاطات العالمية التى يمارسها أصحاب هذه الصناعات .

أما فى أوروبا الشرقية فقد بدأت الشركات الدولية بالارتباط مع الشركات السوفيتية ، خاصة فى رومانيا والمجر . وتطور هذا الارتباط الى تنظيمات مثل المنظمة المشتركة البولندية – المجرية لتسويق الفحم المعروفه باسم هادلكس Hadlex ، بينما تم الاتفاق مؤخرا بين ألمانيا الديمقراطية والمجر لتجميع القطع الألكترونية الألمانى فى مدن إقليم بستا Puszta حيث يتوفر العمال . ومنذ بداية السبعينات أخذت وحدات أكبر حجما وذات صبغة دولية على غرار الشركات الكبيرة فى غرب أوروبا تظهر وفق سياسة التكامل الاقتصادى الاشتراكى ليؤدى إلى إنتاج صناعى مشترك ذى فعالية اقتصادية . ويمثل أول مشروع من هذا النوع مشروع دراسى مشترك بين ألمانيا

الديمقراطية وبولنده وتشيكوسلوفاكيا للمساهمة فى البحث وتطوير وتكلفة إنتاج العربات .

التغيرات فى مجال النقل : (الشكل ٦٧ ـ ٦٨) .

تأثرت أوروبا أيضا بالثورة التى طرأت على وسائل النقل العالمى . وقد ظلت السكك الحديدية فى معظم أجزاء القارة تؤدى وظيفتها كأهم وسيلة نقل فى مجال المسافات المتوسطة كما بذلت قصارى جهدها فى الصمود فى وجه التنافس مع وسائل النقل الأخرى بتطبيق المبتكرات الحديثة من كهرباء وكمبيوترات ، ولكنها احتفظت بمكانتها فى دول أوروبا الشرقية ذات التخطيط المركزى أكثر من دول أوروبا الغربية ذات الاقتصاد الحر . فقد شهدت دول فى غرب أوروبا تقلصا فى طول السكك الحديدية مع إلغاء الخطوط ذات الاستخدام الخفيف . وقد بدأ هذا الاتجاه فى فرنسا وبريطانيا فى البداية ثم فى ألمانيا الغربية فى السبعينات ومن ثم لم يشهد غرب أوروبا إنشاء خطوط جديدة إلا ذلك الخط الذى يربط بودو Bodo فى شمال النرويج وبعض الخطوط الفرعيه فى فنلنده وتخطط ألمانيا العربية التى تحتل موقعا وسطا فى شبكة السكك الحديد الأوروبية لإنشاء خط رئيسى جديد على نمط نظام توكيو اليابانى لتخفيف الضغط على الخطوط الفرعية وتسهيل عملية الانتقال . وكان من أسباب الانتكاسة التى عاقت التوسع فى شبكة السكك الحديدية فى غرب أوروبا إلغاء بريطانيا لنفق القنال الانجليزى الذى كان سيربط بين فرنسا وانجلترا ومن ثم باقى أجزاء أوربا الغربية . ورغم النمو الذى طرأ على نقل البضائع عبر المسافات الطويلة بواسطة السكك الحديدية فإن الأخيرة قد فقدت بضائع المسافات القصيرة للطرق كما أن الزيادة فى نقل الركاب حدثت بالنسبة للمسافات وأيضا فى حالة المسافرين يوميا بين الضواحى ومراكز العمل داخل المدن . وقد قتلت المنافسة الجوية كثيرا من قطارات السفريات الدولية مثل قطار الشرق الشهير .

أما سكك حديد أوروبا الشرقية فقد بقيت دون تحدى حتى الستينات كما شهدت دول أوروبا الجنوبية الشرقية اضافات فى خطوطها مثل الخط الرئيسى الذى يربط بين مدينتى بلغراد وبار فى يوغوسلافيا . وعدة خطوط جديدة فى ألبانيا وبلغاريا

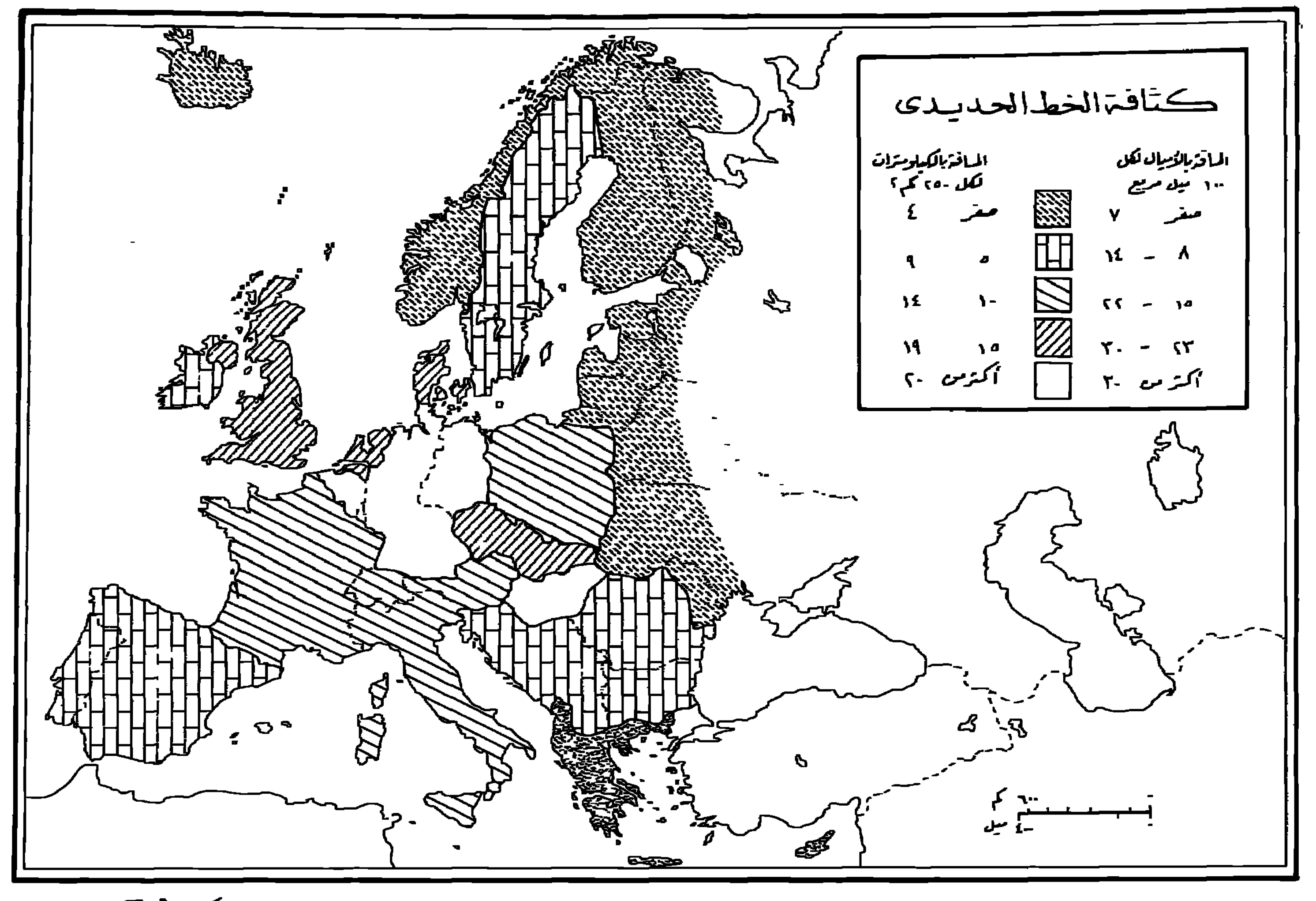
عدد الأشخاص لكل سيارة
معلومات غير متوفرة
٤ – ٥
٦ – ٧
٨ – ١٠
١١ – ٢٠
٢١ – ٥٠
٥١ – ١٠٠
أكثر من ١٠٠
٢٥٥
٥٢٤
٦٠٠ كم
٤٠٠ ميل

شكل (٦٧)

ورومانيا . وقد ادت ارتباطات جغرافية - سياسية جديدة إلى بناء خطوط جديدة مثل خط برلين - روستوك المقترح فى ألمانيا الديمقراطية وبعض الفروع المفقودة داخل بولنده . وتحت تأثير السوفيت خططت السكك الحديدية أساسا لنقل البضائع كما يوجد نظام خاص لتسهيل الانتقال بين الخطوط ذات العرض العادى السائدة فى دول شرق أوروبا وبين الخطوط السوفيتية العريضة . وهناك شبكة تتكون من عربات نوم تشع من موسكو إلى شرق وحتى غربى أوروبا .

منذ عام ١٩٤٥ شهدت أوروبا الغربية نموا ضخما فى حركة الطرق بينما عاصرت أوروبا الشرقية تطورا كبيرا ايضا فى هذا المجال إبتداء من نهاية الخمسينات . وقد أدت الاستثمارات الضخمة إلى بناء شـــبكة ضخمة من الطرق الرئيسية (Autobahn Motorways) فى أوروبا الغربية خاصة فى حوض نهر الراين وإيطاليا حيث تصل كثافة الطرق أشدها بالمقارنة مع اسكندناوه وايبريا حيث تقل الكثافة . وصاحب إنشاء الطرق بناء عدد من الأنفاق عبر جبال الألب . وقد لعبت هذه الطرق الجديدة دورا هاما فى انتشار الصناعات الحرة الى المناطق الريفية كما ادت الزيادة فى عدد السيارات إلى ازدحام رهيب فى المدن التى شهدت استثمارا على أعلى مستوى فى حركة وهندسة المرور .

لم تشهد أوروبا الشرقية بناء طرق رئيسية جديدة رغم الشروع فى مشاريع بناء متواضعة فى الستينات كما تم ربط المناطق الريفية بطرق عادية بالمناطق التى تمر بها خطوط رئيسية . ورغم هذا البطء فى تشييد الطرق شهدت بعض دول المنطقة زيادة كبيرة فى النقل عبر الطرق كما أن خدمات البص فى ألمانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا وأجزاء من بولندة جيدة . وحدثت الزيادة فى حركة الطريق بالنسبة لنقل المواد الغذائية سريعة التلف من دول جنوب شرق القارة إلى وسط وغرب القارة . كما أن اللوارى والشاحنات تعمل بانتظام بين دول أوروبا الغربية وتركيا ودول الشرق الأوسط وحتى إيران وباكستان . ومن أهم خصائص هذا التطور الضخم فى بناء الطرق وزيادة العربات تلك العبـارات التى تربط بين الجزر وأشباه الجزر .


كثافة الخط الحديدى
المسافة بالأميال لكل ١٠٠ ميل مربع
المسافة بالكيلومترات لكل ٢٥٠ كم ٢
صفر ٧
٨ - ١٤
١٥ - ٢٢
٢٣ - ٣٠
أكثر من ٣٠
صفر ٤
٥ ٩
١٠ ١٤
١٥ ١٩
أكثر من ٢٠
٦٠٠ كم
٤٠٠ ميل

شكل (٦٨)

وهناك تفاوت كبير فى أهمية النقل المائى بين اقليم وآخر . فقد شهدت بريطانيا منذ عام ١٩٤٥ تقلصا متزايدا فى أهمية القنوات والأنهار بينما لم تكتسب الطرق المائية الداخلية أهمية تذكر فى أيبريا وإيطاليا واسكندناوه . وعلى الرغم من ذلك احتفظ حوض الراين بأهميته الملاحية كما طورت وسائل أكثر فعالية مثل زوارق الدفع لضمان خدمات أكثر سرعة وأكثر فعالية من الناحية الاقتصادية ، كما تغيرت حركة أيضا إذ قل نقل الفحم والبترول (بعد مد أنابيب البترول) . وكان لنمو وتطور السوق الأوروبية المشتركة دور هام فى نجاح ممر نهر الراين المائى وملحقاته من القنوات مما شجع حفر قناة الراين – الدانوب ، وظهور مقترحات حول ربط الراين ونهر الماس وقناة الراين – سار . وقد أدى تقسيم ألمانيا إلى شطرين وتمزيق حوض نهر الألب بين المعسكرين الغربى والشرق إلى بناء قناة ألمانية غربية تربط نهر الألب والقنال الأوسط (Mitteland Canal) ، واقتراح ألمانى شرقى آخر لحفر قناة من نهر الألب إلى ميناء روستوك . وشجعت الأهمية المتزايدة لمجارى نهر الراين العليا حتى مدينة بال الحكومة السويسرية إلى تبنى اقتراح لجعل النهر صالحا للملاحة إلى بحر بودن وحفر قناة يربط الراين بنهر الرون عن طريق بحيرة جنيف .

تحت تأثير مشاريع تطوير الملاحة فى الممرات المائية الداخلية فى الاتحاد السوفيتى وضعت خطة فى الخمسينات فى أوروبا الشرقية لربط الأنهار الشمالية والجنوبية مع بعضها البعض وذلك بتنفيذ قناة الألب – الأودر – الدانوب المقترح ، كما اقترح أيضا توصيل الأنهار الشمالية وخاصة من فستولا إلى الدينبر ، ثم تحسين بعض الأنهار للملاحة مثل فستولا وسال . وكان بناء قناطر على الدانوب عند البوابة الحديدية لرفع منسوب الماء لغمر الجنادل التى كانت تعترض الملاحة هنا هو أولى الخطوات لتحقيق تلك الأهداف . وترك مشروع لحفر قناة عبر نهر دوبروبا Dobruja بغرض تقصير الرحلة بين الدانوب والبحر الأسود . وما زالت إمكانيات نهر الدانوب الملاحية غير مستغلة مثلما نجد فى نهر الراين كما لا نجد مشروعا مشتركا لتطوير نهر الدانوب على غرار هيئة وادى تينسى فى أمريكا أو مشروع فولجا الكبير فى روسيا .

كانت للثورة التى حدثت فى وسائل النقل البحرى نتيجة أزمة حزب السويس فى

الخمسينات آثار كبيرة على غرب أوروبا حيث أخذت ناقلات النفط الضخمة والشاحنات تؤثر فى تحديد موقع المصانع . وقد ساعدت السوق المشتركة بعلاقاتها الدولية الواسعة فى تسهيل حركة هذه الناقلات الضخمة بتركيز الجهود فى تجهيز موانى مناسبة لاستقبال هذه السفن كما فى ميناء روتردام – يروبورت او فى خطط الحكومة الفرنسية لإنشاء رصيف تفريغ لما يعادل مليون طن من النفط فى بريتانى .

أما بالنسبة لدول شرق أوروبا فإن هذه الثورة فى وسائل النقل البحرى كانت اقل اثرا لاهتمامها القليل بالتجارة البحرية ، ويمكن أن نعزو السبب جزئيا إلى قلة الموانىء الكبيرة التى تستقبل السفن الضخمة خاصة من بين الموانىء المطلة على بحر البلطيق والبحر الأسود ، رغم أن الوضع بالنسبة للساحل الادرياتى أفضل ويتيح التطور والتوسع فى هذا المجال . وقد سعت دول الكوميكون فى تطوير وتنمية أساطيلها البحرية المتخصصة فى نقل البضائع العامة ، وتحتل روسيا وبولنده وألمانيا الديمقراطية إلى حد ما مركزا لابأس به فى سوق سفن الشحن غير النظامية .

أما الكمية المتزايدة من النفط والغاز الطبيعى فيتم نقلها بواسطة الأنابيب التى يمكن أن نميز منها نمطين رئيسيين : –

١ – أنابيب تنقل البترول من أماكن التفريغ الرئيسية إلى المصافى الداخلية ومراكز التوزيع .

٢ – شبكة أنابيب داخلية (معظمها لنقل الغاز الطبيعى) تمتد من مناطق الإنتاج إلى أماكن الاستهلاك (كما فى هولنده وشمال ألمانيا ومن بحر الشمال إلى إنجلتره) .

كما أن هناك شبكة أخرى كبيرة تحت التنفيذ لربط مناطق إنتاج الغاز الطبيعى والزيت الخام الموجودة تحت بحر الشمال إلى مناطق تفريغ على الساحل .

أما بالنسبة لنقل الركاب فقد شهدت الخمسينات تحولا كبيرا فى حركة الركاب من السفن البحرية (خاصة عبر الأطلسى) إلى الطائرات كما شهدت السفريات الداخلية تطورا كبيرا ، لما تقدمه الرحلات الجوية من راحة وكسب للوقت ، خاصة

لرجال الأعمال ، ولأنها أيضا تساعد فى التغلب على مشاكل عبور الحدود والصعوبات التى يتعرض لها الركاب المواصلون كما بين ألمانيا الغربية وبرلين الغربية . وتعمل الشركات الحكومية والخاصة فى تقديم الخدمات (خاصة فى نقل السواح من بلد لآخر بالنسبة للشركات الخاصة) ونظرا لأهمية أوروبا فى مجال حركة الطيران ، فإن لكل دولة تقريبا مطارا دوليا على مقربة من العاصمة (باستثناء ألمانيا الغربية) رغم أن السفريات الدولية يمكن أن تتم من مطارات اخرى . وتتم ثلاث أرباع حركة الطيران الأوروبية عن طريق مطارات لندن وباريس وفرانكفورت وروما وكوبنهاجن وشيبول (امستردام) وثلثها عن طريق مطار هيثروبلندن . كما أن الشحن الجوى قد شهد تطورا كبيرا مما يزيد من أهمية المطارات التجارية ، فمطار هيثرو يعتبر من حيث قيمة البضائع المشحونة عن طريقه ميناء بريطانيا الثانى . وقد جذبت المطارات بعض الصناعات المتعلقة بالشحن الجوى مثل مطار شانون فى ايرلندة الذى تحول إلى منطقة تجارة حرة ، كما أن حركة السواح تتركز فى مطارات معينة مثل مطار لوتن فى إنجلتره . وبالما مايوركا فى أسبانيا .

وضع المزارعين فى أوروبا الجديدة : – (الجدول ١٧) .

فى عالم يهتم بمصادر المواد الغذائية وفى وضع أصبح تأمين مصادر دائمة للغذاء من الأولويات الأساسية . تميزت سنين ما بعد الحرب مباشرة فى اوروبا بالنقص فى المواد الغذائية خاصة فى المدن نتيجة للأسباب الآتية : –

١ – التمزق والاضطراب الذى أصاب توزيع ونظم التسويق المألوفة .

٢ – إبادة الحيوانات وقتلها لسد النقص فى المواد البروتينية .

٣ – نقص العمال الزراعيين نتيجة تجنيد الشباب فى الجيش المقاتل وتكريس معظم الطاقات البشرية فى مجال الحرب .

٤ – طرد وهروب السكان الزراعيين من مناطق عديدة أثناء وبعد الحرب مما أثر فى الإنتاج الزراعى .

وكان سكان الريف الزراعيين فى وضع اقتصادى قوى فى البداية كمنتجين للمواد الغذائية ، ولكن مع احياء الصناعة وتطورها شهد هؤلاء المزارعون انخفاضا

فى مستواهم المعيشى بالمقارنة مع سكان الحضر والصناعيين . وفى الخمسينات أخذت النقائص التركيبية للزراعة فى غرب اوروبا تظهر بوضوح مثل : عدم الكفاءة الإنتاجية الناتجة من الوحدات الزراعية الصغيرة ونظم التأجير البالية ونقص الرأسمال لتطوير الزراعة وتنميتها وكثرة المشتغلين بالزراعة والمعتمدين عليها كمصدر دخل أساسى أو كلى . ولم تجد إدخال المكينات الحديثة أو تطبيق الوسائل العلمية الحديثة فى رفع الإنتاج وتطوير النظم الزراعية بما أدى أخيرا إلى هروب وهجرة متزايدة من الريف إلى المدينة ومناطق الصناعة ، كما شهدت الخمسينات التخلى عن الأراضى الهاشية وحتى عن بعض الأراضى الزراعية الجيدة حول بعض المراكز الصناعية بينما أدت السياسة الزراعية إلى رفع اسعار بعض المواد الغذائية وزيادة فى الإنتاج صعب تسويقها . أما دول شرق أوروبا فقد شهدت تعسرا مماثلا نتيجة تطبيق النظام الزراعى السوفيتى من جماعية ومزارع الدولة مما أدى إلى انخفاض كبير فى الإنتاج الزراعى ، بينما أدت سياسة التصنيع والتحضر فى بعض الدول مثل بلغاريا إلى جذب أعداد ضخمة من السكان من الريف إلى المدينة فى وقت قصير ، كما انعكست بعض الأوضاع الناتجة من سوء الإدارة الاقتصادية ومقاومة الفلاحين لسياسة التجميع فى أزمات سياسية طاحنة كما حدث فى بولندة والمجر فى عام ١٩٥٦ . ومن ثم اتجهت الدول الاشتراكية إلى إيجاد حلول تناسب وظروف بلادهم الاقتصادية والاجتماعية بدلا من التطبيق الأعمى للنظام الروسى ، ولكن لم يحدث ذلك إلا بعد ارتداد يوغسلافيا فى عام ١٩٤٨ .

وهكذا بقيت الزراعة أكثر المشاكل الاقتصادية تعقيدا فى أوروبا ما بعد الحرب سواء فى نظام الاقتصاد الحر الغربى أو نظام التخطيط المركزى السائد فى الدول الاشتراكية . وقد قل نصيب الزراعة فى الاقتصاد الوطنى وانخفض عدد المشتغلين بها ، كما تغير الريف بصورة لم يشهد لها مثيل خلال القرنين السابقين ، وأصبحت معادلة مستوى المعيشة فى المدينة بتلك السائدة فى الريف وتقليل التفاوت بينهما تكتسب أهمية فى تخطيط كثير من الدول الأوروبية ولكن بنجاح محدود . ففى الدول الشرقية لم تتحمس الحكومات فى تحويل رأس المال القليل من الصناعة إلى الزراعة ، لم تول دول الكوميكون اهتماما يذكر للزراعة بل تركت كل دولة تبحث عن

الحلول لمشاكلها الزراعية لوحدها . أما فى غرب اوروبا فقد تبنت السوق المشتركة سياسة زراعية ذات طابع جماعى وذلك عن طريق إيجاد ما يسمى بالسياسة الزراعية العامة Common Agricultural Policy بغرض منح المزارعين أسواقا مضمونة لتسويق منتجاتهم وأسعارا معقولة لهم دون أن يتحمل المستهلكون أو يعانون من ارتفاع اسعار الطعام . ولكن هذة السياسة هى مصدر خلاف بين بعض الدول الأعضاء كما أنها لم تحقق أهدافها بعد ، كما أن الزراعة تحتاج إلى تحسينات وتطورات كثيرة من ناحية تركيبها . فهى فى بعض الحالات قد أدت إلى استفحال وتفاقم الوضع إلى درجة أن بعض الأعضاء يدفعون تكاليف مرتفعة . وفى وجه تكاليف الدعم المتصاعدة تم تبنى اقتراحات جذرية لخلق صناعة زراعية تتصف بالمعقولية ، ولكن بعض هذه المقترحات قاسية إلى درجة أن قبولها من الناحية السياسية فى بعض المناطق الزراعية سيكون أمرا صعبا . وكل هذا أدى إلى دائرة مفرغة من الجمود من أبرزها أثر سياسة الحماية التى تتمثل فى إقامة الحواجز التى تعرقل التجارة فى المواد الغذائية بين شرق وغربى اوروبا ، وتمزيق النمط التجارى القديم مع استراليا وأمريكا الشمالية .

الجدول ١٧ : القوى العاملة فى الزراعة ١٩٥٠ - ١٩٧٤ فى دول السوق التسع

نسبة العاملين فى الزراعة ٪

الدولة	١٩٥٠	١٩٥٨	١٩٦٥	١٩٧١	١٩٧٢	١٩٧٤
بلجيكا	١١ر٣	٩ر٠	٦ر١	٤ر٤	٤ر٢	٣ر٧
فرنسا	٢٨ر٣	٢٣ر٠	١٧ر٠	١٣ر٢	١٢ر٩	١٢ر٠
ألمانيا الإتحادية	٢٤ر٧	١٥ر٠	١١ر٠	٨ر٣	٧ر٨	٧ر٣
إيطاليا	٤١ر٠	٣٣ر٠	٢٤ر٧	١٨ر٩	١٨ر٢	١٦ر٦
لوكسمبورج	٢٤ر٠	١٧ر٠	١٣ر٥	١٠ر١	٩ر٣	٦ر٦
هولنده	١٤ر١	١٢ر٠	٨ر٠	٦ر٩	٦ر٩	٦ر٦
المملكة المتحدة	٥ر١	٤ر٠	٣ر٢	٣ر٠	٣ر٠	٢ر٨
الدنمارك	--	٢٢ر٠	—	١٠ر٩	٩ر٨	٩ر٦
جمهورية أيرلنده		٣٨ر٠	—	٢٦ر٩	٢٥ر٧	٢٤ر٣

لمحات مختصرة عن بعض الدول الأوروبية : -

على الرغم من الاختلاف المذهبي الذى برز بعد عام ١٩٤٥ وظهـور كتلتين متناوءتين والذى كان سببا فى تحطيم أى أمل لحل أوروبى موحد لمشاكل القارة ، بقى مفهوم الوحدة الأوروبية حيا فى أذهان الكثيرين من قادة هذه الدول ، خاصه فى غربى اوروبا ، وكانت النتيجة أن ظهرت منظمات اقتصادية تعمل جاهدة ، ضمن الإطار الجغرافى -- السياسى الحالى . فى احداث تغيير فى الإطار الوظيفى الإقليمى لغرض البحث عن مجالات وأسس جديدة للتعاون المثمر المعقول بين الدول . وفى الصفحات التالية سنحاول التطرق لهذا الموضوع فى إطـار المنظمات المختلفة ...

(١) السوق الأوروبية المشتركة : - (الجدول ١٨) .

حسب اهدافها المعلنة فى معاهدة روما وميثاقها تحتل منظمة السوق الاوروبية وضعا ممتازا لتوجيه قوى التغيير المتقلبة الموجودة فى غربى اوروبا . وقد ولـدت المنظمة تحت تأثير الخوف من زحف النفوذ السوفيتى للغرب ، وظهور الاعتقاد بين اعضائها بان الارتباط الوثيق والتعاون المشترك بينهم هو افضل وسيلة للتغلب على قوى التشتت المتصارعة التى جلبت الدمار وويلات الحروب على القارة مرتين خلال ربع قرن ، والادراك المرير بان المكانة الاقتصادية والسياسية لدول اوروبا الرئيسية قد تضاءلت امام القوتين العظميين ، ثم الشعور بان مواجهة التحديات التكنولوجية والسياسية الجديدة تتطلب تعاونا أكثر بينهم . فبينما كان هناك اتفاق مبدئى بين دول غربى أوروبا على التخلى عن السياسة الاقتصادية القومية التى انتهجتها كل دولة قبل الحرب فى سبيل تعاون أكثر فى مجال التجارة والتكنولوجيا ، لم تخف بعض الدول هواجسها من الالتزام بمبدأ الوحدة السياسية الرسمية . فقد عانت ألمانيا الغربية وفرنسا ودول البينلكس (لوكسمبورج وهولندة وبلجيكا) وإيطاليا من فقدان الثقة من النمـط السياسى السائد أكثر من بريطانيا ، بينما آثرت اسكندناوة وسويسرة الاحتفاظ بحيادها التقليدى والبقاء خارج أى تجمع سياسى كبير . أما فى فنلندة والنمسا فقـد منعت ظروف سياسية من اشتراكها فى الوحدة السياسية المرتقبة بينما لم تحد أيبريا بنظام حكمها الدكتاتورى ترحيبا بين الدول الأخرى .

جدول ١٨ : الجدول النسبي للموارد الاقتصادية ١٩٧٣

	الولايات المتحدة	روسيا	المملكة المتحدة	دول السوق الست	دول السوق التسع
المساحة(١٠٠٠كم٢)	٩١٠٠	٣٥٠٠٠	٢٤٤	١١٧٢	١٥٢٩
السكان بالملايين(١٩٧٥	٢١٩	٢٥٥	٥٥	١٨٣	٢٦٠
العربات لكل ١٠٠٠شخص ١٩٧٣	٤٦٠	٧	٢٣٤	٢٥١	٢٤٦
انتاج الصلب (مليون طن)١٩٧٣	١٣٩	١٣١	٢٧	١٢٢	١٥٠
استهلاك الصلب الفردى (كلغ) ١٩٧٣ (مقدرا)	٧٢٣	٥١٦	٤٦٠	٥٤٢	٥١٦
استهلاك الطاقة الفردى (بما يساوى أطنان الفحم)١٩٧٣	١١ر٤٤٠	٥٠٠٥	٥٤٩٦	٤٧٩٧	٤٩٥٠
انتاج الحبوب (مليون طن) ٧٠--١٩٧٢	٢١٤	١٧٠	١٥	٧٥	٩٧
انتاج اللحم (مليون طن) ١٩٧٣	٢٤	١٤	٣	١٤	١٩
انتاج العربات (بالملايين) ١٩٧٣	٨ر٨	٧ر٠	٩ر١	٥ر٨	٥ر١٠
الصادرات (بالملايين الدولارات) ١٩٧٣	٥٧٠٠٠	١٤٠٠٠ (مقدرا)	٢٤٣٧٤	١٣٦٩٠٨	١٦٧٩٣١
انتاج البترول الخام المكرر (ملايين الأطنان) ١٩٧٣	٥٨٨	معلومات غير متوفرة	١٠	٤٥٩	٥٧٨
انتاج الفحم(ملايين الأطنان) ١٩٧٣	٥٣٧	٤٩٩	١٣٠	١٤٠	٢٧٠
الانتاج المحلى الاجمالى ١٩٧٣ (١٠٠٠ مليون وحدة السوق UA	١٠٣٨	معلومات غير متوفرة	١٣٨	٦٧٠	٨٣٥
الاساطيل التجارية (ملايين الاطنان) ١٩٧٣	٩ر١٤	٤ر١٧	٢ر٣٠	٣ر٣١	٧ر٦٥

أما منظمة التعاون الاقتصادى الاوروبى التى أنشأ بغرض المساعدة فى تطبيق مشروع مارشال الامريكى بصورة فعالة فكانت بمثابة مفتاح للتعاون الدولى مما اتاحته من فرصة لاكتساب التجربه فى دراسة المشاكل الاساسية وجمع الحقائق وتنسيق النشاطات المختلفة بين الأعضاء الأربعة عشر الأصليين (والذين زاد عددهم إلى ثمانية عشر فيما بعد) . ولقى موضوع ضم ألمانيا إلى مجموعة الأمم الأوروبية بدون الغاء د ين الاحتلال ترحيبا بين الدول من حيث المبدأ . ثم انشأت هيئة الرور الدولية (International Ruhr Authority) لتنظيم الصناعة الألمانية الثقيلة وكذلك حلف شمال الأطلسى لأغراض الدفاع وأيضا تأكيد مفهوم الوحدة الجغرافية – السياسية لدول شمال الأطلسى . وقد انعكس عدم تبلور مفهوم واضح لأوروبا ووحدتها وأسس هذه الوحدة فى تلك التنظيمات التى ظهرت (مثل وحدة أوروبا الغربية West European Union والمجلس الأوروبى Council of Europe التى انهارت أمام التناقضات والارتباكات الناتجة من التجارب المختلفة والارتباطات الدولية (المكانية) والقومية التى تسلب القارة من توجيه مركزى سليم .

يمكن اعتبار « منظمة الفحم والصلب الاوروبية اول منظمة عملية ذات فعالية يتم انشاؤها فى أوربا بغرض تقاسم سوق الفحم والصلب على اسس عادلة وعقلنة الإنتاج لسد الطلب الشديد لهاتين البضاعتين . كما أنها كانت تنظيما مثاليا لاجتذاب ألمانيا إلى داخل مجموعة الشعوب الاوروبية تحل المنظمة فية محل هيئة الرور الدولية ، ثم تخفيف حدة التوتر بين فرنسا وألمانيا حول حقول الفحم ومصانع صلب إقليم السار . كما ساعدت المنظمة فى الاعتراف بمفهوم إقليمى عملى جديد يمكن اعتباره أساسا أوليا فى تطور منظمة اقتصادية أوروبية . ويتمثل هذا المفهوم فى « المونتاندرايك Montandreieck الذى يضم مثلث الصناعات الثقيلة فى الرور - سارلورلكس بينلكس .

فى بداية الخمسينات ومن أهداف وإنجازات منظمة الفحم والصلب تبلورت نواة وحدة سياسية واقتصادية أكثر شمولا وتكاملا وكان من أبرز دوافعها الشعور عند كثير من الدول بأن أية مواجهة بين القوتين العظميين ستكون على حساب

أوروبا . ومن ثم كانت الرغبة فى جعل أوروبا « قوة ثالثة » تستطيع التصدى والوقوف أمامها . وقد سعت الدول الستة بجدية لتحقيق هذه الأهداف وأخيرا توجت مساعيهم بإنشاء السوق الأوروبية المشتركة وفق معاهدة روما (١٩٥٧) . وربما كان لعدم مرونة المعاهدة دور فى عدم انضمام دول أخرى إلى السوق . ولو كان هنا تبرير لهذه الصرامة بان قوانينها صيغت فى ظروف سياسية مختلفة فإن الدول المعارضة كانت تفضل سياسة أكثر مرونة وانتهاج طريق اكثر بطئا لاى اتحاد سياسى واقتصادى بين دول غربى أوروبا .

وقد ساعدت مؤثرات جغرافية فى تدعيم الاعتبارات الاقتصادية والسياسية فى تحديد اعضاء السوق المشتركة الاصليين الذين جمعتهم وربطت بينهم تجربة « المونتاندرابيلك » المشتركة ذات الصبغة الدولية . وقد وجدت المنظمة بابعادها السياسية والاقتصادية الجديدة وضعا جغرافيا مناسبا حول حوض نهر الراين وممراته المائية وحول المصالح الاقليمية المشتركة لفرنسا ودول البينلكس والمانيا الغربية . اما ايطاليا فقد جذبها إلى المنظمة وضعها المنعزل فى جنوب اوروبا بين ايبريا الدكتاتوريه والنفوذ السوفيتى المتزايد فى البلقان . بينما آثرت بريطانيا البقاء بعيدة منها نظرا لارتباطاتها الدولية . خاصة مع دول الكمنولث . ولان موقعها الساحلى بعيدا من التجربة المشتركة لتلك الدول اثناء فترة انبعاث القومية الاوروبية جعلها فى معزل من تلك الاحداث . فقد شغلتها مشاكل امبراطوريتها المترامية الاطراف عن شئون القارة لأكثر من قرنين واعتقادها بأن هذه الارتباطات والعلاقات ستكون فى درجة من القوة والمتانة للابقاء على مكانتها الدولية بين هذه المجموعة المتنافرة من الاقاليم الاوروبية . وقد برهنت الاحداث خطأ هذا الاعتقاد مما اضاع على بريطانيا فرصة الانضمام للسوق ابان انشائها . فقد ظهرت الحقيقة المره مؤخرا فى وقت غير موات : فكان انضمامها اخيرا وسط موجات الاحتجاج من اعضاء الشعب واعتراض فرنسا ثم مشاكل السياسة الزراعية الغامة بعد انضمامها والتى تم حلها بعد اجتماعات عاصفة لصالحها

وسنقوم الآن بدراسة موجزة للدول الأعضاء فى السوق المشتركة لكى نقف على اسهاماتها تجاه السوق والميزات والمشاكل التى نجمت عن هذا التآلف الاقليمى

(١) ألمانيا الاتحادية (ألمانيا الغربية)

تمثل ألمانيا الاتحادية أغنى دول المنظمة الآن (السبعينات) رغم أن الأحوال الاقتصادية لم تكن بهذا المستوى الجيد عند إنشاء السوق المشتركة (١٩٥٧) . وكانت ألمانيا من أكثر دول المنطقة حماسا لفكرة التعاون الأوروبى وإنشاء السوق لعدة أسباب نذكر منها :

(١) كان تحقيق مجموعة اقتصادية دولية تعنى التخلص من وضعها الاحتلالى ومن قوانين الاحتلال والتقييدات الناجمة من ذلك .

(٢) مع إعادة بناء الاقتصاد الألمانى بعد الحرب فإن التوسع المرتقب فى الأسواق لقى ترحيبا من قبل الألمان .

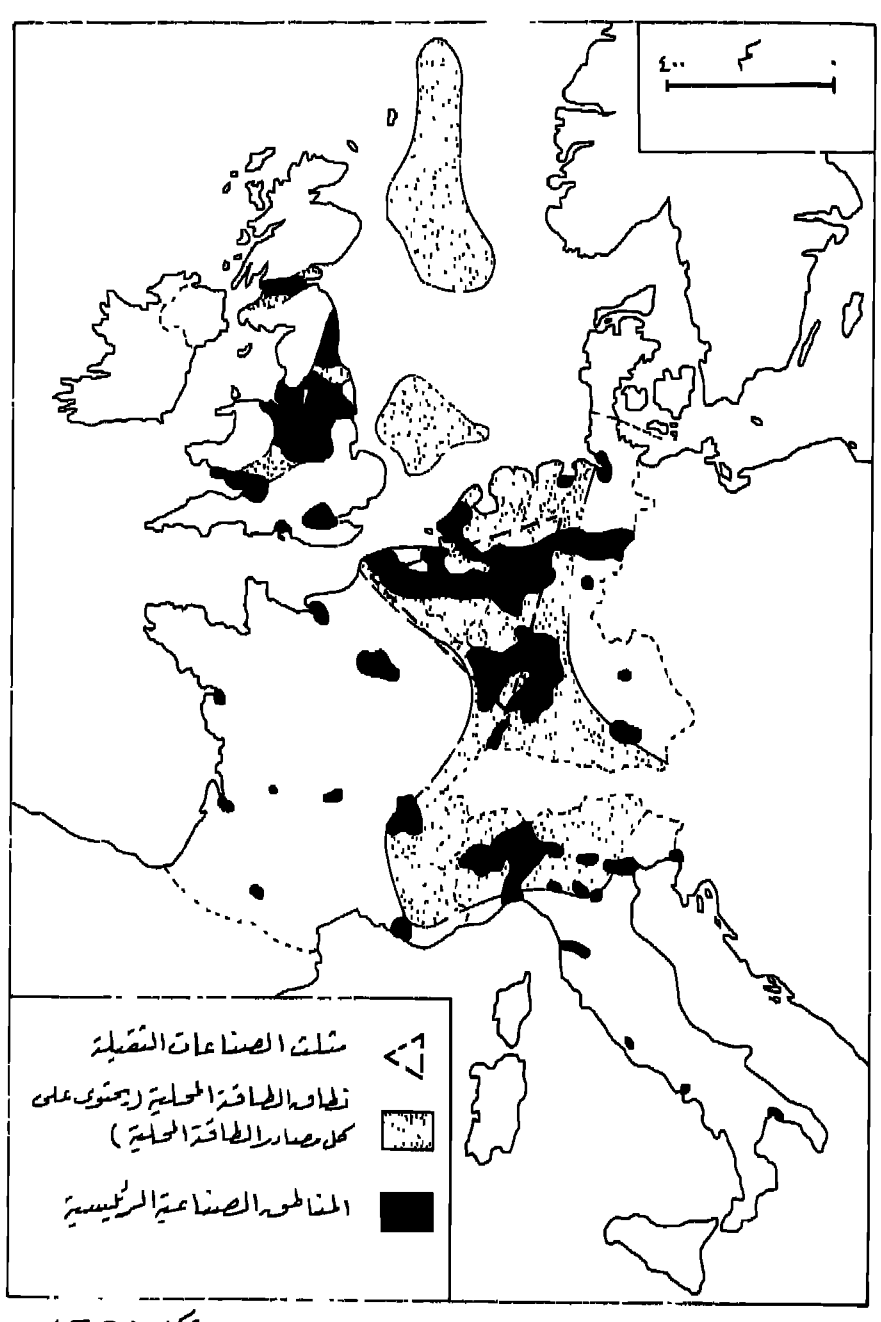
(٣) كانت الصناعة الثقيلة الالمانية مهمة فى التطور والنمو الاقتصادى لدول المنطقة كما أنها تمثل حجر الزاوية فى مشروع المونتاندرابيك .

(٤) كانت الوحدة الأوروبية تعنى للألمان وضع حد للعداء الفرنسى – الألمانى وحل مشكلة الضم القسرى لإقليم سار Saar لفرنسا .

(٥) كما أن الوحدة ستؤدى إلى التخفيف او إزالة الضغوط الخارجية خاصة تلك التى تتعلق بالمطالب الإقليمية من قبل دول البنيلكس على الأراضى الألمانية .

من اهم قوانين السوق المشتركة الذى كان له الأثر البعيد على ألمانيا ذلك الذى يتعلق برفع القيود على حركة الانتقال بين الدول الأعضاء : فقد استفادت موانىء دلتا نهر الراين واكتسبت اهمية كبرى كبؤرة للحركة نتيجة رفع القيود على الانتقال عن طريق تحديد حق الدول فى استخدام الوسائل التشريعية والمالية لتوجيه الحركة لمصالحها القومية غير أن موانىء ألمانيا الشمالية عانت من هذا الإجراء وفقدت الكثير من حركتها التجارية كما أن جاذبية الموقع بالقرب من نهر الراين أبرزت مشاكل الأقاليم الهامشية : فقد كان الجزء الشمالى الغربى بمشاكلها الناجمة عن كثرة اللاجئين (فى الخمسينات) وقلة التنوع الاقتصادى اكثر المناطق معاناة من هذا الاتجاه نحو الراين حتى اخذت الرفاهية المتدفقة بين أقاليم حوض الراين الغنية تخفف مؤخرا من حدة هذا التباين .

مصادر الطاقة المحلية والنطاقات الصناعية بالسوق المشتركة



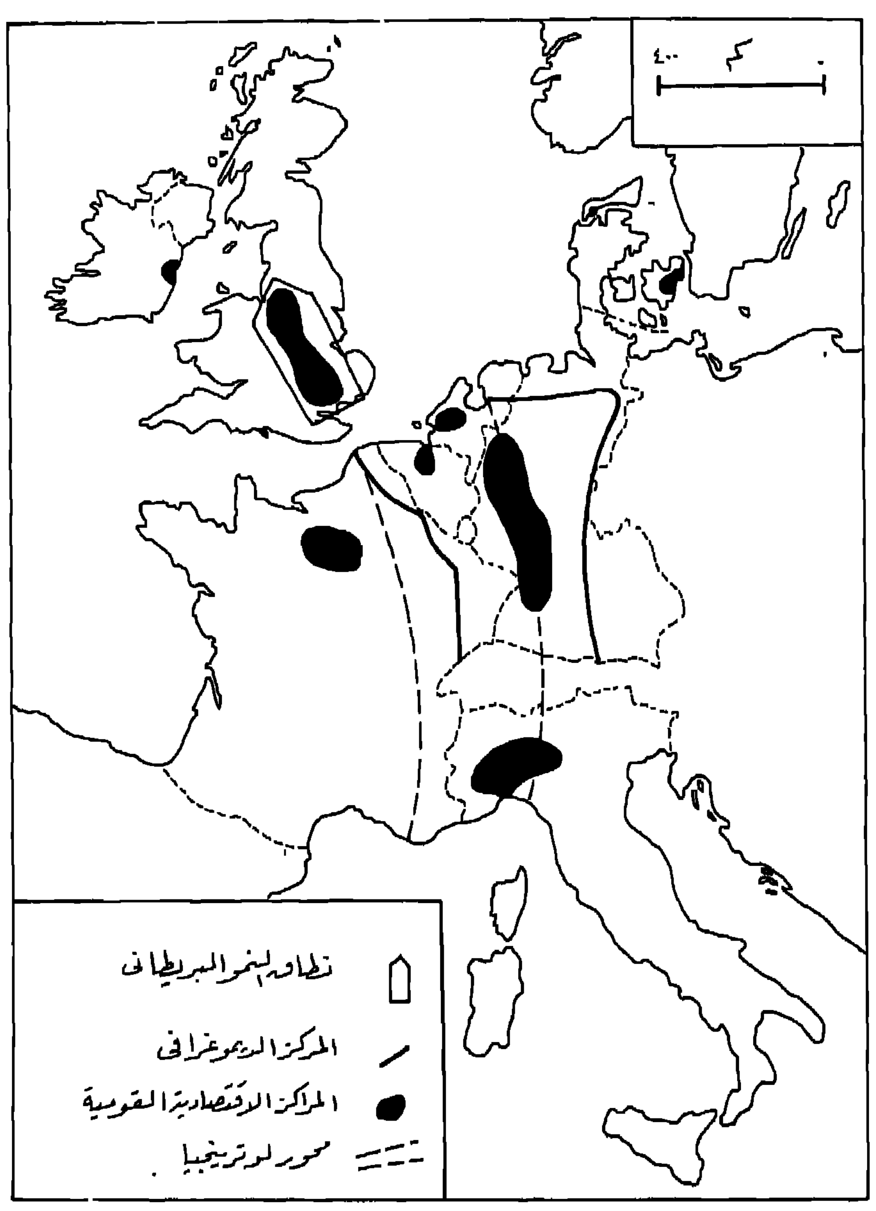
شكل (٦٩)

وكانت مشكلة التخلف الاقتصادى أكثر تفاقما وحدة فى محافظة شلزويك هولشتاين المحصورة بين الدنمارك (قبل انضمامها للسوق) وبين دول الشرق الشيوعية . كما أن جنوب شرق المانيا كان بمعزل من منطقة الراين ومحوره رغم ارتباطه الوثيق بالنمسا (من غير أعضاء السوق) . وقد انعكست أهمية محور الراين فى النمو مطرد فى السكان والثروة كما أنه يحوى مناطق النمو الرئيسية فى ألمانيا الغربية .

يتركز معظم مصانع الحديد والصلب الألمانية فى محور الراين وخاصة فى منطقة الراين – الرور الأدنى . ويعزى هذا التركز حول ملتقى النهرين إلى سهولة نقل المواد الخام (خاصة الحديد) المستوردة الآتية عن طريق روتردام – ميناء أوروبا . ورغم أن هذا الموقع قد احتفظ باهميته فى الفترة التى شهدت انشاء ومد أنابيب البترول والغاز الطبيعى فإن سهولة النقل المائى قد مهدت وسهلت اختراق الأنابيب لحوض الراين من اتجاهات أخرى من موانى ألمانيا الشمالية وحتى من موانى الادرياتى والبحر الأبيض المتوسط . فقد شهد أول السبعينات إنشاء مصافى هامة لتكرير البترول فى حوض الراين وحتى خارجه كما فى منطقة انقوشتادت Ingotstadt فى بفاريا ، كما شهد حوض الراين وخاصة منطقة الراين - مين وحوض نهر نيكر ، أكبر توسع فى صناعة المواد الاستهلاكية المتينة .

أدت سياسة السوق المشتركة فى ربط الصناعة الألمانية ربطا وثيقا بجاراتها من الدول الغربية من خلال ارتباطات جديدة ، إلى ازدياد أهمية حوض الراين فى جغرافية غرب أوروبا الاقتصادية . ومثلا أسهمت ارتباطات تنظيمية فى صناعة الحديد والصلب والصناعة الكيماوية الثقيلة فى ربط إقليم الراين – الرور الصناعى مع دلتوات الراين – ماس – شلدت . ورغم موقعه الداخلى بالنسبة لموارد الفحم والخام المستورد فقد استغل إقليم السار موقعه المركزى داخل المونتاندرايك لتوسيع علاقاتها وارتباطاتها وتوطيد العلاقة فى محور الراين ، وكانت النتيجة هى ظهور اقليم السارلورلكس Saarlorlux وصناعاتها المدمجة ذات الصبغة الدولية ، كما حدثت ارتباطات مماثلة فى صناعة المواد الاستهلاكية المتينة (وخاصة صناعة السيارات) فى منطقة الراين الثلاث (الراين الأدنى والراين – مين وحوض نيكر) والتى تتميز بموقع وسط داخل المجموعة الستة الأصلية .

محور النمو الاقتصادى - مانشستر - ميلان فى السوق المشتركة



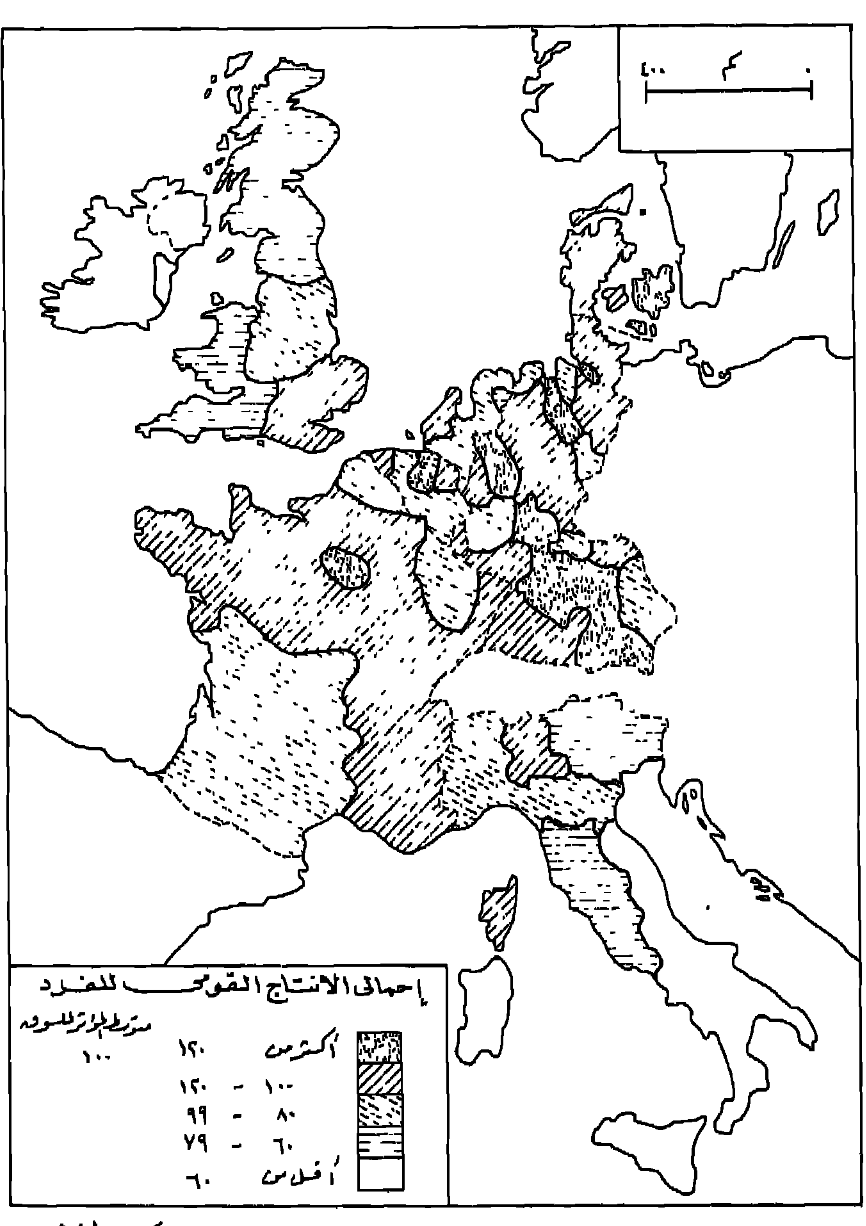
شكل (٧٠)

وقد ادى هذا التركز الصناعى فى منطقة الراين . والذى تم فى وقت كان للتخطيط الإقليمى أهمية لا تذكر فى السياسة الاقتصادية الألمانية ، إلى تباين شديد فى مستوى التطور الصناعى بين إقليم الراين ومناطق ألمانيا الأخرى ، وقد سعت الحكومة إلى تخفيف حدة التباين بتشتيت الصناعة إلى الشمال الغربى والجنوب الشرقى من الدولة (كما يتمثل فى الصناعات التى تم إنشاؤها فى حوض نهر الألب الأدنى حول شتاد وصناعة البتروكيماويات فى بفاريا على التوالى) .

فى أواخر الأربعينات كانت ألمانيا تتخوف من تضخم سكانى كبير نتيجة لتوافد المهاجرين والمطرودين من المناطق الشرقية بأعداد هائلة وكانت تنظر إلى الوحدة الأوروبية وتحسين العلاقات المرتقب مع جاراتها كمنفذ لاستيعاب الفائض من سكانها . ولكن زالت مخاوفها مع نهضتها الصناعية السريعة بعد الحرب التى أخذت تستوعب ليس الوافدين السابقين فحسب بل أولئك اللاجئين من ألمانيا الشرقية الذى ادى ايقافهم ببناء حائط برلين إلى نقص شديد فى القوى العاملة مما استدعى فى النهاية إلى استجلاب العمال الأجانب من أوروبا الجنوبية وتركيا لسد هذا النقص .

كانت مسألة الموارد الغذائية من أولى المشاكل التى استحوذت على اهتمام الحكومة الألمانية بعد الحرب مباشرة على أثر تقسيم الدولة إلى شطرين وفقدان أراض زراعية شاسعة لبولنده . فقد كانت أرض ألمانيا الشرقية قبل الحرب تنتج فى العادة نحو ٥٥٪ من القمح و ٥٧٪ من البطاطس و ٦٧٪ من بنجر السكر من الإنتاج الكلى لألمانيا كما كانت تحوى نحو نصف الأرض المزروعة و ٥٥٪ من جملة الاراضى الممكن زراعتها ، وقد زال هذا الخوف والقلق فى الخمسينات عندما اخذت الدولة تطبق المشروع الأخضر فى عام ١٩٥٥ بهدف تحسين تركيب الإنتاج الزراعى وتوحيد ودمج الملكيات الزراعية المبعثرة وبناء مزارع جديدة ووسائل زراعية وإلى رفع معدلات الإنتاج وتحسين نوعية المحصولات وتخفيض تكاليف الإنتاج ، والتركيز على الأبحاث الزراعية وتطبيق أحدث الوسائل العلمية فى الزراعة . وقد نجح المشروع وارتفع الإنتاج وتنتج ألمانيا الآن أزيد من ثلاثة أرباع احتياجاتها من المواد الغذائية ولكن مشكلة الزراعة ما زالت متفاقمه : فالدولة ما زالت حائرة بين

الثراء النسبي في دول السوق



شكل (٧١)

حماية المزارعين والاعتماد علـى المواد الغذائية المستوردة وبينما كان واضحا من البداية أن فرنسا وهولندة وإيطاليا كانت فى وضع أفضل للاستفادة من السياسة الزراعية ، فقد كانت المانيا تأمل فى أن يؤدى أى تنازل من قبلها فى هذا المجال إلى الحصول على مكاسب فى مجال تسويق منتجاتها الصناعية فى أسواق المجموعة الأوروبية . فمن المؤكد أن المزارع الألمانى لم يكسب إلا القليل فى المنافسة بينه وبين المنتجين الإيطاليين والفرنسيين والهولنديين وخاصة فى إنتاج الفواكه والخضر والخمور والدواجن ، بينما جذبت الصناعة اعدادا هائلة من المزارعين .

اما من ناحية النقل فالمانيا تمثل « الصينية الدائرية » بالنسبة لاوروبا ، خاصة بعد انقسامها إلى شطرين وازدياد الحركة وسهولة التنقل داخـل السوق المشتركة . فحركة المرور بين الدول غير الشيوعية فى الشمال والجنوب تمر عبر المانيا الغربية لتفادى الاقاليم الشيوعية كما أن بناء الطرق الواسعة نتج عنه سهولة المرور عبر الاراضى الالمانية . وعلى الرغم من أن الموانىء الالمانية فى الشمال قد عانت من تسهيل حركة المرور والتنقل الدولى عبر دول السوق المشتركة لصالح روتردام – الميناء الاوربى فان تطور هذا المجمع الضخم وازدياد اهمية محور الراين ادى إلى تشجيع الحركة عبر المانيا ، كما أن النمو الاقتصادى الذى شهدته البلاد امدت آثاره الى موانىء الشمال التى شهدت زيادة فى حركة الملاحة رغم تحول حركة نهر حوض الراين إلى موانى دول البنلكس . فقد ظهرت ويلمزهافن من جديد كميناء بترول بينما تطورت موانى نهر الفيزر كموانئ حاويات بينما احتفظت هامبورج باهميتها كميناء عام . ومع ازدياد حركة المرور وازدحامها فى القنال الانجليزى والمدخل الجنوبى لبحر الشمال بالإضافة إلى ضحالة المياه والصعوبات الناجمة من ذلك ، يتوقع أن يجذب مصب نهـر الألب الاهتمام كموقع لميناء عميق ضخم للسفن الضخمة الآتية من الشمال .

(٢) فرنسا :

لعبت فرنسا دورا أساسيا فى إنشاء منظمة الفحم والصلب الأوروبية ثـم السوق الأوروبية . وقد دفعت اعتبارات سياسية فرنسا للتحمس للوحدة الأوربية نذكر منها : —

١ - إيقاف حد للصراع الفرنسى - الألمانى .

٢ - استعادة هيبتها ومكانتها فى أوروبا وبقية أجزاء العالم .

ففرنسا كجارتها الشمالية ألمانيا تحتل موقعا وسطا مهما فى أوروبا وتطل على ثلاث جهات رئيسية : الأطلسى والبحر الأبيض المتوسط ومنطقة الراين .

وعلى الرغم من الدور الذى لعبته اشتراك فرنسا فى هيئة الرور الدولية واستعادة سيطرتها على إقليم السار مما ساعد فى بناء ونهضة صناعتها التى دمرتها الحرب فإن الانبعاث السريع لألمانيا الغربية بعد الحرب،قد أوضح للمرة الثانية القدرة الفائقة لهذه الدولة على النهوض السريع والتفوق على فرنسا . وكان هذا الشعور من الدوافع الخفية وراء اقتراح روبرت شومان R. Schumann لإنشاء منظمة الفحم والصلب الأوروبية بغرض « تدويل » تنظيم صناعة الفحم والحديد والصلب . كما أن غنى ألمانيا فى مصادر الطاقة والتى كانت تمثل نقاط الضعف الأساسية فى الاقتصاد الفرنسى فى أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات كان يستدعى إقامة علاقات طيبة معها . فان مفهوم : المونتاندرايك « يظهر فيه العنصر الفرنسى بوضوح لان معظم الصناعات الثقيلة الفرنسية تتركز فى شمال شرق الدولة ، بينما تمخضت المحاولات لدمج وتوحيد المنشئات الاقتصادية من خلال السوق المشتركة عن فكرة « سارلورلكس » الاقليمية والتى تضم جزءا حيويا من شمال شرق فرنسا .

كان للتحول من الفحم إلى البترول والغاز الطبيعى كمصدر للطاقة دور كبير فى تحرير الصناعات من المواقع القديمة وفى ظهور مجمعات ضخمة من مصافى البترول فى الساحل الجنوبى (البحر المتوسط) فى اتان دى باد والساحل الأطلسى (عند مصب السين) وضخ الغاز الطبيعى من حقول لاك Laco عبر الأنابيب إلى الداخل ومن هولندة إلى الأجزاء الشمالية من فرنسا . وسيظل انتاج فرنسا من الغاز الطبيعى والبترول ضئيلا حتى يتم اكتشاف مصادر أخرى فى الرصيف القارى التابع لها .

أدى دمج الاقتصاديات القومية داخل السوق المشتركة وجاذبية محور الراين - الرون إلى اجتذاب صناعات عديدة نحو شرق فرنسا . فقد ظهرت منطقة صناعية متماسكة التركيب تمتد من دلتا الراين - الماس عبر بلجيكا والراين الألمانية

ولوكسمبرج وشرق فرنسا (وشرقا حتى المنطقة الوسطى السويسرية) متجاوزة بذلك الحـدود القومية .

وساعدت المميزات والخصائص التى تتميز بها محور الراين – الرون نحو التخصص الصناعى والارتباطات الصناعية والتوجيه نحو الأسواق والنقل ، ساعدت فى تركيز النمو والتطور الاقتصادى الفرنسى فى نطاق محورى هلالى الشكل يمتد عبر فرنسا من ساحل القنال وعبر حقول الفحم الشمالية ومناجم حديد اللورين إلى نهر الراين وجنوبا إلى حوض نهر الرون . ففى مينائى الهافر ودنكرك تم إنشاء تسهيلات للناقلات البحرية الضخمة لتفريغ البترول فى الأولى ولشحن خام الحديد وفحم الكوك فى الثانيه ، بينما ازدادت أهمية موانئ العبارات Ferry ports أثر النمو فى التجارة بين بريطانيا وفرنسا . كما أن الأهمية التجارية والمالية لمدينة باريس ازدادت نتيجة قربها من هذا المحورالاقتصادىالهام . ويواصل محور الراين – الرون امتداده نحو الجنوب حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط حيث توجد مصافى البترول ومصانع البتروكيماويات أما خارج هذا النطاق المحورى الصناعى واقليم باريس فيقع ما وصفه البعض « بالصحراء الفرنسية » كناية عن التخلـف الاقتصادى والتباين الاقليمى فى التطور الاقتصادى . وقد سعت الحكومـة لتخفيف حدة هذا التباين بتشجيع مشاريع التنمية فى اقليم بريتانى وجنوب غربى الدولة وفى الهضبة الوسطى . وكان تنفيذ هذه المشاريع أكثر نجاحا من ألمانيا الغربية حيث اثرت الانصرافية الفيدرالية فى سياسة التخطيط المكانى وبصـورة معاكسة ، بينما كان لقبول التخطيط من وقت مبكر وبتوجيه الحكومة المركزية فى هذا المجال دور فى إنجاح هذه المشاريع فى فرنسا . وكانت فرنسا تأمل فى أن يؤدى إنجاز نفق القنال إلى تطوير منطقة الشمال وباس دى كاليه .

واستفادت فرنسا من الأهمية المتزايدة للزراعة فى اقتصادياتها والمنتجات الغذائية المتنوعة التى تقوم بتصديرها عندما انضمت للسوق المشتركة إذ وجـدت نفسها فى وضع خاص للاستفادة من السياسة الزراعية المشتركة لتسويق هذا الفائض من المحصولات الزراعية وكما حدث فى ألمانيا الغربية كانت الزراعة الفرنسية تعانى من

مشاكل تركيبية : تحديث المزارعين الصغار وتمويلهم ورفع انتاجية المزارع ، بينما أدى النمو الصناعى السريع إلى توسيع الشقة بين الريف والمدينة ولكن الوضع بالنسبة للمزارع الفرنسى كان أفضل بالمقارنة مع زميله الألمانى نسبة لاحجام المزارع الكبيرة ولإنتاجية الأرض الأعلى لخصوبتها الطبيعية مما نتج عنه اكتفاء ذاتى فى المواد الغذائية .

أما من ناحية الحركة والمرور فقد كانت فرنسا أقل حظا من ألمانيا فقد انحصر تأثير تسهيل الحركة داخل السوق المشتركة على وسائل النقل فى المناطق الشمالية والشمالية الشرقية وحول محور الرون وامتداده من إقليم الراين فى الشمال : وقد شهدت شبكة السكك الحديدية تطورا فى هذه المنطقة مثل التحويل من البخار إلى الكهرباء . ولكن بناء الطرق الكبيرة لم يشهد تطورا واسعا مثل الذى حدث فى ألمانيا ودول البينلكس كما أن الخطوط التى تربط الأجزاء الشمالية والشرقية قليلة ومكتملة فقط على محور باريس -- مارسيليا . أما الهافر ومارسيليا فقد شهدتا تطورا عظيما كموانئ مستوردة للبترول .

(٣) دول البينلكس : Benelux (بلجيكا – هولنده - لوكسمبرج) :

تحتل هذه الدول الثلاثة موقعا مركزيا هاما فى غربى اوروبا : فهى تكون مركز المدينة الضخمة megapolis وقلب الدلتا الأوروبية Eurodelta لانهار الراين والماس والشلد والتى تسيطر عليها الأن منشئات وتسهيلات روتردام – الميناء الأوربى Rotterdam-Europoort (الشكل ٦٢) .

كانت هذه الدول فى طليعة حركة الوحدة الأوروبية لاعتقادها فى أن مصيرها يعتمد كثيرا على علاقات الود وحسن الجوار بينها وبين الدول المجاورة وبين هذه الدول نفسها ، فهى قد عانت الأمرين من جراء الخلافات العاصفة بين جيرانها وما نتج عنها من حروب . وعلى الرغم من ذلك فقد تحفظت الدول الثلاثة من الارتماء فى أحضان الوحدة لحرصها على الاحتفاظ بحرية التصرف فى شئونها بدلا من تسليم القيادة كلية للأعضاء الأقوياء وخاصة فى حالة سعى فرنسا فى احلال فكرة المجموعة الأوروبية بحلف ألمانى – فرنسى غير مرن . وكخطوة معاكسة لمثل هذا

الاتجاه أبدت هذه الدول خاصة هولنده حرصها على الاحتفاظ بعلاقاتها التقليدية مع بريطانيا وتطوير هذه العلاقة .

وعلى الرغم من ضئالة احجامها وصغر مساحاتها فإن دول البينلكس تعتبر من الدول الصناعية المهمة فى غرب أوروبا . فلوكسمبورج تتميز بصناعة الحديد والصلب الثقيله فى جنوبها وقد استفادت الدوقيه من عضويتها فى السوق المشتركة بتنويع صناعتها الوحيدة نتيجة تغلغل الشركات من الدول الأعضاء التى تنتج الإطارات والبلاستيك والصناعات الهندسية الخفيفة كما تستفيد أيضا من المصالح المشتركة ضمن مفهوم السارلورلكس .

أما بلجيكا فلها أيضا صناعات الحديد والصلب التى ترتبط بدورها بصناعات اللورين ولوكسمبورج ، ويقع معظم هذه الصناعات فى وادى نهر ميوز (حيث حقول الفحم) وفى الشمال الغربى وفى مدينة غنت Gent . وقد تعرضت حقول الفحم البلجيكية أكثر من أية حقول اخرى داخل السوق المشتركة إلى عمليات جذريـة لاستحداث الانتاج وتقليل تكلفته : فقد هجرت الحقول القديمة كما فى منطقـة بوريناج Borinage من اجل الارسابات الغنية من شمال الكمبنيلانـد (الكومباين) وأصبح الغاز الطبيعى المستورد من هولندة مصدرا مهما للطاقة كما يتم استيراد البترول الخام ومنتجاته عن طريق روتردام . وهكذا تجاوز المحور الصناعى الذى يمتد من بروكسل إلى انتوبرب من حيث الأهمية على الأقاليم الصناعية الجنوبية (منطقة الولون) . ولمقابلة هذا التحدى من الصناعات الشمالية صناعة الحديد والصلب فى الجنوب (كالتى حول شارلروى Charleroi) نحو التخصص فى الإنتاج . أما صناعة النسيج فى الفلاندرز فقد اكتسبت أسواقا جديدة رغم المنافسة التى تلاقيها داخل السوق المشتركة من الأقمشة الرخيصة المستوردة من شرق أوروبا والشرق الأقصى . كما شهدت الصناعات الهندسيـة الخفيفة تطورا وذلك عن طريق إنتاج الأجزاء وتركيب أجزاء الآلات بالشركة مع مصانع من دول السوق الأخرى . وترتبط بلجيكا ببريطانيا بواسطة العبـارات ، كما شهد ميناء انتوبرب ازدهارا بعد إزالة العوائق القديمة نتيجة تحسيـن العلاقات والاتصال مع هولندة مما

أدى إلى تدفق الصناعات فيها وحولها (خاصة الرأسمال الأمريكى والألمانى) كما يتوقع تحسن فى وضعها بعد أن يتم اتصالها مع مجموعة الراين – الماس بواسطة قنوات داخلية وذلك وفق مشروع الدلتا Delta Plan

وقد تسببت نزعات واتجاهات اقتصادية فى تحول أساسى فى مشكلة بلجيكا العرقية إذ ازداد النمو السكانى فى الشمال الفلمنكى قوة بثروتها الاقتصادية النامية مما أدى إلى فقدان الولون تفوقها الاقتصادى والاجتماعى السابق . وهناك اتجاه قوى نحو الفيدرالية داخل القطر وقد يكون هذا انعكاسا لشعور الأمن داخل السوق المشتركة وقد وافق البرلمان البلجيكى أخيرا على اتحاد فيدرالى بين جزئى القطر .

أما هولنده فهى أمة تجارية وبحرية بحكم موقعها وسيطرتها على دلتا الراين – الماس كما أن لها ارتباطا وثيقا بباقى حوض الراين منذ وقت طويل ، ثم ان قيمة وأهمية تجارة الراين بالنسبة إلى ميناء روتردام وباقى موانئ هولنده جعلت من الارتباط المبكر باى سوق مشتركة فى حوض الراين جاذبية خاصة لدى الهولنديين ، وخاصة لأن تحرير الحركة والتنقل والاتصال ستعمل لمصلحتهم . ورغم هذه الميزات فقد كانت الدولة تتخوف من وقوعها لقمة سائغة للدول الاقوى وأن مصالحها وارتباطاتها البحرية قد تهمل فى سوق ذات اتجاهات قارية (أكثر من اتجاهات نحو البحر) ، وهذه المخاوف تتجسد فى تأييدها لفكرة ارتباط بريطانيا بالسوق وبالقارة فى هذه التجربة الجديدة .

يمثل التجمع الحضرى المتمثل فى راندشتاد – هولندا Randstädt-Holland وميناء روتردام – الميناء الأوروبى (وهو أكبر ميناء فى العالم) قلب هولندة النابض . فى هذا الميناء الضخم يوجد اضخم تركز لمصافى البترول وارصفة ضخمة ترتبط بمنطقة الراين الألمانية الصناعية بواسطة الأنابيب والسكك الحديدية والقنوات . كما أن سهولة استقبالها للسفن الضخمة وسهولة اتصالها بالمناطق الداخلية قد جعلتها تتفوق على انتوبرب – ويعكس نمط إنشاء الطرق البرية الضخمة والبحرية والقطارات المكهربة مدى ارتباط هولنده بمنطقة الراين الداخلية بينما ينافس مطار امستردام – شيبول مطار فرانكفورت من حيث عدد الرحلات والأهمية الدولية . وتكمن المشكلة مستقبلا فى هذا المجال فى نقطتين : –

(١) كم زيادة فى حركة مرور السفن الضخمة يستطيع ميناء روتردام – الميناء الأوربى تحملها ؟

(٢) فيما إذا فى الإمكان تنظيم هذه الحركة ومرورها عند مداخل القنال الإنجليزى الضيقة .

وتوجد إمكانيات ضخمه يمكن تطويرها وخاصة فى مجال العبارات مع منطقة الميدلاندز الصناعية ومنطقة همبرسايد فى الشمال البريطانى .

بعد الحرب مباشرة قامت هولنده باستثمار أموال ضخمة فى حقول الفحم فى إقليم ليمبورج Limburg الهولندى ثم أخذت تطالب بضم أقاليم ألمانية لزيادة احتياطها من الفحم عندما رأت أن إرسابات ليمبورج غير كافية لسد احتياجاتها على المدى الطويل . ومع اكتشاف الغاز الطبيعى بكميات ضخمة وخاصة فى محافظة غورينجن Goringen (١٩٥٩) تغير الوضع بالنسبة لهولنده إذ أصبحت دولة مصدرة للغاز للدول المجاورة بعد أن اكتفت داخليا ، وأدى هذا الانتاج الضخم إلى اغلاق بعض حقول الفحم بعد استثمارات ضخمة لتحديث الانتاج فيها .

رغم أن إنتاج الحديد والصلب لايضاهى انتاج بلجيكا فإن وجود مواقع بحرية عميقة تستطيع استقبال الشاحنات البحرية الضخمة التى تأتى بالمواد الخام قد أعطتها ميزة كبيرة وإمكانيات لإنشاء صناعة الحديد والصلب : وهناك مصانع اجميدن Ijmuiden الواقعة على قناة بحر الشمال North Sea Canal المرتبطة مع مصانع دورتمن Dortmund الألمانية مستغلة مثل تلك الميزات ، كما أن هناك خططا لمجمع ضخم عند الميناء الأوروبى رغم ان مشاكل العمال ومشاكل أخرى متعلقة بالبيئة تحدق بهذا الموقع . وعلى خلاف ذلك تنتشر الصناعات فى منطقة الراند شتاد وخاصة فى برابانت وليمبورج Barabant ، وتشتهر ايدينهوفن Eidenhoven بصناعة الهندسة الكهربائية وفيها توجد مصانع فيليبس ومصنع عربات داف Daf . أما صناعة النسيج فتتركز فى شمال شرق هولندة حيث جذب اكتشاف الغاز صناعات أخرى كما شهدت دلتا الراين – الماس استثمارات اجنبية فى مجال شحن الحاويات والمصانع الكيماوية ومصافى البترول بينما احتفظت ميناء روتردام باهميتها فى مجال بناء السفن .

وعلى الرغم من أحجامها الصغيرة وازدحام سكانها فإن القطاع الزراعى ما زال يمثل جزءا مهما من اقتصاديات دول البينلكس خاصة هولنده . فمنتجات البساتين والدواجن تشكل اهم الصادرات كما أن هولنده تشتهر بصادراتها من منتجات الألبان (الجبن والزبد) بينما يتم تصدير المواد الزراعية المستوردة بعد معالجتها وتصنيعها إلى اسواق بريطانيا وألمانيا .

(٤) إيطاليـــا :

إذا قارنا إيطاليا ببقية الأعضاء المؤسسين للسوق المشتركة نجدها أقلها حظا من ناحية الثروات الطبيعية خاصة تلك التى تعتمد عليها الصناعات الثقيلة . وعلى الرغم من ذلك فهى تحتل مكانة خاصة لقدرتها الصناعية وكثرة الأيدى العاملة فيها . وفى أوائل هذا القرن استطاعت إيطاليا ان تحافظ على نموها السكانـى المتزايد فى نطاق إمكاناتها ومواردها المحلية وذلك عن طريق الهجرة المتزايدة والمستمرة اما إلى مستعمراتها أو إلى الأمريكتين . وقد خرجت إيطاليا من الحرب مهزوزة الاقتصاد ولذلك لقيت الخطط لاعادة بناء الاقتصاد الأوروبى ترحيبا لـدى الإيطاليين . فوجود سوق اوروبية مشتركة تعنى اسواقا جديدة ليس للبضائع والمواد الغذائية فحسب بل مصدرا للمواد الخام وفق ظروف تجارية مجزية وامتصاص الزيادة السكانية (فى شكل عمال) فى الدول الأخرى .

فى أوائل الأربعينات وجدت ايطاليا نفسها فى وضع معزول . فعلى الساحل الجنوبى للبحر الأبيض ظهرت حركات التحرير الاسلامية خاصة فى ليبيا بينما كانت علاقاتها مع اليونان وتركيا سيئة ومعدومة تقريبا مع أيبريا الفاشية وكان البحـر الادرياتى تسيطر عليه دولتان اشتراكيتان هما يوغوسلافيا وألبانيا . أما من الناحية الفيزيوغرافية فايطاليا دولة جزيرية وتتميز بخصائص ذلك الموقع من سهولة الاتصال بحرا مع العالم بالمقارنة مع اتصالها بباقى أجزاء القارة الشمالية عبر الألب .

تقلصت الأهمية الصناعية لإيطاليا نسبيا (وخاصة فى صناعة الحديد والصلب) فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، ولذا فإن التطور الاقتصادى الذى شهدته إيطاليا بعد الحرب الثانية وخاصة بعد توقيع معاهدة روما ١٩٥٧ يعتبر

طفرة جبارة . فنسبة النمو السنوى فى الصناعة تعتبر من أعلى النسب داخل السوق المشتركة بينما تشكل نسبة النمو السنوى فى القوى العاملة أعلا نسبة فى أوروبا الغربية إذ تمول إيطاليا دولا مثل فرنسا وألمانيا وسويسرة بالعمال .

وقد كان التحول الذى حدث فى نمط مصادر الطاقة فى صالح إيطاليا على الرغم من ضئالة مواردها من البترول . أما الغاز الطبيعى فتوفر أكثر من البترول . وهناك أجزاء شاسعة منها تتكون من طبقات حاملة للبترول وتعتبر إيطاليا من كبريات الدول المكررة للبترول المستورد معظمه من شمال أفريقيا ودول الشرق الأوسط وروسيا ، كما برزت جنوة وتريستى كموانئ بترول يضخ منهما خام البترول إلى وسط أوروبا . أما من ناحية الطاقة الكهرومائية فقد بلغت إيطاليا شأوا بعيدا وتتركز محطات التوليد فى جبال الألب والأبناين (حيث يتم ذلك ضمن إطار مشاريع استصلاح الأرض والتصريف والمياه) .

كان لوفرة الأيدى العاملة الرخيصة فى الجنوب المتخلف دور كبير فى ظهور وتطور صناعات التجميع الضخمة فى الشمال متمثلة فى المواد الاستهلاكية المتينة وصناعة العربات (وتورينو تمثل أكبر مركز لصناعة العربات فى أوروبا) ، كما كان لعوامل تاريخية دور فى تطور الصناعات فى مثلث جنوه – ميلانو – تورينو ، حيث يتركز ثلثا القوى العاملة فى الصناعة وحيث يصل النمو السكانى أعلاه فى البلاد . وكان لوفرة العمال أثر كبير على بقاء صناعة نسيج تقليدية خاصة فى الشمال ، ويعزى كثير من نجاح إيطاليا فى مجال الصناعة إلى سهولة الوصول إلى سوق المنظمة الأوروبية .

استغلت إيطاليا موقعها الجزرى فى تطوير صناعة الحديد والصلب عند سواحلها ، إذ يسهل استيراد المواد الخام من حديد وفحم بواسطة الشاحنات البحرية الضخمة إلى هذه المواقع ، وتتركز هذه المصانع فى جنوة وبيومبينو Piombino ونابولى وترانتو Tranto . والمصانع الجنوبية أنشئت ضمن خطط لتخفيف حدة البطالة فى الجنوب المتخلف واستيعاب وتوظيف العمال وكذلك إيقاف الهجرة المتواصلة إلى الشمال المكتظ بالسكان . أما المصانع الداخلية ومعظمها فى الشمال فتتخصص فى صناعة الصلب بالكهرباء من الحديد الخردة كما أن لصناعة

الألمنيوم أهمية فى شمال الادرياتى رغـم فقدان إيطاليا لارسابات البوكسايت فى استريا ليوغسلافيا . وكما سنشرح بتفصيل فى الفصل الاتى ، تعانى إيطاليا أكثر من بقية أعضاء السوق من المشاكل الإقليمية إذ يتميز جنوب الدولة – من التخلف الناجم من الإهمال والتنظيمات الاقتصادية والاجتماعية البالية – فالى الجنوب من روما يعم الفقر فى الريف وتقل فرص العمل والخدمات بالمقارنة مع الشمال حيث الوفرة والثروة والتوسع الصناعى . وقدكان تشكيل « هيئة استثمار الجنوب » فى عام ١٩٥٠ (Cassa per il Mezzegiorno) خطوة إيجابية لتنسيق الاعتمادات المالية الحكومية لتطوير الجنوب تساعدها بعد ١٩٥٧ هيئة خاصة تسمى « لجنة وزراء الجنوب » لتحقيق الأغراض الآتية : –

(١) التنسيق بين المشاريع الإنمائية المختلفة والتخطيط على مدى طويل لتطوير هذا الجزء من الدولة وتخفيف حدة التباين الإقليمى بين الجنوب والشمال .

(٢) تمويل الأشغال العامة لتحسين الأساسيات والتغلب على مشاكل الزراعة والملكية المتفاقمة .

بالمقارنة مع أعضاء السوق الآخرين تتميز إيطاليا بأعـــلا نسبة للمزارعين وتمثل الزراعة قطاعا حيويا اقتصاديا . وقد استفادت إيطاليا أكثر من باقى الدول الأعضاء فى تسويق منتجاتها الزراعية فى السوق المشتركة وخاصة الحمضيات والفواكة الأخرى والأرز والزيوت النباتية والنبيذ الممتاز ، ويمثل الشمال مركز الزراعة المتقدمة بينما يتميز الجنوب فيما عدا بعض المناطق المروية بقلة الانتاج والطرق الزراعية البدائية .

تمثل إيطاليا موقعا هامشيا بالنسبة للسوق المشتركة التى تتصل عن طريق الطرق والسكك الحديدية التى تخترق جبال الألب . وتمتلك إيطاليا بعض الموانىء العميقة التى تستطيع استقبال السفن الضخمة وناقلات البترول التى تمخرعباب البحر المتوسط من حقول البترول فى شمال افريقيا وتحتل موانئها موقعا جيدا لنقل البترول منها بواسطة الأنابيب إلى دول أوروبا الوسطى .

فى عام ١٩٧٣ توسعت عضوية السوق المشتركة لتشمل المملكة المتحدة وأيرلندة

والدنمارك ، ومن المتوقع ان يحدث انضمام المملكة المتحدة تغييرات فى السوق المشتركة وخاصة فـى قلب التوازن الدقيق بين الأعضاء الأصليين وبالأخص فى النتائج الجغرافية – السياسية للأعضاء من الدول الصغيرة . فهى بحكم كثافتها السكانية وإمكانياتها الصناعية تضفى بعداً مكانيا للسوق .. فالمحور الأوروبى حول الراين سيمتد عبر شمال بحر الشمال ليشمل النطاق المحورى الإنجليزى الذى يمتد بين حوض الميرس وعبر حوض ترنت إلى نهر التيمس وسيتحول بحر الشمال إلى « بحيرة السوق » ، ولكن لكى تلعب بريطانيا دورها الفعال يجب أن يتم إنشاء شبكة ذات فعالية من المواصلات تربط بينها وبين أوروبا .

(٤) المملكة المتحدة :

كان الشعور لدى كثير من مؤيدى قيام السوق الأوروبية أن تحقيق أهدافها على المدى البعيد يتطلب انضمام بريطانيا لها ، ولكن طلب بريطانيا للدخول فى السوق لم يكن سهلا بل كان محفوفا بالصعوبات ونتيجة المخاوف من الأهداف بعيدة المدى لألمانيا وفرنسا لقى دخول بريطانيا للسوق تأييدا من قبل دول البينلكس وإيطاليا بينا شعرت ألمانيا بعد تفكير أن اشتراك بريطانيا مهم لتحقيق أهداف السوق ، اما فرنسا فكانت أكثر الأعضاء اعتراضا لانضمام بريطانيا فرنسا كانت تعتقد بأن بريطانيا ستأتى إلى السوق بغرض معارضة ومقاومة تطلعاتها لقيادة أوروبا . فالفرنسيون كانوا يرون فى بريطانيا أنها أوروبية من حيث الموقـع الجغرافى ولكنها لا تنتمى إليها :-of Euro) pe but not in Europe) وقد صدرت تصرفات وآراء من بريطانيا فى تلك الفترة لم تؤد إلى تخفيف هذه المخاوف والشكوك الفرنسية .

أما بريطانيا فكانت تخشى من الصبغة فوق القومية للسوق وخاصة إذا ستؤدى هذه الصبغة إلى تقليل السيادة القومية وتقييد قدرتها فى المناورة فى السياسة الخارجية : ففى الخمسينات كانت السياسة الخارجية البريطانية تتسم بنظرة أوسع من النظرة المحلية لسياسة القارة ؛ ولكن بريطانيا كانت كغيرها من دول أوروبا مهتمـة بالتقارب الألمانى – الفرنسى . وقد كان العيب الأكبر فى تردد بريطانيا يكمن ليس فى الاستخفاف بدور أوروبا المستقبلى فى الشئون البريطانية بل فى مغالاة فى التقدير

لأهمية منظمة الكومنولث لبريطانيا على المدى البعيد .. وقد زاد من خطورة هـذا الموقف ارتباط الكومنولث بالمصالح الآسيوية - الافريقية وتحلل وضعف العلاقات مع المستعمرات « البيضاء » (جنوب أفريقيا وأستراليا وكندا ونيوزيلنده) ، كما أن فكـرة « العلاقة الخاصة » غير الواضحة مع الولايات المتحدة لم تشجع الكثيرين فى بريطانيا للسعى لتعميق صلاتها مع أوروبا - أما أوروبا فكانت تتطلع إلى نظام فيدرالى وعلاقات اقتصادية ذات تركيب وصبغة دولية معروفة فى حين أن بريطانيا كانت تفضل التجارة الحرة والتعاون بين الحكومات على أساس حسن النية وبأدنى حد من القيود ، كما أنها كانت غير راغبة فى تغيير أو التخلى عن ارتباطاتها مع دول الكومنولث مع ما تجنيه منها من مواد غذائية وخام رخيصة فى سبيل ميزات غير ملموسة وغير مؤكدة ، بينما كانت دول أوروبا غير مستعدة لتوسيع آفاقها لتشمل دولا خارج أوروبا . وهكذا فقد الجانبان فرصا ذهبية ووقتا ثمينا .

بعدما أخذت الاستعدادات الجدية لإنشاء السوق تأخذ مجراها ، أخذت بريطانيا تشعر بأن البقاء خارج السوق أو « الجانب الخاطئ من الحواجز الجمركية » للسوق ستثير مشاكل تضاهى تلك التى تثقل العلاقات بين دول الكومنولث . فقد شعرت بريطانيا بعد هزيمتها فى السويس وحركة التحرير والاستقلال التى اجتاحت دول الكومنولث فى الخمسينات أن مواردها المحلية لا تكفى بأن تجازف لوحدها فى عالم متقدم يسوده التكنولوجيا الحديثة التى ستعتمد عليها الدول الصناعية المتقدمـة بعد أن قفل التصنيع فى الدول المتخلفة أسواقها فى وجه المنتجات من الدول المتقدمة ، ومن ثم أخذت بريطانيا تحاول الانضمام إلى السوق حتى تحقق ذلك فى عام ١٩٧٣ .

يتركز تعدين الفحم ، أساس الصناعة البريطانية الأصلى ، عند أطراف مرتفعـات البناين والمنخفضات المجاورة ويتوقع أن تزداد هذه المنطقة أهمية (رغم وجود حقول جيدة فى اسكتلندة وجنوب ويلز) لاكتشاف طبقات غنية منها (كما فى القرب من سيلبى Selby) . وتحتل بريطانيا المقدمة كمنتج للفحم فى السوق ولو انها لم تعد تصدره لهذه الدول كما كانت تفعل من قبل . ثم اخذت بريطانيا تستغل

سواحلها ذات الموانئ العميقة لإنشاء مصانع ضخمة حديثة للحديد والصلب التى تعتمد على المواد الخام المستوردة ، ولكن ما زال فحم الكوك المحلى يحتفظ باهميته الاقتصادية وسيتطلب الاتجاه الحديث لإنشاء المصانع الساحلية تعديلا فى مواقع الإنتاج ويزيد من أهمية اجزاء منها مثل جنوب الويلز وشمال شرق انجلترة ومصب كلايد . وفى وجه هذا التركيز الصناعى على السواحل اتجهت المصانع الداخلية إلى التخصص فى الإنتاج كما حدث فى ألمانيا .

أما التعاريف والحواجز الجمركية للسوق فيتوقع أن تساعد فى حماية الصناعات القديمة التى تحفها الصعوبات مثل صناعة النسيج التى عانت الكثير من الاقمشة الرخيصة المستوردة من آسيا وفق نظام الأفضلية لدول الكومنولث . ويتوقع أن تلاقى المنسوجات الصوفية الممتازة سوقا رائجة داخل السوق المشتركة وكذلك بعض فروع النسيج القطنى مثل الخيوط التى تصدر إلى القارة منذ وقت . أما صناعة السفن البريطانية فقد عانت فى الخمسينات من منافسة الأحواض الألمانية بعد بنائها كما تعانى الآن بشدة من أحواض السفن (الشرقية الكوميكون) واليابان ، مما يتطلب تدخلا من قبل السوق لمعالجة الأمر . وقد اتجهت أحواض السفن البريطانية مؤخرا إلى بناء معدات وارصفة البترول العائمة وتنافسها فى ذلك النرويج .

وبانضمام بريطانيا أضافت السوق الأوروبية صناعة كياوية مهمة إلى الصناعات الكياوية الأخرى فى ألمانيا ، وقد ساعدت فى تطور هذه الصناعة فى بريطانيا المواقع الساحلية الممتازة لاستلام المواد الخام ووفرة الفحم المحلى والتوسع فى صناعة تكرير البترول . وتأتى بريطانيا فى المرتبة الثانية بعد ألمانيا كما تحتل شركة ICI المرتبة الرابعة فى غربى أوروبا رغم أن عائدها يصل إلى نصف عائد الشركات الألمانية الثلاث . وتعطى المواقع الساحلية أهمية خاصة لإقليم ميرسى Mersey ومصب نهر سيفرن Severn وجنوب ويلز وشمال شرق انجلترة بينما تضيف مصافى تكرير البترول فى التيمس الأدنى وساوثهامبتن مواقع أخرى إضافية أما الصناعات الكياوية الموجودة فى ششير Cheshire وتيزسايد Teesside فتعتمد على إرسابات الملح المحلية .

وكغيرها من دول السوق شهدت بريطانيا بعد الحرب طفرة فى إنتاج المواد

الاستهلاكية المتينة خاصة منطقة الميدلاندز وجنوب شرق انجلتره . وقد استخدمت هذة الصناعات التجميعية كاداة فى سياسة التخطيط الإقليمى وانتشار الصناعات بمساندة ودعم الحكومة . وقد تم إنشاء مصانع للعربات فى ميرسى سايد واسكتلندة ومصانع للأدوات المنزلية فى جنوب ويلز ، كما شجعت الحكومة الشركات على إنشاء مصانع فى ايرلندة الشمالية وشمال شرق انجلتره ، كما ترتبط شركات عديدة بمصانع مماثلة فى القارة وتوجد شركات امريكية ذات القوميات المتعددة .

شجعت اكتشافات الغاز الطبيعى فى القطاع الجنوبى من بحر الشمال على التنقيب عن البترول الذى تم اكتشاف احتياطى ضخم منه فى الحوض الشمالى لبحر الشمال فى القطاعين البريطانى والنرويجى . ورغم ضئالة الإنتاج الحالى بالمقارنة مع حقول الشرق الأوسط فإن هذه الاكتشافات ستدعم موقف بريطانيا كدولة مصدرة للبترول فى المستقبل ، والاكتفاء ذاتيا قبل نهاية هذا القرن . وهكذا وجدت بريطانيا نفسها فى وضع يتطلب صناعة تقنية عالية مساعدة وخدمات حتى تتمكن من استغلال هذا المورد الهام والتنقيب عنه ، وهذا وضع مماثل للذى حدث فى الخمسينات عندما كانت بريطانيا تحتل المقدمة فى صناعة الطاقة النووية . وتستدعى تكاليف البحث والتطور فى مجال التقنية العالية إلى مجهود أوروبى حقيقى وتضامن على مستوى الدول الأعضاء ، ويمكن لبريطانيا أن تلعب دورا كبيرا فى هذا المجال كما يظهر فى المشروع الإنجليزى الفرنسى لإنتاج طائرات الكونكورد . ولولا اعتراض بعض فئات الشعب والظروف الاقتصادية المتغيرة لنجح هذا المشروع وأدى نجاحه الى التزامات أخرى مماثلة وعلى مستوى اوسع . ويرجى من أن يكون مشروع الباص الجوى أكثر حظا من مشروع الكونكورد حتى تقلل أوروبا من اعتمادها على الطائرات الأمريكية وحتى الروسية .

على الرغم من أن بريطانيا لديها شبكة مواصلات داخلية متطورة فهناك مشاكل تعترض اتصالها بالقارة ، ومثلا تتشابه السكك الحديدية فى عرضها فى كل من بريطانيا وغرب أوروبا ولكن قياس الحمولة الصغير بالنسبة للقاطرات البريطانية يعقد تقاطع أو التقاء قاطرات السكك الحديدية وحافلاتها . أما إنشاء الطرق الواسعة

فقد بدأ متأخرا وتتفرع هذه الطرق من لندن إلى الشمال والغرب وقد motorways يدعو إلى العجب أن الموانئ المهمة غير مربوطة بصورة فعالة بهذه الشبكة رغم أهمية التجارة الخارجية بالنسبة للاقتصاد البريطانى . وقد أوضح النمو والتطور التى شهدته موانئ العبارات أهمية الاتصال مع أوروبا . ولكن حركة مرور العبارات المتقاطع لمرور البواخر والسفن البحرية الضخمة فى بحر الشمال والقنال الإنجليزى تعوق هذة الموانئ خاصة موانئ القنال أما موانى منطقة همبر فإن وضعها أفضل كحلقة وصل بين منطقة الراين وشمال انجلترة كما أن مدينتى هارويتش وفليكستو تحتلان وضعا جيدا بالنسبة للحركة من منطقة الراين وحوض نهر التيمس .

أما موانئ الساحل الغربى فهى فى وضع جيد بالنسبة للملاحة فى المحيط الأطلسى كما أن بعضها يمكن ان يتطور لاستقبال أضخم السفن ولكنها بعيدة من أوروبا وخاصة بالمقارنة مع روتردام - الميناء الأوروبى وقد ضاعت فرصتان أثر الغاء نفق القنال والتخلى عن مشروع مابلن Maplin إذ كانتا ستزيدان من نصيب بريطانيا فى حركة مرور السوق الأوروبية .

يقل عدد الذين يشتغلون فى القطاع الزراعى فى بريطانيا عن عدد من دول السوق كما أن طبيعة الزراعة تختلف أيضا فى أحجامها الكبيرة واندماجها من المزارع الأوروبية كما أن أداءها الاقتصادى لا بأس به بالمقارنة مع المزارع ذات الكثافة العالية . وفى إطار سياسة زراعية معقولة للسوق يتوقع أن تلعب الزراعة البريطانية دورا رئيسيا فى تمويل السوق باللحوم ومنتجات الألبان وان يؤدى ذلك إلى تشجيع زراعة المناطق التلالية ويتلخص نجاح الزراعة البريطانية فى أنها استطاعت التخلص من الفائض من المزارعين وتطبيق الميكنة بصورة فعالة فى المزارع الكبيرة .

شهدت الفترة ما بين الحربين تغيرا فى موضع الصناعات : فقد فقدت المناطق الصناعية القديمة فى الشمال أهميتها فى سبيل مناطق صناعية جديدة (تركز على إنتاج المواد الاستهلاكية المتينة) وصناعات التقنية العالية تتركز فى منطقة الميدلاندز وجنوب شرق انجلتره . وقد شجع النمو الذى حدث فى القطاع الثالث هذا الاتجاه وخاصة بعد الحرب وقد حاولت الحكومة من جانبها إحياء المناطق الصناعية القديمة

بتقديم الإعانات ولمنع هجرة العمال منها ، ولكن هناك تركز واضح للسكان وللنشاطات الاقتصادية فى مثلث يمتد محوره الرئيسى من جنوب لانكشير ورايدنج الغربية من ولاية يوركشير إلى التيمس الأدنى ولكن يتوقع أن يؤدى اكتشاف البترول فى بحر الشمال إلى إحياء المناطق الشمالية من الناحية الاقتصادية .

(٥) جمهورية ايرلنده :

لم يخل انضمام جمهورية أيرلندة من تغيير فى انماط السوق المشتركة الراسخة : فأيرلندة دولة زراعية أساسها تربية الماشية للحوم والألبان كما أنها ترتبط بالمملكة المتحدة ارتباطا اقتصاديا وثيقا فقد انفتحت أمامها أسواق كبيرة بعد الانضمام رغم أن الزراعة تحتاج إلى تحديث فى مجالات عديده ، كما أن احتياطى العمال الضخم حدا بكثير من شركات السوق الأوروبية لإنشاء فروع لمصانعها فى أيرلنده . ويمثل مجمع مطار شانون الصناعى والذى تم تخطيطه بغرض الولوج إلى السوق الأمريكية أكبر تطور فى هذا المضمار . وقد استفاد المجمع من المراسى العميقة الموجودة فى الساحل الجنوبى الغربى لإنشاء مرفأ تفريغ رئيسى للبترول فى خليج بانترى حيث تفرغ الناقلات الضخمة حمولتها من الزيت على السفن الصغيرة . ولكن ما زال دور السوق فى تحقيق الوحدة بين جزئى أيرلندة سلبيا حتى الآن .

(٦) الدنمارك :

تمتلك الدنمارك صناعة متقدمة ذات فعالية اقتصادية عالية بجانب قطاعها الزراعى المزدهر وكان لاعتمادها الكبير على أسواق دول غربى أوروبا فى تسويق منتجاتها الزراعية دور كبير فى اتخاذ قرارها النهائى للانضمام إلى السوق المشتركة . فالدنمارك تلعب دورا مهما فى سوق الغذاء البريطانية ويشكل انضمام الدنمارك للسوق مشكلة إقليمية بالنسبة لألمانيا الغربية ، اذ يتحتم على الأخيرة ان ترفع من إنتاجية الزراعة والعائد منها فى محافظة شلزويك – هولشتان Schleswig – Holstein إلى مستوى الزراعة فى إقليم الدنمارك المجاور . كما أن الدنمارك ستزود السوق بموطئ قدم فى اسكندناوة ووجودا قويا فى منطقة البلطيق : فالدنمارك أيضا قريبة من التطورات التى قد تحدث فى بحر الشمال .

(ب) منطقة التجارة الحرة الأوروبية :

أما الدول التى لم تستطع الانضمام للسوق المشتركة فقد شعرت بالرغم من ذلك أن هناك حاجة ماسة لتعاون دولى وثيق ولكن من خلال مبدأ التجارة الحرة والتعاون على مستوى الحكومات واجهزتها المختلفة . وقد تجمعت هذه الدول وعددها سبعة فيما عرف برابطة التجارة الحرة الأوروبية European Free Trade Association (إفتا) أو برابطة « السبعة الخوارج » وهى منظمة حرة أنشئت لتحقيق ما ينادى به اسمه : تحسين الصلات التجارية بين أعضائها . وهى أيضا تعكس استمرارا لمحاولة سابقة فاشلة من قبل أعضاء « منظمة التعاون الاقتصادى الأوروبى OEEC » لتكوين منظمة تجارية أعم ومن ثم اعتبرت (إفتا) EFTA كخطوة مؤقتة حتى يتحقق الهدف الكبير ألا وهو الوحدة والتعاون للاعتقاد السائد أن التجزئة التى تسود فى غربى أوروبا لن تدوم وستظهر مجموعة أن آجلا أو عاجلا تشمل دول (إفتا) نفسها .

وكانت المملكة المتحدة هى أقوى الأعضاء السبعة وأكثرها نفوذا كما أن الدول الاسكندناوية الثلاثة (السويد - النرويج - الدنمارك) من أعضائها المرموقين . أما بالنسبة للنمسا وسويسرة فقد حدت اعتبارات جغرافية سياسية خاصة إلى انضمامها إلى الرابطة بينما كانت البرتغال عضوة فيها ، ثم انضمت ايسلندة مؤخرا وانتسبت فنلندة إليها (رغم ارتباطها القوى مع روسيا) .

ومن الصعب أن نحدد بعدا جغرافيا لرابطة (إفتا) حتى بعد انسحاب المملكة المتحدة منها : فربما كان اكثر ارتباطا وميلا نحو دول اسكندناوة اذ كانت تضفى نوعا من التكامل بين هذة الدول ، هذا التكامل والاتحاد الذى فشل المجلس النوردى Nordic Council ذى الصلاحية المحدودة من تحقيقه (ولم يسع لتحقيقه) كما فشلت هذه الدول فى تحقيق التعاون الاقتصادى بينها من خلال تنظيم النوردك Nordek وذلك فى الستينات .

ومما يدعو إلى العجب ان الدول الاسكندناوية على الرغم من الوحدة الثقافية والسياسية والاقتصادية التى تتميز بها كاقليم ، لم تلعب دورا بارزا فى تحقيق التكامل الأوروبى وخاصة بالنظر إلى إنجازاتها الداخلية فى المجال الاجتماعى والسياسى . وربما

نتج ذلك من أن أية خطوة تقدم عليها فى هذا المجال يجب ان تقيم فى ضوء رد الفعل السوفيتى اتجاهها .

(١) السويد :

اتبعت السويد . أكبر الدول الاسكندناوية مساحة وأهمها ، سياسة محايدة جعلتها تنأى من الجرى وراء الانضمام إلى السوق المشتركة رغم علاقتها الاقتصادية الوثيقة مع دول غربى أوروبا . وقد شهدت السويد منذ منتصف القرن التاسع عشر نهضة كبرى رفعتها من أفقر دولة إلى إحدى أغنى دول أوروبا . ووجدت سوقا كبرى فى غربى أوروبا لمنتجاتها من المواد الخام والمعادن والمنتجات الصناعية والخشب واللب والورق ، ولكنها فقدت أسواق أوروبا الشرقية والوسطى خاصة نتيجة للنظام الاقتصادى السوفيتى المطلق الذى فرض على هذه المناطق بعد ١٩٤٥ ومن ثم برزت أسواق غربى أوروبا الغنية كأحسن منطقة لتصريف منتجات صناعتها الهندسية ذات الجودة العالية بينما اكتسبت البلالى ومحمل الأسطوانات السويدية أهمية حيوية لاقتصاد أوروبا الغربية .

(٢) النرويج :

يعتمد اقتصاد النرويج اعتمادا كبيرا على صيد الاسماك والملاحة ويتم تسويق معظم هذه المنتجات فى أوروبا الغربية كما انها استغلت مواردها المائية فى تطوير توليد الطاقة الكهرومائية واستخدامها فى صناعة المعادن والمنتجات الكماوية
"Electrometallurgy, Electrochemicals"
وهى تنظر إلى اسواق غربى أوروبا ايضا فى تسويق هذه المنتجات . وقد طرأ تعيير جذرى فى الوضع الاقتصادى للنرويج منذ أواخر الستينات إثر اكتشاف ارسابات ضخمة من البترول والغاز الطبيعى فى قطاعها من بحر الشمال ، ولكن نتيجة لطبوغرافية قاع البحر فى هذا القطاع سيتم نقل معظم البترول والغاز إلى مناطق خارج النرويج (مثلا البترول إلى ميناء تيزبورت Teesport فى شمال شرق انجلترة والغاز إلى امدن Emden فى ألمانيا الغربية) وبواسطة وسائل ملء الناقلات فى البحر من عوامات ثابتة أمكن تفريغ بعض البترول فى الشاطئ النرويجى . وقد فقدت مناجم فحم اسبيتزبرجن أهميتها نتيجة الدور المتغير للفحم . ولكن هناك اعتبارات

استراتيجية ومستقبل البترول بالإضافة الى تطورات أخرى ستجعل الدولة تولى اهتمامها بهذه الحقول على المدى البعيد .

(٣) فنلنده :

ارتبطت فنلندة مع الاتحاد السوفيتي بمعاهدة صارمة كما يتحكم قربها الجغرافي من هذه الدولة العظمى نوع العلاقة بينهما ولذا كان اكتساب رضاها مهما لفنلندة لتأمين شرها . وقد كيفت هذه الأوضاع علاقتها مع باقي دول أوروبا . وقد عانت فنلندة من المشكلة الناجمة من تدفق اللاجئين من أقاليمها التي ضمتها روسيا إليها مما استدعى القيام بإجراءات مثل إعادة تقسيم القطع الزراعية وتوطين أعداد من المهاجرين في المناطق الشمالية القاحلة . وعلى الرغم من ان قطع الأخشاب وصناعة منتجاتهـا واستخراج المعادن (النحاس والنيكل وتيتانيوم وفيناديوم) ما زال مهما فقد طـورت فنلندة صناعات المواد الاستهلاكية ذات الجودة العالية (النسيج والزجاج والمـواد الغذائية) وصناعة سفن خاصة (مثل كاسحات الجليد) .

(٤) ايسلنده :

تعتبر ايسلندة جزءا من أوروبا رغم بعدها الجغرافي عنها لعلاقاتها وارتباطاتها الاقتصادية والثقافية بها ، ويمثل صيد الأسماك أساس اقتصادياتها اذ تفتقر الجزيرة إلى المواد الطبيعية وقد أدت محاولاتها لصيانة ومحافظة موارد السمك إلى مـد حدود مياهها الإقليمية إلى ٢٠٠ ميلا نتج منها صراع مع دول أخرى ، خاصة بريطانيا وألمانيا الغربيه ، كما ادى إلى التعجيل بمطالبة دول السوق المشتركة إلى مـد حدودها البحرية (١٩٧٧) .

(٥) النمسا وسويسرة والبرتغال :

تربط النمسا وسويسرة علاقات اقتصادية وثيقة مع دول السوق المجـاورة ، لكن حال من انضمام النمسا إلى السوق معاهدة السلام بينما لم تتحمس سويسرة لعضوية المنظمة نسبة لسياستها الحيادية التقليدية ومبدأ عدم التدخل فـي شئون الغير التي تعتنق به . فسويسرة تحتل وضعا رئيسيا بالنسبة للمواصلات في غرب ووسط أوروبا كما تسيطر على انفاق وممرات الألب الرئيسية في حين أن النمسا تمثل أيضا منطقة عبور

مهمة بين أوروبا الغربية ومنطقة الدانوب . وقد استطاعت الدولتان استغلال مواردها المائية فى توليد الكهرباء التى تلعب دورا حيويا فى اقتصادياتها إلى درجة تصديرها إلى بعض الدول المجاورة مثل ألمانيا الغربية كما أن الكهرباء تمثل أساس صناعة معادن ذات جودة عالية : فسويسرة ذات شهرة عالمية فى الصناعة الهندسية الدقيقة مثل الساعات ومعدات التوقيت الاخرى وكذلك فى صناعة الأدوية والمنسوجات وآلات النسيج ، وتعتمد كلية على المواد الخام المستوردة من الخارج ، وخاصة من دول السوق المشتركة . أما النمسا فلديها صناعة هندسية متطورة وان كانت لاترق إلى مستوى الصناعات السويسرية ولكنها تتمتع بموارد طبيعية اكثر ، ففى جنوبها توجد إرسابات الماغنيوم وتفتخر منطقة ايرزبيرج باكبر مورد للحديد الخام فى أوروبا ومنها تستمد مصانع دونافتز وليبن Leoben حديدها منها . وتعتمد الدولتان اعتمادا كبيرا على السياحة وتنفرد سويسرة فى كونها مقرا للعديد من الوكالات والمنظمات الدولية كما أنها مركز مالى ومصرفى كبير مما يجعلها تلعب دورا مهما فى اقتصاد العالم .

أما البرتغال فهى أفقر دول (إفتا) ، وما زالت الزراعة تمثل قطاعا رئيسيا اذ تستوعب ٤٠٪ من جملة سكانها وتمول أسواق أوروبا بالنبيذ والفلين والسللوز ، والسمك (خاصة السردين والأنشوفى) . أما الصناعة فقد أسهمت وفرة العمال والرأسمال الأجنبى فى تطورها وتشمل (صناعة النسيج والمواد المنزلية) .

الدول غير الملتزمة خارج أوروبا الاشتراكية :

ظلت أسبانيا فى منأى من المنظمات الأوروبية حتى منتصف السبعينات نتيجة المقاطعة التى فرضتها الدول الأوروبية على نظام فرانكو الدكتاتورى . وأسبانيا تعتبر فى عداد الدول الفقيرة . فقد أخذت ما يقرب من ربع القرن لتفيق من آثار الحرب الاهلية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) المدمرة وقد أدى استنفاذ بعض الموارد المعدنية الهامة إلى تفاقم وضعها الاقتصادى . ولكن وفرة الايدى العاملة الرخيصة كانت من الأسباب التى جذبت رؤوس الأموال الأجنبية كقطر يمكن فيه اقامة صناعات التجميع التى تحتاج إلى أيدى عاملة كثيرة . وقد رأت بعض المؤسسات ذات الصبغة

الدولية استثمار أموال أوروبية فى أسبانيا (والبرتغال) بدلا من الدول الصناعية المتقدمة حيث تقل الأيدى العاملة وتكاليف الإنتاج باهظة . وتتركز الصناعات الثقيلة فى شمال أسبانيا حيث اكتسب تعدين الحديد أهمية كبرى فى القرن الماضى كما تتميز مقاطعتا الباسك وقطونيا ذات النزعة الانفصالية بأهميتها الاقتصادية . وتحت النظام الليبرالى الحالى تسعى أسبانيا للانضمام لمعاهدة روما – أى السوق الأوروبية .

اما اليونان فقد خضعت لنفوذ المعسكر السوفيتى بعد الحرب مباشرة ولكنها تسعى الأن للارتباط (الانتساب) إلى السوق المشتركة التى تعتمد عليها لتسويق منتجاتها الزراعية وقدرتها الملاحية واستقطاب السواح منها*. وقد بذلت مجهودات ضخمة لتحديث وزيادة الإنتاج الزراعى ولكن صناعاتها الصغيرة تنحصر فى المدن الرئيسية ويتم تعدين خام الألمنيوم (البوكسايت) والكروم ، كما أن اليونان تسيطر على ثلث السفن التجارية فى العالم ومن ضمنها نسبة عالية من ناقلات البترول الضخمة .

وقد يثير انضمام أسبانيا والبرتغال واليونان للسوق الأوروبية مشاكل عديدة نسبة لطبيعة اقتصادياتها ، ولكن هناك من يرى أن الدفاع عن الأنظمة الديمقراطية الهشة التى تسود هذه البلاد إثر انهيار النظم العسكرية والديمقراطية أكثر اهمية من المشاكل التى ستنجم من اقتصادياتها التى تسيطر عليها الزراعة .

وهناك دول حديثة الاستقلال مثل قبرص ومالطا اللتين تعتمدان على تدفق السواح الأوروبيين رغم أن قبرص يعدن فيها النحاس والاسبستوس والبايرايت ، بينما تمتلك مالطا مرافئ ضخمة بعد انسحاب الاسطول البريطانى منها . أما من بين الدويلات الصغيرة تعتبر ليختنشتاين الواقعة بين سويسرة والنمسا أكثرها نجاحا فى اجتذاب الصناعات الخفيفة إلى درجة أنها تعتبر اكثر دول أوروبا تقدما من ناحية الصناعة والثروة بالنسبة إلى مساحتها .

(د) منظمة الكوميكون Comecon وأوروبا الشرقية :

إثر النجاح العسكرى والسياسى الذى أحرزه الاتحاد السوفيتى فى الحرب العالمية

---

* انضمت اليونان للسوق المشتركة فى أواخر ١٩٨٠ م

الثانية ، خضعت مناطق شاسعة فى شرق أوروبا الوسطى وشرقها للنفوذ الروسى وأدى قبول الأيدولوجية الماركسية اللينينية والنظم والتوجيه الاقتصادى من قبل هذه الدول كأساس للحكم إلى اعتبارها منطقة نفوذ واحدة واعتبار « اوروبا الشرقية » كامتداد مكانى لأحد أقاليم أوروبا الكبيرة داخل إطار مفاهيم اقليمية متغيرة تتكيف وفق ما يطرأ على جغرافيتها السياسية من تغيرات .

وقد تأكد وضع أوروبا الشرقية الجديدة بانعزالها من أوروبا الغربية نتيجة الحرب الباردة بين الكتلتين فى الخمسينات وعدم قبول روسيا لمشروع مارشال الأمريكى لاعادة بناء أوروبا مما أدى إلى رفضه وعلى مضض من قبل بعض الدول التابعة لها (وخاصة بولندة وتشكوسلوفاكيا) رغم حاجتها الماسة إلى هذه المعونة . ثم قدمت روسيا تعديلا للمشروع الأمريكى فى عام ١٩٤٩ يتمثل فى مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة الكوميكون Council for Mutual Economic Assistance وانضمت إليها جميع دول المعسكر الاشتراكى ما عدا يوغسلافيا – وقد اتبعت سياسة ربط ودمج اقتصاديات هذه الدول الاعضاء مع بعضها البعض ومع الاقتصاد السوفيتى إلى درجة أن ٤٠٪ من تجارة هذه الدول يتم مع الاتحاد السوفيتى . وقد تم قبول المبدأ القائل بأن تحقيق الوحدة سيتم عن طريق تبنى النظرية الماركسية – اللينينية رغم تأكيد المجلس أو المنظمة للسيادة القومية لهذه الدول – وهذا يتناقض مع الصبغة فوق القومية التى تتميز بها السوق الأوروبية .

وعلى الرغم من ذلك فإن تأثير الكوميكون على النمط المكانى لأوروبا الشرقية كبير إذ اتجهت المنطقة نحو الشرق (روسيا)وارتبطت به اقتصاديا.فروسيا تطغى على بقية الدول بنفوذها السياسى ومواردها الضخمة وامكانياتها الاقتصادية الهائلة وذلك على عكس التوازن المتساوى فى دور ونفوذ اعضاء السوق المشتركة . وبينما أدت الصبغة فوق القومية للسوق المشتركة إلى تشجيع التجارة الدولية والانتقال وتدفق العمال بين الدول الأعضاء لم تجد هذه العناصر أهمية تذكر بل تثبيطا متواصلا داخل الكوميكون بينما تطور اقتصاد كل دولة من أعضاء السوق المشتركة وفق إرادتها الحرة وفى إطار الاتكال المتبادل بين أعضائها . سعت السياسة الأولى فى الكوميكون والتى خطط

وفق التجربة الروسية إلى البحث عن وسائل لتحقيق الاكتفاء الذاتـى داخل كل دولة من الدول الأعضاء بطريقة تخدم فى النهاية وتؤكد ارتباط هذه الدول بقوة روسيا الصناعية وامكانياتها الهائلة . ولما ظهر فشل هذه السياسـة واخفاقها فى تحقيق الهدف حاولت روسيا تطبيق فكرة جديدة مبنية على اساس تقسيم العمل الدولى الاشتراكي وتتضمن الدول المتخصصة فى إنتاج ما تستطيع وانجاز ذلك على احسن وجه ومن ثم تحقيق التبادل التجارى على نطاق أوسع . وأخيرا شهدت السبعينات تطبيق مفهوم جديد فى التكامل الاشتراكى (مثل ربط الخطط القومية للدول مع بعضها البعض وتشجيع الأعمال ذات القوميـة المتعددة) بما اضفى نوعا من فوق القومية على هذه المنظمة ولكن آثار هـذا التحول الجديد لم تظهر بعد (١٩٨٠) .

ومن التعصب أن ننكر النجاح الذى حققة الكوميكون رغم ما صاحب هذا النجاح من إرهاصات ومتاعب . ففى أيام تكوينها الأولى كانت المنظمة تحت السيطرة السوفيتية وما زال نفوذها قويا حتى الآن . وقد كانت أحداث المجر وبولندة العنيفة فى عام ١٩٥٦ تمثل بادرة التوتر الذى بلغ ذروته فى هذه الأحداث وتعكس محـاولات هذه الدول فى التحرر من السياسات السوفيتية الصارمة ، كما أسفرت الضغوط التى قامت بها الدول الأعضاء فى سبيل بنية مالية وتجارية أكثر حنكة ودراية عن الأزمـة التشيكية فى عام ١٩٦٨ ، وفى نفس الوقت ادى ظهور مواقف مختلفة بين الدول الأعضاء نفسها إلى حدوث إرهاصات أخرى تتمثل فى محاولات من قبل الدول الصناعيـة على إجبار رومانيا لتبقى دولة مصدرة للمواد الخام والمنتجات شبه المصنعة بـدلا من تطوير صناعاتها لئلا تنافس عندئذ تلك الدول ، وعلى مستوى أقل أدت المنافسة بين موانئ بحر البلطيق إلى سوء تفاهم وعلاقة بين بولندة والمانيا الديمقراطية . ولكى تعوض ما فقدته خلال الفترة التى سيطر عليها الاتحاد السوفيتى واللحـاق بما فاته اتجهت دول الكوميكون إلى شراء التقنية الغربية المتقدمة وحتى البحث عن مجالات لاستثمار مشترك مع الدول الغربية . وقد ينتهى هذا القـرن دون التخلص تماما من الآثار السياسية والاقتصادية لهذه السياسة الصارمـة التى صاحبت مراحل التكوين الأولى .

وعلى العكس من السوق المشتركة حيث تنحصر العضوية فيها على الدول الأوروبية فإن منظمة الكوميكون مستعدة لقبول عضوية أى دولة تقبل التعاون فى تطبيق النظام الاقتصادى الاشتراكى (الماركسى) . وتنقسم الدول الأعضاء إلى مجموعتين تحت وصاية الاتحاد السوفيتى : –

١ – مجموعة ذات اقتصاديات متقدمة تقع فى الشمال الغربى وتشمل ألمانيا الديمقراطية وبولندة وتشكوسلوفاكيا والمجر .

٢ – المجموعة الثانية وتضم دولا أقل تطورا ويمكن اعتبارها دولا نامية مثل رومانيا وبلغاريا ويمكن ضم يوغسلافيا وألبانيا (التى جمد نشاطها منذ ١٩٦١) إلى هذه المجموعة .

والآن سندرس هذه الدول ببعض التفاصيل : –

(١) بولندة (بولونيا) :

ترجع مشاكل ما بعد الحرب فى بولندة إلى التغيير الجذرى الذى طرأ على حدودها الاقليمى نتيجة ضم مناطق ألمانية متطورة اقتصاديا فى الغرب وفقدان أراضى شاسعة لكنها فقيرة فى الشرق للاتحاد السوفيتى ، كما أنها عانت من تجربة فقدان عدد ضخم من سكانها من جراء الحرب (خاصة فى وسط المثقفين) والهجرة ، وكان لابد من استيطان المناطق المكتسبة بالبولنديين الذين جاء بعضهم من المناطق الشرقية التى فقدتها وذلك أثر هروب الألمان أو طردهم ، وبذلك فقدت بولندة العمال الألمان ، خاصة الحرفيين المهرة ، ومن ثم اضطرت لتدريب كوادر جديدة لادارة وتشغيل المصانع . وبضم الجزء الألمانى من مقاطعة سايليزيا العليا حصلت بولندا على احتياطى ضخم من الفحم جيد النوع كما تم اكتشاف طبقات جديدة فى الجنوب الشرقى من الدولة حول مدينة لوبلن Lublin ، واضيفت إرسابات ليجنايت جديدة بضم الإقليم الألمانى كما تم العثور على رواسب كبيرة من النحاس فى سايليزيا السفلى . وتوجد رواسب الزنك والرصاص فى حقول فحم سايليزيا العليا ، ولكن إرسابات خام الحديد بقيت على حالها دون زيادة . وتشمل الموارد الأخرى الكبريت والملح والبوتاس . ورغم فقدانها لبعض حقول البترول

للاتحاد السوفيتى فإن بولندة تنتج كميات قليلة من البترول والغاز الطبيعى لا تكفى لسد احتياجات البلد .

وقد أضاف ضم سايليزيا العليا عددا من مصانع الحديد والصلب الألمانية إلى المصانع الموجودة داخل حدود بولندة وخاصة مصانع تشستوشوا Czestochowa ومصنع لينين الضخم فى نواحوتا Nowa Huta شرق مدينة كاركاو الذى تـم تشييده فى الخمسينات وفق السياسة المركزية للاكتفاء الذاتى التى كانت تنتهجها الكوميكون حينذاك . ونسبة لأن الفحم المحلى لا يصلح لعمل فحم الكوك الجيد فإن الإنتاج المحلى يخلط مع فحم الكوك المستورد كما يتم استيراد كميات ضخمة من خام الحديد من منطقة كريفوى روج فى روسيا وأصبحت حقول فحم سايليزيا العليا بمولداتها الحرارية الضخمة مركزا لصناعة المعادن غير الفلزية (مثل الألمنيوم من البوكسايت المستورد من المجر) ، كما استفادت بولندا من الصناعة الكيماوية التى حصلت عليها بعد ضم المناطق الألمانية خاصة مصنع اوسفيسيم Oswiecim . وحديثا تم انشاء مصنع للبتروكيماويات على خط الأنابيب الذى يحمل البترول الخام من الاتحاد السوفيتى عبر بولندة الى ألمانيا الديمقراطية كما يتوقع أن يشجع مرفأ البترول الجديد فى جدانسك (دانزيج) قيام مصنع للبتروكيماويات عند مجرى نهر فستولا الادنى .

ورغم أن التغيير الاقليمى قد أضاف أيضا صناعات هندسية ، فإن أكبر المراكـز الصناعية الهندسية توجد داخل الإقليم البولندى الأصلى . ولكن ضم مينائى جدانسك وشتيتن أدى إلى توسع فى صناعة السفن (ومن ثم اصبحت بولندة من أهم صانعى السفن فى أوروبا الشرقية) . وقد شمل التوسع فى الصناعة الهندسية التنويع فى مجال صناعة العربات كما دعمت مصانع النسيج الموجودة فى لودز Lodz وبيالستوك Bialystok (حيث يتركز ٤٠٪ من الانتاج الكلى) بإضافة المصانع الألمانية فى سايليزيا السفلى ، وتعتمد صناعة النسيج كثيرا على المواد الخام المستوردة من روسيا .

وعلى الرغم من الاستثمارات الضخمة فى الصناعة ما زالت اقتصاديات بولندة تعتمد على الزراعة التى تستوعب ٣٠٪ من السكان وقد فشلت محاولات الحكومة فى

تطبيق نظام المزارع الجماعية السوفيتى إثر مقاومة المزارعين لها مما أدى إلى ترك الفلاحين أحرارا مع تشجيعهم للانضمام للجمعيات التعاونية . والآن يمتلك المزارعون ٨٧٪ من مزارع بولنده ، ويبدو التناقض واضحا فى الزراعة بين المناطق الألمانية السابقة وباقى أجزاء بولنده : فنى المنطقة الأولى تتسم المزارع بكبر أحجامها نتيجة للصعوبات التى واجهت استيطان هذه المناطق وعامة ينخفض مستوى الزراعة كلما اتجهنا شرقا وينخفض الإنتاج . ويقل مستوى الأداء الزراعى عامه : فالمزارع صغيرة ويقل استخدام الأسمدة والمكنات ورغم ذلك فإن تجارة الحبوب مع الغرب ذات اهمية للاقتصاد البولندى ولكن فرض الحواجز الجمركية من قبل السوق المشتركة على المنتجات الزراعية وفق السياسة الزراعية قد يجلب مشاكل اقتصادية لبولنده .

تحتل بولندا مركزا مهما فى نظام شبكة المواصلات فى أوروبا الشرقية وخاصة بعد ضم موانئ مهمة بعد الحرب والتى بواسطتها تأمل بولندة من اجتذاب الحركة من الداخل وحوض نهر الدانوب . وتربط شبكة جيدة من السكك الحديدية هذه الموانى بالمناطق الداخلية وكذلك الاتحاد السوفيتى وأيضا بدول غربى أوروبا . وقد تم استثمار أموال ضخمة لتحديث السكك الحديدية ولكن لم يكن لتطوير الطرق البرية نصيب كبير فى ذلك . ولذلك يقل مستوى النقل البرى فيها دون المستوى السائد فى باقى دول شرق أوروبا . ويمكن لبولندة أن تلعب دورا رئيسيا فى تطوير شبكة الطرق المائية فى أوروبا الشرقية إذا تم بناء ممر مائى يربط حوض الدنيبر بنهرى الألب والدانوب عن طريق حوض الفستولا .

وتعكس محاولات بولندة فى تشتيت المصانع من مناطق تركزها الحالية إلى المناطق الريفية حيث تقل الفرصة الصناعية - تعكس الدور المهم الذى لعبه التخطيط الإقليمى فى دول شرق أوروبا الاشتراكية . ولتحقيق سياسة الاكتفاء الذاتى تم إنشاء مصانع لينين الضخمة فى مدينة نواحوتا الجديدة لامتصاص البطالة الريفية بينما تواصل الحكومة فى محاولاتها السابقة (قبل الحرب) لتشتيت ونشر الصناعة بطريقة متساوية فى الأجزاء الجنوبية من الدولة . وقد شهدت المد

الصناعية فى الجزء الألمانى السابق نموا كبيرا فى سكانها بينما انخفض سكان الريف فى نفس الإقليم إلى دون مستوى ما قبل الحرب .

(٢) تشكوسلوفاكيا :

كانت تشكوسلوفاكيا أكثر الدول السلافية تصنيعا قبل الحرب . وظلت الدولة خارج مدار الاتحاد السوفيتى حتى انقلاب عام ١٩٤٨ . ومع دخولها فى منظمة الكوميكون اصاب الشلل تقدمها الاقتصادى نتيجة المشاكل الناجمة من عملية التحديث ومآزق الاستثمار وفق سياسة التخطيط الإقليمى الذى فرضها السوفييت على اعضاء المنظمة . لم تفقد تشكوسلوفاكيا اراضى شاسعة بعد الحرب مثل بولنده ، بل جزءا صغيرا فى اقليم الكربات – أوكرانيا ، ومثل بولندة قبل الحرب كانت تشكوسلوفاكيا تضم أقليات كبيرة بلغ عدد الألمان منهم ثلاثة مليون . وأدى تدهور العلاقات بين ألمانيا وتشكوسلوفاكيا بعد عام ١٩٣٨ إلى طرد الألمان مما أفقد التشيك جزءا مهما من الأيدى العاملة الصناعية ومعظم رجال الأعمال والمقاولين ، بينما خلت المدن الصناعية من السكان بعد ذهاب الألمان ، ومن ثم واجهت الدولة نفس المشاكل التى واجهت بولندة فى المناطق الألمانية السابقة من تدريب لكوادر جديدة واعادة توطين المدن المهجورة وتطوير المناطق الصناعية مرة أخرى . وقد أثارت حاجة الدولة الماسة للموارد القومية لإعادة تطوير منطقة بوهيميا – مورافيا ، شكوك السلوفاكيين حول نوايا حكومة براغ فيما يختص بموضوع التخلف الاقتصادى فى سلوفاكيا ، وكانت هذه المسألة من الأسباب التى أفسدت العلاقة بين التشيكيين والسلوفاكيين قبل عام ١٩٣٩ . ولتفادى أى تفاقم فى العلاقات حولت الاستثمارات إلى إقليم سلوفاكيا ، وقد ادى ذلك إلى تأخير وتعطيل عملية تحديث واعادة تجهيز المصانع بالمعدات وتدريب العمال فى مناطق التركيز الصناعى فى إقليم بوهيميا – مورافيا حيث كانت فرص التنمية مواتية ومجال الاستثمار واسعا ومربحا .

وتشكوسلوفاكيا هى إحدى الدول الصناعية الرئيسية فى أوروبا الشرقية ، وتوجد إرسابات الفحم فى الجزء التشيكى من سايليزيا كما أن هناك حقولا أخرى بين براغ وبلزن وفى شمال بوهيميا . أما خام الحديد فتوجد كميات محدودة منه فى وسط

بوهيميا وشرق سلوفاكيا ، وكذلك يتم استيراد كميات كبيرة منه من الخارج - خاصة روسيا ، كما ان هناك بعض المعادن مثل النحاس والرصاص والزنك والفضة فى أجزاء من الدولة ولكن بكميات صغيرة .

تتركز صناعة الحديد والصلب فى سايليزيا وحول بلزن - كلادنو فى الغرب وكانت هناك خطة روسية قبل الحرب مباشرة لدمج سايليزيا البولندية والتشيكية سياسيا وتحويلها إلى مركز صناعى لشرق أوروبا ولكن لم يتحقق ذلك . وقد أدى إنشاء المصانع الجديدة فى كوتشيس Kosice إلى تدهور المصانع القديمة فى سلوفاكيا منذ أواخر الستينات . وتستمد المصانع الجديدة خام الحديد من أكرانيا مباشرة بواسطة خط حديدى عريض أنسىء خصيصا لهذا الغرض .

كان تشكوسلوفاكيا تمثل ترسانة إمبراطورية هابسبيرج وكانت النتيجة انهاورثت صناعة هندسية (تشمل مصانع سكودا الكبيرة فى بلزن) . وفى العشرينات طورت صناعة عربات سكودا التى اصبحت فيما بعد دعامة مهمة لاقتصاد المعسكر الشرقى وقوته ، كما توجد صناعة كيماوية مهمة تتركز مع صناعة هندسية اخرى فى منطقة بوهيميا موراڤيا أيضا ولم تعد هناك مشكلة فى الطاقة اد تأتى الأنابيب بالغاز الطبيعى والبترول من حقول روسيا وقد أدى ذلك إلى تطور صناعة البتروكيماويات . وقد كان للتشديد على صناعة المعدات المنتجة الضخمة فى اقتصاد دول شرق أوروبا والأولوية القليلة التى أعطيت للمستهلك أثر عكسى فى تشكوسلوفاكيا : فقد عانت صناعة الزجاج المشهورة فى شمال بوهيميا من فقدان عمالها المهرة إثر طرد الألمان (الذين ينافسون المنتجات التشيكية من مصانع مماثلة فى ألمانيا الغربية) .

أما صناعة النسيج فى بوهيميا فلم تجد هى بدورها العناية والاهتمام ومن ثم تدهورت لأن الإنتاج كان موجها لسد احتياجات المستهلكين فقط ، كما أنها من الصناعات التى أعطيت الأولوية فى سلوفاكيا ضمن سياسة المساواة فى التصنيع بين الأقاليم . ووفق هذه السياسة أيضا تم إنشاء بعض الصناعات الهندسية الخفيفة للتجميع (كما فى وادى فاه Vah) فى سلوفاكيا ايضا . وعلى الرغم من ذلك فان صناعات تشكوسلوفاكيا الاستهلاكية (النسيج والأحذية والمعدات المدنية) لها

شهرتها داخل اسواق الكوميكون ، ولو قدر لها أن تكون فى منطقة ذات اقتصاد حر لاصبحت أكبر شأنا وأكثر نماء وانتشارا .

نظرا لموقعها المركزى فى قلب القارة أصبحت تشكوسلوفاكيا منطقة عبور مهمة للسكك الحديدية رغم أن حركة البضائع الداخلية تسلك محورا شرقى وغربى يربط بين مناطق الصناعة الرئيسية كما انها شرعت ولكن بتردد فى اكمال مشروع قناة الدانوب – الأودر التى تمر عبر ممر مورافيا ، ثم حفر فرع منها إلى نهر الألب . ونسبة لموقعها الداخلى تلجأ الدولة إلى استخدام موانئ دول أخرى : فأغلب تجارتها يمر عن طريق موانئ بولندة وألمانيا الشرقية ، وبعضها يتجة إلى هامبورج فى ألمانيا الغربية ، كما تسعى يوغسلافيا إلى اجتذاب بعض الحركة عن طريق ميناء رايكا Rijeka على البحر الادرياتى . وشهدت حركة المرور على الطرق نهضة كبيرة بعد انشاء شبكة للباصات تغطى اجزاء عديدة من الدولة ، كما يتم الآن بناء طريق رئيسى من عند حدود ألمانيا الشرقية إلى براتيسلافا مارا بالعاصمة براغ .

تلعب الزراعة دورا أقل فى التوظيف فى تشكوسلوفاكيا بالمقارنة مع دول أوروبا الشرقية الأخرى ، لكن أهميتها تفوق تلك التى فى أوروبا الغربية . ففى منطقة بوهيميا – مورافيا تمارس الزراعة على أساس جزئى أوكحرفة ثانوية إذ تمثل الصناعة أهم الحرف هنا بينما خفض عدد المشتغلين فى هذا القطاع فى إقليم سلوفاكيا وفقا للسياسة الاقتصادية المتبعة . وعلى عكس ما حدث فى بولنده ، طبق فى تشكوسلوفاكيا نظام المزارع الجماعية الذى تسبب فى احداث تغيير فى البلاندسكيب ونمط الاستيطان . ولكن نسبة لتضرس المنطقة وانتشار زراعة المرتفعات فإن العائد من الزراعة فى مناطق شاسعه منخفض جدا . وتسهم الدولة فى الكوميكون بنصيب كبير من بنجر السكر (الشمندر) وحشيشة الدينار hops بينما تمول غاباتها الضخمة صناعة ورق مهمة .

(٣) ألمانيا الديمقراطية :

تحتل ألمانيا الديمقراطية المرتبة العاشرة فى قائمة الدول الصناعية الرئيسية فى العالم كما تعتبر من أهم أعضاء دول الكوميكون . فهى على عكس بولندة وتشكوسلوفاكيا

لا تركز شديدا على التصنيع ولكنها تمتلك صناعات كيماوية ضخمة ومتقدمة تكنولوجيا فى حوض السال والألب وكذلك صناعات هندسية متقدمة وخاصة فى منطقة ساكسونيا وبرلين (هندسة كهربائية) جعلت منها أهم دولة من حيث المساهمة فى اقتصاديات منظمة الكوميكون . فصناعة المعدات البصرية فى جيناودرسدان هى الوحيدة من نوعها فى دول الكوميكون من حيث الجودة والإتقان .

عانت ألمانيا الديمقراطية بعد التقسيم من تفكيك المصانع فى سبيل التعويضات للشركات التى نقلت مصانعها إلى ألمانيا الغربية . كما أن تركيبها المكانى تعرض للتمزق بزحزحة حدود بولندة إلى الغرب وبالحدود الجديدة بينها وبين ألمانيا الاتحادية . فقد أدى انعزالها من الغرب إلى بتر علاقات اقتصادية عريقة ولذلك فقد تعثر نموها الاقتصادى خلال السنوات الأولى بعد الحرب ، لكن لم يدم ذلك طويلا إذ شهدت الدولة تطورا اقتصاديا كبيرا من أواخر الخمسينات حتى تفوقت على منافستها تشكوسلوفاكيا فى قطاعات عديدة .

تمتلك ألمانيا قدرا ضئيلا من الفحم البتومينى ، وتمثل الكهرباء المولدة من فحم الليجانيت اهم مصدر للطاقة كما تفتقر إلى كميات كبيرة من البترول والغاز الطبيعى . ولذلك تعتمد ألمانيا على استيراد كل احتياجاتها منه على الاتحاد السوفيتى عن طريق أنابيب تجلب البترول إلى مصنى شفيدت Schwedt . كما يوجد مرفأ آخر فى ميناء روستوك لاستلام الزيت المستورد من مناطق أخرى . أما المواد الخام للطاقة النووية فيصدر معظمها إلى الاتحاد السوفيتى ولكن هناك خطط لإقامة مفاعل لتوليد هذه الطاقة داخل البلاد . وتفتقر الدولة أيضا إلى الموارد المعدنية : فإرسابات الحديد الخام ضئيلة كما توجد كميات لا بأس بها من النيكل والزنك والنحاس ، أما الأملاح الكيماوية فتوجد بكميات متوفرة وتشكل اساس الصناعات الكيماوية .

وكانت قلة فحم الكوك (وفشل المحاولات لتحويل فحم الليجنايت إلى كوك) وخام الحديد من الأسباب الأساسية التى أدت إلى فشل سياسة الاكتفاء الذاتى عن طريق تطوير صناعة الحديد والصلب . ومن المصنعين الكبيرين اللذين تم إنشاؤهما

بعد الحرب فى مدينة مصانع الصلب Eisenhuttenstadt وكالب Calbe ، قفل الأخير نهائيا ولكن النجاح كان حليف صناعات أخرى مثل إنتاج قاطرات السكك الحديدية وحافلاتها وكذلك أنواع جيدة من الصلب ، كما وجهت الصناعات الهندسية لإنتاج المعدات الثقيلة التى تحتاج إليها دول الكوميكون ، وظلت بعض المصانع الفرعية عاطلة حتى تم توفير أجزائها ومكوناتها بتصنيعها محليا (لأن هذه الفروع كانت قد ضمت لألمانيا الاتحادية بعد التقسيم) .

وكغيرها من القطاعات الأخرى عانت الصناعة الهندسية من النقص فى الأيدى العاملة الناتج من هجرة الألمان إلى ألمانيا الغربية ، كما أجبرت ألمانيا الشرقية على الاستعانة بالفائض العمالى من ريف المجر فى إنجاز مصانع مشتركة يتم فيها تجميع الأجزاء والمكونات المصنوعة فى ألمانيا . واستفادت ألمانيا الديمقراطية من التركيز السوفيتى على الصناعة الكيماوية وتطويرها بعد عام ١٩٥٩ وذلك فى تطوير إمكانياتها الضخمة فى هذا المجال وإنشاء خمسة مصانع فى هال Halle وبترفيلد Bitterfeld وفولفن Wolfen وميرزبيرج وبستراتيز Piesteritz ، تمول ٤٠٪ من إنتاج الكوميكون ومن أهم منتجاتها المطاط الصناعى والالياف الصناعية والادوية وأدوات التصوير ومحلولها .

وقد قامت هذه الصناعات اساسا على فحم الليجنايت ولكنها تحولت الآن إلى البتروكيماويات ولكن ما زالت الصناعات تعانى من نقص فى مياه المعالجة process water ، ولأن الكهرباء تكون ثلث تكلفة الانتاج فى كثير من المصنع فان هذه الصناعة تتركز حول المولدات الضخمة .

وورثت ألمانيا الديمقراطية صناعة ضخمة للمواد الاستهلاكية منها مصانع نسيج ذات جودة عالية فى ساكسونيا ولكن هذه الصناعة لم تلق اهمية كبرى فى نطاق سياسة الأولويات ومن ثم أخذت الدولة تركز فى صناعة المنسوجات ذات المستوى المتوسط الجودة لتناسب أسواق دول الكوميكون . وبقيت مواد استهلاكية أخرى محتفظة باهميتها (مثل المعدات الكهربائية المنزلية) فى أسواق الكوميكون كما تصدر كميات منها إلى دول الغرب ، خاصة ألمانيا الغربية عن طريق البريد .

كانت الزراعة فى ألمانيا قبل الحرب أكثر تقدما وأحسن مستوى من باقى دول الكوميكون ، ولكن هذا القطاع الهام تعرض للتمزق بعد الحرب مباشرة أثر تطبيق المزارع الجماعية وإصلاح الأرض مما أدى إلى انخفاض كبير فى الإنتاج ونقص شديد فى المواد الغذائية . وتتخذ الزراعة من النظام الزراعى السوفيتى نموذجا ، وتعتبر الزراعة الألمانية اليوم من أكفأ الأنظمة الزراعية بين دول الكوميكون ولكن نسبة المشتغلين فيها تقل كثيرا عن هذه الدول . وعلى الرغم من ذلك تستورد ألمانيا الشرقية كثيرا من مواردها الغذائية على عكس الدول الشرقية الأخرى التى تشكل المنتجات الزراعية جزءا مهما من مواد التصدير.

وعلى الرغم من أن ألمانيا الشرقية تحتل وضعا مركزيا بالنسبة للمواصلات ، تعرضت شبكة مواصلاتها للتمزق إثر تقسيم الرايخ ونزع المصانع بغرض التعويض ، ومن ثم كان إعادة بناء الطرق ووسائل المواصلات الأخرى محاولة للتكيف على الوضع الجغرافى الجديد اذ يتركز نقل البضائع فى حوض السال والألب وساكسونيا والخطوط المجاورة لدول الكوميكون ، كما سعت الدولة إلى اجتذاب حركة النقل من تشيكوسلوفاكيا ومنطقة الدانوب إلى مينائها روستك منافسة بذلك الموانىء البولندية ، وفقدت القناة الوسطى وممر الألب المائى أهميتهما كشرايين نقل نسبة لأن الحدود بين الألمانيتين تقطعها . ولكن ألمانيا الشرقية تفتخر باكثف شبكة طرق فى أوروبا الشرقية ومن ضمنها العديد من الطرق الرئيسية التى تم توسعتها ومدها وربطها ببعض الفروع . ورغم ذلك ما زال النقل البرى (على الطرق) محدودا . ويمثل أهم مشروع نقل الآن خطة لبناء سكك حديدية ذات سعة عالية وكذلك انشاء طريق رئيسى وحفر قنال يربط منطقة برلين وميناء روستوك ، وقد أدى تمزق شبكة المواصلات بأنواعها بسبب عزل مدينة برلين إلى بناء سكة حديد وطرق وقناة تحويلية بتكلفة باهظة .

بعد التضخم السكانى الذى شهدته ألمانيا الشرقية من جراء تدفق المهاجرين والمطرودين بعد الحرب مباشرة أدى تطبيق النظام الاقتصادى السوفيتى (الاشتراكى) وتحويل المجتمع إلى مجتمع اشتراكى إلى هجرة أخرى إلى خارج

البلاد – إلى ألمانيا الاتحادية . ونسبة لأن معظم هؤلاء المهاجرين كانوا شبابا فقد عانت ألمانيا الشرقية من نقص كبير فى الأيدى العاملة والى خلل كبير فى التوازن الديمقراطى للسكان ، إذ بقى بها العجائز والنساء . وفى ظل النظام الماركسى – اللينينى لم تجد هجرة العمال غير الألمانيين قبولا لدى السلطات مما أدى إلى تعويق وتأخير التقدم الاقتصادى .

وعلى الرغم من أن النظام الشيوعى يركز على أهمية المدينة فإن نسبة التحضر كانت عالية حتى قبل الحرب ولذلك فإن ألمانيا الديمقراطية لم تشهد تلك الزيادة الكبيرة التى طرأت على سكان المدن فى باقى دول أوروبا . فقد أعطيت الأولوية بعد الحرب لتركيز الصناعات فى المدن الصغيرة والمتوسطة الحجم بدلا من إعادة بناء المدن الكبيرة التى تعرضت للتدمير والخراب أثناء الحرب ، وساعد ذلك فى مساواة مستوى المعيشة بين المدينة والريف عن طريق تطوير المدن الشمالية الصغيرة صناعيا كما تم بناء مـدن جديدة لتخدم مواقع صناعية جديدة مثل حقل فحم لوزاشيا ووادى الاودر (شتدت – وايزنهوتنشتاد) أو للتوسع فى حوض الألب والساحل (مثل هال – نيوشتادت) لعمال المصانع الكيماوية .

(٤). المجـر :

كان معظم الصناعات المجرية يقع فى الأقاليم التى فقدتها فى عام ١٩١٩ ولذلك لم تستطع الدولة باقتصادها غير المتوازن أن تتقدم اقتصاديا فى الفترة ما بين الحربيـن العالميتين . ومنذ عام ١٩٤٥ اتبعت الدول سياسة اقتصادية لتصحيح هذا الوضع وتوسيع الصناعة لامتصاص الزيادة السكانية فى الريف . ولكن ما زالت بودابست تسيطر على نصيب الأسد فى توزيع الصناعات وما زالت الزراعة تشغل ٣٠٪ من القوى العاملة . وقبل الحرب كانت الاقطاعات الكبيرة والأطيان تسيطر على الزراعة ، ثم حولت فيما بعد إلى مـزارع جماعية ومزارع دولة على غرار المزارع السوفيتية وإن كان النظام المطبق هنا يتمتع بمرونة كبيرة ومحاولات عدة لتطوير الإنتاج بغرض التجارة والتركيز على تربيـة الماشية وزراعة الفواكه والمحصولات الخاصة بغرض التصدير إلى الأسواق الخارجية . وقد نجحت هذه السياسة الزراعية

لأن محصولات المجر تنضج بعد محصولات منطقة جنوب أوروبا المبكرة وقبل محصولات المناطق الوسطى والشمالية الغربية من القارة ، وعلى الرغم من ذلك فإن صادرات المجر الزراعية قد عانت كبولندة من الحواجز الجمركية التى اقامتها دول السوق المشتركة وفق سياستها الزراعية العامة .

أما من ناحية الموارد الصناعية : فالمجر تمتلك كميات كبيرة من الفحم البنى يصلح بعضه فى الاستخدام فى الصناعات المعدنية لكنها تفتقر إلى فحم البتوميني كما أن الموارد المحلية من الغاز الطبيعى لا تكفى لسد احتياجاتها ولذلك تستورد ما يكفيها من رومانيا . وقامت المجر بتطوير مواردها المحلية من البترول فى جنوب غرب البلاد ولكنها تستلم كميات كبيرة من الاتحاد السوفيتى بواسطة الأنابيب ، كما أن هناك خططًا لتنمية الطاقة الكهرومائية من الدانوب وتيزا . ويتم استغلال بعض خام الحديد والمنغنيز والنحاس ولكن البوكسايت يمثل أهم مورد صناعى ولو أن معالجته مشكلة نظرا للكمية الهائلة من الكهرباء التى يحتاج إليها فى هذه العملية ، وتتم معالجة كميات متزايدة من البوكسايت محليا كما أن هناك ترتيبات لصنعها فى بولندة والاتحاد السوفيتى وألمانيا الديمقراطية حيث الوضع أحسن بالنسبة للطاقة .

وقد أصاب الركود بعض مصانع الحديد المجرية فى الفترة ما بين الحربين إثر انقطاعها من مصدر الحديد الخام من سلوفاكيا . وفى خلال فترة السياسة المركزية فى عهد ستالين تم إنشاء مصنع جديد ضخم يعتمد فى موارده الخام على روسيا وبلغاريا والمستخرجة محليا ، على نهر الدانوب عند مدينة دوناويفاروس Dunaujvaros ، وكان التركيز وفق هذه السياسة على الصناعات الهندسية وخاصة معدات النقل والمعدات الكهربائية وتقع بالقرب من بودابست ، بينما شهدت صناعة النسيج تحديثا فى معداتها ومكناتها كما أن صناعة الادوية من النباتات والأعشاب الطبية لها أهميتها محليا وخارجيا .

تسعى سياسة التخطيط الإقليمى إلى تقليل هيمنة بودابست العاصمة على القطاع الصناعى وتوزيع المصانع إلى مدن الريف حيث الوفرة العمالية ولكن ما زال النطاق الممتد من ميسكولس Miskolc عبر بودابست وحقول البوكسايت فى

باكونى وحتى حقول البترول فى ناجيكانيزا nagykanizia ما زال يشكل أهم نطاق صناعى . وإذا شهد الدانوب تطورا كبيرا فى النقل (مثلا بعد إكمال قناة الدانوب – المين Main) ستحتل المجر موقعا مسيطرا على النهر وستلعب دورا هاما فى الملاحة فيــه . وما زالت الدولة تشكل منطقة عبور مهمة للسكك الحديدية وعلى أى حال ، فإن تطور المجر اقتصاديا ما زال مقيدا بالتوتر السائد فى حدودها مع يوغسلافيا .

(٥) رومانيــا :

على الرغم من التخلف فى نواحى عديدة من القطاعات الاقتصادية تمتلك رومانيا إمكانيات ضخمة على المدى البعيد مما يجعلها أفضل دول جنوب شرق أوروبا وضعا من الناحية الاقتصادية . وقد سعت الحكومة إلى استغلال مواردها المعدنية الكثيرة لتحقيق أفضل نمو صناعى ممكن على حساب مستوى المعيشة العامة . وفى هذه العملية استطاعت أن تتفادى تلك الآثار العنيفة والمضطربة التى مرت بها اقتصاديات الدول المتقدمة . وتعتبر نسبة النمو الصناعى الرومانى من أعلى النسب ليس بين دول الكوميكون فحسب بل فى العالم اجمع . وقد تبعت رومانيا سياسة التصنيع هذه بدون هواده وتحد فى وجه محاولات الكوميكون لتحويلها إلى دولة مصدره للمواد الخام ومواد شبه مصنعه للدول الاعضاء الأكثر تقدما فى مجال الصناعة .

قبل عام ١٩٣٩ كانت رومانيا تحتل الصدارة فى إنتاج البترول الخام فى أوروبا ، ولكنها فقدت هذه المكانة لعجز الإنتاج من مواكبة الاتجاهات العالمية الجديـدة فى هذا المجال . وما زالت حقول البترول الرئيسية تتواجد عند سفوح الكربات بالقرب من بلوشتى Ploiesti . كما تم اكتشاف كميات ضخمة من الغاز الطبيعى فى ترانسيلفانيا التى تحتوى أيضا على إرسابات فحم بكميات ونوعية جيدة فى جنوب غربها ، فى حين أن إرسابات الليجنايت الرئيسية تقع شمال شرق أوراديا Oradea . وقد اثمرت الجهود لاستغلال الطاقة الكهربائية فى الكربات ومن مشروع مشترك مع يوغسلافيا عند البوابة الحديدية على نهر الدانوب ، ومن ثم فإن رومانيا هى اقل دول شرق أوروبا معاناة من مشاكل الطاقة وازماتها .

تمتلك رومانيا أنواعا من المواد المعدنية : خام الحديد فى جنوب غرب البلاد ولكن الكمية لا تكفى لسد احتياجات البلاد ولذلك تستورد كميات منه ، والمنغنيز فى الشمال ، ويوجد بعض الكروم والبوكسايت كما توجد معادن مهمة مثل النحاس والرصاص والزنك ، وكذلك الفضة والذهب التى تعتبر رومانيا أكبر منتج لها فى أوروبا . ويتركز إنتاج المعادن غير الحديدية فى هضبة بيهور Bihor Massif كما توجد كميات كبيرة من مادة البايرايت والأملاح .

شهدت صناعة الحديد والصلب توسعا كبيرا فى منطقة ريشتيا - هونيدوارا Resita-Hunedoara كما أن هناك عدة مراكز تتخصص فى إنتاج الصلب . وقد عارضت منظمة الكوميكون خطة لبناء مصانع متكاملة ضخمة تعتمد على خام الحديد المستورد فى Galati لان تشكوسلوفاكيا وبولندا ترغبان فى أن تتم أى توسعة فى هذه الصناعة فى أو بالقرب من مناطقها الصناعية . وقد حدث توسع فى معالجة وتصنيع المعادن غير الحديدية ومركزها الرئيسى فى بايا مارى Baia mare ، وينتج الألمونيوم فى سلاتينا فى إقليم أرجش Arges .

أما الصناعة الكيماوية فقد ارتكزت فى نهضتها ونموها على المواد الخام المتوفرة محليا . وعلى الرغم من التركيز على إنتاج الأسمدة الاصطناعية فقد اهتمت الدولة أيضا بتطوير صناعة الألياف الصناعية والأدوية والمواد الكيماوية المستخدمة فى الصناعات الثقيله . وتتركز البتروكيماويات عند حقول البترول فى إقليم بولشتى ، وقد تصبح رومانيا فى المدى البعيد الممول الرئيسى للكيماويات للمعسكر الاشتراكى .

وكان تطور الصناعات الهندسية مقرونا بهذه النهضة الصناعية ، وتتخصص رومانيا فى إنتاج معدات الصناعة البترولية كما استفادت من تصاريح الشركات الغربية فى إنتاج مكنات الديزل والمعدات المماثلة ، وهى من اكبر الدول الشرقية فى إنتاج عربات السكك الحديدية مع بولنده . كما تلقى صناعة المعدات الزراعية وآلاتها اهتماما كبيرا . وتتركز الصناعات الهندسية فى المدن الكبيرة ، وتمثل احد القطاعات التى فاق النجاح فيها توقعات الكوميكون : فمهندسو البترول الرومانيون هم الذين ساعدوا فى تطوير إنتاج البترول فى دول الكوميكون الأخرى مثل ألمانيا الشرقية وبلغاريا ودول العالم الثالث مثل أفغانستان والهند .

وعلى الرغم من التصنيع الضخم فما زالت الزراعة تشغل حوالى نصف سكان رومانيا ، وقد تم تطبيق نظام المزارع الجماعية بتدرج وبطء لئلا يؤدى الإسراع فى ذلك إلى إحداث اضطراب فى الإنتاج الزراعى الذى شهد ارتفاعا متواضعا . وعلى الرغم من ملاءمة التربة والمناخ الزراعى فهناك عوامل تاريخية تضافرت فى تخلف الزراعة وفى خلق مجتمع لم يساعد فى تقدم الفلاحين ونهضتهم . وتتمثل المشاكل التى كان لابد من التغلب عليها لتحديث الزراعة فى التضخم السكانى فى الريف والفقر وسوء التغذية بينما كانت هناك مشاكل أخرى تتعلق بالمناطق الشاسعة التى كانت تخضع لاستغلال الرعاة الجبليين . ورغم هذة المشاكل استطاعت رومانيا من إنتاج فائض للتصدير وحتى إعانة روسيا بالحبوب عندما فشلت محاصيلها . وتشكل المواد الغذائية نحو نصف صادرات الدولة ، ومع ذلك هناك حاجة إلى زيادة الإنتاج بالانتقال من وسائل الإنتاج المتوسع (ومن ضمنها زراعة الحبوب) إلى أشكال أكثر تكثيفا ، وتساعد البيئة مثل هذا الاتجاه من ناحية المناخ والتربة .

أدى التحول من اقتصاد زراعى إلى وضع أكثر توازنا بين الزراعة والصناعة إلى تعديل كبير فى النمط المكانى للدولة – أى توزيع مناطق النمو . وقد أحرز ذلك بنشر أو تشتيت الصناعات وتوزيعها على نطاق واسع ولذا خلت هذه النهضة الصناعية من مثل الهجرات التى تتم من الريف إلى المدينة التى تصاحب مثل هذه التطورات . وكانت النتيجة ان مدن الريف الصغيرة شهدت نموا أكثر من المدن الكبرى على الرغم من أن نصف الإنتاج الصناعى يأتى من خمسة أقاليم رئيسية : بوليشتى هونيدوارا وبنات وبراشوف وبوخارست . وقد تطلب تشتيت الصناعة استثمارا ضخما فى مجالات مثل موارد الماء وتوزيع الكهرباء ووسائل النقل فى المناطق الريفية قبل اقامة المصانع ، كما أن تجهيز كوادر فنية مدربة ونشر الوسائل التعليمية كان مكلفا للغاية . أما الاستثمار فى مجال النقل فكان موجها لرفع قدرة السكك الحديدية فى نقل البضائع المصنعة ولربط أجزاء الدولة مع بعضها عبر حاجز الكربات الشرقية . أما طرق النقل البرية فقد لعبت دورا ثانويا رغم الاهتمام بالملاحة فى الدانوب ورفع سعة الموانئ (كونستانتا وبريلا وغلاتى) .

(٦) بلغاريا :

. كانت بلغاريا وحتى وقت قريب إحدى أقل أجزاء أوروبا تطورا رغم مالديها من إمكانيات للتطور والنمو . فهناك إرسابات الفحم والليجنايت فى أواسط البلاد وغربها كما تم العثور على بعض البترول والغاز الطبيعى فى الشمال . وتوجد كميات من خام الحديد والمنغنيز والكرومايت والموليبد نم والنحاس والرصاص والزنك ، وكلها معادن تحتاج إليها منظمة الكوميكون ، واستثمرت أموال ضخمة لتوليد الطاقة الكهربائية المائية ولكن عملية التصنيع التى أعطتها الدولة كل اهتمامها تعثرت نسبة للنقص فى الكوادر المدربة والأيدى العاملة المهرة ومن ثم اعتمدت على منح التدريب التى قدمها أعضاء الكوميكون .

أولت خطة التصنيع فى مراحلها الأولى اهتمامها للصناعات الثقيله ، ومن ثم بنيت مصانع كبيرة لإنتاج الحديد والصلب فى مدينتى بيرنك pernik وكرميكوفتسى Kermikovtsi تعتمد على خام الحديد المحلى وفحم الكوك المستورد (بعض منه) ، كما أن تجهيز المعادن غير الحديدية وخاصة النحـاس والرصاص والزنك الألكتروليتى لاتقل أهمية من الحديد والصلب ، وتشكل صفائح النحاس جزءا هاما من صادرات البلاد . ويبلغ عدد المشتغلين فى الصناعـة الهندسية اليوم حوالى مجموع عمال الصناعة قبل عام ١٩٣٩ ويأتى معظم الانتاج من منطقة صوفيا . وتشكل معدات النقل والآلات الزراعية (خاصة المكنات) أهم موارد إنتاج هذة الصناعة . وتصدر رومانيا شاحنات ذات الرافعة المشعبـة Forklifts إلى انجلتره ، وبمساعدة المانيا الديمقراطية استغلت المواد الخام المحلية لتطوير الصناعة الكماوية الثقيلة وخاصة الأسمدة والكيماويات الزراعية كما تم تطوير البتروكيماويات عند مصنى بيرغاس Burgas من البترول المستورد من روسيا والجزائر بينما يوجد مصنع الياف صناعية فى جامبول ، وما زالت الصناعات الحرفية التقليدية والصناعات المرتبطة بها مثل النسيج ذات أهمية فى الاقتصاد القومى .

تشكل المواد المشتقة من الزراعة أكثر من ثلث صادرات بلغاريا كما أن ما يقرب من ثلث الإنتاج الصناعى يأتى من المصانع التى تتخصص فى صنع المواد الغذائية .

وعلى عكس ما حدث فى بعض أقطار الكوميكون حيث تم تقسيم الأطيان الشاسعة إلى مزارع أصغر حجما . نجح الإصلاح الزراعى البلغارى فى تقليل عدد المزارع الصغيرة وتحويلها إلى مزارع جماعية متوسطة الحجم صاحبت بدايتها أعمال تحسينية مثل إنشاء خزانات للرى وتوليد الطاقة الكهربائية خاصة فى المناطق الجبلية . فالرى له أهمية كبرى هنا خاصة فى فصل الصيف الذى يتسم بالجفاف الذى يمثل أهم مشكلة تواجه الزراعة ويعوق تقدمها . وعلى الرغم من احتفاظ الدولة بنظام المزارع الجماعية (والتى أصبحت حاليا مرتبطة بمصانع إنتاج المواد الغذائية) فإن سجل الإنتاج الزراعى يوضح عائدا أكبر مما نجد فى دول أوروبا الشرقية . وقد يرجع السبب لهذا التفوق فى مجال صناعة المواد الغذائية الى قدرة بلغاريا فى زراعة محصولات لا يمكن إنتاجها فى شرق أوروبا . ومن ثم قد تصبح هذه الدولة مصدرا رئيسيا للمعسكر الشرقى لأنواع عديدة من الخضروات والفواكه والتبغ وكذلك بعض المحصولات الخاصة مثل عطر الورد أو زيته Attor of voses

(٧) ألبانيـا :

شهدت ألبانيا التى كانت حتى عام ١٩٤٥ أكثر دول أوروبا تأخرا وتخلفا . فى ظل حكومتها الحالية تطورا ونموا كان أساسه يقوم على الصناعات التى أنشأتها إيطاليا قبل الحرب . وكعضوة فى منظمة الكوميكون كان إسهامها الأساسى لها يتمثل فى ثروتها المعدنية : الكروم وخام الحديد والنيكل والنحاس والأسفلت كما يشكل البترول والغاز الطبيعى وبعض إرسابات الفحم مصادر الطاقة فى البلاد ، وقد تم استغلال هذه الثروات المعدنية فى الخمسينات بمساعدة دول اكثر تقدما وخاصة تشكوسلوفاكيا ، وبدأ فى الصناعات الهندسية البسيطة والنسيج والمواد الغذائية كما بدأت محاولات خلال فترة الأتوقراطية لتطوير صناعة الحديد والصلب ، ولكن كانت سوء وسائل النقل والمواصلات عائقا للتطور ولذلك ركزت الجهود فى بناء الطرق والسكك الحديدية ، كما أن هناك خطة لربط سككها الحديدية مع الخط اليوغسلافى الذى يربط بين بلغراد وبار . ونظرا لمعدل النمو السكانى المرتفع (أعلا معدل فى أوروبا) فإن من المشكوك فيه أن يواكب التقدم الاقتصادى هذا التضخم

السكانى . وقد فقدت روسيا وضعا مناسبا بالنسبة ليوغسلافيا المنشقة ومدخلا للبحر الادرياتى اثر تحول البانيا إلى المعسكر الصينى .

(٨) يوغسلافيــا :

منذ أن نشب الخلاف السياسى بينها وبين الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٤٨ ، أصبحت يوغسلافيا الدولة المتماسكـة فى المعسكر الاشتراكى . وقد كان وضعها من الناحية السياسية – الجغرافية أقوى لتختلف وتناقش المواضيع السياسية من بقيـة الدول الاشتراكية الأخرى . إذ ساعدها تضرسها وكون أقل من نصف حدودها يقع داخل المعسكر السوفيتى فى أن تكون بعيدة وفى منأى من ضغط مباشر . وقد اثرت علاقتها المتكافئة بين الشرق والغرب فى تطور وتبلور نمطها المكانى الداخلى . ومع أنها لا تنتمى إلى منظمة الكوميكون فقد تبعت السياســة اليوغسلافية أهدافا مماثلة · التصنيع السريع والتحضر والتوفيق بين أقاليمها المختلفة فى مجال التطور والإنماء .

تعتبر يوغسلافيا أكثر دول شرق أوروبا غنى فى الثروة المعدنية كما أنها من الدول الأوروبية الرئيسية فى إنتاج المعادن غير الحديدية ، ويوجد بها خام الحديد والكروم والمنغنيز والتنجستن وكذلك الرصاص والزنك والزئبق والنحاس ، كما أن هناك إرسابات البوكسايت التى يمكن استغلالها مستقبلا ، وكذلك الذهب والفضة واليورنيوم . أما مصادر الطاقة فتوجد بكميات معقولة وتشمل الفحم والليجنايت والغاز الطبيعى والبترول . وهكـــــذا تكون هذه الموارد الطبيعية قاعدة طيبة للتصنيع مع أن صناعة الحديد والصلب تتطلب استيراد فحم الكوك من الخارج ، ومنذ البداية اتجه التصنيع نحو الصناعات الثقيلة التى تعتمد على الموارد المحلية ، وقد تم إنشاء مصانع جديدة لصناعة الحديد والصلب بالإضافة إلى مصانع الحديد الصغيرة فى الشمال ، فى زنيكا Zenica فى بوزنيا وأسكوبجى Skopje فى مقدونيا ، كما تم تحديث وتطوير صناعة المعادن غير الحديدية

أما الصناعات الهندسية فقد تطورت فى مدن الشمال الصناعية وبلغراد أكثر من باقى أجزاء الدولة ، بينما ازدهرت صناعة السفن على الساحل فى رايبكـا والموانئ الإيطالية السابقة . وتصدر الدراجات والدراجات البخارية كما توجد صناعة تجميع

للعربات الغربية . مثل عربات فيات فى كرافيفاك Kragujevac فى الصرب . وأنشأت أيضا مصانع لإنتاج الأدوات الكهربائية يتم فيها تجميع معدات بتصريح من شركات اوروبية غربية وتنتج التلفزيونات والراديوهات فى نيش Nis .

أما الصناعات الكيماوية فتعتمد على الموارد المحلية ويقع معظم المصانع فى الشمال وتنتج الكيماويات الصناعية مثل منتجات الصودا وحامض الكبريت وكذلك الاسمدة الزراعية . وقد استغلت يوغسلافيا المواد الجيرية التى تغطى مناطق شاسعة فى صناعة الأسمنت وتصدر كميات منها إلى دول حوض البحر الأبيض المتوسط ، وتلقى منتجاتها الحرفية والمواد الاستهلاكية أسواقا فى غرب أوروبا (مثل الصناعات الجلدية) .

نظرا للمساحة الشاسعة التى تغطيها التربات الفقيرة والاراضى غير الصالحة للزراعة تشكل الزراعة اكبر مشكلة اقتصادية فى يوغسلافيا وخاصة لانها تمثل مصدر دخل لنسبة عالية من السكان وخاصة فى المناطق الفقيرة . توجد المنطقة الزراعية الرئيسية فى منخفضات نهرى سافا ودرافا Drava وبين نهرى الدانوب وتيزا Tisza ، فى حين تسود حرفة الرعى ؛ بعض الزراعة (فى المواضع الصالحة) فى المناطق المتضرسة التى تعانى أجزاء منها من آثار الرعى الجائر . وقد رفضت الدولة تطبيق نظام المزارع الجماعية (من نقاط الاختلاف مع الروس) لأسباب عملية وترك المزارعون يفلحون أرضهم ، ولكن الحكومة تشجعهم للدخول فى الجمعيات التعاونية . أما القطاع الاشتراكى من الزراعة فيتميز بإنتاجيتها الوفيرة ليس لأن التجميع سبب مباشر فى ذلك بل لأنها تحتل أخصب المناطق (التى أخلتها فلول الألمان الهاربين فى ١٩٤٥) فى إقليم فيوفودينا Vojvodina . وقد تم ربط تربية الخنازير التقليدية فى مزارع الحبوب وكذلك المناطق المرتفعة المنتجة إلى صناعة تعليب اللحوم التى تصدر كميات كبيرة منها إلى الخارج ، خاصة غرب أوروبا .

وكغيرها من دول البلقان اهتمت يوغسلافيا بتكملة وتحديث شبكة السكك الحديديه ، وقد تم فى هذا الصدد إنجاز واحد من اكبر مشروعات السكك الحديدية فى أوروبا وهو خط بلغراد – بار مما أتاح لإقليم الصرب مخرجا مباشرا للبحر

الادرياتى . وعلى عكس دول الكوميكون اولت يوغسلافيا اهتماما كبيرا لبناء الطرق لجذب السواح من دول غرب أوروبا للساحل الادرياتى واليونان كما اهتمت بتطوير موانئها الادرياتية لخدمة مناطق الدانوب الداحلية وتنافس بذلك موانىء بولندة وألمانيا الشرقية على بحر البلطيق ولكن ما زالت جبال الألب الدينارية تعانى من فقر المواصلات عبرها .

ويعظم التباين فى التطور الاقتصادى بين شمال وجنوب يوغسلافيا بالمقارنة مع التباينات الإقليمية فى بلغاريا ورومانيا ، وتمتد مناطق التخلف عبر الأجزاء الوسطى والجنوبية من الدولة وتغطى ٤٠٪ من المساحة الإجمالية ، وتشمل ٣٠٪ من السكان . وتتميز هذه المناطق بسيادة الزراعة فيها وبارتفاع معدل الزيادة الطبيعية بين سكانها ، ويعنى استثمار أموال ضخمة لتطوير هذه المناطق المتخلفة تحويل هذه الأموال إلى مناطق اقل انتاجا وحرمان الأجزاء المناسبة ذات الإنتاجية العالية والتى تمول هذه المناطق الفقيرة بما تحتاج إليها من مواد التنمية . وكانت النتيجة أن المناطق الملائمة أظهرت نموا بطئيا وتعانى من التضخم والمشاكل السياسية المترتبة على ذلك .

بدأت آثار السياسات الاقتصادية التى تبعتها السوق الاوروبية المشتركة ومنظمة الكوميكون خلال ربع قرن تظهر فى النمط المكانى واللاند سليب الاوروبى ، فالسوق الاوروبية تسعى لتحقيق التكامل فوق القومى اى تجاوز الحـدود القومية supranotionalism ، واهتمت فى إطار هذه السياسة بمناطق الحدود (الهامشيه) الواقعة بين الدول الأعضاء أثر رفع القيود على التحرك والانتقال عبر هذه المناطق . وعلى العكس تبنت منظمة الكوميكون طريقة دولية international ، تدعو ظاهريا لحماية السيادة القومية ومن ثم حماية المكونات المكانية القومية وما يتطلبة ذلك من انتقال بطىء لرؤوس الأموال والموارد والعمال . وعلى الرغم من ذلك فقد بدأت تركيبات مكانية جديدة فى الظهور نتيجة التصنيع والتحضر الذى حدث فى شرق أوروبا وأثر تبنى سياسات الغرض منها تحقيق المساواة فى مجال التطور الإقليمى بين دولها . ويتوقع أن يحدث تغيير سريع مع التركيز على

« فوق القوميه » أو تجاوز الحدود القومية والذى يسعى إلى الاسراع فى بناء مصانع متطورة حتى يتحقق الانتاج الأمثل . وفى الحقيقة لم تخل منظمة الكوميكون من عنصر « فوق القومية » منذ إنشائها نظرا للتباين فى الموارد ونوع العلاقة بين الاتحاد السوفيتى وشركائها ، فقد كان لاحتياجات الاتحاد السوفيتى اثر كبير فى تكييف أنماط التجارة وحتى التطور الاقتصادى داخل الدول الأعضاء . وكان النفوذ السوفيتى يسعى لعدم تحقيق أى تجمع إقليمى فى شرق أوروبا إلى درجة أن مفاهيم وافكار مثل « دانوبيا Danubia و « البلقان » بمعناها الجغرافى السياسى والاقتصادى لم تعد لها أهمية تذكر الآن .

الفصل الرابع عشر

المشكلة الإقليمية فى أوروبا

شهدت فترة العشرين سنة الأخيرة اهتماما كبيرا من قبل علماء الاقتصاد والتخطيط والجغرافيا والسياسيين بالتباين والاختلاف الاقتصادى بين أقاليم أوروبا – خاصة الجزء الغربى منها . فهناك أقاليم غنية متطورة تحتوى على مدن وصناعات نامية بينما تتميز أقاليم أخرى بالتخلف الاقتصادى وما يترتب على ذلك من آثار مثل العطالة والأجور المنخفضة وفقدان الوظائف فى الصناعات العتيقة (مثل الزراعة واستخراج الفحم) وهجرة خارجية متواصلة إلى الأقاليم الغنية حيث فرص العمل مواتية لتحسين المستوى المعيشى . وتشكل العوامل الاقتصادية أساس هذا التفاوت ولكن هناك أيضا عوامل بشرية تلعب دورها مثل المساكن الفقيرة والتسهيلات التعليمية غير الكافية وغيرها .

فالجغرافى يهتم بدراسة النواحى المكانية للتباينات الإقليمية وذلك عن طريق التحرى عن العوامل الاقتصادية والاجتماعية التى تشكل إما السبب أو النتيجة للتقدم الإقليمى أو تخلفه . أما المخططون فهم يهتمون بالبحث عن الحلول العملية للتباينات الإقليمية فى فرص العمل والإسكان ومجالات أخرى عديدة بينما تنصب اهتمامات السياسيين فى توفير حياة معقولة لناخبيهم .

وفى هذا الفصل سنركز فى دراستنا عن المشكلات الإقليمية على غربى أوروبا لأسباب منها :

(١) لأن حدة التباين بين المناطق المتقدمة والمناطق المتخلفة تظهر واضحة فى هذه البلاد .

(٢) لأن حكومات هذه البلاد ، وخاصة أعضاء السوق المشتركة تولى

اهتماما كبيرا لهذا الموضوع وتخطط بجدية لتخفيف حدة التباينات الإقليمية داخل بلادها .

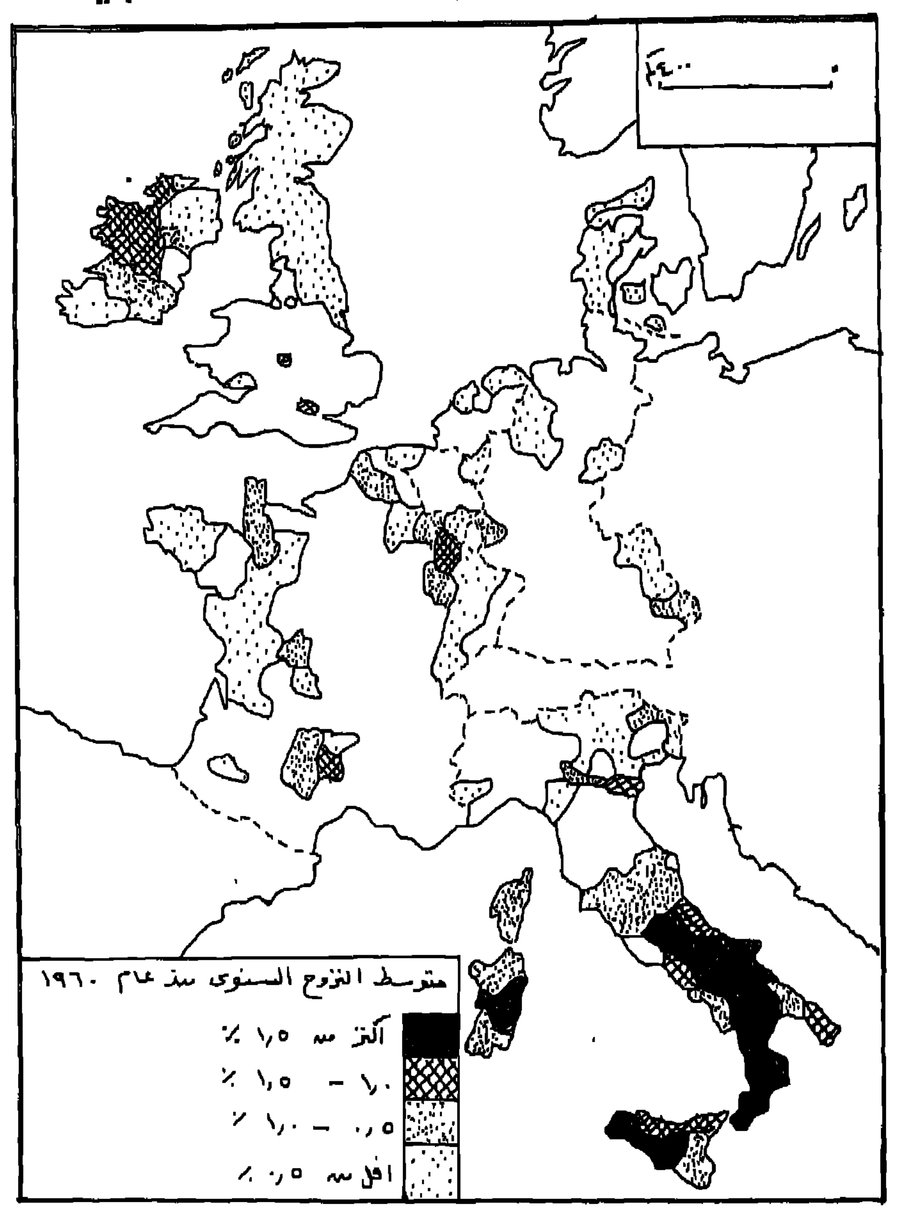
لم تنج دولة من دول غربي أوروبا من ويلات الحرب العالمية الثانية وآثارها المدمرة ، فقد تمزقت اقتصاديات الدول ودمرت المنازل والمصانع وخربت الموانئ وطرق المواصلات وبعد الحرب مباشرة انشغلت الدول بإعادة بناء اقتصادياتها المنهارة وإعادة قطاعاتها المختلفة للإنتاج من جديد ، وفى عملية تنفيذ هـذه السياسة ركزت الحكومات استثماراتها فى المناطق ذات الإمكانيات المواتية ، ولهذا فقد شعرت الحكومات منذ أوائل الخمسينات بأن الثروة القومية ليست موزعة توزيعا متساويا بين أقاليم الدولة . وعند توقيع معاهدة روما فى عام ١٩٥٧ (والتى بموجبها جاءت السوق الاوروبية المشتركة إلى الوجود) كانت الأجزاء الغربية من فرنسا وكذلك جنوبى إيطاليا تظهر تباينا حادا بالمقارنة مع نطاق النمو الاقتصادى الذى يشمل شمال فرنسا ودول بنلكلس وإقليم الراين الألمانى .

وهكذا تتكون أوروبا الغربية من منطقتين متباينتين : منطقة صناعيـة متقدمة تمثل « القلب » الصناعى الأوروبى ، ومنطقة أخرى عبارة عن مجموعة من مناطق متخلفة (مناطق مشاكل أو معاناة Problem areas) على حدود أو هامش المنطقة الأولى . ويظهر هذا التناقض بين المنطقتين بوضوح وخاصة فى السبعينات عندما ترسم مؤشرات اجتماعية واقتصادية مثل التغيير السكانى ومستوى الدخل والعطالة ، على مستوى الأقاليم . وفعلا هذه هى المؤشرات أو المعايير التى استخدمها خبراء السوق المشتركة فى عام ١٩٧٢ فى محاولتهم لإيجاد سياسة إقليمية مشتركة لاعضائها التسعة . وهنا سنحاول التطرق لهذه المؤشرات بشىء من التفصيل .

(١) التغيير السكانى : (الشكل ٧٢)

تشير الزيادة فى نسبة المواليد على نسبة الوفيات التى حدثت فى أجزاء عديدة من أوروبا الغربية إلى حدوث نمو سكانى فى الفترة ما بين عامى ١٩٥٠

شكل ٧٣ . مناطق التزوج المتواصل فى اوروبا الغربية



و ١٩٧٠ ، وقد استمر هذا النمط فى السبعينات على الرغم من انخفاض كبير فى معدل النمو الطبيعى . وفى الخمسينات بقيت معدلات المواليد عالية فى أجزاء عديدة من المنطقة كما حدثت هجرات داخلية هامة من المناطق الفقيرة إلى المناطق ذات الوفرة وغالبا ما كانت هذه الهجرات تتكون من أفراد أو عائلات تبحث لنفسها حياة أفضل . وقد فقدت بعض المناطق الريفية الفقيرة مثل الهضبة الوسطى الفرنسية وأجزاء من إيطاليا والمرتفعات الاسكتلندية وجمهورية أيرلنده أعدادا ضخمة من سكانها لأن الهجرة الخارجية كانت أكثر من الزيادة الطبيعية (شكل ٧٢) .

حدثت أكبر معدلات النمو السكانى فى المناطق التى شهدت تطابقا بين زيادة معدل المواليد على الوفيات وهجرات وافدة كما فى باريس وإقليم اللورين وجنوب شرقى فرنسا وهولنده ومنطقة الراين الألمانية وجنوب شرقى إنجلتره وبعض أجزاء إيطاليا الشمالية . وتتميز هذه المناطق بغناها النسبى وتحضرها (كثرة المدن فيها) ولكن هذا النمو السكانى لم يقتصر على هذه المناطق فقط . فقد شهدت بعض المناطق الريفية الفقيرة نموا مماثلا نتيجة معدلات عالية فى الزيادة الطبيعية للسكان مثل كورسيكا وسردينيا وأجزاء من إيطاليا الشمالية . وقد نتج من ذلك مشاكل العطالة لقلة الوظائف والمصانع لاستيعاب الأعداد الضخمة من الشبان الذين ظهروا فى سوق العمالة أو العمال الزراعيين الذين أخذوا يتركون الزراعة بحثا عن وظائف أفضل فى المدن .

واستمرت المناطق الهامشية فى فقدان أعداد كبيرة من سكانها المهاجرين فى الستينات ، وكانت ايطاليا الجنوبية من أكثر المناطق التى عانت من الهجرة إذ فقدت أجزاء منها ما يزيد من ١٫٥٪ من سكانها فى عام ١٩٦٠ سنويا فى الفترة ما بين ١٩٦٠ و ١٩٧٠ ، وشهدت إسكتلنده وجمهورية أيرلنده فقدانا مماثلا عن طريق الهجرة إلى الخارج ، كما أن هناك مناطق ذات الزراعة المختلفة مثل الهضبة الوسطى الفرنسية ومناطق الحدود الألمانية عانت أيضا من الهجرات شرية .

(٢) مستوى الدخل : (الشكل ٧٣)

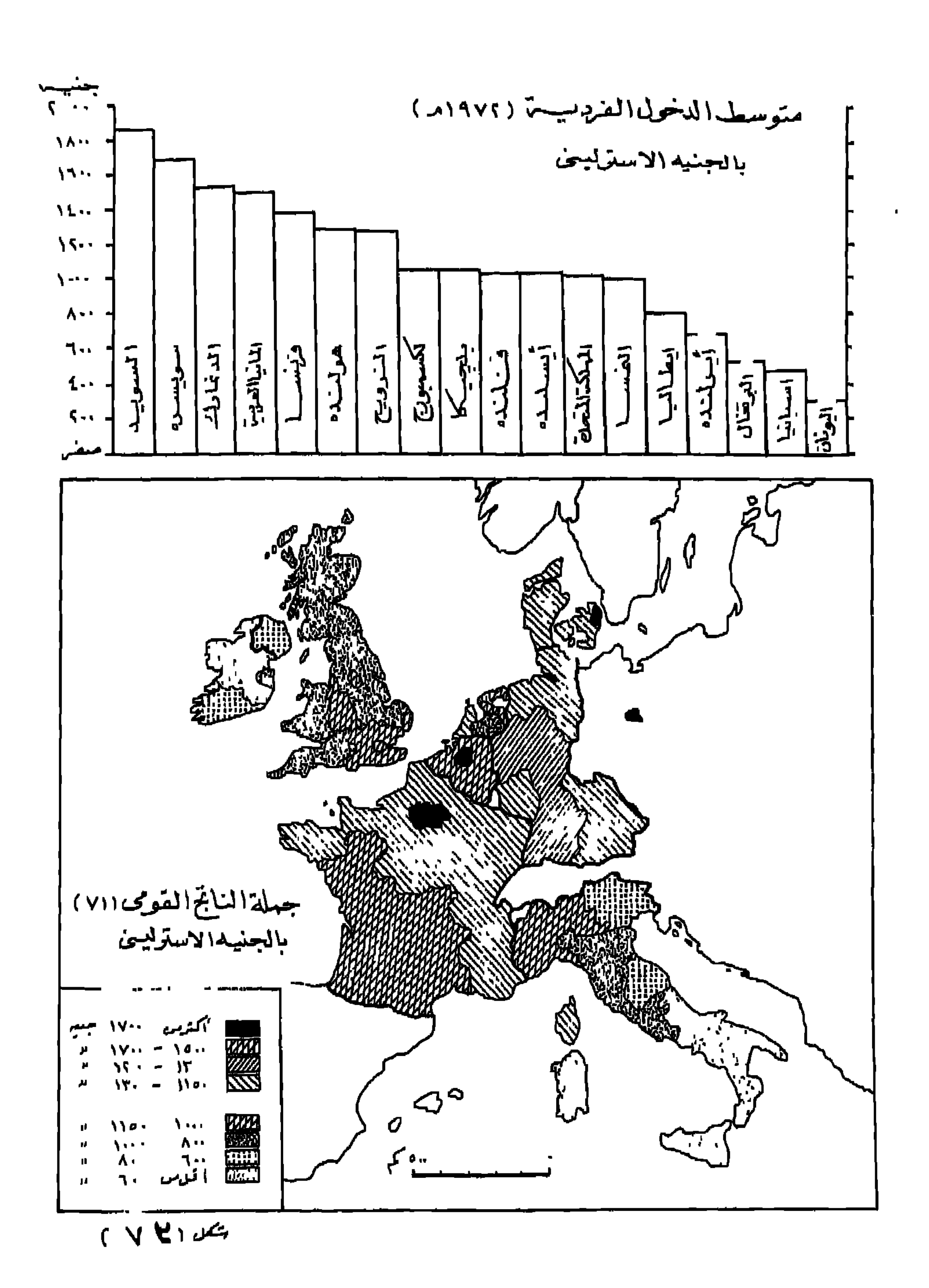
يظهر الاختلاف فى الدخل بين الدول وبين الأقاليم فى أوروبا الغربية بوضوح تام مدى الاختلاف والتفاوت فى التطور الاقتصادى : وتحتل السويد الصدارة كأغنى دولة وتتبعها سويسره ثم الدنمارك والمانيا الغربية وفرنسا . وتأتى المملكة المتحدة فى المرتبة الثانية عشرة قبل النمسا وإيطاليا وجمهورية أيرلنده واليونـــان وأسبانيا والبرتغال . وتقف كتلة غنية من دول اسكندناوه وسويسرة وألمانيا الغربية وفرنسا فى تناقض تام مع دول البحر المتوسط الفقيرة وبين طرف النقيض يوجد باقى دول السوق المشتركة .

أما على المستوى الإقليمى تمثل باريس وهامبورج وكوبنهاجن أغنى أجزاء أوروبا الغربية (إذ وصل الدخل القومى الكلى للفرد إلى ١٧٠٠ جنيه استرلينى) كما أن مناطق أخرى من الدنمارك وألمانيا الغربية والنصف الشرق من فرنسا وصل الدخل الفردى فيها إلى فوق المتوسط . أما أفقر أجزاء الدول التسعة فهى جنوبى إيطاليا ومعظم أجزاء جمهورية أيرلندة إذ وصل الدخل الفردى فى كل منهما إلى أقل من ٦٠٠ جنيه . أما بالنسبة إلى بريطانيا فإن لندن هى المنطقة الوحيدة التى وصل الدخل فيها إلى فوق المتوسط الأوروبى ، وحتى المناطق الجنوبية الشرقية والميدلاندز الغنية نسبيا فإن أرقام الدخل فيها وصل إلى دون المتوسط الأوروبى .

ويظهر من المعلومات المستقاة من الخرائط التى توضح الإنتاج والدخل القومى الكلى أن المناطق الهامشية من أوروبا الغربية فى جمهورية أيرلنده وإيطاليا وبريطانيا هى الجارات الفقيرة لفرنسا ودول البنلكس وألمانيا الغربية والدنمارك التى تمثل « القلب » النابض بالثراء . ويظهر من الشكل الذى يوضح متوسط الدخول الفردية لعام ١٩٧٠ أن الدخول فى أجزاء بريطانيا كلها هى دون المتوسط للسوق الأوروبية الموسعة .

(٣) الاستخدام أو التوظيف : (الشكل ٧٤)

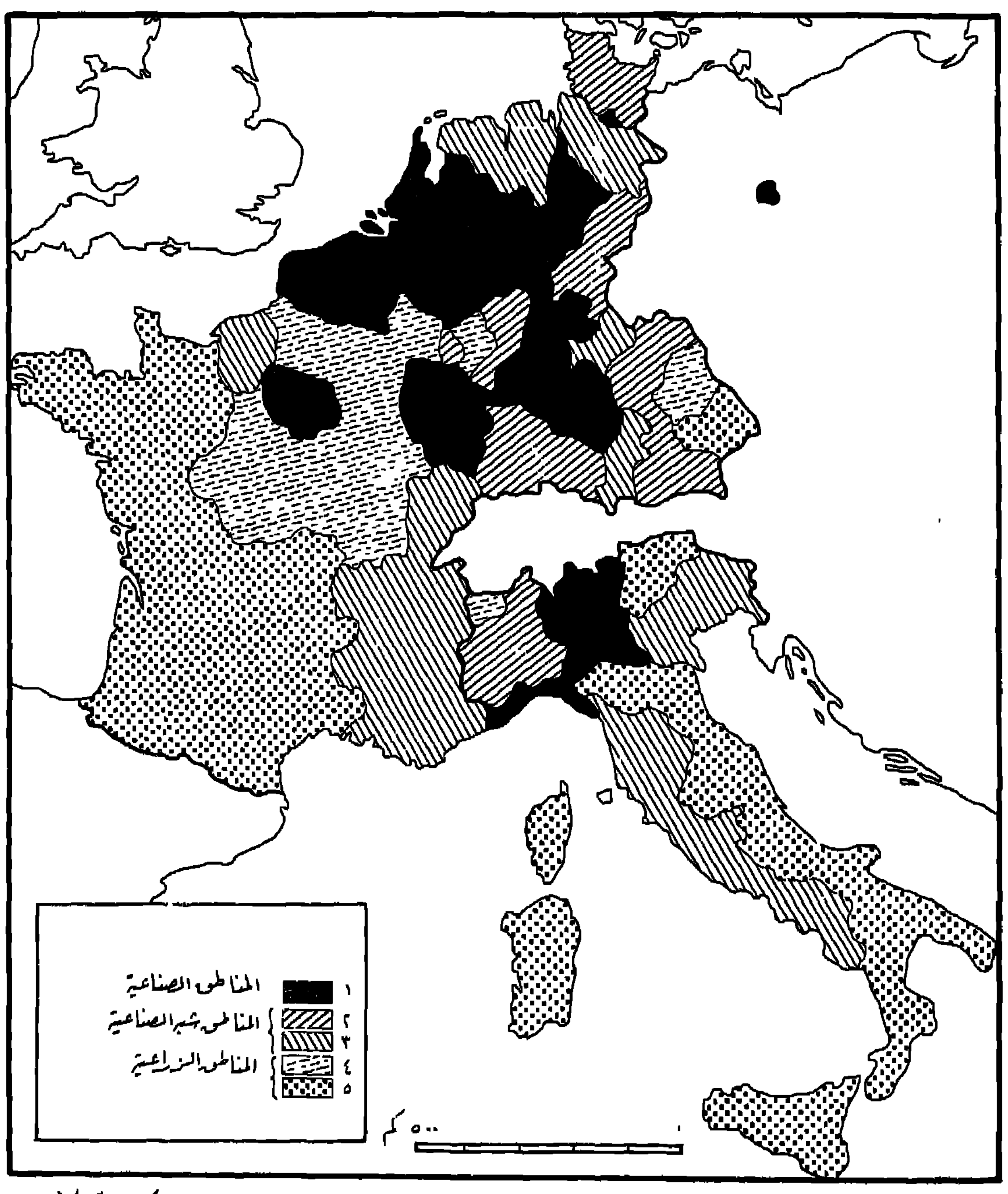
تعطى الاختلافات الإقليمية فى نوعية الاستخدام ونسبة البطالة معلومات



متوسط الدخول الفردية (١٩٧٢م)
بالجنيه الاسترليني
جنيه
٢٠٠٠
١٨٠٠
١٦٠٠
١٤٠٠
١٢٠٠
١٠٠٠
٨٠٠
٦٠٠
٤٠٠
٢٠٠
صفر
السويد
سويسره
الدنمارك
ألمانيا الغربية
فرنسا
هولنده
النرويج
لكسمبورج
بلجيكا
فنلنده
أيسلنده
المملكة المتحدة
النمسا
إيطاليا
أيرلنده
البرتغال
أسبانيا
اليونان
جملة الناتج القومى (٧١)
بالجنيه الاسترليني
أكثر من ١٧٠٠ جنيه
١٥٠٠ - ١٧٠٠ "
١٣ - ١٢٠٠ "
١١٥٠ - ١٣٠ "
١٠٠٠ ١١٥٠ "
٨٠٠ ١٠٠٠ "
٦٠٠ ٨٠ "
أقل من ٦٠ "
٥٠٠ كم

شكل (٧٢)

دول السوق الست : عدد المزارعين والكثافة السكانية فى (١٩٧٢)



شكل (٧)

قيمة عن تحديد وتعريف مناطق التخلف . فنى عام ١٩٧٤ ظهر تقرير مفصل عن الاختلافات الاقليمية فى الدول الستة وبه خرائط ملحقة توضح الكثافات السكانية مع نسبة القوى العاملة فى القطاع الزراعى . ومن هذا التقرير امكن التعرف على خمسة أنواع من الاقاليم يمكن جمعها فى ثلاث مجموعات هى : -

١ - أقاليم صناعية : تحتل فقط ١٦٪ من مساحة أعضاء السوق الستة الأصليين ولكنها تحتوى على خمس مجموع سكانها الذين يعيشون فى كثافات تربو عن ٢٠٠ شخص للكيلو متر المربع كما أن عدد الذين يفلحون الأرض فى هذه الأقاليم يقلون من عشر القوة العاملة . ويقع ثلثا دول البنلكس وثلث ألمانيا الغربية وأقل من عشر فرنسا أو إيطاليا فى نطاق هذه المجموعة . أما فى حالة السوق المشتركة الموسعة فيمكن تصنيف اسكتلنده الوسطى وويلز الجنوبية والجزء الأكبر من إنجلتره ضمن الأقاليم الصناعية .

٢ - الأقاليم شبه صناعية : توجد فى شرق فرنسا وأجزاء من ألمانيا الغربية وشمالى إيطاليا وتغطى ٣٠٪ من مساحة الدول الستة وتحتوى على نسبة مماثلة من سكانها .

٣ - أقاليم زراعية تغطى ٥٤٪ من مساحة الدول الستة ولكنها تحتوى على أقل من ثلاثة أعشار سكانها . ويكون الهامش الزراعى هذا أكثر من ثلثى مساحة فرنسا وأكبر من نصف مساحة إيطاليا .وفى حالة السوق الموسعة تعتبر جمهورية ايرلنده وشمالى اسكتلنده وغربى الدنمارك ضمن نطاق الأقاليم الزراعية الواقعة عند أطراف أوروبا الغربية .

جدول ١٩ : اقاليم الدول السوق المشتركة السته . عمال الزراعة والكثافة السكانية (١٩٧٢) :

		نسبة المزارعين من القوى العاملة	الكثافة السكانية للكيلو متر المربع	النسبة لدول السوق السته المساحة كم ٢	السكان (مليون)
الاقاليم الصناعية	(أ)	صفر ١٠٪	اكثر من ٢٠٠	١٦	٤١
اقاليم شبه صناعية	(ب)	صفر - ١٥٪	اكثر من ١٤٠	٩	١٢ر٥
	(ج)	اكثر من ١٥٪	اقل من ١٥٠	٢١	١٩
اقاليم زراعية	(د)	٢٠ - ٣٠٪	اقل من ١٠٠	١٢	٦
	(هـ)	اكثر من ٣٠٪	اقل من ١٠٠	٤٢	٢١ر٥

وبشكل عام تقل الأجور وينخفض مستوى المعيشة فى المناطق الريفية بالمقارنة مع المدن . وقد شهدت القوى العاملة الزراعية فى الدول الست انخفاضا سريعا من ١٦ر٢٤ مليون فى عام ١٩٥٨ الى ر١١ مليون فى عام ١٩٦٧ والى ٩ر٢ مليون فى عام ١٩٧١ بينما حدثت زياده بطيئة فى عدد الوظائف الصناعية فى نفس الفترة بالمقارنة فى الزيادة السريعة فى مجال الخدمات (الجدول ٢٠) ويمكن أن نعزو الانخفاض فى القوى العاملة الزراعية جزئيا إلى الموت أو تقاعد المزارعين كبار السن . ولكن هناك أيضا أعداد كبيره من الشبان ومتوسطى العمر من المزارعين الذين يهجرون الزراعة بحثا عن وظائف أفضل . وعلى أية حال ما زالت الزراعة تعانى من الاكتظاظ وصغر أحجام الوحدات الزراعية مما يؤثر فى كفاءتها الإنتاجية كما فى أجزاء عديدة من الدول الستة وجمهورية أيرلندة (إذا استثنينا بريطانيا والدنمارك) . ويجد معظم الذين يتركون الأرض طريقهم إلى المدن التى تنتشر فى أرجاء الأقاليم الصناعية وشبه الصناعية . وقلما توجد وظائف بديلة فى المصانع أو الورش والمكاتب بأعداد كافية فى المناطق الريفية لاستيعاب العمال المحليين .

تواجه الأقاليم التى تسود فيها الزراعة نسباً عالية من العطالة المخفية .

جدول ٢٠ : التغيير فى نمط الاستخدام (التوظيف) داخل الدول الستة ١٩٥٠ - ١٩٧١

(النسبة المئوية من مجموع القوة العاملة)

	الزراعة		الصناعة		الخدمات	
	١٩٥٠	١٩٧١	١٩٥٠	١٩٧١	١٩٥٠	١٩٧١
ألمانيا الغربية	٢٢	٨	٤٥	٤٩	٣٣	٤٢
فرنسا	٢٨	١٣	٣٧	٤٠	٣٥	٤٥
ايطاليا	٤٤	١٩	٣٠	٤٣	٢٧	٣٥
هولندة	١٣	٧	٤٠	٣٨	٤٥	٥٤
بلجيكا	١٣	٤	٤٩	٤٤	٣٨	٥٠
لوكسمبرج	٢٦	١٠	٤٠	٤٧	٣٤	٤٣
الدول الستة	٢٩	١٢	٣٨	٤٤	٣٣	٤٢

وقد ظهر من تقرير اعده خبراء من السوق المشتركة فى عام ١٩٧٣ أن معدل العطالة السنوى فى كل جزء من أجزاء إيطاليا الجنوبية أكثر من ٦٪ كما وجدت معدلات مماثلة فى المناطق الهامشية الغربية من جمهورية ايرلنده والمنطقة الزراعية من غربى أيرلندة الشمالية وفى مرتفعات وجزر شمالى أسكتلنده وجتلند الدنماركية حيث تسود الزراعة . وتوجد نسب عطالة عالية نسبيا فى مناطق التعدين والصناعة القديمة فى بريطانيا وجنوبى بلجيكا .

وباستخدام المعلومات التى نستقيها من دراستنا لهذه العناصر الثلاثة ، السكان والدخل والاستخدام يمكننا أن نميز ثلاثة أنواع من الأقاليم الاقتصادية والاجتماعية فى غربى أوروبا هى : -

(١) أقاليم تسود فيها الزراعة وتوجد فى المناطق الهامشية .

(٢) أقاليم مكتظة بالسكان وتسود فيها المدن وتكون المنطقة المركزية .

(٣) مناطق صغيرة نسبيا تتميز بالصناعات القديمة وتوجد أيضا فى المنطقة المركزية .

تشكل المناطق الزراعية أولى الأماكن التى تعانى من المشاكل والتى فى أمس الحاجة إلى المصانع والورش والمكاتب لاستيعاب العمال الذين يتركون الأرض كما أن الزراعة وصيد الأسماك والنشاطات الأخرى تحتاج إلى تحديث فى وسائلها وتكملتها بالسياحة وصور أخرى من الاستخدام . ومثل مناطق المعاناة الزراعية هذه كانت تسود فى الدول الستة ولكن انضمام بريطانيا اليها بمناطق الصناعات القديمة فيها أدى إلى اختلاط فى أنواع مناطق المعاناة داخل السوق .

أما المناطق الصناعية وشبه الصناعية داخل السوق فهى أيضا تتسم بمشاكل خطيرة قد تتفاقم مستقبلا وخاصة عندما يزداد سكان المدن نتيجة الزيادة الطبيعية والهجرة من الأقاليم الريفية بما يؤدى إلى زيادة فى الطلب على المنازل والنقل الجماعى والمدارس والمستشفيات والخدمات الأخرى وتوفير هذه الخدمات سيكون باهظ التكاليف . ومناطق الحضر الضخمة مثل لندن وباريس وراندشتاد هولنده وتورينو وميلانو ومدن الراين الألمانية تمثل مواضع جاذبة اقتصاديا وتغرى بالحياة فيها لما تتميز به من أجور عالية . ولكنها تعانى أيضا من تلوث الهواء والمياه والازدحام والتكدس ومشاكل بيئية أخرى يحط من قدر الحياة ، ورغم ذلك لا تعتبر الحكومات المعنية هذه المدن « مناطق معاناة » لما تتميز بها من حركة وازدهار .

وعلى النقيض من هذه المدن فإن المناطق الصناعية القديمة فى غربى اوروبا قدعانت كثيرا من الكساد منذ الحرب العالمية الثانية وهى تعتبر الآن من « مناطق المعاناة » التى تحتاج إلى مساعدات مالية للنهوض بها . وقد تقلصت أسواق منتجات هذه المناطق أو فقدت نتيجة المنافسة من منتجات المناطق الجديدة أو من مصادر الطاقة الرخيصة الداخلية أو الخارجية . وتمثل صناعة الفحم مثالا جديدا لهذا التدهور : فقدت حقول الفحم ذات التكاليف الباهظة فى الشمال والهضبة الوسطى مكانتها لفحم اللورين حيث تقل تكاليف التعدين . وهذه المنافسة داخل صناعة الفحم تضارعها منافسة مصادر الطاقة الأخرى من محلية

وخارجية ، مثل الغاز الطبيعى والطاقة الكهربائية والنووية التى يتم توليدها فى فرنسا والبترول المستورد من شمال أفريقيا والشرق الأوسط والفحم الرخيص المستورد من الولايات المتحدة والغاز الطبيعى من هولنده والغاز السائل من الجزائر . وقد أدى هذا التنافس إلى إغلاق أحواض الفحم فى الهضبة الوسطى وسينتهى التعدين للفحم فى الشمال فى عام ١٩٨٣ كما هو مقرر ، ولكن قد يؤدى ارتفاع أسعار البترول المتزايد إلى اعادة النظر فى هذا الموضوع وإحياء بعض الحقول فى شمال وشمال شرق فرنسا (جدول ٢١) . ومشكلة توفير وظائف بديلة ليست مقتصرة على مناطق التعدين فقط بل تعانى منها بعض المناطق الصناعية القديمة التى تتخصص فى إنتاج الحديد والصلب والبضائع المعدنية الثقيله والنسيج التقليدى (الصوفية والقطنية) التى كانت تشكل أساس « الثورة الصناعية » والتى تعرضت للركود خلال فترة الكساد فى العشرينات والثلاثينات ومرة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية .

جدول ٢١ : استهلاك الطاقة فى فرنسا ١٩٥١ - ١٩٧٢ (بالنسبة المئوية)

	١٩٥١	١٩٦٠	١٩٧٢
الفحم (الاستهلاك الكلى)	٧٤ر٤	٥٤ر١	١٧ر٨
الفحم الفرنسى	٥٨ر٥	٤٦ر١	١٢ر٠
الفحم المستورد	١٥ر٩	٨ر٠	٥ر٨
البترول	١٧ر٧	٣٠ر١	٦٧ر٣
الغاز الطبيعى	٠ر٤	٣ر٤	٧ر١
الطاقة الكهربائية والنووية	٧ر٥	١٢ر٤	٧ر٨

الأداء التخطيطى فى مناطق المعاناة :

شرعت دول غربى أوروبا فى تحديد وتعريف « مناطق المعاناة » داخل حدودها منذ نهاية الحرب الثانية وقامت بتقديم مساعدات مالية خاصة لهذه المناطق بغرض حمايتها وتلطيف وقع حقائق النمو الاقتصادى الحديث والتى تركزت بصورة متزايدة فى المناطق الغنية ذات الإمكانيات الجيدة . وقد شعر

المخططون بأهمية تحويل بعض من ثروات المناطق الغنية إلى هذه الأقاليم الفقيرة وذلك عن طريق إيجاد الأموال لتشجيع إنشاء المصانع لتوفير الوظائف لسكان هذه الأقاليم . وتختلف أسس ومعايير التحديد الدقيقة لمناطق المعاناة من دولة لأخرى ولكن أشكال الإعانة تختلف وتشمل الإعانات المباشرة والدعم والإعفاء من الضرائب والتى تصنف بطريقة تضمن تقديم أكبر مساعدة لأكثر المناطق معاناة من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية . ومثلا توجد المساعدات المالية فى مناطق المعاناة فى المملكة المتحدة موزعة (من الأكثر إلى الأقل) على النمط الآتى : أيرلنده الشمالية . ثم بنسب أقل لما يسمى « بمناطق التطور الخافية » (مثل نطاقات الصناعات القديمة) ومناطق التطوير « (مثل أسكتلنده وويلز وشمال وجنوب غربى انجلتره) والمناطق المتوسطة أو الغبراء « (مثل شمال إنجلتره) » والمناطق المهملة والمهجورة « (كما فى شمالى الميدلاندز) . ولا توجد مساعدات مالية لجنوب شرق إنجلتره ومنطقة الميدلاندز الغربية . وهذا المثال البريطانى قد يوضح مبدأ التصنيف العام الذى تقوم عليه لمساعدات المالية لأقاليم المعاناة فى باقى أجزاء أوروبا الغربية .

تفتقر الدول الستة عامة إلى سياسة إقليمية مشتركة ولو أن هنالك محاولات لتخطيط سياسة عامة لدول السوق كلها . فمعاهدة روما لم تنص على اتباع سياسة مشتركة فى هذا الصدد بل نادت بسياسات عامة للزراعة والنقل والتجارة ، وعبرت فقط عن رغبة الدول الأعضاء فى تقوية الوحدة الاقتصادية بينها وضمان التطور والنمو المنسق وذلك عن طريق تقليل التفاوت والاختلاف الموجود بين الأقاليم المختلفة والتحرى عن أسباب تخلف المناطق الفقيرة . ومن ثم بدأت كل دولة فى ابتكار إجراءاتها القومية لحل المشاكل الإقليمية من دون تنسيق فيما بينها .

تختلف المناطق التى تحتاج إلى المساعدة المالية فى أحجامها : ففرنسا وإيطاليا قد حددتا أجزاء كبيرة من مساحتيها ضمن هذا النطاق . وهى تكون جزءا كبيرا من الهامش الزراعى للدول الست كما ضمت أجزاء شاسعة من

مناطق المعاناة فى بريطانيا وجمهورية أيرلنده والدول الاسكندناوية وفنلندة ، فى حين شكلت مناطق المعاناة حيزا ضيقا من مساحة دول البنلكس وألمانيا الغربية وهى تطابق إما قطاعات زراعية أو صناعية قديمة أو التخوم .

خصص معظم الدول « مراكز تنمية Development points » لاستثمار المساعدات المالية فيها بغرض إيجاد وظائف جديدة فيها . وقد تم اختيار هذه المراكز للتوسع ليس لتوفير الوظائف للسكان المحليين فحسب بل أيضا لتقديم الخدمات الضرورية للسكان فى المناطق الريفية المجاورة : فقد رؤى أن التقدم فى توفير الخدمات والوظائف المختلفة يمكن إحرازه بصورة أفضل فى التركيز على عدد صغير من المراكز السكنية بدلا من توزيعها فى قرى متناثرة فى الريف .

تطورت السياسات القومية للمساعدة الإقليمية بسرعات مختلفة وبطرق متفاوتة وأحرزت درجات مختلفة من النجاح . وفى سعيها لتوحيد الجهود كونت السوق المشتركة منظمات فوق قومية لمعالجة مواضيع اقتصادية واجتماعية خاصة ، يتركز معظمها فى مناطق المعاناة وهذه المنظمات هى : -

(١) بنك الاستثمار الأوروبى :

الذى تم تأسيسة فى عام ١٩٥٨ لتوفير السلفيات لتساعد فى التطور المتوازن والسلس للسوق المشتركة . وقد تم توفير الأموال لثلاثة مشاريع رئيسية هى :

١ - مساعدة الأقاليم الأقل تطورا .

٢ - لتحديث أو تحويل المصانع للقيام بصور من الإنتاج الحديث ولإدخال أنواع جديدة من الصناعة فى حالة عدم توفر وسائل التمويل .

٣ لمساعدة المشاريع ذات المصلحة المشتركه للدول الأعضاء والتى لا يمكن تمويلها بوسيلة أخرى .

وقد كانت إيطاليا من أكثر الدول التى استفادت من مساعدات البنك المالية إذا حظيت بأكثر من نصف استثمارات البنك خلال عام ١٩٧١ بينما كان نصيب فرنسا حوالى الربع وألمانيا الغربية حوالى الثمن . أما دول البنلكس فقد

كانت أقل الأعضاء استفادة منها ، كما استفادت دول منتسبة مثل اليونان وتركيا وبعض الدول الأفريقية من مساعدات البنك .

خصصت أول مساعدة مالية لمشاريع الطاقة وتطوير الصناعات الأساسية . وقد تغيرت السياسة التمويلية مؤخرا إذ شملت نواحى أخرى بجانب الصناعة مثل الإسكان وتحسين الطرق وتوفير موارد المياه . ومن المشاريع التى استفادت مؤخرا من مساعدات البنك : التنمية الصناعية وخاصة فى جنوبى إيطاليا ، التعاونيات الزراعية فى غربى فرنسا وبناء طرق رئيسية فى بلجيكا وصقلية وشمالى إيطاليا ، وتركيب أنابيب الغاز الطبيعى فى جنوب غربى فرنسا وساكسونيا السفلى ، وتحسين الاتصالات التليفونية فى سردينيا وتدعيم مشاريع الرى فى بروفانس ، وتمويل السلفيات لمؤسسات التنمية الإقليمية مثل « هيئة تطوير الجنوب » العاملة فى جنوبى ايطاليا .

(٢) الصندوق الاجتماعى الأوروبى :

الذى انشئ بغرض تشجيع التسهيلات الوظيفية والتنقل الجغرافى للعمال داخل منظمة السوق المشتركة وهذا الهدف يعترف ضمنا بأن التغيير الاقتصادى يتطلب إعادة تدريب العاطلين من العمال وإعادة توطينهم والمحافظة على مستويات الراتب أثناء فترة الانتقال بين الوظائف . وقد استفاد مايربو عن مليون عامل من هذه المساعدة أكثرهم من الإيطاليين ويدعو بعض الناقدين أن يمنح الصندوق سلطة أوسع لتبدأ مشاريعها الخاصة بدلا من الاكتفاء بتمويل المشاريع التى تخططها الدول الأعضاء . ويتوقع أن تتضخم مهام الصندوق فى ظل التغييرات المتوقعة فى مجال وظائف العمال : فقد ترك أكثر من مليونى مزارع الأرض فى عام ١٩٨٠ للعمل فى المصانع والمكاتب والمحلات التجارية والمكاتب كما يتوقع أن يترك آلاف من العمال وظائفهم فى الصناعات القديمة (تعدين الفحم والنسيج) وأن عاملا من عشرة من عمال السوق سيغير من وظيفته خلال السنين القادمة .

(٣) صندوق الإرشاد والضمان الزراعى الأوروبى :

وهو أيضا يهتم بتقديم المساعدات لمشاريع التنمية الإقليمية وله هدفان :

(١) دعم شراء المنتجات الزراعية عندما تنخفض أسعار السوق دون أسعار التدخل الحكومى .

(٢) المساعدة فى تحسين وتطوير تركيب المزرعة الأوروبية .

وحتى الآن فإن فرنسا هى أكثر الدول استفادة من المساعدات التى يقدمها الصندوق خاصة من مال الضمان لتعويض الخسارة المالية التى عانت منها فرنسا نتيجة بيعها منتجاتها الزراعية فى الأسواق الخارجية بأسعار تقل عن أسعار السوق المشتركة . أما الجزء الخاص بالإرشاد فهو أقل شأنا من الناحية المالية وقد ذهب معظم اعتماداتها لإيطاليا وألمانيا الغربية وفرنسا .

(٤) الهيئة العليا لمنظمة الفحم والصلب الأوروبية :

وتقدم المساعدات المالية للمساعدة فى تحويل الصناعات القديمة المتدهورة . فتعدين الفحم وخام الحديد يعانى من التقلص كما أن صناعة الحديد والصلب فى أوروبا الغربية تعانى من آثار التقدم التكنولوجى والمنافسة من مناطق الإنتاج الأخرى فى العالم . تمنح الهيئة العليا أربعة أنواع من المساعدة ، ولكن التفاصيل الدقيقة عن هذه المساعدات تختلف من دولة لأخرى نسبة لسياسات الضمان الاجتماعى المختلفة .

(١) تكون المساعدة المالية متوفرة لمدة اثنى عشرة شهرا بعد التوفير الأول وذلك لتشجيع العمال بقبول وظيفة أقل راتبا من الوظيفة التى كان يشغلها . وينطبق هذا بالذات على عمال مناجم الفحم الذين كانوا يعيشون ظروف عمل شاقة رغم ما كان يدفع لهم من رواتب عالية نسبيا .

(٢) توفير المال لإعادة توظيف العمال فى أقاليم أخرى ، وذلك لتغطية تكاليف تدريبهم من جديد وتمويل الرواتب خلال فترة التدريب .

(٣) يتلقى العمال تعويضا لنقل عوائلهم إلى مناطق جديدة والمطالبة فى حالة عدم إمكانية ذلك ببدلات نقل عن الزيارة فى نهاية الأسبوع .

(٤) المساعدة المالية تكون موجودة أيضا للموظفين الذين يترقبون وظائف جديدة . وحتى الآن فإن عمال مناجم الفحم هم أكثر الفئات استفادة من هذه الإعانات (٤/٥) ومن ثم ألمانيا الغربية وبلجيكا بصفتهما أكثر الدول الأعضاء تعدينا للفحم .

والهيئة أيضا مسئولة عن دراسة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية المتعلقة بتوفير الوظائف الجديدة فى مناطق الصناعات القديمة ، وهذه الدراسات هى بمثابة وثائق تخطيط إيجابية لبناء توصيات جادة للعمل ، وتعمل الهيئة كمنبر لمناقشة وتنسيق وتمويل المشاريع التى تتبادرها الحكومات الفردية أو المؤسسات العامة .

مناطق المعاناة : دراسة تطبيقية :

(١) ايطاليا الجنوبية : الميزوجيورنو The Mezzogiorno

تشكل الميزوغيورنو أكبر مناطق المعاناة داخل السوق المشتركة من حيث المساحة ودرجة التخلف إذ تشغل خمس مساحة إيطاليا وبها من السكان ١٨٫٥ مليون نسمة . وينبثق بعض مشاكل الجنوب الإيطالى من بيئة طبيعية فقيرة إذ تشكل الأرض الصالحة للزراعة ثمن مساحته . وتنحصر الأراضى الزراعية فى سهول متفاوتة الأحجام حول نابولى وساليرنو وفوجيا وفى هضاب منخفضة فى أبوليا وفى أحواض وأودية متناثرة بين الجبال الداخلية التى تغطى نصف مساحة الجنوب . ويزيد الجفاف الشديد الذى يصيب أجزاء عديدة من الجنوب من أهمية الرى فى الزراعة المكثفة .

ازدهر الجنوب الإيطالى كمصدر رئيسى للحبوب أيام الإغريق والرومان ولكنه فقد ذلك الوضع إثر احتلال روما لمنطقة شمال أفريقيا واستجلاب الحبوب منها بتكاليف أرخص كما أن شمال إيطاليا احرز تقدما أكبر فى مجال الزراعة وترك الجنوب مهملا نهبا للملاريا . وبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية تعرض الشمال لغزو واستقرار قبائل عديدة ساعدت فى إحداث تغييرات أدت

إلى تطور المنطقة وأصبح الجنوب جزءا من الإمبراطورية البيزنطية . وفى العام الثامن بعد الميلاد سيطر العرب على الجنوب وأدخلوا فيه الزراعة . وفى القرن الثانى عشر أدخل النورمان نظام الإقطاع وشهد الجنوب بعده غزوات مدمرة جعلت منه منطقة قاحلة كما أن سوء الإدارة والاستغلال الجائر لموارده فى فترة الحكم الأسبانى قضى على ما تبقى من تقدم ودخل الجنوب فترة ركود وانحطاط نتيجة هذه الأحداث وكذلك لبعدها من مراكز التجارة الجديدة التى نشأت على شاطئ المحيط الأطلسى وكذلك للمشاكل والصعوبات الناجمة من مناخ جاف وتربات فقيرة ونظام إقطاعى مجحف . وفى عهد نابليون تفاقم الوضع أكثر من ذى قبل لاستغلال القوات الفرنسية الجائر لموارد المنطقة الزراعية والغابية وما ترتب على ذلك من انجراف شديد للتربة من على منحدرات الجبال العارية من الأشجار .

بعد توحيد إيطاليا سياسيا فى عام ١٨٦١ ظلت الفجوة الاقتصادية بين الجنوب والشمال باقية رغم جهود الحكومات المتعاقبة واهتمامها بتطوير الجنوب وشهدت أواخر القرن الماضى تقصيا حكوميا لمشاكل المنطقة وعمل توصيات عليه ولكن دون احراز تقدم يذكر . ثم انخرطت إيطاليا بعد ذلك فى أحداث دامية كما فى حربها مع تركيا (١٩١١ - ١٢) ثم فى الحرب العالمية الأولى وظهور الفاشية (التى أغفلت عن الجنوب تماما) ثم فى أفريقيا والحرب الأهلية الأسبانية وأخيرا فى الحرب العالمية الثانية ، وحالت كل حادثة من اتخاذ التدابير اللازمة لتطوير الجنوب . وخلال الحرب الأخيرة خضع الجنوب لسيطرة الحلفاء بينما سيطر الألمان على شمال القطر وقد أدى ذلك إلى تدعيم وتعميق التباين بين الإقليمين .

يمكن حصر المشاكل التى تعانى منها الميزوغيورنو فى الآتى : -

(١) الفقر : يكاد الفقر أن يكون أهم سمات هذا الإقليم . ففى خلال الخمسينات وصل الدخل الفردى نصف المتوسط القومى وخمس المتوسط للإقليم الشمالى . وفى الحقيقة أبعدت شقة الدخل بين الشمال والجنوب فى هذه

الفترة إذ أصبح الشمال أكثر ثراء وتصنيعا من ذى قبل بينما سادت الزراعة على كل القطاعات الأخرى فى الجنوب وبقيت نسبة العطالة مرتفعة . وقد دلت التحريات الأخيرة أن الفجوة ما زالت تتوسع والتباين يشتد .

(٢) ندرة العمال المهرة : على الرغم من ارتفاع عدد السكان يعانى الجنوب من ندرة شديدة فى العمال المهرة : فالجهل ما زال متفشيا بين أفراد الشعب رغم برامج التعليم المكثفة وما أحرزته من تقدم كما أن هناك تقارير عديدة تحكى عن الفقر المدقع والتخلف الشديد فى الجنوب .

(٣) الهجرة : ترجع الزيادة السكانية التى حدثت فى الشمال جزئيا إلى الهجرة المتواصلة من إقليم الميزوغيورنو للعاطلين من أبنائها بحثا عن العمل . وكانت الهجرات الخارجية مخرجا للزيادة السكانية فى المنطقة إذ اتجهت أعداد كبيرة من الايطاليين إلى أمريكا الشمالية والأرجنتين حتى فرضت القيودات على عدد النازحين فى الفترة ما بين الحربين العالميتين بواسطة النظام الفاشى كما أن اتباع نظام الكوتا للنازحين بواسطة الولايات المتحدة والدول الأخرى المضيفة ساعدت فى تقييد الهجرة .

(٤) سيادة الزراعة على القطاعات الاقتصادية الأخرى : فى عام ١٩٣١ كان الجنوب يحتوى على خمسى (٢/٥) سكان إيطاليا الزراعيين فى مساحة مماثلة من الدولة . وقد ازداد نصيب الجنوب من المزارعين منذ ذلك الوقت إلى النصف إثر التقدم الصناعى الذى تم فى الشمال واستيعاب العمال فى المصانع . وقد ظل الجنوب فى هذا الوضع المتخلف حتى وقت قريب : فما زال ما يقرب من خمسى (٢/٥) السكان فى محافظات أبوليا ولوكانيا وكلابريا يعملون فى الأرض بالمقارنة مع الخمس (١/٥) للقطر كله .

بداية التطور :

بدأ الاهتمام الجدى بأحوال الجنوب فى عام ١٩٥٠ عندما تم تأسيس « هيئة تطوير الجنوب The Cassa per il Mezzogiorno » بغرض الربط بين

الوزارات الحكومية فى روما والسلطات المحلية فى الجنوب والتنسيق فيما بينهما .
ثم حددت الحكومة مسئوليتها نحو الجنوب فى معالجة المشاكل الزراعية ومن ثم اتخذت الإجراءات لتشجيع استصلاح الأرض والرى وتصريف الأرض والحماية من الفيضانات . وتركت مهمة التصنيع فى أيدى الشركات الفردية .

بدأ إصلاح الأرض فى عام ١٩٥٠ وشمل إعادة توزيع الأرض من الأطيان الضخمة الموجودة فى أجزاء عديدة من الجنوب وتجزئتها إلى قطع صغيرة وبحلول عام ١٩٦٥ تم إعادة توزيع ٧٠٠،٠٠٠ قطعة على ١٠٠،٠٠٠ عائلة من المزارعين الصغار والعمال المعدمين كما تم استصلاح الإراضى المستنقعية والمهملة وزراعتها وكذلك زراعة الأشجار على المنحدرات وبناء الطرق ورى المزارع ومد أنابيب مياه الشرب . وتم بناء ١٢٥،٠٠٠ منازل زراعية مع ٨٠،٠٠٠ مخزن وبدأ العمل لإنشاء ٣٠٠ تعاونيات زراعية وتم تحسين الخدمات الاجتماعية فى مراكز عديدة .

لم تكن الحياة الجديدة سهلة بالنسبة للمزارعين الذين تعودوا على حياة اجتماعية مترابطة فى تجمعات قروية ضخمة ومن ثم كان لابد من تهيئتهم لأسلوب نمط الحياة الجديد فى مزارعهم المعزولة . ووجد أن التدريب الزراعى والتعليم العام ضروريان فى مساعدة المزارعين الجدد فى استغلال ممتلكاتهم الجديدة والاستفادة منها ، وتتراوح مساحة القطع الزراعية من أربعة هكتارات فى المنخفضات المروية (كما فى ميتابونتو) إلى ٢٠ هكتارا فى التلال . وقد أحرز نجاح كبير فى المناطق التى استخدم فيها الرى لزراعة الفواكه والخضروات والمحاصيل الزراعية المكثفة ولكن النجاح لم يكن حليف كل المشاريع : فقد هجرت مزارع عديدة ومنازل فى المناطق التلالية لعجز الفلاحين من تحقيق حياة قانعة من التربة .

فتح إدخال الرى فى الزراعة وما حدث من تغييرات زراعية المجال لتحسينات أخرى فى الآونة الحديثة كما أن تعديل النظرة التقليدية للتوظيف قد سهل من قبول فكرة العمل فى المصانع ، حتى منطقة ميتابونتو ومنطقة بارى

بريندیزی / ترانتو التی استفادت من التصنيع فی الستينات وهی أيضا عاصرت وشهدت التغييرات الزراعية فی الخمسينات .

وبين عامی ١٩٥٨ و ١٩٧١ تم تطبيق المرحلة الثانية من التخطيط وفيها نلاحظ تحولا كبيرا نحو تشجيع الصناعة فی الجنوب وبمساعدة هيئة الجنوب فی حالات عديدة . وشرعت مؤسسات حكومية فی تحسين الطرق وتمويل المياه والطاقة وإيجاد وظائف صناعية . وهكذا بدأ « معهد الإنشاء الصناعی . Instituto per la Riconstruzione Ind » فی بناء الطرق الرئيسية لربط أجزاء الجنوب ببعضها ولإيجاد طرق توصل إلى أجزاء إيطاليا الوسطى والشمالية . وبدأ العمل فی صناعات مهمة مثل مصانع الصلب الحكومية فی ترانتو وصناعة البتروكيماويات فی غيلا فی جنوبی صقلية . وقد وفر هذان المصنعان العمل لستمائة شخص كما تم توفير ١٢٫٠٠٠ وظيفة فی مصانع مرتبطة بالمصنعين السابقين فی صقلية وبعض مناطق الجنوب وأنفقت « هيئة تطوير الجنوب » أكثر من ١٫٠٠٠ مليون جنيه استرلينی فی الفترة ما بين ١٩٥٥ و١٩٧٠ لتطوير الجنوب ، وبلغ مجموع الاستثمارات فی الجنوب خمسة أضعاف ذلك المبلغ .

شعر المخططون الإيطاليون بأن الجنوب فی حاجة إلى وظائف صناعية لاستيعاب العمال الذين هجروا الزراعة . وكانت هنالك أربعة حوافز خاصة لتشجيع الصناعيين لإقامة مصانع فی الجنوب وهی : —

(١) وفرة العمال وانخفاض تكلفة العمل فی الجنوب بالمقارنة مع الشمال . هذا على الرغم من أن عمال الجنوب يحتاجون إلى تدريب كاف قبل استخدامهم فی المصانع .

(٢) توفر الحكومة منح خاصة لتساعد فی إنشاء مصانع جديدة وتدريب كوادر جديدة من العمال ويأتی معظم هذه المساعدة من السوق المشتركة .

(٣) تعفى المصانع الجديدة من الضرائب المحلية لعدة سنوات بعد بدء الإنتاج .

(٤) تحظى المصانع فى الجنوب بمعاملة خاصة وتعطى الأفضلية فى منح العقودات الحكومية .

بالإضافة إلى هذه الحوافز فإن هناك مصادر جديدة للطاقة فى الجنوب تنتظر الاستغلال فقد تم مثلا تمويل مناطق عديدة بالغاز الطبيعى المحلى كما تم بناء تسهيلات أفضل فى الموانىء لاستقبال الشاحنات الضخمة التى تأتى بالفحم والمواد الخام ويتبع ذلك إنشاء صناعات جديدة مثل الحديد والصلب والبتروكيماويات ، ولكن النتائج كانت مخيبة للآمال والتوقعات المعقودة : فإن عدم وجود تقليد صناعى فى الجنوب قد أدى إلى عجز مصانع الجنوب عن منافسة المنتجين فى شمال القطر اقتصاديا كما أن التجربة المريرة فى الخمسينات قد أوضحت أن تكاليف الإنتاج الصناعى فى الجنوب متضخمة وذلك لعدم توفر الخدمات والمنتجات المتوسطة (التى ترخز بها المناطق الصناعية فى الشمال) فى الجنوب . وكان على المسئولين توفير هذه الخدمات إما باستيرادها من الشمال أو بإنشائها فى الجنوب من جديد ، كما أن بناء مجموعة من المصانع فى الجنوب لم يضمن قاعدة صناعية ثابتة ومستقرة لنمو صناعى أكثر . وهكذا ظهر للمسئولين أن الجنوب وتطوره يحتاج إلى سياسات تنمية أكثر شمولا .

وقد ناقش المخططون أن تركيز الصناعات الجديدة فى « مراكز تنمية » مختارة بعناية حيث يمكن إقامة خدمات وصناعات مرتبطة يمنح أكثر الوسائل فعالية لتقوية وتعزيز التصنيع فى الجنوب . وسيحتوى كل مركز من هذه المراكز أنواعا من المصانع التى تنتج بضائع متنوعة وسيتم تخطيطها لتمويل عدد من الخدمات من البداية كالتى نجدها فى المناطق الصناعية العريقة . ولكى تؤدى هذه المراكز وظيفتها فإن اختيار المواقع يجب أن يتم سويا مع الصناعات المتوقع نجاحها فيها مع توفير الخدمات والورش اللائقة .

بعد تحريات مفصلة قدمت « ايطالكونسلت » توصيات بتشجيع القطاعات الصناعية الآتية فى الجنوب :

١ - صناعة الحديد والصلب (موجودة فى ترانتو من قبل) .

٢ – تركيب الماكينات (جديدة) .

٣ – صناعة هندسية للآلات الدقيقة (موجودة فى منطقة نابولى من قبل) .

٤ – تكرير البترول وصناعة البتروكيماويات (موجودة فى ترانتو) .

٥ – الألياف الصناعية (تحتاج إلى تطوير) .

٦ – صناعات مرتبطة بالبتروكيماويات مثل صناعة المطاط الصناعى لعمل الإطارات (جديدة) .

كما قدمت المؤسسة توصياتها بعمل أربعة مراكز تنمية للتصنيع فى الجنوب هى : –

(١) مركز كاسيرتا / نابولى / ساليرنو فى كامبانيا .

(٢) كتانيا سيراكيوز فى شرق صقلية .

(٣) كاقليارى فى جنوبى سردينيا .

(٤) بارى , برينديزى / ترانتو فى أبوليا .

ويمكن أن ندرس الأخيرة كمثال لمراكز التنمية فى جنوبى إيطاليا :

سبق اختيار هذه المنطقة كمركز تنمية دراسة مفصلة لمحافظة أبوليا ومدنها الرئيسية لإعداد استراتيجية لتأسيس مركز تنمية فى المنطقة فمدينة بارى Bari كانت أساسا مدينة تجارية بها مصنعان فقط يعمل فيهما مايربو عن خمسمائة عامل . أما ترانتو فكانت تحتوى على منشآت تابعة للبحرية ومرافىء وأحواض سفن عانت كمثيلاتها فى غربى أوروبا من الطلبيات المتناقصة فى وجه المنافسة اليابانية . أما برنديزى Brindisi فقد كانت مجهزة بميناء من الدرجة الأولى وبها مصانع كيماوية تنتج مواد كيماوية وأسمدة .

خططت ثمانية مصانع رئيسية وأربعة وعشرين مصنعا تابعا لها لمثلث بارى/ برينديزى/ ترانتو . من الوجهة الاقتصادية كانت مدينة بارى تمثل أفضل موقع لهذه المصانع ولكن كانت هناك أسباب اجتماعية استلزمت اختيار ترانتو وبرينديزى كمواقع لهذه المصانع أيضاً .

تغطى المنطقة الصناعية فى بارى ٥٠٠ هكتار وتمثل صناعة المعادن أهم تخصصاتها تتبعها صناعة الهندسة الكهربائية والمعدات الدقيقة وصناعة مواد البناء ، كما أن هناك مصانع صغيرة . ويعمل ٩٠٪ من القوى العاملة فى مصانع تستخدم ١٠٠ شخص وأكثر . وقدر لهذه الصناعات الجديدة أن تستخدم ٨٫٢٠٠ عاملا ولكن نظرا لافتقار الجنوب للعمال المهرة فقد تم استجلاب ١٠٠٠ عامل متخصص من الشمال ، كما أن كثيرا من عمال الجنوب استقدموا للشمال للتدريب قبل فتح معاهد تدريب فى الجنوب . وبحلول عام ١٩٧١ تم افتتاح ١١٠ مصنعا فى بارى تستخدم ١٥٫٠٠٠ عاملا ورغم ذلك فما زال هناك ٣٦٫٠٠٠ عاطل وما زالت الهجرة إلى خارج المنطقة مستمرة .

اما منطقة برينديزى الصناعية فهى أكبر مساحة (٢٫٣٠٠ هكتار) وتستخدم ١٨٫٠٠٠ عاملا فى مصانع البتروكيماويات ومصانع مرتبطة بها (التى تنتج الأسمدة والبلاستيك والألياف الصناعية) والمعادن وصناعات خشبية والمواد الغذائية . كما تم توسيع الميناء لاستلام المواد الخام المستوردة من شمال أفريقيا والشرق الأوسط التى تعالج هنا ثم تصدر إلى الخارج .

أما منطقة ترانتو الصناعية فتتخصص فى الصناعات الثقيلة التى تقع بالقرب من الميناء فى حين تقع الصناعات الخفيفة إلى الداخل . وتشمل الصناعات الثقيلة صناعة الصلب الحكومية ومصانع الأسمنت ومصفى للبترول . ويتيح الموقع الساحلى استجلاب خام الحديد من شمال أفريقيا والجير المحلى وفحم الكوك من الولايات المتحدة . وبدأ الإنتاج فى ترانتو فى عام ١٩٦٤ وبلغ الإنتاج السنوى فى عام ١٩٦٨ إلى ٢ مليون طن من الصلب وإلى ١٠٫٥ طن فى ١٩٧٤ ، وقد بلغ إنتاج الجنوب من الصلب ٤٠٪ من إنتاج إيطاليا الكلى فى عام ١٩٧٥ . ورغم هذا التقدم فى إنتاج الصلب فإن عدد المستخدمين من العمال فى هذه المصانع قد بلغ ٥٠٠٠ عامل تم اختيارهم من جملة ٥٠٫٠٠٠ عامل تقدموا بطلباتهم للالتحاق بها .

وقد انتقد رجال الأعمال الشماليين مصانع ترانتو للصلب لأسباب عدة منها

أن عدد الوظائف التى تم توفيرها قليلة جدا كما أن معظم الصلب المنتج فى الجنوب يشحن إلى الشمال لاستخدامه فى المصانع الموجودة هناك . كما أن مصانع الصلب لم تجذب إلا القليل من الصناعات الفرعية أو الثانوية الى الجنوب وأخيرا أنه كان فى الإمكان إنتاج الصلب بتكلفة أقل إذا تم توسيع المصانع المقامة فى الشمال حيث يتوفر العمال المهرة . وعلى الرغم من هذه الانتقادات فقد ارتفع متوسط الدخل الفردى فى أبوليا بحوالى ٢٥٠٪ فى الستينات (بالمقارنة مع ١٥٠٪ بالنسبة لإيطاليا كلها) كما ارتفع عدد السكان بنسبة ٩٪ فيما بين ١٩٦٠ و ١٩٧٠ (بالمقارنة مع ٢ر١٪ بالنسبة للجنوب كله)

ويمكن حصر إنجازات التنمية الإقليمية فى الستينات فى الآتى : تشجيع الحكومة للشركات الكبيرة لإنشاء مصانع فى مراكز التنمية فى الجنوب : ومثلا ⅓ استثمارات شركة فيات فيما بين ١٩٦٩ و ١٩٧٢ كانت فى الجنوب) ومن أهم مصانعها مصنع لتجميع العربات فى نابولى . كما أن شركة بيريللى لديها ستة مصانع توفر ٧٫٠٠٠ وظيفة جديدة ، وتقوم شركة أوليفتى بتوسيع مصنعها فى بوزولى وإنشاء مصنع تجميع آخر فى سيزارتا .

ويقول الجنوبيون إنه بينما ازدهرت مدن بحكم موقعها واختيارها كمراكز تنمية وما تبع ذلك من توفير العمل فى المصانع والمكاتب ، فإن ماتم فى مجال تحسين فرص العمل وظروفه فى الريف والمدن الصغيرة قليل جدا . ولذلك فهم يطالبون بتحسين الوضع الاقتصادى فى الجنوب كله حتى يتحقق التطور المنشود ، ولكن هناك من علماء التخطيط والاقتصاد الذين يصرون على إتباع سياسة تركيز الصناعات فى مناطق مختارة ومحاور معينة لبوازن المجمعات الصناعية فى الشمال . ويرى الجنوبيون أنه بالإمكان حل مشكلة التضخم والازدحام فى الشمال بتحويل الاستثمارات إلى مناطق الجنوب ، ولكن الشماليين يرون أن أى ايقاف للاستثمار فى الشمال سيؤدى ليس إلى إبطاء النمو الاقتصادى فيه بل سيعرض الاقتصاد القومى إلى خطر .

على الرغم من هذه الانتقادات فقد حدث بعض التقدم فى مجال توفير الوظائف الصناعية فى الجنوب : ومثلا بلغ عدد العاملين فى الزراعة فى عام ١٩٥٠ ٥٥٪ من القوى العاملة فى الجنوب ، ثم انخفض إلى ٤٣٪ فى عام ١٩٦١ وإلى ٣٠٪ فى عام ١٩٧١ . ولكن ما زال القطاع الزراعى يمثل أهم مجال التوظيف فى الجنوب . وفى الفترة ما بين ١٩٥١ و ١٩٦٨ بلغ عدد الذين تركوا مزارعهم ١٫٥ مليون ، ولكن ما أمن من وظائف خلال نفس الفترة بلغ ٦٠٠٫٠٠٠ وظيفة جديدة فى المصانع و ٥٠٠٫٠٠٠ وظيفة أخرى فى الخدمات ، وكثير من المزارعين السابقين تقاعدوا أو ظلوا عاطلين أو هاجروا إلى الشمال . وقد هاجر كثير من الشبان خاصة إلى مدن الشمال أو أجزاء أوروبا الغربية المختلفة بحثا عن العمل . وما زالت هناك اختلافات كبيرة فى الدخول بين شمال وجنوب القطر وقد دلت الأبحاث والتقارير أن هذه الفجوة فى تزايد مستمر .

ولذلك شرعت الحكومة الإيطالية فى عام ١٩٧٢ باتخاذ خطوات أخرى لمعالجة مشاكل الجنوب . فقد أعيد تنظيم « هيئة تطوير الجنوب » التى أخذت تطبق المرحلة الثالثة : إذ كلفت الهيئة بإنفاق ٤٫٨٠٠ مليون جنيه حتى عام ١٩٧٧ . وتتبع سياسة الجنوب الجديدة التشريع الذى سنته الحكومة فى عام ١٩٧١ والذى ينص بأن مهمة تطوير الجنوب ستطرح كأهم مشكلة فى التخطيط الاقتصادى القومى . وتركز الهيئة الآن جهودها فى تمويل مشاريع خاصة تشمل نطاقات صناعية جديدة وتوسيع المناطق الحضرية الكبيرة والحفاظ على الموارد الطبيعية . كما أصدرت التوجيهات إلى المؤسسات الحكومية بتخصيص ٨٠٪ من استثماراتها للجنوب ، كما أن على الشركات الخاصة أن تقدم مقترحاتها للتنمية للحكومة للموافقة عليها والتأكد بأنها تماشى بقدر الإمكان مع المشاريع القومية فى الجنوب .

ولكن ما زالت هنالك مشاكل عديدة يجب التغلب عليها ، كما يجب أن لاننكر أن تقدما ملحوظا قد تم فى مجال إزالة الملاريا ، وتخفيض نسبة الأمية

وتزويد المنطقة بالمستشفيات والمدارس والخدمات الاجتماعية فى مناطق كانت تفتقر إلى هذه الخدمات . فالإنتاج الزراعى قد تضاعف فى خلال العشرين سنة الماضية كما ارتفع الإنتاج الصناعى أربعة أضعاف . ولذا من البديهى أن تكون إيطاليا من أكثر الدول المؤيدة لسياسة عامة للتنمية الاقليمية داخل السوق المشتركة . فالجنوب ما زال يمثل أفقر أجزاء أوروبا الغربية .

(٢) فرنسـا :

تختلف أسباب التخلف الإقليمى فى فرنسا من تلك التى نجدها فى جنوب إيطاليا : ففرنسا تتمتع بظروف طبيعية وموارد مائية أفضل من الميزوغيورنو ، فأسباب التباين ترجع هنا إلى التركيز الشديد للقوى الاجتماعية والاقتصادية فى العاصمة باريس وما حولها ، مما أدى إلى وجود تباين حاد بينها وبين المحافظات فى أوجه عديدة مثل الدخل وفرص العمل ونواحى الحياة الاجتماعية والاقتصادية الأخرى .

وقد وجه المخططون اهتمامهم إلى التناقض الواضح بين شمال وشرق الدولة وما يتميز به من تقدم زراعى وصناعى ، والمنطقة التى تقع إلى الغرب من خط يمتد بين ميناء الهافر ومارسيليا والتى تتميز بالتخلف والنمو الاقتصادى البطىء وتشمل الهضبة الوسطى وأكوتين وبريتانى .

بدأ اهتمام الدولة بالتباين الإقليمى منذ عام ١٩٥٥ حين تم إنشاء إحدى وعشرين منطقة تخطيط وتتبع الحكومة الآن سياسات مختلفة تجاه نصفى القطر : سياسة دعم اقتصادى فى الشرق وسياسة محددة فى الغرب بغرض تنشيط النمو الاقتصادى عن طريق مساعدات مالية ضخمة بغرض تطوير الصناعة . كما أن هناك مساعدات أخرى لدمج الأراضى الزراعية وأيضا لتشجيع توفير الوظائف فى المصانع والمكاتب والمتاجر والخدمات فى المحافظات ولتحسين الأحوال الزراعية .

ففى شرق فرنسا تتمثل المشكلة فى مناطق الصناعات القديمة (النسيج والتعدين) حيث أدت تحديث وسائل استخراج المعادن والمنافسة الخارجية فى

وتوسيع شبكة القنوات واستبدال الطرق القديمة بأخرى حديثة . ويمكن التعرف على ثلاثة أنواع من المشاكل : الإقليم الصناعى القديم فى الجنوب ، مناطق الصناعة النسيجية والمناطق الريفية ذات الصناعة القليلة . فقد تقلص إنتاج الفحم حديثا مما أدى إلى انخفاض فرص العمل فى المجال الصناعى عامة .. فقد فقدت المنطقة أكثر من ١٠٠٫٠٠٠ وظيفة من جراء ذلك وتقلص عدد العمال بحوالى ١٠٪ فى الفترة ما بين ١٩٤٧ - ١٩٦١ ، بينما اكتسب الشمال ١٠٠٫٠٠٠ وظيفة جديدة . ويعانى الجنوب أيضا من كبر سن سكانه وقلة تدريبهم وعدم صلاحيتهم لملء الوظائف الجديدة مما أدى إلى تدفق العمال الأجانب إلى المنطقة لسد العجز فى العمال المهرة .

وتقوم الحكومة بتقديم المساعدات المالية لإنشاء صناعات حديثة وتحديث الصناعات الموجودة ، ولكن هذه الإجراءات لم تؤد إلى حلول جذرية للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية الناجمة من : (١) تقلص الصناعات الأساسية .

(٢) عجز المناطق الصناعية القديمة من اجتذاب واستقطاب صناعات جديدة .

(٣) عجز الوظائف الجديدة من مواكبة النمو السكانى . إلا أن توفير وظائف جديدة .

(٥٨٫٢٥٠ وظيفة فيما بين ١٩٥٩ – ١٩٦٥) أدى إلى انخفاض نسبة العطالة .

وشهد الشمال إنشاء مصانع جديدة لشركات أمريكية ووطنية بينما ذهبت معظم المساعدات المالية للجنوب فى تحديث المنشآت الصناعية القديمة وخصص ثلثها فقط لإقامة مصانع جديدة (انظر الجدول ٢٢) .

جدول : ٢٢ الاستثمارات البلجيكية للمساعدات الإقليمية
فيما بين ١٩٥٩ - ١٩٦٩م

	مجموع الاستثمارات (ألف مليون)	النسبة المئوية (٪)	أنشاءات جديدة (٪)	تحديث (٪)
الشمال الفلمنكى	١٢٣ر٤	٥٨	٦٩	٤٧
الجنوب الدلونى	٨٤ر٦	٤٠	٣١	٤٩
أقليم بروكسل	٤ر٦	٢	٠	٤
المجموع (بلجيكا)	٢١٢ر٦	١٠٠	١٠٠	١٠٠

(٤) ألمانيا الاتحادية :

يوجد نوعان من مناطق المعاناة فى ألمانيا الاتحادية :

(١) تمثل المنطقة الأولى تلك التى تتعلق بالأعداد الكبيرة من العمال الزراعيين الذين تلفظهم الزراعة الحديثة ويجدون طريقهم إلى المناطق الصناعية بحثا عن عمل جديد . مما يتطلب إيجاد وظائف جديدة فى مدن الريف لاستيعاب هذه المجموعة .

(٢) أما المنطقة الثانية فتشمل نطاق الحدود الذى يمتد على طول التخوم مع الدول الشيوعية ، وقد عانى هذا النطاق من التمزق الاجتماعى والاقتصادى إثر إنشاء الستار الحديدى .

وقد اهتمت الحكومة بانشاء نقاط تنمية فى المناطق المتخلفة حيث يتم إنشاء الخدمات ووظائف جديدة . وبالإضافة إلى المعونات الفيدرالية تسهم المحافظات أيضا فى هذا المجال .

تمثل مرتفعات ايفل – هنزروك Eifel-Hunsruck نموذجا حيا لمناطق المعاناة الألمانية . فهى تحتوى على ٦٠٠٫٠٠٠ نسمة يعمل نصفه فى الزراعة والغابات وربعه فى الصناعة . ولكن المزارع صغيرة (تسع أعشار المزارع أقل من ١٠ هكتار) ومجزءة وتعانى من تكدس العمال إذ قدر أنه يمكن تخفيض العمال بحوالى ٣٠٫٠٠٠ عامل بدون أن تتأثر الكفاءة الإنتاجية . ولكن لا توجد وظائف كافية لاستيعاب هؤلاء . وقد شرعت الحكومة فى إنشاء مصانع جديدة (١٦٥ مصنع فى الخمسينات) كما تم دمج القطع الزراعية وبناء الطرق وتشجيع السياحة .

أما منطقة الحدود فهى تعانى من الوضع السياسى المجهول على طول الستار الحديدى وتمنح المساعدات المالية فى هذه المنطقة للتأكد من أن المصانع الموجودة تبقى فى وضع منافس للمصانع الأخرى فى باقى أجزاء البلاد ، وأيضا لفتح مصانع جديدة . وقد عانت صناعة النسيج والخزف من جراء تقسيم الدولة إلى شطرين وفقدان الأسواق والمواد الخام فى ألمانيا الشرقية وتشكوسلوفاكيا . فالمشاكل هنا نفسية ومادية : فالريبة الناشئة من الحياة بالقرب من الحدود قد أدت إلى هجرة متواصلة إلى أجزاء ألمانيا الغربية الأخرى .

تركز الحكومة على إنشاء نقاط تنمية متفاوتة الأحجام . فى أواخر الستينات كانت هناك إحدى وثمانين مدينة تمثل نقاط تنمية تم فيها إنشاء ٤٥٠ مصنعا جديدا ساعدت فى توفير ٤٥٫٠٠٠ وظيفة جديدة وتبشر بتوفير ٨٦٫٠٠٠ وظيفة أخرى . وفى الفترة ما بين ١٩٦٩ و ١٩٧١ تم بناء ٢٫٠٠٠ مصنع جديد فى هذه المدن وتوفير ٣١٠٫٠٠٠ وظيفة صناعية جديدة .

وبالإضافة إلى هذا النوع من المساعدات تدعم الحكومة أربعة مخططات أو مشاريع إقليمية :

١ مشروع الألب بغرض منع تعرض مناطق الألب للفيضانات .

٢ مشروع كوستن الذى تم تخطيطه بعد فيضانات عام ١٩٥٣ ويشمل

الوسائل التى بواسطتها يحمى الساحل الشمالى الشرقى وأيضا تحسين الأحوال الزراعية بعد إنشاء الطرق وتصريف الارض .

٣ – مشروع امزلاند Emsland وبرنامج الشمال ، اللذان أنشئا فى الخمسينات لمعالجة مشاكل المناطق الزراعية فى ساكسونيا الأدنى وإقليم شيلزويك –– هولشتاين والتى تتميز بحدة العطالة وكثرة اللاجئين (من أجزاء ألمانيا الشرقية وبولنده) . وقد تم إنشاء ٢٥٠ مصنعا تستخدم ما يزيد من ١٢٫٠٠٠ عامل .

(٥) جمهورية ايرلنده :

تمثل مناطق المعاناه فى جمهورية ايرلنده الأجزاء الغربية منها وتشكل ٤٦٪ من مساحة القطر يسكنها ٢٢٪ من سكانه ويكسبون ٢٢٪ من الدخل القومى . ويعمل فى الزراعة ٢٧٪ من القوى العاملة وتشكل المنتجات الزراعية ٢٣٪ من صادرات البلاد . أما فى الغرب فان حوالى نصف سكانه يعملون بالزراعة معظمهم من العجائز الذين لا ورثة لهم . أما الصناعة فيعمل بها ٣٠٪ من القوى العاملة ويوجد معظم المصانع فى الشرق . ففى عام ١٩٥٩ تم إنشاء « منطقة صناعية حرة » بالقرب من مطار شانون الدولى . ثم وضعت ثلاثة مشاريع قومية (١٩٦٣ و ١٩٦٩ و ١٩٧١) للنهوض بهذه المناطق .

وتركز سياسة التنمية الإقليمية على التصنيع خاصة فى الأجزا الغربية وتقوم « هيئة التطوير الصناعى » بتقديم المساعدات المالية وتطوير مواقع المصانع وتمويل الخدمات والإرشادات وتسهم فى إعداد المشاريع الإقليمية . كما أن هناك اهتماما خاصا بمناطق الغال Gaeltacht حيث يسكن ٣٠٫٠٠٠ من الذين يتكلمون باللغه الغالية وتهدف الحكومة إلى المحافظة على نمط الحياة الايرلندى وثقافاتها . ولكن هذه المناطق تعانى من صغر مساحة الوحدات الزراعية (اقل من ٦ هكتارات) وتغطى المستنقعات معظمها مما يؤدى الى هجرة متواصلة إلى اجزاء البلاد الاخرى . ويكمن العلاج لهذه المشاكل فى إيجاد الوظائف بإنشاء المصانع والخدمات التجارية وتشجيع السياحة .

وفى الفترة ما بين ١٩٥٢ و ١٩٧١ تم إنشاء ٣٠٠ مصنع نتج عنه توفير ٢٥٠٠٠ وظيفة . وقد استعانت الجمهورية بالخبرات الأجنبيه فى إقامة المصانع الجديدة وأهم هذه الدول المستثمرة هى الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا الاتحادية (٨٠٪ من جملة الاستثمارات الاجنبية)

من هذه الدراسة التطبيقية يبدو لنا أن خطط التنمية الإقليمية طبقت بطرق ووسائل متفاوته فى أقطار أوروبا الغربية خلال العشرين سنة الأخيرة . ما زالت السوق الأوروبية المشتركة تفتقر إلى سياسة إقليمية مشتركة بين أعضائها . وحتى المحاولات التى سعت إلى تبنى سياسة موحده تجاه هذه المشاكل لاقت صعوبات . وعلى الرغم من الإنجازات الباهرة فى هذا المجال التى حققتها الحكومات الفردية . فإن التباين بين المناطق الغنية والمناطق الفقيرة ما زال حادا . ويمكن أن نعزو هذا الإخفاق فى تحقيق أهداف التنمية الإقليمية إلى أسباب أربعة :

(١) إن التكامل الاقتصادى المتزايد قد ساعد فى ترسيخ الشركات الموجودة وشجعها ليس على التوسع السريع فى المناطق المتقدمة فحسب بل حفز شركات جديدة إلى التحرك لهذه المناطق لما تتميز به من وفرة فى العمال وأسواق كبيرة وأفضل وسائل النقل وأحسن الفرص لتحقيق الاتصال مع الدول الأخرى . ثم هناك عدم رغبة شركات السوق المشتركة نفسها فى بناء مصانع لها فى المناطق الهامشية وأخيرا تركيز الاستثمارات الأجنبية . خاصة من الولايات المتحدة فى لمناطق المتقدمة .

(٢) تفاقم مشاكل المناطق الهامشية نتيجة عدم رغبة الحكومات القومية فى التدخل فى تغيير المواقع الصناعية الموجوده خوفا من تقليل القدرة التنافسية الاقتصادية لدولها . وبدلا من كبح التنمية فى المناطق المتقدمة صناعيا . ركزت الحكومات جهودها فى عملية توفير العمل للعمال فى المناطق الهامشية الفقيرة كما حدث فى فرنسا وايطاليا .

(٣) الاتجاه التدريجى نحو التجارة الحرة عند الأعضاء الستة ثم تطبيق طريقة شمولية فى معالجة المشاكل المتعلقة بالنشاطات المختلفة مثل استخراج الفحم والزراعة وصناعة الصلب كانت له آثار سيئة على المناطق التى كانت تعانى من البطالة نتيجة التدهور الذى أصاب هذه القطاعات بعينها . فى الماضى كانت الحكومات الوطنية فى وضع للدفاع عن مثل هذه المناطق والصناعات وحمايتها . ولكن فى محتوى التكامل الأشمل فقدت الحماية الفردية معناها .

(٤) كانت الخطط القومية للمساعدات الإقليمية تخطط وترسم على أساس الغرض نفسه ولذلك اتسمت بعدم التنسيق والتناسق . وكثيرا ما كانت هذه الخطط تفتقر إلى أموال كافية لإنجازها . وكانت كل دولة تنفق بتفاوت أموال ضخمة على التنمية الإقليمية : مثلا كانت المملكة المتحدة تصرف سنويا من خمسة إلى عشرة أضعاف ما تنفقه فرنسا فى هذا المجال كما أنها وإيطاليا انفقتا فى هذا المضمار أكثر مما أنفقته السبعة الأعضاء مجتمعة .

احتلت المواضيع الخاصة بالتنمية الإقليمية الصدارة فى محادثات عام ١٩٧٢ والتى أدت إلى توسيع عضوية السوق إلى تسع دول . وقد اتفق رؤساء الحكومات على أن تكون الأولوية فى الدول الأعضاء لتصحيح التباينات الإقليمية التى قد تعوق من تحقيق أهداف منظمة الاتحاد الاقتصادى والنقدى Economic and Monetary Union وقد طلب من اللجنة الأوربية أن تحلل المشاكل الإقليمية داخل السوق ووضع الحلول المناسبة لها .

وحددت مهام الخطة الإقليمية المشتركة فى معالجة مشاكل المناطق الزراعية المتخلفة والأقاليم الصناعية القديمة ويقوم بتمويلها صندوق تنمية تابعة للسوق تم تكوينه فى أواخر عام ١٩٧٣ . وسيقوم الصندوق Common Regional Development Fund بتعزيز ودعم مشاريع المساعدات الإقليمية التى تقوم بها الدول الأعضاء التى تكون قد وافقت على تنسيق مشاريع التنمية الخاصة بكل منها . وسيكون الدعم فى شكل إعانات مباشرة بدون فائدة وستوجه المساعدات إلى مشاريع الاستخدام فى مجال الصناعة والخدمات . ولتحديد

ماإذا كانت منطقة معينة جديرة بهذه المساعدات يستخدم الصندوق ثلاثة معايير :

١ – نسبة عطالة عالية وبصورة مستمرة .

٢ – مستويات دخل منخفضة .

٣ – هجرات نازحة .

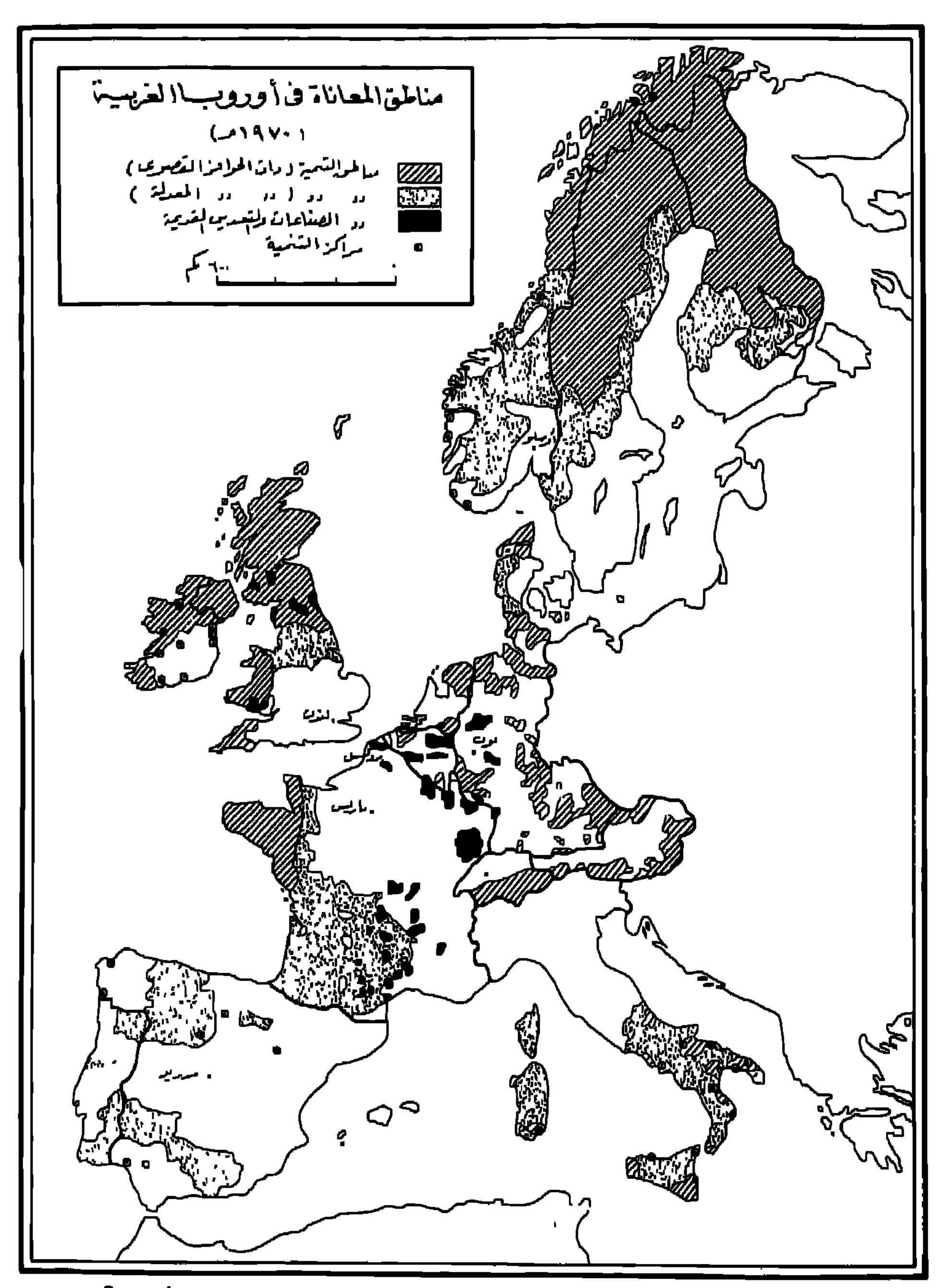
وتنطبق هذه المعايير على المناطق الهامشية من جنوب إيطاليا وجمهورية ايرلنده والمملكة المتحدة ومناطق الصناعات القديمة (الشكل ٧٥ و ٧٦ و ٧٧) .

وعندما فشلت الحكومات فى الوصول إلى اتفاق حول حجم هذه المساعدات ، تم الاتفاق على مبلغ أقل (٥٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه بدلا من ٩٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه) كما تم الاتفاق أيضا على تخصيص نسب معينة للدول المعنية كما يأتى : –

٤٠٪ لايطاليا و ٢٨٪ للمملكة المتحدة ، و ٦٪ لجمهورية ايرلنده ، فرنسا ١٥٪ وألمانيا الاتحادية ٦٫٤٪ ، وهولنده ١٫٧٪ وبلجيكا ١٫٥٪ والدنمارك ١٫٣٪ ولوكمسبورج ٠٫١٪ . ومن الواضح أن ثمة مشاكل عديدة تنتظر الحل قبل تطبيق الخطة الإقليمية المشتركة مثل دخول اليونان للسوق . فالدول الأعضاء ستحفظ بنفوذ أقوى فى مجال الاستثمار . وستبقى التباينات الإقليمية داخل هذه الدول إلى حين تدخل آخر من قبل السوق بوضع حلول جذرية لمشاكل مناطق المعاناة . وحتما سيحتاج ذلك إلى أموال ضخمة .

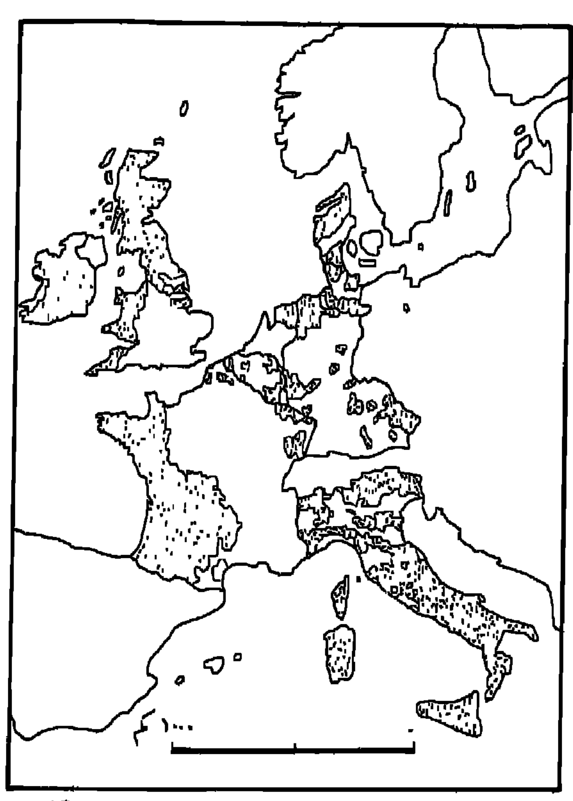
من تجارب دول غربى أوروبا فى ميدان التنمية الإقليمية نخلص إلى النقاط الأربعة الآتية : –

(١) ان مشاكل المناطق المتخلفة متطورة ومستمرة وستحتاج إلى عناية أكثر فى المستقبل . فالمناطق الزراعية ستحتاج إلى تخطيط واقعى لانصراف الناس عن الزراعة والانخفاض المتوقع فى رقعة الأراضى الزراعية والعاملين فيها . كما أن


مناطق المعاناة فى أوروبا الغربية
(١٩٧٠م)
مناطق التنمية (ذات الحوافز القصوى)
،، ،، (،، ،، المعتدلة)
،، الصناعات والتعدين القديمة
مراكز التنمية
٦٠٠ كم

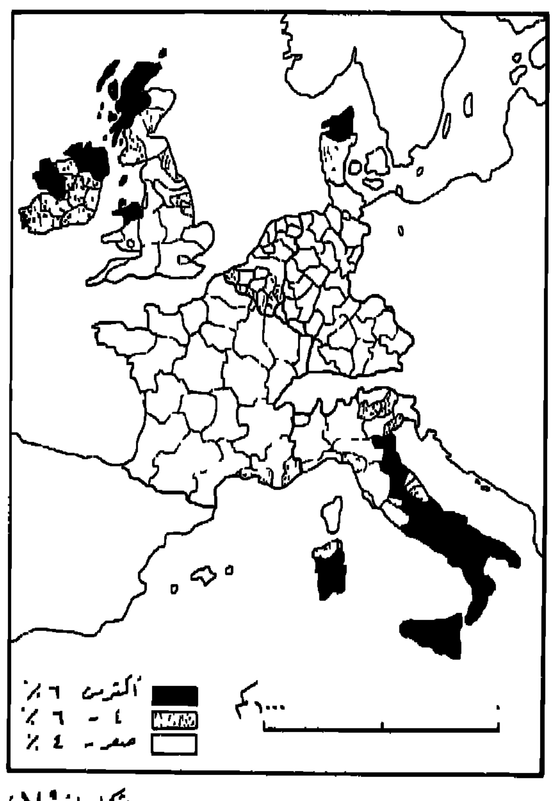
شكل (٧٥)

المناطق المؤهلة للحصول على الإعانات
الاقتصادية وفق تقرير تومبسون



شكل (٧٦)

متوسط البطالة السنوية
في أوروبا الغربية ١٩٦٨ - ١٩٧١



شكل (٧٧)

التخطيط الريفى يشكل مشكلة حادة بالنسبة لفرنسا وايطاليا . وتمر المناطق الصناعية القديمة بفترات عصيبة نتيجة التقلص الاقتصادى الذى تتعرض له مع أن أسعار البترول العالية قد تؤدى إلى استعادة الفحم أهميته كمصدر مهم للطاقة . وتحتاج صناعات أخرى مثل الفحم والحديد والصلب والنسيج إلى تجديد وتحويل لتواكب التقدم التكنولوجى . وتحتاج العواصم إلى معالجة مشاكل الازدحام وتلوث البيئة ، كما يتوقع أن تزداد الهجرة من الريف نتيجة تقلص الزراعة . أما فى المناطق المتخلفة التى شهدت بناء مصانع فيها فإن الاهتمام يجب أن يوجه الى تدريب العمال وتمويل المشاريع التى تهدف إلى تدريب العمال وتجهيز مصانع فى هذه المناطق لتكون حافزا للصناعيين لإقامة مصانعهم فيها .

(٢) إدخال الوظائف التى تحتاج إلى عمال أكثر للاستفادة من الأعداد الكبيرة من العمال الذين يتواجدون فى مناطق المعاناة : فالصناعات التى عادة ما تقام فى مثل هذه المناطق مثل مصانع الصلب ومصافى البترول والبتروكيماويات تمنح فرص عمل قليله رغم أهميتها ولذلك لاتساعد فى حل المشاكل مثل صناعات الخدمات التى تستوعب أعدادا أكبر من العاطلين .

(٣) يوجد مجال واسع للتنسيق والتعاون الدوليين فى معالجة مشاكل مناطق المعاناة .

(٤) انبثقت مشاكل عديدة نتيجة لتطبيق خطط « نقاط أو مراكز التنمية » فى المانيا وهولندة وجنوبى إيطاليا . فخطة التنمية للجنوب الإيطالى أثارت التفاؤل لدى المخططين ولكنها قوبلت بالمعارضة من سكان المنطقة . وقد اقترح المخططون أن نتائج دراستهم يمكن تطبيقها أيضا على المناطق التى تفتقر إلى مراكز صناعية عريقة لكى تستقطب صناعات أخرى جديدة نحوها . ولكن المشكلة هنا تكمن فى الاهتمام الزائد على مراكز التنمية دون المناطق المحيطة بها والتى تبقى على ما كانت عليه من تخلف وفقر . فهذه المراكز الكبيرة قد تنجح فى إيجاد

الارتباطات الصناعية المطلوبة ، ولكنها لا تلبى الحاجة الاجتماعية فى توفير الوظائف فى كلى مناطق المعاناة .

وهنا تبقى المشكلة الرئيسية التى تواجة المخططين : تحديد الحل الوسط بين إشباع هذه الاحتياجات الاجتماعية وإيجاد حلول منطقية للظروف الاقتصادية المتغيرة ... وهل فى إمكان السياسة الإقليمية المشتركة أن تقدم حلا شافيا لهذه المعضلة ؟

خاتمـــه

شهدت نهاية الحرب العالمية الثانية تغييرات جذرية فى مراكز القوى ومناطق النفوذ ، فقد ظهرت مراكز قوى اقتصادية وسياسية جديدة فى الولايات المتحدة وروسيا ، وفقدت أوروبا مكانتها كقوة ذات فعالية وأخذت تنهار وتتمزق إلى جزئين رئيسيين فى ظل المواجهة بين القوتين العظميين ومن هذه المواجهة تولدت تجمعات بين دول أوروبا تمثلت فى منظمتين رئيسيتين كما شرحنا من قبل ، وفى ظل هاتين المنظمتين وتحت تأثيرهما ستظهر أوروبا مختلفة فى مستهل القرن القادم عن تلك التى عهدناها فى منتصف القرن العشرين . وفى هذا العالم المتغير لاتمثل أوروبا الغربية ومعها الولايات المتحدة المركز الوحيد للعالم الصناعى المتقدم ، فهناك الاتحاد السوفيتى واليابان اللتين أصبحتا منافستين خطيرتين ، كما لابد وأن ينتشر مثل هذا الاقتصاد والمجتمع (الصناعى المتقدم) ليشمل أجزاء أخرى من أوروبا بحلول القرن الحادى والعشرين . ومن واقع الأحداث ومجريات الأمور والاتجاهات الحديثة فى النواحى الاقتصادية والسياسية يمكننا أن نتنبأ (وأيضا نفترض) خصائص عامة لأوروبا فى بداية القرن الحادى والعشرين ، ونأمل أن لا تكون هذه التنبؤات العامة بعيدة من حقيقة الوضع فى ذلك القرن الذى أصبح يتخذ عند بعض الكتاب هالة صوفية .

شهدت الفترة ما بين الحربين العالميتين أوروبا منقسمة إلى مجموعتين اقتصاديتين رئيسيتين : إحداهما صناعية وتشمل غربى أوروبا ووسطها بينما تميزت المجموعة الثانية باقتصاد تسيطر عليه الزراعة كما فى شرقى وجنوبى القارة . ومع حلول السبعينات فقد هذا التمييز معالمه . فعلى الرغم من التدهور المتواصل فى عدد المشتغلين بالزراعة فى « أوروبا الصناعية » ، فقد أخذت الزراعة تفقد سيطرتها وتفوقها فى المناطق التى كانت تعتبر ضمن « أوروبا الزراعية » فيما مضى نتيجة التصنيع السريع فيها ، وإذا استمر هذا الاتجاه حتى عام ٢٠٠٠ فلن

يبقى أى اختلاف بين معظم الدول الأوروبية فى الدور الأساسى الذى تلعبه الزراعة والصناعة فى اقتصادياتها . وهذا القول لا يعنى تماما أن اقتصاديات هذه الدول ستكون مماثلة لبعضها : فإن التصنيع فى المعسكر الشرقى والذى يتم وفق السياسة الروسية وخبرتها سيختلف حتما من الأنماط الصناعية فى غربى القارة ذات الاقتصاد الحر ، وإن كان لنا أن نعترف بأن التباين الحالى ستخف حدته مع مرور الزمن. وفى الحقيقة فإن السياسة الاقتصادية فى الشرق والغرب تحرص على تحقيق المساواة فى التنمية الاقتصادية على المستوى الإقليمى وكذلك بين الدول ، كما أن هناك عنصراً آخر من عناصر التغيير يتمثل فى نمو القطاعات الاقتصادية الثلاثية (وحتى الرباعية) فى معظم الدول المتقدمة ، وإذا اتبع هذا الاتجاه فقد تظهر مجموعة من الدول (غالبا ألمانيا وفرنسا والمملكة المتحدة ودول البنلكس) مكونة ما يسمى « بأوروبا ما بعد الصناعة » Post Industrial Europe . ستكون وظيفتها تقـــديم خـــدمات حيوية وذات كفاءة عالية إلى باقى دول القارة .

جذب انقسام الحرب الباردة الأيدولوجى أقطار شمال وغربى أوروبا (وبعضا من دول الجنوب) إلى ارتباط عسكرى واقتصادى وثيق داخل نطاق شمال الأطلسى كما شهدت نفس المنطقة تطورا اقتصاديا داخل هذا الإطار. أما دول شرق وجنوب شرق أوروبا فقد تغلغلت بنظام اقتصادى وسياسى ذى وجهة وأبعاد قارية أقامها الاتحاد السوفيتى . وعندما أخذت المصالح الأمريكية والسوفيتية تتردد وتتذبذب مع بروز مشاكل عديدة من أجزاء أخرى من العالم ، وذلك فى الربع الثالث من هذا القرن ، حدث اتصال بين الدولتين وبدأ البحث عن أسس للوفاق بينهما متخطين بذلك الخلافات الأيدولوجية . وتنبثق هذه الرغبة فى الاتصال بلاشك من التقدير لدى الأوروبيين بأن كل أجزاءها مرتبطة ببعضها البعض تجمع بينها المصلحة المشتركة والمنفعة المتبادلة . ومع نمو نفوذ ومكانة الدول داخل هذه التجمعات أو المعسكرات أخذت هذه الدول تضغط وتطلب بإعادة إنشاء علاقات وارتباطات أوروبية (وقد أدى الاسراع فى مثل هذه العملية إلى أزمة الاسكندر دويشك وغزو

تشكوسلوفاكيا) . ويبدو معقولا الآن أن هذه العملية نحو الوفاق الأوروبى قد خطت خطوات كبيره ولا يمكن إيقافها وأن حقائق اقتصادية وتكنولوجية قد جعلت من الصراع المسلح أمرا لا معنى له ، ومتى ماتوفرت الظروف المواتية (مثل إيجاد توازن عسكرى واقتصادى معقول) سيكون هناك تقارب مستقر بين دول أوروبا . وبقدر ما يصبح الوفاق أكثر حقيقة ، بقدر ما يقوى وضعها إذ أن امتدادها عبر نظامين اقتصاديين وسياسيين مختلفين سيجعلها فى وضع أفضل للاستفادة من مجال التبادل الواسع الذى يمكن أن يتم فى الحيز الحدودى بين هذين النظامين . وفى هذا الوضع قد تشكل أوروبا تلك « القوة الثالثة » (فى التركيب الجغرافى السياسى للعالم) كما تصورها مؤيدو « الحركة الأوروبية » فى أواخر الأربعينات .

ويمثل المجال الاقتصادى لأوروبا البحرية ، والذى يتمركز حول شمال الأطلسى ، فى الحقيقة تقوية منطقة تجارية قديمة وتطعيمها بعلاقات تجارية جديدة فى إطار سياسى ودفاعى ، فنى المناطق الأوروبية الغربية والأمريكية المطلة على الأطلسى يوجد أكبر تركز صناعى فى العالم ، وقد أدى ظهور ناقلات المواد الخام الضخمة ذات التكاليف الزهيدة إلى تعزيز مكانة المواقع الساحلية العميقة التى أصبحت تجتذب الصناعات إليها . وعلى الرغم من ذلك فقد يحدث فى أوائل القرن القادم أن تعتمد أجزاء من هذه المنطقة الصناعية إلى درجة كبيرة على صناعات اساسية ثقيلة تستخدم مواد خام أساسية من داخل أوراسيا إذا كانت تكاليف النقل أقل ومشجعة . كما أن مصانع شمال الأطلسى قد تتحول إلى استخدام وسائل التقنية العالية التى تتطلب تقوية وتدعيم الارتباط بين الشركات ذات القومية المتعددة على جانبى المحيط بغرض دعم برامج البحث والتنمية الغالية لتحقيق ذلك . ومع أن إنشاء السوق المشتركة قد أدى إلى ظهور الشركات ذات القومية المتعددة فقد دلت التجارب أن التعاون والدعم الأمريكى حيوى فى هذا المجال . ويمكن أن نستقرىء من الوضع الحالى أن تتحول المناطق الهامشية الأطلسية إلى مركز تجمع لاقتصاديات

« ما قبل الصناعية » التى ستعتمد على النشاطات الثلثية (وربما الربعية) مع احتمال ربط المهارات التكنلوجية لمصانع أوروبا الهامشية مع احتياطى العمال فى الداخل وخاصة شرق وجنوب شرق أوروبا .

وقد حدث تقارب بين منطقة الأطلسى الاقتصادية واقتصاد منطقة المحيط الهادى المتطور الذى يشمل جنوب شرق آسيا بإمكانياتها الضخمة ، وقد حدث ذلك إثر مجموعة من العوامل السياسية أدت الى تقليل العزلة الأيدولوجية ومن ثم الجغرافية للمناطق الداخلية من أوراسيا السوفيتية . ويظهر الإنتاج الصناعى فى داخل أوراسيا تركيزا واضحا فى الجزء الغربى منه حيث تشكل مصانع دول شرق أوروبا وغربى الاتحاد السوفيتى أربعة أخماس مجموع الإنتاج الاشتراكى . وتشير الدلائل منذ أواخر الستينات على أن هذا التركيز الصناعى فى الغرب أخذ يزداد ويتمثل فى الاستثمارات الضخمة فى غرب بيلوروسيا وأكرانيا السوفيتية . وقد تم إنشاء تجمع فى شرق أوروبا على غرار المونتاندرايك فى الغرب يتكون من الصناعات الكيماوية الثقيلة فى حوض السال الألب (ألمانيا الديمقراطية) والصناعات الثقيلة المتنوعة فى منطقة بوهيميا — مورافيا ومنطقة صناعية موسعة فى سايليزيا العليا فى بولندة ، وكلها تمثل وضعا يجعل التقارب والتعاون مع عربى أوروبا ممكنا . أما التجمع الثالث فهو سوفيتى ويشمل الجنوب الصناعى (اكرانيا) والوسط الصناعى (موسكو وما حولها) ومنطقة الأورال والفولجا ، ولكن له صلات مع التجمعين السابقين .

وتكمن القوة الضخمة لهذا النطاق القارى على المدى البعيد فى أن منطقة الكوميكون تحتوى على ثروة معدنية هائلة فى سيبريا وآسيا الوسطى السوفيتية . ورغم أن الاتحاد السوفيتى قد أشعر أعضاء الكوميكون بأنهم فى موضع المحاباة دائما فإن هذه الدول ستحتل مكانة متميزة فى وضع يتسم بالنقص فى المواد الأساسية وستلعب سيبريا دورا هاما فى أوروبا — شرقها وغربها — كمصدر أساسى للطاقة : غاز طبيعى أو بترول أو طاقة كهرومائية أو حرارية أو نووية .

ويتوقع أن تتفاقم أزمة الطاقة فى أوروبا عند نهاية هذا القرن وتبدو المصادر المحلية ضئيلة بالمقارنة مع إمكانيات سيبريا ، وستكون للأنابيب الضخمة وأسلاك الكهرباء ذات الطاقة العالية دورا حيويا فى مصادر الطاقة الأوروبية . وحتما سيتطلب استغلال وتنمية هذه الموارد الآسيوية - الأوروبية ثروة مالية وتقنية لاقبل للاتحاد السوفيتى ودول الكوميكون الأخرى من الوفاء بها مما يستدعى الاستعانة بخبرات وثروات الدول الغربية المتقدمة مثل الولايات المتحدة وفرنسا واليابان وتدرس ألمانيا الغربية إمكانات الاستفادة من مصادر الطاقة السوفيتية التى يتوقع أن تحل مشاكل الطاقة فى غربى أوروبا واليابان وحتى الولايات المتحدة فى وجه أسعار دول الأوبك المرتفعة . ولكن يبقى السؤال إلى أى مدى يستطيع الاتحاد السوفيتى الوفاء بذلك ؟ ويتوقع أن يتسع مجال التجارة بين دول الكوميكون فى شرق أوروبا وغربى أوروبا : تصدر الأولى منتجاتها الصناعية (مثل الأدوات المنزلية بأنواعها والمواد الاستهلاكية المتينة وغيرها) إلى أسواق غربى أوروبا بينما ستنحصر صادرات الدول الغربية إلى شرق أوروبا على المواد الاستهلاكية والمنتجات التكنولوجية العالية . وقد بدأ هذا النمط من التجارة فى الظهور فى الستينات ولكن يمكن له أن ينمو ويزدهر إذا أزيلت القيود السياسية ونجحت سياسة الوفاق التى تسعى إليه بعض الدول فى أوروبا الغربية مثل ألمانيا وفرنسا .

أدت التحولات الجغرافية - السياسية التى حدثت فى القرن العشرين إلى ظهور عدد من المفاهيم والعلاقات الإقليمية الجديدة ، والسؤال هنا هو فيما إذا ستحدث تغييرات أخرى فى مجال الأداء الوظيفى الحالى للأقاليم مع حلول القرن الحادى والعشرين وخاصة من خلال أثر نظام فوق قومى ودولى موسع ؟

إذا أخذنا دول شمال أوروبا - الاسكندناوية - لانجد فيها تغييرا يذكر إلا من فقدان فنلندة لبعض أقاليمها لروسيا مما أدى إلى حدود مشتركة بين الأخيرة والنرويج . أما من الناحية الاقتصادية فإن السويد تمثل مكان الصدارة . ولكن سياسة الحياد التى تتبعها هذه الدول منذ فترة طويلة لم تعد ذات فعالية إذ

انضمت الدنمارك والنرويج لحلف شمال الاطلسى ، وكان الخرق الآخر للحياد التقليدى بعد انضمام الدنمارك للسوق المشتركة اعترافا بواقع العلاقات الاقتصادية التى يربطها بدول السوق الأعضاء . أما النرويج فقد رفضت الانضمام للسوق رسميا على الرغم من أن تطوير واستغلال مواردها من بترول بحر الشمال سيقربها أكثر وأكثر من السوق المشتركة . أما أيسلنده التى تعتمد تماما على صيد الأسماك ، وما تتعرض له هذه الحرفة من تقلص فى الموارد وتلوث المياه ، فوقعها غير منيع من ناحية اقتصاديات الدول الاسكندناوية ، وقد يكون صراعها مع بعض دول أوروبا الغربية بخصوص مصايد الأسماك انعكاسا لتوافق جديد فى الرأى بين الدول البحرية حول حاجة الدول إلى حماية مواردها السمكية والبحرية بتفسير جديد للسيادة على البحر وذلك عن طريق توسيع ومد المياه الإقليمية .

إثر تخفيف حدة التوتر فى أواخر الستينات شهدت منطقة البلطيق بعثا فى حياتها واستعادة لحيويتها ونشاطها الملاحى . وحتى خلال فترة الحرب الباردة كان بحر البلطيق مسرحا لنشاط تجارى كبير كما أن إمكاناتها العظيمة فى مجال التبادل بين صناعات اسكندناوة التكنولوجية العالية وموارد الطاقة والمواد الخام من دول الكوميكون سيجعل منها حلقة وصل ذات أهمية ، ويمكن أن تأخذ العلاقة الوثيقة بين اقتصاديات فنلنده وروسيا مثالا لذلك ، كما أن التطور السريع فى الاتصالات البرية بين المناطق « البحرية » و « القارية » فى أوراسيا سترفع من أهمية بحر البلطيق : فحاليا يتم شحن الحاويات الآتية من اليابان عن طريق سكة حديد سيبريا القارى فى موانىء روسيا البلطيه لتفريغها فى موانى غربى أوروبا . ولكن هناك معوق أساسى فى وجه تطوير البلطيق يتمثل فى عدم قدرة الشاحنات البحرية الضخمة bulk carriers من الوصول إليه مع أن أى تحسين يطرأ على العلاقات بين الشرق - والغرب سيساعد فى تحسين أجزائها الصالحة للملاحة وتوسيع مداخل القنوات لاستقبال هذه السفن .

يتوقع عند حلول القرن الحادى والعشرين أن يحدث أكبر وأعظم تجمع فى

شبه القارة الرئيسية التى شهدت من قبل أيضا التغييرات الرئيسية بعد الحربين العالميتين . مع ظهور إمبراطورية ألمانية قوية ومع ازدياد نفوذ عائلة هابسبيرج وانتشارها لتى مفهوم سائد غير محدد قبولا عند كثير من الأوروبيين ، وهذا المفهوم هو « وسط أوروبا Mitteleuropa » الذى كان يشمل قوة سياسية واقتصادية ضخمة يمتد نفوذها صوب الجنوب الشرق ليضم منطقة الدانوب والبلقان ويتغلغل أيضا إلى مناطق التخوم marchlands الشرقية والشمالية الشرقية . وخلال الحربين أصاب المنطقة الضعف والتمزق وانقسمت بين ألمانيا مضطربة سياسيا ودويلات الخلافة البرمه ، ثم أحيتها النازية لفترة طويلة بإعلان فكرة « ألمانيا الكبرى » فى عام ١٩٤٢ . وترك انهيار وهزيمة ألمانيا فى عام ١٩٤٥ هذه المنطقة المهمة « فارغة » لتصبح فى فترة الحرب الباردة فى الخمسينات جبهة الالتقاء بين أيدولوجيات متنافسة .

وقد أدى اختفاء « أوروبا الوسطى » إلى إعادة تنظيم على مستوى كبير فى النمط المكانى الأوروبى فى المعسكرين المتنافسين ، وتمثل منطقة « الراين الكبرى » والتى برزت نتيجة التحول من السياسة الاقتصادية القومية فى الثلاثينات إلى السياسة فوق القومية التى تنتجها السوق المشتركة ، تمثل أهم منطقة وظيفية جديدة ، يقوم أساسها على تطوير فكرة « مونتاندرايك » فى أول الخمسينات عن طريق ربط ودمج الصناعات الثقيلة لدول ألمانيا وفرنسا ودول البنلكس ، ثم ازدهرت فيما بعد بسهولة المواصلات والانتقال بعد إنشاء ميناء روتردام – الميناء الأوروبى والتوسع فى مجال التجارة والنقل الذى حدث فى « الدلتا الأوروبية » . وقد كان للدور الرئيسى الذى يلعبه نهر الراين داخل هذه المنطقة فى غربى أوروبا عامة اثر فى جعله محورا ومركزا للنشاطات المختلفة . وهكذا ظهرت « منطقة الراين الكبرى » لتشمل عدداً من المراكز الصناعية الرئيسية فى غربى أوربا : مركز « الدلتا الأوروبية ومركز الراين – الرور والراين – مين الصناعية ، ومركز حوض نيكر ، ومركز سارلورلكس بالاضافة إلى المنطقة الوسطى السويسرية كما ترتبط بها مراكز صناعية أخرى مثل شمال فرنسا ومنطقة سامبر – ميوز البلجيكية ودهليز الرون ومنطقة « باريس الكبرى »

وشمال غربي وجنوب ألمانيا وكلها تشكل حلقة خارجية لتجمعات صناعية مهمة .

انبثق الدافع الأول لإنشاء منطقة « الراين الكبرى » من الصناعة الثقيلة المرتبطة بصفة خاصة بموارد الفحم الضخمة والتى جذبت فيما بعد صناعات أخرى . وانعكست آثار ثورة الطاقة التى نتجت من موارد البترول الضخمة فى الستينات ، انعكست فى تجمع الصناعات الكيماوية الثقيلة حول مرافىء البترول فى روتردام – الميناء الأوروبى وكذلك فى تطور مصافى البترول بالقرب من أو فى مراكز الصناعات الكيماوية القديمة على طول المجارى الوسطى والعليا من أنهار المنطقة (منطقة الراين الأدنى ومين الأدنى ومنطقة كارلزروها) . وبفقدان الصناعات الثقيلة الداخلية ميزات مواقعها لصالح المواقع الساحلية التى تستخدم المواد الخام المستوردة عن طريق الشاحنات الضخمة أخذت المنطقة الداخلية للراين الكبرى تجذب الصناعة (خاصة المواد الاستهلاكية المتينة) والصناعات التكنولوجية المتفوقة . ومن العوامل الجاذبة الرئيسية قرب المنطقة من أكبر وأغنى تجمع سكانى فى أوروبا إذ يتواجد هنا أكثر من ٧٥ مليون شخص (السبعينات)

ويمكن أن ننظر إلى انضمام المملكة المتحدة إلى السوق المشتركة كإضافة إلى حيز ورقعة « الراين الكبرى » التى تحتفظ صناعاتها ونشاطاتها التجارية الآن بعلاقات وثيقة مع مثيلاتها الإنجليزية فى جنوب شرق إنجلتره والميدلاندز الإنجليزية ومنطقة همبر وشمال شرق إنجلتره . وتقوى مدينة لندن كمركز مالى ومصرف عالمى دور السوق المشتركة فى هذا الحقل . ولأن عملية الدمج الكلى لاقتصايات بريطانيا فى التركيب الاقتصادى ذى الصيغة فوق القومية للسوق المشتركة سيتطلب وقتا أكبر وعلى الأقل عشرة أعوام ليكمل ويشارف نهايته ، فإن الأثر الحقيقى للتغيير والتحول فى منطقة الراين الكبرى وخارجها لن يظهر بوضوح وتفصيل إلا فى نهاية هذا القرن عندما يتوقع أن تبدأ تغييرات هامة فى جغرافية السكان والجغرافية الاقتصادية فى الظهور حول الأجزاء الجنوبية من بحر الشمال والقنال الانجليزى وما يتبع ذلك من آثار على جغرافية أجزاء بريطانيا الأخرى .

ويطرح النمو الناجح والقدرة الفائقة التى أبدته منطقة الراين الكبرى فى اجتذاب السكان والاستثمار أكثر من باقى المناطق خطورة كامنة فى المستقبل بخصوص الإسراع فى وضع تحديد وتعريف واضح « لأوروبا الثانية » – أى أجزاء أوروبا المتخلفة اقتصاديا والتى تفشل فى المحافظة على مستويات أعلا فى المعيشة وعجزا فى استقطاب الثروات مثل المنطقة المركزية . ولابد أن تخلق المشاكل الاجتماعية والاقتصادية فى هذه المناطق المتخلفة صعوبات جمة فى المحافظة على أهداف الوحدة والتكامل التى تسعى لتحقيقها السوق المشتركة . وعلى الرغم من ذلك فقد تم التعرف على هذه المشاكل وسيتيح التحسين فى سياسات التخطيط ووسائله وإجراءاته إيجاد الطريقة التى بواسطتها يمكن إعادة توزيع الثروات والموارد وإزالة التباين والتفاوت على مستوى التطور الإقليمى . وقد رفضت فكرة ومفهوم « أوروبا الثانية » أى أوروبا المتخلفة أساسا فى السبعينات عندما اقترح فى تقرير تندمانز عن الوحدة الأوروبية Tindeman's Report on European Union (١٩٧٦) الذى أثار كثيرا من الجدل حوله .

أما بالنسبة لبحر الشمال فقد حفزت اكتشافات البترول الهائلة فى الحوض الشمالى للبحر إلى تطور اقتصادى سريع أدى إلى ظهور إقليم وظيفى جديد يمكن أن نطلق عليه « مجال أو حيز بحر الشمال » تتركز مناطق التطور فيه على الساحل الشرقى لأسكتلنده وجنوب غربى النرويج وكذلك جزر أوركنى وشتلندز كما أن آثار هذا التطور قد وصلت إلى شمال شرقى إنجلترة والدنمارك وشمال غربى ألمانيا وهولندة .

ويرجع تطور هذا الحيز إلى ثورة تقنية أتاحت المجال للقيام بعملية مسح مناسبة كما أتاحت تطبيق وسائل جديدة لاستغلال البترول ويعطى مثلا حيا لأثر التكنولوجيا على التعرف على الموارد واستغلالها . وتشير سرعة اكتشاف الإرسابات البترولية واستغلال هذه الموارد إلى ان هذا الإقليم سيكون من المناطق الرئيسية لإنتاج البترول حتى القرن القادم ، وتعقد دول أوروبا الغربية

آمالا عريضة على بترول بحر الشمال لحل مشاكل الطاقة فيها . ولكن فيما إذا كان اكتشاف حقل من الحقول « تجارى » أو غيره فإن تحديد ذلك يعتمد على مستوى أسعار البترول العالية بالنسبة إلى تكاليف التنقيب والاستغلال . ويحتوى حوض بحر الشمال أيضا على كميات هائلة من احتياطى الفحم يحتاج استغلاله إلى وسائل تكنولوجية عالية كالتى استخدم فى التنقيب عن البترول .

جذب بترول بحر الشمال عددا من الصناعات المرتبطة بالبترول كما أحدث تطورا كبيرا فى قواعد التمويل الصغيرة فى عدد من الموانىء الصغيرة المنتشرة فى الساحل الشرقى لأسكتلندة وفى النرويج . ومع أن هناك مصافى تكرير ضخمة فى جنوب بحر الشمال وموانىء القنال (وخاصة فى روتردام — الميناء الأوروبى) فهناك اقتراحات لإنشاء مصافى جديدة حول الحوض الشمالى للبحر (مثل جزر شتلندز وخليج كرومارتى) ومصانع لمعالجة الغاز الطبيعى (سانت فيرغاس وبيترهيد) . وستستفيد الصناعات الحالية حتما (فى تيزبورت وامدن) بينما يبدأ العمل فى إنشاء مصنع ضخم للبتروكيماويات (كما فى فايف) فى الثمانينات . وبجانب التطور الذى حدث فى أسكتلندة وجنوب النرويج فى صناعة الأحواض الجافة وتسهيلات إنشائية أخرى فى بناء معدات التنقيب البحرية والأرصفة oil rigs ، نشأت صناعات أخرى عديدة بالقرب من حقول النفط . وفى وجه مشاكل الملاحة وازدحامها فى الجزء الجنوبى من بحر الشمال ، يبدو أن المجال الفسيح للمناورة فى القطاع الشمالى بالنسبة للإنشاءات والمعدات الضخمة والناقلات الكبيرة بالإضافة إلى وجود موانى عميقة يعطى لهذا القطاع أهمية أكبر فى مجال التطور مستقبلا ، كما أن بحر الشمال عامة يمتلك مواقع ممتازة لمصانع الحديد والصلب الساحلية إذا استمرت الدول المضى فى هذا الاتجاه ، ويمكن أن تتوقع مجمعات صناعية ضخمة محدودة العدد تلبى طلبات واحتياجات دول غرب أوروبا فى القرن القادم . وتشير المقترحات الألمانية لتطوير مصب نهر الألب والتطورات التى تشهدها منطقة نهر التيز Teesside إلى النمط المتوقع ظهوره فى هذا المجال ولو أن إقامة المصانع الساحلية يتطلب اختيارا دقيقا للموقع لان تكاليف الخدمات قد تصبح مرتفعة لدرجة يصبح

معها إقامة المصنع غير اقتصادى كما وضح من اقتراح مجمع متكامل لصناعة الحديد والصلب فى روتردام – الميناء الأوروبى ماسفالكت Rotterdam-Luropoort Maasvalkte على بعد ثلاثين ميلا من الخدمات الموجودة ومناطق السكن الرئيسية للعمال .

يثير الدور الجديد الذى سيلعبه الرفرف القارى والبحار الهامشية تساؤلا حول دور الجزر البريطانية فى أوروبا القرن الحادى والعشرين وبالأخص مع تطور وتوسع مجال التجارة الأطلسية . فالشاحنات المحيطية الضخمة وتحول المصانع إلى المواقع الساحلية تحابى بصفة خاصة بريطانيا وتدعم من وضعها وموقعها لأن بها مواضع ذات مياه عميقة تناسب أضخم الصناعات الساحلية ، كما أن الموانىء الأوروبية بما تتميز به من سهولة الاتصال ببحار عميقة ومفتوحة يمكن أن تمنح نقاط تبادل بين الشاحنات الضخمة والسفن الصغيرة لتوزيع المواد إلى الموانىء ذات المياه الضحلة ، أو عبر اليابسة . وتتجلى الإمكانات التى ستتاح بمثل هذه التطورات فى مشروع « أوشان سبان Oceanspan » الذى اقترح لاسكتلندا الوسطى فى السبعينات وأهمل بعد ذلك . وسيتطلب دمج الصناعة البريطانية فى صناعات الراين الكبرى وباقى دول السوق وسائل نقل أحسن كفاءة بحلول عام ٢٠٠٠ م ولن تستطيع العبارات الحالية حتى وإذا زيد فى عددها وحجمها أن تواكب مستوى الحركة آنذاك مما يستدعى التفكير فى نفق آخر عبر القنال الإنجليزى . ويتوقع أن يشهد محور « الدلتا الأوروبى » – همبرسايد تطورا كبيرا فى الحركة عبر بحر الشمال .

أما بالنسبة لفرنسا فقد أشارت تنبؤات اقتصادية منذ أوائل السبعينات إلى دولة غنية ومتقدمة بحلول عام ٢٠٠٠ ، وستستفيد فرنسا دائما من دورها كجسر يربط بين المحيط الأطلسى والبحر الأبيض المتوسط والمناطق الداخلية من أوروبا . ولكن ظهرت مناطق أخرى ذات أهمية فى الساحل الأطلسى الذى زادت قيمته بعد ظهور الشاحنات البحرية الضخمة كما أن أهمية دهليز الرون – ساوون الذى سيربط بين البحر الأبيض المتوسط ومنطقة الراين ستزداد دون

شك ، بينما سيؤدى تدهور الصناعات التقليدية العاجزة عن تلبية احتياجات الاقتصاديات المرتفعة إلى تقلص السيطرة السابقة لشمال فرنسا فى هذا المجال ، كما أن انتشار الصناعات الجديدة سيتسبب فى ازدهار ما يسمى « بالصحراء الفرنسية » أى الأجزاء المتخلفة منها . أما مشاكل الطاقة المزمنة فليس من المتوقع أن تنفرج ولذلك يحتمل أن تستقطب فرنسا الصناعات التى تتطلب طاقة أقل . ومع تزايد الطلب على المواد الغذائية ستلعب الزراعة دورا أكثر أهمية وفائدة بالنسبة للريف .

أما بالنسبة لمنطقة شرق أوروبا فتطور الأحداث داخل الدول (كما يحدث فى بولنده الآن) قد يؤثر فى النمط الاقتصادى والسياسى الحالى للمنطقة . أما إذا بقى الوضع على ما عليه الآن يمكن أن نتوقع :

أولا : الاستمرار فى سياسة الانفراج الاقتصادى من التخطيط المركزى الصارم الذى تميزت به سياسة الكوميكون الاقتصادية فى مراحل تكوينها الأولى .

ثانيا : هناك نواة لما يمكن أن يكون « مونتاندرايك » صغرى بدأت فى الظهور فى السبعينات بين ثلاثة من أكثر دول المنطقة تقدما ألا وهى : ألمانيا الديمقراطية وتشكوسلوفاكيا وبولندة حيث لقى التعاون والتكامل وربط الصناعات والمواصلات بعضها بالبعض تشجيعا متبادلا من الدول المعنية . وقد يصبح الإقليم من أهم وأقوى المراكز الصناعية فى المعسكر الاشتراكى كما أنه فى حالة إكمال مد أنابيب البترول والغاز الطبيعى وشبكة الكهرباء سيحتل الإقليم أيضا مركزا مهما من حيث مصادر الطاقة .

ثالثا : سيكون هذا الإقليم مركزا لصناعات ذات التكنولوجيا المتقدمة خارج الاتحاد السوفيتى بينما يتم حاليا إنشاء أعمال صناعية تساهم فيها شركات متعددة الأجناس .

ظل حوض الدانوب مجزءا بين ألمانيا والنمسا ذات الوجهة الغربية وأعضاء

منظمة الكوميكون (المجر وتشكوسلوفاكيا وبلغاريا) ويوغسلافيا الاشتراكية ، وهو تقسيم سياسى أدى إلى تقلص التجارة بين الدول على عكس نهر الراين الذى يكتسب أهمية تجارية وخاصة فى ظل سياسة التكامل الأوروبى . ولجعل نهر الدانوب ممرا دوليا ذا فعالية فلابد من إزالة العوائق الطبيعية التى تعوق الملاحة فى مجراه ورفع مستوى التجارة بين الدول النهرية مما يزيد من حركة النقل النهرى . وفى هذا الصدد ستستفيد كل هذه الدول من إنجاز مشروع مشترك وخطة شاملة لتطوير النهر على غرار « هيئة وادى تنسى TVA » فى أمريكا . وقد حدثت تطورات هامة فى هذه الناحية مثل الخزان الذى تم بناؤه عند البوابة الحديدية لتوليد الطاقة ضمن مشروع مشترك بين رومانيا ويوغسلافيا وكذلك المشروع الرومانى لبناء قنال عبر دوبرويا Dobruja بين سيرنافودا وكونستانطا لتفادى منطقة الدلتا الصعبة . ولكن المشروع لم يتم لمعارضة الاتحاد السوفيتى له . ويفكر السوفيت فى بناء نظام قنوات دائرى فى أوروبا الشرقية ، وإذا تم إنجاز هذا المشروع فسيكون نهر الدانوب حلقة وصل مهمة فى هذا النظام . ويتوقع أن يؤدى تبادل تجارى أكثر حرية والتطور الصناعى ونموه إلى زيادة فى استخدام الدانوب ، ومع استخدام وسائل ملاحية حديثة قد يصبح النهر محورا صناعيا هاما كالراين .

بعد الحرب مباشرة دفعت المصالح المشتركة بين بلغاريا ورومانيا ويوغسلافيا إلى محاولة لإنشاء رابطة سياسية متميزه لدول البلقان . وعلى الرغم من أن روسيا سعت إلى إحباط هذه المحاولة لما تتسم به من مسحة سياسية باطنه فقد اعترف قادة روسيا بالحاجة إلى تكوين « مجمع إنتاج إقليمى » يغطى على الأقل رومانيا وبلغاريا ويرتبط مع مولدافيا السوفيتية وأكرانيا . وبعد التمزق والتناحر الذى تميزت به البلقان فإن مستقبلها يبدو مشرقا الآن نتيجة الموارد الطبيعية الكبيرة التى تتمتع بها ولأن نسبة النمو الاقتصادى العالية فى وقتنا الحالى ستحملها إذا استمرت على هذا المنوال ، إلى وضع قوى عند حلول عام ٢٠٠٠ .

أما حوض البحر الأبيض المتوسط فهو مرشح ليشهد تغييرات وتحولات كبيرة في القرن القادم . وقد يظهر مفهوم « أور أفريقيا Euroafrica » تجسيدا لارتباطات جديدة بين جانبي الحوض فقد شهدت العلاقات الجغرافية والسياسية التي كانت تربط شمال أفريقيا تدهورا بعد انتهاء عهد الاستعمار الفرنسي البريطاني والإيطالي ، وظهرت في مكانها جبهة فاصلة بين مصالح روسيا وأمريكا . وبينما تولد شعور بالذات بين الدول الإسلامية في شمال أفريقيا ، فإن دول شمال الحوض تعاني من انقسام بين دول اشتراكية وغير اشتراكية . وقد أدت تنمية الموارد البترولية والغاز الطبيعي والمعادن الأخرى في شمال أفريقيا منذ الستينات إلى ارتفاع ثرواتها ، وتبادل تجاري بينها وبين الجزء الأوروبي ويتوقع أن يقوى هذا الارتباط في القرن القادم ويزدهر .. ومثلما سيؤدي التغيير الديمقرافي في الدول الصناعية المتقدمة إلى بطء في النمو السكاني مما يخلق مشاكل في تمويل العمال سيجذب النمط الاقتصادي المزدهر في جنوب أوروبا وشمال أفريقيا صناعات جديدة وخاصة إلى المناطق الريفية حيث يوجد احتياطي ضخم من العمال . وهذا الاتجاه ظهرت بوادره في إيطاليا وأيبريا . وإذا سلمنا بأن مستوى الغنى الحالي سيستمر في الارتفاع في القرن القادم (وإن كان هذا غير مؤكد تماما) سيحافظ حوض البحر الأبيض المتوسط على مكانته كمنطقة ترفيهية وسياحية لباقي أجزاء أوروبا ، هذا إذا اتخذت إجراءات كافية للمحافظة على البيئة ، كما أن البحر الأبيض المتوسط سيستعيد مكانته ووظيفته كممر مائي يربط بين المحيط الأطلسي والمحيط الهندي عبر قنال سويس موسع ومضمون الملاحة عبرها ، كما أن النمو الاقتصادي في حوض البحر الأسود وآسيا الصغرى وبلاد الشام سيزيد من وظيفته العبورية أو المرورية .

ثم يبقى سؤال أخير : هل تستطيع أوروبا المحافظة على وضعها الاجتماعي والاقتصادي في العالم في عام ٢٠٠٠ وأي أنواع التغييرات يمكن أن يطرأ عليها ؟

أن أية إجابة لهذا السؤال لن تكون موزونة أو دقيقة . فإذا رسمنا خريطة توضح التوزيع العالمي للظاهرات التجارية والصناعية فستظهر فيها خمسة تجمعات

(مراكز) رئيسية كلها محصورة فى نطاق عرضى ضيق يقع كله فى النصف الشمالى من الكرة الأرضية ، ويظهر نطاق التركيز هذا فى خريطة توزيعية لعناصر أخرى مثل النقل والمواصلات التى تتجمع بين هذه المراكز أو فى اتجاهها . وداخل هذا النطاق لا توجد سيطرة لتجمع أو مركز على تجمع آخر فى الوقت الحالى كما أن احتمال حدوث ذلك بعيد . وعلى الرغم من أن أمريكا الشمالية يمكن أن تقف لوحدها فإن ارتباطاتها وعلاقاتها مع أوروبا الغربية واليابان تبدو بارزة وقوية . أما مراكز التجمع فى روسيا وشرق أوروبا فقد ظلت معزولة من أوروبا الغربية واليابان ويحتمل أن يحدث تقارب بينها فى نهاية هذا القرن . وإذا كان لنا أن نجمع أوروبا الغربية (بصناعاتها ذات التفوق التكنولوجى) وأوروبا الشرقية (بنسبة نموها الصناعى العالى) فيمكننا التنبؤ بظهور أوروبا قوية .. أوروبا فى مظهر تجمع اقتصادى ضخم حتى ولو كانت الاقتصاديات القومية ذات أبعاد متواضعة . ومن الواضح الآن أن تحقيق وحدة وتكامل على مستوى عال سيكون لصالح ورفاهية القارة مستقبلا وخاصة فى عالم يتسم بالتنافس الحاد . ورغم انقضاء « عصر أوروبا » فإن القارة لم تفقد إلا القليل من أهميتها السياسية - الجغرافية فى العالم كما يظهر فى المواجهة ، على أرضها بين القوتين العظميين رغم انشغالها بمناطق أخرى من العالم . ولكن هناك ما يدعو للتساؤل : هل العجز فى الوصول إلى وفاق بين القوتين مرجعه عدم الرغبة فى فك الارتباط بينهما فى أوروبا ؟ لأن أى انسحاب لهذه القوات سيخلق فراغا (حتى ولو كان جزئيا) سيملؤه شعور جديد قوامه الإيمان بوحدة أوروبا التى ستظهر كقوة ثالثة : فإن أوروبا المتحدة لها إمكانيات هائلة تؤهلها بملء هذا الحيز بجدارة .

وعلى الرغم من ذلك فإن أوروبا تفقد تدريجيا نصيبها من سكان العالم نظرا لمعدل النمو البطئ ، وسيؤدى سكانها المعمرين إلى مخاطر بحلول القرن القادم تتمثل فى توازن اجتماعى صعب ، كما أن التحول إلى « نقطة نمو » جديدة قد لا ينتج عقولا شابة ذكية بعدد كاف للحفاظ على البحث والتطور التكنولوجى

العالى على مستوى رفيع . فمرحلة الشيخوخة السكانية تقتضى ضمنا ومن أجل المحافظة على المستوى المعيشى قدرة فعالة لكسب الثروات من قبل النسبة المتضاءلة أو المتقلصة من المجموعة المنتجة اقتصاديا وديمقرافيا . وهناك فرص كثيرة لحل عدم التوازن السكانى الداخلى وذلك بتشجيع الهجرة الداخلية ، هذا إذا ما ضعفت النعرات والتحيزات العرقية والقومية .

ويمكن لأوروبا أن تلعب دورا اقتصاديا هاما فى القرن القادم ، فهى بصناعاتها المتقدمة والتقنية الرفيعة فى وضع يؤهلها لمساعدة تطوير آسيا الداخلية ودول العالم الثالث خاصة أفريقيا وأمريكا اللاتينية ، فهذه الأماكن لها إمكانيات طبيعية هائلة تنتظر الاستغلال كما أن أسواقها (آسيا الموسمية - الصين - أفريقيا) مهمة لمنتجات أوروبا الصناعية على المدى البعيد .

ولذلك فإن لأوروبا دورا مهما ستلعبه فى عالم الغد ، ويمكن أن يتحقق ذلك عن طريق الوحدة والتكامل بين دولها والتعاون مع دول القارات الأخرى ، فالقارات لم تعد معزولة عن بعضها البعض والاتكال المتبادل سيكون من سمة العلاقات بين أجزاء العالم المختلفة فى القرن القادم .

المراجـع

أ – المراجع الرئيسية :

1. B.H.S. Van Bath: Agrarian History of W. Europe A.D. 500 - 1850. Arnold, London, 1963.

2. R and M. Beckinsale : Southern Europe : The Mediterranean and Alpine Lands. University of London Press, London, 1975

3. H.D. Clout : Agriculture Studies in Contemporary Europe. Wiley, London, 1971.

4. H.D. Clout (ed.) : Regional Development in W. Europe. Wiley, London, 1975.

5. H.D. Clout : The Regional Problem in W. Europe. Cambridge University Press, Cambridge, 1976

6. T.W. Etkins : Germany 2nd ed. Chatto : Windus, London, 1969.

7. W. Fitzgerald : The New Europe. Methuen, London, 1946

8. S.H. Franklin : The European Peasantry, Methuen, London, 1969.

9. C.H. Franklin : "Rural Societies" Macmillan, London, 1971

10. J. Geipel : The Europeans : an ethnological Survey, Longmans, London, 1969.

11. M. Hodges (ed.) : European Integration. Penguin, Harmondsworth, 1972.

12. Hoffman (ed.)

13. J.M. Houston : A Social Geography of Europe. Duckworth, London, 1953.

14. T.G. Jordan : The European Culture Area, Harpe and Row, London, 1973.

15. L.A. Kosinski : The Population of Europe : A Geographical Perspective, Longmans, London, 1970.

16. V. Malmstrom : Geography of Europe : A Regional Analysis. Prentice - Hall, N.J., 1971.

17. G. Manners et al : Regional Development in Gt.Britain, Wiley, London, 1972.

18. E.C. Marchant : The Countries of Europe as seen by their geographers, Harrap, London, 1970.

19. R.E.H. Mellor : Eastern Europe : A Geography of the Comecon Countries. Macmillan, London, 1975.

20. R.E.H. Mellor and E.A. Smith : Europe - A Geographical Survey. Macmillan, London, 1979.

21. G.N. Stoughton : The New Europe : An Economic Geography. Hodder and Stoughton, London, 1978.

22. F.J. Monkhouse : A Regional Geography of W. Europe. 4th ed. Longmans, London, 1974.

23. E.A.G. Robinson : Backword Areas in Advanced Countries. Wiley, London, 1969.

24. J. Salt and H.D. Clout : Migration in Postwar Europe. Oxford University Press, Oxford, 1976

25. C.T. Smith : An Historical Geography of Europe before 1800. Longmans, London, 1967.

26. A. Somme : The Geography of Norden. Heinemann, London,1961.

27. I.B. Thompson : Modern France : A Social and Economic Geography Survey, Longmans, London, 1971

28. D. Turnock : Eastern Europe. Dawson, London, 1977

ب - مراجع الفصول ·

١ - الفصل الاول

1. D. Hay : Europe : The Emergence of an Idea. Edinburgh University Press, 1957.

2. M.S.W. Jefferson : Man in Europe. New York Harcourt Brace Jovanovich, 1926.

3. W.H. Parker : "Europe : How Far?" Geographical Journal, Vol. 126 (1960), pp. 278-97.

4. J.O.M. Brock and J.W. Webb : "Culture Realms", Chapter 8 in Geography of Mankind. New York McGraw Hill, 1978, pp. 179-97.

5. United Nations : Demographic Year book. New York: UN . various issues.

6. United Nations. Statistical Yearbook. New York, UN. various issues.

٢ - الفصل الثانى والثالث :

1. E. Raisz : "Physiography of Europe" in Goode's World Atlas ed. E. Espenshade, Ill. Rand McNally, 13th ed., 1970, p. 125.

2. A.W. Kuchler : "Vegetation of Europe", in Goode's World Atlas, op. cit., pp. 122-3

3. Glenn T. Trewartha : An Introduction to Climate. New York : MaGraw Hill, 3rd ed. 1954.

4. H.C. Darby "The Cleaning of the Woodland in Europe". In Man's Role in Change the Face of the Earth. ed. W.L. Thomas, Jr., Chicago : University of Chicago Press, 1956, pp. 763-77.

5. T.J. Chandler : The Climate of London. London, Hutchinson, 1968.

6. R. Carpenter : Discontinuity in Greek Civilisation. London : Cambridge University Press, 1966.

7. A.M. Lambert : The Making of the Dutch Landscape: An Historical Geography of the Netherlands. London and New York : Seminar Press, 1971.

8. S.E. Steigenga - Kouwe. " The Delta Plan" Tijd Voor Econo en Sociale Georgraphic, Vol. 51 (1960), pp. 167-75.

٣ - الفصل الرابع :

1. L.A. Kosinski : The Population of Europe : A Geographical Perspective. Harlow, Essex, England : Longman, 1970.

2. United Nations : Demographic Yearbook. New York, UN. various issues.

3. United Nations : Statistical Yearbook. New York, UN. various issues.

4. J.B. Schechtman : Postwar Population Transfer in Europe 1945-1955. Philaddphia : University of Pennsylvania Press, 1963.

5. J. Velikonja : " Postwar Population Movements in Europe" , Annals, Ass. of American Geographer, Vol. 48 (1958), pp. 458-81.

6. J.M. May : The Ecology of Malnutrition in Central and Southeastern Europe. Darien, Conn. : Hafner, 1966.

7. L.D. Stamp : The Geography of Life and Death. Ithaca, N. York : Cornel University Press, 1964.

8. C.S. Coon and E.E. Hunt : The Living Races of Europe. New York : Knopt, 1965.

9. J. Geipel : The Europeans : an Ethnohistorical Survey. Harlow, Essex, England : Longmans, 1969.

٤ - الفصل الخامس :

1. J.O. Brock and J.W. Webb : "The Mosaic of Languages" Chapter 5 in A Geography of Mankind. op. cit., pp.97-123.

2. J.S. Dugdale : The Linguistic Map of Europe. London : Hutchinson University Library, 1969.

3. Philip L. Wagner : "Remarks on the Geography of Languages", Geographical Review, vol. 48 (1958). pp. 86-97.

ه - الفصل السادس .

1. J.D.M. Brock and J.W. Webb : "Religions : Origins and Dispersals", Chapter 6 in A Geography of Manki l op. cit.,

2. E. Fischer : "Religions : Their Distribution and Role in Political Geography." Chapter 12 in Principles of Political Geography, ed. Hans W. Weigert. New York : Appletan, 1957, pp. 405-39.

3. Eric Isaac : "The Act and the Covenant : The Impact of Religion on the Landscape. "Landscape, Vol. 11, No.2 (1961-62), pp. 12-17.

4. Eric Isaac : "Religion, Landscape and Space" Landscape, Vol. 9, No.2 (1959-60), pp. 14-18.

5. F. Van der Meer : Atlas of the Early Christian World. London : Nelson, 1958.

6. D.E. Sopher : The Geography of Religions. Englewood Cliffs. N. Jersey. Prentice - Hall, 1967.

7. K.G. Thompson : "Homicide and Suicide in Latin America and Europe : "A Geographical Interpretation". The Geographical Bulletin Vol. 3 (1971), pp. 49-57.

8. United Nations. Demographic Yearbook. New York UN., 1966-69.

٦ - الفصل السابع :

1. R. Ardrey : The Territorial Imperative .... New York Atheneum, 1960.

2. J.O.M. Brock and J.W. Webb : "Ideologies and Political Order". Chapter 7 in A Geography of Mankind. op. cit.

3. W.G. East. "The Geography of Land-Locked States" Trans. and Papers, Inst. of British Geographers, Vol. 28 (1960), pp. 1-22.

4. G.W. Hoffman : "The Shatter-belt on relation to East-West Conflict "J. of Geography, Vol. 51 (1952), pp. 266-75.

5. H. Mackinder : "The Geographical Pivot of History". Geographical Journal, Vol. 23 (1904), pp. 421-37.

6. N.J. Pound and S.S. Ball "Core-Areas and the

Developement of the European State System "Annals Ass. of American Geographers. Vol. 44 (1964), pp.24-40.

7. N.J. Spykman : The Geography of the Peace. New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1944.

٧ - الفصل الثامن :

1. H.C. Darby : "The Changing English Landscape". Geographical Journal, Vol. 117 (1951), pp.377-98.

2. R.E. Dickinson : "Dispersed Settlement in Southern Italy", Erkunde. Vol. 10 (1956), pp. 1-21

3. R.E. Dickinson : "Rural Settlements in the German Lands, "Annals, Ass. of American Geographers, Vol. 39 (1949) pp.239-63.

4. H. Fairhurst : "Types of Settlement in Spain", Scottish Geog. Magazine, Vol. 51 (1935), pp.283-96.

5. S. Helmfrid (ed.) Vadestena Symposium : In Geografiska Annaler. Vol. 43 Nos. 1-2 (1961), 1-328.

6. A.M. Lambert : "Farm Consolidation in Western Europe". Geography. Vol. 48 (1963), pp. 31-48.

7. L.D. Stamp : "The Common Lands and Village Greens of England and Wales", Geographical Journal, Vol. 130 (1964) pp. 457-69.

8. Harry Thorpe : "The Green Village as a Distinctive Form of Settlement on the North European PLain". Bulletin de la Societe Belge d.elude Geographiques, Vol. 30 (1961) pp. 93-134.

9. Harald Uhlig : "Old Hamlets with Infield and Outfield Systems in Western and Central Europe". Geografiska Annaler, Vol. 43 (1961), pp. 285-312.

٨ - الفصل التاسع

1. J. Beanjeu - Garnier and G. Chabot : Urban Geography. N.Y. Wiley, 1967.

2. B.J.L. Berry : Theories of Urban Locations : An Introductory Essay. Washington, D.C. AAG, Commission on College Geography, Resource Paper No.1, 1968.

3. Walter Christaller : The Central Places of Southern Germany Tr. by C.W. Baskin, Englewood Cliffs N.J. Prentice Hall, 1966.

4. R.E. Dickinson : The West European City : A Geographical Interpretation. London : Routlege and Kegan, 2nd ed., 1964.

5. L. Holzher : "The Role of History and Tradition in the Urban Geography of W. Germany." Annals, AAG Vol. 60 (1970) pp. 315-39.

6. J.H. Johnson : Urban Geography : An Introductory Analysis. Elsmsford, N.Y. : Pergaman, 1967.

7. E. Jones : Towns and Cities, London, Oxford University Press, 1968.

٩ - الفصل العاشر :

1. M. Chisholm : Rural Settlement and Land Use. London: Hutchinson, 1962.

2. E. Davies : "The Pattern of Traashumance in Europe" Geography, Vol. 26 (1941), pp. 155-68.

3. G. Enyedi : "The Changing Face of Agriculture in Eastern Europe". Geographical Review. Vol. 57 (1967) pp. 358-72.

4. J. Murray : The First European Agriculture. Chicago. Aldine, 1970.

5. C.O. Sauer : Agricultural Origins and Dispersals, New York : American Geographical Society 1952.

6. J.R. Peet : "The Spatial Expansion of Commercial Agriculture in the 19th C. : A von Thunen Interpretation." Economic Geography, Vol. 45 (1969) pp. 283-301.

7. J.H. Von Thunen : Von Thunens Isolated State : Translated by Carla M. Wartenberg. Elms ford, N.Y. Pergaman, 1966.

8. S. Von Valkenburg : "An Evaluation of the Standard Land Use in Western Europe" Economci Geography, Vol. 36 (1960), pp. 283-95.

9. R. Trow Smith : Life from the Land : The Growth of Farming in W. Europe. Longman 1967.

١٠ - الفصل الحادى عشر:

1. Gunnar Alexanderson : Geography of Manufacturing, Englewood Cliffs, N.J. : Prentice Hall, 1967.

2. S.H. Beaver : "The Location of Industry", Geography, Vol. 20 (1935), pp. 191-96

3. R.C. Estall and K.O. Buchanan : Industrial Activity and Economic Geography. London : Hutchinson and Co., 2nd ed., 1966.

4. D.K. Fleming : "Coastal Steel Works in the Common Market Countries", Geographical Review. Vol. 57 (1967), pp. 48-72.

5. A.L. Rodgers : "Migration and Industrial Development: The Southern Italian Experience". Economic Geography Vol. 46 (1970), pp. 111-35.

6. D.M. Smith : Industrial Location : An Economic Geographical Analysis. New York, Wiley, 1971.

7. A. Zanberman : Industrial Progress in Poland, (Zechoslovakia and East Germany, 1937-1962. London : Oxford University Press, 1964.

١١ – الفصل الثاني عشر :

1. G.N. Minshull : The New Europe. London : Hodder and Stoughton, 1978.

2. E.E.C. Commission : Energy and Europe. Nov. 1972.

3. De La Mahofiere : Towards One Europe. Polican, 1970.

4. J.H. Paterson : Land, Work and Resources. Arnold 1973.

5. G.H. Franklin : The European Peasantry : The Final Phase. Methuen, 1969.

6. "The Future of European Agriculture". European Community. Oct. 1973.

7. G. Parker : The Logic of Unity. Longmans 1975.

8. K.A. Sinnhuber : "Central Europe. Mitteleuropa - Europe Centrale", Tran., Institute of British Geographyers, 20 (1954), pp. 15-40.

١٢ - الفصل الثالث عشر والخاتمة :

1. K. Allen and M.C. McClennan : Regional Problems and Policies in Italy and France. Allen and Unwin, 1970.

2. A. Borschette : "A Fair Share for all Regions : Flexible approach to regional Policy." European Community. Octo. 1971.

3. E.E.C. Commission First Annual Report on the European Regional Developement Fund. June, 1976

4. E.E.C. Commission : Report on the Regional Problems in the Enlarged Community. COM. Vol.(73) 550. Brussels May 1976.

5. D.J. Sonclair : "The EECO Plans to feed her poor". Geographical Magazine, Sept. 1973

6. A.B. Mountjoy : The Mazzogiorno. Oxford Uni. Press 1973.

7. "Europes Peripheral Regions." European Studies No.13, 1972.

8. S. Barazanti : The Underdeveloped Areas within the Common Market. Princeton University Press, 1960.

9. N.M. Hansen : French Regional Planning. Edinburgh University Press, 1968.

10. D. Burtenshaw : Economic Geography of W. Germany Macmillan, 1974

11. H.D. Clout (ed.) Regional Development in W. Europe. Wiley, 1975.

12. G.R. Denton : Economic Integration in Europe. Weidenfield and Nicholson, 1969.

13. R.C. Riley and G.J. Ashworth. Benelux. Chatto and Windus, 1975.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

شهد علم الجغرافيا فى الآونة الأخيرة ، وما زال يشهد ، تغييرات وتطورات فى مجال تخصصه وخاصة فى أسلوب وطريقة معالجة كثير من موضوعاته المتعددة الجوانب . ويتمثل أحد هذه الاتجاهات الحديثة فى مجال الجغرافيا فى تلك النزعة عند كثير من العلماء فى إعادة النظر فى الأسلوب التقليدى المتبع فى الدراسات الجغرافية الإقليمية والتركيز أكثر على الطريقة الموضوعية أو الأصولية Topical or Systematic فى معالجة الجغرافيات الإقليمية . وفعلا فان هذا الاتجاه قد شهد ارتفاعا ملحوظا فى شعبية الطريقة الموضوعية فى مجالى البحث والتدريس . فالمشكلة الرئيسية فى مقررات الجغرافية الإقليمية التقليدية تكمن ليس فى أنها تهتم بالأقاليم وأقسامها الجزئية بل الأحرى فى الطريقة التى تقسم بها المعلومات الجغرافية الخاصة بتلك الأقاليم . فالأسلوب المتبع من قبل الجغرافيين الذين يكتبون أو يقومون بتدريس هذه الكتب الجغرافية هو تقسيم المواد مرة أخرى على مناطق أصغر Subregions وهكذا . وفى الحقيقة أن أوربا قارة مجزءة الى مجموعة أقاليم متفاوتة الأحجام والرتب والأهمية . والكتب الجغرافية التى تتناول جغرافيتها تعكس هذه التقسيمات متخذة الحدود السياسية كأساس لهذه التقسيمات الإقليمية . ورغم ما لهذه الحدود من أهمية فليس معنى ذلك أن تتخذ هذه الحدود أساسا لدراسة جغرافية شاملة للقارة ، كما أن توزيع ظاهرات جغرافية مثل أنواع الزراعة والسكان والمناخ واللغات وغيرها لا يوفى حقها من الأهمية فى مثل هذه الدراسات . ويتخذ بعض الجغرافيين التضاريس كأساس لتحديد أقاليمهم الجغرافية ، ونظرا لأن اهتمام الجغرافى يتركز أو ينصب على سكان القارة وشعوبها ، فليس هناك مبرر لإسباغ أهمية كبيرة على البيئة الطبيعية . فالمشكلة فى رأيى تكمن فى قرار إعادة تقسيم المادة الجغرافية وفق حدود سياسية أو طبيعية : فإن بعض الانتقادات الرئيسية الموجهة ضد منهج الجغرافية الأقليمية التقليدية هى أنه يميل كثيرا إلى الوصف المحض ويخلو من تصنيف المشكلات

وتفسير الاختلافات والتباينات المكانية وإبرازها بصورة واضحة متناسقه . ولكى نفهم قارة مثل أوربا فهما صحيحا فلابد أن ندرس جغرافيتها ليس قطرا قطرا كما عودتنا كتب الجغرافية الإقليمية بل ندرسها ككتلة ذات أبعاد قارية تنشد الوحدة وتسعى لتحقيقها فى اطار التنوع البيئى الذى تتميز به .

وقد اقتنعت من خلال تجربتى فى تدريس جغرافية أوربا لفترة تناهز الخمس سنوات أن تنظيم مقررات الجغرافية الإقليمية على أساس موضوعى أجدى من الطريقة التقليدية ، وهذا هو الأسلوب المتبع فى هذا الكتاب كما تكشف عناوين فصوله التى تقوم على تقسيم المواد موضوعا موضوعا بدلا من إقليم وإقليم ثم إقليم أصغر إلى آخر أصغر منه وهكذا . لأن هذا الأسلوب فى رأيى يسهل الملاحظة والتفسير التحليلى للاختلافات المكانية فى أوربا ككل : هذه الاختلافات التى تحجبها الدراسات الإقليمية التقليدية . فإن فحص ودراسة التوزيعات المكانية المختلفة موضوعا موضوعا قد يساعد الطالب فى فهم واستيعاب السؤال الجغرافى الهام : لماذا ؟ .

لا أريد أن يفهم من سياق كلامى هذا أن الأسلوب الإقليمى والموضوعى يتعارضان ، فالحقيقة أن وضع مادة فى إطار موضوعى يؤدى منطقيا الى دراسات اقليمية على مستوى ثانوى ، فإن فصلا عن الجغرافية السياسية لابد وأن يرعى بالاقاليم السياسية أى « الأمم » ، كما أن فصلا عن الجغرافية الزراعية لابد وأن يهتم بالاقاليم الزراعية وهكذا . ولكن هذا الكتاب يختلف فى تنظيمه الموضوعى للفصول عن الكتب الإقليمية الأخرى : فارتباطه بالجغرافية الإقليمية يظهر فى تخصصه فى جغرافية أوربا كما يتجلى أيضا من خلال دراسة الخصائص الإقليمية لمواضيع جغرافية عديدة . فالتنظيم على أساس موضوعى يتيح إسباغ أهمية بعلاقات السبب والنتيجة أكثر من الكتب التقليدية التى تتناول جغرافية أوربا : فمن النادر أن نجد فى مثل هذه الكتب دراسات عن مواضيع مثل نظرية فون ثونن عن النطاقات الزراعية وتوزيعها ونظرية الموضع المركزى لكريستالر أو العوامل التى تتحكم فى توزيع الصناعات أو العوامل السببية فى الجغرافية السياسية . فالدارس يشعر بجدية وأهمية مثل هذه

الدراسات وخاصة إذا أردنا أن نعطى للطالب شيئا أكثر من مجرد موسوعة للحقائق الجغرافية عن قارة أوربا .

يلاحظ القارىء أيضا أن هناك منحى تاريخيا فى هذه الدراسة . فهذا الاهتمام بالناحية التطورية للعناصر الجغرافية المختلفة ينبثق من الحقيقة أن أنواع اللاندسكيب الأوروبى وأنماطه والتى تعكس أثر الإنسان الأوروبى عبر القرون ، هى محصلة التغييرات التى طرأت فى استجابة هذا الإنسان وتكيفه لهذه البيئة الطبيعية خلال الزمن . فالمدخل التاريخى مفيد ليس فى تقدير وتقييم الأنماط المكانية المعاصرة فحسب بل قد يساعد فى فهم واستدراك ما يمكن أن تؤول اليه الأحوال مستقبلا . ففى أوروبا يرتبط التاريخ والجغرافيا ارتباطا وثيقا إلى درجة أن كثيرا من الظاهرات الجغرافية الحالية لا يمكن تفسيرها وفهمها فهما صحيحا إلا بالرجوع إلى الماضى .

وملاحظة أخرى تتعلق بالاتحاد السوفيتى : فهذه الدولة المترامية الاطراف قد أصبحت متميزة وذات كيان مستقل فى وضعها الدولى بحيث اننا لا نستطيع التمييز بين «روسيا الأوربية» و «روسيا الأسيوية» . ولذلك أغفلت من دراسة عامة للقارة الأوروبية إلا من إشارات عابرة فيما يتعلق بعلاقاتها مع دول أوروبا الشرقية من خلال منظمة الكوميكون . وفضلا عن ذلك فإن الجامعات تخصص الآن مقررا مفصلا عن الاتحاد السوفيتى . كما أن الكاتب والدارس لا يستطيعان أن يوفيا حقها فى كتاب عام عن جغرافية أوروبا .

يقع الكتاب فى أربعة عشر فصلا ، تتناول الفصول الأربعة الأولى موضوعات عن كيف نشأت فكرة قارية أوروبا ثم عناصر البيئة الطبيعية من جيولوجيا وتضاريس ومناخ ونباتات وتربات . أما الفصول الباقية فتتناول عناصر الجغرافية البشرية المختلفة من سكان وزراعة وصناعة وأنماط الاستيطان الريفى والحضرى وجغرافية اللغة والأديان فى أوروبا وأثرهما على اللاندسكيب الحالى . وهناك فصلان آخران يتطرقان إلى الاتجاهات الحديثة فى جغرافية أوروبا الاقتصادية والتغييرات التى يحدث فيها ثم المشكلة الإقليمية فى دول السوق الأوروبية المشتركة والوسائل المطروحة لحلها . وأخيرا تتناول الخاتمة بعض التغييرات والاتجاهات المحتملة فى جغرافية أوروبا

فى القرن القادم . ويحتوى الكتاب على عدد كبير من الخرائط التوضيحية والأشكال على عكس كثير من الكتب الأخرى التى تفتقر الى مثل هذه الخرائط .

أما معلومات الكتاب فتعتمد أساسا على عدد من الكتب والمقالات الإنجليزية أثبت معظمها فى نهاية الكتاب ، وقد حاولت تنظيم هذه المعلومات على أساس موضوعى كما شرحت من قليل : فأتمنى أن أكون قد وفقت فى ذلك كما أتمنى أن ينال الكتاب رضاء القارىء الكريم .

ولا يفوتنى فى هذا المجال أن أتقدم بالشكر للقائمين على أمر مركز البحوث بكلية الآداب على ما قدمه المركز وأسهم فيه فى نفقات نسخ مسودة الكتاب وإعداد خرائطه .

الرياض ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م

حسن عبدالعزيز احمد

رقم الإيداع ٨٢/٥٠٤٩

مطبعة نهضة مصر